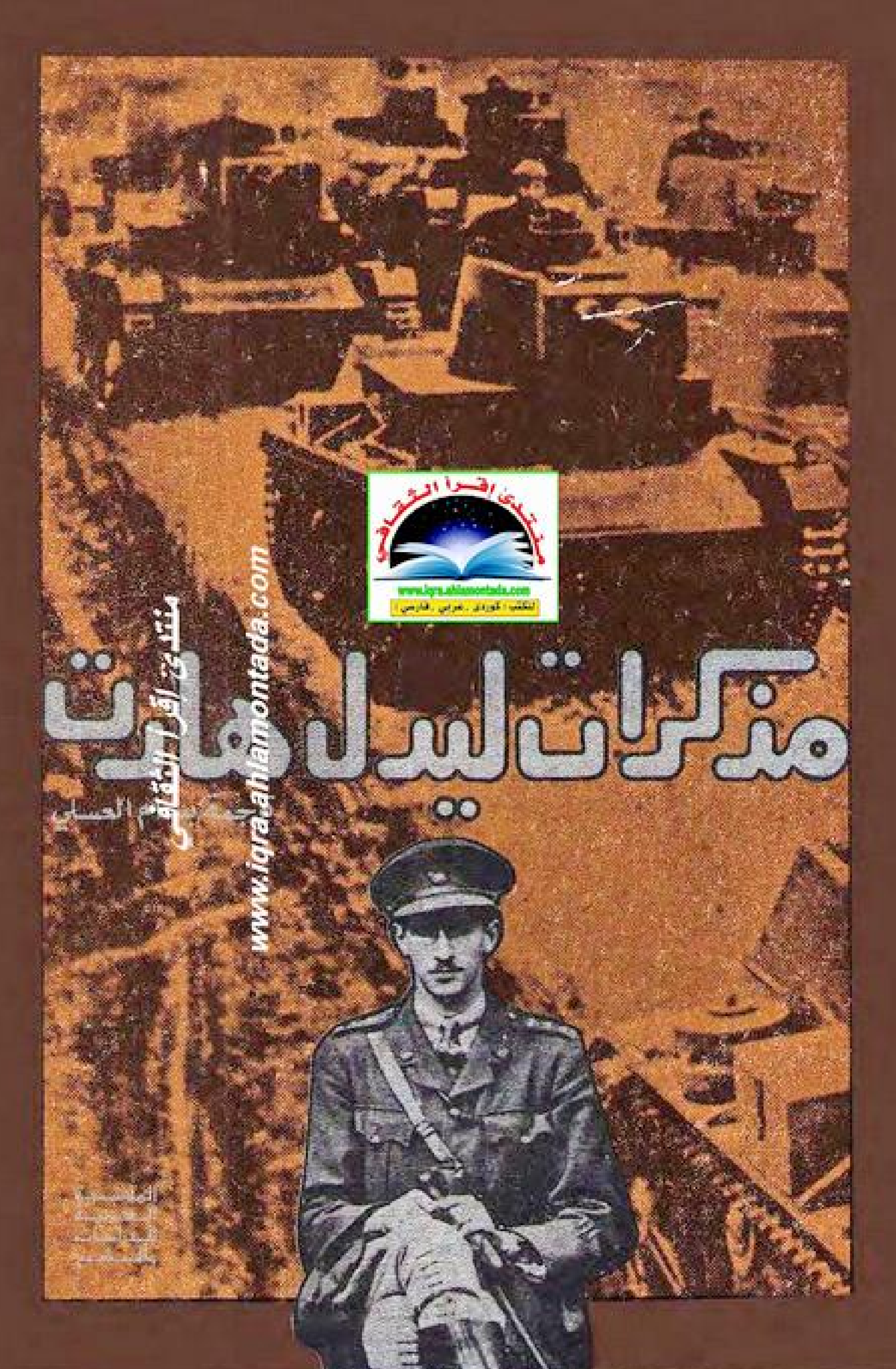

مذكرات ليدل هارت


منتدى إقراء الثقافي

مذكرات ليدل هارت

مذكرات ليدل هارت

ترجمة : بسام العسلي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى

آب (اغسطس) ١٩٧٨

الاهداء

تشكل مقدمة الكتاب ، « اهداء » في حد ذاتها ، ذلك أن المذكرات هي تسجيل للصداقات في اكثر لحظاتهـا السعيدة ، وقد حالفني الحظ جـداً من هذه الناحية ، وأرغب هنا التعبير عن تقديري الكبير لعدد من الأصدقاء اكثرهم من جيل الشباب ، إذ أنهم منحوني بسخاء وقتهم وخبرتهم لقراءة المسودة والنسخ الاولى من الكتـاب ، وقـد لازمني الصديق جون بروني معظم الوقت وعمل الى جانبه ايضاً ج . ر . آتكينسون وبريان بوند واللواء ر . م . ب . كارفر وجون كونيل ود . م . رانين وقسطنطين فيتز جيبون والاستاذ نورمان جيبس والاستاذان ميشيل هوارد والنقيب ر . ج . اونيل وباري بيت . واللواء جون ستيفنسون و . ر . و . تومسون والدكتور م . ج . ويليامس .

لقد انصرفت في « كنيث باركر » من مقاطعة كاسيل للعمل في المذكرات على نحو ما كنت قد فعلته عند اعداد تاريخي مع « الدبابات » ومعي أفضل الناشرين واكثرهم معرفة وأقواهم حافزاً ، وقد عملت معه بشكل رائـع . كما أنني مدين إلى حد بعيد للامنـاء « السكرتاريين » خلال هذه الفترة ، ومنهم دافني بوزانكيت ، وادنا روبينسون لقاء ما قدموه من مساعدة في طبع النسخ المتتالية من « المسودات » وكذلك لما تميزوا به من صبر في فترة زمنية كان فيها ضغط العمل كبيراً . وأريد فوق كل شيء التعبير مرة اخـرى عن الشعور الذي أحمله لزوجتي كاتلين ، لفضلها الكبير ومساعدتها الضخمة ولاقتراحاتها وانتقاداتها ، ثم للطريقة التي اتبعتها في البحث بين كتلة الوثائق الكبرى في مصنفاتها ـ وبكلمة اخرى ـ انه لولا جهودها لما أمكن انجاز هذا الكتاب .

ستيت هاوس
ميد مينهام
شباط (فبراير) ١٩٦٥
ب . هـ . ل . هـ .

مقدمة

ليدل هارت ، أعظم الكتاب العسكريين في القرن العشرين على الاطلاق . وأغزرهم انتاجاً وأعمقهم فكراً . كان له دوره الكبير في تطوير حرب الحركة . وقد رافق تطور الأسلحة الحديثة ، وشهد نتائج استخدامها ووقف محللاً لأحداثها ، متوقعاً تطوراتها ، لا في المجال التكتيكي والعملياتي فقط وانما تجاوزها الى افق الاستراتيجية الرحب .

ان من يطالع مذكرات « ليدل هارت » يشعر يقيناً بأنه يتابع تطورات الحروب ـ لا في القرن العشرين فقط ، وانما يشعر وكأنه يطالع (فن الحرب عبر العصور) فهو ينظر الى الامور من خلال المنظار (الموسوعي) الشامل ولكن هذا الشمول لا يتجاوز الدقائق وانما يقف فوقها باحثاً ، ومنقباً ، ومستنبطاً ولعل ذلك هو اكثر ما يميز هذه المذكرات .

لكن رغم ذلك فهناك كثير من النقاط التي لا بد من التعرض لها . فقد اعتمد ليدل هارت في تكوين نظريته عن (حرب الحركة) على اسلوب المغول (التتار) واعتبرهم سادة حرب الحركة . ولكن التتار في الواقع لم يفعلوا اكثر من تقليد العرب المسلمين في تطبيق مبادىء الحرب . فقد جاء التتار الى « عالم فن الحرب » في القرن الخامس عشر في حين ثبت العرب المسلمون اقدامهم في هذا العالم قبل التتار باكثر من ستة قرون . وعلاوة على ذلك فقد تميزت حرب الحركة عند العرب المسلمين بالخصائص التالية :

١ ـ لقد مارس العرب المسلمون « حرب الحركة » على امتداد سبعة قرون تقريباً . فتكونت لديهم خبرة عميقة باساليب هذه الحرب وطرائقها على المستويات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية في حين اقتصر فن الحرب عند التتار على هجمة كبيرة قادها هولاكو وخلفاؤه . ولم تستمر هذه الهجمة لمدة تزيد على نصف قرن منذ انطلاقتها في اعماق آسيا وحتى وصولها الى فلسطين .

٢ ـ لقد مارس العرب المسلمون حرب الحركة في البر والبحر فكانت استراتيجيتهم قارية ـ بحرية في وقت واحد . وقد طبقوا هذه الاستراتيجية في المحيط الهندي وفي المحيط الأطلسي (اثناء حكم المسلمين للاندلس) بالاضافة الى تحويلهم للبحر الأبيض المتوسط وجعله (بحيرة عربية) في حين اقتصرتِ استراتيجية التتار على (العمليات البرية ـ القارية)ومن هنا فقد كانت حرب الحركة عند العرب المسلمين اكثر شمولاً ، واكثر تطوراً .

٣ ـ لقد كانت حرب الحركة عند التتار مرتبطة باسماء قادة محدودين « جنكيزخان ، هولاكو » . ثم ماتت اساليب هذه الحرب وطرائقها بموتهم ، في حين ارتبطت حركة المسلمين في حروبهم بعقيدة القتال الاسلامية . وهي العقيدة التي نتجت عن تفاعل عوامل كثيرة ابرزها (وجود عقيدة دينيه تحض على القتال ونشر الدعوة ـ ووجود طبقة قيادية واسعه قد يصعب حصرها ثم توفر قاعدة من المقاتلين لم تعرف الدنيا مثيلاً لهم في اخلاصهم وايمانهم) ومن هنا فقد أخذت حرب الحركة عند العرب المسلمين مضامين انسانية خيرة ومضامين اجتماعية تقدمية ، وبذلك حققت من النجاح ما عجزت عن تحقيقه حروب التتار التي لم تتميز الا بالوحشية والتدمير ، ولم تترك للانسانية ما يمكن الاعتزاز به .

وعلى هذا يمكن القول دون مبالغة ان العرب المسلمين ـ دون سواهم على الاطلاق ـ هم سادة الدنيا في حرب الحركة . ولعل قصور المراجع وعدم توفرها مترجمة بين يدي ليدل هارت هي في جملة الأسباب التي أبعدته عن الرؤ ية الصحيحة للامور والافادة من هذا الكنز التاريخي الثمين الذي تركه العرب المسلمون .

يمكن الانتقال بعد ذلك إلى نقاط اخرى مما تضمنته المذكرات ، ولعل ابرزها اسلوبه في نقد القيادات البريطانية . فهو إذ ينتقد انما يفعل ذلك من خلال نظرته لمصلحة بلاده (بريطانيا العظمى) ، وهو مشبع بروح العصر الذي يعيشه ، عصر الامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس . وقد يذهل القارىء عند ادراكه لما كانت عليه من ضعف ، ثم كيف استطاعت استثمار دول العالم كلها . ويشعر القارىء من خلال مطالعة المذكرات اسباب انهيار تلك الامبراطورية وتمزقها . ولعل في طليعة الدروس المستفادة هي (المحافظة على التعادل بين القوة وبين الفكر الاستراتيجي)

وبعد ، فاذا كان ليدل هارت يتوجه بالشكر الى دار النشر البريطانية التي ضمنت وصول كتابه الى القراء ، فان دار النشر العربية تستحق اكثر من كلمات الشكر لاغنائها المكتبة العربية بتقديم كل ما هو ممتع ومفيد .

بسام العسلي .

مقدمة

الميل (الاهتمام)

جلسنا الى مائدة العشاء ، منذ سنوات خلت ، وذلك بعد محاضرة كنت قد ألقيتها في جامعة لندن ، وأصابني الذهول عندما وقف انسان له شهرتـه في عالـم السياسـة ، (وكان استاذاً سابقاً للفلسفة في جامعة اكسفورد) هو ريتشارد كروسمان ، وقف ليقول (بأنه يعتقد في أن طبيعـة عملي هي من اكثر الاعمال متعة وفائدة وارضاء للذات من بين كل ما عرفه من أنماط الحياة المختلفة) . وأجبت بأن مثل وجهة النظر هذه تكاد تتوافق مع الفصل الذي تضمنه كتابه « سحر السياسات » تحت عنوان ما أطلق عليه (القضية الغريبة لليدل هارت) .ولكن يخيل إلي ، رغم ذلك ، بأنني فشلت في تحقيق أهدافي الرئيسية . إذ أنني كنت في كل مرة أكاد أصل إلى التعيين في مركز أطمح إليه جداً ، ثم إذا بالفرصـة تفوتني وتضيع مني إلى الأبد .

وأجاب ديك كروسمان على هذه النقطة : (بانه على الرغم من الفشل الظاهري الذي استشعره إلا أنني كنت أنتقل من نجاح الى نجاح باستمرار خلال المسيرة الطويلة ، عن طريق ما كان يتم تبنيه من أفكاري ، حتى لو لم يتم تبني هذه الافكار في وطني . وقد نسب هذه الظاهرة ، في قسم كبير منها إلى الاصطلاح الذي أطلقه وهو (طريقة الكتابة دون النظر الى النتائج) وكذلك البحث عن الحقيقة ومتابعتها ثم التعبير عنهـا بحسـب ظهورها دون أي اعتبار للنتيجة ودون خوف من عقابيلها ، سواء من الناحية الشخصية أو من نواح أخرى . وعلى هذا فقد أصبح انتاجي بكامله ، عبر المسيرة الخطرة مجد قضية (القاء الخبز بالماء)[1] وأشار إلى أن ذلك هو الذي ضمن لي القدرة على الاستمـرار في البحث عن الحقيقة ثم تسجيلها بروح مستقلة عن جميع العوامل المؤثرة . وهذا أمر لا يستطيع الاضطلاع به أي فرد يعمل في قطاع السياسة . وقال بأن ذلك في حد ذاته هو

---

١) ترجمة اصطلاح CASPING YOUR BREAD UPON THE WATER وأصله من الانجيل . ويعني عمل الخير دون توقع الثواب . او البحث عن الحقيقة بصرف النظر عن النتائج . (المترجم)

مصدر المتعة الكبرى ، وسر السعادة التي لا تعادلها أية بهجة أخرى . وذلك بصرف النظر عن كل انواع الاحباط التي جابهتها ومهما كانت طبيعتها . وعاد الى التذكير بقول الحكيم أرسطو (في أن السعادة ما هي الا الفاعلية لأفضل ما هو موجود فينا . وأن هذه الفاعلية أو القدرة هي في التأمل والمحافظة على الذهن في حالة من الاستعداد الكامل لمتابعة الحقيقة والفاعلية التامة للعمل من أجلها) .

وهكذا ، ربما كانت حياتي اكثر متعة وبهجة مما كنت أدركه بسبب شعوري بالنقمة أو الغضب لعدم نجاحي في حملهم هنا (في انكلترا) على قبول أفكاري لا سيما وأنا أراهم جميعا وهم يستوردون أفكارهم (في كثير من الاحيان) من الخارج مع علمي بان هذه الافكار المستوردة هي في غير صالح البلد الذي أحاول خدمته . ولم البث أن أصبحت - تدريجيا - وانا اكثر اغراقاً في الفلسفة حول هذه النقطة . وقد جاء تعليق كروسمان لمساعدتي حتى اكون اكثر يقظة للاستمتاع بالجانب البهيج من عملي .

لعل هناك نوع من الأصالة التي تتوفر لي بصورة مستقلة عن وجهة النظر أو العاطفة فانا مقيد عن طريق الوراثة بقيود معينة تعود بي لفرعين من فروع عائلتي . كما ان هناك روابط تشدني الى بلدين متجاورين ، وعلاوة على ذلك ، فقد حدث أن ولدت في باريس ، وبقيت وفقاً للقانون الافرنسي وأنا أحمل جنسية مزدوجة حتى بلغت من العمر ٢١ عاماً .

ينحدر أصل عائلة ليدل من اسكتلندا ، حيث يوجد في جزء من ليد سدال واد يحمل اسم ليدل ، وهو يصل بين ما كان يعرف باسم (الأرض المتنازع عليها) حتى عام ١٥٥٢ ، وتذكر الكتب القديمة أن سكان هذا الوادي لم يكونوا في العصور الوسطى يحملون شيئا من الولاء لا للاسكتلنديين ولا لملك انكترا ، مما جعلهم في صراع متصل مع هذه الاقطاعات او تلك للمحافظة على استقلالهم .

انتقل أجدادي الأوائل في القرن الثامن عشر الى كورنويل ، حيث استقروا في أرض ربما كانت تزيد على الأولى في أصالتها وتطلعاتها ، حتى أن كلمة عبور تامار[٢] انما كانت تعني تجاوز الحدود . وهنا أسس جدي « جيمس ليدل » في بودمان أول دار للطباعة في هذا الجزء من الاقليم لاصدار صحيفة أصبحت تعرف فيما بعد باسم (مجلة كورنويل الملكية) . وكان يعمل من خلال هذه الصحيفة مع ابنه لمتابعة معارك الاصلاح في عدد من

٢) نهر تامار . R. TAMAR جنوب غرب الجزيرة البريطانية ، يصب في بلايموث (المترجم)

الاتجاهات الصحية والتعليمية والخدمات الخاصة بالنقل وتدابير الوقاية ضد الحريق ووسائل نقل القدرة الكهربائية . وقد دخل ولدان من أولاده سلاح البحرية ، في حين جاء واحد من أحفاده (هو ويليام هنري) ليكون من رواد تطوير مدفعية البحرية والمتفجرات والنسائف (الطوربيدات) وكانت حماسته للسلاح الجديد سببا في اكتساب مخترعاته لقب (نسائف ليدل) . وكان يتبعه عن قرب في هذه المجالات شريك له يسمى (جاكي فيشر) الذي أصبح فيما بعد الأميرال اللورد فيشر والذي انحدر ايضا من عائلة في بودمان . ثم جاء والد جدي وإخوته فزجوا بأنفسهم في أقدم معركة من بواكير معارك التقدم ، واضطلعوا فيها بدور ايجابي . وكانت هذه المعركة موجهة لانشاء الخط الحديدي في بودمان ووايد بريدج . وهو الخط الذي تم افتتاحه في ٤ تموز (يوليو) ١٨٣٤ وكان هذا هو الخط الحديدي الأول في غرب انكلترا ، وواحد من أقدم خطوط الاقليم بكامله . وقد مضى على ذلك قرن من الزمن تقريبا عندما عثرت على مجلد فيه قصاصات صحف لمقالات تدعم الحجج والبراهين التي كان والد جدي قد رفعها لدعم قضية انشاء الخطوط الحديدية . وربما كان من المفارقات المذهلة والمضحكة معاً انني كنت في حينها أدفع بالحجج والبراهين لدعم قضية الجيش الالي (الميكانيكي) وكانت تلك الحجج مشابهة لهذه التي استخدمتها للدفاع عن قضية القوات الالية .

هناك ليدل آخر هو لورد فنسوورث الذي كان واحداً من زعماء الأنصار السياسيين الرئيسيين عند بداية تنظيم الخطوط الأولى وهي (ستوكتون ، و - دارلنغتون) واليه ينسب القول المعروف (لقد قضي على المجنون وأمواله) وهو قول برهنت الأحداث على أنه غير صحيح . اذ قد تكون هناك ثمة علاقة بين مغامرة الرجلين وبين العمل الذي اضطلع به عمهم ليدل مع كورنويل ، حيث أصبح عضوا في البرلمان عن لوستويفل في عام ١٧١٥ ، ونجح في مشروع اقامة خطين حديديين لوصل المناجم مع الاماكن التي يتم فيها شحن انتاج هذه المناجم .

كان الطول الكامل لخط حديد بودمان - و - وايدبريدج هو ١٥ ميلاً بما في ذلك فرعين قصيرين . وقد تم تبني ما أصبح يعرف بالخطوط (للقاطرات) ذات المقياس المحدد « ستاندرد » (وهو ٤ أقدام و ٨,٥ انش) وفي عام ١٨٤٥ ، حصلت شركة لندن والجنوب الغربي للخطوط الحديدية على عقد ايجار للخط ، ثم اشترته بعد ذلك بموجب مزاودة لاحتكاره من قبل شركة الغرب الكبرى التي أخذت في فرض هيمنتها على شمال كورنويل.وفي عام ١٨٥٠ تم تعيين جدي كمعاون للمدير المسؤ ول عن الخط(وكان جدي في حينها صغير السن وفي مقتبل العمر) ورغم حداثة سنه فقد استطاع خلال السنوات

التالية تطوير العمل عن طريق تحويل مديريات الخطوط الحديدية في واترلو . وأصبح عند ذلك المدير المساعد للمدير العام الجديد « أرشيبالد ـ سكوت » . وقد استمر على هذا النحو ومعه اثنين من المساعدين . وعندما احيل على التقاعد في عام ١٨٩٨ ، كان قد أمضى كشريك في تطوير الخطوط الحديدية زهاء نصف قرن . واستطاع خلال هذه المدة زيادة طول الخطوط الى اربعة أضعاف ما كانت عليه حتى وصلت إلى ألف ميل تقريباً .

وكان من اكثر انجازاته أهمية التخطيط لأرصفة ساوثهامبتون ، وتطوير ذلك الميناء الصغير حتى أصبح منافساً لميناء ليفربول من حيث قدرته على تأمين نقل المسافرين عبر الأطلسي :

كان أفراد عائلته هم المستفيدون بصورة رئيسية من مركزه كمساعد للمدير العام . إذ كنا نستمتع بالسفر مجاناً وبالدرجة الأولى . كما أن هذه الفائدة لم تقتصر على الخطين الحديدين (بودمان ـو ـ وايدبريدج) ، ولكنها تجاوزتها حتى شملت جميع السفرات على الخطوط الحديديةداخل انكلترا وخارجها . وتعودنا الذهاب الى كورنويل في كل صيف (جميعا وبالجملة) حيث كانت تخصص لنا عربة مستقلة يتم الحاقها (بعد ترتيبات خاصة) بقاطرة تصل بنا في المرحلة الأخيرة من الرحلة ما بين بلايموث ونيوكوي . كما كنا نسافر في حالات خاصة من وايدبريدج الى نيوكوي[٣] بواسطة عربة تجرها أربعة جياد (مع زوج من الخيول الاضافية للتغلب على مرتفعات التلال في منتصف الطريق) وذلك على نفقة ادارة الخطوط الحديدية . وقد استمر ذلك حتى عام ١٩١٤ .

كنا نحمل قدراً كبيراً من الاخلاص الى كورنويل وحافظنا على تلك الصلة الوثيقة جداً بجدتنا « هارت » التي كانت تهيمن على العائلة . وكان ذلك يفرض علينا القيام ببعض الزيارات البعيدة الى ناحية هارت حيث تقيم العائلة . مع الانتقال عبر سيفيرن غلاوسستر شاير ، وهيرفورد شاير القريبة من حدود ويلش . وكانت عائلة هارت تنتشر على امتداد المنطقة بين نيونت ونيونهام ـ اون ـ سيفيرن . وخلال تلك الفترة كان هؤلاء يعملون في ممتلكاتهم الصغيرة . أما الشبان من أبناء الأجيال المتعاقبة فكانوا ينطلقون الى ما وراء البحار بحثاً عن آفاق أوسع تضمن لهم فرصاً أفضل . وكانت خلفية العائلة أو أرضيتها أذا صح التعبير ـ خالية من الأحداث تقريبا . شأنها في ذلك شأن القسم الأكبر من العائلات ذات الجذور العميقة المرتبطة بالأرض ، والتي تهتدي ببريق التقاليد

---

٣) نيوكوي ـNEWQUAY مدينة سياحية يقصدها المصطافون وتقع في الجنوب الغربي من الجزيرة البريطانية ـ على المحيط الأطلسي . (المترجم) .

المنحدرة من أخت شكسبير (جوان هارت) . وقد كان هناك يقيناً نوع من الحساسية المبدعة ، ونوع من الخيال المتوارث في أفراد العائلة مما كان يتميز عند الاكثرية في موضوع الخبرة لاعطاء الاحكام بشأن الخيول والجياد عند مربي السوائم . وهو ما يميز أيضا الظاهرة التي ينفرد بها أفراد عائلة ليدل في استخدام خيالهم لابداع التطورات العملية .

كانت هناك قناعات دينية قوية مشتركة بين افراد العائلتين للأجداد (ليدل ـ و ـ هارت) مع استعداد للتحديات الرقيقة التي تترك مجالاً للتفاهم والاتفاق . وعلى هذا الأساس اشترك عدد من أفراد العائلتين في دعم جهود جون ويسلي لتجديد الكنيسة الانكليزية واصلاحها . وانفصل عدد منهم عن الكنيسة يوم أصبحت الحركة الميثودية[٤] هي حركة الكنيسة وظهرت منذ تلك الفترة قناعاتهم المشتركة بصورة قوية مع روح نادرة للتساهل والتسامح .

كان الطابع المميز لوالدي بصورة خاصة هو في تلك الحرية بعدم الالتزام بالاحكام المسبقة أو التعصب السلفي ـ الديني منه وغير الديني . ولهذا فقد تأثر بكل ما كان قد سمعه عن جون ويلسي أو قرأه عنه . وأرسل توصية بذلك الى الوزارة ولم تمض على ذلك سوى أربع سنوات حتى تم تكليفة باعباء كنيسة « تافيتسوك » فاندفع للعمل بحماسة كبيرة ، ووجد خلال عمله أن التعصب الضيق أمر يتناقض مع نوازعه واتجاهاته ، وكان أن أصبح على اتصال أخوي وثيق مع الكاهن المحلي ومع راعي الأبرشية وقرر العودة الى الكنيسة الانكليزية . وأصبح راع لكنيسة ديفون ، وفي الوقت ذاته عرض عليه رعاية كنيسة في بولوني سير ـ مير[٥] خارج انكلترا ،والتي كانت قائمة من الأيام الأولى لظهور حركة ويسلي . وتتبع فيها الطقوس الإنجليكية ، ثم تعاقب على رعايتها رجال من كل الطوائف . وكانت هذه الفرصة الكبرى للخدمة ذات جاذبية قوية له فقرر قبول العرض . وبعد ذلك بأربعة أعوام وجهت لوالدي دعوة للاضطلاع بواجب مشابه ولكن في كنيسة اكبر تقع في مدينة باريس . وانتقل الى العاصمة الافرنسية في عام ١٨٨٧ وذلك بعد زواجه مباشرة حيث أقام هناك لمدة ١٤ عاماً . وطور كنيسته ليجعل منها مركزاً يستقطب اليه أصحاب الفاعليات الدينية والنشاطات الاجتماعية . ولم تقتصر خدماته على العدد الكبير جداً من المستوطنين البريطانيين في باريس وانما شملت ايضاً الأمريكيين

---

٤)) الميثودية : METHODIST هي الحركة المنهجية التي قادها في اكسفورد عام ١٧٢٩ تشارلز وجون ويسلي محاولين فيها احياء الكنيسة الانكليزية ويطلق على اتباع هذه الحركة اسم الاصلاحيين او والميثوديين(المترجم) .

٥) بولوني ـ سير ـ ميرBOULOGNE-SUR-MER مدينة صغيرة في بادوكاليه ـ شمال فرنسا . وهي ميناء للصيد على بحر المانش (المترجم) .

والافرنسيين من البروتستانتيين . ولقد لقي في مجال إنجازه لهذا الهدف دعماً كبيراً من اتجاهات كثيرة وبصورة خاصة من السيد روبرت كارميكائيل الذي كان عضواً قيادياً في المجمع الاكليركي . وهو نسيب (ابن حمو) العائلة كامبون حيث كان أحد أخوتهم يعمل سفيراً لفرنسا في لندن وأخ آخر سفيراً لبلاده في واشنطن . كما تلقى دعماً ايضاً من عم والدتي السير هنري أستن لي الذي أصبح قنصلاً للسفارة البريطانية في باريس . وقد فكر والداي ، بصورة خاصة في جعل المنزل وطناً للكثير من الشبيبة الذين يعيشون مؤقتاً في فرنسا ، ويعملون سواء في مدارس الفنون على الضفة اليسرى للسين ، أو يعملون على ترويض الخيول (جوكي) أو حتى مجرد عمال في الاسطبلات المنتشرة عند ناحية شانتيلي .

كان والدي يحتفظ بعدد من الرسائل القليلة بينها رسالة من مدرب شهير للخيول وفيها (لعل مما يبهجكم أن تعرفوا أنني قد ربحت الكأس الذهبي من ملك وورتمبرغ ، وأشكر ربنا لرعايته الرائعة في هذا النجاح) .وربما كانت هناك شهادة أفضل ، على كل حال ، تظهرها رسالة أخرى وفيها (انه منذ اعتناقة المذهب الديني ، ومنذ حضوره جلسات الوعظ والتوجيه ، فانه لم يعد في حاجة لسماع الاقتراحات أو النصائح لأنه أصبح يستطيع ركوب الخيل حتى النهاية ،حتى لو كان في ذلك خسارته) .

كان الميل الروحي العميق عند والدي متعادلا مع إحساسه بشخصيته ، وساعده ذلك على زيادة فاعلية في التقرب من الناس الذين يقابلهم مهما اختلفت أنواعهم أو طبائعهم . وكان يظهر لي احياناً وكأنه فقد الاحساس الناقد ، إذ كان كثيراً ما يجنح الى رؤية الأخطاء الفاضحة جداً بعين مغمضة . ولكنه كان واضحاً أيضاً في كثير من الأحيان وهو يتصرف بمواهبه ليحمل الناس على التصرف بطريقة أفضل وذلك باشعارهم انهم انما يسيرون على الطريق التي ستجعلهم أفضل . ولقد كان تعاطفه مع الأخرين يتجاوز كثيراً مجرد العون أو المؤاساة حيث كان تعاطفه علاجاً وبلسماً ، ومقوياً ومنشطاً ومثيراً بعد ذلك للابداع . وان تقويمي لميزاته وتقديري لصفاته قد تطور منذ عهد طويل . وذلك ما جعلني أنتقص من صفات والدتي التي كانت قاسية في توجيه ملاحظاتها ، وتنقصها الكياسة في اظهار الأخطاء ، مما كان يجعل رفقتها غير مريحة وغير ممتعة . وكان ذلك ، وما هو اكثر منه ، نتيجة لأنها كانت على حق في اكتشاف الأخطاء . ولكن ، وعن طريق استرجاع التأملات بصورة تدريجية فقط ، يصبح باستطاعة الانسان تقويم أهمية دقتها وعدم أخذها للامور بصورتها الشاملة ، ومثابرتها التي لا تقهر ، لا سيما إذا ما أمكن وضع مثل هذه المجموعة من الصفات في اطار مضمونها الواسع .

لقد ولدت بتاريخ ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٩٥[٦] بعد سبع سنوات من ولادة أخي حيث أصبحت الولد الوحيد الآخر في تلك الشقة التي شيدت فوق سطح الكنيسة والتي كانت ترتفع عن مستوى الشارع بمقدار ٩٢ درجة ، وكنت محظوظاً ، إذا تولت رعايتي مربية ملائكية هي ماري نيلد ، التي أصبحت أدين لها بالكثير في كل مجال ، وقد بقيت صديقة لي طوال ما بقي لها من سنوات العمر .

اقيم في باريس معرض كبير عام ١٩٠٠ ، وقد ترك هذا المعرض في نفسي أعمق الذكريات وأقواها ، وبصورة خاصة ذلك الرصيف المتحرك بسرعات ثلاثة والذي تم صنعه لنقل الزوار حول المعرض ، وكان اللغز الذي حيرني دائما هو عدم تطوير مثل هذه الوسيلة لاستخدامها في حل مشكلة ازدحام المرور في مراكز المدن الكبرى مثل لندن ونيويورك . أما الانطباع الثاني الذي سجلته ذاكرتي وحفظته فهو يعود الى زيارتين طويلتين قمنا بهما الى سويسرا في السنة التالية برفقة أهلنا ، حيث كان والدي قد قرر العودة الى لندن بعد ثمانية عشر عاماً من الخدمة الشاقة في باريس ، وأخذ قسط من الراحة في اجازاته السنوية قبل أن يستأنف نشاطه في انكلترا ، وكان محظوظا عندما حصل على دخل خاص صغير جعل أمر تحقيق الاجازة ممكناً.وقد أقمنا بين الزيارتين اللتين قمنا بهما الى سويسرا في فولكستون حيث بقيت أوضح ذكرياتي عن الجبهة الكاملة لبناء « تاون ـ هيل » وقد تجلل بالسواد حداداً على وفاة الملكة فيكتوريا . وكان ذلك بمثابة الصاعقة القاتلة التي سجلت نهاية ذلك العهد .

أقمنا بعد ذلك مباشرة في غيلد فورد من مقاطعة ساري (وهي ضاحية في جنوب لندن) وانتسبت هناك إلى مدرسة إعدادية تدعى « ايد جيورو » واكتشفت خلال هذه الفترة أن لدي ميلا للمطالعة ونهماً لقراءة القصص ومغامرات التاريخ . وظهرت من خلال ذلك حماستي للالعاب الخيالية المتنوعة (كالهنود الحمر ـو ـ القراصنة) وكان الالحاح المفضل هو الذي تتمثل فيه الحديقة باقليم للقبائل المتنافسة والمتصارعة ، حيث يمثل رجالها الأشجار الصغيرة . أو غيضة صغيرة من أشجار السرو تستطيع استيعاب عدد اكبر من الرجال ، وكلهم يتحرك في صراع لا نهاية له ما بين الأقبية وحتى الأرصفة المزروعة بالعشب . ومن المحتمل ان تكون قد نشأت فوق هذه الأرضية ذات المقياس المصغر ، الرغبة في استطلاع الأرض ، والاحساس بالممرات المغطاة أو المسقوفة ، حتى انني كنت أرغب ـ عندما العب كدليل أو كشاف أمام الجنود ـ ممارسة اللعب بطريقة « تكتيكية » قدر

---

٦) وقد تصادف ذلك مع اليوم الأخير لعمل دوق كامبريدج الذي كان قائدا أعلى للجيش البريطاني لمدة اربعين عاماً تقريباً . وكان يبلغ من العمر يوم أحيل على التقاعد ٧٦ عاماً .

المستطاع فأقوم بمناورة معهم اكثر من مجرد تنظيمهم أو القضاء عليهم بالنيران .

كانت الخرائط أيضا مجال ميولي واهتماماتي المبكرة ، لا سيما ما كان منها مصمما لابراز الخطوط الحديدية ، وكنت استطيع الحصول على دعم من عائلتي في هذا المجال . وكان لدي ولع ايضاً في تقسيم الخرائط الى اقاليم خيالية والى جزر وسهول وخطوط حديدية وأنهار وموانيء ، أو حتى تمديد خطوط حديدية ، أو تنظيم التقدم للحرب . وقد يكون من الغريب بالنسبة لي تطور ذلك الميل العسكري في نفسي ، واختيار العاب طفولتي لتكون تكتيكية جداً في تلك الفترة المبكرة . ولعل هناك احتمال قد ترك أثره وهو انني عندما كنت ابقى وحيداً في المنزل ، كان هناك ثمة رفيق مفضل لي وهو مجلد مصور كبير عن الحرب الافرنسية الألمانية عام ١٨٧٠ تضمه مكتبة والدي . وكان هذا المجلد يضم قصص القادة الألمان عن معاركهم ، وكان قد عمل على نشره واصداره السير فريدريك موريس ، كما كان هناك أثر ثابت وأكيد قد تركته في نفسي الحرب الروسية ـ اليابانية عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ حيث كنت اتابع مسيرة أحداثها باهتمام كبير من خلال التهام تقارير المراسلين الحربيين . وهكذا كبرت كثيراً في خيالي صور العالم ولعب الحرب خلال السنوات الثلاثة من إقامتي في مدرسة « ايدجبورو » وظهر أثر ذلك سواء في الأعمال أو اللعب المدرسية . وكان علي أن أضع هذه الخيالات في اطار التجربة المحدودة ، ولم يكن ذلك سيئا ، واني أتذكر هنا معركة حقيقية واحدة حدثت خلال اختباري الأول ، عملت فيها ضد صبي اسمه كارتون ڤيارت الذي أصبح فيما بعد في حرس المشاة ، وأخ لزوج القائد العام . وبعد هذه المعركة التي انتصرت فيها أصبح كارتون أقرب صديق لي في المدرسة .

انتقل أهلي إلى بوتني عندما بلغت الحادية عشرة من عمري ، وأرسلت الى مدرسة إعدادية تحمل اسم ويلينغتون ، وكان فيها عمي تريغور ليدل ، وكانت إدارة هذه المدرسة تقع على عاتق سيدتين الآنسة آدا والآنسة اني ـ هيل . وقد عملتا كالرجال في مساعدة السادة . إذ كانتا معلمتين معطاءتين مما جعل الوظائف والأعمال المدرسية تحظى باهتمامي للمرة الأولى . ولكن ذلك لا يعني أنني أظهرت ما يبشر بنبوغ مرتقب في مستقبل أكاديمي لا سيما وانني كنت بعيداً كل البعد عن التلاميذ الذين يحصلون على جوائز التفوق ومنهم موريس باورا الذي أصبح فيما بعد في طليعة المتفوقين . أما بالنسبة لي فقد كنت في طليعة الجميع بمواد التاريخ والجغرافيا واللغة الانكليزية ، إلا أن هذه الموضوعات لم تكن مما يعتمد عليه للحصول على مجموع يضاف الى اللاتينية أو اليونانية ، وهي كلها مما لا يساعد

على كسب الجوائز أو الحصول على الزمالة المدرسية في مدارس تلك الأيام .

لقد أصبحت بفضل المقياس الطبيعي لاهتماماتي الأخرى ، واحداً من أقدم الكشافة حتى قبل أن يعمل بادن باول على تكوين الكشافة وتنظيمها[٧] ثم ألهبتني الحماسة عندما قرأت كتاب (الكشافة الأولاد) فاندفعت مع مجموعة من الصبية لتشكيل وحدة من الكشافة في مدرستنا أمكن تجسيدها في تنظيم رسمي فور تكوين هذه التنظيميات . واشتركنا في العرض الأول للكشافة الذي نظمه الفيلد مارشال لورد روبرت .

بلغت الثالثة عشرة من العمر تقريباً في عام ١٩٠٩ ، وعندها ظهر اهتمامي الكبير بالطيران . ففي تلك الفترة بدقة اخذ التطور شكله عبر بطولات الأبطال رايت واتباعهم من أمثال بليريوت ورولز ولاتام وفدرين وآخرون غيرهم . وأصبح هؤلاء الرواد الأوائل هم أبطالي فدرست كل المعلومات التفصيلية المتعلقة بمهنتهم وعملهم وبطولتهم ، وأنفقت كل ما أحصل عليه من مخصصاتي (خرجيتي) لشراء مجلات الطيران الاسبوعية وذلك بمجرد أن بدأ العمل في نشر مثل هذه المجلات واصدارها .

لم أشعر بسحر يجتذبني للألعاب الرياضية العادية قبل أن أكتشف مباغتة خلال تلك الفترة ذاتها بأنها تتضمن اهتمامات تكتيكية تتشابه مع تلك التي كنت مولعا بها ، منذ وقت مبكر ، والتي عرفتها في أنواع لعب الحرب واستمتعت بها . ففي مجال كرة القدم ، استطعت أن أصبح بسرعة الموجه لتسجيل الأهداف في المدرسة ، وعلى الرغم من انني كنت بعيداً عن الوصول الى مركز اللاعب الأول في الفريق ، إلا أنني كنت أستطيع وببساطة استخدام الموهبة ، واجراء الحساب لاتخاذ الموقف المناسب لقذف الكرة وبذلك كنت أسجل الاصابات بالأهداف . أما في مجال كرة المضرب فقد أمكن اكتشاف طريقة جديدة للبويلنيغ بحيث كان يتم في كثير من الأحيان اكتساب (إحدى مجموعتي العصي أو الأهداف) بثلاثة ضربات متتابعة بواسطة الكرة . ولكن في السنة التالية ـ وكانت الأخيرة بالنسبة لي ، تغير نظام المدرسة إذ أصبحت خاضعة لادارة مدير جديد من النوع المحافظ جداً ، والمتميز باسلوبه الجاد والمتجهم ، فكان يفضل أن تخسر المدرسة مبارياتها على أن تظهر بالمظهر غير القويم (غير الارثوذكسي) وكان ذلك أول ما أيقظني على الاتجاه الوطني

---

٧) بادن باول BADEN_POWELL (١٨٥٧ ـ ١٩٤١) واسمه الحقيقي السير روبرت ستيفنسن سميث ROBERT STEPHENSON SMITH قائد انكليزي . ولد في اكسفورد ، وعمل في الاستخبارات البريطانية . ونظم الكشافة في العالم . (المترجم) .

في تلك الأزمنة ، وهو الاتجاه الذي يفضل تعميق أمجاد بالاكلافا أو دونكرك اكثر مما يفضل الحصول على الانتصارات[٨] .

انتقلت من مدرسة ويلينغتون إلى مدرسة «سان ـ بول » وكانت لدي فكرة مبكرة بالنسبة لاتجاهي العام وهو الانتساب الى البحرية ، إلا أن هذه الفكرة تبددت نتيجة مرضي في تلك الفترة وأصبح لزاماً علي الانتساب الى مدرسة «أوزبورن» كطالب ضابط في الكلية الحربية . ولكن اهتماماتي المتعاظمة أخذت في التوجه وأنا في مدرسة سان ـ بول نحو البرامج الدراسية الخارجية . وكان الاهتمام الرئيسي هو الطيران . وكنت قد بلغت في تلك الفترة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، فأخذت في كتابة الرسائل الى الصحف التي كان يتم طبعها بين فترة واخرى . وكان لأصدقائي في المدرسة اهتمامات مماثلة فخصصنا وقتاً كبيراً للعمل بحماسة في تصميم الطائرات (على الورق) وصنع الطائرات الشراعية من الورق المقوى (الكرتون) وأمكن لنا تحقيق نتائج مذهلة وكانت بعض ظلال هذه الجهود كافية لالقاء الأضواء على المشكلات الحركية لمركبات الفضاء مما أثار الاهتمام بين اعضاء مصانع الطائرات ، وبينهم السيد هاندلي ـ بيغ . وتوفرت لنا بذلك فرصة عرض هذه النماذج في المعرض الجوي الأولمبي . وكان زميلي الرئيسي في هذه التجارب صبي اسمه « هاتشينغ »[٩] الذي اشترك في وضع القسم الاكبر من المتطلبات التقنية ، وأمكن بفضل جهوده احداث تطورات اجتذبت اليها القسم الاعظم من اهتمامي وقد وضعنا بعضاً من التصاميم لنماذج طائرات كانت تختلف تماماً عن تلك التي ظهرت في عام ١٩١٠ ، وهي تشابه الى حد بعيد خط صناعة الطائرات المقاتلة في نماذج عام ١٩٤٠ ، وبكلمات أخرى ، كان وقتي في سان بول عديم اللون ، إذ أنه كان خاليا من الاثارة إلا أنه لم يكن مجرداً من البهجة والمتعة في الوقت ذاته . وكنت بدوري ايضاً صورة عن هذا الوضع . إذ أنه لم تكن لي « شعبيتي » كما انني لم اكن مجرداً من كل شعبية . وزيادة على ذلك فان تطور ضعفي البصري اعاقني عن التعامل مع الألعاب الرياضية . وكانت الملاعب قد تحولت حديثاً لتصبح مكاني المفضل في (الكريكيت) ، ولكن حدث أن أصيب أنفي بكسر عند

---

٨) بالاكلافاBALAKLAVA ميناء في القرم على البحر الأسود وقعت فيه معركة بين الروس والانكليز في ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٥٤ . وتميز فيها الفرسان الانكليز بالتضحية والشجاعة تحت قيادة لورد كارديغان ـ اما دونكرك DUNKIRK فهي مدينة فرنسية على بحر المانش ـ شمالي باريس بمسافة ٢٧٤ كم . هزمت فيها القوات البريطانية . واضطرت للانسحاب في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ (المترجم)

٩) هاتشينغ ـ هو الذي أصبح فيما بعد السير روبرت هاتشينغSIR. ROBERT HATCHINGS ـ وأصبح مميزاً في مجال عمله خلال وظيفته في الخدمات المدنية الهندية ـ وكان ايضاً رئيس طيران دلهي .

سقوطي لالتقاط ضربة قوية وجهها لاعب كرة ماهر فوق الأرض الموحلة ، وأعاقني قصر بصري الذي كنت قد بدأت في اكتشافه منذ زمن بعيد ، ولم اتمكن من اجراء تقدير صحيح وأصبحت بذلك موضع شبهة في امكانات اللعب . وعندما أمكن تصحيح هذا العيب ، كانت حماستي لممارسة لعبة الكريكيت قد تضاءلت وتراجعت أمام حماستي لممارسة لعبة كرة المضرب « التنس » وذلك على الرغم مما كان يفرضه علي ذلك من الذهاب لمسافة بعيدة عن المدرسة . أما بالنسبة للعبة كرة القدم أو الركبي ، فقد كانت حماستي لها تزيد على قدرتي وكفاءتي . ونتج عن ذلك أن بدأت منذ عام ١٩٠٩ في متابعة هذه الألعاب بحيث لم أنقطع عن مراقبة المباريات الدولية التي كانت تتم فوق ارض الوطن .

كان بين أساتذة مدرسة « سان بول » الاستاذ عيلام الذي ترك أثره القوي في نفسي بسبب غرابة أطواره . وكانت له رسومه الرائعة في شارع سينيستر من كومتون ماكنزي ، كما كان له اثره في القصة الحديثة لارنست ريموند وعنوانها « السيد عوليم » وكان يفكر بأن حصته الدراسية هي قليل من البرنامج الدراسي مقابل كثير من « مدرسة الحياة » وكان يرغب في بعض الاحيان أن ينام وأقدامه فوق المكتب « المقعد » بعد أن يضع منديلا كبيراً مزيناً بالرسوم فوق وجهه .

وكان في أحيان أخرى يعمل على إلقاء الأشعار لمدة نصف ساعة أو أكثر وكان يرغب في الحديث إلينا عن مشكلات الحياة ، مع تعليقات لاذعة لما كان يصفه (بشقاء الزواج وبؤسه) و (الطبيعة الحيوانية للفتيان) و (وسخف الجماهير وقناعاتها الحمقاء) . وكان ذلك تدريباً مثيراً على تعليم طريقة التدريب والحوار حول الأفكار المطروحة . وعلى الرغم من لهجة صوته الكريهة ومزاجه العنيف والحاد . إلا أنه كان يمتلك رصيداً كبيراً من الرقة خلف مظهره الخارجي الفظ والشرس .

وكان هو الذي شجعني ولم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة من العمر ، على دخول مسابقة للحصول على جائزة هاميلتون للجغرافيا ، والتي كانت مفتوحة للمدرسة بكاملها ، وكان يحصل عليها عادة الشبيبة في عمر الثامنة عشرة او التاسعة عشرة في الصفوف النهائية . وقد حصلت على المرتبة الثانية في أول محاولة لي . وفي السنة التالية حصلت عليها بتفوق كبير . وكان ذلك حافزاً لي للتفكير على مستوى النجاح الذي أمكن تحقيقه والدخول في تجربة جديدة للحصول على زمالة فرع التاريخ في جامعة اكسفورد . ولكن كبير مدرسي سان بول الدكتور هيلارد تدخل في تلك الفترة ليبرهن على وجود

الأساليب الروتينية الارثوذكسية (المتصلبـة) ورفض السماح لي بالانضمام الى التـاريخ الثامن ، وهو الشكل الوحيد الذي كان يعتبر اختصاصاً في التاريخ . وشعرت بالضجر من المدرسة نتيجة لذلك ، فحصلت على موافقة والدي بترك المدرسة قبل سنـة ونصف من الموعد الذي كان مقرراً لترك المدرسة في الحالات العادية . وذهبت الى جامعة كريستـي كوربوس في كامبريدج . وهناك تجاوزت امتحان درجة الشرف في فرع التاريخ من جامعة كامبريدج .

كانت السنة التالية من اكثر سنوات الدراسة منعة وبهجة وأعمقها أثراً في نفسي ، ولم يكن ذلك سوى نتيجة لمناخ الحرية والنقاش المطلق حتى أبعد الحدود في الجامعة . كما كانت لدي اهتمامات أخرى كثيرة، بحيث لم أتمكن من التفـرغ للعمـل بصـورة جدية للحصول على شهادة كامبريدج « التريبوس » لتلك السنة ، وظهر لدي بصورة خاصـة ميل متعاظم للتاريخ العسـكري ، وللعمـل على الخرائـط بعيداً عن القواعـد التعبـوية (التكتيكية) عندما كان علي الاستغراق في (مجموعات الكتب العامـة) والتـي تشـكل أساس التاريخ كما كان هناك مجال آخر للتسلية توجه إلي اهتمامي ، ولم يكن ذلك لمجرد اللهو ، ولكن للقيام بتحاليل المواقف التي كنت أحررها في رسائل كنت ابعـث بهـا الى الصحف على نحو ما كنت أفعله في السابق بالنسبة للطيران . وكانت الصحف تنشر تلك الرسائل في كثير من الأحيان . ومقابل ذلك ، كان الموضوع الذي حصلت فيه على أقل معدل في العلاقات خلال امتحان نهاية السنة الأولى في جامعة كامبريدج هو موضوع (المقالة) . وكان السبب في ذلك هو عدم توفر (حجة) لدي للكتابة . وكان ذهني خاليا من كل (حجة) يمكن تسجيلها على الورق بشأن أي موضوع من الموضوعات التي حدثت خلال تلك الفترة .

ولقد أصبحت مثل هذه (الحجة) في رأيي وبحسب خبرتي هي السبب لأكتب كل شيء ، واذا كانت هذه الحجة على درجة كافية من القوة ، فان باستطاعة المرء شق قنـاة تدريجية للتعبير عنها ، والحصول على النموذج المناسـب والتقنية الملائمـة لنقـل الفـكرة وتطويرها الى افكار أخرى وفق اكثر الاساليب قوة وفاعلية . وهكذا فان القوة الدافعـة والمبدعة انما تكمن في الحجة أو الفكرة . ولقد كنت على غير يقين وأنا أذهب الى كامبريدج بما يجب علي أن أفعله بعد ذلك . ولم اكن اعرف ما هي الحرفة التي يجب علي احترافها وممارستها ، في حين كان أخي الاكبر « أرنست » قد قرر منذ عهد مبـكر في طفولتـه أن يصبح طبيباً جراحاً . (وبرهن على قابليته الكبرى وامكاناته الجيدة في هذا المجال قبل

وفاته المبكرة جداً في عام ١٩٣٢ وهو لم يتجاوز الرابعة والاربعين من عمره) وأما من جهتي فقد كنت سعيداً بأن أترك المستقبل حتى يتولى الأمر بنفسه بعد أن أحصل على شهادتي الجامعية . ولم تكن لدي اكثر من افكار غامضة حول الاضطلاع بواجب في الجيش لمصلحة التقدم أو لتطوير ما يمكن الحصول عليه من خلال درجة مشرفة . وهكذا بقيت غير ملتزم وغير متطوع في الجيش عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى في عام١٩١٤ حيث تمت تسوية القضية في حينها .وانني - اليوم - وانا اعيد النظر في مسيرة حياتي ، أجد ان هذه المسيرة قد أخذت أشكالها بأبعد كثيراً مما تطور اليه ميلي في السنوات المبكرة .

الفصل الاول
ثبات الميل (الاهتمام)

كنت اقضي فترة اجازة مع عائلتي في كورنويل[1] عندما اندلعت الحرب في أوروبا مع بداية شهر تموز (يوليو) ١٩١٤ . ولم تسبب أخبار الحرب أكثر من صدمة بسيطة في تلك البقعة المنعزلة .

وعندما كانت تناقش قضية دخول بريطانيا الحرب ، فان المرء لا يكاد يستمع صوت رجل الشارع وهو يدلي برأيه ، فيقول (وهل يجب علينا خوض الحرب من جديد الى جانب الانكليز؟). أما بالنسبة لي فلم يحدث حتى هذه اللحظة أن تأثرت بأكثر مما كانت تثيره لدي متابعة المراقبة للحرب الروسية ـ اليابانية وحروب البلقان . ثم جاءت الهزة بعد ذلك مع أخبار اجتياح المانيا للحدود البلجيكية ، وسقوط لييج ، وطلب كتشنر للمتطوعين[2] .

فذهبت لأقرب مركز للتطوع حيث أخبرت هناك ان على مرشحي الضباط تقديم طلبات تطوعهم عن طريق جامعاتهم ، فكتبت رسالة على الفور الى جامعة كامبريدج ، ولم تمض أسابيع قليلة على ذلك حتى استدعيت للمقابلة هناك مع لجنة عسكرية . ونظراً لإيقاف اسلوب التطوع المباشر من الجامعة لقبول الضباط النظاميين في الجيش مع إندلاع الحرب ، ونظراً أيضاً لإختصار دورة الكلية العسكرية الملكية (ساند هورست) لمدة ثلاثة أشهر تقريباً فقد وجهت لي النصيحة لإتباع هذا الطريق من أجل الدخول في الجيش . ولكن

ظهر لي أن اتباع هذا الطريق يتطلب الإنتظار الطويل ، مما كان يتعارض مع حماستي الكبرى لدخول الجيش في تلك الفترة ، لا سيما وأن الإعتقاد العام كان يفترض إنتهاء الحرب حتى عيد ميلاد تلك السنة . وعلى هذا اخترت العمل كضابط مؤقت (ضابط احتياطي) مع الحصول على تأكيد موثوق في ألا تكون هناك صعوبة حول الإنتقال الى ملاك الضباط النظاميين . وأصدرت وزارة الحرب بعد المقابلة امرها بالذهاب الى المستشفى العسكري للأميره ألكسندرا في ميلبانك Milbank وذلك للمثول امام اللجنة الطبية . وهو المستشفى الذي أصبح على ملازمته عن قرب خلال سنوات الحرب . إذ أمكن بفضل القليل من الإيداع الحصول على فحص للعينين . وكان ذلك في عام ١٩١٤ أمراً محدوداً جداً . فالجيش البريطاني لم يكن قد اعترف بعملية وضع زوج من النظارات ، ولو أن وضع زجاجة عين واحده (مونوكل) كان قد أصبح زياً تقريباً وبدعة عند الضباط ، على نحو ما كان عليه بين ضباط الجيش الألماني . حيث بقيت هذه الظاهره بمثابة تقليعة (موضة) للقادة (الجنرالات) حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث عملوا على إهمالها تدريجياً في معسكرات أسرى الحرب ليظهروا انهم قد أصبحوا ديموقراطيين في تفكيرهم .

صدرت الجريدة الرسمية بتسميتي ملازم ثان بعد فترة قصيرة من التدريب في دورة خاصة للضباط تم تنظيمها آنذاك في الجامعة . وتم تعييني في الوحدات الملكية الخاصة ليوركشاير من المشاة الخفيفة[٣] وأرسلت بعدها إلى دورة الضباط للتدريب في تنبريدج ويلز[٤] وتم ترفيعي لرتبة ملازم أول مع تعييني في بداية شهر كانون الثاني (يناير) ضمن كتيبة قيد التشكيل حديثاً في اللواء الذي كنت أعمل به .

لقد أمكن خلال هذه الفترة تأمين ألبسة عسكرية كافية لجميع الرجال ، من أجل ضمان تبديل الوحدات المنظمة حديثاً والتي استمر استنزافها طوال فصل الخريف . وتشكيل الكثير من الكتائب المنظمة من جديد ، مما جعل هذه الكتائب تظهر كمجموعة غير متكاملة . كما لم يكن هناك أكثر من مائة بارودة ، ذات النماذج القديمة أيضاً في الكتيبة الواحدة . كان القائد هو ضابط نظامي يستطيع فرض النظام على أفضل وجه ، لاذع في انتقاداته وبخيل في مديحه وإطرائه . إنه ستيوارت تايلور الذي يعتبر النموذج الصحيح للضابط الذي يفرض وجوده . وكانت أساليبه قد برهنت على فاعليتها في تشكيل الرجال المقاتلين بسرعة من الرجال العاديين (المادة الخام) . ولو أن توزيع العقوبات وفرضها عند إرتكاب الأخطاء الصغيرة كان أمراً قاسياً لدرجة غير عادية مما كان يتضمن إحتمال إثارة

التمرد لو تم تطبيقه على رجال أقل حماسة وأكثر معرفة وعلماً مما كان عليه هؤ لاء الرجال من (متطوعي كتشنر) . ولكن في مناخ تلك الأيام وأجواءها أمكن قبول ذلك كله بقليل من الإعتراض . وبعد أن تكونت كراهية استمرت عدة أشهر أصبح تايلور مثالياً تقريباً . ولكن لسوء الحظ فان الخسائرالكبيرة في إنزال غاليبولي وهجوم الربيع في فرنسا ، انعكسا على الوحدات التي هي قيد التشكيل ، وثم نقل تايلور الى مركز قيادي أكثر أهمية .

جاء خلف تايلور كنقيض محبط ، إذ كان سميناً لدرجة مضحكة ، مغروراً ومجرداً من الكفاءة . أما القائد الثاني الذي تم تعيينه حديثاً فكان قذراً سليط اللسان وبذيئه ، وتم طرده فيما بعد لأنه اختلس اموال مطعم الضباط وموجوداته . وجاء بعد ذلك ضابط جديد يحمل رتبة رائد ترك فينا أثراً كبيراً نظراً لما كان يزين صدره من الأشرطة الثلاثة للأوسمة والميداليات التي كان يحملها ـ اذاً فهو المنافس الوحيد للقائد الأعلى في فرنسا ـ وبقي كذلك في نظرنا حتى اكتشفنا أنه لم يمارس أبداً القيادة الفعلية ، وأنه جمع أوسمته عن طريق الزيارات الودية لقواعد العمليات والمناطق في كل وقت وفي كل مكان كانت تحدث فيه معركة صغرى أو مجرد اشتباك . وان مثل هذا الثلاثي للضباط القادة قد أظهر بوضوح الطريقة الفاضحة التي كان يعمل بموجبها مكتب الحرب (أو وزارة الحرب) لتعبئة المراكز القيادية الكبرى في الألوية التي كانت تشكل (جيوش كتشنر الجديدة) .

ولم يكن كثيرون من ضباط الإحتياط ، أو الذين يتمتعون بضمانات (في المخابىء) والمراكز الخفية بوضع أفضل إلا في كونهم مدربين على طرائق الخدع والإحتيال في الحياة العسكريـــة تحت عنوان (دبِّر رأسك) .

لقد تبدد جزئياً ذلك الملل من التدريب الموجـه بصـورة سيئـة ، خلال صيف عام ١٩١٥ ، عندما اكتشفت أنني أمتلك بعض المواهب في العدو . وكنت قد حاولت عندما كنت في المدرسة العدو لمسافة تزيد على مائة ياردة فقط ، ولـم أظهـر ما يشـير الى توفـر إمكانات العداء . فلم يعد هناك ما يشجع على الإستمرار . ولكنني وجدت الآن أنني أستطيع إكتساب جائزة السباق لمسافة نصف ميل أو ميل . ونجحت في المباريات الرياضية ودخول المنافسات ضد بعض العدائين المحترفين الذين تم تجنيدهم في الجيوش الجديدة . ووصلت أحياناً الى درجة قريبة من مستوى معدل الجامعة . وأدى ذلك الى أن طلب إلي الإنتقال ، وتكليفي بقيادة سرية الرياضيين في الفوج . وهو طلب قلب رأساً على عقب موقفي الحماسي للوصول الى خنادق الميدان . وعلى كل حال ، فان رئتي القويتين في العدو

قد تطورتا مما ساعدهما بعد ذلك لانقاذ حياتي .

ذهبت الى فرنسا قبل وقت قليل من هجوم ايلول (سبتمبر) المشؤوم في لوس[٥] ، وعلى الرغم من عدم الإشتراك في هذا الهجوم ، إلا أنني حصلت على ذكريات حية لرؤية أرتال الأسرى الألمان الذين كان يتم نقلهم الى الخلف ، مع ما رافق ذلك من آمال كبرى في (زيادة الغنائم) ومن ثم التحرير من الوهم الذي أعقب ذلك .

كانت رؤيتي الأولى للجبهة الألمانية في القطاع شمال السوم[٦] مباشرة ، والذي جاءت قوات الجيش الثالث الذي يقوده اللنبي لتشغله عوضاً عن القوات الأفرنسية . وكان الفرنسيون وخصومهم الألمان يعيشون في تلك الفترة وفق شروط (التعايش السلمي) وعلى هذا ففي تلك المساحات الشاسعة ، كان الطرفان المتصارعان يتقاسمان ضمناً في الليل الملاجيء والمنازل غير المدمرة في القرى الواقعة في المنطقة الحرام . وحتى بعد أن احتل البريطانيون مواقعهم ، كان بالإمكان زج وحدات فوج تحت أنظار المراقبين في الخطوط الألمانية ، دون أن تطلق طلقة واحدة للتدخل في العملية أو قطعها . ولكن عندما تم نقل السير جون فرنش[٧] وتعيين السير دوغلاس هيغ[٨] كقائد أعلى في نهاية عام ١٩١٥ ، بسبب فشل جون فرنش في هجوم لوس . ثم تطبيق سياسة ثابتة للإزعاج ، وانقلب القطاع الى مجال لتبادل الكراهية ، مع نتائج مدمرة للغاية .

تخللت إقامتي في هذا القطاع فترة إنقطاع قصيرة في منتصف شهر تشرين الأول (اكتوبر) حيث أصابتني ضربة حمى مباغتة نقلت على أثرها الى مستشفى في كوربي . وفي اليوم التالي شعرت ببعض من التحسن فطلبت أذناً بالسماح لي للعودة الى الفوج ، وكان لهذا الطلب أثره في إقناع أركان المستشفى بأنني كنت مريضاً فعلاً . وهكذا وعلى الرغم من احتجاجاتي فقد تم إرسالي على نقالة الى المستشفى الرئيسي في مدينة روان (ROUEN). وحدث هذا الشيء ذاته بالنسبة لي فقد تعرضت لصعوبات في حمل الأطباء على عدم إرسالي الى زورق ـ مستشفى لإعادتي الى الوطن ـ انكلترا . ولم أصل الى ذلك إلا بعد جهد كبير . ففي روان ، وبعد وصولي الى المستشفى مباشرة ، شعرت بالبهجة وأنا أطالع اخر نشرة من جريدة التايمز ، حيث جاء فيها بأن الجريدة الرسمية لوزارة الحرب قد تضمنت نقلي الى قائمة الكتائب النظامية . وكان ذلك بمثابة ضمان لعودتي الى الفوج الثاني من الوحدات الملكية الخاصة ليوركشاير للمشاة الخفيفة المتمركز في السوم . ولكن عندئذ وصل سمعي بأن فرع المساعد العام في فرنسا قد أصدر أمره في

لوقت ذاته بنقلي الى الفوج السادس للوحدات الملكية الخاصة ليوركشاير للمشاة الخفيفة والمتمركز في الايبر[٩] وذلك نتيجة للنقص الكبير في عدد الضباط بعد الخسائر الفادحة . وأمسكت بفرصة الخروج من المستشفى في إجازة لفترة بعد الظهر ، لأبحث عن طريقة للتخلص من اصرار الأطباء على إرسالي الى انكلترا لقضاء فترة النقاهة ، وتوجهت الى مقر القيادة العامة حيث أغريت ضابطاً من هيئة الأركان لتوقيع أمر بالسماح لي لركب القطار المتوجه الى الايبر في الليل ، وذلك حتى أكون على يقين من الحصول على المتعة الكاملة بالعمل ، وعندما استعيد الذكريات وأمعن النظر فيها ، تظهر غرابة ذلك التوق الشديد للعمل في الجبهة . ولم يكن ذلك وأكثر منه إلا بسبب النتوء البارز الشهير في الخطوط الدفاعية ، والذي كان أكثر قطاعات الجبهة مرارة في القتال منذ فشل محاولة الألمان الثانية في الحصول على النصر مع خريف عام ١٩١٤ ، وتطور الجمود القاتل في التخندق.

ولكن كان لدي الكثيرين من الجنود الفتيان في تلك الفترة ذات التوق الشديد للجبهة .وكانت السوم في عام ١٩١٥ مجرد مقدمة رفيقة وهينة للحرب . وكنت قد ضمنت في رسالة لي وصفاً لها (بالنزهة العظمى)[١٠] ولكن الايبر كانت العلاج الشافي والسريع لتلك المشاعر البهيجة .

كان الفوج السادس هو أول أفواجنا العاملة من بين ما نظمه كتشنر (للمائة ألف مقاتل الأولى) وقد تم تنظيمه حول نواة من الجنود النظاميين . وقد تم إستنزافه بسرعة عندما التحقت به . فقد نقصت السرايا الى نصف تعداد قوتها . ولم يكن هناك سوى عشرة ضباط من أصل ٣٥ ضابطاً . وكان هذا الفوج يشكل جزءاً من قوة الفرقة ١٤ ، التي أرسلت بعد وصولها الى فرنسا مباشرة لأحتلال البروز في ربيع تلك السنة ، وتم الإحتفاظ بها في تلك البقعة النائية لفترة طويلة جداً من الزمن . وقد عانت الفرقة كثيراً من الإستنزاف ومن التوتر والإجهاد وتوقع الإحتمالات الخاطئة . فحيث يضع التابعون للمشاة (توقعاتهم عن الحياة) بافتراض المعدل الأقصى لخدمتهم في حدود الشهر ، ولم يكن هذا الافتراض ليتوافق مع النظام الأساسي أو مع الأمنيات طوال الفترة وحتى السنوات الأخيرة من الحرب .

بقيت خلال تلك الفترة حتى أقبل الخريف بأوحاله ، وتحولت الخنادق في الخطوط الأمامية في كثير من الأحيان الى حفر عميقة تملؤها المياه الطينية الموحلة التي كانت تطفح فوق أطراف الأحذية المطاطية العالية التي كنا نلبسها في مثل هذه الأماكن . أما خنادق

المواصلات فكانت تطفح في كثير من الأحيان وبذلك فقد كانت الطريقة الوحيدةللوصول الى خطوط الجبهة هي التحرك فوق (الطرق البرية) وتنفيذ ذلك تحت جنح الظلام عبر الطرق والدروب . وكان الوحل الكثيف ينتشر على امتداد هذه الطرق والدروب اكثرها ، فكانت كل خطوة متعبة مجهدة . وكانت (وحول الغلانـور) من أقـوى ما عرفتـه من الأوحال في قوةالتصاقه حتى كأنه الغراء ،ومع كل ذلك كان هناك الخوف من الوقوع تحت حزم الأضواء الكشافة أو نور القذائف النجمية(١١) وما يتبع ذلك من اطلاق حزم النيران . وكانت مثل هذه الحزم الضوئية خلال ساعات الظلام تنطلق الى السماء . بفترات متتابعة حيث يرسلها هذا الطرف أو ذاك على طرفي البروز ، فتظهر وكأنها حبل ضوئي مرتجف يسقط مثل أنشوطة حبل المشنقة . ولو أن دراسة الخارطة كانت تظهر مواقع القوات البريطانية غير عميقة في استدارتها على نحو ما كانت تظهر عليه خلال الليل .

كانت الايبر ذاتها تظهر كمدينة الأشباح عند التحرك خلالهـا في الليل ، ذلك أنـه خلال تلك الفترة من الحرب ، كانت أكثر أبنيتها لا تزال قائمة . ولكن لم تلبث أن تحولت الى هياكل أبنية خلال أشهر القصف والحرائق .

إن ذكريات خنادق المواصلات الخلفية والطافحة تنطبع في ذهني مع تجربة من تجاربي الأولى في قيادة الجنود ، الى ما كان يطلق عليه اسم (مفارز النقل) نحو خطوط الجبهة الأمامية في الليل المظلم . فقد أخطأ الدليل الذي قابلنا في الوصول بنا الى خندق الدعم ، وقادنا مباشرة حتى أضاءت الأنوار الكشافة لتظهر اننا وصلنـا المنطقـة الحـرام (المنطقـة المجردة) قريباً من المواقع الألمانية ، ولم يكن الموقف مثيراً للبهجة أو السرور ، لا سيا وأننا كنا نحمل صفائح الحديد المموج الثقيلة ، ولكننـي أسرعـت لإتخـاذ التدابير من أجـل الوصول بالمفرزة الى خنادق خطوطنا الأمامية ، وذلك قبل ان تنطلق نيران المدافع الرشاشة الألمانية مباشرة لتغمر الأرض في المنطقة حيث كنا .

حدث بعد ذلك بقليل حادث حالفني الحظ فيه وذلك خلال عملية نقل الفوج الى قطاع آخر من قطاعات جبهة الإيبر . فقد انطلقت بسريتي في المقدمة على إعتبار أنها سرية القيادة . ولمـا انني كنـت القائـد الثاني للفوج فقـد توليت القيادة بعـد هبوط الظلام . ولكـن ما إن وصلـت تقاطع الطـرق في سانـت جان حتى فوجئـت بعـدم وجود الدليـل هناك لمقابلتنا ، وفق ما كان محدداً من قبل الوحدة التي سيتم تبديلها . ونظـراً لمعرفتـي بمواقع خنادقنا على الخارطة . فقد عملت على قيادة السرية فوق الطريق بفواصل ياردات

قليلة بين الفصائل حتى لا تفقد التماس فيما بينهـا فتتشرد وتضيع في الظلمـة الحالـكة . وصلنا خنادقنا بأمان ، ولم أستمع إلا بعد وصولي الخنادق واحتلالها فقط بأن الطريق كانت تكنسه نيران المدافـع الرشاشـة الألمانية طوال الليل بفواصـل لا تزيد عن بضعـة دقائق .

وفي السنة التالية قابلت ضابط هيئة أركان من الجيش الثاني . عندما كنت أخدم من جديد في السوم ، فأخبرني بأن قصة مرور السرية قد أصبحت مثلاً مشهوراً لإمكانات المرور فوق الطرق بالرتل الرباعي تحت نيران العدو ، وأن هذه القصة لا تزال موضـع الحديث في قطاع الايبر .

انتهت اقامتي في البروز عندما انفجرت قذيفة خلال القصف فوق باب المدخل قليل العمق لخندق كنت أقف فيه . وقد انهارت أكياس الرمل فوقي حتى غمرتنـي وتركتنـي مصاباً بالإرتجاج وفاقداً للوعي . وعلى الرغم من الشعور بالترنـح الشـديد ، ونوبـات رعاف الدم من الأنف والإقياء ، فقد نهضت واندفعت الى الخنادق الأمامية مع السرية في الليلة التالية ، ولكن الأمر ازداد سوءاً ، وتم حملي على الرجوع عندمـا حل الظـلام من جديد في اليوم التالي . انني أشعر تماماً وأنا أستعيد الذكريات بانني كنت راقداً دون أمل أو رجاء فوق محفة (نقالة الجرحى) تحت النيران التي كانت أكثر رهبة مما كنت عليه وأنـا أتحرك فوق قدم واحدة ولدي القدرة على تغطية نفسي . وعنـد ذلك ألقـي بي في سيارة للإسعاف نقلتني الى هازبروك[١٢] وبعد ذلك الى مستشفى دوشيس ويستمينتو في توكيت[١٣] بواسطة القطار . وفي هذه المرة لم أظهر أية معارضة عندما سجل الأطباء إسمي لنقلي على متن زورق المستشفى لإعادتي الى إنكلترا . وعند الوصول الى مستشفى شيرينك كروس استقبلت بلقاء مثير ومؤثر حيث كانت باقـات الـورود تلقـى على المحفـات (نقـالات الجرحى) من قبل الجموع المنتظرة . وتكررت هذه الظاهرة من جديد في السنة التالية عندما تمت اعادتي بعد معركة السوم . ولكنني أرى من الغريب بعد ذلك كيف توقف هذا الإستقبال الحار ولم يستمر حتى نهاية الحرب بالحماسة ذاتها .

إن من بين أقوى إنطباعاتي عن الخدمة في تلك الجبهة هي رغبتنـا الشـديدة للنـوم المريح ، وللفراش ، لوجبة الطعام الجيدة ، وللحمام الدافىء ، ولـكل ما يتعلـق بنظـام الحياة . فالانقطاع المستمر الذي كان يتخطفنا بصورة مباغته من النوم في الخنادق كان كافياً لترك الرجال ، وبصورة خاصة الشبان منهم ، في توق شديد للنوم . ولم تكن معسكرات

الراحة التي كان يتم إشغالها عندما يتم الإبتعاد عن الخطوط ، تضمن الإستقرار المريح ، فقد كنا ننام على ألواح في خيام حرارتها كحرارة الجليد ، وفوق أرض الحقول الطينية أو الجليدية . مع وصول شظايا الإنفجارات في بعض الأحيان لتأمين المزيد من الراحة . وكانت الفوارق في الميزات أو عدم وجود هذه الميزات بين قطاعات الجبهة المختلفة هي في تغيير معدلات التبديل بين القوات ، وكان هذا التغيير يتأخر في بعض خنادق القطاعات لمدة اسبوع . ولكن في جبهة الإيبر تم إنزال مدة البقاء في الخندق الأمامية لمدة ٢٤ ساعة فقط ، يتم بعدها التبديل بصورة حتمية حتى في أسوأ المواقع وأصعبها .

لعل مما لا يمكن نسيانه ايضاً الرائحة المنزلية لشرائح لحم الخنزير في طعام الصباح ، والتي كانت تنتصر يومياً على عبق الحرب الذي يظهر في كلوريد الجير ، ولم يكن ذلك ليبعث الحياة الدفينة في خنادق الجبهة فقط ، وإنما كان يساعد أيضاً على حفظ الصحة . ثم تأتي بعد ذلك ، ومع نهاية النهار زمر نقل التعيينات الغذائية لتعيد إتصال المقاتلين بالعالم الخارجي من جديد . وكانت الخيوط الرفيعة لروح الأخوة بين مساعدي السرايا والجنود تشكل غذاء روحياً لا يقل في قيمته أو أهميته بالنسبة للرجل العادي عن المواد الغذائية والتعيينات التي يتم نقلها من الخلف . وكان القادة في الرتب العليا وهم يحاولون قطع وشائج هذه الأخوة إنما كانوا يعملون في الواقع على حرمان الجنود من حاجة نفسية تعتبر من المتطلبات الأساسية .

إن جيشاً من الرهبان الممتنعين عن الكلام قد يستطيع بالكاد إحتمال توتر الحياة في مثل تلك الحرب على نحو ما كانت تظهر ، أو بالأحرى على نحو ما كانت موجودة فعلاً ، في الجبهة الغربية طوال السنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .

كانت الطريقة لإحتمال المصاعب تكمن قبل كل شيء في قتل ردود الفعل بالعمل . ولكن عندما تكون الحركة ممنوعة ، تظهر التفاهات كمخرج لإنقاذ الموقف . وهنا يكمن الدفاع لا في الزمالة والأخوة العسكرية و (معسكر الإشاعات) فحسب ، بل في الظواهر الكثيرة التافهة مثل (تلميع الأقسام الجلدية) وتنظيف الأحذية . وفي معسكر التدريب كانت الشتائم فيه هي العوائق أمام تطوير المهارات العسكرية ، وهي ايضاً العوائق في فاعلية الحرب ونجاح عملياتها . وبعد ذلك فإن معسكرات الإستراحة هي الشفاء من الفضائل والتي كان يتم فهمها بصورة سيئة في كثير من الأحيان ، على الأقل بالنسبة للمدافعين عنها والمؤ يدين لها . كانت الظاهرة الثانية في ميزات حرب الخنادق على الجبهة الغربية هي في (موت) كل حركة في النهار مقابل إحياء الحياة في الليل . ولقد كانت

المشاعر تجاه وسط الظلمة مختلفة تماماً لما يشعر به المدنيون . فقد كان مناخ الليل ينتشر على المقاتلين ومعه انتشار روح الصداقة ، جزئيا لأن الظلمة هي الوقت الطبيعي لتأمين الحماية ، وجزئياً أيضاً لأن الزمالة والأخوة العسكرية لا تسمح بتأمين جو الوحدة . ولقد كان البقاء وحيداً هو من أكثر تجارب أوقات الحرب ندرة في حدوثه ؛ وحتى عندما يحدث فقد كان يسبب إحساساً غير مريح . وقد عبر سيدني روجيرسون في كتابه (إثنـي عشر يوماً) عن هذه الحقيقة بقوله : (لقد كان ذلك من أسوأ الكوابيس الليلية خلال الحرب ، فكونك وحيداً يعني الضياع والخطر . وذلك أكثر سوءاً من جميع أعمالك عند اشتراكك بالمعركة . لقد كانت جميع مخاوفي ، ومنها الإغارات ، والوقوع بالأسر ، والخوف القاتل من ضربة في مكان ما حيث لا أحد يستطيع العثور علي . وحيث أستطيع النوم حتى أتدحرج بهدوء لأعود الى الوحل . وقد رأيت أولئك ممن حدث لهم مثل ذلك)[١٤]

كان الفوج الذي خدمت فيه ضمن قوات منطقة الإيبر ، يضم في قسم كبير منه زارعي الألغام من سكان منطقة بوركشاير ، وكان لدى الرجال خبرة عملية وتفصيلية من الدرجة الأولى بحيث كان يكفي قيام واحد منهم لمرافقة أي ضابط يذهب لزيارة السرية المجاورة أو الفوج المجاور . ولعل الممارسة العملية التي كانت لديهم ما هي إلا نتيجة لتجاربهم وخبراتهم في صنع الألغام قبل الحرب ، ولكن كان لديهم يقيناً قلوب دافئة تعتبر نموذجاً لرفقة الخنادق التي كانت بمثابة تجربة لا تمحى من الذاكرة لكل اولئك الذين تقاسموها ، والتي أمكن بفضلها انقاص قذارة الحرب وغباءها بواسطة بعث الاحساس المتبادل وإثارة المشاعر المشتركة .

تم تعييني بعد النقاهة في الفوج الثالث من المشاة الخفيفة من الوحدات الملكية الخاصة ليوركشاير . وكان هذا الفوج قوة إحتياطية للتبديل من أجل الأفواج النظامية المتمركزة في هيل . وكانت هناك تجربة مبكرة قد تعرض لها الفوج في إغارة زيبلين[١٥] حيث عاني الفوج من خسائر فادحة تجاوزت المقاييس المعروفة لتلك الأيام . وبما أنه لم يكن هناك وسائط للدفاع ، فقد عملت المركبتان الفضائيتان (المنطادان) على التحليق فوق المدينة وهما على ارتفاع منخفض . وكان باستطاعة المرء مشاهدة وميض الضوء في كل مرة يتم فيها فتح الفتحة السفلى للمنطاد من أجل القاء القنبلة المقذوفة . وكان الأثر المعنوي لهذه الهجمات كبير جداً ، بسبب عدم توفر امكانات العمل ضدها . وكان آلاف السكان يهرعون لمغادرة منازلهم والتدفق نحو الضواحي المحيطة في كل مرة يرتفع فيها عويل صفارة الإنذار خلال الأسابيع التالية . وكانت الخسائر التي نزلت بالسكان نتيجة تعرضهم لريح

الشتاء وإصابتهم بالمرض ، تزيد كثيراً على خسائرهم بالقنابل حتى لو أقاموا في منازلهم ولم يغادروها .

عند العودة الى فرنسا في ربيع عام ١٩١٦ ، كلفت بالقيام بهمة مع زمرة تضم ثمانية من المرؤوسين الشبان ، قتل خمسة منهم في الأول من تموز (يوليو) . في حين أصبحنا جميعاً مع نهاية هذا الشهر خارج القتال . وانطلقنا من بولونيا بواسطة القطار الى القاعدة الكبرى في معسكر إيتابل[١٦] القريب من توركيه ، وهو المكان ذاته والذي تم التوجه إليه في السنة السابقة . وعند الوصول الى هناك ، أصبت بخيبة أمل ، ذلك أنني كنت قد زرت وزارة الحرب قبل البدء . وتلقيت تأكيداً بأن يتم تعييني في الفوج الثاني (الذي كنت قد خدمت فيه قبل ذلك)ولكن عندما وصلت توركيه أعلموني أنه وفقاً للتعليمات الجديدة ، يجب تعيين الضباط العاملين (النظاميين) ممن لديهم خبرة سابقة بالجبهة في فوج الخدمة لإكمال تنفيذ السياسة الجديدة في فوج القوات العاملة بقوات المجندين . وهي السياسة التي أمكن بواسطتها تكوين ألوية الجيش الجديد ، بعد تحويل أفواجها النظامية الخاصة بها الى ألوية . وعلى هذا الأساس تم ارسالي الى الفوج التاسع (من الوحدات الملكية الخاصة ليوركشاير من المشاة الخفيفة) الذي كان يتمركز حالياً في قطاع السوم كجزء من قوة الفرقة ٢١ . وكان هذا التغيير في التعيين مقبول عقلياً نظراً لأن هذه الفرقة مقترنة بذاكرتي مع الفرقة ٢٤ ، وكذلك بذاكرة كل إنسان آخر ممن عاش فترة إنهيار لوس في الخريف الماضي . وهو الإنهيار الذي تحملت نتائجه ، ظلماً ، الوحدات المقاتلة عوضاً عن توجيه اللوم الى القيادات التي أسرعت بزج القوات في المعركة . ولكنني سرعان ما اكتشفت أن الفرقة ٢١ قد أصبحت من أفضل القوات البريطانية الموجودة في فرنسا ، وقد جاءت التجربة لتبرهن على صحة ذلك .

تقدمت قبل كل شيء ، وبمجرد وصولي الي مركز قيادة اللواء ٦٤ في قرية ڤيل - سير - آنكر ، والتي كانت تبعد عن خطوط الجبهة والى الخلف منها مسافة خمسة أميال ، وقد كانت في الخريف السابق منطقة هادئة جداً . ولكن شهدت بسرعة تغير الظروف الى حد بعيد عندما وصلت شظايا القنابل المتفجرة في القرية ، الى المكان الذي كنا نتناول طعام الغذاء فيه . وقد انتقلت راكباً الى موقع فوجي الجديد ، واكتشفت أن الطرقات التي كانت قوية وثابتة قد زالت من الوجود . في حين أنني استطعت مشاهدة مقدار التطور الكبير في الخطوط الدفاعية الألمانية وتحولها الى شبكة عميقة من الخنادق . وفي الواقع ، فإن سياسة القيادة البريطانية العليا لتنظيم عمليات الإزعاج والإغارات بصورة ثابتة قد تسببت في

تحصين الجبهة ضد هذه الأعمال ، التي كان يتم التخطيط لها تمهيداً لهجوم الصيف ، وهو الهجوم الذي أنقص الى حد كبير ، كل توقعات النجاح .

تم تنظيم الهجوم الرئيسي بحيث يقوم بأعباء تنفيذه الجيش الرابع الذي تم الإنتهاء من تنظيمه حديثاً ، وكلف بقيادته الجنرال السيد هنري رولينسون[١٧]وقام بوضع المخططات التفصيلية للهجوم رئيس هيئة أركانه الميجر جنرال أرشيبالد مونتغومري (الذي غير فيما بعد اسمه الى مونتغومري ميسينغبورد[١٨]) ثم لم تلبث المنطقة بكاملها أن أصبحت في شهر حزيران (يونيو) وهي مكتظة بالوحدات ، وأخذت الإستعدادات للهجوم بالظهور حتى أصبح تزايدها ظاهراً بشكل واضح . ومما كان يثير الدهشة هو التفاؤ ل الكبير الذي هيمن على الجميع ولم يقتصر على المخططين فقط وانما تجاوزهم ليشمل المنفذين من وحداتهم .

وقد وقف البعض منا ، ممن شهد زوال الخداع والأوهام في هجوم ١٩١٥ ، موقفاً أكثر حذراً وتحفظاً . ولكن الأغلبية العظمى قبلت دون نقاش التأكيدات بأن الدفاعات الألمانية ستنهار تماماً ، وستقلب رأساً على عقب أمام القصف الذي ستقوم به حشود مدفعيتنا وتجمعاتها* .

يكشف التاريخ الرسمي للمعركة أن قائد الجيش فكر (بصورة خاصة) أن توقعات هيغ (تستند الى احتمالات خاطئه والى قدر كبير من التفاؤ ل) . وعلى كل حال فقد كان قائد الجيش ، مثله كمثل هيغ ، ملتزمين في محاضراتهما ومؤ تمراتهما وفي كل وقت (بأنه لن يكون هناك ثمة شيء في نهاية القصف ضمن حدود المنطقة التي تغطيها النيران) وليس على المشاة بعد ذلك إلا المسير فوق الأرض وفرض ملكيتها لها .

ولكن لم يوضع في الحساب تلك الحقيقه المتمثلة بأن التمهيد المدفعي طوال أسابيع عديدة ، قد شكل متاهات من حفر القنابل حول الخنادق . وبذلك أمن المدافعون لأنفسهم غطاء تبادلياً في كل مكان تعمل فيه قذائف المدفعية على إزالة الخنادق وتدمير مساند الرشاشات ومرابض الأسلحة . وهكذا فان الإحتمال القوي في إنتقال الألمان بمدافعهم الرشاشة لمثل تلك الحفر الحديثة ، على نحو ما فعلوه بصورة فورية ، قد أغفلت تماماً من قبل القيادات البريطانية ولم توضع موضع الإعتبار .

لقد كانت الفرصة الباقية للنجاح متعلقة بقدرة المشاة المكلفة بالهجوم على تجاوز المنطقة الحرام الطويلة وذلك قبل أن يتمكن الألمان من رؤ ية خصومهم وإطلاق النار

عليهم ، أو قبل أن يتخذوا استعداداتهم لإطلاق النيران . ولقد كان الإحتمال الأول غير وارد ، أو لا مجال للبحث فيه ، لا بسبب الثقة المتعاظمه بتأثير قصف المدفعية فقط ، وإنما أيضاً لأن فكرة الهجوم في الظلام كانت مناقضة للعادة المتبعة في الهجوم ومخالفة لما هو معروف وكان هناك أيضاً تناقض جذري مع تشكيلات الهجوم الصلبة التي تم فرضها بموجب تنظيمات الجيش الرابع والتي توضحت من خلال الإحتفاظ بنظام النسق وإعطاء هذا النظام الأفضلية الأولى . وكانت الكتلة الكاملة لقوات المشاة التي تقوم بالهجوم قد شكلت بمجموعات في أنساق متقاربة ومتتالية . وكان على هذه الأنساق التقدم في وقت واحد ، ودون محاولة إكتشاف ما إذا كان القصف المدفعي قد حقق الأثر المطلوب منه . أما الإحتمال الثاني ، وهو القيام بالعبور قبل أن ينهي العدو استعداده ، فقد قضي عليه عندما صدرت الأوامر بأن تتقدم موجات الهجوم (بالخطوة الثابتة) لضمان التراصف في النسق . ولقد تحول ذلك في الواقع الى أنساق مماثلة للعبة الزجاجات التسعة التي يتم وضعها على نسق واحد لإزالتها بضربة واحدة .

كان من الصعب الوصول الى الخطوط الأمامية الألمانية حتى لو كانت مخططات العمليات أكثر مرونة ، ذلك أنه حتى لو أمكن الوصول الى الخندق الأول مع رفع سد النيران ونقله الى الخندق التالي فقد كان من المستحيل التحرك الى هذا الخندق نظراً لأن رجل المشاة كان مثقلاً جداً بحمولته . فقد كان يحمل على ظهره ٦٦ ليبرة من التجهيزات (أي ما يعادل نصف وزن جسمه بصورة متوسطة) مما كان يجعل من الصعب على جندي المشاة الخروج من خندقه .

وبالتالي يكون من المستحيل عليه التحرك بسرعة اكبر من مجرد السير البطيء ، أو النهوض والإنبطاح بسرعة . وتلك هي كلمات التاريخ الرسمي والتي تشكل وثيقة هامة للخطأ الأساسي في التقدير ، وفقاً لما سجله الجنرال أدموند الذي عمل في القيادة العامة خلال القسم الأكبر من الحرب ، وكان من أقوى دعامات القائد الأعلى .

وهكذا ضاع السباق قبل أن يبدأ . فقد تحرك سد نيران المدفعية ، ولم تتمكن المشاة من الوصول الى هدفها . ولم يعد بالإمكان إعادة السد الى الخلف ، وتم دفع الدعم وزج الأنساق الثانية ، في الوقت الذي لم يعد بإستطاعة المشاة التقدم ، وتكون بذلك مزيج من الأخطاء التي صنعت المأساة . ولم يبق هناك مجال يسمح بإستخدام المرونة والمبادأة لتطوير الإختراق في المواضع الضعيفة بصورة خاصة ، أو إحكام عمل المدفعية . ولم يعد مباغتاً

أن يحاول العاملون في هيئة أركان حرب الجيش الرابع جمع كتيب التعليمات التكتيكية وإحراقها وهي التي كانت معروفة باسم (الكتاب الأحمر الصغير) وكان قد تم طبع هذا الكتاب وتوزيعه قبل المعركة ومن أجلها . ولقد احتفظت بواحد من النسخ القليلة الباقية ، فقد أصبت قبل أن يتم جمع هذه الكتب ، وبذلك أمكن المحافظة عليه .

خلال المرحلة الأخيرة من الإعداد للهجوم ، بدأت ثلاث فرق من الفرسان (الخيالة) بالتحرك للإقتراب من خطوط الجبهة الألمانية وهي على إستعداد (للمرور عبر الثغرة) وكانت هذه العبارة (للمرور عبر الثغره) هي الجملة الشائعه للتعبير عن هدف قوة الفرسان وأملهم الكبير . وكانت تعليمات هيغ المتفائلة قد أعطيت للفرسان من أجل الركوب منذ الصباح المبكر الى بابوم ، على بعد عشرة أميال في العمق من خطوط الجبهة البريطانية . (وبعد خمسة اشهر ، وعندما فشل الهجوم كان جيش هيغ لا يزال على بعد ثلاثة أميال من بابوم[١٩] وخسر الجيش من قوته ٤٠٠ ألف مقاتل) .

تضمن المخطط الأساسي تحديد موعد الهجوم ليكون بتاريخ ٢٩ حزيران (يونيو) على أن تسير أفواجنا للإنطلاق من الخنادق بعد ظهر يوم ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩١٦ .

وقد تم جمع الضباط قبل البدء بالتحرك وذلك في مطعم قيادات المواقع في منزل لمزرعة نموذجية داخل بيكاردي الشهيرة . وأدى التوتر من جديد في وسط القادة وبعض الضباط الآخرين الى خلق الإضطراب في موعد الإستراحة ، عندما اقترح ضابط شاب من قيادة السرايا شرب نخب القائد العام ، ورفع كأسه بصورة مباغتة ليرفق حركته بالكلمات التالية (ايها السادة ، لنشرب النخب عند إنتقال سدود نيران المدفعية) وبقيت هذه الكلمات من التعابير التي لا تنسى ، واستمر تكرارها بعد ذلك في كل مناسبة . كما أنها استمرت في الظهور على صفحات (التايمز) في كل مرة يتم فيها إحياء ذكرى ذلك الهجوم .

انطلقت الأفواج بعد ذلك في تحركها وهي تغني (احزم متاعبك واضطرابك واقذف بها في حقيبة الميدان القديمة) وكانت هذه الاغنية هي أغنية المسير الرئيسية لتلك السنة . وخلال التقدم في الطريق الى قطاع هجوم الفرقة ، بين مزيكورت ولابواسيل[٢٠] وصلت الأوامر حول تأجيل موعد يوم الهجوم « ي » حتى يوم ١ تموز (يوليو) . بسبب هجوم موجة مباغتة من القطس الرديء ، مما كان يعني بأنه أصبح على الأفواج الإنتظار في الخنادق لمدة ستين ساعة تقريباً ، وهي الخنادق التي أصبحت مطمورة جزئياً بسيول الإنهيارات ،

والتي تقع تحت تأثير الضجيج الذي يصم الأذان من قصف مدفعيتنـا وقصف معـاكس التمهيد من بطاريات المدفعية الألمانية .

اتخذت التدابير على ضوء تجربة هجوم العام السابق (١٩١٥) فصدرت الأوامر ببقاء نسبة صغيرة من الضباط والرتب الأخرى في الأفواج المتقدمة (من قوات النسق الأول) ، والإحتفاظ بهذه النسبة من أجل إعادة تنظيم الوحدات في حال تعرضها لخسائر كبيرة ، ولو أن مثل هذا الإحتمال لم يكن متوقعاً . وهكذا بقي القائد الثاني من كل سرية ـ وكنت أنا واحداً منهم ـ في الإحتياط المباشر لقوات الهجوم وكذلك مساعـدي السرايا وبعض القـادة المرؤوسين الآخرين .

كانت الساعة صفر (س) هي الساعة ٧,٣٠ من صباح يوم ١ تموز (يوليو) ١٩١٦ وانطلقت موجات الهجوم (من فوق الذري) في وضح ضوء النهار ، والسماء زرقاء صافية من كل الغيوم . وكانت أصداء ضجيج هجوم الموجة الأولى تصل الى الخلف حاملة معها التفاؤ ل الخادع . ولكن لم تمض سوى فترة قصيرة حتى علمنا بمقتل القائد العام وكذلك مقتل قادة السرايا الأربعة جميعاً قبل الوصول الى الخندق الأول للعدو ، علاوة على إصابة الضباط الآخرين ورجالهم بإصابات قاتلة أو بجراح بالغة . ونتيجة لذلك طلـب إلينـا التحرك بسرعة . وبعد تجاوز نيران القناصة الألمان والأنواع الأخرى من النيران ، مروراً بعويل الجرحى وصراخ من كانت جراحهم خطيرة ، وصلنا الى طريق مغمور نسبياً على بعد نصف ميل وراء الخندق الأول للجبهة الألمانية . وهناك تم الإلتقاء بمن بقي حياً من قوة الأفواج . ولم يكن هناك سوى ضابطين احدهما جريح . ثم أخذت الاصابات في التزايد خلال فترة المساء وأثناء الليل ، نظراً لأن ارتفاع الساتر الى جانب الطـريق كان منخفضاً ولا يضمن أكثر من وقاية محدودة . وتعرضت الأفواج المجـاورة لخسائـر كبـيرة فأصبحت دون قادة . وتوليت قيادتها بصـورة مؤ قتـة حتـى تم وصـول عدد جديد من الضباط . وكان من المتوقع قيام الألمان بهجوم مضاد . لكن ذلك لم يحدث ، وأصبح من الواضح أن الألمان يجابهون الموقف بغموض واضطراب على نحو ما كنا نجابهه .

تقـدم لواء الاحتياط من الوحـدات المتقدمـة للفرقـة خلال الليل وذلك لدعم النسق المتقـدم داخـل المواقـع الالمانية ، ولـكن قوات الدعـم لم تحـاول التقـدم لمسافة اكثـر . وكان الموقف الغـريب الـذي أثار التسـاؤ ل هو عدم ظهـور اي دليل على وجـود الفـرق الاحتياطية التـي كانـوا قد اعلمونـا عنهـا . وهيمـن على بعضنا شعور بأن تقدم وحدات قوية لم تشترك بعد في القتال ، خلال تلك الليلة ، من شأنه دفع

التقدم نحو الأمام بصعوبات محدودة . ومن ثم تطوير الإختراق للمواقع الألمانية قبل أن يتمكن الألمان من إعادة التوازن . ولكن اليوم التالي انقضى دون أن تتخذ القيادة العليا مثل هذه المبادأة .

بقيت المجنبة اليسرى للغرفة مكشوفة ، فعملت في صباح اليوم الثالث على قيادة زمرة من المهندسين لاستطلاع الموقف وتغطية تلك المجنبة ، وكانت أكبر صعوبة في طريق تنفيذ هذه المهمة هي التأكد من كل موقع ، نظراً لأن الخنادق الألمانية قد أصبحت مسطحة وزالت من الوجود جميع النقاط العلام (النقاط المميزة) الأرضية . كان الحطام الجاف يملأ الأرض المنهارة في كل مكان . وكانت الأشلاء من أطراف الجنود ووجوههم تبرز هنا وهناك ، وهم الجنود الذين دفنتهم قذائف مدافعنا . وأمكن لي من خلال هذه الجولة الإستطلاعية تكوين (نظرة شمولية) لتجدد الهجوم الذي قامت به الفرقة ٣٤ في قطاع لابواسيل . وكانت هذه النظرة تشكل لوحة تختلف بشكل غريب تماماً عن كل لوحة لمعزكة رسمها فنانو الحرب في الصحافة المصورة . فعوضاً عن مسرحية شحن الوحدات عاطفياً بالتحيات والهتاف على نحو ما يتم رسمه عادة ، كان باستطاعة المراقب رؤية سلاسل رقيقة من نقاط ثياب الخاكي (العسكرية) وهي تتهادى بتثاقل نحو الأمام ، ثم لا تلبث هذه السلاسل أن تتحول إلى خيوط اكثر رقة بتأثير لهيب النيران ، إلى ان تظهر وكأنها مجرد بقع فوق لوحة الطبيعة . في تلك الليلة ، تم تبديل الفرقة وسحبها للراحة . وكانت أفواجنا تزيد في قوتها على ثمانمائة مقاتل - في الجبهة الغربية . وعند سحب الفوج إلى المنطقة الحرام على شكل ثلاثة مجموعات صغرى ، لم تكن بقية قوة الفوج بكاملها تزيد على سبعين رجلاً ، مع أربعة ضباط فقط* ولقد كنا مستنزفين جداً بعد ست ليال دون نوم تقريباً ، ونحن نتحرك بذهول وتعثر وألم كبير حتى وصلنا (الوادي السعيد - هابي فالي)[٢١] - حيث تجاويف الملاجيء المملوءة بالنفايات - على بعد نصف ميل إلى الخلف من الخطوط القديمة للجبهة ، وحيث عملنا فيما بعد على دفن قتلانا . ولقد شعرنا هنا بالانتعاش عندما تناولنا الشاي المشبع بالروم ، وعندما انضم إلينا أيضاً عدد من (الشاردين الذين أضاعوا طريقهم خلال تلك الأيام المضطربة . وعند الوصول إلى الطريق ، شكل الأفراد من بقية الأفواج رتلاً للمسير على الطريق . ورجعنا إلى الخلف ونحن نغني (احزم متاعبك واضطرابك واقذف بهما في حقيبة الميدان القديمة) .

تبين لنا عند مقابلتنا لمن بقي على قيد الحياة من الأفواج الأخرى ، خلال الأيام

التالية ، بأن خسائرنا لم تكن ظاهرة استثنائية على الاطلاق . فقد كانت معدل الإصابات في اليوم الأول فقط هو ٦٠ ألف إصابة تقريباً ، وكانت خسائر هذا اليوم هي افدح خسارة أصابت البريطانيين في يوم ، طوال تاريخ الحروب البريطانية .

لقد حالفني الحظ جداً خلال أيام القتال الثلاثة الأولى ، وليس ذلك لأنني اشتركت في الهجوم الأساسي فقط ، وإنما ايضاً لأنني تلقيت ثلاث صدمات دون أن أصاب بجراح خطرة . كانت الأولى عندما أصابتني شظية قنبلة بخدش في ذقني ، وأصابت إصابة خفيفة أحد أسناني . ولكن لم يسبب لي ذلك أي إزعاج إلا بعد سنوات عديدة . والثانية جاءت عن طريق شظية اخرى مزقت كم السترة وأخطأت ذراعي ، والثالثة شظية أيضاً صدمت الخوذة الفولاذية ولكنها لم تخترقها .

وكنت حتى هذا الوقت أردد بأن قيمة هذا الإختراع الحديث لحماية الرأس (الخوذة) لا تزيد بصورة رئيسية على إمتصاص الصدمة عند السير في خنادقنا المنخفضة ، وكان كل رجل طويل قد عانى كثيراً من هذه الطريقة في السنة السابقة ، ولكن أصبح باستطاعته الآن حماية رأسه بالخوذة دون ازعاج .

كانت طبيعة العوائق لما أنا عليه من الطول ، تشكل بدورها أيضاً أحد العوامل في حملي على إهمال العادات الجديدة والتعليمات الصادرة ـ ففي عام ١٩١٦ ، كان على الضباط إرتداء ذات السترة (الجاكيت) التي يرتديها أفراد الرتب الأخرى . مع العلامات القماشية المنسوجة للرتب على الكتافيات ، وذلك عوضاً عن شارات الرتب النحاسية . ذلك أنه كان من الواضح لي بأنه عندما يكون الضابط اكثر طولاً من رفاقه ، مثل الموقف في فوجنا الذي يضم عدداً كبيراً من زارعي الألغام من يوركشاير ، فان قناصة العدو يستطيعون تصيد القادة مهما كان لون ثيابهم أو شكلها . وفي مثل هذه الظروف ، فقد كان الأفضل ، من وجهة نظري ، الموت والقائد على شيء من الأناقة عوضاً عن دفنه وهو مقنع أو مموه .

أمضينا ستة ايام فقط للإستراحة في الخلف ، وقطعت هذه الاستراحة مرتين من أجل الإنسحاب الى القرى المختلفة بهدف التبديل . وكان القسم الأكبر من وقتي خلال هذه الأيام القليلة مخصصاً لكتابة الرسائل إلى ارامل أو أهل الرجال ممن سقطوا في المعركة ، مع العمل على إعادة تنظيم السرية التي أصبحت الآن قائداً لها ، وأصبحت السرية وهي تضم المستجدين ، تزيد في عددها على مائتي رجل ، وبينهم عدد كبير من الجرحى

بجراحات خفيفة خلال اليوم الأول للهجوم في تموز (يوليو) . وكان هؤلاء قد مارسوا الخدمة قبل ذلك في ألوية أخرى . وعندما توليت قيادة السرية من جديد واتجهت بها في إتجاه الجبهة ، بعد ذلك بأيام قليلة ، كان موقف الكثرة من هؤلاء الجرحى في الهجوم المكشوف ، وهو الهجوم الذي تم الإعتماد فيه على التأجيل والمطاولة ، موقف الراغب بوضوح عن العودة ، وكأنهم كانوا يريدون إشعاري انني ككلب الراعي الذي يحاول دفع القطيع الراغب في التخلف ، والتحرك المتمهل .

وصل خلال الأسبوع ضابط جديد من سلاح الفرسان (الخيالة) وتولى قيادة الفوج ، كما وصلت رسالة من القيادة العليا لتهنئة الأفواج على ما حققته من انتصارات رائعة في إختراقها للجبهة الألمانية أثناء الهجوم الأول وجاء في الرسالة (وذلك لمنحهم شرف الإنطلاق لاختراق الجبهة الألمانية ، وتأمين مرور الفرسان منها) وتم دعمنا بقوة لواء جديد ، بهدف تبديل اللواء ٦٣ واحتلال مواقعه .

أمكن خلال هذا الأسبوع تحقيق الإتصال بين الثغرات المختلفة داخل الجبهة الألمانية مع العمل على تطويرها . ولم يحدث ذلك إلا بعد تحمل خسائر فادحة في ثغرة لا تزيد جبهتها على ستة أميال وعمقها على ميلين فقط . وكانت هذه الثغرة تحيط بالمساحة الواسعة لغابة ماميتز ، وتواجه الخط الثاني من المواقع الألمانية . ولكن الوحدات الأمامية بقيت ضعيفة بالنسبة للجبهة التي تتراوح عمقاً بين ألف ياردة في اليمين وثلاثمائة ياردة في اليسار . وعلى هذا قرر رولينسون وضع مخطط يتم بموجبه تجاوز الإستطالات المعرضة والمكشوفة عن طريق تقرب ليلي يتبعه هجوم عند الفجر من يوم ١٤ تموز (يوليو) . وتقوم الطائرات بقصف تمهيدي لمدة دقائق قليلة ، وقد تم بعث الحيوية في هذا الهجوم بالإعتماد على عامل المباغتة ، وقد جابه هيغ هذا المخطط بإعتراضات قوية على أساس أنه لم يكن من المعتاد إتباع مثل هذه الطريقة في الهجوم ، ولكن بعد أيام من الحوار تقرر في النهاية إعطاء رولينسون حرية العمل لتنفيذ مخططه .

أمكن تطبيق المخطط الجديد بنجاح ، وبخسائر أقل بكثير عن تلك التي تم تحملها في هجوم الأول من تموز (يوليو) عندما جوبه الهجوم بالفشل تقريباً ، وكانت الثياب الرمادية تتفوق عددياً على الخاكي في ميدان المعركة . وقد أثر هذا المشهد ونقيضه تأثيراً كبيراً على مستقبل تفكيري العسكري .

تحركت فرقتنا للهجوم الجديد في يوم ١٠ تموز (يوليو) ، وكان اللواء الجديد يعمل

في المقدمة ،وكانت مهمةاللواءين التابعين له العمل كقوةاحتياطيةعلى جناح غابةماميتز ، وكان من المذهل حقاً رؤ ية الخنادق وقد اختفت من الوجود في هذه اللحظة ، مع خطوط متصلة من المدافع التي تمركزت في العراء وهي تقف على نسق وعجلة المدفع تكاد تلامس عجلة المدفع الذي يجاوره .

تحركت فرقتنا للهجوم الجديد مع أول ضوء من يوم ١٤ تموز (يوليو) ولم تلبث المعلومات أن أخذت في الوصول من الأمام إلى الخلف عن اختراق الجبهة الألمانية ، وبعد الظهر أمكن مشاهدة حدث اكثر اثارة وهو ظهور الفرسان (الخيالة) وهم ينطلقون نحو الأمام . ولكن لم يتم سوى زج سريتين من قوة الخيالة ، لم تلبثا ان توقفتا بسرعة تحت تأثير نيران بعض المدافع الرشاشة الألمانية ، ومما زاد سوء الحظ أن قائد فيلقنا (الجنرال هورن) كان قد أوقف المشاة منذ الصباح وأعاقها عن استثمار الثغرة للاندفاع واحتلال غابة (هاي وود) في الوقت الذي كان فيه من الواضح تماماً أن هذه الغابة خالية من القوات الألمانية ، وطلب الى المشاة (ترك أمر هذه العملية للفرسان) . ونتج عن ذلك عدم احتلال (غابة هاي وود) إلى ما بعد شهرين ، ولم يتحقق ذلك إلا بعد فشل عدد من المحاولات تم خلالها تكبد خسائر فادحة .

تحرك لواؤنا في صباح اليوم التالي إلى الامام بهدف تلبية كل طلب عند الحاجة ، وتوقفنا عند تخوم غابة ماميتز ، تحت حرارة الشمس اللاهبة وفي وسط صفوف الجثث المتسخة وروائح التعفن القوية للرجال الذين سقطوا وهم يحتلون الغابة في الاسبوع الماضي . وعندما اندفعت إلى داخل الغابة وجدت أن الموت ينتشر بكثافة اكبر مع اكوام على الأغلب من الانكليز والألمان في مدافن جماعية ، وقد كان ذلك نتيجة للقصف المرعب ، وهنا تقدم مني حفار قبور قديم في الجيش لينصحني بلهجة أبوية للابتعاد عن المكان فيما اذا أردت الاحتفاظ بروحي المعنوية من أجل متابعة تنفيذ الواجب .

تم ارسالي في اليوم الثاني مع سريتي لسد ثغرة كانت قد تشكلت في الخط الجديد للجبهة ، عند التخم الأمامي (لغابة بيزنتين الصغيرة[٢٢]) وكانت النيران الألمانية مزعجة جداً هنا وذلك لأن القنابل كثيراً ما كانت تصطدم بأغصان الأشجار ، فتنفجر وتتساقط مع رذاذ كثيف من الدليف (المتطاير من الأشجار) . وأثناء الطريق ، اخترقت رصاصة يدي اليمنى وبعد تضميدها تمَّ حملي ، على حين بقي هناك ضابط واحد ، لم تكن لديه الخبرة الكافية للاضطلاع بأمور السرية ، وعندما جاءت سريتان من فوج آخر لتبديلنا كالعادة .

كان على سريتي الانسحاب والرجوع الى الخلف من أجل الالتحاق بقوة فوجنـا ، وقـد وصلـت اسماعنـا خلال المرور بغابـة ماميتز ، وفي وسـط الظلام اصـوات كمية من القـذائف وهـي تصطـدم بالأرض حولنـا ولـكن مع صوت انفجـار ضعيف ممـا يشـير الى ان هذه القـذائف لم تنفجـر ، وخـلال لحظات قصيرة كانت هناك رائحة قوية للغاز . وكان هذا الإعـلان الأول لنـا باستخـدام الألمان لقذائف غازية تتم تعبئتها بنوع جديد هو (الفوسجين) ، وهو اكثر تدميراً وأقل إيلاماً من غاز (الكلورين) الذي استخدم للمرة الاولى قبل عام ، حيث كان يتم قذفه بإسطوانات تثير غيوماً (سحابة) تتحرك بصورة بطيئة . وعلاوة على ذلك فإننا لم نكن نعرف أن أول التدابير التي يجب إتخاذها بعد ظهور كمية من الفوسجين ، الذي يستطيع إحداث تأثير متأخر لمدة يوم أو يومين بعد قذفه ، هو الانبطاح على الأرض فوراً ، وتجنب كل جهـد ممكن .

تملكتني نوبة حادة من السعال ، ولكنني بقيت واقفاً في البقعة ذاتها من أجل الإنذار وتوجيه الفصائل التي كانت تسير متتابعة . وبعد ذلك أسرعت نحو الفصيلة المتقدمة في نقطة الإزدلاف والتجمع ، حيث عملت على قيادتها جميعها حتى مركز إقامة الفوج .

وعندما طلع الصباح ، توجهت إلى أقرب مستوصفات الميدان من أجل الحصول على ضماد جديد لجرحي ، وكنت أشعر بأن الأمر أكثر سوءاً ، لكنني بقيت غـير مقـدر لدرجة الخطورة ، وهناك صمموا على إجراء فحص لصدري ، ووضعوني فوراً على ناقلة الجرحى (الحمالة) ، ثم نقلت إلى محطة اخلاء الجرحى في كوربي ومنها إلى مستشفى دوقة وبستمينستر في توركيه ، وبعد فترة قصيرة وصلت مستشفى الملك ادوارد السابع في لندن الذي كان بإدارة شخصية ديناميكية (نشيطة) تعرف بإسم (سيستر آغنية) وهي صديقة مقربة جداً من الملك ادوارد السابع ، وكانت توحي بالمحبة وهي تعامل مرضاها ، كما كان لديها أفضل الأطباء في لندن ممن كانوا ينتظرون أوامرها .

عملت خلال فترة النقاهة من خريف عام ١٩١٦ ، على كتابـة كتيب صغـير عن معركة السوم ، بعنوان (انطباعات قائد سرية) . وأرسلته الى دار نشر كانت معروفة جيداً هي دار نشر سميث ، ايلدر وشركاه ، وقد وافقت الدار على نشره كمسلسل على اربعة حلقات في مجلة كورنهيل ، ونشره ككتاب في الوقت ذاته . لكن وزارة الحرب في النهاية لم تمنح تصريحاً بالنشر ، على أساس ما يتضمنه الكتاب من دقائق تفصيلية كثيرة قد يفيد منها

الخصم . وعندما أعيد النظر في الأمر الآن ، اجد نفسي أمام أحجية لهذا القرار ، وأصاب بالذهول أكثر للحماسة في إغداق الثناء على من القادة البريطانيين الكبار وفي طليعتهم هيغ ويمكن الحاق نسبة مثل هذه الأخطاء التي شهدتها إلى التهاون تجاه الضباط الصغار . وقد عثر المؤرخ العسكري الرسمي للجيش البريطاني « الجنرال ادمون » بعد ذلك بعشرين عاماً تقريباً على نسخة مخطوطة عن الكتاب ، فأرسل إلي رسالة حول التناقض الكبير بين يومياتي عن الحرب وبين وجهات نظر القيادة العليا من احداث الحرب . وقد أجبت على ذلك بأن الكتاب يعتبر برهاناً قوياً على أنه لم تكن لدي نوازع قوية ضد القيادة العليا مع وجود ميل قوي لدعمها وتجنيبها الأخطاء عن طريق ابراز الحقائق عندما كنت قادراً على تحليل مخططاتها وعملياتها . لقد عملت أيضاً على إرسال نسخة مطبوعة بالآلة الكاتبة إلى جيوفري باتلر المشرف عليَّ في مادة التاريخ في جامعة كامبريدج . وعمل باتلر على عرضها على عدد من الأصدقاء ، بينهم جون بوشان ، الذي كان يعمل خلال تلك الفترة في القيادة العليا بمهمة نسخ وتسجيل تقارير هيغ عن المعركة . وعندما جاء بوشان في عودته التالية إلى لندن ، طلب إلي الذهاب للالتقاء به وتبادل الحديث معه في منزله في حي بودتلاند ، وأعلمني أن هيغ قد وافق على اقتراح بانشاء قسم صغير للتاريخ في القيادة العامة العليا . وأن الفكرة تتلخص في الحاق أحد أعضاء قسم التاريخ على كل قيادة من قيادات الجيش ، وحق هؤلاء الأعضاء في حضور جميع المؤتمرات ودراسة جميع الإضبارات . وبذلك تتوفر له إمكانات وضع ملاحظات تاريخية ، وذلك قبل ان تصبح الذكريات غامضة وغير واضحة ،وقبل أن يتم تحريف البراهين والشواهد . وعرض علي بوشان العمل في هيئة أركان قسمه للتاريخ . ولسوء الحظ ، فإن تشكيل هذا القسم قد تأجل قبل أن تعتل صحته بعد ذلك . حيث عين بعدها كمدير للإستخبارات في وزارة الداخلية ، وبذلك فشل مشروعه وسقط . التحقت بعد ذلك ، ومع نهاية كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ في الفوج الثاني للوحدات الملكية الخاصة بيوركشاير من المشاة الخفيفة ، حيث كان الفوج يتمركز قريباً من هيل ، HULL ، ولكن نظراً للتوصية الطبية بالعمل (في الخدمات الخفيفة والمكتبية) فقد تم ارسالي إلى يورك كمساعد للعقيد المكلف بسجلات المشاة . وكان علينا أن نعمل هنا ، ونحن في منتصف الشتاء ، ضمن حدود مكتب ضيق ، من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة السادسة مساءً أو إلى ما بعد ذلك ، مع العمل ايضاً أيام العطل الرسمية (الآحاد).وكانت القضية المثيرة للغثيان والتقزز هي قضية ارسال الرسائل والبيانات الرسمية لأرامل الرجال

أو أقاربهم ممن أصدرت المحاكم العرفية في الميدان حكمها عليهم بالإعدام ، منوهين إليهم بالحكم قبل حمل الرسائل الى الخارج . وكنت اتخيل حتى ذلكِ الوقت ، مثلي في ذلك مثل اكثر الجنود ، بأن مثل هذه الإجراءات تكون مموهة بطريقة ما كحادث وفاة وعندما قدمت احتجاجاً على قسوة هذه الأساليب المتحجرة في الاعلام ، أخبروني بأن الأساليب المتبعة انما تعني توفير النفقات على الحكومة .

تلقيت بعد أسابيع قليلة عرضاً للعمل كقائد ثان في فرق الطيران الملكية ، وقفزت الى هذا العرض وأمسكت به . فتم ارسالي إلى سرب أسترالي في قيادة القوات الجوية التي كانت على وشك الإنتهاء من تشكيلها ، وقد طلبت إرسال قائد معاون بريطاني إلى أن يتوفر ضابط أسترالي . وقد التحقت بمطار هارلاكستون القريب من غرانشام[٢٢] . وكان العرض والإستعراض الذي قمت بتفتيشه بشكل صدمة لأي واحد تعود على أنظمة اللواء البريطاني ، فلم يكن هناك بالكاد رجل واحد يرتدي ثياباً مماثلة للآخر ، أو زياً عسكرياً كاملاً . ولكنني وجدتهم على رغبة شديدة لتحمل المسؤولية والذهاب الى خطوط الجبهة مع ما كان يظهر لهم بأنه عادات غريبة . وكان هناك ما هو اكثر أهمية . وهو حرصهم على تطبيق قواعد الإنضباط الاساسية في تنفيذ كل عمل باتقان وعدم إهمال أي تفاصيل في عملهم على الطائرات .

كان الضباط الطيارون على درجة عالية من الكفاءة والمهارة ، ولكنهم شديدو الحماسة والغضب عندما يكونون خارج الخدمة . وكثيراً ما سجلت ملاحظة ساخرة أو جملة لاذعة ، نظراً لأن واجبي الرئيسي تجاههم هو وضعهم في أسرتهم ليلاً عندما يكونون قد تناولوا كثيراً من المشروبات بحيث يصعب جداً عليهم الذهاب وحدهم وبإرادتهم إلى أسرتهم . وكان بعضهم يرغب في الذهاب لصيد الأرانب (عن طريق الجو) قبل تناول طعام العشاء زوجياً ، وكان أحدهم يعالج إصلاح جهازه ، في حين كان طيار آخر يعمل على ممارسة هوايته بصيد الأرانب وهو في مقعد رمي الرشاش داخل الطائرة وفي مقدمتها ، وذلك عندما تكون الطائرة تقوم بالتحليق على ارتفاعات منخفضة جداً فوق الحقول وعلى تخومها . وكان من الممكن استخدام الطائرات المكبسية ذات المحرك المزدوج والتي كانت تصنع في تلك الأيام للرمي والقنص ، ولو أن حصيلة الصيد لم تكن لتتناسب أبداً مع الجهد ومع الاسراف في اطلاق الطلقات . وعندما كنت هناك تزوج أحدهم وعند العودة من شهر العسل ، الذي كانت فترته قصيرة بسبب الحرب ، كان العريس يرفه عن نفسه في الصباح المبكر بالانطلاق لايقاظ عروسه باصطناع الحركات البهلوانية بالطائرة حول

منزله ، مع خدش الجدران تقريباً بطرف جناح طائرته .

حدث خلال تلك الفترة حادث التصق بذاكرتي كضوء جانبي يبرز أنواع الشجاعة المختلفة . وقد تصادف ذلك اثناء المسير عبر الحقول مع طيار كان قد حصل على عدد من الأوسمة للكثير من أعماله البطولية ، وذهب للطيران بأعصاب ثابتة بعد أن سحقت طائرته بحادث خرج منه بجراح كبيرة . وعندما كنا نتابع تجولنا هبطت طائرة تابعة لسرب آخر وتوقفت على مسافة قريبة حيث كنا ، واثناء العمل على إخراج طيارها انزلق هذا على درجة المروحة قبل أن تتوقف المروحة عن الدوران ، وكاد رأسه ينفصل عن جسمه تقريباً . وقد كان ذلك منظراً مروعاً ، ولو أنه لا يزيد في بشاعته على المناظر اليومية في ميدان المعركة ، ولكن ما أذهلني حقاً هو رؤ ية رفيقي وقد حافظ تماماً على هدوئه وضبطه لأعصابه . وهناك مشهد آخر يظهر مثل هذه الفوارق وهو موقف ضابط كنت أعرفه منذ عام ١٩١٥ حيث كان عصبياً لدرجة مخيفة وهو في الخنادق فتم إرساله الى قاعدة في المؤخرة كحامل لجرثوم الخوف ، ولكن تم تأهيله هناك كطيار في القوات الجوية ، وأظهر شجاعة رائعة ، عند الهجوم على زابلين مما حمل القيادة على التوصية بمنحه وسام الشجاعة .

وصل بعد مدة قائد ثان استرالي لإجراء التبديل معي في هارلاكستون ، وبرزت لي على الفور فرصة جديدة في مجال تدريب المشاة . وكانت وزارة الحرب البريطانية قد قررت في وقت مبكر من عام ١٩١٧ تطوير قوة المتطوعين . (وكانت هذه القوة في الحرب العالمية الأولى معادلة ومكافئة لقوة الحرس الداخلي[٢٤]، في الحرب التالية) مع تبديل النظام بنظام اكثر فاعلية مما كان عليه وضع قوات الحدود في بداية الحرب ، وكان القسم الاكبر من هؤلاء يخدم في وحدات ما وراء البحار . وتبعاً لهذا القرار تم دعم افواج قوات المتطوعين بقادة نظاميين (عاملين) وعناصر للتدريب من ضباط الاحتياط . وتم تعييني كقائد ثان في احد هذه الأفواج (من لواء غلاوسستر ، شاير) الذي كانت قياداته تتمركز في ستررود ، في حين كانت وحداته تنتشر لتغطي النصف الغربي للاقليم .

التحقت بالفوج في شهر نيسان (أبريل) . واكتسبت ترفيع درجة على نحو ما حدث لي في نيسان (أبريل) السابق . وكان قائد الفوج ضابطاً نظامياً (عاملاً) في سلاح الفرسان قبل ذلك . عندما كانت الحذقة في سلاح الفرسان (الخيالة) انما تعني الحصول على مكانة اجتماعية رفيعة ، وكان لذلك اكثر استعداداً من اجل اطلاق يدي في الإسراع

بتطوير الفوج وتدريبه . وكانت فرصة العمل لي في مجال غير محدود ، ذات قيمة كبيرة لتطوير امكاناتي الذاتية .

كانت جولتي الاولى بين السرايا والمفارز المنتشرة حول المنطقة ، كافية لترك انطباع مرعب مما يذكر بأسوأ وحدات الحدود ، أو بنسق افواج الجيش الجديد الذي تم تنظيمه في العام ١٩١٤ . وزيادة على ذلك ، فقد كان هناك قصور واضح في الحماسة بين القوات وذلك باستثناء ما كان متوفراً من هذه الحماسة بين قدامى الرجال ممن التحقوا بالخدمة منذ أن تم تشكيل القوة الأساسية . وكان هذا العيب طبيعي جداً لأن قوة المتطوعين ، كما يدل عليهم اسمهم ، قد أصبحوا الآن وهم يشكلون حجماً كبيراً لهم امتيازاتهم الاستثنائية . (وكانوا قد الزموا بالخدمة كمجندين لمدة محدودة كشرط لاستمرار خدمتهم مع اعفائهم من الخدمة الالزامية) .

فكرت أن أعمل في البداية على احكام الانضباط ، ورفع مستوى التدريب . وعملت على وضع بطاقتين ـ على شكل نشرتين ـ وهما تتضمنان وجيزاً للنقاط الرئيسية ، وتم توزيعهما فرديا على كل مقاتل في الفوج ، بهدف ضمان عدم حدوث الاخطاء نتيجة للجهل . وبدأت الوحدات الأخرى في ارسال طلباتها بسرعة للحصول على هذه البطاقات . فتم العمل على طبعها واصدارها للبيع من قبل (دال وبولدن) وهم الناشرون الاختصاصيون للمطبوعات العسكرية وتم النشر تحت عنوان (دليل الانضباط للمتطوعين) و(دليل الانضباط للضباط المتطوعين وصف الضباط) وكانت هذه هي اول منشوراتي في النظرية العسكرية .

كان من الطبيعي أن تقابل جهودي في تلك الفترة بالكثير من المقاومة ، وقد ظهر ذلك لي بوضوح من خلال مطالعة مقاطع في أعمدة الحوار والشائعات للصحافة المحلية وهي تنقل ارادة (المتطوعين) في عدم تحولهم إلى (نظاميين) . وعلمت أن زعيم المعارضة هو صحفي محلي ، وعلى هذا ، فقد أفدت من تجربتي الحديثة في التعامل مع رجال الجو الأستراليين ، وطلبت إليه الحضور إلى منزلي في أمسية من الأمسيات لتبادل وجهات النظر بصراحة وبصورة غير رسمية . وبهذه الطريقة أمكن لي اقامة علاقات متبادلة للتفاهم ، وأصبح زعيم المعارضة على الفور واحداً من أكبر انصاري ومن أفضل الضباط المتطوعين . في حين تحولت المجموعة بكاملها إلى وحدة تعمل بحماسة للقيام طوعاً بكل عمل ، وذلك بصرف النظر عما يتطلبه العمل من وقت أو جهد .

ركزت معظم جهدي بعد ذلك ، وبمجرد تحقيق النجاح في تطوير التدريب والانضباط ، على تمارين الميدان والتدريب التكتيكي (التعبوي) . وقد اكتشفت تمريناً للهجوم من أجل اظهار (طريقة التنفيذ) بصورة مبسطة وبطريقة واضحة في حد ذاتها مع تمرين مبسط لطريقة فتح الوحدات ثم ضمها خلال المسير . كما عملت على وضع مخطط للتحرك وبالتالي الانتقال بواسطة العربات والخطوط الحديدية .

لقد امكن الوصول إلى نتائج مثيرة ، تبعث البهجة والسرور عند استعادة ذكرياتها ، ففي ذات مساء من شهر آب (أغسطس) خرجت لتناول العشاء ، وعند عودتي الى (سترود) بعد ذلك ، وجدت أن شوارع البلدة مكتظة بحشود افراد الفوج ، وهم يسيرون برفقة النساء من معارفهم وأصدقائهم ، ويشكلون منهن درعاً يحتمون به . وأعلموني بأن الأمر قد صدر للتحرك ، وأن مخططاتي للتحرك قد طبقت دون عائق ودون أي تأخير . وحتى دور عرض الأفلام (السينما) وضعت على شاشاتها استدعاء الجنود للتعبئة . ولكن عند الوصول إلى مركز القيادة وجدت القائد الثاني مساعدي ، الملازم ج.ج ستون وهو يعاني من القلق والاضطراب . ذلك لانه بعد ان تلقى من المراسل الامر بالحشد والتعبئة ، اتصل هاتفيا بمركز القيادة الواقع على بعد ثمانية اميال حيث وصله الأمر الرمزي (الكودي) بالتعبئة . وقد أعلمه رئيس السقاة بأن القائد يمسك باحدى نوباته الدورية في مباريات الشراب ، وأنه سمع بأن الألمان قد اخترقوا الجبهة الروسية فكانت أول فكرة خطرت للقائد هي ارسال الأمر الرمزي (الكودي) للفوج بالتعبئة . وحتى يتم منعه من اصدار مثل هذا الأمر فقد عمل سائقه على تعطيل السيارة ، لكن القائد عثر على دراجة نارية مع مقعد مثبت الى جانبها (سايدكار) من القرية المجاورة ، وأنه اتخذ طريقه إلى الفوج . وهنا أسرعت للمدرعات وأصدرت الأوامر إلى الرجال بتسليم تجهيزاتهم على أمل ابعادهم وتفريقهم قبل وصول القائد . ولكن لم أكد أفرغ من اتخاذ هذه الاجراءات حتى أعلموني بأن القائد وصل أرض العرض والاستعراض . ووجدته هناك وهو يلقي خطاباً ثملاً على الرجال الذين وقفوا وهم يتذمرون ويتململون من أمر التعبئة الذي ظهر لهم بشكل واضح عدم ضرورته . قد تدخلت عند أول توقف للقائد من خطابه ، وطلبت اليه أذناً بصرف الفوج ، فشتمني ثم تابع خطابه الموجه الى الجنود وهو يدور حولهم . وتدخلت بشكل مباغت خلال توقف القائد عن الخطابة من جديد وصرخت (عرض ، انصراف) ولكن لم يكد الرجال ينصرفون ويبتعدون حتى صرخ بهم طالباً اليهم التوقف . فتوقفوا ، ولكنني أصدرت الأمر بلهجة حازمة (انصراف) فابتعدوا . وعند ذلك استدار القائد نحوي وحاول

مهاجمتي . لكن مساعد اللواء والأخرون أسرعوا لتنفيذ أوامري فحملوه إلى (السايدكار) وطلبو إلى السائق مرافقته ألى منزله . واختفى في ظلمة الليل وهو يحاول القاء الرجل من على سرجه .

عملت بعد ذلك على رفع القضية لقائد القيادة الجنوبية ، ثم ذهبت لرؤية الناشرين في الصحف المختلفة الصادرة في الاقليم ، وطلبت اليهم التوقف عن نشر التقارير المثيرة التي كانوا قد أعدوها عن الحادث ، وفي الوقت ذاته تلقيت الأوامر باستلام قيادة الفوج لمدة مؤقتة . وكنت أشعر بالأسف لما حدث لي مع القائد . ولهذا بذلت قصارى جهدي لايجاد العذر له عند القيادة والسلطات المسؤولة . ونظراً لما كانت تعانيه القيادة من القلق حول تجنب كل فضيحة عامة ، فقد قررت عدم اتخاذ اجراء حاسم وسمحت له باستئناف قيادته . لكنه لم يستمر بعد ذلك طويلا ، فبعد أشهر قليلة ، وكنت قد نقلت من هناك ، اعاد هذا القائد الموقف ذاته خلال عرض للاحتفال بحضور المفتش العام ، وطلب اليه عند ذلك تقديم استقالته .

كان من الطبيعي أن تخلق (قصة التعبئة) ، ولو تم دفنها مؤقتاً ، موقفاً صعباً لا يمكن تجاوزه بين قائد الفوج وبيني ، فقد أصبح من الصعب عليه صبراً البقاء تحت رحمة معاونه ، وهو موقف خاطىء من الناحية المبدئية . ولهذا فقد طلبت نقلي ولو أنه مارس ضغوطه علي من أجل البقاء . وكان من الطبيعي أن يرزح تحت شعور أنه مدين لي فيما لو خضعت لضغوطه ووافقت على البقاء ، وكان ذلك دون ريب سيضعف من موقفه كقائد للفوج .

صدر الأمر بتعييني في كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، للعمل في مركز تدريبي مماثل في كامبريدج ، وكان لهذا المركز ميزة اضافية في كونه أكثر مركزية . وكان إلى ذلك يضم عدداً من العسكريين في أعلى مرتباتهم العلمية ومن المتميزين بحماستهم وبتبعيتهم للجامعة ، وقد ساعدوني للعمل باتصال وثيق مع طلاب الكلية الحربية النظاميين الذين كانوا يتمركزون هناك . وخلال هذه الفترة استمتعت ايضاً بالبهجة الكبرى في الحصول على امتياز العضوية المؤقتة مع اصحاب المراتب العليا في المعهد الملكي ، وهي الصلة التي تجددت بعد ذلك بمدة اثني وعشرين عاماً ، عندما حصل ابني على لقب (زميل في الجمعية التاريخية) من ايتون .

تزوجت في الأول من نيسان (أبريل) من الفتاة جيسي وهي أصغر بنات مساعدي السابق في ستراند ، الملازم ج . ج . ستون . وبعد فترة قصيرة قضيناها في شهر العسل ، استأجرنا شقة مفروشة في (جيزولين) . وكان الزواج حافزا لي ، ومساعدا أيضاً في تحقيق

الاستقرار من أجل العمل على تطوير افكاري العسكرية .

كنت في عملي الجديد اكثر قدرة على تركيز كل الجهد لتطوير التمارين التكتيكية (التعبوية) ، والتدريب الميداني . ولهذه الغاية ، وضعت كتيباً بعنوان (الوجيز في تدريب المشاة الجديدة[٢٥]) وهو كتيب انتشر بسرعة ، بحيث لم يقف تبنيه عند حدود قوة المتطوعين ، وانما تجاوز ذلك عندما تبناه ضباط الجيش من قادة الوحدات والقسم الاكبر من المدارس العامة .

وضعت في صيف تلك السنة أيضاً كتيباً جديداً بعنوان (تمرين المعركة[٢٦]وهو كتيب لم تلبث أن تبنته وزارة الحرب من أجل تعميمه على الجيش بكامله . وكنت قبل ذلك بوقت طويل أشعر بالحاجة لوجود اسلوب موحد تعمل بموجبه القوات عند انتشارها وعند اقترابها بعضها من بعض (فتح التشكيلات وضمها) مع الحاجة ايضاً لاسلوب يساعد الوحدات المنتشرة على القيام بتحركاتها (مناوراتها) ، بصورة اسرع مما كانت تضمنه اساليب المراسلات البطيئة ، وعلى هذا انطلقت في محاولتي بحماسة وعلى ضوء الاسلوب الذي طورته في السنوات السابقة . وكان الكتيب الجديد مساعداً لكل مقاتل على مستوى الفرد في المشاة ، فالفصيلة ، فالسرية وحتى الكتيبة أو الفوج وذلك من أجل فتح التشكيل وضمه وتغيير الاتجاه وتجنب الخسائر بتأثير نيران العدو خلال مرحلة التقرب . مع تأمين السيطرة والرقابة ايضا بمرونة اكبر وبسرعة اكثر . وقد أجريت تجربة على هذا الاسلوب في مناطق التدريب على مستوى الفوج بكامله ، وكانت لدي الامكانات والقدرة عندها للاحظة ما يمكن تطويره من الجزئيات أو الأعمال التفصيلية ، وعندما وصلت الى الشكل النهائي ، عملت على طبع الكتيب في اطار (نشرة تعليمية) .

استقبل الجنرال ايغرتون ، الذي كان مفتشا للمشاة في تلك الفترة ، ظهورا لكتيب بحماسة كبيرة . وحاول حمل السلطات المسؤولة في وزارة الحرب على اعتماده رسميا للتدريب . لكن المؤثرات المحافظة ، لا سيما في ألوية الحرس ، عارضت كل تغيير للتمارين الموجودة ، بحجة عدم توافقها مع متطلبات الاحتفالات والاستعراضات . مع العلم أنه لم يحدث أي انجاز لتطوير تمارين النظام المنضم القديمة والتي تعود الى ما كان يتم تطبيقه في القرن الثامن عشر كتمرين تكتيكي (تعبوي) يلائم المعركة ويتوافق معها . وعلى كل حال ، وعلى الرغم من اعتراضات المحافظين فان كتيبي (تمرين المعركة) قد استخدم على نطاق واسع خلال الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى .

كنت اعمل في الوقت ذاته لتطوير الاساليب التكتيكية (التعبوية) وبصورة خاصة

منها اساليب الهجوم وقد اكملت ذلك ودمجته مع كتيب (تمرين المعركة) ثم أصدرته في كتاب جديد يحمل عنوان (الاساليب الجديدة في تدريب المشاة)[٢٧] ظهر في فصل الخريف من تلك السنة ولكن انتشاره الواسع توقف مع نهاية الحرب في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) وقد أحبطت نهاية الحرب ايضاً فرصة تعييني في مركز أرفع بقيادة اللواء

لقد بعثت الهدنة ، ونهاية الحرب ، شعوراً عاماً بالاسترخاء والبهجة من أجل الانسانية ، وكانت مشاعري في هذه المشاركة مقترنة بخيبة أمل من الناحية الشخصية ذلك ن لوحة التعليمات الطبية الجديدة قررت استمرار عدم صلاحيتي للخدمة العاملة وبقي التصديق على تعييني الدائم في وحدات المشاة الخفيفة معلقاً حتى تثبت كفاءتي الصحية

لقد كانت تجربة ممتعة ومثيرة للبهجة ، أن أجد أفكاري التكتيكية (التعبوية) وقد ستقبلت بتقدير مناسب وأن تنتشر الكتيبات التي وضعتها على نطاق واسع ولكن هناك شيء واحد زاد في تقويمي له على الصدمة الواضحة التي سببها جهدي الأساسي في لفكر العسكري والكتابة ، وهو مدخل إلى كتابي في الجيش ٤٣٩ بعنوان (يوميات الخدمة في الجيش) وجاء فيه تقرير كتبه قائد عملت في الخدمة تحت قيادته في الفترة المبكرة من لحرب ، وتضمن التقرير (لقد عبر الرجال في مناسبات عديدة عن استعدادهم للسير وراء النقيب هارت حتى أعمق أعماق جهنم) وكان ذلك أمراً مباغتاً تحول إلى حافز قوي وان مثل هذا الحافز يستحق الوقوف عنده لقد كان الأمر مباغتاً لي لانني لم أكن عرف ابداً أنني أمتلك الخصائص الواضحة والقدرة القيادية على الاستقطاب وكان ذلك برهاناً على مقدار استعداد الرجال للتجاوب مع القيادة التي تظهر ادراكاً للمشكلة وتعطيهم الاحساس بانهم اذا ما قاموا بالعمل فانهم لن يدفعوا بطيش وبغباء ودون الاهتمام بهم ومن أجل تحقيق هذا الشرط الأساسي للقيادة الناجحة، وحرصاً على هذه الثقة الغالية ، تكون الحافز الذي دفعني لبذل الجهود في السنوات التالية بهدف التأكيد على أنه اذا ما ندلعت نار الحرب من جديد ، فانه لن تتكرر مرة أخرى قصة معركة السوم وغيرها

□ حواشي الفصل الاول □

١) كورنويل : CORNWALL

٢) كتشنرKITCHENER ، واسمه اللورد روبرتLORD-ROBERT (١٨٥٠-١٩١٦) من موالد بالي ـ لونغورد ، اكتسب شهرته في مصر والسودان وفي الترانسفال (جنوب افريقيا) خلال حرب البوير ١٩٠٠ وفي عام ١٩٠٢ تمت تسميته قائداً أعلى لجيش الهند ، ثم حاكماً عاماً في مصر ، ثم وزيراً للحرب في بريطانيا .

٣) KING'S OWN YORKSHIRE LIGHT INFANTRY (K. O. Y. L. I)

٤) TUNBRIDGE-WELLS

٥) لوسLOOS

٦) السوم : SOMME

٧) جون فرنشJOHN FRENCH

٨) دوغلاس هيغDOUGLAS HAIG وهو كونت بيمبرسيدCOMTE DE BEMERSYDE فيلد مارشال بريطاني من مواليد كيمرون بريدجCAMERONBRIDGE (١٨٦١ ـ ١٩٢٨) كان قائداً عاماً للوحدات البريطانية (١٩١٥ ـ ١٩١٨) وقد نشرت مذكراته حول الحرب العالمية الأولى عام ١٩٥٢ .

٩) الايبر : YPRES .

١٠) نزهة عظمى : GREAT PICNIC

١١) القذائف النجميةSTAR-SHELL قذائف تنفجر في الجو فتحدث ضياء ساطعاً يكفي لاضاءة مواقع العدو واكتشاف تحركاته .

١٢) هازبروكHAZEBROUCK

١٣) DOUCHESS OF WESTMINSTER'S HOSPITAL AT LE TOUQUET

١٤) SIDNEY ROGERSON'S BOOK «TWELVE DAYS»

١٥) ZEPPELIN زيبلين واسمه برديناند (كومت فون) عالم الماني عمل في ابحاث الفضاء (١٨٣٨ ـ ١٩١٧) وهو الذي صنع المناطيد الكبرى والقابلة للتوجيه ، واصبحت هذه المناطيد تحمل اسمه ، وقد استخدمت للاغارة على مواقع الحلفاء .

١٦) ايتابل : ETAPLES في مقاطعة بادوكاليهPAS DE CALAIS ـ وهي ميناء للصيد على بحر المانش . وتم فيها عقد معاهدة بين ملك فرنسا شارل الثامن وملك انكلترا هنري السادس في عام ١٤٩٢ . (المترجم) .

١٧) الجنرال هنري رولينسونRAWLINSON (HENRY)

١٨) ARCHIBALD MONTGOMERY TO-MONTGOMERY-MASSINGBERD

* هناك حادثة اعتراضية شهدتها تلك الأيام ، وهي زيارة العقيد (روني كامل)

COLONEL-RENNIE-CAMPBELL الذي اكتسب شهرته في قتال الحراب (في الحلبات) وقد ارسل للقيام بجولة من قبل القيادة العامة بمهمة التبشير (بروح الحربة) وتوجيه الجنود في وحدات الانقضاض ، واشباعهم بالشوق للدماء قبل الذهاب الى المعركة والمقصود من هذه الانتقامات الحادة هو إحداث تهييج في الرغبات المتجمدة عن طريق القيام بتظاهرة حية او عرض مثير لطريقة (قتل الالمان) بأكثر الطرق قذارة واكثرها بربرية وتمثيلا (تشويهاً) على ان يرافق ذلك إطلاق الايمان (القسم) على شكل جوقة اجماعية والصراخ المروع بصوت مرتفع لكن جهودهم اللاهبة لم تؤخذ بصورة جدية تماماً ، إنما اعتبرت على الاغلب كمسرحية هزلية تزيل التوتر عن المقاتلين وذلك من قبل الوحدات التي اكتسبت خبراتها من الحرب ، والتي كانت قادرة على ابتكار التعليقات الساخرة حول (المحاربين النظارة الذين يقفون حول مدرجات حلبات التدريب وهم يسكنون المنازل المريحة) عند المناطق الخلفية من الجبهة ولقد كان لهذه الطريقة بعضاً من الفائدة في مضاعفة اعداد الاسرى الالمان الّذين تم طعنهم بالحراب بعد ان رفعوا أيديهم مستسلمين او خلال قيادتهم الى معسكرات الاعتقال في المؤخرات والقواعد الخلفية وكان هناك تأثير ضار آخر وهو ان عدداً كبيراً من جنودنا فقدوا حياتهم (وهم يقتربون بحرابهم من الالمان في محاولة للقتل باسلوب هادىء) وفق الوصفات الملقنة لهم وبذلك تعرضوا للقتل وهم على مسافة قريبة من قبل خصوم كانوا اكثر منهم هدوءاً عندما سمحوا لهم الاقتراب حتى مسافة أقل من ياردين واكثر من ذلك ، فقد تصرف الالمان بحكمة عندما اعرضت وحداتهم عن تثبيت الحراب على البنادق حتى لا تتعرض لأي ازعاج قد يعيقها عن تحقيق هدفها الأساسي في اطلاق النيران

١٩) بابوم : BAPAUME قرية في مقاطعة بادوكالية قريبة من آراس ARRAS ذات موقع استراتيجي ، وقد انتصر فيها الفرنسيون بقيادة الجنرال فيديرب FAIDHERBE على البروسيين في عام ١٨٧١

٢٠) FRICOURT et LA BOISSELLE

اجتمع ثلاثة منهم ، وهم سبيسر SPICER واللنبرجر ELLENBERGER وانا على العشاء في العام ١٩٦١ في الذكرى الخامسة والاربعين لهذا الهجوم ثم تابعنا بعد ذلك اجتماعاتنا في كل عام ، أما الرابع فهو كي KEAY وقد قتل في ايلول (سبتمبر) ١٩١٦

٢١) الوادي السعيد HAPPY-VALLEY

٢٢) BAZENTINE, LE PETIT WOOD

٢٣) HARLAXTON near GRANTHAM

٢٤) الحرس الداخلي HOME GUARD

٢٥) AN OUTLINE OF THE NEW INFANTRY TRAINING

٢٦) BATTLE-DRILL

٢٧) NEW METHODS OF INFANTRY TRAINING

الفصل الثاني

أفكار ومناسبات

جاءت الهدنة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ عندما كان تفكيري التكتيكي يغلي كالمرجل ، وكانت السنة التالية من الفترات الصعبة للغاية حيث كنت أبذل جهدي لتطوير أفكاري ، وتحويلها حتى يمكن الافادة منها وتطبيقها . كل ذلك في تواقت واحد مع الصراع للبقاء في الخدمة في حين كنت أتألم من هجمة نوبات جديدة سببها اعتلال الصحة .

كان من الواضح بأنني لا أستطيع التعلق بأمل الانتقال للعمل في خدمة الألوية ضمن حدود المستقبل القريب . وعلى هذا فقد أخذت باقتراح للعمل مؤقتاً وفق مخطط التدريب الجديد للجيش والذي كان قد تم الأخذ به حديثاً ، وتم تعييني في محافظة لندن . وقد أفدت من هذه الفرصة ايضاً للالتقاء بالعقيد دانيال ، أمين قسم التاريخ في هيئة الدفاع الأمبراطورية التي كانت قد بدأت خلال تلك الفترة في التخطيط لوضع التاريخ الرسمي للحرب . وأعلمني بأن الجنرال أدمونز سيأتي بعد فترة قصيرة للإضطلاع بادارة هذه الهيئة ، وذلك بمجرد عودته من القيادة العامة في فرنسا ، وأنه من المحتمل أن يضمني إلى الهيئة .

عملت في الوقت ذاته على كتابة بطاقة بعنوان (الوصايا العشر في قتال الوحدة) وهي بمثابة توصيات حول (النظرية والتدريب) . واستخدمت والى أبعد حد تسمح له

معرفتي صياغة اصطلاح (قتال الوحدة) للدلالة على تجسيد وشمول (جميع الأسلحة التي يمكن بها تسليح المشاة دون ان تفقد مرونتها الأساسية) ويمكن للوحدة أن تضم عدداً مما هو دون الفرقة ، بحيث تستطيع كل واحدة القيام بمناوراتها المنفصلة والمستقلة عن الأخرى) وتكون بذلك (غير محددة بالعمليات الجبهوية) وقد أوضحت في هذه البطاقة بأن الفصيلة قد أصبحت الان هي وحدة القتال وفق المضمون الحاسم لهذا الاصطلاح ، وتابعت بعد ذلك اظهار ما يجب على وحدات المشاة جميعها عمله لتعميق فكرة الأمساك بكل فرصة ومناسبة للتحرك والمناورة ، حتى الوصول بالاستدارة إلى مجنبة الوحدات المعادية ، بذلك يمكن إحباط كل جمود في أعمال قتال المستقبل . وأرسلت هذه البطاقة في شباط (فبراير) ١٩١٩ إلى صحيفة الخدمات الملكية المتحدة التي نشرتها في عددها الفصلي التالي ، في أيار (مايو) ، وكان هذا أول موضوع تنشره لي الصحافة العسكرية ، وكان الحافز الاضافي هو طلب (صحيفة المشاة) التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية ، الاذن بنشر الموضوع ذاته على صفحاتها .

لقد شجعني ذلك على كتابة المزيد من الدراسات ، فكتبت (اقتراحات في التطور المقبل لقتال الوحدة) وعرضت في هذه الدراسة فكرة إشراك المشاة والدبابات سواء في التنظيم أو التدريب مما يضمن توفر فاعلية أكبر وتسارع أعظم في حالتي التقدم والهجوم . وتمت كتابة هذا الموضوع في حزيران (يونيو) ١٩١٩ ، وكان ذلك أول مدخل لي في مجال أعمال قتال المدرعات . وتم نشره في عدد تشرين الثاني (نوفمبر) من صحيفة الخدمات الملكية المتحدة ، ولكن هذه الدراسة لم تستقبل إلا بالقليل من الترحيب سواء من ضباط المشاة أو من ضباط المدرعات ، كما لم ترسل الولايات المتحدة الأمريكية طلباً بنشر هذه الدراسة في مجلاتها . .

مضى ربع قرن بعد ذلك تقريباً ، قبل أن يتم تحقيق هذا الاقتراح جزئياً خلال المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، حيث تم الأخذ بتشكيل ارتجالي في حجم اللواء كمجموعات قتال في القوات البريطانية . وعمل الأمريكيون على تبني تنظيم مماثل باسم (مجموعات قتال الألوية) كانت تتم فيها عمليا حمل بعض قوات المشاة على الدبابات لدفعها نحو الأمام ، وهو ما كانت تتم ممارسته على نطاق واسع في القوات الروسية . ولكن الفكرة لم تأخذ كامل ابعادها قبل عام ١٩٥٠ ، وفق ما كنت اقترحته لتكوين وحدات بحجم الفصائل لقتال وحدات الاستطلاع في جيش الولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى كل حال ، ففي الوقت ذاته ، تقدمت باقتراح في عام ١٩٢٢ لأنشاء نموذج جديد للجيش بهدف (المزج) في إطار أقل حسماً وجذرية . وبموجبه تعمل الدبابات والمشاة في العربات

المدرعة والمدفعية معاً في مجموعات قتال بحجم الألوية . وعندما نشرت ذلك بعد عامين في مجلة الجيش الفصلية لم يترك الموضوع سوى القليل من الانطباعات في القيادات البريطانية ، ولكن الجنود في الجيش الألماني بما عرف عنهم من العقول المتفتحة سرعان ما اجتذبتهم الفكرة فعملوا على الامساك بها .

منحت في نيسان (أبريل) ١٩١٩ ، إجازة مرضية ، وأفدت من هذه الفرصة للذهاب إلى كورنويل . وسافرت إلى هناك عبر الطرق البرية للمرة الأولى ، وكنت قد اشتريت في عام ١٩١٧ أول سيارة لي ، قوتها ثمانية احصنة ، ولها أسطوانة واحدة ، من نموذج روفر ١٩١١ لقاء ثمن ٢٠ جنيه استرليني . واطلقت عليها اسماً تعميدياً يتناسب معها وهو (علبة الضجيج)[1] ذلك أن ضوضاءها وجلبتها الكبيرتين كانتا تزيدان كثيراً على سرعتها . وكان تغيير السرعة في هذه السيارة غير مريح وغير ملائم ، وكأنما صمم بالاقتران مع المرتفعات الشاهقة في الطريق إلى كوستولد للبرهان على توفر أفضل الأمكانات لتعليم قيادة السيارة ، ذلك أن الفرصة الوحيدة للوصول إلى أعالي المرتفعات في مثل هذه السيارة ، هي في توقيت التغيير بدقة وبصورة صحيحة . كما كانت هذه السيارة تضمن الممارسة العملية الكبيرة للاصلاحات الجارية ، ذلك أنه كان من النادر القيام برحلة طويلة في النهار بهذه السيارة دون حدوث بعض الاضطرابات الآلية (الميكانيكية) مع حدوث خرق او خرقين للعجلات فوق الطرق الوعرة لتلك الأيام . ولكن وجدت الآن ، في عام ١٩١٩ ، بأنني أستطيع بيعها مقابل ٧٠جنيه استرليني نظراً لقلة عدد السيارات. واشتريت سيارة آرغو بثمن ١٦٠ جنيه استرليني ، وكانت ذات مظهر رائع بالمقارنة مع السيارات المعاصرة لها . ولكنها تعطلت ثلاث مرات في الطريق الى كورنويل . ولهذا قررت بيعها ، واعتبرت نفسي محظوظاً عندما عرض علي مرآب ٩٠ جنيها ثمناً لها ، وبقيت اكثر حظاً عندما لطخت ثيابي سيارة فرنسية تحمل اسم (الطفل ماشيس) وأنا في الشارع ، وتبادلت الحديث مع صاحبها ووجدت أنه على استعداد لبيعها ، ولم يطلب ثمناً لها أكثر من ١٥٠ جنيها ، وقد برهنت هذه السيارة على انها مركبة رائعة بسبب عدم حدوث أعطال بها . وخدمتني بصورة جيدة طوال الفترة الباقية لي في الجيش ؛ وكنت حزيناً عندما اضطررت لبيعها من أجل تغطية بعض الخسائر والنفقات التي تكبدتها في سيارة آرغو وقد أمكن الحصول على أكثر من التغطية بالحصول على مبلغ ٣٠٠ جنيه استرليني ثمنا لسيارة (ماشيس) .

ذهبت فور عودتي إلى لندن في حزيران (يونيو) إلى قسم التاريخ في هيئة الدفاع الامبراطورية حيث كان الجنرال ادمون قد أصبح الان رئيسا لها . وبعد تبادل الحديث

معه ، كتب إلى وزارة الحرب طالباً نقلي إلى قسم التاريخ . وكان من المفروض أن تتم الموافقة على هذا الطلب ، ولكن الفرع المالي تدخل في اللحظة التي كنت فيها على وشك البدء في عملي الجديد . فقد ظهر النظام (الاقتصادي والمالي) الجديد في هذه الفترة ذاتها ، وبموجب هذا النظام لم يعد باستطاعة الضباط الانتقال الى دوائر حكومية مع استمرار دفع الرواتب لهم من موازنة وزارة الحرب . عند ذلك حاول الجنرال أدمون والعقيد دانيال استصدار مرسوم بدفع مرتبي من موازنة مجلس الوزراء ولكن على الرغم من الدعم الذي حظيت به مذكرتهما وتوصيتهما (من قبل السير موريس هانكي - الذي كان في وقت واحد أميناً لمجلس الوزراء وهيئة الدفاع الامبراطورية) فقد كانت معارضة اقتصاد ما بعد الحرب قوية جداً بحيث لم تسمح بأي نفقات إضافية على ما هو مخصص للهيئة الدائمة في قسم التاريخ . وبذلك تحطمت امالي مرة أخرى في الحصول على مركز يساعدني على متابعة ميلي للدراسات التاريخية .

تم تمديد إجازتي المرضية في هذه الفترة أيضاً حتى شهر آب (اغسطس) . وتلقيت بعدئذ صدمة جديدة عندما تلقيت رسالة من وزارة الحرب تنوه إلى أنه بالاستناد إلى تقرير آخر لجنة طبية قامت بفحصي ، فانه يجب علي الخروج من الجيش . وأسرعت إلى وزارة الحرب وبعد مناقشات حامية مع ضابطين من هيئة الاركان - فرع الخدمة - أعلموني بأن الأمر سيتم الغاءه فيما لو استطعت اشغال منصب شاغر في اليوم التالي . ووافقت على هذا الشرط على الرغم من انني لازلت اعاني كثيراً من اعتلال الصحة .

اقتربت في فصل الخريف من مرحلة التسريح من الخدمة لعدم لياقتي الصحية ، ولكن وزارة الحرب اصدرت أمراً بالغاء قرار التسريح أثر احتجاج قيادة منطقة لندن ، وبفضل دعم اللجنة الطبية التي مالت إلى اتخاذ موقف ودي باتباع نموذج ويلسون في وضع رباط على العين عند النظر بالمنظار ، أو سماعة على الأذن للمصابين بنوع من الصم .

باشرت في هذه الفترة ذاتها بممارسة عمل كان من شأنه تحقيق المزيد من التطور في فكري العسكري . ففي إحدى زياراتي للجامعة الملكية ، طلب الي السيد كاري ، وكان أمينا للجامعة ، إلقاء محاضرات عن التكتيك . ومع تقديري لهذه الدعوة فقد كانت اجابتي بانني (أفضل الانتظار حتى احصل على معلومات أكثر واقعية للتحدث عنها) وقد ساعدني اقتراحه على حشد شامل للأفكار التي كنت قد بدأت بها قبل ذلك بمدة سنتين .

كانت عملية تطوير فكري العسكري من خلال تجربة تدريب الفوج فوق ميادين التدريب ، تختلف تماماً كما تبين لي عن التجربة التي اكتسبتها خلال الخدمة العاملة في

فرنسا . فقد كانت المشكلة مختلفة تماماً ، وكانت أكثر بكثير من مجرد تدريب الوحدات على اكتساب عادة ممارسة تدابير الحرب في خنادق الجبهة القريبة . فلو طلب إلى وحدات الدفاع المحلي (الوطني) مجابهة قوات غزو يتهدد الجزيرة البريطانية ، فان الموقف سيكون بعيداً عن تلبية المتطلبات في الوصول الى مزيد من المرونة والسرعة . وعندما درست مشكلة اجراء تقسيم ملائم وعملي لنظام التدريب ، تبين لي بوضوح تام ان دليل تدريب الجيش لما قبل عام ١٩١٤ قد أصبح بالياً ، في حين كانت نشرات التدريب الرسمية التي أصدرتها وزارة الحرب اثناء الحرب لسد النقص قد تركزت على حرب الخنادق ولم تعد ملائمة للمشكلة .

وهكذا ظهرت الحاجة لتطوير التدريب التكتيكي (التعبوي) لأسلوب التدريب الهجومي ، والدفاعي ، والهجوم المضاد بحيث يتوافق مع شروط الحركة ، بطريقة تضمن إصلاح المبادىء الأساسية المستخلصة من التجربة الماضية ، والأخذ بمعطيات التطور الجديد في الأسلحة .

وكنت بذلك مرغما على التفكير بتأمل أكبر وجديّة اكثر مما كنت فعلته من قبل وحتى الآن حول القواعد التكتيكية وتطبيقاتها على نحو ما تم تعليمه في عام ١٩١٤ والسنوات التالية . وكنت كلما أمعنت تفكيراً بكل ذلك ، كلما تعظمت الشكوك بصلاحياتها من وجوه عديدة ، وشعرت بمزيد من الحاجة للبحث المبرمج في النظرية العسكرية بكاملها ، على ضوء علاقتها بالتاريخ العسكري . وبدأت البحث من القاع حيث ميدان التكتيكات الصغرى التي كنت مؤتلفاً معها ، ثم عملت على تصعيد البحث في نظرية (الحرب الكبرى) وفق الاصطلاح الشائع في كتب ما قبل الحرب ، مثل كتب فوش وكولن ، ثم عاودت الهبوط من جديد نحو مستوى (التكتيكات الصغرى) محاولا من خلال هذه الجولة الاستطلاعية الوصول إلى رؤ ية أكثر وضوحاً للعلاقات بين المستويات المختلفة ، ومعرفة الطريق التي تستطيع بها الفكرة المهيمنة (والمعروفة باصطلاح مبادىء الحرب) الاستجابة مع هذه المستويات المختلفة .

لقد قادتني هذه المسيرة الفكرية الى نتيجة هي ان النجاح على جميع المستويات يتعلق بالوصول الى هدف مركب هو (التثبيت) والمناورة واستثمار الظفر . وتعني كلمة (التثبيت) شل قوة الخصم (سواء كانت على مستوى الجيش وحتى مستوى الفصيلة) وحرمانها من حرية الحركة ، أما كلمة (المناورة) فتعني تطوير التهديد الموجه ضد قوات هذا الخصم بشكل غير متوقع قدر المستطاع على أن يشمل التهديد جميع الاتجاهات المختلفة في وقت واحد لزحزحة العدو عن مواقعه . وأما (استثمار النصر) فهي العملية التي يجب

أن تتوفر لها المرونة والقوة لتنفيذها عندما تحين فرصة قطاف ثمار النجاح . وكنت كلما أمعنت التفكير في مشكلة الهجوم في عمليات القتال الحديثة ، كلما ظهر لي بوضوح اكبر ان استثمار النصر في كل اختراق انما هو (أكثر المراحل الحاسمة) في القتال وكانت النتيجة الأولى التي أمكن لي الوصول اليها هي أن حل المشكلة يكمن (في الاستخدام العملي للجرارات ذات السلاسل ، والتي تستعمل في الدبابات ، وتطبيقها على جميع أنواع النقل في ميدان المعركة أو على المسافات القريبة منها ، وذلك بهدف تجنب الارتباط بالخطوط الثابتة والتي تحتم التحرك على محاور الطرق) ولكنني وصلت أيضاً إلى نتيجة ثانية وهي أن التقنية الجديدة في التكتيك (استثمار النصر) من شأنها الذهاب بعيداً في طريق حل المشكلة ، مما يوفر الذريعة لتطويرها دون انتظار الوقت لايجاز الوسائل الضرورية للحركة ، وقبل توفر هذه الوسائل الميكانيكية (الآلية) لعبور الاقليم .

وصلت أفكاري إلى مرحلة كافية من الوضوح وذلك في بداية شهر شباط (فبراير) ١٩٢٠ ، وأصبح بالامكان صياغة هذه الافكار وكتابتها ، فبدأت بالاعداد للمحاضرة ، وفرغت منها بعد جهد ليلتين متصلتين وجاءت المحاضرة في حدود ثمانية آلاف كلمة .

وعندما دفعتها إلى السير ارثور ليتام أمين الجامعة أعلمني أن برنامج المحاضرات لا يضم أي فراغ حتى فصل الخريف ، واقترح تقديم المحاضرة في ذلك الوقت ، لكنني فضلت عدم الانتظار طويلا ، فأرسلتها إلى (مجلة الخدمة المتحدة)(٢) والتي كان رئيس تحريرها المقدم الصقر بولوك(٣) وهو المعروف بفاعليته لفكرية وانتاجه منذ سنوات عديدة . فقبلها على الفور ، ونشرها في عدد نيسان (أبريل) .

أخذت المبادأة في الوقت ذاته للاتجاه باتجاه اخر كان له أثره البعيد في مستقبلي فقد أرسلت نسخة (كوبي) عن الدراسة الى الجنرال ايفور ماكسز (٤) الذي كان مفتشاً عاماً للتدريب في الجيوش البريطانية العاملة في فرنسا خلال الأشهر الستة الأخيرة من الحرب ، وعمل كثيراً في اعادة تنظيم تدريبهم بعد الكوارث التي حدثت في ربيع عام ١٩١٨ . وقد أصبح الآن القائد العام للقيادة الشمالية . وكان قد عبر لي في رسالة بعثها في الخريف السابق عن موافقته الكاملة لما تضمنته مقولتي (قتال الوحدة) . وقد شعرت بالاحباط بعد مضي اسبوعين على ارسال رسالتي دون أن أتلقى الجواب . ولكنني تلقيت عند ذلك رسالة من احد ضباط هيئة اركانه (النقيب ايفيت) يعلمني فيها ان الجنرال ماكسز قد نظر بتقدير إلى مقولتي الجديدة فقرر تعميمها على القادة كما أرسلها إلى معاونه السابق في فرنسا اللواء وينستون دوغان بعد أن عينته وزارة الحرب لجمع دليل تدريب المشاة في جيش ما بعد

الحرب وقد كلف دوغان أيضاً بقيادة لواء المشاة العاشر . وكان هذا هو التشكيل النظامي الرئيسي للقيادة الشمالية التي أخذت من ليشغيلد مقرا لها وكانت افواج هذا اللواء موزعة على مسافات بعيدة في يورك وفي شيفيلد .

وصلتني بعد ذلك رسالة أخرى تطلب إلي إعادة كتابة الدراسة لتكون ملائمة للنشر في (المجلة الوطنية)(٥) التي كان يشرف على إصدارها ليو ماكسز أخ الجنرال ماكسز . وقمت باعادة صياغة الدراسة التي تم نشرها في عددي حزيران وتموز (يونيو ويوليو) على شكل قسمين الأول بعنوان (الرجل في الظلام ونظرية الحرب) والثاني بعنوان (نظرية جديدة في تكتيكات المشاة) وقد استخدمت خلال اعادة كتابة الدراسة لهذا الهدف الاصطلاح التكتيكي . والأسلوب المستخلص من عمل رجل يقاتل في الظلام وهذا ما أوصى باختيار العنوان .

أرسل لي ايفيت في السادس من اذار (مارس) ما كان قد تم سحبه من قسم (المدخل) في فصل (الهجوم) لكتاب (الدليل الجديد) . وقد أظهرت إنتقاداتي حول ما جاء في هذا القسم ، فطلب إلي إيفيت ، بناء على أوامر الجنرال دوغان ، أن اكتب نصاً جديدا يشتمل على افكاري ووجهات نظري . وقد تم قبول هذا النص فوراً ليحل محل النص السابق . ومن ثم فقد طلب إلي الذهاب إلى مقر القيادة الشمالية في يورك لمناقشة الخطوط العامة للدليل الجديد واقرارها . وعمل الجنرال ماكسز على تنظيم قضية سفري مع قيادة منطقة لندن ، ووصلت الى يورك في ٢٠ نيسان (أبريل) . وكانت لي هناك مع الجنرال ماكسز ودوغان ايفيت سلسلة من المنقاشات المفيدة جداً والممتعة ايضاً .

وجاءت ثمرتها المباشرة في الترحيب بكل مقترحاتي المتعلقة بالدليل الجديد ، وعقيدة القتال لما بعد الحرب . وعلى الرغم من بدء العمل في إعادة النظر بدليل الجيش منذ وقت مبكر من عام ١٩١٩ ، الا إنه لم يكن قد تم إنجاز سوى مسودة مجلد التدريب . وكان قد تم طبع هذا المجلد بأعداد ضخمة قبل الحرب ثم أدخلت إليه بعض التعديلات . وكان مخصصاً بكامله تقريباً للنظام المنضم وتمارين العرض والإستعراض . وبقي الواجب الرئيسي هو وضع مسودة مجلد الحرب الذي بقي العمل مستمراً لأنجازه .

طلب إلي الجنرال دوغان بعد أسابيع النقاش الطويلة الإنتقال إلى هيئة اركانه لمساعدته بوضع الدليل . وكذلك للعمل في كتابي (تدريب الميدان) و (تعليم التدريب في اللواء) . ولا أعرف مقدار إستعجال الجنرال ماكسز لهذا الطلب ، لكنني أعرف يقيناً مقدار ما أظهره من الحماسة في الموافقة على الطلب ، مع كتابة رسالة شخصية وبصورة

مباشرة للجنرال ليندن بيل[٦] الذي كان رئيسا لاركان الخدمة في وزارة الحرب ، طالباً اليه اتخاذ الترتيبات من أجل نقلي إلى القيادة الشمالية ـ ونظراً لتخفيض عدد ضباط هيئة اركان اللواء حديثا إلى ضابطين فقط (رئيس هيئة اركان لواء ، وضابط تدريب اللـواء) فقـد عملت وزارة الحرب على تعييني للوظيفة الثانية . لكن أوامر قيادة اللواء حددت واجباتي للعمل (كضابط معاون في اللواء للتدريب العسكري والأمور الادارية) . يمكن التنويه هنا إلى أنني كنت قبل أشهر قليلة قد نقلت إلى فرع الاركان العامة للقيادة في منطقة لندن ، حيث تعرفت على زميل لديه حماسة للتكتيك ويعمل في (فرسان الحرس)[٧] وهو اللورد غورت[٨] الذي كان برتبة رائد وبوحدة (الحرس ـ قاذفي القنابل)[٩] وقد حصل على وسام الملكة فيكتوريا في عام ١٩١٨ . وكان هذا التعارف بداية صداقة استمرت زهاء عشرين سنة ، وحتى إلى ما بعد عملنا المشترك في العام ١٩٣٧ وتعاوننا الوثيق مع هور بيليشا الأمين الجديد للدولة من أجل شؤ ون الحرب .

وتطورت الروابط بيننا بعد أن تم تعيين غورت في نهاية تلك السنة ليحل محل رئيس هيئة أركان إمبراطورية . ولقد استطاع غورت حتى عندما كان يعمـل في قيادة منطقـة لندن ، أن يجد الفرصة لأظهار قدرته القيادية الرائعة ، على نحو مماثل تماماً أظهره من قدرة في قيادته الميدانية ففي تلك الفترة كانت هناك شائعات كبرى في الجيش حول التأخير في عدم تسريح الجيش الاحتياطي . وفي أحد الأيام احتشد جمهور غاضب من الجند بشـكل غوغائي أمام مجال عرض حرس الخيالة (الحرس الملكي) في محاولـة لرفـع ظلاماتهـم وشكاواهم . وظهر الموقف بصورته السيئة عندما ذهب غورت إلى خارج القصر وتسلق قادمة المدفع ليتحدث اليهم ، وعوضاً عن توجيه الخطاب لتهدئتهم ، فقد عبر عن وجهة نظره بالنسبة لتصرفهم ، وانتقد سلوكهم بلهجة لاذعة وربما كان منظر شريط وسام الملكة فيكتوريا داعماً له في موقفه ، ولـكن على كل حال ، فقـد برهـن غورت على قدرتـه في تهدئتهم ، وكأنه (مروض للأسود) .

لقد كان غورت في الطليعة كرجل أعمال وإلى جانب ذلك فقد كان من اكثر الجنود الباحثين في الجيش خلال السنوات التالية للحرب ، وأوسعهم أفقاً ، و أعمقهم أثرا في ذكريات بعض القادة ممن خدموا تحت قيادته وبصورة خاصة منهم الجنـرال آلان بروك ومونتغومري خلال خدمتهم عندما كان غورت قائداً أعلى للقوات البريطانية العاملة في فرنسا أثناء تنفيذ العمليات في أصعب مراحل الحرب العالمية الثانية . ولقد احتفظت في إضبارة مراسلاتي بعدد من رسائله ، وهي تدحض باسهاب ما يقال عن اهتماماته بالجندية في حدود (الألبسة والأحذية) وبالتكتيكات الصغرى في ميدان معركته ، أو القول ببساطة

أنه كان (قائداً رائعاً لمستوى الفوج) ثم رفع إلى رتبة تزيد على مستوى إمكاناته الفكرية . ولقد كان عندما عرفته للمرة الأولى منصرفاً بجدية ودأب للدراسة بحيث لم يخصص سوى القليل من الوقت أو الاهتمام لزوجته الحلوة والجذابة . وبذلك فشل في تقديره لأهمية اللهو والعبث التافة كعامل له دوره في الاسهام بانهيار زواجه بعد ذلك بسنوات قليلة . ولم يبق له عندئذ من وسائل الترفيه سوى التركيز لمتابعة حرفته وتحقيق طموحه وتطلعاته وكان هدفه الذي أعلمني عنه في عدد من المناسبات خلال أحاديثه الودية في عام ١٩٢٠ ، هو أن يصبح رئيسا لهيئة الأركان .وقد وصل إلى ما يريده بعد ١٧ عاماً في وقت مبكر وبصورة إستثنائية وهو لم يتجاوز الواحدة والخميسن من عمره ، ولكنه دفع ثمناً باهظاً لذلك ، وبنتائج أبعدته مسافة كافية عن الشعور بالسعادة .

تتضمن حياة غورت العسكرية عدداً من المشاهد التي تصور خطورة أخذ الامور بجدية متطرفة ، وتبرهن بعض هذه المشاهد بما تلقيه من ظلال وضياء على خطأ اسلوب (العمل الآلي الرسمي) كما تظهر ايضا انه ليس هناك اسلوب لعمل الاركان يمكن اعتباره كاملاً ومعصوما من الخطأ . ففي ذات يوم تلقينا أمراً للعمل مباشرة على تسريح ضابط كنا في فرع هيئة الاركان العامة قد طلبنا الاحتفاظ به بصورة خاصة . واعتقد أن هناك ثمة خطأ في هذا الأمر ، فطلبت من المساعد العام في الفرع التأكد من صحة الأمر بالاتصال مع وزارة الحرب ، وعند الاتصال قيل له بأنه من غير المناسب السؤ ال عن مثل هذا الأمر الواضح والدقيق . ولما لم أكن راغبا في تجنب الموضوع أو التخلي عنه ، فقد بدأت العمل شخصيا لاتباع مسيرة الأمر عبر الفروع المختلفة في القيادة وامكن تحديد الخطأ عند العامل في الطبع على الآلة الكاتبة والذي مدد القوسين سطرا اضافياً عند كتابة لائحة مشتركة بالضباط هؤ لاء الذين يجب الاحتفاظ بهم واولئك الذين يجب تسريحهم .

* * *

هناك قضيةغير عسكرية أخرى تستحق التوقف عندها وذلك قبل ترك موضوع الفترة التي قضيتها في منطقة لندن ،نظراً لأن هذه القضية كانت ذات قيمة في مساعدتي بعد ذلك بسنوات قليلة . ففي صيف عام ١٩١٩ ، أفدت من فرصة إقامتي في لندن لزيارة (ملعب بطولات التنس) في ويمبلدن ، على نحو ما كنت أفعله يومياً في كل السنوات السابقة للحرب ، وتصادف لي أن قمت بتعليق للترحيب (بفريق التنس الأمريكي) وذلك في مجلة نصف شهرية تصدر عن الهيئة الرسمية للاتحاد الوطني لفرق التنس . وكانت هذه المجلة تعالج المباريات بعمق كبير ، وتبذل الجهد في هذا المجال أكثر من أي صحيفة أخرى ، وقد سبق لهذه المجلة أن نشرت لي منذ أيام ما قبل الحرب بعضاً من الرسائل . وقد اكتشفت مع تطور الاتصال بها أنه ليس هناك مراسل من قبلها لوصف أولى

مباريات اللقاء لما بعد الحرب في لعبة التنس بين الفرق الأمريكية - البريطانية . فعملت على ارسال تقرير عن المباريات يتكون من عمودين طويلين ، وعمل رئيس تحرير المجلة على نشره بكامله معلقاً عليه بأنه (منحة من السماء) .

طلب إلي على أثر ذلك أن أصبح المراسل الخاص للمجلة في انكلترا ، وان اكتب من المقولات والتعليقات بقدر ما أستطيع . وحصلت في السنوات التالية على تصريح لتغطية مباريات البطولات العالمية ومباريات كأس ديفيس . وعلاوة على ذلك فقد طلب إلي ناشر صحيفة (المانشستر غارديان) في عام ١٩٢٣ ، كتابة تقرير يومي لصحيفته ، كان يبرزه عادة في صفحة الانباء الرئيسية . وكان هذا التقرير في حدود عمودين . وكان لمثل هذه الكتابات فائدة مزدوجة ، فهي مهدئة وملطفة من جهة وهي ايضاً مفيدة لدعم عملي العسكري وكانت إلى ذلك ، ذات قيمة غير مباشرة كشكل آخر من أشكال الدراسات التكتيكية (التعبوية) .

* * *

اتخذت وزارة الحرب اجراءات نقلي من حرس الفرسان الى قيادة لواء المشاة العاشر في نهاية شهر أيار (مايو) ١٩٢٠ وذلك بناء على طلب الجنرال ماكسز ، وانتقلت من لندن الى ليشفيلد . وكان منحي فرصة الاشتراك في اعادة صياغة العقيدة التكتيكية (التعبوية) وتنظيم أساليب التدريب هو أمر مثير بالنسبة لي لا سيما وأنني لم أكن قد تجاوزت ٢٤ عاماً ، ولم يكن هناك شاب صغير بمثل عمري ، قد طلب إليه المساعدة في وضع الدليل الرسمي للجيش ، وفي الوقت ذاته طلب إلي الجنرال دوغان إعادة صياغة كتبي (تمرين المعركة) وتحول اسلوبه ليكون فصلاً يتضمنه المجلد الأول (التدريب) للدليل الجديد . وكان ذلك فألاً حسناً وبشيرا للمستقبل .

بعث بي دوغان بمجرد انضمامي لهيئة اركانه للقيام بجولة استطلاعية لميادين تدريب الأفواج ، وأظهر اهتماماً كبيراً بتقاريري . فكنت أشعر بالبهجة والمتعة في العمل مع قائد لديه مثل هذه القدرة في اثارة الاستجابة الجديدة عند كل من يعمل معه . وكانت هذه الصفات بالاشتراك مع اسلوبه المرح وغير الرسمي ، هي التي ضمنت له فيما بعد رصيداً كبيراً من الشهرة (الشعبية) كحاكم ناجح لجنوب استراليا وفيكتوريا . وكان من نتيجة ذلك أن طلب اليه الاستمرار في ادارة الحكم للمرة الثانية حتى بلغ من العمر ٧٢ عاماً . وكان قد مضى عليه في أستراليا حتى ذلك الوقت ١٥ عاماً .

لقد كان هناك ثمة اختلاف مذهل بين (ماكسز - و - دوغان) في مظهرهما وفي شخصيتهما . فقد كان ماكسز قصيراً أسمر اللون ، شاحب الوجه ، ذو عينين صغيرتين

وغائرتين ، وشار بين طويلين مسترخيين . مما كان يعطيه مظهر (زعيم من التتار) . وكان اصطلاح (زعيم التتار) مناسبا له تماماً بسبب الطريقة التي كان يتبعها في تعامله مع مرؤ وسيه من الضباط الأعوان (ملازم حتى النقيب) ممن عرف عنهم الكسل أو القدرة المحدودة وعدم الفاعلية . أما دوغان فكان طويل القامة ، أشقر اللون ، منتصب القامة ، ذو مظهر أنيق . فكان (يظهر جنديا في كل قطعة ـ انش ـ من جسمه) ولكنه كان أيضاً بعيداً عن كل ما توحي به عبارة التصلب التي يتميز بها الجندي . ولقد كانت له طريقته المتمهلة واسلوبه غير المتعجل في التحرك وفي الحديث مما كان يجعله على النقيض تماماً من ماكسز الذي يثير الإنسان بقوة مباغته وكانت عيناه تتلألآن ببريق وهما تعبران عن حدة ذهنه ، مما كان يشير إلى اصالته الارلندية المتميزة بحسن الفهم وصحة التقدير .

لم يكن التضاد بين مزاجي القائدين (ماكسز ودوغان) أقل وضوحا من التضاد بين مظهريهما . ولعل ذلك يوضح الانسجام والتوافق فيما بينهما وتشكيلهما فريقاً جيداً . فقد كان ماكسز يمسك بالنقاط البارزة في كل فكرة بسرعة رائعة ، ولو أنه كان يسيء لتقدير بعض النقاط أحياناً بسبب تفحصه السريع لها . وكانت طريقته الشرسة تحجب قلباً دافئاً ، إذ كان يحب بصورة خاصة الناس الذين يظهرون عدم الخوف منه ، وهو الى ذلك على استعداد دائم لقبول كل فكرة جديدة وتشجيعها والافادة منها .

طلب إلي دوغان كتابة أو اعادة كتابة عدد من فصول المجلد الثاني من (الحرب) في مجلد (تدريب المشاة) وذلك خلال شهري أيار وحزيران (مايو ويونيو) مع الالتزام في الكتابة بحدود مقترحاتي . ومنها فصول عن (استخدام الأرض) و (استخدام الدخان) و (النار والحركة) و (النار والتشكيلات في المعركة) و (وظائف القادة وواجباتهم في القتال) . ثم بدأنا بعد ذلك في تموز (يوليو) سلسلة من المناقشات حول الاطار الذي يمكن ضمن حدوده صياغة الفصول الرئيسية في (الهجوم) و (الدفاع) و (الحماية أو تدابير الأمن) . وافترضت أن دوغان يرغب في كتابة هذه الفصول بالذات ، وربما استخدام مقترحاتي بشأنها ، ولكن الاسابيع انقضت بعد ذلك دون القيام بأي عمل لكتابتها ، في الوقت الذي كانت فيه وزارة الحرب تمارس ضغوطها للاسراع في تسليم الكتاب ، وأصبحت على يقين بأن المجلد لن يكتمل أبداً إذا ترك للعمل بهذا المعدل من السرعة ، فبدأت بكتابتها ، وانصرفت للعمل بحماسة ، وفرغت مع بداية شهر ايلول (سبتمبر) مع أخذ موافقه دوغان عند الانتهاء من كل فصل ، وتم ارسال المجلد الى وزارة الحرب لطبعه كتجربة أولية (بروفة) .

تبين لي خلال كتابتي لفصل (الهجوم) بأن الاساليب المتطورة لعام ١٩١٨ ، والتي

استخدمها الألمان في البداية ثم الحلفاء فيما بعد ، لم تكن كافية لضمان استمرار الضغط او توفر القوى الضرورية للاجنحة الداخلية من أجل اختراق الدفاع المضطرب في العمق ، وتنفيذ ذلك بسرعة كافية لاحباط ارادة القتال عند المدافعين . فكانت تكتيكات الاختراق الجديدة ، تكفي لاختراق موقع واحد ، ولكنها لا تضمن المحافظة على معدل سرعة الهجوم خلال عمق المنطقة الدفاعية المعادية بكاملها والتي قد تصل الى أميال عديدة . وتلك هي التي لم يتمكن الطرفان المتصارعان من حلها خلال معارك الحرب حتى خلال المراحل الأخيرة منها .

وصنعت خطة للبحث عن أفضل الحلول الممكنة ، وقد تضمنت هذه الخطة سلسلة من التكتيكات المرتجلة في (لعبة الحرب)[١٠] مع استخدام افكار مشتركة ، واجراء مجموعة من العمليات القتالية لاسلوب الهجوم الذي يصبح فيه استثمار النصر بمثابة مراحل نصف ـ آلية (اوتوماتيكية) (يصل فيها كل قائد من القادة على مختلف المستويات بداية من الفصيلة حتى أعلى تشكيل مقاتل ، على زج قوته الاحتياطية ، على أثر أي شيء يضمن لوحدته التابعة له متابعة التقدم ضمن أفضل الشروط) . وذلك عوضاً عن التعرض للمجازفة في ضياع الوقت ، أو فقد المباغته ، أو حتى انتظار التقارير ووصولها إلى الخلف . مستنداً في ذلك الى الشرط العملي والمعترف به وهو (أن النجاح عادة ما يكون غير دائم وأن التقدم غير متساو بين جميع القوات) وبذلك تم وضع التصميم (للافادة من كل فرصة بصورة منهجيه) والاندفاع في التقدم بالوسائط المتوفرة وذلك بأسرع ما يمكن وبصورة مستمرة قدر المستطاع عبر الخط الأقل في مقاومته . وفكرت في البداية تسمية هذه الطريق باسم (توسيع رأس الحربة) . ولكن حدث عندئذ أن راقبت تدفق الماء في الجدول ، ورأيت تحرك الماء بصورة طبيعية لشق مجراه ، وتجنب العوائق والحواجز بما يتوافق ومفهومي للتكتيك . فقررت وصف العملية باصطلاح (توسيع السيل الجارف) وتصادف ان قرأت بعد ذلك بسنوات كتاباً قديما عن فن الحرب لقائد عاش قبل ألفي سنة هو القائد (سن ـ تزو)[١١] ووجدت أنه استخدم اصطلاحاً مشابهاً . عندما اصبحت مقتنعا بأن سير العمل وفق هذه الطريقة قد أصبح ممكنا بعد دراسته بشكل عميق وأنه أصبح بامكانه مجابهة جميع العقبات والعوائق المفروضة عملت على طرحه أمام دوغان ، وجربتها من ثم في لعبة للحرب اشترك هو ذاته فيها ، وقمت انا بقيادة الهجوم بطريقة (توسيع السيل الجارف) في حين عمل دوغان على قيادة الدفاع في العمق وفق نموذج عام ١٩١٨ . وقد أقنعه ذلك بصورة تامة ، وانطلقنا معاً إلى يورك لمقابلة ماكسز الذي عبر بحماسة عن موافقته في تبني هذه الطريق . وأكد أنه أصبح بالامكان ان يتضمن الدليل الرسمي الطريقة المقترحة .

كتبت فصل (الهجوم) بعد تسوية هذه القضية الأساسية ، ثم انتقلت الى (الدفاع) . وكانت مشكلة الدفاع في منظوري ، هي في الوصول إلى إجابة ملائمة وفعالة ضد اسلوب الهجوم الجديد . وظهر لي بأن مفهوم (الثبات والمناورة) يجب أن يطبق على الدفاع ،في مثل اسلوب تطبيقه على الهجوم وبشكل صحيح واحد على جميع المستويات بداية من أصغر وحدات القتال وعملت وفقاً لذلك على وضع اسلوب ارتجالي للدفاع بعمق ، يتضمن هذه الأسس ذاتها وأطلقت عليه اسم (خطة الخنق المضاد)[١٠٢]وكانت هذه الخطة تشتمل ضمناً على فكرة ايقاف الخصم ، عن طريق الدفاع العنيد والشرس وبالاشتراك مع المباغته التكتيكية ، سواء بتنظيم النيران ـ المضادة والرمي الضام ، او بتنظيم الهجمات المضادة على الأجنحة .ووافق دوغان بعد المناقشة والاختبار (على أن المهاجم الذي يستخدم التسلل أو تكتيكات الأجزاء المرنة ـ المستخدمة في العام ١٩١٨ ، سيفشل في هجومه عند مجابهته لمدافع عنيد يعتمد في دفاعه على اسلوب ـ خطة الخندق المضاد ـ وهذا هو منتهى الرجاء في اسلوب مجابهة الهجوم وفق خطة(توسيع السيل الجارف) .

عملت على اكمال كتابة فصل (الدفاع) ثم انتقلت لكتابة بقية الكتاب مستخدماً الأفكار الأساسية ذاتها ، وإلى أبعد مدى تظهر فيه هذه الافكار ملائمة وممكنة للفصول أو الأقسام الأخرى ومنها (الحماية) ، و (القتال في الأقاليم المغلقة ـ المحدودة) و (القتال في الغابات) و (القتال في القرى) و (التعاون مع الدبابات) و (التعاون مع المدفعية) و (العمليات الليلية) . وقد أوضحت خلال معالجة موضوع (الحماية) سواء في الحركة أو عند التوقف بأن عمل الحرس الأمامي ومراكز الدفاع الخارجية . إنما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالهجوم والدفاع لوقايتهما من التغيرات الخفيفة . وهي بذلك غير منفصلة عن تكتيكات (السدود المائية والعوائق المستقلة) بخلاف ما كان متبعاً منذ زمن طويل . وقد أشرت إلى ان استخدام (مراكز الدفاع الخارجية) انما يعني وببساطة تنظيم دفاع مؤقت ودمرت الطقوس القديمة في (مجموعات الحرس ، والتغيير ، والدعم) فأنقصتها إلى صفحتين لا أكثر بعد أن كانت تشكل أقساماً طويلة في دليل قتال (ما قبل الحرب) . كما أسقطت الفصل القديم الذي كان يحمل عنوان (الحماية) ، وأطلقت على الفصل الجديد اسم (تدابير الحيطة في الحركة والتوقف) وذلك لاعطائه مضموناً اكثر عمقاً وشمولاً .

كان التغيير الأكثر أهمية في مصطلحات الكتاب بكامله ، هو ادخال مصطلحات (الكتلة المتقدمه) و (كتلة المناوره) عوضاً عن المصطلحات القديمة وهي (خط النار) و(الدعم) وذلك بهدف تعميق فكرة مناورة الاختراق في الاذهان كبديل عن العمل

الخطي . وعلى هذا ، فانه يجب توزيع الفصائل بين (فصائل متقدمه) و (فصائل مناوره) في حين تـوزع الأفواج على ثلاثة أقسام . يكون ثالثهـا هو (الاحتياط) الـذي يضطلع بواجب الاستمرار في استثمار النصر وراء الافواج التي تحقق الواجب الأول ، وذلك حتى تصل الدبابات سريعة الحركة ، او الوحدات المتحركه الاخرى ، وتعمل على المرور من بينها للوصول باستثمار النصر الى عمق أكبر . وقد أظهر الجنرال ماكسز ترحيبه بالمصطلحات الجديدة كعامل مساعد لاستئصال رواسب المفاهيم القديمة أو العادات التي أطلق عليها بصورة خاصة اسم (الجمل المقيتة والعبارات البغيضة) المرتبطه بخطوط النيران ، أو بكلمات أخرى ، القضاء على فكرة حشد الرجال ، في وحدات مختلطة ، ثم دفعها الى الأمام في كتل من الرجال بهدف ايقاف الرصاص دون أي فكرة للمناورة .

أوضحت عند كتابة الدليل الجديد الأهمية الحاسمة لدور القادة ، على اختلاف مستوياتهم ، فالاندفاع في العمق لمسافة أبعد مما كان يتم تطبيقه حتى الان ، قد فرض على هؤلاء القادة البحث لاقتناص كل فرصة من أجل ممارسة المناورة والعمل على استثمار النصر دون إضاعة أي فرصة . وقد عملت على استخدام وسيلة أخرى تصل الى النهاية ذاتها ، وهي ادخال اسلوب (الاتصال نحو الأمام) وذلك عوضاً عن انتظار وصول الرسائل من الأمام الى الخلف . وأشرت الى أن القادة في الميدان ، ستكون لهم مشاغلهم الكبرى في ادارة المعركة مما يحملهم على تأخير ارسال تقاريرهم عن الموقف ، ودعمت رأيي بحجة ، وهي أن باستطاعة القائد الأعلى في كل مستوى من المستويات ، استخدام (المراقبين المتقدمين الى الأمام) للعمل بصورة خاصة في تنفيذ واجبهم الوحيد وهو مراقبة تقدم الوحدات الأماميه وارسال التقارير عن الموقف . وكانت هذه هي احدى النقاط الرئيسية في مسودة الدليل الجديد ، الذي اشتمل على ثمانين نقطة مستحدثه .

أرسلت الأقسام الخاصة بتعاون الدبابات والمشاة ، من مسودتي ، الى العقيد فوللر، الى رئيس هيئة الأركان العامة، والموجه الفكري لفيلق الدبابات في فترة الحرب. وكنت قد قابلته في حزيران (يونيو) ١٩٢٠ . وشعرت بالسعادة عندما علمت أنه وافق على ما جاء فيها . وأرسلت اليه في الوقت ذاته مسودة موضوع (توسيع السيل الجارف في الهجوم) وشجعني تعليقه الذي جاء فيه (أعتقد بأن اسلوبك سينجح بصورة جيدة) وبشرط أن يتم ضمان الاستمرار في تدفق سيل الامداد . وكانت هذه النقطة هي المرتكز الأساسي في فقرات دراساتي التي عالجتها في وقت مبكر من السنة ، عندما تذرعت بالحاجة لتطوير النقل الآلي في عبور الاقاليم من أجل تحرير الوحدات التي تعمل على استثمار النصر ، وازالة القيود التي تفرض التحرك على حماية الطرق .

لقد وجدت نفسي في كثير من الأحيان ، وأنا أكتب مسودة الدليل ، بأنني مقيد بضرورة الحصول على المطابقة مع الأشكال التي تمت صياغتها في فترة ما قبل الحرب ، والتي تضمنتها جميع النشرات الرسمية . وكان ماكسز ودوغان قد أظهرا في الواقع ترحيبهما باقتراحاتي من أجل ايضاح التعليمات بوسائط الكلمات ـ المصورة والمخططات . ولكن على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من ابتعادي عن استخدام اسلوب صياغة الجمل على النحو المعتاد في الدليل الرسمي ، فقد كنت على يقين بأن وزارة الحرب ، وكلية الأركان لن تمنحا موافقتهما على مثل هذا التجديد . وعلى هذا ، فقد ظننت بأنه من الأفضل ، طرح جوهر الموضوع في اطار محاضرة تكون أكثر ايجازاً واختصاراً ، وأقل قيوداً وصرامة . وطلبت الى ماكسز ـ بناء على اقتراح دوغان ـ أن يكون رئيس الشرف في المحاضرة ، ووافق ماكسز ، فعملت عندها على ارسال نسخة عن المحاضرة كتبتها في ليلتين ، وتم قبولها لتكون المحاضرة الافتتاحية في موسم الخريف ، وكنت ايضاً أول من يلقي محاضرة في التكتيك خلال فترة ما بعد الحرب.

لقد اصبت بالترنح وأنا ادخل قاعة المحاضرات وذلك عند مشاهدة العدد الكبير من الحضور وكلهم من النخبة المختارة ، وبينهم عدد من القادة .
الامراء (الجنرالات) ، حضروا للأستماع وشعرت وأنا أطرح حججي وذرائعي انني فشلت ، وشعرت بارتياح كبير ، وأنا أجد بأن جمهور الحضور لم يشاركني مشاعري الخاطئة ، لا سيما عندما تقدم الجنرال تيللير مدير كلية المهندسين الحربية ، بطلب مباغت للذهاب الى هناك واعادة إلقاء المحاضرة بأسرع ما يمكن . والى جانب ذلك عملت مجلتان عسكريتان على نشر المحاضرة ،كما تعهد ناشران من كبار الناشرين العسكريين ، اصدار المحاضرة على شكل كتيب صغير تعليمي ، وكان ذلك بناء على اقتراح الجنرال ماكسز . وكان العرض ، لدار النشر الاولى ، يشترط الحصول على حق ، البيع . ولكنني قررت بالنسبة لعرض دار النشر الثانية ، الاحتفاظ بنسبة الربح على اساس التوزيع ، وذلك بعد أن أكد لي ماكسز والآخرون انهم سيطلبون كميات كبيرة لتوزيعها على الضباط في قيادتهم . وكانت النتيجة ان حصلت على دخل كبير وفائدة مجزية من العقد الثاني ، وقد زادت نسبة الارباح من هذا الكتيب الصغير على أي نسبة حصلت عليها من كتبي التالية .

اجتذبت محاضرتي اليها كثيراً من الانتباه ، داخل انكلترا وخارجها على حد سواء . وقد وصلتني رسالة من أرفع مستوى لم أكن أتوقعه ، وكانت هذه الرسالة من القائد المعاون للمارشال فوش ، وفيها أنه حاول رؤيتي خلال زيارته للندن . ثم وصلت المحاضرة الى مستوى أرفع حيث طالعها السير داوود كامبل ، الذي كنت قد خدمت في

فرقته عام ١٩١٦ ، وعمل بعد الحصول عليها كنشرة مطبوعة ، على توزيعها بين وحداته في مركز قيادته لما بعد الحرب في بلوخستان[١٤] ثم عمل على تنظيم مناورة كبيرة للهجوم على كيتا[١٥] وفق اسلوب (توسيع السيل الجارف) وذلك بحضور القائد الأعلى للهند (الفيلد مارشال اللورد لورينسون) . وبعد ذلك بخمس سنوات تم تعيين داوود كامبل كقائد عام لمنطقة ألدرشوت[١٦] وقائد للجيش البريطاني ، بعث إلي برسالة تعتبر من أفضل ما كتب لي طوال حياتي وفيها (يعود لك الفضل ، كل الفضل ، في الوصول الى هذا التعيين ، فقد كان التمرين الذي طبقته في الهند على مستوى الفرقة هو الذي حملني الى دائرة الضوء ، وكان نجاح الفرقة نتيجة لتطبيق ما جاء في كتاباتك) كما جاء في رسالته (انني اعتبر بأنك انت أفضل مساعد للقضاء على المشكلات). وقد استمر خلال ممارسته لقيادته في الفترة بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٣١ ، بدعوتي ، والاتصال بي على هذا النحو وبمثل هذه الطريقة .

وأعتبر نفسي محظوظاً أيضاً لأنني نشرت نظريتي في الاساليب التكتيكية (التعبوية) بصورة منفصلة ومستقلة عن الدليل الرسمي (لتدريب المشاة) ، ذلك أن مسودة هذا الدليل قد طرحت وهي مختلطة ، فاستقبلت بالهجوم عندما وزعت من قبل وزارة الحرب ، لانتقادها على مستوى القيادات المختلفة . ومقابل ذلك ، فقد استقبلت كلية هيئة الأركان افكار الدليل الجديد بصورة أكثر ملاءمة . وكان ذلك بفضل مساعدة (غودت) الذي نقل الآن الى هناك كمدرس لمادة التكتيك ، وكذلك بفضل دعم (ايفيت) الذي ترك يورك وأصبح تلميذاً في كلية هيئة الأركان . ولكن تدقيق مسودة (الدليل) انتهى قبل أن يلتحق غودت بعمله الجديد ، وسمعت أن الاعتراضات قد تركزت حول شكل الدليل أكثر مما عالجت مضمونه ، على اعتبار (أنه لم يكتب بلغة هيئة كلية الأركان) . لقد كانت مثل هذه الاعتراضات متناقضة تماماً مع موقف الجنرال ماكسز ، الذي لم يكن يرحب فقط بمصطلحات الدليل الجديد وعباراته التي تميزت عن عبارات الدليل القديم بكونها أقل تعقيداً وأكثر حيوية . ليس ذلك فحسب ، بل انه هو الذي فرض ادخال المصطلحات المصورة والبيانات لتصوير الاساليب التكتيكية . وكان يحفزني بطريقته وذلك بدعوتي مع مساعده الى مكتبه من أجل قراءة بعض المقاطع الخاصة ويقول (بانه اذا ما استطاع فهمها ، فسيتمكن كل واحد من فهمها أيضاً) .

لقد كانت (للأسف) اعتراضات كلية هيئة الأركان حول شكل الدليل الجديد ، واللغة التي كتب بها ، تميل الى دعم اعتراضات وزارة الحرب ، والقيادات الأخرى بشأن الافكار التي تضمنها . وعلى هذا فعندما أصدرت وزارة الحرب الدليل بشكله النهائي ،

كانت الافكار الأساسية قد سقطت ، كما اقتطعت ايضاً جميع البيانات والاصطلاحات المصورة . وكان من أكثر التعديلات حماقة تلك المتعلقة بالقسم الذي يعالج (المراكز الأمامية والمخافر المتقدمة) . ففي حين كان الوجيز الذي كتبته بصورة مبسطة من شأنه اجراء انقلاب جذري في الفكر المحدود الذي اكتسب قوته بحكم العادة والاستمرار ، كانت السلطة المسؤولة تريد الابتعاد عن كل فكر متجدد ، فتم ادخال الفصل بكامله على نحو ما كان عليه قبل الحرب ، ومنذ وضع صيغته في العام ١٩١١ ، وذلك بصرف النظر عن كل تغير تكتيكي أو تنظيمي أظهرته ظروف الحرب . وكانت تفاهة هذه الاجراءات وحمقها واضحة الى حد اضطر وزارة الحرب للاسراع في تعديل الكتاب في السنة التالية لتغطية ذلك القصور فيه . ثم حان موعد التنقيح الدوري التالي بعد خمس سنوات (في عام ١٩٢٦) وأصبح من الضروري إعادة النظر بمواد الدليل ، وكانت مسؤولية هذا العمل قد وقعت على عاتق غودت ، الذي أرسل الي المسودة الجديدة (لتدقيقها) واعادة ادخال عدد من النقاط الهامة والتي كان قد تم اسقاطها من مسودة عام ١٩٢١ . وفي العام ١٩٣١ عمل برنارد مونتغومري على مراجعة الدليل من جديد ، وأدخل فيه مزيداً من التعديلات الأساسية ، ولكن جاءت هذه التعديلات في وقت متأخر جداً ، بحيث أصبح من الصعب ترميم العناد الذي استمر طوال عشرة أعوام في تكتيك ما بعد الحرب وفي استمرار التدريب على الخطوط الدفاعية القديمة .

لقد عملت المسودة الأولى التي وضعتها في عام ١٩٢٠ بصورة غير مباشرة على تمهيد الطريق من أجل التطورات الثورية التي رافقت ظهور الدبابات سريعة الحركة ، والتي أصبحت قادرة على استثمار الاختراق الجديد في العمق بطرائق أسرع وبصورة أكثر حسماً مما تستطيعه وحدات المشاة المتحركة سيراً على الأقدام . أما بالنسبة لطريقة (توسيع السيل المتدفق) والتي تم تطبيقها على السلاح الجديد ، فقد أصبحت تقنية الحرب الصاعقة[١٧] التي طبقت في الحرب العالمية الثانية .

لقد كانت مسيرة خدمتي في الجيش خلال الفترة الأخيرة من عام ١٩٢٠ ، مماثلة لمسيرة الدليل الجديدة فقد أحاطت بها الأنواء العاصفة والأجواء المتقبلة .

لقد أشرقت الظروف المناسبة مع ربيع عام ١٩٢٠ ، وارتفع نجمي فظهر متألقاً ومضيئاً جداً في صيف تلك السنة ، ذلك أن وزارة الحرب وضعت مشروعاً لتنظيم تفتيش التدريب على مستوى الامبراطورية بكاملها ، فلو تم هذا التنظيم ، لكان من المحتمل تعيين ماكسز على قمة هذا التنظيم ، على نحو ما تم في الجبهة الغربية عام ١٩١٨ ، وسيكون دوغان عندها مساعد المفتش العام ، وقال لي دوغان بأنه اذا ما تمت الموافقة على

هذا المشروع ، فانه يريدني للعمل كضابط ثان في هيئة أركانه ، وهو منصب يضمن لي الترفيع الى رتبة رائد . ولكن هذا المشروع انتهى - للأسف - وتم وضعه في المصنفات والمحفوظات بعد أن عمل مجلس النواب (البرلمان) بالتعاون مع الصحافة لشن حملة هدفها تقليص نفقات قطاع الخدمات ، وهي الحملة التي تطورت مع نهاية تلك السنة .

وفي الوقت ذاته ، اصطدمت تطلعاتي بشأن الاستمرار في الخدمة ضمن اللواء الذي أعمل به من سلاح المشاة ، وذلك نتيجة لعدم صلاحيتي الصحية للحرب . وزيادة على ذلك ، فقد جاءت الانظمة الدقيقة والمحكمة بشأن عدم الاحتفاظ بالضباط ، ممن لا تتوفر فيهم اللياقة الكاملة ، وكان ذلك نتيجة لضغوط المعركة الاقتصادية . وأمام هذا الموقف نصحني دوغان ، ومن ثم ماكسز ايضاً ، تقديم طلب في هيئة تدريب الجيش الجديدة ، والتي كان قد تم تنظيمها لادارة ومتابعة التطورات التي بدأها الجيش النظامي منذ عام ١٩١٨ لفترة ما بعد الحرب .

ولكن إجابة وزارة الحرب أشارت الى أنها تعتبر التنظيم الجديد بمثابة (فيلق مقاتل) وأن ضباطه يجب أن يكونوا مؤ هلين في كلية أركان حرب . ولهذا تم وضع اسمي في لائحة من يجب الحاقهم بالتشكيلات الجديدة . وأوضح دوغان بان هذا الاجراء هو افضل طريقة للتأكد من الاحتفاظ برتبة على درجة كافية من المستوى الضروري في هيئة الاركان ، وسأكون بذلك ضابط هيئة أركانه ، وفق ما كان يرغب . ووافقت بصورة طبيعية ولو أنني كنت أشعر بالأسف لمجرد فكرة ترك قيادة هذه المنطقة .

عندما أرسل دوغان الطلب ، دعمه بحجة (لمصلحة الخدمة) وسيكون التعيين (برتبة رائد ، وهي رتبة - في رأيي مؤ هل لها) . وقد عمل ماكسز على دعم الطلب ، لا بالطريقة الرسمية فقط ، بل عن طريق ارسال رسالة شخصية أيضاً الى العقيد ماكس ايرل ، رئيس هيئة الانتقاء ، ونتيجة لذلك اقتصرت مقابلتي للهيئة على مجرد تعارف استمر دقيقتين فقط ، وسمعت من مصدر موثوق بأنه قد تم قبولي للتعيين ، على الأقل في حدود رتبتي الحالية وهي رتبة نقيب ، وذلك على الرغم من وجود ٧ آلاف طلب من أجل التعيين في ٢٥٠ مركزاً من مراكز الفيالق الجديدة . ولكن بعد اسبوعين فقط ، وردني نبأ قرار اللجنة الطبية باستمرار عدم صلاحيتي للخدمة . وعلى اثر ذلك ، أرسل ماكسز كتاباً رسمياً يطلب فيه اعادة النظر بقرار اللجنة الطبية ، ثم أتبع ذلك برسالة شخصية لرئيس هيئة الاركان العامة للامبراطورية (الفيلد مارشال سير هنري ويلسون) . وجاءت النتيجة على شكل اجابة رسمية اعتبرت قرار اللجنة الطبية بأنها (حالة خاصة تتطلب اعادة النظر في نتائج فحصها للنقيب ب .هـ . ليدل هارت ولهذا تقرر ان تكون عدم

صلاحيتة للخدمة لدرجة غير كافية لاعاقته عن ممارسته عمله في فرقته).وعلى كل حال ، فقد خسرت لسوء الحظ المكان الذي كان قد خصص لتعييني ، وتم اشغاله بعد القرار الأساسي الذي اتخذته اللجنة الطبية . وانهارت بذلك فرصة الافادة من الطريق الوحيد الذي يضمن لي الترفيع للرتبة الأعلى ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد أكد لي ماكسز بصفة شخصية ، أنه بالمستطاع تسوية القضية خلال اقرب فرصة ممكنة ، وترفيعي بصورة استثنائية .

عندما قطع ماكسز على نفسه ذلك الوعد ، لم يكن قد وضع في حسابه الضغط المتعاظم الذي كانت تمارسه الصحافة ومجلس النواب لتقليص حجم الجيش وتخفيض نفقاته ، مع تخفيض النفقات العامة للحكومة . ونتيجة لذلك تم تعيين مستشار خزانة الدولة في لجنة خاصة يرأسها رئيس مجلس النواب السير اريك غديس[١٨] بمهمة وضع مخطط حاسم لتقليص (الانفاق الوطني) . وسقط ما أطلق عليه اسم (فأس غديس) بكل قوته على رأس القوات المقاتلة في عام ١٩٢٢ . ونتج عن الاستقطاعات الطائشة والمتهورة في مخصصات الجيش ، خلق حالة من الفوضى في سلسلة الترفيعات كانت لها آثارها المرضية على المدى البعيد ،وفي احتراف الكثيرين من الضباط الموهوبين، وكان فوق ذلك كله الاحباط الناتج عن التوقيف المؤقت عن الترفيع والتثبيت في الرتبة وأصبح من الشائع جداً بالنسبة للضباط الذين تم ترفيعهم بسرعة في ظروف الحرب ان يتم ارجاعهم درجتين وحتى ثلاث درجات وفق هذه الطريقة ، وفي احدى هذه الحالات التي شهدتها كان هناك قائد لواء تم ارجاعه ٦ درجات ، فأصبح يتمتع جوهرياً برصيد رتبة ملازم ، وكان الأمر المربك والمثير للحيرة ايضاً هو ايجاد المكان المناسب له فتقرر منحه عملاً خاصاً (كمدير لنادي الضباط) . ولم تعد حتى مؤهلات الرتبة كافية لضمان الحصول على المركز المناسب ، وأصبح القائد الثاني للسرية في جميع سرايا احد الافواج التابعة لقوة اللواء الذي أعمل له ، وهو يحمل شهادة تأهيل لرتبة عقيد . وتعاظمت هذه الفوضى في وسط الضباط القادة الذين أثبتوا كفاءتهم في الحرب ، واحتلوا المراكز في أعلى مستوياتها - مثل قائد جيش - اذ أصبح من الواضح أنه لم يعد باستطاعة هؤلاء الوصول الى رتب أعلى ، وفضلوا البقاء لممارسة القيادات في مراكز تقل نسبياً عن رتبهم ، أو حتى الانتقال من مركز آخر حتى يصلوا بصورة اعتيادية الى العمر المقرر للتقاعد ، والذي كان بالنسبة للقادة (جنرال - ليفتنانت جنرال) يتأخر حتى ٦٧ عاما خلال تلك الفترة .

تزايدت المساوىء الناتجة عن هذه الاجراءات مع مرور السنين ، ولم يعد باستطاعة وزارة الحرب أن تقوم بأكثر من دور غير مجد في تصليح بعض أخطاء هذه

المشكلة . ومع منتصف الثلاثينيات بعد عام ١٩٠٠ ، كان المعدل الوسطي لأعمار القادة الذين يشغلون المناصب الرئيسية في قيادات الجيش ، يزيد بمقدار ٧ أعوام عن المعدل الوسطي الذي كان عليه قبل الحرب ، أما في الطرف السفلي من سلم الرتب العسكرية ، فقد كان هناك عدد كبير من الضباط الذين تتوفر فيهم الكفاءة العالية ، بل إن بعضهم كان قد مارس قيادة الفوج لفترة مؤقته في الحرب العالمية الأولى ، وهم لا زالوا بعد ذلك برتبة ملازم رغم ان لديهم من سنوات الخدمة ١٧ أو ١٨ عاماً .

كانت الفوضى في سلاح المشاة ، أسوأ ما تكون عليه في بعض أفضل الألوية ، ففي حين كانت العادة المتبعة للترفيع ، فوق مستوى اللواء ، تتم بالانتقاء وبحسب القدم ، ـ أو ما كان يطلق عليه (دور البقة) ـ الا أن العمل بهذه العادة بقي مستمراً ولكن تحت هيمنة القادة الأكبر سناً الذي كانوا يتدخلون في لائحة الانتقال ، ليقفز أحدهم من فوق رفاقة القدامى عند انتقاء الضباط للتعيين في المراكز الأعلى . وخلال هذه السنوات ، كانت كثيراً ما تردد (كلمة لاذعة) وهي أن أفضل أمل للوصول الى الترفيع هو (في تعليق هذا الأمل بمشرط الجراح) وكان من الملاحظ ان عدداً كبيراً من القادة ، ذهبوا الى المستشفى العسكري لاجراء العمليات ، ثم انتقلوا منه الى القبر .

خسر الجيش خلال فترة الجمود الطويلة ، عددا كبيراً من أفضل الكفاءات القيادية ،وذوت امكانات بعضهم نتيجة للاهمال . وحتى المتفوقين كثيراً في قدراتهم أمثال ديل وويڤل ، اضطروا الى قضاء ١٣ سنة و١٧ سنة من أجل الوصول الى درجة واحدة أعلى من تلك التي كانوا قد اكتسبوها اثناء الحرب ، وعانوا كثيراً من قضاء سنوات طويلة في أعمال تقل عن امكاناتهم . ولم تعد لديهم بعد ذلك أبدا تلك التطلعات التي ظهرت لديهم في اعمالهم خلال الفترة التالية للحرب مباشرة . وعندما أقبلت فرصتهم الكبرى بصورة طبيعية ، كانوا قد تجاوزوا ذروة كفاءتهم .

نعود الآن الى تجربتي الخاصة لما بعد الحرب ، فالعائق في عام ١٩٢٠ مثله كمثل بقية العوائق السابقة التي سببتها أعطال الحرب ، والتي أفسدت آمالي في احترافي وتطلعاتي للبقاء في الجيش ، وهو الأمر الذي تزايد وضوحاً خلال السنوات الأربعة التالية . وعلى كل حال ، فقد كنت محظوظاً ، ولو بصورة مؤقته على الأقل ، بسبب الاحتفاظ بي في مركز تزيد مرتبته على مستوى رتبتي ، وكان ذلك بفضل دعم ماكسز ومساعدته .

* * *

كان الاعداد (لدليل تدريب المشاة) هو العمل الرئيسي لي خلال فترة خدمتي في هيئة أركان اللواء العاشر في ليشفيلد ، ولكن هذا العمل جلب معه بعضاً من الاهتمامات

الأخرى والخبرات المفيدة . فقد تعاظمت خطورة الاضطرابات الصناعية في خريف عام ١٩٢٠ ، كما تزايد اضراب عمال الفحم الوطني في تشرين الأول (اكتوبر) ، واخذت الحكومة تشعر بالخوف من احتمال قيام الثورة ، وأعطيت الأوامر الى السلطات العسكرية من اجل اتخاذ التدابير لمجابهة اندلاع الحرب الأهلية . وعمل دوغان ، في ظروف الطوارىء هذه ، على تعييني كمعاون لقائد الحامية ، وهو مركز يحتله ضابط برتبة رائد عادة ، وعهد الي بوضع مخطط دفاعي لحماية ليشفيلد . ولكن تمت تسوية قضية الاضراب بصورة مؤقتة بعد اسبوعين . إلا أن الاستقرار لم يتحقق ، وظهرت ثلاث حرائق على التتابع في ويتينغتون ـ باراك . ثم بدأ اضراب جديد لعمال مناجم الفحم في الأول من نيسان (أبريل) واستمر حتى ٤ تموز (يوليو) . وبقي هذا الاضراب وهو يهدد بالتوسع والتحول الى اضراب عام . وقد انتقل دوغان وأركان لوائه خلال هذه الأزمة الى يورك للبقاء على اتصال وثيق مع قيادة المنطقة الشمالية ، وتم تكليفي بقيادة مؤخرة القوات في قاعدة ليشفيلد علاوة على وظيفتي كمعاون لقائد الحامية . وكان علي خلال تصاعد الأزمة ، البقاء في المكتب والنوم فيه ، وذلك حتى أكون على استعداد دائم لتلقي المخابرات الهاتفية . نظراً لأن العمل في الشيفره ومفتاح الكلمات الرمزية كانا من مسؤوليتي . وقد تم استنفار الجيش الاحتياطي ، فاكتظت المعسكرات بالجند ، وكان على قوة الحامية ، وفقاً لأوامر القيادة العليا ، ضرب نطاق من العزلة حول نفسها وذلك بتنظيم شبكة من السياج الشائك والافخاخ ، بحيث ظهرت المعسكرات وكأنها محاصرة في بعض الأقاليم المتوحشة . وكانت الحكومة تقدر خطورة الحرب الأهلية ، فعملت على تكوين قوة دفاع خاصة لدعم الجيش النظامي ، وتمت تسميتي للتعيين في مركز الضابط الثالث في هيئة اركان القيادة الشمالية (لقيادة هذه القوة) وذلك قبل فترة قصيرة من انتهاء الأزمة .

عمل دوغان أيضاً على تعييني كعضو في لجنة الامتحانات وذلك للقيام بجولة على المدارس العامة في تلك المنطقة حيث فيالق تأهيل الضباط وتدريبهم واجراء اختبار للمرشحين لحمل الشهادة الأولية (آ) . وعلى الرغم من أنني كنت أحمل أصغر رتبة بين أعضاء اللجنة ، فقد سمح لي بوضع مخطط الاختبار التكتيكي ، والعمل على قيادته .

وضع ماكسز كأساً كهدية لاثارة المنافسة بين فصائل الاحتياطيين في كل مركز ، وكان هناك ٣٠ مركزاً منها في القيادة الشمالية ، وقد نظمت هذه المنافسة بهدف رئيسي هو تطوير الجانب التكتيكي في التدريب داخل مراكز الألوية في الجيش النظامي . وكان الضابط القائد في مركز لواء ستافورد شاير ـ الشمالي (الرائد تومسون) قد أصبح صديقاً

لي ، ونظراً لوجودي هناك ، فقد طلب تومسون أن أقوم بتدريب الفصيل الذي سيقدمه كفريق منافس يمثل اللواء . وقد طبقت اسلوب التدريب ذاته على نحو ما وضعته في عام ١٩١٧ . مبتدئاً بتعليم المجند على عناصر التكتيك فور التحاقه بالجيش . وذلك عوضاً عن الانتظار حتى مرحلة متأخرة يتم خلالها اتقان التدريب على النظام المنضم وتمارين العرض والاستعراض مما كان يضعف غرائز القتال عند الجندي مقابل تشربه بالاحاسيس غير التكتيكية والمتعلقة بالتراصف والحركات الاجماعية الموحدة . وربح فصيل ستافورد شاير الشمالي بسهولة تامة كأس ماكسز . وشعر ماكسز بالبهجة الكبرى عندما علم ـ بعد اعلان النتائج ـ انني أنا الذي قمت بتدريب هذا الفريق بصورة خاصة . وعلى كل حال ، فقد كنت أقل نجاحاً في اقناع ماكسز بكفاءة قائد ذلك المركز ، لأن تومسون كان قد تلقى هزيمة من الرعب عند مقابلته للجنرال ماكسز ، وفشل في اظهار أفضل صفاته وكفاءاته ، مما حمل ماكسز على القول (بانه لا فائدة من الضابط الذي يرتجف من الرعب عند مقابلته له) . وفي النهاية ، كان قادراً على التصرف بجرأة مثل كلب الصيد الذي يطارد الجرذ .

لقد وضعت استخداماً خاصاً لطاولة الرمـل ، في مجال التعليم التكتيكي ، لاظهار اساليب الهجوم والدفاع ولاجراء التمارين الداخلية ، وأوضحت انه من غير الضروري أن تكون طاولة الرمل متقنة ومحكمة ، أو تكون نسخة مشابهة تماماً لبعض القطاعات الأرضية الواسعة . وكان ذلك بهدف ابراز المعارضة لاجراء أي تغيير في تشكل ثنايا الأرض لتتوافق مع الشكل الطبيعي لها على نحو ما كان مرغوب بتحقيقه ، وكانت وجهة نظري تتلخص بأن القيمة الكبرى لطاولة الرمل ، تكمن في تغيير المشهد وتغيير الموقف أكثر مما تكمن في تغيير ظواهر الأرض أو مقاييسها وأبعادها . وقد أصبحت حماستي لهذا النوع الجديد من أساليب التدريب ، معروفة لدى الجميع ، وانتشرت على نطاق واسع ، وقد حدث بعد ذلك بثلاثين عاماً أن وصلتني رسالة من أحد الذين أتصل بهم بالمراسلة ، وطالعت فيها قصة كان قد شهدها . وتضمنت الرسالـة ، (عندمـا كان النقيب ليدل هارت يقيم في ليشفيلد حوالي عام ١٩٢٠ اكتسب شهرة خاصة لاحتفاظه بطاولة رمل تحت طاولة طعامه أو الى جانبها وكان يرغب بعد انتهاء العشاء مع ضيوفه ، أن يوجه اليهم الدعوة ، لا من أجل التسلية بلعبة البريدج ، بل للاشتراك في تمرين على التكتيكات الصغرى فوق طاولة الرمل ، وهو التمرين الذي كان يستمر حتى ساعة متأخرة) . وتعتبر هذه القصة نموذجاً ممتعاً لطريقة تعاظم المزاعم المختلفه ، فقد كان منـزلي أصغـر المنـازل وأقدمهـا بجـوار الكاتدرائية ، وكانت طاولة الرمل من المقياس الاعتيادي ستشغل وحدها القسم الاكبر من غرفة الطعام . وكان ذلك المنزل الريفي ـ الخشبي الذي يتناقض فيه (الأبيض ـ والأسود) هو منزل رائع حقاً ، ولكنه كان ضيقاً جداً بحيث كنت مرغماً على الانحناء عند الصعود

على السلم ، أو عند المرور من الأبواب . .

قمت بجولتي الأدبية الأولى في المجال الكنسي ـ الاكليركي وذلك في نهاية عام ١٩٢١ تقريباً ، بعد أن طلب ماكسز إلـي تقديم المساعدة التي التمسها عميد مدينة يورك ، للبدء بحملة شعبية جماهيرية لجمع التبرعات من أجل تجديد الزجاج الملون والمشهور لنوافذ كاتدرائية يورك ، والعمل على كتابة مجموعة من الموضوعات حولها .

وقد أقمت لهذه الغاية مع ماكسز في مقر الحكومة ، وقادني الى الكاتدرائية فوكسلي نوديس للقيام بجولة في الكاتدرائية بهدف اجراء فحص دقيق وتفصيلي للنوافذ . وعندما تسلق أحدهم الى داخل الدهاليز الضيقة التي تمتد طويلاً بينها ، والتي لا تظهر للرؤ يا عند النظر إليها من مستوى الأرض ، أخذني الذهول لرؤ ية الزجاج وقد أثرت به أصابع القرون المتلاحقة ، فخلفت في الزجاج موجات وتجاعيد تتثنى بعمق الى الداخل ونحو الخارج . وقد كتبت مجموعات من المقالات الوصفية بشأن النوافذ تم نشرها في صحيفة يوركشاير بوست وغيرها .

كان ماكسز قد اتصل بي قبل ذلك بأشهر قليلة ، للمساعدة في كتابة مقالات عن (المشاة) للاسهام في المجلدات الجديدة (للانسيكلو بيديا ـ بريتانيكا) [!!] حيث كان يتم الاعداد لاكمالها بأحدث المعلومات عن فترة ما بعد الحرب (في الطبعة ١١) .

وكتب جاك ايفيت القسم التمهيدي عن التغييرات التالية في تنظيم المشاة ، وكتبت الأقسام الثلاثة المتعلقة بدور المشاة ، واساليبها التكتيكية ، وتطورات المستقبل ، وأوضحت الحاجة لضمان المرونة عن طريق التجهيزات الخفيفة والتوسع في النقل الميكانيكي (الآلي) ، مع اتباع أساليب تكتيكية (تعبوية) جديدة . وكان مجموع ما كتبته في حدود ١١ ألف كلمة ، شغلت سبع صفحات من الانسيكلو بيديا ، وتطلبت كتابتها فترة أسبوع تقريباً ، وقد أعجب ماكسز بما كتبته اعجاباً كبيراً ، فعمل بما عرف عنه من ميزات وكرم على تحرير مذكرة في نهاية الفقرات اعترافاً بمساعدتي ، مما حمل المسؤ ولين في الموسوعة (الانسيكلوبيديا) على وضع أسمي في هيئة تحرير الموسوعة مع تأثيرات مجزية ومفيدة .

كنت قد طلبت الى تومس قراءة ما كتبته للموسوعة وذلك قبل تقديمه الى ماكسز . ووجدت أن انتقاداته كانت مفرطة في عنفها ، وخالية من الحماسة ، وقد كتبت بمنتهى البرود . ولكن لم يلبث أن زال كل أثر لهذه الانتقادات عندما وصلتني رسالة منه ، وفيها : (انني أعتقد بأن ما كتبته للموسوعة هو أفضل ما قرأته لك) وبعد ذكر عدد من

الانتقادات التفصيلية ، انتهت الرسالة بالعبارات التالية : (لقد أحببت قطعة من كتابتك الوصفية التي ترسم فيها لوحة لمرحلة التقدم والهجوم . وهي تضيف بدقة ما هو ضروري لتلوين الموضوع بحيث أصبح من الصعب إضافة المزيد عليه) .وكان صدور ذلك عن تومس يشكل دعماً رفيعاً ومثيراً لدرجة مذهلة . فقد كان تومس يمثل مزيجاً مميزاً ، من النادر العثور على مثله ، فهو إنسان محافظ عميق في أصالته ، لكنه رغم محافظته ذو تطلعات تقدمية . فقد كان تومس يميل بغريزته الى اعتبار كل نقد للمؤسسات القائمة والتقاليد إنما هو تدنيس لها . إلا أن رغبته العميقة لتطوير الفاعلية العسكرية قد حمله على الانفتاح أمام الأفكار الجديدة ، وجعله على استعداد لقبوها حالما يقتنع بأنها أفكار عملية وقابلة للتطبيق .

وبالنسبة للفوارق في المواقف والعمر ، وكان أكبر مني بثلاثة عشر عاماً ، فقد كان من المدهش حقاً ندرة الاحتكاك فيما بيننا طوال أربعة أعوام عملنا خلالها معاً ونحن على اتصال وثيق فيما بيننا . وقد يكون السبب في ذلك هو انه كان أكثر تساهلا مما كنت أتوقعه في تلك الفترة . ولكن رغم ذلك فانني أنظر بتقدير الى صداقته ، وتأثرت تأثراً عميقاً عندما اقترح الحاقي بلواء وور ويكشاير الملكي ، ذلك أنني لم أعرف أبداً أي واحد أكثر اخلاصاً منه للوائه ، وقد تم ترفيعه الى رتبة عقيد منذ عام ١٩٣٩ ، وبقي في هذا اللواء حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث جاء مونتغومري خلفاً له .

* * *

تعرفت على برنارد مونتغومري لأول مرة عن طريق تومس ، وكان أباً (في العماد) لولده الثاني رغم أنه كان أصغر مني بخمس أعوام ، ولقد كان تومس ، حتى في تلك الفترة المبكرة من عام ١٩٢٠ ، على ثقة تامة بأن قدر مونتغومري سيرتفع به الى رتب عالية ، ومما كان أكثر أهمية في نظره هو أن مونتغومري سيضيف رصيداً من المجد الى لواء وور ويكشاير الملكي . وفي تلك الفترة كان مونتغومري لا يزال برتبة نقيب ، مع شهادة تأهيل لرتبة رائد ، وطالباً في كلية هيئة أركان حرب .

ولقد كان مظهر مونتغومري المتغطرس ، ووجهه الشاحب ، وقامته القصيرة ، هي السمات المميزة له في معركة السوم حيث كان ضابطاً في هيئة أركان ما كان يدعي (بفرقة بانتام) ، ولم يظهره في هذه الفترة الشواهد الطبيعية على كفاءته القيادية ، أو القدرة على التعامل مع الرجال ، وعندما أعطيت له فرصة ممارسة قيادة الفوج بعد عمل ١٦ عاماً في هيئة الأركان ، قاد فوجه الى حافة العصيان والتمرد بسبب سوء تقديره لاسلوب التعامل مع الجنود . ولكنه مقابل ذلك أظهر من القدرة والحزم حتى في أيام ١٩٢٠ ما جعله أهلاً لحمل رتبة(مشير)فيلدمارشال ، وممارسة عمل القائد الأعلى لمجموعة جيوش الحلفاء والتي

تم زجها عبر القناة الانكليزية للهجوم على أوروبا في عام ١٩٤٤ . وزيادة على ذلك ، فقد كان واحداً من أعظم الجنود المحترفين في الجيش ، وكنت أكثر الناس تأثراً بذلك ، فقد تأكد لي ، من خلال التجربة الكبرى ، بقاء عدد كبير من الهواة في وسط (الجنود المحترفين) . ولم يكن مونتغومري مجرد باحث عسكري في التاريخ ، وانما كان المتفوق على معظم رفاقه العسكريين في الافادة من دروس التاريخ ، حيث تعلم من العوامل التي ضمنت الانتصارات (لنابليون) وسواه من (القادة الكبار) الذين تركوا طابعهم على الوحدات بصورة اجماعية ، وأثاروا الاستجابات الحماسية في وسط جيوشهم ، ويعتبر مونتغومري من هذه الناحية نموذجا بارزاً على قدرة تفوق (القائد المصنع) الذي تصنعه التطبيقات المركزه والانصراف الى العمل وحل المشكلات وتجاوز هذا القائد لذلك الذي (يولد ليكون قائداً) دون جهد شخصي منه .

لقد اظهر مونتي على كل حال ، ومنذ عام ١٩٢٠ ، احدى انحرافاته المميزة والتي اصبحت معدلة قوته في حصادة لانتصاراته . والتي من اجلها اصبح موضعا للنقد اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ـ وبصورة خاصة في وسط القيادات الامريكية ـ فخلال بحثي في مصنفاتي منذ سنوات ، عثرت على رسالة طويلة له ، كان قد كتبها لي في عام ١٩٢٤ ، اجابة على تعليقاتي حول نشرتين كان قد ارسلها لي ، واحدة بعنوان (ملاحظات تكتيكيه) حول الهجوم والدفاع وفقرات اخرى مخصصه لدورة تدريبيه في حدود اربع محاضرات في التكتيك ، كان قد القاها على ضباط الفرقة ٤٩ ـ حيث كان ضابط هيئة الاركان (رقم ٢) في هذه الفرقة ـ وقد عبرت بوضوح عن المباغتة التي اصابتني لانه لم يعالج مشكلة استثمار النصر رغم الحاجة اليها ، وجوابا على هذه النقطة كتب لي : (انني لم اعالج قضية استثمار النصر في اي مكان ، وقد افعل ذلك فيما بعد ، اذا توفرت لي فرصة اعادة تنقيح النشرة لطباعتها من جديد . وكنت اعاني من القلق لا بسبب وفرة المواد التي يجب تعليمها ، وانما لان اول ما خطر في ذهني هو حملهم على ادراك المباديء الاساسيه في الهجوم والدفاع وفهمها . وانني اعتقد انك ربما كنت على حق ، وانه من الضروري التركيز على موضوع استثمار النصر وابرازه) .

ولقد وجدت ايضا نسخة من تعليقاتي على مسودة (دليل الضباط الجديد) التي كتبها مونتغومري بعد ذلك بسبع سنوات ، والتي كان قد ارسلها الى داوود كامبل رئيس هيئة اركان اللواء فيشر من اجل التعليق عليها ونقدها . وقد تركز نقدي بصورة رئيسية (على ان جميع الاقسام التي تعالج الهجوم قد اهملت او عالجت بشكل محدود قضية استثمار النصر) وقد وصلتني على اثر ذلك رسالة من برتي فيشر وفيها : (تحدثت طويلا مع .

مونتغومري ، ودرسنا بعناية انتقاداتك كلها بشأن التدريب الجديد للمشاة ، وكانت النتيجة ان القسم الاكبر منها قد ادخل في المسودة النهائية للكتاب . وقد تم بصورة خاصة ايضاح اهمية - توسيع السيل المتدفق -) . كما تلقيت رسالة قيمة من مونتغومري حول الموضوع ذاته . ورغم ذلك ، فعندما ظهر الدليل الجديد ، اصابني الفزع وانا اجد بانه لم يتم ايضاح استثمار النصر بصورة مناسبه ، ولم يتم ادراك الفكرة بصورة جيده ؛ ولكن ذلك اصبح واضحا من جديد بعد ١١ عاما ، فوق مسرح عمليات العلمين ، والمعارك التاليه لها ، حيث كانت تتم اضاعة الظروف المناسبة التي تخلقها عمليات اختراق المواقع الدفاعيه ، فينزلق العدو بعيدا ليعيد تنظيم قواته من اجل القتال في يوم اخر . ولقد كانت المثابرة العمياء هي من ابرز صفات مونتغومري ، ذلك انه قد اظهر ، منذ محاضراته المبكرة في التكتيك ، التزامه بفكرة (متطلبات الاختراق) وتجزئة المعركه على نحو ما طبقه تماما في اساليبه المتطوره للمعارك الميدانية .

* * *

ذهبت الى فرنسا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢١ وذلك للمرة الاولى منذ انتهاء الحرب ، وكنت في هذه المرة مع زوجتي ، وتوقفنا في الطريق الى باريس في آبي - سير - سوم[٢٠] مع رفاق عائلتي من اسكوتلنديين - وفرنسيين ، حيث قمت بزيارة الى كارميشيل التي قضيت في احد منازلها عددا من الفترات القصيرة اثناء الحرب وذلك عندما كنا خارج خطوط القتال . وانطلقت بعد ذلك من آبي لزيارة ميدان معركة السوم من جديد .

ثم قمت بجولة بسيارتي عبر الاقليم لاحياء ذكرياتي في المواقع التي ائتلفتها ، وكان لنا أكثر من مصادفة غير سارة في جولتنا بسبب بقاء القذائف التي لم تنفجر فوق أرض المعركة ، علاوة على المحطمات الأخرى . ولكن الأشجار التي اقتلعتها القذائف ، عاودت نماءها من جديد ، وقد جابه المزارعون الفرنسيون كثيراً من المخاطرات لازالة آثار الحرب ، وتكبدوا الكثير من الخسائر والاصابات ، حتى تعود الأرض صالحة للزراعة . كانت الحرارة - أثناء جولتنا - مرتفعة جداً ، وأصبحت رائحه المحصولات الزراعية بعد الحصاد واضحة جداً في (بيزنتان لو بوتيت - وود) وذلك عندما كنت أقوم بجولتي سيراً على الأقدام في تلك المواقع التي عرفتها في عام ١٩١٦ .

(وفي زياراتي التالية الى ميدان المعركة في عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧ ، تعرفت على كامل المنطقة الممتدة بين القنال والحدود السويسرية ، ووجدت أن آثار الحرب خارج المدن والقرى قد اختفت تقريباً باستثناء الأرض المقفرة والوعره بين ريمس وفردان حيث بقيت

الخنادق والمحطمات في أماكنها ، وكأن هذا الاقليم كان برهاناً على عدم توفر الحافز للبناء السلمي واستصلاح الأرض) .

ذهبنا من آيي الى باريس ، حيث قابلت أثناء اقامتي فيها عدداً من الضباط الفرنسيين ، ووجدت أن وجهات نظري عن التكتيك والتي كنت قد عملت على نشرها ، قد أثارت اهتماماً كبيراً . ونتيجة لذلك فقد طلب إلي كتابة نقد تفصيلي لرتيب المشاة الفرنسي ، لما بعد الحرب ، والذي كان يتم نشره على التتابع كمقالات في (المجلة العسكرية العامة) الرسمية تقريباً . وخلال السنوات القليلة التالية ، تمت ترجمة عدد من كتيباتي الصغرى التي تعالج موضوعات (تكتيكات المشاة) الى عدد من لغات العالم . وأصبحت من المقررات المدرسية في جيوش عدد من الدول مثل بلغاريا والعراق وجيش دولة ارلندا الحره . مما وفر لي الاتصال بعدد من المراسلين وضمن لي عقوداً هامة .

أصبح بامكاني في خريف تلك السنة ، تخصيص وقت أكبر للكتابة ، وذلك نتيجة ارسال أفواج اللواء الذي أعمل به الى إرلنده بمهمة دعم القوات التي تتعامل مع الاضطرابات هناك . ولكن في نهاية السنة ، أصبحت قيادات اللواء ملزمة بالانتقال الى مراكزها التي كانت لها قبل الحرب في معسكر شور نكليف قريباً من فوكلستون ، حيث تولت ممارسة سلطتها على أفواجها المختلفة . وقد أرادني ماكسز للبقاء معه في قيادته الشمالية ، ولكنني قررت اللحاق بدوغان في شور نكليف ، حيث القيادة الشرقية ، وكان هذا القرار في غير صالحي ، نظراً لأنه لم يعد باستطاعة ماكسز تقديم دعمه بالطريقة التي كان يفعلها لمساعدتي .

لقد كانت شور نكليف ، بالنسبة لأي جندي لديه احساس بالتاريخ ، أو اتجاه لدراسته ، بمثابة مصدر للوحي والالهام . فقد عمل السير جون مور[٢١] من هذا المكان لاتخاذ اكثر التدابير أهمية في التجارب المبكرة لتطوير الاساليب التكتيكية الجديدة من الجيش البريطاني ، وذلك عندما عمل على تدريب اللواء الخفيف المشهور تمهيداً للقتال ضد جيوش نابليون في حرب شبه الجزيره (الاسبانية) . ولكن عبقرية مور لم تصل الى القادة الآن في هذه المنطقة .

زارنا فور وصولنا الى شور نكليف القائد العام للقيادة الشرقية (اللورد هورن) والذي كان قد مارس قيادة الجيش الأول في فرنسا أثناء السنتين الأخيرتين من الحرب . وكنت قد خدمت في فيلقه أثناء معركة السوم ، وكان هورن قد اتخذ موقفاً بطولياً من ادارة الحرب في مجابهته للقيادات العليا ، مما رسم له صورة في الأذهان هي صورة الرجل المتفوق (السوبرمان) . ولكن عندما جاء هورن الى شور نكليف في عام ١٩٢٢ ، وطلب الى أن

أوضح له فائدة طاولة الرمل وإستخدامها ، في التدريب التكتيكي ، ظهر لي هورن وهو متبلد الذهن والاحساس بحيث زالت الأوهام التي أحاطت به ، ثم توفرت تجربة اضافية أخرى برهنت عن الموقف الذهني لهورن ، وذلك عندما نقلت اليه في خريف تلك السنة التقارير السنوية السريه للضباط . فقد عمل دوغان مرة أخرى على التوصية بالتعجيل في ترفيعي ، وذكر بأن (النشرات التدريبية في موضوع التكتيك العسكري والتدريب) من بين النقاط المختلفة التي تدعم وجهة نظره ، وكذلك فعل قائد الفرقة في توجيه توصيته ، لكن هورن ركز على هذه النقاط المختلفة بصورة خاصة ، ليجعل منها الأرضية التي يستند اليها في رفضه للتوصية ، مع ذكر تعليق مكتوب ختامي هو (لا تعتبر الموضوعات العسكرية ، حجة لتقويم التعجيل في الترفيع) . وكانت وجهة النظر هذه شائعة جداً في أوساط الجيش ، وكان ماكسز ودوغان من النماذج النادرة جداً . وان ادراك مضمون تلك الكتابة ذو قيمة كبيرة في ايضاح موقف القيادات من الفكر المحرض ، والحافز للعمل في تلك الفترة *

تلقيت في خريف تلك السنة أيضاً درساً جديداً من القوة المعارضة لظهور كل أفكار جديده . إذ ظهر في عدد ايلول (سبتمبر) ١٩٢٢ من مجلة المهندسين الملكيه ، مقالاً بعنوان (نقد) (لنظريات الكابتن ليدل هارت) ، كتبه المقدم . ل . ف . بوند الذي كان يشغل في تلك الفترة منصب مدرس في الكلية العسكرية الهندية . وكانت مقالته بمثابة هجوم عنيف تضمن مثل العبارات التالية : (اذا ما تسلحنا بالاسلوب التكتيكي المجرد الذي وضعه النقيب ليدل هارت ، فاننا سنضمن لأنفسنا الهزيمه في تسع مرات من أصل عشرة) . (ولقد حاول النقيب هارت تحذيرنا بهراء ، هو أخطر أنواع التضليل) . وأصدر المقدم بوند حكمه على نظرياتي التكتيكية ، فقال بأنها (واهية ، لا تستند الى أساس منطقي) وأكد بثقة بأنه (بالامكان تطبيقها فقط . . . اذا كانت صحيحة واذا تطلب الموقف في شروط كتلك التي ظهرت في فرنسا عام ١٩١٨) . وصرح بانني انما أشكل تهديداً (في أن اصبح خطراً على جماهير اولئك الذين يمارسون التدريب من أجل الحرب وفق شروط مختلفة) . وتابع حملته ، فأصدر حكمه بادانة (اسلوبي للاختراق) واعتبر نظريتها غير صالحة للتطبيق في ظروف المعركة الحالية . ولم يسلم اسلوب الدفاع الذي اقترحته ، كرد لمجابهة اسلوب الاختراق ، من سخريته وتهكمه .

أصبح المقدم بوند بعد ١٧ عاماً ، القائد العام لقيادة الملايو ، وذلك قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ مباشرة . وبقي في مركزه هذا الى ما قبل ستة أشهر فقط من الغزو الياباني للملايو في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ . ولعل مما يثير السخرية ،

هو أن التقدم الياباني داخل شبه الجزيرة ، قد أظهر مرة أخرى فاعلية اسلوب الاختراق ونجاحه حتى في ظروف الملايو ذاتها ، وهو الاسلوب الذي استبعد لانه (غير عملي ولا يمكن تطبيقه هناك) ، وأبرز ذلك بوضوح تام نتائج اهمال اعداد الدفاع بصورة ملائمة تضمنت النجاح في مجابهته .

لقد وصل سمعي بعد فترة قصيرة من ظهور مقال المقدم بوند ، ردود فعل مبكرة وهي أقل إثارة للسخرية وأصغر في حجمها من المأساة السابقه ، وذلك أن قيادات الجيش في الهند ، كانت قد ترددت في الموافقة على نشر مقال المقدم بوند ، وذلك لأنه يمثل نقداً لما زعموا أنه ، (العقيدة الرسمية للجيش في انكلترا) لا سيما وأنني كنت معروفاً هناك بما كتبته في (دليل تدريب المشاة) . وكانت هذه هي المناسبة الأولى والأخيرة التي اعتبرت فيها الناطق باسم (السلطة المسؤ ولة) .

كانت هذه المشاعر والانطباعات كلها تتبدد أمام ما تركه مقال لي نشرته في (مجلة الجيش الفصليه) لعدد تموز (يوليو) ١٩٢٣ ، تحت عنوان (بحث وتأملات ـ في موضوع الخبرة العملية) . لكن فوللر حذرني بأن وزارة الحرب غير راغبة في اعطاء موافقتها على البحث فيما اذا رغبت بنشره بشكل رسمي . وعلى هذا طلبت من الناشر طباعته تحت اسم رمزي هو (بارديل) كاسم بديل لاسمي ، وله ايقاع شعري يذكر بالشاعر ديكنز . أما بالنسبة لموضوع البحث فقد استلهمته من العنوان الفرعي وهو (اختبار نقدي لمتطلبات العصر) (الجندي المحترف والعملي في الطريق الى وحدة السلطة في الحرب) وكان البحث وثيقة مدعمة بالحجج ، ومستندة الى دروس التاريخ ، بشأن تطوير الفكر العسكري وتفضيل ذلك عن قبول الممارسات القديمة التي تستند الى العادة والتقاليد المتوارثة . وجاء رد الفعل العنيف ضد هذا البحث ليذهلني في تلك الفترة ، ولو أن ذلك لم يعد يثيرني الآن . فلقد تدفق سيل من الرسائل والمقالات الى قيادة الجيش للرد على البحث .

وتم نشر أول هذه المقالات ـ المضادة في العدد التالي ، وبدأ بالاعلان على أنه (اذا ما تم الأخذ بانتقاداتي وقبولها ، فانها ستحمل الناخبين ودافعي الضرائب على اعتبار الجيش مجرد كومة من الفتات ـ سكراب ـ) ومضى كاتب المقال في رده وهو يشجب ما تضمنه مقالي على اعتبار أنه (يعبق بالحقد ، ويصدم بعدم الدقة ، ويتلطخ بادران الجهل) وينتهي هذا الرد بالعبارات التالية (كلا ايها السيد الناخب ، لا تستنفر نفسك للنقد الساخر الذي كتبه بارديل ، وباستطاعتك النوم بهدوء في فراشك ، وانت تعتمد على جيشك لكسب الحرب المقبلة ، بمثل ما حقق لك من انتصارات في الحرب الماضية) لقد

أصبح من الواضح جداً بأنني لمست العصب الحساس في جسم الجيش ، وأن هذه الحساسية للنقد ، كانت اكبر بكثير مما كنت أعرفه أو أتوقعه . ولم أكن (متمرداً) أو ثائراً بغريزتي ، وذلك على النقيض من تصورات الكثيرين عني في السنوات الأخيرة ، كما أن رسائلي في فترة الحرب ، وكتاباتي المبكرة ، تكشف عن انحراف ساذج في افتراض الكمال الحرفي (أو المهني) والموهبة والحكمة لدى القيادة العليا .

وعلى هذا فان المزيد من النظرة الناقدة ، انما يكشف فقط ، وبصورة تدريجية ، أهدافي من ابراز مدى القصور في الاساليب التكتيكية (التعبوية) وعدم توافقها مع الظروف الحالية لميدان القتال . وبالتالي ، اجراء الاتصال المباشر والوثيق مع القادة (الجنرالات) المسؤ ولون عن مثل هذه الاساليب التكتيكية . ولقد كانت تجربة الدعم والتشجيع ، ثم دعوة ضابط يحمل رتبة صغيرة ، لاستخلاص الدروس التكتيكية لما بعد الحرب ، وتضمينها في (دليل المشاة) بمثابة تجربة خادعه لم تلبث أن تبددت ، وزال الوهم ، فظهر ما لدى الجيش من تفكير مجدب وعقيم في وسط القادة الذين تملكتهم الحيرة من مجابهة قضية استخلاص دروس محددة من تجربة استمرت أربعة أعوام في أكبر حرب عرفها العصر الحديث . وبذلك كان ماكسز وداوود كامبل ، وغيرهم من القادة الذين أبرزوا الحاجة الى تكتيكات جديدة بمثابة ظاهرة خاصة ومحدودة .

يظهر التاريخ ـ بصورة عامة ـ ان الجيوش تتعلم من الهزيمة اكثر ما تتعلم من النصر . فالطرف المهزوم هو الذي ينقلب لاعتماد الدروس المستخلصة من الحرب ، في حين يصبح المنتصرون وقد حققوا الرضى عن الذات الى درجة خطيرة . وقد حدث ذلك من جديد بعد عام ١٩١٨ ، وظهر الرضى عن الذات بصورة اكثر وضوحاً عند القادة العسكريين الفرنسيين ، وكان هذا الشعور يتزايد اكثر مما يتناقص مع الاقتراب اكثر فأكثر من الحرب التالية . وعلى كل حال ، فقد وجدت في العشرينيات اهتماماً مثيراً بالافكار الجديدة بين بعض الأوساط الفرنسية ، والأمريكية أيضاً . حيث كان الجنرال هانتر ليغيت ، الذي قادة الجيش الأمريكي الأول خلال المرحلة الأخيرة من الحرب ، من الطلاب المجدين جداً من التعلم من دورس الحرب ، كما كان بين القادة (الجنرالات) الأصغر سناً ، دوغلاس ماك آرثر الذي أظهر بدوره اهتماماً بكتاباتي المبكرة الأولى .

لقد تطور اتصالي بتيار الفكر العسكري الامريكي حتى أصبح مجالاً واسعاً للمراسلات ، وكان هذا الاتصال قد بدأ في العام ١٩٢١ مع النقيب (الذي أصبح عقيداً فيما بعد) ج . ماروبس سكاميل ، صديق هانتر ليغيت ، وكان سكاميل ضابطا احتياطياً

في الجيش يشغل منصباً في الكلية البحرية ـ الحربية . وفي عام ١٩٢٣ ، جاء الى أوروبا لمتابعة بحثه تحت اشراف عميد المفكرين العسكريين سبينسر ويلكنسون ، ثم شيشيل استاذ التاريخ العسكري في جامعة اكسفورد . وقد زارني خلال تلك الفترة في شور نكليف . وقد دعمت هذه الزيارة الاتصال القائم بيننا . وقد حدث بعد عودة سكاميل الى أمريكا ، أن تبادلنا الرسائل بصورة متواترة لتبادل المقترحات في وقت واحد ، وكنا نجد بعضا من التشابه في الفكر فيما بيننا . وتلك هي من أعظم الحالات التي عرفت فيها ما يعرف بأنه الاتصال الفكري (التيليباتيك) . وكان سكاميل سباقاً في توسيع دائرة التحاليل العسكرية ، وهو الذي مارس دوراً محرضاً ومؤثراً في سياسة الدفاع الأمريكية حتى الحرب العالمية الثانية .

توفرت لي فرصة اضافية أخرى لتقديم خدماتي بطريقة رسمية ، وذلك أثناء اقامتي في شور نكليف ايضاً . فقد كان يتم الاعداد خلال تلك الفترة ، من أجل كتاب مدرسي لما بعد الحرب في موضوع (تدريب الأسلحة الصغرى) وذلك حتى يحل محل الكتاب القديم ، والدليل الأكثر تحديداً في موضوع أسلحة المشاة والذي مضت على ولادته أجيال وهو يحمل عنوانه التاريخي القديم (قواعد فن رمي الأسلحة الصغرى)[٢٢] ولقد اقترح أحدهم ـ ولم أتمكن من معرفته ـ على وزارة الحرب استدعائي لتقديم خدماتي وذلك فور الانتقال الى شور نكليف ، وتم تعييني لنشر الدليل الجديد ، وكانت أقسام الأسلحة المختلفة قد سحبت الى مدرسة الأسلحة الصغرى في هيث[٢٣] مع توسيع مدرسة (فن رمي الأسلحة الصغرى) عما كانت عليه قبل الحرب ، ثم قسمت المدرسة الى (أجنحة تدريبية) يعالج كل واحد منها سلاحاً من الأسلحة . فكان واجبي كمسؤول عن النشر هو تنسيق التعاون فيما بينها وفق العقيدة التكتيكية الجديدة (لتدريب المشاة) وجعلها واضحة قدر المستطاع . ووجدت أن واجبي سهل وممتع ، إذ أن الضباط المسؤولين عن التدريب في الأجنحة المختلفة ، رغم كونهم أقدم مني بكثير ، إلا أنهم أظهروا روحاً كبيرة في التعاون وقبول توجيهاتي العامة واقتراحاتي التفصيلية . وكان اكبر مساعد لي من بينهم جميعاً ، واكثرهم اندفاعاً في التقدم ، هو العقيد ت . ج . دالبي ، القائد المعاون لكبير المعلمين . وكان قد نقل من (فيلق الرماة الملكي) وهو التنظيم الذي يعود تاريخ ظهوره الى عام ١٧٥٦ من ضاربي السيوف في بنسيلفانيا (كلواء أمريكي ملكي) ، ثم أصبح فيما بعد يحمل اسم اللواء ٦٠ . وكان الأمر البهيج والمفرح بالنسبة لي ، هو أن أجدهم هناك وقد بدأوا باختبار النماذج الجديدة من التجهيزات والأعتدة ، التي طالبت بها ودافعت عنها لاكساب جندي المشاة مزيداً من المرونة في العمل ، وقد تمت خلال اقامتي هناك تجربة

الحقائب الجديدة ، وعرضهـا على عدد كبير من القـادة الـذين حضروا لزيارة مدرسة الأسلحة الصغرى ، كما حصلت على موافقة جيرالد دالبي ، من اجل استخلاص مجموعة من (تمارين المعركة) بالذخيرة الحية ، وادخالها بالـدليل الجـديد . وكان مجمـوع هذه التمارين ١٤ تمريناً بمثابة توسع في (تمارين المعركة) التي كنت قد أمنتهـا في (تـدريب المشاة) وأمكن تعميم هذه التمارين لابراز الاساليب التكتيكية الجديدة التي سبق وضعها في الدليل وفي كتيبي الصغير . ونظراً لارسال مسودة (تدريب الأسلحة الصغرى) الى وزارة الحرب بموافقة الاختصاصيين بالاسلحة من ضبـاط هيئـة أركان المدرسـة بصـورة اجماعية ، ونظراً لأن القسم الأكبر من المجلدات الثلاثة ، مغرق بالأمور الفنية للاسلحة مما لا يترك مجالاً لنقاش والجدل ، فقد تمت الموافقة بسرعة على مسودة الكتاب ، وتم نشره بصورة سليمة ، بما في ذلك ضمناً الملحقات التكتيكية التي أضفتها ، ولم تتعرض هذه للاقتطاع أو التخفيف على نحو ما عانى منه (دليل تدريب المشاة) .

لقـد عانيت خلال هذه الفتـرة من الاجهـاد والتوتـر المزدوج بالعمـل في مدرسـة الاسلحة علاوة على العمل في هيئة أركان اللواء في شور نكليف ، ولو أن المسافة الفاصلة بين المكانين لا تزيد على أميال قليلة . وكان الجهد والتوتر معادلاً للكثير من المتعة التـي عشتها في مدرسة الأسلحة في هيث .

ومما زاد من وطأة الجهـد ، انني كنت أعاني من جديد من الاضطـراب الفيز يولوجي . فبعد عودتي من فرنسا في خريف ١٩٢١ ، والالتحاق بليشفيلد مباشرة ، أصابتني نوبة من الحرارة الشديدة ارتفعت حتى ٩٠ درجة فهرنهايت لمدة اسبوع تقريباً .

ورافق ذلك هجمة سيئة على القلب ، فأرسلني الطبيب الذي تولى العناية بي الى الطبيب فريدريك ـ برايس كبير اختصاصيي لنـدن . وكان تقـريره كئيب جداً ، حيث طلب مني الالتزام بحياة هادئه طوال ما تبقى لي من ايام العمر . وعندئذ ، وفور انتقالي الى شور نكليف اعتزلت بقسوة في مكتبي ، على اعتبـار انـني مصـاب بذبحـة صدرية في الظاهر ، وأصبحت كالمشلول في مقعدي مع آلام شديدة لمدة نصف ساعة قبل أن أتمكن من التحرك ، أو طلب المساعدة . وهنا ولحسن الحظ وجهت لي نصيحة بزيارة الدكتور كالفرلي المستشار المدني في المستشفى العسكري ، الذي لم يوافق على ما تضمنه تقـرير الطبيب فريدريك ـ برايس ، وقدم لي كالفيرلي دعمه ومساعدته ، ونظراً لاعتقاده بفائدة التمارين الرياضية في مثل هذه الظروف ، فقد شعرت بالتحسن الى حد كبير ، حتى انني أصبحت قادراً في صيف عام ١٩٢٢ على ممارسة لعبة كرة المضرب (التنس) من جديد ، لكن باعتدال ، وفي وقت مبكر من عام ١٩٢٤ ذهبت الى جنوب فرنسا للاشتراك بعدد من

المباريات هناك . وكان رفيقي في هذه الجولة العقيد ديرموت هايد ومدير المستشفى العسكري في شور نكليف . ولكن وعلى الرغم من التقرير المضحك الذي أصدره الدكتور فريدريك برايس ، والذي ظهر كذلك على ضوء ما بذلته من جهد ، وما قمت به من عمل في السنة التالية ، لا سيما وأن هذا العمل كان يتم تحت ضغط شديد من التوتر ، إلا أن التقرير ساعدني بصورة غير مباشرة ، لأنه ارغمني على التفكير دائماً ، وبصورة عملية قدر المستطاع للاخذ بالمبدأ العسكري ـ في اقتصاد القوى ـ خلال عملي اليومي وفيما أمارسه من نشاط وفاعلية .

كان أسوأ ما في هذه الظلال الجديدة انها انعكست على عملي في الجيش ، لا سيما وأن زوجتي الحامل من جديد ، كانت في حاجة لعناية خاصة . إذ أنها كانت قد تعرضت لبرد قاس في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ مما تسبب باجهاضها ، وفي السنة التالية ، وبسبب القيام بجولة صعبة جداً بالسيارة ، فوق الطرق الرديئة ، تعرضت للاجهاض مرة أخرى ولكن ولحسن الحظ ، فقد سارت الأمور في المرة الثالثة بصورة جيدة ، وتمت ولادة ابننا (آدريان ـ جون) في ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٢٢ ، وقبل بوني ـ فوللر أن يكون واحداً من أبويه في تعميده .

تعرضت التطلعات العسكرية بعد ذلك مباشرة للتدمير السيء بسبب النتائج القاسية لمقررات (فأس قادس) . وعانت الفيالق الجديدة بمفهومها الجديد من يد البتر القاسية اكثر مما عداها ، بحيث تم اختصارها الى أقل من نصف قوتها الأساسية عند تنظيمها .

وكان من نتيجة تلك الضربة القاصمة التخلي عن فكرة (المفهوم الأساسي) للفيالق كتنظيمات مستقلة للقتال الى جانب الجيش ، مع تغير على المستوى ذاته داخل تنظيم الفيالق ذاتها ، مما أضعف من الفرص المتوفرة لدخول كلية هيئة الأركان .

وعلى هذا أصبحت مقررات (فأس قادس) هي الطريق المسدود في وجه كل باحث عن وسيلة لمزج التعليم وتطوير التدريب العسكري بهدف تكوين جنود اكثر خبرة وافضل توافقاً مع التكتيكات الجديدة ، وهو الهدف المشترك الذي حددته وأوضحته في التوجيه الذي أصدره دوغان فور التحاقي بهيئة اركانه في صيف عام ١٩٢٠ .

ظهرت في عام ١٩٢٣ فرصة طالما انتظرتها ، على كل حال ، وذلك عندما تم في النهاية تكوين فيلق للمدرعات من أجل الحرب ، وذلك كتنظيم ثابت ودائم في الجيش حمل اسم (فيلق الدبابات الملكي) . وقدمت على الفور طلباً للانتقال اليه ، وفي شهر

تموز (يوليو) وصلني اعلام من وزارة الحرب بانه تم انتقائي للعمل في هذا الفيلق . ولكن وبينما كنت انتظر الأوامر للانتقال الى فيلق الدبابات الملكي المتمركز في معسكر بوفينغتون من دورسيت ، عمل فرع آخر من فروع وزارة الحرب على نبش التقارير الطبية القديمة المتعلقة بي ، وتم نتيجة لذلك الغاء تعييني في المركز الذي كنت اريده . وقد جاءت النتيجة على الرغم من مذكرة وزارة الحرب الى القيادة الشرقية وفيها بان الغاء تعييني في فيلق الدبابات الملكي ، لن يكون له أي أثر على استمراري في عملي الحالي . إلا أنني تلقيت أمراً جديداً من وزارة الحرب في شهر آذار (مارس) ١٩٢٤ للمثول أمام اللجنة الطبية في شور نكليف من أجل إعادة فحصي بصورة فورية .

وقد ظهر لي ذلك غريباً بشكل من الأشكال ، إذ أن اللجنة الطبية السابقة ، اثناء كتابتها لتقريرها بأنني غير صالح للخدمة العامة ، اقترحت اعادة فحصي بعد اثني عشر شهراً . وقد طلب الى اللجنة الطبية تقرير مدى صلاحيتي للعمل (في المناخ الاستوائي) وعندما أجابت اللجنة الطبية بكلمة (لا) على سؤال وزارة الحرب ، عملت الوزارة على وضع اسمي على لائحة المحالين على التقاعد اعتباراً من ٧ تموز (يوليو) ١٩٢٤ .

ترك دوغان (شور نكليف) في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بعد أن أكمل أربع سنوات في قيادة اللواء ، كما تقاعد ماكسز في هذه الفترة ذاتها ، وبعد ذلك لم يعد باستطاعتهما تقديم أي دعم لي . وتولى معالجة القضية السيد جيوفري باتلر ، الذي أصبح الآن عضواً في البرلمان عن جامعة كامبريدج وذلك برفعها الى أمين سر البرلمان الجديد لشؤون الدولة من أجل قضايا وزارة الحرب ، وكذلك بالتعاون مع كليمنت أتلي ، الذي كان قد عين قبل ذلك مباشرة كوزير في أول مدخل متواضع للسلطة في حكومة العمال . ولكنني سمعت من جيوفري باتلر في أيار (مايو) بان اللورد كافان ، الذي أصبح الآن رئيساً لهيئة الاركان العامة الامبراطورية ، قد قرر التوقف عن اعتبار القضية التي تركها له سلفه بشأني هي قضية خاصة .

كان قد تم تعيين فوللر في منصب كبير مدربي كلية هيئة الأركان منذ السنة السابقة . وكان مقتنعاً بأن ما يحدث لي حقيقة انما هو نتيجة للمعارضة المتعاظمة في وزارة الحرب ، ضد كتاباتي العسكرية وضد كتاباته ايضاً ، لا سيما في موضوع ابراز أهمية القوات الميكانيكية (الآلية) في حروب المستقبل ، وضرورة العمل على تطويرها . وقد كتب لي في الشتاء ليعلمني بالموقف الرجعي للعهد الجديد تحت قيادة كافان ، وكيف أن وزارة الحرب قد رفضت منحه اجازة بنشر كتاب يضم محاضراته تحت عنوان (أسس علم الحرب) . كما تضمنت رسالته ما يلي :

(قابلت منذ اسبوع رئيس هيئة الأركان العامة ، انه أرنب صغير في ثوب رجل ، وقال بأنه لن يسمح لضابط في الخدمة العاملة ، ان يكتب أي كتاب عسكري ، نظراً لما في ذلك من ضرر على الانضباط العسكري ! ونظراً لعدم استطاعته فرض ذلك بقوة القانون ، فقد عمل على تطبيقه كمبدأ (!) بحيث لا يسمح لأي ضابط في كلية هيئة الأركان بنشر أي شيء . . . ان الحالة العقلية لهذا الرجل القزم ، إنما هي عقلية متخلفة بمقدار ٨٠٠ سنة فقط عن أحداث العصر ، أليس ذلك غريباً . . .) والآن ، وعندما علم فوللر بقرار تسريحي ، كتب لي :

(سمعت بما انتهى اليه مصيرك ، وأنا شديد الأسف ، وأعتبر شخصياً أن ذلك أمر لا مفر منه ، فالمقدمات هي في سوء حالتك الصحية ، وأما السبب فهو لأنك كاتب . ذلك أن القدرات المتوسطة أو الضعيفة قد تراجعت لتستند الى جدران قوية ، أما نحن الذين ساعدنا على ارغامها للوصول الى هذا الموقف فسنكون من أول ضحاياها . ولو أنني كنت في مثل عمرك وفي مثل رتبتك ، لتمت معاملتي التي عوملت بها ، لقد عملوا على قطع رقبتك ، أما أنا فتركوني للاختناق البطيء . ولا أعرف من هو الذي يستحق الحسد بيننا اكثر من الآخر).انني أميل ، وأنا أستعيد الذكريات ، الى الأخذ بوجهة نظر كافان عند اتخاذه لقراره بشأن حالتي ، فقد كان ذلك رد فعل طبيعي لتفكير جندي محافظ ، تعود على اعتبار الكفاءة الجسمية هي العامل الأسمى الذي يتفوق على الاعتبارات جميعها ، وليس التحرك المدروس لضمان انجاز قانون عدم ـ الكتابة الذي اراد وضعه وتطبيقه . ولقد اتيحت لي فرص الالتقاء به في السنوات التالية ، فكان يعبر باستمرار عن سروره لما اكتبه وتقديره لما اعالجه في مقالاتي بشأن التدريب في الجيش ، في حين كان يأخذ انتقاداتي بروح أفضل من تلك التي كان يظهرها التابعون له .

لقد كان قراره ، على كل حال ، انما يعني بأنني قد أصبحت وأنا في عمر الثامنة والعشرين ، وبعد عشرة أعوام من الخدمة ، عاطلاً عن العمل ، براتب زهيد يعادل نصف مرتب من أجل العيش بعيداً عن المهنة التي أحببتها . وكان لي الحق كضابط نظامي أفقدته الحرب كفاءته ، البقاء في الجيش بنصف راتب لمدة خمسة أعوام ، عوضاً عن ثلاثة أعوام كما هي العادة . ولكن فرصة العودة الى الخدمة العاملة كانت ضئيلة . وكان ذلك موقفاً صعباً لرجل عليه اعالة زوجته وابنه ، دون وجود دخل خاص اضافي يسد الثغرة ، ودون توفر امكانات رسمية تتناسب مع متطلبات الحرف الأخرى .

كان القرار فوق ذلك كله مخيباً للآمال ، وظهر للحظة من اللحظات بأنه محبط

ومدمر ، ذلك انه كان يتهدد باقتطاع فرصتي لنشر بشائر التكتيكات الجديدة ، والقضاء على اعتقادي بان المرونة الآلية (الميكانيكية) هي مفتاح النجاح في حروب المستقبل وكان رئيس اللجنة الطبية التي أصدرت تقريرها المصيري في آذار (مارس) هو صديق شخصي ، ورفيق في لعب كرة المضرب (التنس) (وهو العقيد هايد) عبر عن أسفه لهذا القرار ولكن عندما قابلته من جديد بعد سنوات قليلة ، اغتمنت الفرصة لاقدم له شكري واخبره بانه قدم لي أفضل الخدمات

□ حواشي الفصل الثاني □

١) (BUZZLE - BOX)

٢) UNITED-SERVICE MAGAZINE

٣) COL .AL SAGR POLLOCK

٤) IVOR MAXSE

٥) NATIONAL REVIEW

٦) GENERAL LYNDEN - BELL

٧) HORSE-GUARDS

٨) LORD GORT

٩) GRENADIER — GUARDS

١٠) لعبة الحرب ، ترجمة اصطلاح TACTICAL - GAMES ، وهي تمارين تتم ممارستها في غرفة العلميات او تمارين القيادات عن طريق وضع فرضيات للمواقف المختلفة وايجاد الحلول لها

(المعرب)

١١) سن تزو : SUN - TZU ، قائد صيني ، من كبار قادة الحرب

١٢) خطة الخنق المضاد : THE CONTRACTING FUNNEL

١٣) العقيد فوللر : COLONEL J. F. C. FULLER.

١٤) بلوخستان : BALUCHISTAN مقاطعة على الحدود الهندية ـ الباكستانية

١٥) كيتا : QUETTA مدينة في باكستان ، وهي عاصمة اقليم بلوخستان دمرتها هزة ارضية في عام ١٩٣٥

١٦) الدرشوتALDERSHOT مدينة في انكلترا (اقليم هامبشير) وتتميز بمؤسساتها ومراكزها العسكرية .

١٧) الحرب الصاعقة : BILTZKREIG.

١٨) اريك غديس : ERIC - GEDDES

١٩) الانسيكلوبيذياـ بريتانيكا : ENCYCLOPŒDIA - BRITANNICA- .

٢٠) آي سيرـ سوم : AILLY - SUR - SOMME

٢١) السيرجون مور : SIR - JOHN - MOORE ، جنرال انكليزي من مواليد غلاسكو (١٧٦١ ـ ١٨٠٩) ومن أبرز أعماله قيادة عمليات الانسحاب من تور (TORO) في اسبانيا

* لقد كانت فاعلية مثل هذه العقلية اكبر اثرا واوسع نشاطا في البحرية مما كانت عليه في الجيش ولعل من ابرز حاملي هذه العقلية هو السير هيربرت ريتشموند الذي وصل الى القمة في سلاح البحرية عام ١٩٠٩ عندما تم تعيينه قائدا لقطعة حربية (مدمرة) وهو في عمر مبكر ٣٨ عاما ولكنه عندئذ دمر كل تطلعاته وآماله كما اخبرني وهو في حالة يرثى لها من الحزن ، عندما اخذ في الكتابة حول مشكلات البحرية في يوميات الخدمة ، وكان ترفيعه التالي الى رتبة امير البحر (اميرال) بهدف نقله وابعاده عن تيار الخدمة الفعلية وعندما تم انشاء معهد الدفاع الامبراطوري في عام ١٩٢٧ ، تم تعيين ريتشموند كأعلى عضو للفكر المحترف في الاسلحة الثلاثة ، وبما ان البحرية الملكية كانت تحتل المرتبة الاولى بين صنوف الاسلحة فقد تم اختيار قائدها السير ريتسموند لهذا التعيين ، ولكن ريتشموند استخدم هذ ه لنافذةـ المفتوحة لاضافة رصيد جديد للبحرية في تطوير الفكر فتمت احالته على التقاعد دون ان يتم تعيينه في اي منصب آخر وقد تعرض عدد آخر من ضباط البحرية لهذا المصير ذاته ممن كان قد تم ارسالهم كمدرسين الى معهد الدفاع الامبراطوري

٢٢) قواعد فن رمي الاسلحة الصغرى : MUSKETRY - REGULATIONS

٢٣) هيثHYTHE

الفصل الثالث
مراسل عسكري

أصبحت في عام ١٩٢٤ وأنا دون عمل وبنصف راتب على (حساب جرحى الحرب) . وكانت مشكلتي الأولى هي ايجاد طريقة لتأمين نفقات الحياة . وذلك ان اصطلاح (نصف راتب) انما كان اصطلاحاً خداعيا . فهو مجرد من العلاوات الاضافية ، وهذا ما يعادل في الحقيقة ربع الراتب تقريبا فكان الراتب ينخفض من ٥٥٠ جنيه استرليني في السنة تقريبا الى ما يزيد قليلا على ١٥٠ جنيه استرليني . وكنت اكسب علاوة على راتبي في الجيش مع علاواته ما يقارب ٣٠٠ جنيه استرليني من الكتابة خلال الاثني عشر شهراً الأخيرة من خدمتي فكانت المشكلة الصعبة هي في زيادة دخلي بما يكفي لسد الثغرة . وقد كسبت اكثر من ١٠٠٠ جنيه استرليني كدخل من جميع الموارد (كمحرر غير رسمي) وذلك خلال الأشهر الاثني عشرة الأخيرة .

ذهبت إلى لندن في حزيران (يونيو) لتغطية اخبار مباريات البطولة لكرة المضرب (التنس) وفي السنة التالية ثم تكليفي بكتابة تعليقات لصحيفة (غازيت ويستمينستر) اليومية وملحق الاوبزرفر في كل يوم أحد ، هذا بالاضافة إلى المانشستر غارديان والاتحاد الامريكي لكرة المضرب (التنس) . ولم تكن كتابة أربعة تقارير للحدث ذاته بالقضية السهلة لكنني تدبرت الأمر لتغيير طريقة الوصف فيها إلى درجة كافية تحقق ارضاء الناشرين وكان من الواضح بأن احتلالي لمثل هذه الزاوية الواسعة في سوق الصحافة

الرياضية ، لم يقابل من بقية المعلقين الرياضيين في كرة المضرب (التنس) بالضيق أو العداء وذلك بدلالة انتخابي أول رئيس لاتحاد صحافيي كرة المضرب (التنس) والذي تم تنظيمه في تلك السنة . وفي فصل الشتاء من عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ، عاودت من جديد ممارسة هواية قديمة لي للافادة منها في تغطية القسم الأكبر من مباريات (الراكبي) لمصلحة صحيفة الاوبزرفر .

تطور الأمر نحو الأفضل عندما ظهرت فرصة جديدة للعمل في المجال العسكري ، وقد فتحت هذه النافذة في صيف عام ١٩٢٤ ، وتوافق ذلك بدقة مع توقيت مغادرتي لشور نكليف . وقد جاءت هذه الفرصة عندما كتب لي ماكسز بصورة خاصة ليعلمني بأن صحيفة (مورنيننغ بوست) التي أصبح مديراً لها ، ترغب في ان تضم اليها معاون مراسل عسكري من أجل موسم التدريب ، ولتغطية معسكرات الجيش على الحدود وانباء مناورات الجيش النظامي وكان مراسلها العسكري في تلك الفترة هو المشير السير ويليام روبرتسون ، غير راغب في القيام بمثل هذه المهمة ، والقيام بالجولات الكثيرة التي تتطلبها المهمة . وبذلك أصبح نفوره من الرحلات ، هو فرصتي في اللحظة الحرجة والقاسية .

وانتهت رسالة ماكسز إلى القول : (افترض بأنني أستطيع التأثير في التعيين وهذا أمر موضع للشك ، فهل ستقبل العمل ؟) وكان من الطبيعي أن أقفز للافادة من هذا العرض . وعندئذ كتب ماكسز الى الناشر هـ . ا. غوايين الذي طلب مقابلتي وعرض علي العمل . واقترح تعويضاً بمبلغ ١٠٠ جنيه استرليني إلى جانب تغطية نفقات الرحلات والسفر . وذلك لمدة الأسابيع الستة التي قدر الناشر بأنها تكفي لتنفيذ المهمة ، وذلك علاوة على خمسة جنيهات عن كل عمود من المقالات الاضافية . ولم يكن هذا الراتب ضخما بالنسبة لشروط العمل الزمانية والمكانية ، ولكنني وافقت على العمل كقاعدة تجريبية ، وذلك للبرهان على قدرتي في تنفيذ الواجب ، وللافادة مما يوفره من ضمان لتأمين العمل خلال فصل الشتاء وكتابة التقارير عن مباريات كرة القدم والركبي .

بعد اتخاذ الترتيبات ووضع البرنامج التفصيلي الذي تم توسيعه على نحو اكثر مما تم اقتراحه بصورة أساسية ، نشرت صحيفة (مورنينغ بوست) اعلانا جاء فيه (انه قد تم تعيين خبير لوصف التدريب من وجهة نظر العمل العسكري اكثر من مجرد وصفه كمشهد يتابعه مراقب عادي ، وذلك من أجل عرض تقويم منطقي ونقد موضوعي مما يساعد على دعم جهود وحدات الحدود لاعداد نفسها بهدف الدفاع عن الاقليم) . وهنا يظهر تأثير ماكسز في دعمي بشكل واضح .

بدأت جولتي في منتصف شهر تموز (يوليو) ، وزرت خلال الأسابيع الخمسة التالية ١٥ لواء مشاة إقليمي ، علاوة على عدد من الوحدات في أسلحة أخرى ، وكذلك الجامعة التي كانت قد بدأت فترة تدريبها ـ لمدة اسبوعين ـ في معسكر تدريبي يتم خلاله المزور على عدد من المواقع الممتدة بين الشاطيء الجنوبي وكاتريك حيث كان ماكسز يكافح لتطوير مراكز التدريب في شمال انكلترا حتى ينافس بذلك آلدرشوت[1] ، التي بقيت لاجيال متعاقبة المركز الرئيسي للجيش البريطاني ـ وقد كتبت تقارير خاصة عن التدريب في كل معسكر من هذه المعسكرات ، مع مسلسل من ثمان مقالات اضافية في موضوع مباديء التكتيك واساليبه وكذلك التدريب التكتيكي (التعبوي) ، وعولجت الفكرة الرئيسية في مضمون المقال الثالث من هذا المسلسل الذي اعطيته عنوان (المشكلة الحاسمة في المعركة الحديثة ـ المواضيع المهملة) .

كانت هذه الجولة الواسعة هي أول لقاء لي ، عن قرب ، مع جيش الاقليم ، وظهر لي بصورة عرضية مدى قسوة برنارد مونتغومري في تحاليله الطويلة التي أرسلها لي عن صفاتها وعيوبها ، خلال خدمته فيها لمدة سنتين ، وذلك في تجربته الحديثة في فرقة واحدة .

فقد كانت وحدات كثيرة تميل إلى المحافظة على الكسل في تحركها ، بهدف اخفاء ضعفها عن طريق اظهار قوة وهمية منصفلة عن الواقع . ونتيجة لذلك كانت نوعية التدريب متغيرة ، فكانت أضعف الوحدات هي المتميزة بانها الأكثر كفاءة في الاعتماد عليها عند استنفارها لحضور معسكر ما كان يسمى (اجازة حرة ليوم واحد على شاطيء البحر) . في حين كانت أفضل الوحدات هي التي تظهر اهتماما بالتدريب التكتيكي ، وبقيمة كونها على (استعداد للحرب) . وهكذا فان هذه الوحدات لم تكن تعاني في حال حضورها من الذهاب الى معسكر في منطقة بعيدة عن شاطيء البحر وما يتوفر فيه من اسباب المتعة والراحة . وكانت أفضل الوحدات جميعا هي التي برهنت على أنها تتابع سياسة زيادة الصعوبة في التدريب وجعله واقعيا ، مع استبعاد الرجال او اعفائهم من التدريب اذا لم تتوفر لديهم الحماسة الكافية ، ملتزمين في ذلك بفكرة ان الدخول في الجيش هو امتياز لا يمكن فرضه بالقوة ونظرا لتنظيم ناد او جمعية للقوات هناك فقد كان باستطاعة الرجال الذين لا عمل لهم مؤقتا الافادة من الامكانات المتوفرة للمحافظة على قوتهم .

كانت هذه الجولة هي الأولى في مجموعة ١٦ جولة سنوية قمت بها لزيارة معسكرات التدريب قبل الحرب العالمية الثانية . وكنت أشعر بسعادة كبرى خلال هذه الجولات وأنا

ألتقي بقادة الفرق وقادة الألوية الذين كان عدد منهم يعمل على دعوتي لحضور المؤتمرات من أجل الاستماع لتعليقاتي حول التمارين والمناورات ، وقد عمل أحدهم على تعديل تدريب اللواء بناء على مقترحاتي وكنت استقبل خاصة بحرارة وحماسة من قبل الضباط الكثيرين الذين كانوا يستخدمون كتابي الصغير عن تكتيكات المشاة ، وهو الكتاب الذي أعدت تنقيحه واصداره بطبعة موسعة في السنة السابقة . اما هذه الطبعة الثانية فقد عملت على اصدارها عن طريق دار نشر (ويليام كلوز وأبنائه) والتي كانت قد بدأت باصدار المجلة العسكرية الجديدة (المجلة الفصلية للجيش) وكان يرأس دار النشر هذه العقيد جورج كلوز قائد لواء لندن ـ الاسكتلندي ـ وهو من ألوية النخبة المختارة.ولقد كان هذا الاتصال الذي تميز بالحماسة للتكتيك خارج اطار الجيش النظامي بمثابة تجربة جديدة ومثمرة كثيرا ما كانت تتطور الى صداقة طويلة وحميمة .

كانت حماسة بعض هؤلاء المواطنين الجنود ، وهي الحماسة المدعمة بالخبرة وبالدراسة العسكرية قد أثرت بي تأثيرا كبيرا ، فقد عرفت في هؤلاء الضباط قابليتهم وامكاناتهم القيادية (كقادة وكمدربين) وحفزني ذلك على تزعم حملة للمطالبة بتوفير فرص أكثر اتساعا للضباط البارزين في جيش الاقليم ، حتى يصبح هؤلاء قادة للالوية أو حتى قادة للفرق . والالتزام بتنفيذ وعد هالدان الذي قطعه يوم تكوين قوة الاقليم في عام ١٩٠٨ لتحل محل قوة المتطوعين القديمة والتي لم يتم تنظيمها على المستوى الفرقي . ووجدت ان عددا من القادة (الجنرالات) قد وافقوا على ما تضمنته وجهة نظري ، وفي طليعتهم جون دونكان ، الذي بذل جهدا كبيرا لرفع مستوى التدريب التكتيكي (التعبوي) في فرقة الاقليم التي كان يقودها (وهي الفرقة ٥٤ شرق انجليان) . وقد ارسل دونكان بتوصيته لدعم وجهة نظري وكذلك فعل خلفه ضابط الاقليم ، المقدم جون براون ، الذي كان واحدا من مجموعة صغيرة جدا من المواطنين الجنود الذين توفرت لهم فرصة قيادة لواء ، وبرهن انه من أفضل مدربي التكتيك في تلك الفرقة ولعله واحد من أفضل القادة الذين عرفتهم في حياتي.لكن توصية دونكان القوية رفضت وذلك لأنها تعني وجود شاغر واحد أقل للقادة العاملين (النظاميين) . وكانت وجهة النظر هذه في (الدكان المغلق) منتشرة على نطاق واسع بين الضباط النظاميين واستمرت حتى عام ١٩٣٧ ، حيث عملت على اثارة القضية من جديد ، ورفعتها إلى هور بيليشا الذي أصبح وزيرا للحرب . فاتخذ الاجراءات الفورية لتنفيذ وعد هالدان الذي كان قد قطعه قبل ٣٠ عاما .

انتهت جولتي على معسكرات الاقليم في الاسبوع الثالث من آب (اغسطس)

١٩٢٤ . ورجعت عندها لمتابعة معالجة التمارين التكتيكية المنفذة على نطاق واسع في الجيش النظامي وفرغت من هذه المعالجة بعد شهر واحد .

كتبت ١٥ موضوعا اضافيا حول هذه التمارين التي يمارسها الجيش النظامي وكان فيها وجيزين احدهما عالج موضوع الاعتماد على الميزات والمرونة اكثر من مجرد الاعتماد على الوزن العددي وان اعادة احياء المرونة في الحرب تتطلب بذلك أقصى الجهود الممكنة لتطوير الوسائل الآلية (الميكانيكية) لحركة جميع الأسلحة (فالدبابة ذاتها ليست اكثر من أسلحة تتوفر لها السرعة ، والقدرة على السير فوق جميع اراضي الاقاليم فهي اذا وسائل حركة الأسلحة) . وان زيادة الرقابة وضرورة السيطرة على الحركة ، وهي على درجة معادلة من الأهمية ، تتطلب تطوير (الهاتف اللاسلكي) والعمل بصورة خاصة على استخدام (ضباط هيئة الأركان في الجو) لمراقبة سير العمليات والاتصال مع قياداتهم عن طريق (الهاتف اللاسلكي) وبذلك (تموت ببطء فكرة عمليات الخنادق). هذا من ناحية ، ومن ناحية إخرى فقد بقيت وسائل اتصال المشاة ظاهرية ، وكان استخدامها بطيء جداً بسبب انتشارها الواسع جداً . وكانت عملية احياء اساليب نابوليون في استخدام الخبراء (كمساعدين في المعسكرات) قد تفيد في مثل هذه المواقف .

قابلت خلال هذه الأسابيع ولأول مرة تقريبا ، العدد الأكبر من الجنود الذين مارسوا دوراً حاسماً في المسيرة التالية لتطوير الجيش البريطاني .

كان السير فيليب شيتوود هو القائد لقيادة آلدرشوت ، وكان رجل فرسان من النوع المخادع والمرح يفرض شخصيته وهو يتحدث باسلوبه اللاذع والمفعم بالحيوية (وفق طريقة اللهجة المميزة لجماعة السوق الجديد) وهي اللهجة التي كانت خلال تلك الفترة سائدة في مستويات المجتمع العليا . وقد أدهشني واجتذبني بطريقة حديثه عن الحاجة لاعادة احياء المرونة للقضاء على كل تجدد في حرب الخنادق القاتلة ، ولكنه أفزعني بعد ذلك وهو يتابع شرح اعتقاده بقيمة فرسان الخيول لهذه الغاية وميله الى انقاص أهمية الدبابات . وقد أظهر في السنوات التالية مرحه وغبطته عندما تعرضت الدبابات للمتاعب ، ورحب بكل تطور في صناعة الأسلحة المضادة للدبابات واستخدم ذلك دليلا على عدم وجود مستقبل للدبابات . ولكنه كان يأخذ وباستمرار حججي المضادة بطريقة مرحة جدا ، مما كان يترك لي الأمل بأنه سيصل يوما لرؤ ية القدرات الكامنة لأحياء المرونة عن طريق القوات المدرعة . ولقد كان من ذلك النوع من الرجال الذين لا يحدث الاصطدام في وجهات النظر والاختلاف في الرأي اي سوء في العلاقات على المستوى الشخصي .

كان السير جورج ميلن قائد القيادة الشرقية اكثر تعقيدا في طباعه وصفاته . وكان جورج ميلن قد أكتسب شهرة واسعة منذ كان القائد الأعلى للقوات البريطانية في معركة مقدونيا[٢](في الحرب العالمية الأولى) وقد كون شهرته نتيجة لمجموعة من العوامل ، فقد كان يظهر اهتماماً ابوياً بوحداته مع مزيج من التضحيات بانفجار الأمزجة العاطفي .

وكان يعمل على تشجيع الضباط الشبان من مرؤوسيه والسماح لهم بالتعبير عن وجهات نظرهم ، بحرية ، ولو انه كان ينقلب ضدهم احيانا بعنف وقسوة . ونظراً لكونه عادة الرجل المناسب فقد اصبح باستطاعته في بعض الأحيان اتخاذ المواقف الظالمة والجائرة بقسوتها ، مستخدما في هجومه حقده الدائم . وكان ميلن في تطلعاته العسكرية مزيجا غريباً من المعطيات التقدمية والحذرة والمحافظة ، وظهر ذلك واضحاً بعد المرة الأولى من تعيينه لمدة سبع سنوات كرئيس لهيئة الاركان العامة الامبراطورية . وقد يكون بالمستطاع ادراك ذلك من قسماته وأساريره، ووجهه كثير التجاويف والنتوءات ، وحاجبيه الكثيفين وفكه العريض . وكان إلى ذلك يتشابه الى حد بعيد مع الجنرال فون سيكت ، قائد الجيش الألماني بعد الحرب ، بحيث يمكن اعتبارهما بسهولة ودون عناء توأماً واحداً . ومهما كان عليه الموقف فقد صدمت منذ اتصالنا المبكر باستقباله المميز للأفكار الجديدة . ولقد بقي هذا الانطباع عندي فوق كل ما عداه طوال سنوات عديدة .

كان قائد الفرقة الأولى هو السير ارشيبالد مونتغومري (الذي اصبح فيما بعد معروفاً باسم مونتغومري ـ ماسينغبيرد) والذي كان رئيساً لهيئة أركان رولينسون في الجيش الرابع اثناء معركة السوم وبعدها ، وكان رئيساً لهيئة الأركان على درجة عالية من الكفاءة والقدرة ، وكان الى ذلك اعلى طموحاً ، واكثر رقة في اسلوب تعامله . كان طويلاً وأنيقاً ، والعيب الوحيد الظاهر فيه هو التجاعيد الغريبة حول شفته ، عندما يبتسم ، وقد تولى في تلك السنة امر التعرف بي ، وعمل في السنة التالية على تعميق جذور تلك المعرفة ، واظهر حماسة تقبلتها بسذاجة كبيرة على انها اهتمام قوي بأفكاري ، ولكن تلك الحماسة كانت مبطنة بالرغبة في اكتساب دعمي لتحقيق أهدافه الشخصية وذلك بحسب ما أخذ يتكشف لي تدريجياً من خلال عادته في حشر مسامعي بتلك التعليقات التي ينتقص فيها من جميع زملائه ممن يعتقد بانهم المنافسين له .

لقد كان من سوء حظ الجيش البريطاني أن يصل ارشيبالد مونتغومري الى تحقيق طموحه ، فأصبح خلفاً لميلن في رئاسة هيئة الاركان العامة في الجيش وذلك عام ١٩٣٣ ، وذلك بعد أن تسلم هتلر زمام السلطة في المانيا مباشرة . وعندما عين ايرونسايد[٣] في وزارة

الحرب عند دخول بريطانيا الحرب عام ١٩٣٩ ، اكتشف عيوب الجيش البريطاني ، وعرف التقصير في تجهيزه ورغم ذلك فانه لم يوجه نقداً لمن سلفه مباشرة ، ولكنه انفجر من الغضب عندما شاهد صورتي ميلن ومونتغومري - ماسينغبيرد معلقتان على جدار في القيادة وقال : (كان يجب اعدام هذين الرجلين رمياً بالرصاص) وكان هذا الحكم قاسياً جداً بالنسبة لميلن .

كان من بين قادة الألوية الذين اشتركوا في هذه التمارين من عام ١٩٢٤ ، ثلاثة قدر لهم فيما بعد الإرتقاء إلى مراكز رفيعة في الجيش وهم جون ديل ، وهاري كنوكس (قاد على التتابع لواء المشاة الثاني ثم الثالث من الفرقة الأولى) وكذلك ويليام بارثو لومي (الذي قاد اللواء السادس من الفرقة الثانية).كان (باتي) حاد الذكاء جداً، ولكنه رجل قليل المواظبة، وعمل رئيسا لهيئة اركان شيتوود في هجوم الخريف لعام ١٩١٧ على مسرح فلسطين . ثم انتقل ليعمل في هيئة اركان اللنبي ، حيث أصبح الدماغ المخطط للهجوم النهائي الحاسم في ذلك المسرح من مسارح عمليات الحرب . ولم يكن ضعفه الشخصي الواضح واسلوبه الحذر ، ليتوافق مع متطلبات قيادة وحدات الجنود ولكن كان هناك اعتراف بقدراته العقلية مما دفع القيادة لتعيينه مديرا لمعهد الدفاع الامبراطوري ، ثم مدير العمليات العسكرية والاستخبارات في وزارة الحرب . وهنا وعلى كل حال تدخل دوره في العمل (من وراء الستار) ، لا سيما في العلاقات بين الدوائر المختلفة ، وهو الدور الذي أصبح واضحا جدا لوزارة الحرب ، لينعكس على ترشيحه المحتمل ليصبح رئيسا لهيئة أركان الامبراطورية .

كان كنوكس (اوكنوكوس أو المقرعة) كما كان يطلق عليه بجدارة يمثل النقيض تماما لشخص بارثولومي إذ كان رجل ذا صفات مذهلة فقد توفرت له افضل الصفات والمميزات المطلوب توفرها في قيادة الألوية وعلى مستويات ضباط الاركان العليا في الجيش إذ انه كان يوحي بالثقة . ولسوء الحظ فقد كان متعصبا شديد التعصب ، ومحافظاً في تطلعاته وكان نموذجا (لمن يموت أو يستسلم بعد نضال مرير) في معارضة لتطوير الجيش وفق المعطيات الحديثة ، وتحويله إلى جيش آلي (ميكانيكي) . ولقد عمل كنوكس كمدير للتدريب العسكري خلال الأربع سنوات الأولى من فترة رئاسة ميلن لهيئة الأركان العامة في الجيش . وكان خلال هذه الفترة المكبح القوي والثابت في مجابهة اتجاهات ميلن التقدمية ، والداعم القوي لخطواته الحذرة وعندما أصبح كنوكس في عام ١٩٣٥ ، معاون القائد العام للقوات المسلحة عمل على كبح السلطة ومنعها من ممارسة أي دور فعال ، واستمر في ذلك حتى عمل (هورس بيليشا) على نقله في نهاية عام ١٩٣٧ . وقد تقبل

كنوكس عملية نقله بطريقة مميزة حيث استطاع مغادرة عمله وهو يحمل الثناء والتقدير لما قام به ، وكان ذلك امرا فريداً واستثنائياً .

أما ديل (جون) فكان نموذج الجندي البارز بين قادة الألوية ، وكان أفضل دماغ مفكر عسكري بين جميع اولئك الذين كانوا يحملون رتبة أعلى من رتبته . ففي عام ١٩١٨ وعندما لم يكن يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره ، حمل رتبة لواء ، في هيئة الاركان العامة ، فرع العمليات ـ للقيادة العامة العليا في فرنسا ، وذلك قبل بدء الهجوم الألماني الكبير مباشرة وبرهن خلال الاسابيع الحرجة والأشهر الصعبة التالية على انه المحور الأساسي في هيئة اركان هيغ ، كما أظهر قدرته على الامساك بالموقف ببرود ، وادراك الأمور بوضوح أكثر من الضابطين اللذين يحملان رتبة أعلى من رتبته في هيئة الأركان . ولم يكن دوره في الاعداد لهجوم القوات البريطانية والتخطيط لعملياتها في صيف ١٩١٨ وخريفها أقل اهمية من دوره السابق . وعندما انتهت الحرب ، تم تعيينه لمنصب كبير معلمي كلية هيئة الأركان ، وكان كل فرد في الجيش يعترف بانه جدير في الوصول إلى قمة السلطة في الجيش .

ولكنه لم يتمكن لسوء الحظ من الوصول الى ما يستحقه قبل انقضاء سنوات كثيرة ، وذلك بسبب هيمنة عامل الأقدمية على اسلوب الترفيعات ، ووجود سد ما بعد الحرب في وجه التقدم والترقية ، وقد استنزف ديل خلال هذه الفترة الطويلة حيويته وقوته بتأثير مزيج من العوامل تعاقب فيها التوتر والافراغ بشكل دوري . فقد أصيبت زوجته الأولى بمرض عصابي تزايدت وطأة درجته المرضية باستمرار ، ورغم ذلك فقد استمرت على قيد الحياة حتى عام ١٩٤٠ ، كما كان يعاني من سقوطه عام ١٩٣١ عندما كان يركب حصاناً مما تسبب بكسر عموده الفقري ، ولم يبق بعد ذلك على قيد الحياة الا بجهد كبير ، يضاف إلى ذلك مزاجه الخاص والمفرط بجديته ، مع عدم وجود مزاج معتدل يخفف من وطأة الالتزام بالجدية ، بحيث انه لم يكن ليأخذ أي أمر بالمأخذ السهل الهين .

لقد كان جاك ديل رجلا رائعا سواء في مقابلته الحماسية لكل انسان ، أو فيما يقدمه من خدمات ولكنه لم يكن قادرا بعد على ادراك ان المستوى الرسمي لا يقاسمه حماسته اللاهبة للدراسة الحرفية (المهنية) والتمارين التكتيكية . والامثولة المضيئة لعدم ادراكه هي تلك التي حدثت له في تعامله مع رائد كان يقود بطارية مدفعية ملحقة على لوائه ، وقد فشل ذلك الرائد في اظهار الحماسة التي كان ديل يتوقعها منه . وحتى يوضح ديل للرائد عدم رضاه فقد أخبره أنه لن يسمح له بالاشتراك في بقية تمارينه اعتقادا منه بأن هذا

الاجراء انما هو (عقوبة قاسية) ، ولكن الضابط اعتبر ذلك بمثابة استراحة كبرى ، فمضى يعد الأيام حتى استطاع الابتعاد ببطاريته والانضمام إلى فريق صيد الطيور في اسكوتلندا .

كانت جولتي في عام ١٩٢٤ مفيدة ومثمرة ، فالى جانب توسيع نطاق معرفتي بالقادة في القيادات العليا ، وكذلك بالنسبة لاولئك الذين كانوا في طريقهم للمراكز العليا ، فقد توفرت لي فرصة الاتصال الوثيق بالميجر جنرال (الفريق) السير جورج آستون ، الذي كان يعمل في تحرير التقارير عن التمارين العسكرية لصحيفة (التايمز) وكذلك العقيد الشهير شارل الذي أصبح يكتب الآن في الديلي تليغراف .

كان جورج آستون يكتب لصحيفة التايمز (كمراسل عسكري) على أساس فصلي ولكن رئيس تحرير صحيفة التايمز ، جيوفري داوسون ، أخذ بوجهة النظر القائلة بأنه من غير المحتمل وقوع حرب أخرى ، وعلى هذا فانه لم تكن هناك ضرورة لوجود مراسل عسكري بصورة دائمة وقد أصر على وجهة نظره هذه حتى عام ١٩٣٤ أي إلى ما بعد سنتين من وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا ، حيث قرر إعادة احياء مركز (مراسلنا العسكري) . ووجهت لي الدعوة للتعيين في هذا المركز . وكان جورج استون عندها يقترب من الثالثة والستين حيث قابلته للمرة الأولى ، وأصبح الصديق العزيز لي منذ هذه المقابلة وحتى وفاته في عام ١٩٣٨ . وقد استنزف ذاته في بذل الجهد المستمر ، سنة بعد سنة ، بممارسة عمل يستنزف القوة ، وكان ذلك من أجل تأمين موارد العيش لعائلة كبيرة بينهم أطفال صغار ، فكان يعمل بالاضافة الى تحرير المقالات ، في كتابة الكتب ، وتطوير الدراسات الحربية في جامعة لندن .

كانت الأنظار متوجهة في بداية هذا القرن الى روبينغتون ، كواحد من أبرز الجنود في مجموعة عصره ، وكان كثيرا ما يشار اليه كقائد أعلى في المستقبل . لكن مهنته في الجيش انتهت في عام ١٩٠٢ كنتيجة للاضطرابات الداخلية ودور هنري ويلسون فيها(٤) ولما كان روبينغتون يرتبط بويلسون كرفيق من رجال الرماة ، وكصديق حميم سابق ، فقد أعرض عن دعم وزارة الحرب ، وأغمض عينيه عما يدور حوله من اضطراب ، ورفض الاعتراف بالتهمة المكتوبة والتي كان يجب حملها إلى ويلسون كوسيط له . فتمت إقالة روبينغتون ، الذي فكر في كسب عيشه من الكتابة ، وهي مهنة كانت مواهبه الطبيعية تؤهله لها . ولكنه أصيب بمجموعة من حوادث الاحباط والرفض قبل أن يستقبله ج . آ . سبيندر رئيس تحرير (مجلة وستمينستر) ، ثم انفجرت الحرب الروسية ـ اليابانية في عام ١٩٠٤ فوفرت فرصا واسعة ، وتم تعيين روبينغتون كمراسل عسكري لصحيفة التايمز اللندنية .

أفاد روبينغتون من عمله هذا لممارسة تأثير كبير في صنع الأحداث . وكانت مناقشاته الخاصة مع الملحق العسكري الافرنسي في لندن (العقيد هوغيت) هي التي مهدت السبيل لاتخاذ مزيد من الاجراءات التفصيلية والتدابير المثمرة بين هيئتي الاركان العامة الفرنسية ـ الانكليزية ، من أجل الالتزام بارسال قوة حملة بريطانية للعمل على الجناح الأيسر للجيش الافرنسي في حال اشتباك فرنسا بحرب مع ألمانيا . ولقد كان لهذه الترتيبات أثرها الكبير على الحكومة البريطانية عند تقريرها دخول الحرب في آب (أغسطس) ١٩١٤ .

أقام روبينغتون في مقر القيادة العامة في فرنسا مع الجنرال سيرجون فرينش ، القائد الأعلى للقوات البريطانية ، وبعد ذلك ، كتب في ربيع عام ١٩١٥ مقالاً عن النقص في امداد قذائف المدفعية ، مما أثار بسرعة أزمة سياسية ، وحفز الى تشكيل (حكومة الائتلاف) . وفي كانون الثاني (يناير)١٩١٨ ، حدث صدام في وجهات النظر بشأن سياسة الحرب ، مما حمل روبينغتون على الاستقالة من صحيفة التايمز . فانتقل للعمل مع صحيفة (مورنينغ بوست) ، ثم انتقل بعد الحرب للعمل مع (الديلي تليغراف) ثم خضع لرغبة اللورد بورنهام الذي كان الوحيد بين رجال الصحافة في اعتقاده بضرورة الابقاء بصورة دائمة على مراسل عسكري في أركان الصحيفة .

لقد وجدت في روبينغتون ، منذ اللقاء الأول في منطقة المناورات ، متحدثاً لبقاً وجذاباً يتفوق بهذه الصفات على كل ما عداه ممن عرفتهم . وقدرت له صداقته واهتمامه بوجهات نظري التي كانت تختلف بدرجة كبيرة عن وجهات نظره ، بما يتوافق مع الفارق الكبير في العمر بيننا . وكان يعاملني كزميل اكثر من معاملته لي كمبتدىء في مجال كان هو قد وصل فيه الى نقطة بارزة ومضيئة .

حصلت على اجازة قصيرة ، عندما انتهى فصل التدريب ، وخلال هذه الاجازة تلقيت رسالة من الناشر يعلمني فيها بانه (كان مسروراً كل السرور بما قمت به من عمل) كما تلقيت رسالة أخرى من ماكسز يقول فيها (ورأيي هو أن ما كتبته من مواد يفضل على كل ما ظهر في الصحف اليومية منذ الحرب ، وانني معجب في الحقيقة بطريقة معالجتك الرائعة للمواضيع المختلفة باسلوب متماثل) . وعلى هذا فقد أصبت بالفزع عند عودتي الى لندن ، لأجد بأن غوين قديسي وعده لي بالمحافظة على مركزي للعمل خلال فصل الشتاء للاضطلاع بمهمة تحرير الصفحات الرياضية ، ولم يعد لدي أمل لايجاد مكان لي يتجاوز حدود كتابة مقال عسكري في الشهر (كحد أقصى) وذلك حتى يحين موعد فصل التدريب التالي .

كانت هذه حالة واحدة من حالتين ، خرجت بهما بعد خبرة سنوات طويلة ، فقد تم التخلي عني بسبب اعتمادي على تأكيد الناشر الشفهي دون الحصول على تأكيد خطي . ووجدت أن مستوى الثقة المتبادلة والشرف في التعامل في شارع الصحافة (فليت ستريت) هي أعلى بكثير من مستواها في دوائر الحكومة البريطانية (وايت هول) .

جابهت نكث الوعد لصحيفة (مورنينغ بوست) باتخاذ التدابير لسد الثغرة عن طريق اكتشاف مسالك جديدة ، وكان الدرب الرئيسي هو طريق صحيفة (الاوبزرفر) التي عهدت الي بكتابة التقارير عن المباريات الرئيسية لالعاب الركبي وكرة القدم ، وفق ما أشرت اليه سابقاً ، كما عملت في بعض الأحيان على معالجة بعض الموضوعات العسكرية ، والتي تم نشرها في اطار دراسات (المراسل العسكري) . وكان ذلك بفضل روبن ـ بارينغتون ـ وورد ، مدير التحرير ، الذي كان في هيئة اركان ماكسز عام ١٩١٨ ، وكتب نشرات التدريب الجديد ، ثم عمل على اصدارها .

أصبحت قادراً بفضل هذه الوسائل على تخصيص قسماً كبيراً من وقتي في ذلك الشتاء للدراسات التاريخية لغوستاف أدولف[٥] وولنشتين[٦] على اعتبار انهما استمرار لتجارب كبار القادة الذين كانوا رواداً بين العسكريين .

وكنت قد بدأت قبل سنة بدراسات عن جنكيز خان والمارشال ساكس[٧] . وقد تم نشر هذه الدراسات جميعها في (مجلة بلاكوود) ، وهي مجلة كانت مستعدة لقبول المقالات الطويلة (في حدود ألفي كلمة) ـ مع ملحق حول تجربة وولف ، تم نشرها تباعاً من قبل المؤسسة ذاتها في كتاب عام ١٩٢٧ تحت عنوان (كبار القادة دون قناع) . وكانت الدراسة الأولى من هذه السلسلة مستوحات من نظرتي للامور ، واعتباري بان الاستراتيجية والتكتيك للجيوش المنغولية بقيادة جنكيز خان . توفر نموذجاً ملائماً للمرونة العالية ، وفق تصوري للقوات الآلية (الميكانيكية) في المستقبل . وقد تم تبني الكتاب كواحد من المراجع عن التجربة الأولى للقوة الآلية (الميكانيكية) . في حين كانت التجارب الأمريكية ، الأولى منها والأخيرة بصورة خاصة قد تركت انطباعاتها على الجنرال ماك آرثر . وكان لذلك أثره البعيد جداً .

في حزيران (يونيو) ١٩٢٤ ، وقبل قليل من تسريحي ، واحالتي على المعاش ، كانت أوسع أفكاري نحو الحرب تتجه بي لكتابة موضوع بعنوان (التضليل النابوليوني) وهو موضوع يتحدى المفهوم الأساسي للاستراتيجية التي وضعها كلاوزفيتز منذ قرن من الزمن وذلك من خلال دراسته لادارة الحرب عند نابليون بونابرت . ولقد برهنت الدراسة

على أنها ثورية جداً حتى بالنسبة للناشر الذي قدمتها له بصورة أساسية ، ولكنه عمل على نشرها في (مجلة الامبراطورية) لعدد أيار (مايو) ١٩٢٥ . وفي الوقت ذاته عملت دار نشر كوجان بول بالاتصال مع دار نشر دوتان في أمريكا التي بدأت في نشر مسلسل من الكتب الصغيرة عن الأفكار الجديدة في جميع المجالات تحت عنوان (اليوم وغداً) . وقد استقبل هذا المسلسل بحماسة كبيرة ، وحقق انتشاراً واسعاً . وقد رحب الناشرون بمقترحاتي واسهامي بكتيب صغير في موضوع مستقبل الحرب الذي سيكون توسعاً لمضمون آخر مقالة لي ، وعالجت القضية الهامة (لموضوع الروح المعنوية) وأظهرت من خلالها ما ستحققه القوات الجوية والقوات الآلية (الميكانيكية) الأرضية من ثورة في عمليات الحرب . وقد أعطيت الكتب في هذه المسلسلات عناوين تقليدية (كلاسيكية) ، فاخترت لما كتبته عنوان (باريس ، أو مستقبل الحرب) وذلك لاعطاء الكتب شارتين مميزتين ، فمن ناحية بعثت فكرة الاسطورة اليونانية عن قيام باريس برمي آخيل وقتله عن طريق اصابته بسهم في عقبه وهي نقطة ضعفه ، ومن ناحية ثانية . أوضحت القضية الحاسمة في نقطة ضعف الدفاعات الغربية للدفاع عن العاصمة الفرنسية (باريس) .

بعد ذلك ، ومع نهاية شهر أيار (مايو) ١٩٢٥ تقريباً ، اعلنت الصحف عن وفاة روبينغتون المباغتة ، وكان روبينغتون يعاني من الذبحة الصدرية[4](الخناق) . وبعد فترة قصيرة كتبت الى صحيفة الديلي تليغراف وطلبت تذكري عند ما يتقرر اختيار خلف له .

وفي الاسبوع التالي طلب الي مقابلة اللورد بيرنهام ، المالك الرئيسي للصحيفة وابن اخيه الذي يعمل رئيس تحرير للصحيفة ، مع الاعضاء الرئيسيين في هيئة التحرير وهم العقيد فريدلوسون وارثر وينسون مدير التحرير . وقد عرض علي بعد المقابلة تعييني بعقد سنوي مقابل ألف جنيه استرليني ، بالاضافة الى علاوة النفقات . وقد نشرت قصة تعييني في الديلي تليغراف عام ١٩٥٥ في صحيفة (بيتر بورو - كورت) ، حيث صرح فريد لوسون الذي أصبح اللورد الرابع في بيرنهام بقوله (لقد تعاقدت الديلي تليغراف مع روبينغتون كرجل خبير ، وقد حصل هو وخلفه على فرصة اظهار خبرتهما . . . وتم اختيار - ليدل هارت - بصورة خاصة ، بسبب قدرته في كتابة التقارير التي نشرها عن التمارين التكتيكية والتي كانت محدودة الأهمية على الأغلب) وكنت قد كتبت التقارير المشار اليها ونشرتها في صحيفة (مورنينغ بوست) عن تمارين داخلية كان يتم تنفيذها عند نهاية الاسبوع في اكسفورد ، خلال شهر شباط (فبراير) ، من أجل تدريب ضباط الفرقة ٤٨ (جنوب ميرلاند) التابعة لجيش الاقليم . ولم تكن الكتابة عن مثل هذه التمارين

وابراز اهميتها لقاريء الصحيفة ، بالعمل السهل .

لقد تركت نتائج خيبة الامل المتكررة والاحباط ، خلال السنوات الستة السابقة ، انعكاسات عبرت عنها في عدد من المناسبات بان قضية النجاح هي قضية حظ اكثر منها قضية امكانات او قابليات ، ولكن من المحتمل ان يكون للمزيد من التصميم والمزيد المثابرة دورهما في تقييم الحظ حتى يدور دورته .

اعلنت الديلي تليغراف في ١٠ تموز (يوليو) عن تعييني خلفا لروبينغتون ، وكانت تجربة جديدة في أن اصل الى مجال لا تقاس فيه الكفاءة بسلم الاقدمية ، وأن أصل الى قمة العمل وأنا في عمر التاسعة والعشرين عاماً مع اعطائي الأفضلية على عدد من القادة (الجنرالات)الذين تقدموالهذا العمل .وقد كتب لي ماكسز(لقد خضت صراعاً مريراً حتى حصلت على التفوق والامتياز ، ووافتك الفرصة المناسبة ، وكان تصرف الديلي تلغراف حكيماً ، اما المورنينغ بوست فقد كانت مجنونة) كما هنأني جورج آستون تهنئة حارة ورقيقة ، وكتب لي بطريقة ساخرة : (كيف اتخذت ترتيباتك لتقديم طلبك قبل أن أفعل ؟ ذلك انه منذ وصولي إلى واترلو رأيت ملصقة اعلانية تقول ـ وفاة العقيد روبينغتون ـ فاتصلت هاتفياً على الفور بمدير تحرير الديلي تليغراف لاقدم طلباً ، للعمل ، وتملكته المباغتة لعدم تقديم الطلب فوراً ، وانتظاري اكثر من اسبوع حتى أتصل به ، ولكن حدوث ذلك لا يعني أن عامل الوقت هو العامل الحاسم في هذا الموقف) .

افدت من افضلية مماثلة في خريف تلك السنة عندما تم اختياري كمستشار عسكري للانسيكلوبيديا بريتانيكا ، وذلك عند اعداد مجلدات الملحق الاضافي الجديد الذي اطلق عليه اسم (الطبعة ١٣) . وبعد سنتين تعاظم حجم العمل حيث تقرر اصدار طبعة جديدة كاملة (هي الطبعة ١٤). ولقد أدى التعقيد في العمل إلى تقسيمه حسب الاختصاصات الى فرق ، لكل فرقة قسم خاص بها مع مدير لتحريرها . وتم تعييني مديراً لتحرير القسم العسكري وقسم التاريخ العسكري .

وهكذا أصبح لدي الآن ميدان رحب ومزدوج لنشاطي العسكري مما يساعد على تطوير أفكاري ، وبالتالي توفير المجال لمزج التحاليل التاريخية مع المشكلات الحديثة عند الكشف عنها وعرضها .

لم أشعر بالأسف للتخلي عن الكتابة في مواضيع كرة المضرب (التنس) ، فقد استنزفت كل امكاناتي واهتماماتي حتى الآن بالمباريات ، وأصبح لدي اطلاع كامل ومعرفة

جيدة بالأدوار التي يمارسها قادة الألعاب جميعاً . وعلى هذا رميت سهمي الأخير في هذا المجال حيث كتبت كتاباً في فصل الشتاء عالجت فيه اساليبهم وطرائقهم التكتيكية وشخصياتهم ، وتم نشر الكتاب في أيار (مايو) ١٩٢٦ تحت عنوان (سادة لعبة كرة المضرب ـ التنس ـ دون قناع) . وكدت انقطع منذ تلك الفترة تقريباً بشكل كامل عن معاودة زيارة ملاعب ويمبلدون ، وعندما أشاهد . بصورة عرضية ـ مباريات اللعب على شاشة الرائي (التلفزيون) يخيل لي أن اللعب رتيباً لا تغير فيه . ولقد أخذت في الانقطاع التدريجي شيئاً فشيئاً عن كرة المضرب (التنس) لأستعيض عنه بلعبة كرة الطاولة ، للتسلية والترويح عن النفس ، ويتحقق لي بذلك أقصى قدر من المتعة ـ في الصراع ـ خلال أقصر فترة ممكنة . ولحسن الحظ ، فقد كنت أمارس هذه اللعبة بصورة جيدة مما كان يوفر لي البهجة الكاملة والغبطة والسرور . وقد تابعت ذلك ، وحدث في وقت متأخر من عام ١٩٤٤ ، أن زرت القوات الأمريكية في انكلترا قبل انزال النورماندي ، واتخذت الترتيبات لممارسة لعبة كرة الطاولة مع بطل الدولة الأمريكي وهو الشاب الذي لا يتجاوز عمره نصف سنوات عمري آنذاك . وقد استشاره قائد الفرقة (للمحافظة على شرف أمريكا) وهو يقدمه من أجل اللعب . ولكن أصبح علي الآن أن اتراجع عن هذا المجال لممارسة لعب الكروكيت (المطرقة الخشبية والكرة الخشبية) والشطرنج والتحدث عن الفسح والاجازات .

باشرت العمل بعد تعييني الجديد في الديلي تليغراف ، في شهر تموز (يوليو) . وبعد ذلك باسبوع واحد انطلقت في جولة جديدة لمدة شهرين ، للمرور على معسكرات جيش الاقليم ومتابعة تمارين الجيش النظامي على نحو يماثل تماماً جولتي من أجل صحيفة المورنينغ بوست في السنة السابقة . وبدأت الجولة بزيارة الفرسان الملكيين لفلاوسستر شاير ، حيث توجد كتائب اليومنري المحدودة في عددها والتي تم تحويلها بعد الحرب كقوة تعمل على العربات المدرعة ، وكان هدف الزيارة هو الاطلاع على طريقة أخذ مثل هذه الوحدات للتغيرات الجديدة . وكان الانطباع الذي حصلت عليه مشجع جداً ، فقد وفرت هذه التجربة الفرصة المناسبة للبرهان على امكان تحويل اليومنري تحويلاً كاملاً ، لتشكيل وحدات مدرعة في جيش الاقليم . وانتهيت الى جملة أصبحت بمثابة اللازمة (المقطع الذي يتم ترديده باستمرار) في مقالاتي خلال السنوات التالية : (ان المدرعات وهي تحل محل الفرسان ، تعمل على احياء المناورة الحاسمة للسلاح المحمول ـ وذلك هو الحل الأساسي الذي استخدمه كبار القادة في معاركهم . وقد يتغير الجسم ، لكن روح الفرسان ستبقى ، وستستمر ، اذا ما تم التمسك بهذه الفكرة) ولكن لم يتم خلال المرحلة

التالية تحويل أي وحدة من وحدات اليومنري الى قوة مدرعة حتى جاءت حرب جديدة ، وتأخر بذلك تحويل كتائب الخيالة النظاميين تأخراً كبيراً .

كانت دوائر الفرسان (الخيالة) تشمئز من فكرة هجر الحصان وتنفر منها . ولهذا فقد عملت على شجب فكرة احلال المدرعات محلها واستنكرتها . ولقيت هذه الدوائر دعماً قوياً من وزارة الحرب والبرلمان معاً . واشتهر قول ويلينغتون في هذا المجال (بأنه قد تم تحقيق الانتصار في معركة واترلو بفضل ملاعب فرسان ايتون) وتلك هي اسطورة مزعومه ، لكن الحقيقة المؤلمة هي أن خسارة المعارك المبكرة من الحرب العالمية الثانية انما تعود الى (نادي الفروسية) .

عملت خلال جولتي في عام ١٩٢٥ ، على الافادة من فرصة قصيرة للذهاب الى كامبرلي ، (في منتصف آب ـ أغسطس) لمقابلة واحد من رجال المدرعات ، هو الرائد ج . ك ، مارتل الذي صمم بنفسه دبابة وصنعها في مرآب منزله هناك . وقد عمل مارتل بعد تناول طعام الغذاء معه ، على عرض اختراعه أمامي فوق أرض للسباق خارج بوابة حديقته . وكانت السرعة المتوسطة لدبابته هي ٢٠ ميلاً في الساعة . وكانت مذهلة في جودتها للسير فوق الأراضي الوعره ، وكان طولها لا يتجاوز ٨ أقدام . وبعد ذلك بفترة قصير قررت السلطات المسؤولة في وزارة الحرب صنع أربع دبابات منها كنماذج تجريبية ، وكلفت مصنع محركات موريس بصناعتها ، على الرغم من انها ترددت في التعويض على مارتل بمبلغ ٤٠٠ جنيه استرليني مقابل ما أنفقه من جيبه الخاص لشراء القطع المختلفة والمواد الأخرى لصنع نموذجه . وبذلك كان مارتل الرائد السباق في صنع (الدبابة الخفيفة) التي تم تبينها أو تطويرها من قبل الجيوش جميعها والتي بقيت صالحة حتى عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ لتكون القسم الأكبر من القوات المدرعة التي استطاع الألمان بواسطتها اجتياح بولونيا ثم فرنسا على التتابع .

كانت مثل هذه المركبات القتالية المدرعة ، الصغيرة وذات التكاليف البسيطة ، قادرة على العمل عبر الاقاليم وفوق جميع الأراضي ، لانها استبدلت السلاسل المعدنية عوضاً عن (الأطر) العجلات . وكانت توفر الوسائل لتحويل الخيالة بطريقة تضمن اجراء التجارب الطويلة للعمل في اطار آلي (ميكانيكي) وذلك قبل اندلاع الحرب التالية . ولكن عوضاً عن ذلك ، فقد تأجل العمل حتى عشية الحرب . ولقد استمرت المعارضة حتى هذه الفترة وبصورة ثابته من اجل عدم التحول الى (الآلية) الميكانيكية . ورافق ذلك تفضيل (تنظيم كتائب دبابات خفيفة) في الوقت الذي كانت فيه قيمة

الدبابات الخفيفة قد تناقصت ، وظهرت الحاجة لمزيد من الدبابات المسلحة القوية ، وكانت هذه الحاجة واضحة وعاجلة .

انتهى الفصل التدريبي لعام ١٩٢٩ (بمناورة على مستوى الجيش) وذلك للمرة الأولى منذ انتهاء الحرب . ثم انقضت عشر سنوات قبل أن يتم تنفيذ مناورة على مثل هذا المستوى من جديد . ولقد جاءت التقارير الصحفية في معظمها ، وهي مستوحاة من وزارة الحرب لتنقل الى الجماهير بصورة بارزة ان المناورة قد هدفت الى اختبار القوات الآلية (الميكانيكية) في حين أنها كانت تتألف في الواقع من أربع فرق للمشاة وفرقة من فرق الفرسان (الخيالة) مقابل فوج دبابات واحد (مختصر في قوته) لدى كل طرف من طرفي قوات المناورة - وهو ما يعادل أربعين دبابة فقط للمجموع - مقابل ما يزيد على ٤٠ ألف رجل . وقد أشرت الى ذلك ، واعتبرته (حمام بارد للحقيقة) وذلك لتصحيح عمليه التضليل الفاضحة .

كان التصحيح الوحيد الآخر تقريباً والذي جاء لمجابهة دفق الدعاية الوردية - اللون ، هو ذلك المقال الحاد والعميق لصحيفة الساندي - بيكتوريال - والذي كتبه برتين - اوستن فريدريك . ورغم ان المقال كان بعيد مرمى النظر في شؤ ون الحرب ، إلا أنه لم يستقبل بالاعتراف الذي يستحقه ، ولعل السبب في ذلك هو أن الجميع كانوا قد أخذوا بالقصة المطروحة عليهم رسمياً . وعلى كل حال فقد نشر في فصل الشتاء التالي مقالاً بعنوان (اله الحرب يسير من جديد) . وكان المقال نبوءة مصورة لانحرافات المستقبل وما يتضمنه هذا المستقبل من أحداث ، بما في ذلك الانقلاب المباغت لليابان وما يتبعه من سيطرة على الجزر الرئيسية في المحيط الهادي (الباسيفيكي) وبعد ذلك بسنوات قليلة ، أنتج دراستين من اكثر الدراسات أهمية في حيويتها وفيما تضمنتاه من دروس تعليمية مستخلصة في اطار مشابه لمعارك نابليون الأولى .

لقد تم زج بعضاً من الدبابات في المناورة ، ورغم ذلك فقد كان تأثيرها يتجاوز كثيراً ما يتناسب مع حجمها العددي . ففي الليلة الأخيرة ، عملت كتيبة الدبابات المخصصة لطرف (ميركيان) على القيام باستدارة واسعة ، وتجاوزت مسافة ٣٣ ميلاً في الظلام خلال فترة تقل عن خمس ساعات ، وذلك لضرب مؤ خرة الطرف المقابل . وفي الصباح ، وكانت الدبابات قد وصلت الى مقر قيادة فرقة المشاة (المعادية) .

نتج عن ذلك رد فعل مضحك يصور الموقف السائد بين القادة التقليديين . إذ كان الجنرال هينيكر قد نظم قياداته في مدرسة قرية شولدرتون ، القريبة من منزله بصورة

ملائمة ولا تبعد اكثر من مائة يارده . وقامت الفصيلة المتقدمة من الدبابات ، باستخدام ممر ضيق للتسلل والوصول الى القرية ، ومن ثم رمي مقرات القيادة بصورة مباغتة وغير متوقعة ، وعند ذلك أعلن الحكم ، وكان ضابطاً صغير الرتبة ، بأن مقر القيادات قد دمرت وأصبحت (خارج العمل) . لكن هينيكر رفض قبول قرار الحكم . وأصر على أن الدبابات قد أصبحت (بحكم المدمرة) بتأثير نيران مدافعه المضادة ـ للدبابات . وكنت في المنطقة خلال هذه الفترة ، ولم أشهد ولو شهادة واحدة تدل على مثل هذا الاجراء . وبينما كان الجدل مستمراً والنقاش محتدماً كان الدخان يملأ الشوارع ، وأفادت الدبابات من ذلك ، فقامت فصيلة أخرى بالاختراق والوصول الى القرية ، وظهر بوضوح تحقيق هذا الانجاز بصورة مباغتة تماماً . ثم جاء فصيل ثالث وهو يتبع الفصائل السابقة بطريقة ملائمة . لكن هينيكر رفض بعناد الاعتراف بان مقر قياداته قد أصبح ممزقا وعاطلاً عن العمل .

قام هينيكر بمحاولة لكبح أية اغارة جديدة مزعجة ، فاستدعى فصيلاً من الدبابات كان قد ألحق على فرقته ، وأصدر أوامره اليه للتدخل ، واتخاذ مواقع مناسبة عند المدخل الموصل الى منزله ، على اعتبار أن هذا المدخل هو محور الاقتراب . وعندما وصلت دباباته الى هناك ، خرج قائد فصيله ، وأخذ في توبيخ الدبابات المقابلة ، طالباً اليها الانسحاب والتراجع الى الخلف بعيداً عن المدخل التجاري . وقد أوضح ذلك تماماً ، ولو انه جاء على غير ارادة ، ما تضمنه القول المأثور (مثلما يكون القادة يكون الرجال) .

لقد كان هذا المثال نموذجاً للعادة العسكرية في التفكير ، بحيث كان الاصطلاح العام لكل ضابط في الفروع الفنية هو (الرجل) مما يتضمن بانه ليس اكثر من جندي فقط ، وبذلك يكون أي خط فكري سواه هو خط غير ملائم للسلوك المتوقع من (الضابط أو الرجل المهذب ـ الجنتلمان) . أما في الرتب الأخرى ، فقد كانت الدلالة الواضحة للاشارة الى اولئك المؤهلين فنياً هي أنهم (رجال تجارة ـ أو رجال أعمال) . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تصطدم الدبابات منذ ولادتها باعطائها سمة اجتماعية ، وقد شكل هذا الوسم عقبة اضافية أمام الاعتراف بالمولود الجديد . ولايضاح هذه الظاهرة يمكن الاستشهاد بحادثة روديارد ـ كيبلينغ الذي حضر لمشاهدة واحدة من اولى التجارب المبكرة للقوات الميكانيكية ، حيث قابلته هناك ، وأبدى ملاحظته عن الدبابات بقوله :(تلك التي تبعث رائحة كرائحة المرآب ـ الكراج ـ وتظهر مثل لعب المهرجانات ـ السيرك) .ولقد كان ذلك التعليق الهزلي انما هو اصداء لما كان يردده الجنود المحافظون ، الذين كانوا يرددون لازمة ثابته وهم يشيرون الى الدبابات (تلك الأشياء ذات الرائحة) . وكانت هذه الإمعة

والتقليد الأعمى في ترديد ما يقال ، وبصورة خاصة في وسط (الخيول) هي المكبح القوى في طريق التقدم العسكري خلال سنوات الاقتراب من الحرب

كان هذا التفكير مدعماً بصورة طبيعية بالقوة المحافظة المتأصلة في تلك الفترة ، وبدعم قوة السلطة ايضاً ويظهر ذلك من موقف المشير السير ويليام روبرتسون الذي حضر مناورات الجيش كمراسل لصحيفة المورنينغ بوست بعد أن انتقلت الى الديلي تليغراف

وكان (ويلي) روبرتسون قد بدأ حرفته العسكرية كجندي مشاة في منزل الليدي كارديغان ، ثم تطوع في وحدة فرسان (لانكر ١٦٠) وأنجز انتصاراً رائعاً بالتقفز الى أعلى مرتبة عسكرية ، واحتل مكانته في الجيش بقوة شخصيته وامكاناته الحرفية

وعلى الرغم مما كان معروفاً عنه من القسوة والفظاظه إلا أنه كان يعاملني عندما نتقابل باسلوب مرح ، ولكنه كان يلقي بعبارات الهزء والسخرية بالنسبة للدبابات وبالنسبة ايضاً لاعتقادي بمستقبلها

ولعل من المفيد ، قبل الخوض في قصة صراعي من أجل تطوير القوات المدرعة ، إعطاء بعض من الملامح البارزة في عمل المراسل العسكري ، استناداً الى خبرتي فيها فهناك على الأغلب عدم وضوح لدى الجماهير في التمييز بين (المراسل الحربي) و(المراسل العسكري) وقد أوضحت الفارق بينهما عندما طلب الي ذلك فقلت بأنني تعودت على وصف (المراسل الحربي) ببساطة (بانه رجل مدني يذهب الى الجبهة ، في حين يكون المراسل العسكري ، رجلاً جندياً يبقى في منزله أو في وطنه ولا يغادره) وبعبارة أخرى فالمراسل الحربي هو محقق خاص أو كاتب وصفي يتم ارساله في زمن الحرب لمتابعة المعارك وارسال تقاريره بوصفها ومتابعة مسيرتها ، في حين يكون المراسل العسكري (اختصاصياً فنياً) يعمل على كتابة تعليقاته عنها ويشترك الاثنان ، في السلم والحرب ، بعلم واحد هو متابعة احداث العمل العسكري وتطويره

لكن المهم هو أن يكون المراسل العسكري ، مثله كمثل أي خبير آخر ، قادراً على طرح المشكلات الفنية بوضوح حتى يستطيع العاديون من الناس ادراكها ولهذا فهو في حاجة لمعرفة موضوعه بعمق ، وأن تتوفر له موهبة الكتابة فيها اذ لا شيء يستطيع عرض الافكار الضبابيه مثل الطبعة الصماء (الطبعة التي لا تنظيم فيها وهي مجرد تنضيد للعبارات قبل صفها) ولقد استمعت الى الخطابات الغائمة والضبابيه للكثيرين من القادة في مؤتمراتهم ، قبل التمارين أو العمليات ، واستخلصت في كثير من الاحيان بانه

من الضروري اخضاع هؤلاء القادة لاختبار يتم فيه تسجيل الضباط لافكارهم (على الورق) وذلك قبل تعيينهم لمراكزهم القيادية .

عندما أصبحت مراسلاً عسكرياً ، كتب لي ماكسز ينصحني ويحذرني بقوله : (ستجد ، يا بني ، بان القادة اكثر حساسية من كبار الغواني ، والمطربات) وركز في نصيحته وهو يشير الى قصة حدثت له عندما كان قائد لواء في ألدرشوت قبل حرب ١٩١٤ ، حيث كان هناك ضابط من الاعوان ،(ملازم حتى نقيب) يحضر الى القيادة ليقابل ماكسز ويقول له : (هل رأيتم ما كتبه ذلك الرفيق البغيض روبينغتون في مقالته الأخيرة ؟ يظهر بأن التمارين العسكرية تضايقه وتزعجه !) وبعد ذلك بزمن ، ألم يصبح روبينغتون صديقاً لك ؟ اتمنى لو أنك دعوته الى العشاء ، وبذلك أستطيع كسب اصغائه لي ودعمه للقضية التي أريد القاء اعبائها عليه . ولم تمض بعد ذلك فترة طويلة ، قبل أن أتعلم ما تضمنته تلك النصيحة من الحقائق .

فقادة هذه الأيام (الجنرالات) يسخرون من الصحافة ويهزأون بها ، ولو أنهم يميلون أيضاً الى المبالغة كثيراً في حساب تأثيرها ، وبصورة خاصة على حرفتهم وعملهم المهني . فكنت اذا كتبت موضوعاً بشأن المرشحين المرغوب بهم للتعيين في المراكز العليا ، ولم أنوه أو أذكر اسماءهم ، أو اذا وجهت بعض الانتقادات بشأن التطورات أو التمارين المتعلقة بهم ، فأنني سرعان ما أتلقى رسائل موجعة ، يعاتبني أصحابها (كصديق قديم) على أنني عرضت للخطر تطلعاتهم للترقية والترفيعات .

ولقد كان من الأمور المسلية وجود عدد كبير من الجنود البارزين ، الذين صرفوا وقتاً طويلاً في دراسة لائحة ضباط الجيش ، وحساب ثقلها على تطلعاتهم في الترقية والترفيع . وهناك قائد بارز ومشهور ، هو آيرون ـ سايد ، كان يحتفظ بدفتر يوميات ضخم ، ضمنه تفاصيل عن تسجيل خدمات جميع الضباط الذي يحملون رتبة أعلى من رتبته في لائحة القدم ، مع وجهة نظره ووجهة نظر الآخرين في كفاءاتهم ، وتأهيلهم ، وصحتهم ، وتطلعاتهم . ولكنه لم يكن على درجة كافية من التعقل والحكمة إذ كان يظهر مضمون دفتر يومياته لعدد من أصدقائه ، عوضا عن الاحتفاظ بها لشخصه .

كانت هناك عادة أخرى مختلفة ، لكنها ذات أثر أسوأ ، يستخدمها الضباط لتحقيق طموهم عند اقتراب الترفيع الى لائحة الضباط الامراء (الجنرالات) . إذ يقررون عندها كبح جماح افكارهم ووجهات نظرهم ، كتدبير احترازي الى أن يتم وصولهم قمة الترفيعات ، ويصبح باستطاعتهم وضع افكارهم موضع التنفيذ . وتكون النتيجة

الاعتيادية لسوء الحظ ، انه عندما يتم ازالة المكابح والقيود تكون مضامين الأفكار ومحتويات وجهات النظر قد تبخرت ، بتأثير سنوات (الاحباط الذاتي) بحثاً عن تحقيق الطموح والتطلعات .

وكانت هناك ، والى الخلف من هذه الاهتمامات المتعاظمة بشأن التقدم الشخصي ، قضية ثابتة هي قضية (شد الحبل) بين الأسلحة والمصالح ، كان ضد الأخرى ، لضمان الحصة الكبرى من الموازنة الوطنية . وكان من الطبيعي أن يعتبر المراسل العسكري بمثابة رافعة قوية لها قيمتها في مباريات المنافسة هذه . ولم يكن من السهل مقاومة عملية الجذب للأشتراك في لعبة الشد التي كانت تستخدم فيها مخططات ذكية ومغرية باسلوب ماهر ورقيق . وقد بذلت محاولات كثيره من قبل وزارة الحرب وقيادة القوى البحرية (الأدميراليتي) لتطويعي في بذل الجهود . من أجل (تقليص) أو خنق القوات الجوية الملكية التي كانت بمثابة طفل غير مرغوب به للعمل بين صنوف الأسلحة .

أصبحت شديد الشعور بالغثيان من (لعبة شد الحبل) ، ولهذا فقد كانت فرصة كبرى للاسترخاء عندما أقبل الصيف ، والابتعاد عن الاجواء الحكومية للذهاب والعيش بين الوحدات . ولقد كان باستطاعة المرء أن يشاهد الوجه الأفضل للقوات المسلحة بين ضباط الألوية الجيدة ورجالها . وتعودت قضاء شهرين أو ثلاثة من كل سنة بهذه الطريقة ، حيث أراقب التدريب وأقوم بالتعليق عليه ، وعلى الرغم من مشقة هذا العمل ، وتنفيذه في جميع الاحوال الجوية ، وقضاء كثير من الليالي في الخارج أو قسم كبير منها ، إلا ان ذلك كله كان إمراً منعشاً وبهيجاً اذا ما تمت مقارنته بمعارك الدوائر الحكومية واجوائها المظلمة .

كان عامل الوقت عند حضور التمارين والمناورات ، عاملاً حاسماً وقاسياً بالنسبة للمراسل العسكري ، مثله في ذلك مثل القائد . وكان علي الافادة من الفواصل ، أو الوقت المستقطع ، أثناء النهار لكتابة قسم من تقريري ، ثم متابعة ذلك في وقت متأخر من بعد الظهيرة أو في الساعات الأولى في الليل . والاسراع بعد ذلك الى أقرب محطة على الخط الرئيسي لوضع التقرير في القطار السريع الذاهب الى لندن ، حيث يكون في انتظار التقرير مراسل خاص يعمل على استلامه وايصاله الى الصحيفة . وبعدئذ كان علي الاتصال هاتفيا بلندن في وقت متأخر من الليل قدر المستطاع وذلك لارسال بقية التقرير عبر غرفة الانباء في لندن ، ثم علي بعد ذلك ايضاً العودة في اغلب الاحيان لمتابعة (المعركة) حتى منتصف الليل . أما اذا كان من المقرر ، بدء الهجوم في الفجر ، على نحو ما كانت عليه عادة الجيش ، فقد كان علي الاستيقاظ ، والوصول الى المكان المعين قبل وقت طويل من

شروق الشمس . وكانت هيئة الأركان الموجهة للتمرين تضع مخططاتها في كثير من الأحيان ، على اساس استمرار التمرين لمدة أيام عديدة . ولكن على الرغم من ذلك ، ولحسن الحظ ، فقد كان يتم ايقاف المشروع التدريبي دائماً لفترات قصيرة بناء على طلب أطراف المشروع ، ان لم يكن من أجل أنفسهم .

كانت هيئة الأركان الموجهة للتمرين تحتال ايضاً لاختيار منطقة التمرين بطريقة تكون فيه المنطقة محاطة ببعض الفنادق المريحة ، حيث تتوفر لهم امكانات تنظيم مراكزهم القيادية ؛ وكان لدى الأطراف المشتركة الأخرى مهارة كافية لاقتناص الفرص المناسبة للاسترخاء والراحة . ولم يكن أمراً غير عادي أن أجد (حكام التمرين) وهم يتناولون طعام افطارهم بتكاسل في بعض حانات الاقليم ، بعد رفع الشارات الخاصة بهم وذلك للتمويه على غيابهم الذي هو (غياب دون اجازه) . وذلك في الوقت الذي كان عليهم اثبات وجودهم في ميدان التمرين .

كان المحبون للراحة يتصرفون بسماحة الى ابعد الحدود . وأذكر جيداً انفجار قائد كبير من الغيظ ، عندما وصل الى نادي ضباط المدفعية في لاركهيل ، ووجده مكتظاً بضباط الحرس في لواء فرسان (خيالة) الفرقة ، والتي كان من المفروض أن تعمل على توفير التغطية لحماية قواته . وكان الحرس (أو المعلبات كما كان يطلق عليهم في الجيش) على كفاءة خاصة في تأمين الرفاه واصطناع الهزل والتسلية ، عندما يتخلون عن دورهم الرسمي في الطقوس والاحتفالات لينتقلوا الى تمارين الميدان الصارمة . وفي أحد هذه التمارين ، بوغتوا بالهجوم منذ صباح اليوم الأول ، مما حمل قائد الفرقة على الاشمئزاز منهم ، ورأى أن نقلهم الى مؤخرة قواته سيوفر لهم شروط الأمن بصورة أفضل ، لكن الطرف اخر (الذي يمثل العدو) قام باستدارة واسعة حول الجناح في تلك الليلة ، وباغت (المعلبات) مرة أخرى في الفجر وهم نيام . وفي مناسبة أخرى ، وعندما صدر اليهم الامر الانذاري بالاستنفار ، ثم جاء الأمر بتحركهم ، كانوا على غير استعداد للتحرك ، لان خيولهم لم تكن مسرجة ، ولكنهم استطاعوا انقاذ (ماء وجوههم) أذ عملوا على جمع فصيل وحشروه في سيارات الضباط ، الذين كانوا قد أحضروا معهم سياراتهم الخاصة ، وسائقيهم ، للافادة من كل فرصة أثناء المناورة للعودة الى لندن . ولعل هذه القصة من عام ١٩٢٦ تبرز محاولتهم الأولى لاستثمار المرونة الآلية (للقوات المحمولة على عربات) . وعلى كل حال ، فقد اتخذوا ترتيباتهم للمحافظة على مركزهم كلواء فرسان (خيالة) حتى الحرب العالمية الثانية .

لعل من المفيد هنا اضافة لمحة وجيزة بشأن تقنية متابعة التمرين من وجهة نظر المراسل العسكري . فلقد كانت حماستي تدفعني في سنواتي المبكرة الأولى للتوجه مباشرة حيث نقاط التماس بين الوحدات المتقدمة للاطراف المتضاده (المتصارعه) . ولكنني وجدت بعد ذلك انه من الأفضل التمركز في بعض الأماكن الملائمة . قريباً من عقد المواصلات حيث يقف رئيس المحكمين وحيث يمر ضباط الاتصال في ذهابهم وايابهم بين القوات ، وبذلك يكون المرء في وسط الشبكة للحصول على أحدث المعلومات حتى اللحظة الأخيرة . وكان من المفيد ايضاً التوجه ما بين فترة وأخرى لزيارة القادة في كل طرف من الاطراف للاطلاع على وجهات نظرهم في تطورات المعركة ، والطريقة التي يتبعونها في ردود فعلهم ، والحركات التي يخططون لتنفيذها .

كان المراسل العسكري في تلك الأيام ، يمتلك قدراً كافياً من الحرية للقيام بعمله وفق أفضل الطرق فاعلية واكثرها ضماناً للنجاح ، وذلك دون أي معاناة من التوجيهات المشككة وغير المألوفة مع الأمور التكتيكية ، أو مع عدم المهارة في قراءة الخارطة .

وذلك على نحو ما كان يحدث غالباً قبل انشاء مكتب (العلاقات العامة) قبل بداية الحرب العالمية الثانية بوقت قصير .

ان جمع المعلومات هو قسم آخر من أقسام عمل المراسل العسكري ، سواء كانت هذه الاعمال متعلقة بالتجهيزات الجديدة ، أو بتغيير التنظيمات ، أو التعيينات المقبلة في المراكز القيادية الأعلى للقوات المسلحة ، وقد إتخذت ترتيباتي للحصول على تيار مستمر لما كان يطلق عليه في شارع الصحافة اسم (السبق الصحفي) ، وكانت لي القدرة عادة لامداد قراء الديلي تلغراف بالمعلومات حول التعيينات المقبلة) وذلك قبل اعلانها من وزارة الحرب . وكنت أحرص على عدم ترك أي أثر يمكن اتباعه للوصول الى مصدر معلوماتي ، كما كنت أعتني بتغطية مسالكي ، وامسك نفسي عن نشر أي معلومات قبل تدقيقها عن طريق المصادر الأخرى للمعلومات . وعادة ما كنت أحصل على المعلومات من مصادري المأمونة اكثر مما أحصل عليها من المصادر المكشوفة والواضحة . وكانت الحالة المزعجة الوحيدة التي جابهتها من بين بعض الحالات الاستثنائية هي حالة اعلاني عن تعيينات قبل تقديمها للملك من أجل المصادقة عليها ، وكان جورج الخامس حساساً للمحافظة على امتيازه في مثل هذه الحالات .

لكنني لم أكن على كل حال أستسيغ قضية جمع المعلومات ، ولم أكن أهتم بالافادة من أصدقائي ، وعلى هذا فعندما نقلت الى صحيفة التايمز في وقت مبكر من عام ١٩٣٥ ،

اشترطت اعفائي من عملية جمع المعلومات . ملتزماً في عملي بحدود التعليق على الأحداث الجارية وكتابة (الافتتاحيات) حول مشكلات الدفاع .

كان أفضل ما في عمل المراسل العسكري بالنسبة لي ، هو ما يوفره من متابعة للافكار الجديدة ، و الأمور التكتيكية (التعبويه) والقضايا الاستراتيجية (السوقية) ، مما ساعد على تطوير ذلك كله عند اعادة كتابة دليل التدريب وغيره من المواد العسكرية . ولقد ضمنت لي مراقبة التمارين سنة بعد سنة خبرة عملية فيما تضمنته الأساليب القديمة من خطاء ، كما أثارت المزيد من الأفكار بشأن الحاجة الى التغيير ومتطلباته . وعلاوة على ذلك فقد وضعتني على اتصال وثيق مع امثالي من الجنود ـ المفكرين الذي كانوا يتقدون حماسة لتجربة الأفكار الجديدة .

كان لعملي كمستشار عسكري للموسوعة البريطانية (انسيكلو بيديا ـ بريتانيكا) دوره ايضاً في زيادة مرتبة مثل هذه الاتصالات ، وعندما أصبحت المحرر العسكري للطبعة ١٤ الجديدة في عام ١٩٢٧ ، أصبحت قادراً على انتقاء فريق من المشتركين الذين تميزوا بتفتحهم ـ العقلي واقترابهم من موضوعاتهم التي يعالجونها . وأصبح من المثير في السنوات الأخيرة رؤ ية ذلك العدد الكبير من القادة البارزين في الجيش وهم يشتركون في تحرير الموسوعة أمثال ويڤل وبرنارد باجيه ومارتل وجون كينيدي وكذلك من رجال القوات الجوية الملكية دوغلاس ولي ـ مالوري الى جانب اولئك من امثال فوللر الذين مارسوا من قبل تأثيرهم الكبير في العمل .

ولقد نشأت من خلال هذا العمل ايضاً الصداقة بيني وبين ت . و . لورنس . وكنا قد تبادلنا رسائل وجيزه في عام ١٩٢١ ، بشأن مقولة عن تأملاته كان قد نشرها في مجلة (الجيش الفصلية) وطرح فيها الدروس المستخلصة من الثورة العربية . ومقال لي في موضوع التكتيكات الجديدة . وأذكر أنني شعرت عندما فرغت من قراءةمقولته ، بأنه ليس هناك من ينافسه في كفاءته لمعالجة موضوع (قتال العصابات والحروب التخريبية) من أجل الموسوعة ، ولهذا كتبت اليه لاستطلاع رأيه حول استعداده لكتابة الموضوع . وكان يعمل في تلك الفترة كمساعد في القوات الجوية في الهند تحت اسم مستعار هو ت . و . شو . وقد اجابني بانه من المستحيل عليه كتابة موضوع جديد وبصورة خاصة للموسوعة.لكنه أظهر رغبةشديدة في ان يترك لي الحرية في الافادةمما كتبه باية طريقة اريدها ، وكان مما قاله (وأرجوك ان تنظر في جميع المواد لكل ما هو مفيد في التقنية العسكرية ،

فكتاب ـ أعمدة الحكمة السبعة ـ هو تحت تصرفك من اجل انتقاء ما تراه مناسباً للموضوع) .

عملت باقتراح لورنس ، وألفت موضوعاً من تأملاته بشأن حرب العصابات . وحصلت على مكافأة في حدود أقصى ما أستطيعه فكانت خمسة عشر جنيهاً . وأرسلت له المكافأة مع الموضوع الذي كتبته . ورد علي برسالة جاء فيها (لقد كان أمراً جيداً جداً منك أن تحرر مثل هذا الموضوع وبمثل هذه الصفحات عن الحرب غير النظامية . أما بالنسبة للشيك (المكافأة) فقد أعجبني ، ذلك أن غاي دوني ـ لم يدفع لي اكثر من عشرة جنيهات استرلينية عن المقولة الأصلية) . وكان ترحيبه بالمكافأة المتواضعة واستعداده لقبولها يتناقض مع طريقته التي رفض بها ، واستمر في رفضه ، للمبلغ الكبير الذي دفع له مقابل قصة الثورة العربية . وقد تضمنت رسالته :

(لقد كان علي حتى اثير الجنود ليقاتلوا فوق أرضيتي ، أن أبقى في حدود ما أطلقت عليه اسم الحرب غير النظامية . وكان الأمر بغيضاً لانهم لا يريدون من يسحبهم . ولقد أردت من خلال ما كتبته ان تكون هناك اكبر عينة ذات مظهر مقبول حتى يمكن تطبيقها ، وهي الستاره التي كشفت انت الغطاء عنها . وان باستطاعتك ان تكتب عن (الحرب غير النظامية) بانها (حرب حركة) في كل مكان تقريباً . وان تجد من الحجج ما هو ملائم أو غير ملائم .

ان اسلوب كلاوزفيتز المنطقي ، هو اكثر من اسلوب كامل ، ذلك أنه يقود تلاميذه ومريديه الى الضياع ، ولا سيما منهم بعض اولئك الذين يريدون أن يقاتلوا بسواعدهم اكثر مما يريدون القتال بأقدامهم . وهناك ، عند دراسة الممارسة العملية لكل القادة (الجنرالات) المحترمين تشابه غريب بين المباديء التي يعملون بها مع وجود اختلاف مضحك بين المباديء التي يلتزمون بها وبين ما تنطق به أفواههم .

تتركز التخمة الكبرى في مدرسة قتال (الصدمة) على الهجوم باسلوب (الركض أو العدو) ثم بعد ذلك الانسحاب بطريقة رقاص الساعة (البندول) للرجوع الى الخلف . وانك تحاول الآن (مع قليل من الأمل في دعم اولئك الذين يتركز عملهم على الاهتمام بأمور حرفتهم) ايجاد خط التوازن بعد هدوء قصف الحرب الأخيرة .

وعندما ستنجح (في العام ١٩٤٥) فانك تكون قد تجاوزت حدود التحفظ . وآنئذ عليك احتمال مضايقة اولئك الذين يأتون بعدك من الاستراتيجيين ومطاردتهم لك .

وهكذا نذهب في حركتنا الى الخلف والى الأمام . انني شديد الامتنان لك ، ومن أجل رقتك ولطفك) .

كانت هذه الرسالة هي بداية مراسلات متصلة بشأن النظرية العسكرية ، وبعد ذلك لتوجيه الاتصال المتزايد سنة بعد سنة ، وذلك بعد عودته الى انكلترا في وقت مبكر من عام ١٩٢٩ . وتطورت العلاقة حتى أصبحت واحدة من أعظم الحوافز المثيرة في تبادل الافكار ، واذكاء الصداقة التي كانت اكثر ما امتلكته في حياتي . وكان لورنس كصديق مزعج في الغالب ولكنه رائع دائماً . ولقد جعل منه مزيج الصفات المعقدة انساناً لا مثيل له ولا يمكن مقارنته بأحد .

□ حواشي الفصل الثالث □

١) ألدرشوت : ALDERSHOT مدينة انكليزية في مقاطعة هامبشيرHAMPSHIRE عدد سكانها ٥٠ الف نسمة تشتهر بمعسكراتها ومؤسساتها العسكرية

(المعرب)

٢) مقدونيا : MACEDONIAN ، قسم من اوروبا القديمة ، تقع شمال اليونان ، شهدت ذروة قوتها ايام فيليب الثاني والكسندر الثالث الكبير ، حيث سيطرت مقدونيا على اليونان ولكنها لم تلبث ان تحولت الى اقليم يوناني في سنة ١٤٦ ق م وقد مزقت مقدونيا بعد ذلك واصبحت موزعة في العصر الحديث بين اليونان ويوغسلافيا وبلغاريا وتعتبر سالونيك ـ على بحر ايجه ، احد الاقاليم المقدونية

(المعرب)

٣) ايرونسايد : هو السير ويليام ادمون (SIR WILLIAM - EDMUND (IRONSIDE مارشال بريطاني ، من مواليد ادنبرة عام ١٨٨٠ ، قاد الوحدات البريطانية عام ١٩٣٩

(المعرب)

٤) السير هنري هوغ ويلسون(SIR-HENRI HUGUES (WILSON ضابط انكليزي برتبة مشير ، ولد في ايدجوورنستون من ايرلندا (١٨٦٤ ـ ١٩٢٢)

(المعرب)

٥) غوستاف ادولف (او غوستاف الثاني ـ الكبير)GUSTAVE II ADOLPHE le grand (١٥٩٤ـ١٦٣٢) ولد في استوكهولم واصبح ملكا للسويد (١٦١١ ـ ١٦٣٢) اظهر عبقرية كبيرة في ادارة الدولة واعاد تنظيم الجيش السويدي ، وتدخل بحلف مع ريشيلو لدعم البروتستانت الالمان خلال حرب الثلاثين عاما ، وحقق انتصارات رائعة ولكنه قتل خلال انتصاراته في لوتزن LUTZNE

(المعرب)

٦) وولنشتينWALLENSTEIN - كابتن الماني (١٥٨٣ ـ ١٦٣٤) كان من افضل قادة امبراطور المانيا فرديناند الثاني في حرب الثلاثين عاما وقد خاض معاركه بكفاءة ضد غوستاف ادولف ، ولكن طموحه اثار الشكوك فاتهم بالخيانة العظمى واعدم .

(المعرب)

٧) المارشال ساكس (موريس ـ كونت دوساكس)MARECHAL DE SAXE (١٦٩٦ ـ ١٧٥٠) مارشال فرنسي حقق انتصارات كبرى في حياته ، واظهر كفاءة عالية في قيادة الجيوش واصبح نموذجا للعسكريين في عصره

(المعرب)

الفصل الرابع
مفهوم الحرب الآلية (الميكانيكية)

كانت أعظم فرصة توفرت لي بتعييني مراسلاً عسكريا في صحيفة الديلي تليغراف ، هي في تأمين القاعدة التي استطيع الانطلاق منها لنشر مفهوم الحرب الآلية (الميكانيكية) ودعم نظرية حروب المستقبل للقوات الآلية في الأرض والجو . ولقد تطور مفهوم هذه الحرب في فكري منذ نهاية الحرب حتى أصبح فوق كل ما عداه في عام ١٩٢٢ . وعلى الرغم من ان اهتمامي الأولي كان موجها نحو تكتيكات المشاة الجديدة ، إلا أنني وصلت بتفكيري إلى أن الدبابة ستكون سيدة الأسلحة في المستقبل ، وعبرت عن وجهة نظري في مقال نشرته صحيفة في عام ١٩١٩ . واقترحت فيه تكوين قوة مشتركة من المشاة خفيفة الحركة والدبابات ، على ان تكون هذه (الوحدات القتالية من الدبابات ـ المشاة) متكاملة وموحدة ، كخط للتطور في المستقبل .

يخيل الي انه من الغريب ، وأنا أنظر إلى الماضي ، ان يكون هذا المقال الأول الذي كتبته بعد الحرب ، وهو مقال وحيد في تلك السنة يعالج فائدة الدبابة وأهمية استخدامها في حرب المستقبل . ولكن في السنة التالية ، ١٩٢٠ ، تفجرت وجهات النظر المهتمة بهذا الموضوع ـ وكان بعضها من نتاج اعضاء فيلق الدبابات الذي اشترك في الحرب ، في حين صدرت وجهات النظر الأخرى عن رجال ألهمهم خيالهم المبدع بما لدى الدبابة من قدرة ، دون أن تتوفر لهم مثل تلك الخبرة الحالية .

كان سوينتون ، ومارتل ، وفوللر ، هم الذين يمثلون قيادة الطبقة التي تتوفر لها (الخبرة) في معركة ما بعد الحرب . وكان ايرنست سوينتون هو الرائد الأول في التطور الأساسي لمركبة القتال المدرعة ، ذات قوة الدفع ـ الذاتي للجرارات ذات السلاسل ، وهي المركبة التي عمدها باسم (الدبابة) بهدف الغاء طبيعتها وهدفها ـ كوسيلة لحل مشكلة الاخفاق الكامل في حرب الخنادق بحسب التطورات التي طرأت علينا منذ بداية الحرب العالمية الأولى . وكان هو ايضا بين أوائل الذين أظهروا للعيان امكانات استخدامها في حروب من النوع الأقل جمودا والأقل تحجرا .

وكان (ك . مارتل) من أصغر ضباط الهندسة الملكية عمرا وقد عمل في لواء رئيسي أصلي يتبع لقيادات صغرى في فرنسا ، وكتب ملاحظات (مستقبلية) في بداية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ ، استوحاها من صورة تيار الدبابات فشبهها (بالزوارق الأرضية) وتوقع بأن تعمل (جيوش الدبابات) في قتالها كل ضد الأخرى وكأنها أساطيل في البحر . وكانت هذه الصورة تعجب الخيال بصورة مذهلة لكنها أغفلت الفوارق الأساسية بين شروط العمل في البر وظروف العمل في البحر . كما أن هذه الصورة تسقط من الحساب كل متطلبات (قتال المشاة ـ على الأقدام) وذلك للتغلب على العوائق الأرضية والمواقع الدفاعية المحصنة .

تم تعيين بوني فوللر كرئيس لهيئة الاركان العامة للقيادة البريطانية في فرنسا ، وذلك في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ . وبعد مضي أشهر قليلة قرأ ما كتبه ك . مارتل في اوراقه من ملاحظات ووافقه على ما جاء فيها ، لكنه بعد ذلك أخذ في الشك بقيمة الدبابة إلا في مجال (دعمها للمشاة) ، ثم لم تمض فترة طويلة حتى تكونت لديه قناعة بمفهوم تشكيل (سلاح مستقل للدبابات) وأخذ في المطالبة لتشكيل هذا السلاح بحماسة متعاظمة . وأصبح على الفور قائد الدفاع عن (توسيع قدرات الدبابات) واستخدامها كوسيلة لاحياء حرب الحركة ، وبعثها من جديد ، عوضا عن اعتبار الدبابة مجرد تطوير حديث (للكبش أو المنجنيق) تقتصر حدود عمله على اختراق الدفاعات المتخندقة في حروب الحصار والتطويق .

كان من الطبيعي أن يظهر هؤلاء ممن عملوا باتصال وثيق مع فرق الدبابات ليطالبوا بتطويرها ، فقد اطلعوا ـ عن قرب ـ على امكاناتها الفنية وعرفوا احتمال انتاج نماذج من الدبابات اكثر سرعة ، وأصبح بامكانهم الاستمرار في تصوراتهم للحصول على المزيد من قدراتها الثورية . وفي الوقت ذاته ، كانت هناك ظاهرة اكثر أثارة للانتباه تمثلت في فشل عدد كبير من زملاء الضابط السابقين في الحرب للمشاركة في وجهة نظرهم ومقاسمتهم تصوراتهم ، ثم استمرارهم بعد ذلك في النظر الى الدبابة كوسيلة تابعة للمشاة لا أكثر

واجبها مساعدة أقدم الأسلحة .وكان من بين هؤ لاء (هوغ ايللز) القائد الشاب والطموح للفيلق أثناء الحرب ، والذي مارس تأثيره المثبط للعزائم في السنوات الأخيرة.هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ، فقد جاء بعض الانصار الأوائل للمفهوم الجديد من الخارج كما أن العقول الموجهة حتى داخل فرق الدبابات ذاتها ، والتي عملت على تطويرها بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت لرجال تم انتخابهم للانضمام الى الدبابات بعد الحرب العالمية الأولى . وعلى هذا فانه من الواضح بان المفهوم الجديد كان في تيار الفكر الفعال والمليء بالقوة والنشاط (الديناميكي) واستجاب لهم بحماسة وفي تواقت واحد ، عدد من العقول المتفتحة التي تقبلت المفهوم الجديد وعملت له بفاعلية .

نشرت المجلة الفصلية في شباط (فبراير) ١٩٢٠ مقولة لضابط يعمل في البحرية هو (الملازم ستيفن كينغ - هول) . ورسمت المقولة صورة حية للحرب المقبلة التي تقرر نتائجها كتلة الدبابات الكبرى من خلال هجمتها على خطوط مواصلات الجيش المعادي وكان هذا التوقع لوجهة نظر مغايرة عما هو معروف ومألوف ، سببا في اكساب صاحبه شهرة واسعة في جميع انحاء العالم ككاتب وكمتحدث عن تيار الامور المستجدة خلال عقود السنين التالية . وجاء بعد ذلك العدد التالي من المجلة الفصلية (عدد أيار - مايو) متضمنا أول مقولة من المقولات الرائعة والكثيرة والتي أسهم بها فوللر في تطوير الفكر العسكري خلال عقد العشرينيات من هذا القرن ، وقد حصل فوللر على المدالية الذهبية مكافأة له على محاولته الأولى وذلك عندما عملت المجلة الفصلية على اجراء أول منافسة بين المقولات العسكرية التي نشرت بعد الحرب .

وقد حالف الحظ فوللر مرتين ، الاولى نتيجة لعدم وجود سوى متنافسين اثنين في تلك السنة ، والثانية هي في اختيار سونيتون كواحد من حكمين يقع عليهما اختيار الفائز بالجائزة . وكان موضوع المنافسة كما تم الاعلان عنه هو التالي : (تطبيق التطورات الحديثة في الآلية - الميكانيك - والمعارف العلمية الأخرى ، من اجل الاعداد للحرب البرية في المستقبل ، ومن أجل التدريب عليها)

تضمنت شروط المسابقة ارسال المقولة تحت اسم رمزي (شعار) ، وذلك لالغاء كل أثر يشير الى شخصية الكتاب قبل أن يصل الحكام الى قرارهم ، واختار فوللر لموضوعه العنوان التالي : (لن يتمكن سباق الجياد - الخيول من كسب الحرب) . . وبدأ فوللر مقولته بسلسلة من النقاط المذهلة مثل : (الحرب هي قضية وسائل ، والسلاح الأقوى في آلية - ميكانيكية - هو تقريبا الذي يكسب الحرب باستمرار . فلو كان لدى نابليون بونابرت سرية من الرشاشات في معركة واترلو ، ألم يكن من المحتمل له ان يكسب المعركة ؟ ثم لو

كان لدينا في عام ١٩١٤ دبابات لكان من المفروض ان نكسب الحرب في تلك السنة ذاتها)
لقد حدث التغير في فن الحرب بصورة مذهلة ، إذ فتحت بذلك عصرا جديدا في تاريخ الحرب ، وهو تاريخ لا نجد موازيا له في القتال الأرضي ، ولعل أقرب تشابه يكمن في استبدال الأشرعة بالبخار كوسائل محركة في اعمال القتال البحرية . ولقد جاءت مقترحات فوللر الحالية معتدلة نسبياً إذ اقترح قبل كل شيء تبديل خيول الجر تدريجيا واحلال الجرارات ـ التراكتورات ـ محلها ثم العمل بعد ذلك على تنظيم فرقة نموذجية جديدة تتكون من اثني عشر فوجا من المشاة يضم كل فوج منها سرية من الدبابات . وتدعم الفرقة بأربعة ألوية مدفعية ميدان تجرها الخيول ، مع بطاريتين آليتين (ميكانيكيتين) على الأقل من المدفعية المتوسطة ويجب ان تضم الفرقة أيضا قوة فرسان موسعة بصورة أساسية بحيث تتكون ممن كتيبتي فرسان وفوج دبابات (لاستخدامها كفرسان ـ آلية) واخيرا وفي المرحلة الثالثة من التطور يمكن للتشكيلات المدرعة الكاملة أن تبدأ بالظهور ـ ولكنه أضاف بأن هذه (مجرد تأمل) . ومن الواضح بأن فوللر في مقولته هذه لم يحاول اثارة الغضب بقدر ما رغب في تهدئة (مخاوف المحافظين من التغيرات المتطرفة) .

اثارت مقولة فوللر ـ على كل حال ـ ردود فعل عنيفة في كثير من الاوساط القيادية ولم يكن سبب ذلك لان النتيجة الاساسية التي توصل اليها فوللر هي في احلال الدبابة محل المشاة والفرسان معا ، ولكن لان المزيد من اقتراحه المباشر والذي يتركز على تحقيق درجة جزئية من الآلية (المكننة) سيجعل من الممكن اجراء تخفيض كبير في عدد الوحدات المنظمة داخل انكلترا وخارجها . وكانت وزارة الحرب مرهفة الاحساس إلى درجة خطيرة تجاه اثارة أي موضوع يتعلق بانقاص القوى العاملة في الهند ، كما أن مستوى الجيش وحجمه داخل انكلترا ، بقي مرتبطا لمدة طويلة من الزمن بحجم جيش الهند الذي تم بناء قواته وزيادة حجمه ، بحجة شبح غزو روسيا لذلك الاقليم . وعلى الرغم من الدعاية البلشفية التي استخدمت محتويات محفوظات (أرشيف) القياصرة ، قد أظهرت عدم وجود اكثر من احتمال ضئيل لظهور ذلك الشبح الذي يسود (للعهد البائد) إلا أن وزارة الحرب استمرت في استثمار هذه الحجة لاقناع الحكومة بشأن النفقات العسكرية ولتنظيم معارضة قوية ضد تخفيضها ، أو حتى من أجل الاعتراف بأي وسائل جديدة تهدف إلى الاقتصاد بالقوة البشرية .

لم يكن رد الفعل العدواني مباغتا لفوللر الذي كان قد توقع عنف الرد في مقطع من مقولته حيث قال : (هل لدينا الشجاعة الخارقة ـ المعنوية ـ لقبول فكرة جديدة ، مع توفر قدرة لحمل هذه الفكرة والعمل لها ؟ انني أشك في ذلك فالفلانكسات المتراصة تنتصب أمامنا من قوات « المدرسة القديمة » ، المؤمنة بالمثل الأعلى الانكليزي ـ لراعي الكنيسة

السيد براو نينغ وهو :
من الخطر جدا ـ عدم حب الحقيقة
لكن من الافضل الاهتمام بمصالح الكنيسة)

تحركت طبقة السلطة المسؤولة في رد فعلها المضاد وفقا لتوقعات فوللر ، وكانت هذه الطبقة تستند الى اكثر من أرضية عاطفية يوفرها رجال الفرسان المحبين للخيول فتضمنت المجلة الفصلية مقولة عاطفية مثيرة لكاتبها نيل (ابن عم اللورد هيغ) . واستنكرت المقولة (طريقة بعض الجنود الذين إخلوا الطريق بتسرعهم في ارسال مقولاتهم الى الطبع وهي تحمل نبوءاتهم عن حروب المستقبل) وأعلن نيل في مقولته : (بأن الخيالة لن تتخلى ابدا عن دورها لتترك الساحة فارغة أمام الدبابات) وتبع ذلك القاء محاضرة من قبل الجنرال وير في كلية هيئة الاركان الملكية ، ذكر فيها بانه لم يكن باستطاعة الدبابات القيام بالوجبات التي اضطلع بتنفيذها فرسان اللنبي في معركة فلسطين ، وأنهى محاضرته بقوله : (وعلينا أن نعتمد على الرجل وعلى الحصان للحصول على نتائج حاسمة فعلا) . وكانت وجهات نظره هذه مدعمة بفلانكس منظم يضم قادة الجيش وقادة الفيالق الذين عكسوا اصداء خاتمة محاضرته والقول بأنه على الجيش البريطاني الاعتماد على اشتراك (الرجل مع الحصان) .

كان نشر فوللر لمقولته هو المجال الأول لمعرفتي بوجهات نظره وافكاره ، وقد حفزني ذلك إلى أن ارسل اليه ما كنت قد كتبته حديثا في موضوع التكتيكات الجديدة وكان هذا هو المنطلق الذي بدأت به علاقاتنا الوثيقة وصداقتنا المديدة . وكان التبادل الوثيق فيما بيننا لوجهات النظر منذ عام ١٩٢٠ وإلى ما بعد ذلك ، هو الحافز القوي بالنسبة لي وبالنسبة له ايضاً على حد سواء ، وفقا لما تضمنته رسائله لي . لقد وافق فوللر على ما تضمنته مقترحاتي لاعادة تنظيم المشاة ، ولكنه اعتبر ذلك امرا غير ضروري ، اعتقادا منه بان الدبابات وحدها هي التي يجب الاعتماد عليها في حرب المستقبل . أما بالنسبة لي ، فقد بشرت بفرضية الدبابات وأعطيتها نسبة ٧٥٪ ، ولكن نقاشنا حولها كان عظيم القيمة في المساعدة على ايضاح أفكاري من خلال معرفة الخلفيات الواسعة للموضوع . ولقد تأكدت قناعاتي اكثر فاكثر من خلال التأثير العكسي الذي حدث عندما كلفني ماكسز في عام ١٩٢١ بمعالجة قضية استمرار هيمنة المشاة (كملكة لميدان القتال) ، وذلك لاستخدامه في موضوعه للموسوعة البريطانية . ولقد حشدت أفضل الحجج لدعم وجهة نظري ولكنني فشلت في ارضاء نفسي . ومهما كانت درجة الترحيب بما كتبت فانني قد التحقت بفوللر منذ ذلك الحين ، وعملت معه على نشر العقيدة الجديدة .

كان هناك على كل حال ، اختلافات في وجهات النظر بيننا وفي النتائج ايضا ، إلا

أننا كنا نلتقي عند الاقتراب من المنطلق الأساسي . فلقد توصل فوللر حتى الأن إلى التفكير بان الدبابة وحدها هي التي ستهيمن على ميدان المعركة في المستقبل ، وانه لن تكون هناك ثمة حاجة للمشاة إلا من أجل العمل كحاميات في الاقاليم التي تقوم الدبابات بفتحها والاستيلاء عليها . ومن ناحية اخرى ، فقد ناقشت موضوع اعطاء المشاة المزيد من المرونة لتحقيق هدف مزدوج ، تلبية الحاجة وتوفير مجال أوسع وذلك حتى تستطيع المشاة التعاون مع الدبابات في القوات المدرعة وان تشكل قسما منها لتقديم الدعم الفوري في التغلب على العوائق التي يتم الدفاع عنها . وقد اردت ايضاح صورة المشاة وابرازها بحسب الاصطلاح الذي أطلقته وهو (الدبابات البحرية) . حيث يتم حمل المشاة في عربات مدرعة للعمل مع (الاسطول البري) . أو وصفهم بطريقة أخرى تحت عنوان (المشاة الراكبة ـ الآلية) . وتلك هي الفرضية التكميلية التي بسطتها وشرحتها في دفاعي عن الحرب الآلية (الميكانيكية) ، مع اشراك (الدبابات ـ الجوية) كعامل حاسم . وبكلمة موجزة كان فوللر يركز على تطوير جيش كامل من الدبابات في حين كنت أفضل جيشا متحركا بكامله تكون فيه الدبابات مدعمة بالأسلحة الراكبة على العربات المدرعة ، وهذا ما يساعدها على مرافقة الدبابات عن قرب .

انني ارى وأنا أعيد مطالعة المراسلات والكتابات في السنوات التالية بان فوللر لم يكن متفقا مع اصراري على اهمية الهجمات الليلية في المستقبل (واذا ما أخذت اكثر الصور الاعتيادية فان القيمة المحتملة لهذه الهجمات الليلية تقابل باخطار الضياع والوقوع بخطأ تشابه الاهداف ، وتزداد خطورة هذا الاحتمال عند الاخذ باقتراحي لاستخدام الطائرات ناقلات ـ الجند لانزال الجنود بصورة خاصة وللسيطرة على النقاط الحاكمة في مؤخرة العدو) . وكانت حجة فوللر ضد هذه النقاط بان الرجال المقاتلين سينفصلون عن وسائط حركتهم عندما ينطلقون لتنفيذ واجباتهم وذلك على النقيض من الموقف في الدبابات .

ويصبح بالامكان بعد ذلك اضافة ما يلي : لقد أظهر استخدام وحدات المظليين في الحرب العالمية الثانية الانجاز الكامل لمقترحاتي كلها . كما أظهر ايضا وفي الوقت ذاته شرعية اعتراضات فوللر وصحتها .

وكان هناك ثمة اختلاف آخر ، في وجهة النظر المتعلقة باستخدام القوات المدرعة لاستثمار الثغرة في دفاع العدو . ففي حين شرح فوللر بشكل رائع ومنذ عام ١٩١٨ فكرة الاختراق التكتيكي العميق ، الا انه لم يؤيد فكرة الاختراق الاستراتيجي العميق على نحو ما فعلته وكان يفضل استخدام القوات المدرعة للمناورة ضد المؤخرات المباشرة

للجيش المقابل اكثر مما يفضل التقدم للعمل ضد محاور اتصال العدو في مؤخراته البعيدة ، ونتيجة لذلك فقد كان يفضل التقدم لمسافات معتدلة بوثبات محددة عوضا عن التوغل باسرع ما يمكن و ألى اقصى مسافة ممكنة وهو المفهوم الذي اعتنقته عندما طورت اسلوب استخدام القوات المدرعة في مفهوم (السيل المتدفق) .

* * *

عندما كان مفهوم الحرب الميكانيكية يكبر ويتعاظم خلال سنوات ما بعد الحرب مباشرة كانت المعارضة لهذا المفهوم تشتد ايضا وتقوى لتصبح اكثر انتشارا في الدوائر العليا للجيش. فعندما حان الموعد التالي للمنافسة (المسابقة) في موضوع المقولة العسكرية لعام ١٩٢٢ ، تم طرح الموضوع بطريقة مشابهة لتلك في عام ١٩١٩ ، ولكن كان على المتسابقين معالجة موضوع تنظيم القوات البريطانية من أجل (حرب أوروبية كبرى في المستقبل) . وتم اختيار الحكام في هذه المرة بعناية اكبر مما تم في عام ١٩١٩ وذلك حتى يكونوا اكثر توافقا مع السلطة ومع الاتجاهات المتصلبة (الارثوذكسية) .

وتشكلت لجنة التحكيم من ثلاثة اعضاء ،المشير السير ويليام روبيرتسون وهو رجل خياله والفريق السير نوبيل بيرتش وهو رجل مدفعية - خيالة ، والعقيد نيكولسون ممثلا عن هيئة الاركان العليا .

كان الوصول إلى النتيجة بالدرجة الأولى ثم الحصول على الميدالية الذهبية يتقرر للمقولة التي تعالج في وقت واحد ، الحدود الضيقة لعمل الدبابة وايضاح استمرار الحاجة للفرسان - الخيالة . تقدمت بمقولتي دون معرفة مني بالمقاييس التي يتم استخدامها للتقويم وكان العنوان الرمزي للمقولة (ستكون الهيمنة العليا في النهاية للزيت وللحقيقة).وكانت الحجة في مقولتي تتلخص بان القوات الميكانيكية هي العامل الحاسم في الحرب المقبلة وكانت الاستنتاجات الرئيسية في المقولة تتركز على ان فرسان الخيول قد اصبحوا من الوسائل المهجورة والبالية في القتال حتى من أجل تنفيذ واجبات الاستطلاع ، وان الدبابات والطائرات ستكون الأسلحة المهيمنة في الحرب المقبلة وأن عملهما سيكون مشتركا كما ان المدفعية ذات قوة الدفع الذاتي ستكون أفضل شكل لمدفعية الميدان وانه يجب تطوير النماذج الجديدة للمشاة الخفيفة والتي يتم حملها في مركبات مدرعة صالحة للسير في جميع الأراضي حتى تستطيع التعاون مع القوات المدرعة كما يجب تطوير وسائط النقل الجوي لتكون (خط الامداد الثاني) للقوات المتحركة وكذلك من أجل نقل الوحدات جوا وربما كان ذلك كله واضحاً تماما الأن ولكنه كان يعتبر في تلك الفترة بمثابة هرطقة خطرة . ولقد تضمنت مقولتي مخططا لتحويل الجيش (تدريجيا) ليكون جيشا آلياً (ميكانيكيا) واضعا في الاعتبار ان مواجهة متطلبات الحكومة للاقتصاد والتوفير تفرض البحث عن النقود

للاحتياجات الجديدة ولتحقيق ذلك يجب اقتطاع النفقات من الجيش القديم وتنفيذا لهذا المخطط يتم في المرحلة الأولى تحويل جميع وسائط النقل بخطوات متتالية الى وسائط نقل الية على ان يرافق ذلك تخفيض تدريجي في قوة المشاة مع زيادة نسبية معادلة في فيالق الدبابات حتى يتم تحقيق الهدف بانشاء نموذج جديد من التشكيلات الآلية الكاملة . وهذا التشكيل يعني مجموعة دبابات مع مجموعة مشاة مدرعة وتكون المجموعتان منفصلتان ولكنهما تعملان معا وفق نسبة فوجين من الدبابات السريعة الى ثلاثة افواج من المشاة المحمولة على عربات نقل الجند ويجب لهذا التشكيل ان يضم مدفعية ذات قوة دفع ـ ذاتي . وقد اقترحت ايضا ان تكون دبابات القتال في مثل هذه التشكيلات مصممة بحيث يتم تسليحها بمدافع من عيار ١٨ رطل (ما يعادل ٨٤ مم) . وتوقعت ان يتم في المستقبل تركيب مدافع على الدبابة من عيار ٦٠ رطل (ما يعادل ١٢٧ مم)-(هذا ومما هو جدير بالذكر أن الاقتراح لم يطبق في الدبابات البريطانية حتى وقت متأخر من الحرب العالمية الثانية ، أما بالنسبة للتوقع فلم يؤخذ به حتى الى ما بعد فترة تزيد على عشر سنوات من انتهاء هذه الحرب ، علما ان التصاميم الألمانية والروسية قد أخذت بالاقتراح والتوقع معا منذ وقت مبكر)

استقبلت مقولتي ببرود مرعب ، حتى انها لم تجد لها مكانا بين المقولات الثلاثة الاولى المرشحة للجائزة وكان فوللر قد أخبرني بمثل هذه النتيجة مسبقا عندما قرأ مقولتي بعد ارسالها فكتب لي : (أخشى إلا تفوز مقولتك بالجائزة ، وكان عليك ان تبرهن في ان باستطاعة الرجال والحمير المسلحين بالأقواس والنبال تحقيق النصر في الحرب المقبلة) وعندما اعلنت النتائج كتب لي من جديد (ليس أمرا غريبا الأ تفوز مقولتك بالجائزة ـ انظر من هم المحكمون !) .

عملت عند ذلك على تقسيم المقولة إلى موضوعين وأرسلت القسم الأول الى (مجلة المهندسين الملكية) أماالقسم الثاني (المتضمن عروضي الخاصة منذ الآن فصاعدا تحت عنوان نموذج جديد للجيش) فقد تم ارساله إلى مجلة الجيش الفصلية . وتم قبول الموضوعين اللذين اثارا عند نشرهما انطباعا مميزا خارج انكلترا إذ عملت وزارة الحرب الألمانية الجديدة على ترجمتها لتدريسها في الجيش الألماني وقد اعترف غودريان منظم القوات المدرعة الألمانية ـ فيما بعد بأن أول اهتمام له بامكانات الحرب الآلية (الميكانيكية) قد نشأ عندما قرأ تلك المقولات وان المخطط النهائي لفرق البانزر الألمانية والذي تم وضعه بعد ذلك بعشر سنوات ، انما تطور من اقتراحي لتنظيم (نموذج جديد للفرق) .

لقد فرضت شروط اتفاقية السلم على الجيش الألماني ، العودة إلى حجمه في عام

١٩١٤ . مع تقليص حجمه إلى حد بعيد ومنعه من امتلاك الدبابات والطائرات ولعل مما يدعو إلى السخرية ان تنقلب هذه الشروط ذاتها لمصلحة تطور الجيش الألماني في المستقبل . ذلك لأنها حررت الجيش الألماني من اعباء كتلة الاعتدة البالية ـ العتيقة والتي استمرت في ارهاق كاهل جيوش الحلفاء المنتصرة وعلاوة على ذلك فانها مهدت الطريق امام الجيش الألماني لتبني الأفكار الجذرية الجديدة والوسائط المتقدمة . لقد حرم الألمان من كتلة أسلحتهم المرتبطة بوجودهم ووسائطهم الهجومية التي اعتادوا عليها ، فوجدت العقول القيادية في الرايخ الألماني جميع الحوافز العظيمة للتفكير بمشكلاتها والبحث عن وسائط جديدة يمكن بواسطتها استعادة قوة المانيا العسكرية والتفتيش عن ميزات جديدة في النوعية التقنية للتعويض بها عن الكمية المحددة والمفروضة بالقوة .وكانت مرارة الهزيمة وألمها قد دفع الألمان جميعا للتعلم وكان ذلك بمثابة تكرار جديد لدرس التاريخ القائل بأن الجيوش تتعلم فقط من هزيمتها وليس من انتصارها . كان قادة الجيش البريطاني والفرنسي أيضا على النقيض من ذلك تماما فقد خرجوا من الحرب بشعور الرضى عن الذات نتيجة لانتصارهم النهائي في عام ١٩١٨ فتكون لديهم جميعا ميل نحو الاستمرار في السير فوق الاخاديد االقديمة ، متبعين الاساليب التي كانت كافية بالنسبة لهم في السنة الأخيرة من الحرب دون بذل أي محاولة لاجراء تغيير جذري وكان هذا الموقف مدعما بالميل الطبيعي للاسترخاء بعد استنزاف الجهود في الصراع الطويل .

أصبحت عبارة (عودة إلى عام ١٩١٤) بمثابة جملة عسكرية لها بريقها وجاذبيتها في فترة ما بعد الحرب . بحيث تم استخدامها دون تفكير حتى من أجل اعادة بناء التكتيكات والتنظيم التكتيكي . ولقد استخدمت هذه العبارة ايضا للاشارة الى الفكرة التي هيمنت على مدرسة الفرسان وكان أصحاب هذه المدرسة على حق عندما ابرزوا الحاجة لاحياء المرونة وبعث القدرة الحركية في الحرب وذلك إذا ما اريد للنصر ان يتجاوز الاستنزاف الذاتي للانهاك المستمر والتآكل.ولكن حماسهم المتقد واعتقادهم الناتج عن هذه الحماسة تركز على ابقاء الخيول كواسطة للقدرة الحركية . وقد دعم اصحاب مدرسة الفرسان ايمانهم بمنجزات فرسان اللنبي خلال المرحلة الأخيرة من حرب فلسطين ضد الوحدات التركية السيئة التسليح والتي اهترأت بتأثير الحرب وكان حب الفرسان الشديد لخيولهم قد أعمى أصحاب مدرسة الفرسان وعصب عيونهم عن رؤ ية ما يحدث في كل زمان ومكان للخيالة الفرسان عند مجابهتهم لخصومهم المسلحين جيدا والذين تتوفر لهم الارادة والتصميم . ولم يدرك الفرصة الجديدة التي تؤ منها القدرة الحركية في ميدان المعركة الحديث ، سوى عدد قليل من الفرسان ، فأخذوا بعد الحرب في التفكير بما تقدمه القوات المدرعة من المرونة والقدرة الحركية ولكن وعندما يصل الأمر الى مرحلة الدفاع الخيول فقد كان

الفرسان جميعا على استعداد لذم الدبابة والانتقاص من قيمتها ولقد كان تحولهم لدعم الدبابة بطيئا استمر اكثر من عشرين عاما مما ترك شعورا مؤسفا بتأخير تطور الجيش حتى يصبح جيشا حديثا في الوقت المناسب استعدادا للحرب التالية .

امكن تخفيض الجيش البريطاني حتى عام ١٩٢٢ والعودة به ليكون نسخة مطابقة لحجمة قبل الحرب ، وذلك بتأثير الضغط لتخفيض النفقات التدريجي. وزيادة على ذلك فقد أصبح وجود فيلق الدبابات واستمراره عرضة للخطر في سنوات ما بعد الحرب ، بتأثير وجهات نظر الجنود الذين لم يعترفوا بالدبابة سوى أنها حل مؤقت لمشكلة اختراق الخنادق. وقد عبر هذا الموقف عن نفسه جماهيريا بالمحاضرة التي القاها السير لويس جاكسون (وهو قائد مشهور ومهندس) في كلية الاركان خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ . وكانت المحاضرة تحت عنوان (احتمالات حرب المستقبل) . وخصص المحاضر ثلاث فقرات فقط لموضوع الدبابات وهي (ان الدبابة كانت مجرد نزوة وظاهرة غريبة . كما ان الظروف التي تطلبت ظهورها هي ظروف استثنائية ، ومن غير المحتمل لها ان تتكرر . واخيرا وحتى اذا تكررت فانه بالامكان معالجتها عن طريق استخدام وسائط أخرى). لقد كان بوني فوللر لحسن الحظ خلال هذه الفترة الحرجة في وزارة الحرب والى جانب رئيس هيئة الاركان ، وبذلك امكن له مراجعة التحرك الذي يستهدف القضاء على فيلق الدبابات كما انه استطاع تقديم مقترحات لتنظيم ٦ افواج دبابات (بمعدل فوج دبابات لكل فرقة مشاة في قواعد ما قبل الحرب) وتم تبني هذه النسبة والموافقة عليها بموجب توصية صادرة عن هيئة وزارة الحرب المكلفة باعادة تنظيم الجيش . فرصة الحظ تضاءلت عندما اصبح فوللر ملزما باعادة احكام النسبة بين السلاح المدرع والمشاة وبذلك لم تصدر الموافقة النهائية قبل نهاية عام ١٩٢٢ لتنظيم ٤ أفواج فقط على أساس انه لم يبق في الجيش الانكليزي (داخل انكلترا) سوى ٤ فرق مشاة .

كان رد الفعل في فترة ما بعد الحرب ، والذي أخر اتخاذ القرار بشأن مستقبل قوة الدبابات قد مارس دوره ايضا في تأخير كل ما يتعلق بتسليح هذه القوة وتجهيزها. وكانت وزارة الحرب قد اوقفت بعد شهر واحد من نهاية الحرب العالمية الأولى ، كل انتاج لجميع انواع الدبابات إلا انها سمحت باستمرار التجارب لصنع نموذج الدبابة المتوسطة الجديدة (د) وكان قد صمم هذه الدبابة المقدم فيليب جونسون ، وضمنها نموذجا من المخامد الفولاذية بهدف اشراك النوابض الضرورية للسرعات الكبرى مع عدم المبالغة في الوزن الاضافي كما حرص جونسون على تحقيق رغبة فوللر باحكام الغطاء لمنع تسرب المياه مع تأمين قدرة على العوم حتى تستطيع الدبابة التقدم بذاتها وعن طريق سلاسلها. وتم اجراء

التجربة الأولى لهذه الدبابة في شهر أيار (مايو) ١٩١٩ ، واستطاعت الوصول لسرعة ٢٨ ميل بالساعة . ثم نقلت الى كريست شيرش حيث اعيدت التجربة فسحبت الدبابة وعبرت النهر ، وتسلقت دون اي مساعدة الطرف المقابل من شاطيء النهر ، ولكن درجة الثقة بها والاعتماد عليها كانا دون سرعتها وميزاتها .

صمم فيليب جونسون ايضا اشكالا جديدة من السلاسل المرنة (المتمفصلة) لمساعدة الدبابات للجري حول المنحنى المشكل من سلاسلها وكذلك من اجل المحافظة على التوازن فقد استخدم المكابح (الفرامل) عوضا عن الضغط على سلسلة واحدة وبقاء كامل قوة المحرك على الجانب الآخر. صنع فيليب جون بعد ذلك جرارا جديدا اطلق عليه اسم (الافعى) ، وكان تطويرا مذهلا لنماذجه السابقة . وكانت الدبابة التي صنعت من هذا الجرار قادرة على السير بسرعة ٣٠ ميلا بالساعة مع تحقيق مزيد من الاقتصاد في استهلاك الوقود عن أي دبابة اخرى.ولكن هذه الدبابة كانت تعاني من كمية من الاضطرابات الآلية (الميكانيكية) . وظهرت بصورة واضحة ضرورة اجراء المزيد من الابحاث قبل تصميم اي نموذج جديد وارساله الى الانتاج . وفي هذه الفترة عادت المعركة الاقتصادية من جديد لتحقيق الابحاث في المشاريع بعيدة المدى .

قررت وزارة الحرب بعد ذلك اللجوء إلى تصميم أقل طموحا فكلفت مصنع فيكرز بوضع نموذج جديد للدبابة وكانت ميزات هذا النموذج أقل من تلك النماذج التي صممها جونسون إلا ان تعقيداته كانت أقل مع توفر صفات تجعله جديرا بالثقة وعلى هذا قررت وزارة الحرب المضي بتجربتها لانتاج دبابة فيكرز ولم تمض على ذلك سوى فترة قصيرة حتى أغلقت مؤسسة تصميم جونسون الصغرى ووقعت ضحية العربدة الاقتصادية.وكان من نتيجة تقليص النفقات القضاء على خدمات أفضل الخيالات المبدعة وعدم الافادة من قدرات مصممي الدبابة الاساسيين وامكاناتهم . كانت الدبابة (فيكرز) صالحة كبديل مؤقت عن النماذج السابقة نتيجة لاعتمادها والوثوق بها . ولكن لسوء الحظ فقد تم الاحتفاظ بها كدبابة نموذجية للجيش لمدة عشر عاما ، وحتى عشية الحرب التالية وكانت اول نموذج تقرر انتاجه على أساس محمد السلاسل وعلى الرغم من ان سرعتها القصوى كما هو مفروض قد حددت لتكون بمعدل ٢٠ ميلا بالساعة إلا أنني كثيرا ما عملت على حساب سرعتها عند تحركها على الطرق فكانت في حدود ٣٠ ميلا بالساعة . وكان هيكلها القتالي موضوع فوق السلاسل ، وبذلك كان شبحها يظهر بشكل عربة مدرعة أما تسليحها فكان عبارة عن مدفع ٣ رطل (٤٧ مم) وكان المدفع مركب على برج صغير دائروي ، مع مدفعين رشاشين . وكان تصفيح الدبابة رقيقا يتراوح بين ٠,٣ حتى ٠,٦ انش ، وغير

مانع تماما لرصاص البنادق العادية . وكان أخطر ما في الأمر هو تأمين امداد الدبابة بالبترول من داخل جسم الدبابة ولكن رغم هذه الحدود جميعها فقد أصبحت الدبابة (فيكرز) هي الوسيلة العملية للتطورات الثورية في مجالي التكتيك والاستراتيجية . فقد كانت اول دبابة سريعة وضعت في الخدمة قبل أي جيش من جيوش العالم ، وأذهلت عقول الجنود بما تقدمه من عروض مثيرة لميزاتها التي تجمع السرعة والتصفيح في وقت واحد .

لقد استقبلتُ الدبابة (فيكرز) بالترحيب ، وذلك لأن ظهورها قد توافق لحسن الحظ مع بداية تمارين الجيش . وذلك في ذات الوقت حيث بدأت حرفتي الجديدة كمراسل عسكري . وكان من الطبيعي أن يساعدني ذلك على تأمين حجة قوية لذرائعي في الدفاع عن قضية ادخال الآليات في الجيش (مكننته) .

كان مفهوم الحرب الآلية (الميكانيكية) أو (الحرب المدرعة) يستند إلى معطيات من الممكن انجازها فنيا لتطوير الدبابة ، والحصول على سرعات أكبر مع زيادة في طول شعاع العمل ، بمقادير تتفوق على تلك التي استخدمت في دبابة الحرب العالمية الاولى . وزيادة على ذلك ، فقد كان ظهور الدبابة واشتراكها الحالي في منطقة المناورات ، أمراً حيوياً لانتشار المفهوم ، إذ أنها كثيراً ما عملت وكأنها (سحر ، أو أعجوبة) في خلق التحولات نحو العقيدة الجديدة ، وجعلت الجنود اكثر استعداداً لقبول القضايا النظرية للقوات المدرعة . ولم تكن أية حجة منطقية قادرة على صدم عقول الجنود بمثل ما كانت تفعله صور كتلة الدبابات وهي تندفع عبر الاقليم بسرعة اكبر بكثير من سرعة الفرسان . وقد خلقت الدبابة اقوى الانطباعات لأنها هزت أعصاب الجنود لا سيما من كان واقفاً منهم أو منبطحاً في ممر تقدم الدبابة او على محور تقدمها . وانني اذكر جيداً احدى المناسبات في تلك السنوات المبكرة حيث كان على نسق من الدبابات التقدم لاختراق الحاجز الذي يتشكل من سياج وشجيرات صغيرة . وعندما شاهد فوج المشاة ذلك وهو يقف عند الطرف الآخر من الحقل تمزق افراده (شذراً ـ مذراً) ، وكان المراقب الواقف عن بعد يحسبهم افراداً يشتركون في سباق الضاحية .

تحول الكثيرون ، أو أصبح لديهم الاستعداد للتحول بتأثير استعراضات الدبابات أو تظاهراتها المرئية ، ولكن التبشير بالعقيدة الجديدة وتبسيط نظريتها وشرحها ، حقق أثرا اكثر عمقا وأبعد مدى . ذلك لأن هذا التوجه مارس دوره في التأثير على عقول الجنود الذين يقع عليهم العبء الأساسي في تنظيم القوات المدرعة الجديدة وفي التدريب عليها والتعامل معها . وهكذا اثارت العقيدة الجديدة حماسة الجنود ، ثم جاءت النظرية لتحدد

معالم الطريق ولتساعدهم على التوجه في مسيرتهم.

كان من بين هؤلاء الجنود - (العقيد ج . م . ليندسي) . وهو الرجل القائد في العقد الأول لما بعد الحرب . وكان هو الذي جند إلى صفه (الرائد . ث . ن . ف . برود) رجل المدفعية الشاب ذو الامكانات الواسعة والحاصل على شهادة التأهيل لرتبة مقدم.وكلف (برود) بقيادة مدرسة مدفعية الدبابات في عام ١٩٢٤ وهي السنة التالية لتكوين فريق الدبابات الملكي الدائم وفي الفترة الأخيرة من العشرينيات شغل (شارل برود) منصبا هاما في هيئة الأركان ، مما ساعده على ممارسة اكبر دور هام لتطورالدبابات ،وفي عام ١٩٣١ وقع الاختيار عليه لقيادة اول لواء دبابات تم تنظيمه بعد الحرب (لاستخدامه كنموذج قيد التجربة) . وهناك عضو آخر كان كسبا كبيراً جدا لمصلحة الدبابات وهو الرائد (ف . آ - بايل) الذي مارس قيادته الرائعة للمجموعة السريعة في تجربة القوة الآلية (الميكانيكية) الأولى عام ١٩٢٧ . وتم تعيينه عندها كمدير مساعد للفرع الآلي (الميكانيكي) في وزارة الحرب ، حيث توفرت له فرصة للتعاون الوثيق جدا والمثمر مع شارل برود . وكان بايل قد نقل من مدفعية الفرسان الملكية . وطبق تقاليدها الخاصة في المرونة والقدرة الحركية بطريقة رائعة جدا على مجال فاعليته الجديد . وفي الوقت ذاته كان هناك عضو جديد هو الرائد (ب . ث . س . هوبارت) من المهندسين الملكيين ، يعمل على تحقيق منجزاته في المجالات المختلفة ، ويظهر بان عادة البحث عن التفاصيل الدقيقة والجزئيات لا يتعارض مع المرونة والقدرة الحركية . وقد أصبح بيركي هوبارت ، أو (باتريك) كما كان يسمه اصدقاؤه و (هوبو) كما عرفه الجيش بصورة عامة ، أصبح قائدا لأول لواء دبابات دائم في عام ١٩٣٤ ، ومع تعيينه تم تطبيق اكثر النظريات المتقدمة في الحرب الآلية (الميكانيكية) وقد كان لتلك التظاهرة الفنية أثرها البعيد جدا ، فأفادت منها المدرسة الجديدة في الجيش الألماني وتبناها غودريان بحماسة وعمل على تطبيقها .

كان هؤلاء الرجال الأربعة (ليندسي ، وبرود ، وبايل ، وهوبارت) جميعهم ممن انضموا الى صف الدبابة بعد الحرب ، وعملوا على دعم قضيتها . وقد وصلوا جميعا الى مرتبة القادة (الجنرالات) . ولكن واحدا منهم فقط (هو بايل) وصل إلى أعلى مرتبة في تلك الرتبة ، وكان من المحتمل له - على وجه التأكيد - الوصول الى رتبة أعلى لو لم يصبح عضوا مميزاً بتأييده لقضية كانت تعتبر (هرطقة) و (انحرافا) في نظر الجيش الذي ينتمون اليه . وقد تعرضوا جميعا لما تفرضه تقاليد الجيش البريطاني (باستثناء واحد منهم فقط) وكانت هذه التقاليد تقضي بنقل الضابط عند ترفيعه الى رتبة لواء (ميجر جنرال)واخراجه من محيطه الذي تم تأهيله له واختصاصه الذي كان يمارسه . او الاستثناء الوحيد فهو نقل

هوبارت في فصل الشتاء الأول من الحرب حيث كان يقود الفرقة المدرعة في مصر وهو الوحيد الذي تمت اعادته من التقاعد بناء على الحاح وينستون تشرشل واصراره ، بعد ان اظهر الألمان فاعلية التقنيات الجديدة في عام ١٩٤٠ .

انتهت خدمة فوللر في الدبابات عام ١٩١٨ ، وخرج منها بخبراته المبكرة عندما تمت اعادته الى وزارة الحرب . وكان على مارتل العودة الى سلاحه الاساسي بناء على اختياره فرجع إلى (سلاح المهندسين الملكي) بعد الحرب ، ولو أنه استمر في دعم تقدم المدرعات بكتاباته ، مثله في ذلك مثل فوللر ، علاوة على الاعمال التجريبية الهامة لتطوير صناعة الدبابة وصناعة الدبابات الصغرى . في حين كان (بوت ـ هو تبلاك) رئيس استخبارات وحدة الدبابات في الحرب ، يعمل باستمرار ، ولكنه كان ضابطا صغير الرتبة مما لم يسمح له بممارسة تأثير قوي حتى عام ١٩٣٠ .

اضطلع جورج ليندسي في زمن الحرب بدور كبير في تنظيم وحدة (المدافع الرشاشة) كأفضل وسيلة تكتيكية يمكن استخدامها للافادة من هذا السلاح . ونظرا لما تميز به ليندسي من الخيال والحماسة فقد أظهر اهتماما كبيرا بنشاطات وحدةالدبابات . وفي عام ١٩٢١ وبناء على مبادأة من فوللر ، تم تعيينه لقيادة سرية عربات مدرعة في العراق ، وقد عمل ليندسي في العراق على تحويل هذه السرية إلى (قوة آلية ـ ميكانيكية) بدائية لتنفيذ العمليات بعيدة المدى في تلك المنطقة المضطربة.وعندما تم تشكيل وحدات الدبابات الملكية الدائمة في عام ١٩٢٣ صدر أمر نقله اليها مقدم ، مع اعادته لانكلترا ، وتعيينه كبير معلمي المدارس المركزية في معسكر بوفينغتون من مدينةدورسيت.وبعد سنتين نقل إلى وزارة الحرب مع تعيينه مفتشا للوحدات المدرعة ، وبقي في مركزه هذا حتى عام ١٩٢٩ . وبذلك تمكن اكثر من اي شخص آخر من صياغة اسس تدريب القوات المدرعة ووضع العقيدة التكتيكية خلال تلك السنوات المبكرة .

كان ليندسي وهو يبشر بالعقيدة الجديدة في أوسع دوائر الجيش يستخدم اساليبه الذكية ويتخذ مواقفه اللطيفة مما كان يساعده على اكتساب سامعيه والحصول على تأييدهم لأفكاره الجذرية وبذلك كان اكثر نجاحا من جميع الحواريين الذين بشروا بمستقبل المدرعات . وبينما كان بوني فوللر ومن بعده هوبارت يستثيران المعارضة بين المدافعين عن الأسلحة الأخرى ، بلهجتهما الساخرة وانتقاداتهما . كان ليندسي يتدبر الأمر في كثير من الأحيان لتجريد خصومه المعارضين أو على الأقل اثارة الحد الأدنى من الاشمئزاز للافكار الذميمة والمتأصلة في العقول المحافظة .

كان ليندسي محاضرا جيدا ومتحدثا لبقا ، مع براعة فائقة في استثارة اهتمام الاخرين وكان قادرا على ترك أثر قوي في عقول الكثيرين من الجنود الذين لم تكن لديهم عادة قراءة المجلات العسكرية أو الكتب وبهذه الطريقة كان افضل من يقدم الدعم للنبوءات التي كان يبشر بها الكتاب عبر أقلامهم . وكان من عادته ان يبدأ محاضراته بذكر قصة (داوود - و جالوت) كاستعارة (لفكرة جديدة) التي تهزم (القوة الخام المجردة من الفكر) ويستخلص النقطة التي يريدها مع العمل على دعمها بامثلة مختارة من التاريخ العسكري الذي كان تلميذا له مولعا بدراسته .

بعد ان بدأ ليندسي مهمتهالتبشيرية عملت فورا على نشر دراسة في مجلة (بلاكوود) عدد ايار (مايو) ١٩٢٤ . وكان موضوعها (جيوش المغول في القرن الثالث عشر) واستخلصت منها درسا وهو ان الاساليب الاستراتيجية للمغول ، وحتى اساليبهم التكتيكية الى حد معين تقدم نموذجا جيدا للجيوش الآلية (الميكانيكية) في المستقبل ، بحيث تكون هذه الجيوش مكونة بكاملها من وحدات راكبة متحركة . وقرأ ليندسي المقولة واخذ بما ذكرته واعتنق الفكرة وانطلق يرددها في محاضراته واحاديثه في الوقت المناسب .

كما طلب ليندسي ايضا الى الجنود وهو يناقشهم ان يحصلوا على كتابي (باريس أو حرب المستقبل) وأن يقرأوه وقد استثار ذلك الكتاب الصغير ايضا اهتمام القيادات العليا وترك أثره فيها .

وكان السير هوغ ترينشارد ، رئيس هيئة اركان القوات الجوية ، قد أمر بالحصول على عدد من النسخ لتوزيعها في القوات الجوية الملكية وأهدى نسخا منها الى زملائه رؤساء الاركان (اللورد الأول للبحرية ، ورئيس هيئة الاركان العامة الامبراطورية) كان الجنرال السير جورج ميلن ، من القراء الأوائل ايضا لما اكتبه وكان قد تم اختياره ليكون الرجل الثاني في هيئة الاركان العامة الذي تم تعيينه رئيسا لها في بداية عام ١٩٢٦ وقد التقيت به اثناء جولتي على معسكرات الاقليم في ساسكس خلال شهر آب (اغسطس) ١٩٢٥ عندما كنت أعمل كمراسل عسكري لصحيفة الديلي تليغراف للمرة الأولى . وأقمت في نورفولك آرم الواقعة في آرونديل وتصادف أن حضر السيد جورج ميلن الى هناك في الوقت ذاته . ورحب بي عندما شاهدني وهو يقول بانه قد فرغ على التو من قراءة (باريس) ثم تابع حديثه ليقول لي بانه كان على اتفاق تام بما جاء فيه ، وكانت مباغتة سارة لي . ثم قال لي بانه يرغب في معرفة وجهة نظري بمزيد من التفاصيل عن طريقة تحويل الجيش الى جيش آلي (ميكانيكي) وفق الخطوط العامة التي اقترحتها هناك ، وأمضينا الليلتين التاليتين معا في مثل هذا النقاش . أوضحت الخطوط العامة لما

كنت قد طرحته من عروض ثم اقترحت عليه البدء كخطوة اساسية بتنظيم (هيئة ابحاث عملياتية) تكون تابعة لهيئة الاركان العامة وبمثابة (الرأس المفكر) مع تشكيل (قوة ميكانيكية تجريبية) لاختبار الأفكار الجديدة وتجربتها. وكنت قد تحدثت عن هذين الموضوعين ودافعت عنهما طوال السنين السابقة كما كنت قد طرحتهما على الجنرال ميلن في السنة السابقة ، ولكنني وجدت اكثر من سبب للتأكيد عليهما من جديد ، ولا سيما وقد واتته الفرصة لوضعهما موضع التنفيذ . وأظهر ميلن ترحيبه بالاقتراحين كليهما . ولكنه أسهب في الحديث عن صعوبات الحصول على الموافقة المالية لانشاء فروع جديدة وزيادة هيئة الأركان في وزارة الحرب . وتابع حديثه ليقول بأن كل فرع من الفروع الموجودة يرزح تحت اعباء اعماله ، ولاحظ بان المركز الوحيد الذي يتمتع بحرية العمل هو مركز (المعاون العسكري) في القيادات وهيئة الاركان . فقلت انه بالامكان استخدام هذا المركز كبداية لتنظيم (الرأس المفكر) واقترحت ان يتولى فوللر بصورة خاصة هذه المهمة نظراً لكونه الشخص المناسب لهذا العمل . واستجاب ميلن لهذا الاقتراح مع اظهار سروره بذلك ، على الرغم من أنه لم يكن قد قابل فوللر أبداً . وبعد مضي اسبوع تقريباً تلقى فوللر رسالة من وزارة الحرب تطلب اليه اظهار مدى استعداده لقبول هذا التعيين .

كان ميزان الجو (الباروميتر) العسكري يشير الى (الغيوم والضباب) بسبب وجود مثل هذا المزيج في مراكز القوة وفي وجهات النظر ، ولم تكن هناك حاجة للوضوح في طريقة التفكير فقط ، بل كانت هناك حاجة ايضاً للوضوح في طريقة العمل للوصول الى الهدف . وهكذا فان انتقاء فوللر للعمل كمساعد عسكري للجنرال ميلن ، قد اعتبر من قبل الجيش بصورة عامة على أنه مؤشر يدل على تصميم ميلن للتوجه بالجيش نحو الآلية (المكننة) بحيث يكون للدبابة فيه الدور الرئيسي . وعلى هذا فقد جاء تعيين فوللر . ليروع بصورة مباغتة الكثيرين من أصدقاء ميلن وزملائه الذين كانوا يرفضون باصرار وعناد هرطقة العقيدة الجديدة ، في حين اوحى هذا الاجراء بمزيد من الثقة بين الاكثر شبابا من الجند . وأصبح باستطاعة عدد كبير ممن كانوا يحومون حول حافة العقيدة الجديدة ، الانتقال تدريجيا الى الطرف المقابل ، وأدى هذا التحول الذي يقوده رئيس هيئة الاركان الى ظهور موجة حماسية قوية . كان السير (ليمينغ - وورثينغتون - ايغان) أمين عام الدولة - لوزارة الحرب - من انصار تطوير الجيش ايضاً ليكون جيشاً حديثاً - آلياً (ميكانيكيا) . وقد اخبرني بانه كان يهتم كثيراً ويتأثر بما كان فوللر يكتبه وبما كنت ايضاً اكتبه في هذا الموضوع .

وقد أصدرت هيئة الاركان في خريف عام ١٩٢٥ ، وكانت لا تزال تحت رئاسة اللورد كافان مشروعا لاعادة تنظيم قوة الارساليات البريطانية ، والتي كانت لا تزال

منظمة وفق الخطوط القديمة . وعندما قدم المشروع إلى وورثينغتون ايفان ، توجه بقوله (بانه يتضمن افاقاً اوسع بكثير من التغيرات ، وانه يحقق خطوات واسعة في إتجاه تنظيم القوات الحديثة) . وزيادة على ذلك فان قاضي قضاة وزارة المالية في تلك الفترة وينستون تشرشل ، هو الذي بذل الكثير من الجهد لدعم الدبابة منذ بدايات ظهورها المبكرة ولكنه في مركزه الحالي أصبح ملزماً بتقليص النفقات الحكومية بهدف تخفيض الضرائب . وهكذا كان بالامكان الاعتماد على دعمه على الأقل - مع دعم وزير الحرب ، والافادة من ميلهما لدعم كل مخطط عسكري هدفه احلال القوات المنظمة حديثا مكان النموذج القديم للقوات .

كانت القضية الأساسية على كل حال تكمن في قدرة رئيس الاركان الجديد الجنرال ميلن على فرض هيمنته لاخضاع اكثر زملائه المحافظين وتخفيض قوة التنظيمات القديمة من أجل توفير الوسائط الضرورية لتطوير الجيش الجديد . ثم معرفة ما اذا كانت لديه الثقة الكافية بقناعاته الجديدة لتنفيذ الافكار التي حملها ؟ .

لقد ظهرت الظلال المتقدمة بصورتها الواضحة عند التعرض لذكر قوة المقاومة في مجابهة كل حركة اصلاحية وذلك في الحديث الذي أدلى به اللورد هيغ ، خلال ذات الفترة التي تم فيها نشر كتيبي (باريس) حيث قال هيغ : (يتحدث بعض المتحمسين في هذه الأيام بشأن احتمال انقراض الخيول وزوالها يتنبؤن بأن الطائرة والدبابة والسيارة ستلغي دور الحصان في الحروب المقبلة واعتقد بان قيمة الحصان وفرصة استخدامه في المستقبل ستكون كبيرة مثلما كانت عليه في الماضي.انني احبذ تماما استخدام الطائرات والدبابات ولكنني اعتبرها مجرد توابع للرجل والحصان ، واشعر بثقة انكم ستجدون مع مرور الزمن الفائدة الكبرى للحصان - والحصان الأصيل المحتد خاصة - على نحو ما فعلتموه دائما في الماضي .

كانت المقاومة الطبيعية للفرسان المحبين لخيولهم الأصيلة مدعمة بقوة العادة في الأسلحة الأخرى المنظمة منذ عهد بعيد وبصورة خاصة المدفعية التي فرضت هيمنتها على معارك الحرب الأخيرة (الحرب العالمية الأولى) . فالخبرة التي اكتسبتها المدفعية وطورتها من خلال تعاملها مع ظروف حرب - الحصار (١٩١٤ -١٩١٨) قد جعلتها تتخذ موقف المقاومة من التغيير الجذري في التكتيكات والذي قد يتطلب اتباع تقنيات مختلفة تماماً مما يضع المدفعية فوق أرضية لم يسبق ارتيادها وحيث تصبح المهارة المكتسبة غير صالحة ابدا للتطبيق .

كانت مثل هذه المقاومة قادرة على الظهور بوضوح تام بين المتميزين بكفاءتهم في

وسط أكثر الخبراء شباباً والذين وصلوا الى المقدمة من خلال تطوير تقنية المدفعية في المراحل الأخيرة من الحرب . وقد ظهر نموذج واضح لذلك في عام ١٩٢٥ عندما اضطر جورج ليندسي وشارل برود الى خوض معركة كلامية في الحوار مع الآن بروك الذي كان مدرساً في كلية أركان كامبرلي ثم أصبح مديراً لمدرسة المدفعية (علاوة على استمرار تدريسه في كلية الاركان) ، وبعد ذلك رئيساً لهيئة الاركان في الفترة من عام ١٩٤١ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية وقد اخذ بروك على عاتقة تنظيم اسلوب الهجوم في المادة التي كان يقوم بتدريسها ووفقاً لهذا الاسلوب حدد دور الدبابات كتابعة وكثانوية لمتطلبات سد النيران المنظم جيداً بالجدول الزمني . وتكون الدبابات بذلك موزعة على نسق وبمجموعات صغيرة لدعم السد الزاحف للمدفعية والتقدم وراء المشاة.وأجاب ليندسي وبروك على هذا الاسلوب بحجة قوية وهي ان مثل هذا (السد الزاحف ـ بنيران المدفعية) سيقضي على كل امكانات (الهجوم بالعمق) للدبابات وتعيق استثمار الثغرة واضاف برود باسلوب لاذع في رده على بروك : (أشعر بالرعدة والارتجاف بسبب اقتراحاتك للهجوم فالمشاة سيموتون بالآلاف كما حدث في الحرب الأخيرة وستقع الدبابات ضحية لاقترابها من مدى المدافع المضادة للدبابات وهي تتحرك بمجموعات صغيرة على محاور محددة للهجوم وسيستقر بعد ذلك كل شيء حتى يأتي أحدهم فيشكل قوة كافية من الدبابات يتم استخدامها بطريقة ملائمة) .

كان الانقسام في الآراء بين المدفعية والمدرعات والمنافسة الفكرية بينهما تتجه نحو ما هو أفضل لكل سلاح منهما وكان لذلك أثره السيء (المرضي) على مستقبل التطور بحسب ما تم اقتراحه في أيار (مايو) ١٩٢٢ عندما نشرت مقولة لي ضمنتها اشراك المدافع ذاتية الحركة مع الدبابات في « نموذج جديد » من تنظيم القوات المدرعة . وقد تم انتاج نموذج من هذه المدافع . وظهر في بداية استخدامه خلال مناورات الجيش ١٩٢٥ تحت اسم (مدافع بيرتسش) (نسبة الى القائد العام للمدفعية السير نويل ـ بيرتسش) . ولكن تم الاحتفاظ بهذا السلاح وبمعزل عن القوات المتحركة التي كانت اكثر اهتماما بتطويره ، اذ كان منطلقا جذريا جداً يختلف عن افكار المدفعية التقليدية . ولهذا فان القسم الاكبر من رجال المدفعية لم يستجب له ، وقد راودت هؤلاء الرجال الشكوك حول تحول هذا السلاح ليكون (مدفعية الدبابات الملكية) . وبذلك لم ينتج من المدفعية ذاتية الحركة سوى عدد محدد من النماذج لا يزيد على متطلبات تشكيل بطارية واحدة فقط ، ولم يحدث بعد ذلك أي اجراء لتحقيق المزيد من التطور لتحسين النموذج الأول حتى جاءت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ .

وكانت هناك نتيجة أخرى ظهرت في عام ١٩٣٠ عندما قرر معظم قادة قوة

المدرعات الملكية ، وبصورة خاصة منهم هو بارت ، تخفيض الحاجه لمثل هذه المدفعية المرافقة ، ولأخذ بمفهوم فوللر لإنشاء قوة المدرعات حتى لتكون (دبابات بكاملها) عوضاً عن تنظيم القوة لتكون (آلية - بكاملها) . وهكذا فعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية كانت نسب الأسلحة في الفرق المدرعة البريطانية تعاني من قصور في توازن بنيتها التنظيمية ، وذلك على النقيض من الفرق المدرعة الألمانية التي طورها نمو دريان وفق اتباعه للفكر البريطاني المبكر . وكما يحدث باستمرار ، فقد دفع البريطانيون غرامة فادحة ثمناً للصراع بشأن الاستثمارات الثابتة .

* * *

تلقيت أول درس - من مجموعة الدورس الكثيرة - في عام ١٩٢٦ ، بشأن صعوبات الكشف عن حقائق التاريخ العسكري عندما يكون البرهان متعلقاً بعاطفة اجماعية (نقابية أو حرفية) أو مرتبطة باهتمامات وفوائد شخصية . إذ كان السير ارشيبالد - مونتغومري « ماسينغبورد » قد طلب الي في الخريف السابق التعاون معه في وضع كتاب يتضمن الدروس المستخلصة من الحرب الأخيرة ، ووضع الترتيبات المناسبة حتى أرافقه في حزيران (يونيو) الى ألدرشوت حيث هيئة أركانه للقيام بجولة في ميادين القتال الفرنسية ، وهي الميادين التي كان قد مارس قيادة العمليات فيها لعدد من السنوات الماضية .

وصلتني رسالة من أرشيبالد مونتغومري في شهر نيسان (أبريل) ، وكانت هذه الرسالة مقدمة مشؤومة تناولت بالذم البذيء (آخر كتاب لفوللر) وكان عنوانه (أسس علم الحرب) ويعتبر كتاباً فلسفياً بصورة أساسية في مضمونه وأسلوبه . وقد حيرني ما جاء في الرسالة من استنكار عنيف للكتيب ، وعندما سألت السيد أرشيبالد فيما اذا قرأ الكتاب ، أجابني بانه (لم يقرأ ما يكتبه فوللر ، وانه من غير المتوقع أن يفعل ذلك - ابداً) وقد ضايقني ذلك وأزعجني .

عمل السيد أرشيبالد ، خلال الجولة في ميادين القتال ، على اعطاء الفريق المرافق له ، ومرحلة بعد مرحلة ، انطباعاً قوياً عن قدرته وعن ذاكرته - القوية الى حد رائع في عرضه لمسيرة العمليات . ولكنني شعرت بالضيق ، وأنا أجد بانه يعمل على حذف الاسئلة ، وتجنب الاجابة عن كل ما كان يطرحه الاعضاء الآخرون في الفريق من تساؤلات تتعلق بالحقائق التي لم يتعرض لها خلال عرضه للأحداث ، أو الحقائق المتعلقة بالتخطيط للقتال . وعلاوة على ذلك ، فأنني عندما اقترحت عليه ضرورة الحصول على

مزيد من الوثائق الألمانية والبراهين ، وكذلك وجهات نظر (الطرف الآخر) في عملياتنا ، لم يظهر السير آرشيبالد أي رغبة للاعتراف بهذه الحاجه . وأخذ يتملكني شعور تدريجي بأن ما كان يطلق عليه اسم (كتابنا المشترك) لم يكن اكثر من غرور قد تملكه فحفزه لوضع كتاب يمجد فيه منجزات الجيش الرابع خلال الفترة التي كان يعمل فيها رئيساً لهيئة اركان هذا الجيش ، وكذلك حتى يدعم مكانته كمرشح لمراكز أعلى في السنوات المقبلة ، وهكذا أذعنت للعمل ، ثم انسحبت من تأليف مثل هذا الكتاب .

كانت الحجة الأساسية التي كان يستخدمها السير ارشيبالد للسخرية من فوللر ، وتوجيه النقد اللاذع ضده ، هي ان (كتابات فوللر تفتقر الى الولاء) وكان امتلاك الجندي لصفة (الولاء) اكثر أهمية عنده من امتلاك (الدماغ ـ أو العقل المفكر) . وزيادة على ذلك ، فقد أصبح اصطلاح (الولاء) عنده هو الاصطلاح الأمثل الذي يطلقه في كل مناسبة لوصف الضباط في السنوات التالية . وكان يكرر باستمرار ومع ترفيعه للرتب الأعلى هذا الاصطلاح بصورة ثابته حتى أصبح (اصطلاحاً مضحكاً) يلتصق به في كل مكان يذكر فيه اسمه . وأصبح في الواضح اكثر فاكثر بانه كان يعتبر النقد لا مجرد (عدم ولاء) للمؤسسة العسكرية فحسب ، بل انه عمل ضار بمصلحته الخاصة ومؤذ لتطلعاته وطموحه .

قمت بزيارة أخرى لفرنسا في خريف عام ١٩٢٦ . وكان الهدف في هذه المرة هو زيارة الجيش الفرنسي . وخيل لي بانني تسللت الى ما وراء الفكر ، فقد عرفت ما تعانيه المؤسسة العسكرية من مشكلات . إذ تخلى عدد من ضباط الجيش البارزين ، العاملين منهم والاحتياطيين ، وتركوا حرفتهم بسبب معدلات الرواتب المنخفضة . أما في مجال العقيدة القتالية والتدريب العسكري ، فقد كان يتم التأكيد قبل أي شيء على انتاج كمية كبرى من النيران ، باساليب بطيئة تتوافق ومعدل سرعة الحركة التي كانوا يتوقعونها . وقد أشرت الى أن مثل هذا الجيش قد ينهار بتأثير خلافاته الداخلية ، فيما اذا طلب اليه التقدم أو الانسحاب لمسافات طويلة وبالامكان ايجاز ما وصلت اليه من نتائج عملت على كتابتها وهي :

(نظم الفرنسيون جيشاً كبيراً في شكله قوياً بامكاناته ، ولكنه بطيئاً في تحركه) .

فالسدود النارية الزاحفة مصممة لدحر العدو تدريجياً ، على نحو ما حدث في عام ١٩١٨ ، والتصدي لكل جيش مماثل يقف على خط مواجه لها . ولكن ماذا سيحدث لو أن عدو الغد ، حتى لو كان في السباق ذاته ، وقد عمد الى تغيير طبيعته وتكوينه ؟ وعند

ذلك ، هل يكون بالمستطاع ابعاد احتمال انهيار بنيان الجيش الافرنسي بسبب اقامة البناء على رمال متغيره ؟

ثم ماذا ستفيد السدود الزاحفة فيما اذا قرر اعداء الافرنسيين عدم التقدم ضدهم بكل ثقلهم ، واستعاضوا عن ذلك بتركيز قواتهم المدربـة تدريبـاً عالياً للقيام بعمليات اختراق متحركة هدفها ابطال عمل آلة حرب الفرنسيين المعقدة ؟

انني اشعر ، وأنا الخص الموقف الاجمالي ، بأن العسكرية الافرنسية تقف عند مفترق الطرق . فاذا ما استمرت بمسيرتها الحالية ، فان جيشها سيصبح ميليشيا وطنية . ورغم تعاظم حجم قوته فانه سيكون اقـل ما عليه بسبب قصـوره في تأمين الوسائـط الحديثة ، وبسبب افتقاده للمدربين الخبراء .

هنا يظهر السؤال : وما هو الحل التبادلي ؟ ان قناعتي الذاتية بان الحل يكمن في جيش محترف اصغر في حجمه ، تكون رواتب أفراده مرتفعه الى درجة كافية ، وتدريب الجيش تدريباً عالياً ، وتحويله الى جيش آلي (ميكانيكي) . وستضمن ميزاته هذه لفرنسا المزيد من الأمن الحقيقي على نحو أفضل مما يضمنه الجيش الحالي الكبير في عدده .

انني اعرف جيداً بأن هناك أمل ضعيف في قبول فرنسا لكل اقتراح من شأنه تغيير الجيش ، وتحويله نحو الاحتراف ، بسبب الخوف من الديكتاتورية العسكرية ، التي تشكل هاجساً يهيمن على السياسة . وبسبب الاعتقاد بأن جيش المجندين هو بالضرورة ضمان عسكري زهيدا لتكاليف وفق ما هو راسخ في عقول الجماهير الافرنسية .

ان لفرنسا كثير من الرواد في مجال التطور الآلي (الميكانيكي) ، وقد ظهر ما لادخال الآلة (المكننة) من ميزات واضحة مقابل القليل من العقبات في اقليم تعتبر مشكلاته العسكرية هي جزء من المشاكل الأوروبية بالدرجة الأولى ، وبذلك يمكن القول أن فرنسا ستستيقظ على حقيقة وهي ان روحها العلمية ستحقق يقيناً التوازن مع ميلها الجماهيري واتجاهها الشعبي وهذا مما يدعم موقفها العسكري في اعادة بعث الجيش ضمن اطار حديث تتوفر له المرونة والقدرة الحركية المتوافقة مع روح الجيش الفرنسي وتقاليده . وستجد فرنسا في مرونة قواتها المسلحة ذلك السر القديم الذي حقق لها انتصاراتها العظيمة ، وهذا ايضاً ما يتوافق بصورة اساسية مع المزاج الخاص لشعبها .

وعلى هذا ، وحتى لو أحجمت حكومتها عن اجراء تغييرشامل ، فان ما هو متوقع حدوثه أن تجد فرنسا نفسها وهي تسير الى حافة الهاوية عبر الممر الذي تسير عليه حالياً ،

وعندها ستبحث فرنسا عن الحل التبادلي ، فتعمل على تخفيض الحجم الكمي من أجل مجابهة النفقات المطلوبة لتحويل قسم من قواتها الحالية الى قوة آلية ـ ميكانيكية ضاربة ، على درجة عالية من التدريب ، يتكون أفرادها من المتطوعين للخدمة ـ الطويلة ، وهذه القوة هي رأس الحربة في الجيش الوطني الذي يمكن له بعد ذلك التوسع (افقياً) والتطور (عمودياً) بعد انفجار الحرب) .

أرسلت هذا التقرير النقدي الى الملحق العسكري الافرنسي في لندن وذلك قبل نشرة*وكانت مباغتة سارة بالنسبة لي أن يبلغني بأن المارشال بيتان ، (الذي أصبح فيما بعد قائداً أعلى للجيش الفرنسي) قد أصدر أوامره بتعميم هذا التقرير رسمياً . ولم تكن لدي معلومات موثوقة حول هذه القضية الفورية قبل مضي تسعة أعوام بعد ذلك (على نحو ما يظهر في الفصل الثاني) .

وجهت الي الدعوة لزيارة القوات المسلحة الايطالية في فصل الخريف التالي . وكانت العقيدة التكتيكية للجيش الايطالي ، تتبع الاسلوب الفرنسي وكذلك الأمر بالنسبة للتدريب الذي كان يتم بتمهل كبير ودون أي سرعة ، وكانت مخططات القتال واوامر العمليات مبالغة في طولها ومفرطة في تفاصيلها . وكان مثل هذا التصلب وعدم المرونة أقل تكيفاً حتى مع الخصائص الطبيعية للرجل الايطالي . وقد ظهر ذلك من خلال الاستعراضات والتمارين التي تم تنفيذها من أجلي . حيث تم التنفيذ بدقة رائعة حتى يحدث توقف مباغت أو تشابك ، وعندئذ يسرع الضباط من جميع الرتب وهم ينطلقون ذهاباً واياباً ويصرخون لأصدار الأوامر والأوامر المعاكسة . وكان أعظم ما يمكن مشاهدته هو الانسحاب الذي يعتمد على التكتيكات المكررة وذلك لأن الايطاليين أقل كفاءة بكثير من القدرة النارية لمثل الاساليب الهجومية البطيئة والمتهملة .

وبمعنى آخر ، فان السلطات قد أظهرت من الوعي قدراً غير عادي يزيد على ما أظهره أي اقليم آخر ، فقد سمح لي بزيارة كل مكان رغبت فيه ، حتى المراكز التجريبية للجيش والقوات الجوية ودون (أي رعاية) أو اشراف خلال وجودي هناك . وتميل الدوائر الرسمية لاستخدام كلمة (سري) دون تمييز ، وكأنها تريد ان تعني بها كلمة سخيف أو تافه ، أو لاعطاء معلومات موثوقة عما تم الغاؤه . ولكن يكاد يكون من المستحيل اختراق الحواجز لاكتشاف التصاميم الفنية المعقدة والتي لا يمكن ادراكها من مجرد النظرة العادية لأي انسان . وهكذا فان فن المحافظة على السر ، هو مجال مفتوح بنسبة

* نشر هذا التقرير في الديلي تليغراف بتواريخ ١١ و ١٤ و ١٥ و ١٨ كانون الثاني (يناير) ثم في كتابي (اعادة تنظيم الجيوش الحديثة) .

٩٥ بالمئة للقضايا التي تكون سرية فعلاً ، ويبقى هناك ٥ بالمئة فقط من القضايا التي لا يمكن اكتشافها .

كانت تستقبلني في بعض الأحيان ، خلال زياراتي للمراكز المختلفة ، فرق موسيقية وهي تعزف الأناشيد الوطنية البريطانية من أجل الحفاوة بي . وكان ذلك بسبب لي بعضاً من الاضطراب ، يعود السبب في قسم منه الى صعوبة معرفتي باللحن الذي يتم عزفه على طريقتهم الايطالية . وكانت الزيارات تنتهي دائماً بتناول (انخاب الشرف) والتي كان علي أن أرد عليها باللغة الافرنسية نظراً لجهلي اللغة الايطالية ، ولحسن الحظ فقد وجدت ان الضباط الايطاليين كانوا يتفهمون اللغة الافرنسية ، بطريقة أفضل مما كانوا يفهمونها عندما يتحدث بها الفرنسيون أنفسهم .

كانت لي ، خلال اقامتي في روما ، أحاديث هامة مع وزير الحرب ، الجنرال كافاليرو ، ومع وزير الطيران ، الجنرال بالبو ، وهو شخصية نشطة يتقد حماسة وحيوية . كما استقبلني أيضاً موسوليني ، وكان مظهره في حينها يختلف تماماً عن صورته الضخمة في السنوات الأخيرة . وكانوا قد أخبروني في سفارتنا بأن من عادة موسوليني أن يجلس الى مكتبه في حين يسير الزائرون عبر الفناء الرحب والطويل لغرفته في قصر (بلازو- شيغي) . وبذلك يهيمن عليهم الشعور بالتضاؤل أمامه اكثر فاكثر ، ثم يتركهم لمدة دقيقة أو دقيقتين تحت وطأة الصمت وهو ينظر اليهم بنظراته المفترسة - الثاقبة . ولكنه عوضاً عن ذلك ، تقدم الي مباشرة لمقابلتي ، مجنباً إياي كل المقدمات (الدرامية) . وتحدث بطريقة سهلة وطبيعية ، وكان القسم الاكبر من الحديث باللغة الافرنسية وبالانكليزية في بعض الأحيان .

لاحظت من بين صور عديدة كانت على الطاولة ، صورة كبيرة للسير اوستن شامبرلن ، الذي تحدث عنه موسوليني باعجاب ، ووصفه خلال حديثنا بانه نموذج للرجل الانكليزي المهذب - الجنتلمان - . وكان هناك تمثال نصفي (ليوليوس - قيصر) يظهر بصورة مميزة فوق قاعدته الى الخلف من مقعد موسوليني . وقد أشرت اليه خلال حديثنا بلقب (الديكتاتور) واستغربت للحظة قصيره كيف انزلقت بعيداً في خطيئتي نظراً لأنه كان يحمل التسمية الرسمية (كرئيس للوزراء) . ولكن ظهر لي من الواضح بانه لم يكره استخدامي لهذا الاصطلاح . كما انه تعرض خلال الحوار الى نماذج الحكومات ووصف بسخرية الديمقراطية انها (الشمعة المحترقة) وفي الوقت ذاته ، عبر موسوليني عن ادراكه العميق لخطر التضليل الذي يجابهه كل ديكتاتور وهو يعيش في وسط دائرة من المتملقين الأذلاء ، الذين يلفقون من الأقوال ما يعتقدون بأنه يرضي الديكتاتور . وقد ظهر لي في

النهاية بأنه اكثر ادراكاً ، وأكثر اطلاعاً على هذا الخطر من معظم الزعماء الديموقـراطيين الذين عرفتهم في حياتي وكان موسوليني يقرأ الصحف اليومية الأجنبية كتدبير وقائـي (ترياق) وبصورة خاصة الصحف المعارضة للسلطة ، مثل المانشستر غارديان ، وكان ذلك بمثابة مؤشر مميز بترك بعضاً من الأمل ولكن بعد مضي سنوات قليلة ، سقط جميع اولئك الاعضاء المحيطين به والذين تأثرت بأصالتهم ، وابعدوا عن السلطة التي انتقلت الى قبضة المتملقين الأذلاء

الفصل الخامس
القوة الآلية (الميكانيكية)

ظهرت احتمالات ملائمة لقبول أي تغيير عندما تم تعيين السيد جورج ميلن في وزارة الحرب بتاريخ ١٩ شباط (فبراير) ١٩٢٦ ، مع وجود فوللر الى جانبه واستعداد هيئة الأركان الجديدة لكل اقتراح ولكنني كنت أشعر ببعض من القلق بعد حديث طويل مع السير ميلن وذلك قبل تعيينه بمدة أربعة ايام فقط . وكان السير ميلن قد بدأ حديثه بالتعبير عن موافقته الحازمة لانتقاداتي وللنتائج التي استخلصتها من مقولتي التي كانت بعنوان (مناورات الجيش لعام ١٩٢٥) وهي مقولة كتبتها لعدد شهر شباط (فبراير) من مجلة الجيش الفصلية ثم تابع حديثه بشأن التطوير المقبل للجيش ، وكنت أشعر بالحبور والبهجة وأنا أجد بانه لم يتراجع عن وجهات نظره السابقة والتي عبر عنها في احاديثنا خلال الصيف السابق ولكن كان واضحاً من خلال بعض عباراته انه جوبه بردود فعل مؤثره خلال مناقشته للتغيرات التي يعتزم الاضطلاع بها ، والخطوات التي يريد اتخاذها في اتجاه التحول الآلي (الميكانيكي) للجيش ، وكان سبب تأثيره ان ردود الفعل هذه جاءت من عدد من رفاقه القادة (الجنرالات) وكان من الواضح ايضاً انه كان يعاني بعضاً من القلق بسبب عدم خبرته الكافية بشؤون وزارة الحرب الداخلية وفي تلك الأمسية كتبت في مفكرتي اليومية الملاحظة التالية (تكون لدي انطباع بأنه يخشى قليلاً جهاز وزارة الدفاع ولو أنه على ثقة تامه مما يريده)

بدأ السير جورج ميلن باتخاذ خط قوي منذ وصوله الى وزارة الدفاع وكأنه يريد

ارهاب المعارضة . وقد سمعت من فوللر ، ومن آخرين أيضاً بأنه استطاع احداث صدمة مثيرة منذ الأيام الأولى لوجوده في وزارة الدفاع ، بسبب توبيخه لمدير العمليات العسكرية والاستخبارات وهو اللواء السير جون بودنيت ـ ستيوارت ، والذي كان يمارس قدراً كبيرا من حرية العمل أثناء وجود اللورد كافان (سلف ميلن) ، وكان ستيوارت قد استخدم على سبيل (المزاح) عبارة (ان وجهة نظر هيئة الاركان العامة هي ـ) فما كان من ميلن إلا أن أعاده الى موقعه الصحيح كضابط تابع له ، وهو يقول له بلهجة مدمرة (ومن هي هيئة الأركان العامة ؟ إنني أنا رئيس هيئة الأركان العامة !)

لم تمض سوى أيام قليلة ، حتى تلقى ميلن ذاته صدمة قويةقذفت به الى خارج كفة الميزان . وقد جاءت هذه الصدمة في اطار مذكرة موجهة اليه من القائد العام السير ولتر ـ كامبل ، عبر فيها عن معارضته له في عبارة انداريه مفتوحة وهي (انك كعضو في الهيئة الاستشارية ـ) وهي اشارة ضمنية الى أن رئيس هيئة الأركان ـ ميلن ـ ليس اكثر من العضو العسكري الأول في الهيئة الاستشارية ، وان هناك أعضاء آخرون يشاركونه في سلطته ، كما انه لا يستطيع امتطاء صهوة سلطة القائد الأعلى للجيش في النظام القديم . ولقد سبب هذا التحدي صدمة قوية لميلن تجاوزت في تأثيرها السيء كل ما كان يتوقعه فوللر وما كنت اتوقعه أنا أيضاً . وقد تحدثت اليه بعد ذلك مباشرة ، ونقل الي أنه يشعر بأن عليه قبل البدء بأي برنامج لتحويل الجيش الى جيش آلي حديث (ميكانيكي) ، أن يضمن تأييد الأعضاء الثلاثة العسكريين الآخرين في الهيئة الاستشارية للجيش ، وأن يقنعهم بوجهة نظره ويحملهم على تنفيذها . وكان باستطاعته الاعتماد على دعم أمين سر الدولة لتنفيذ توصياته في انتقاء الاعضاء الثلاثة ، إلا أن الأعضاء الموجودين كان قد بقي لهم اكثر من سنة حتى تمضي مدةالأربعةأعوام المقرره في بقائهم بمراكزهم الثابته ، ويصبح بعدها باستطاعته املاء شواغرهم وهم المساعد العام لرئيس هيئة الاركان ورئيس الامداد والتموين ، ورئيس فرع المدفعية بالاضافة الى مركزه .

كانت العقبة الثانية تكمن في قصور ميلن عن مناقشة القضية التي يقتنع بها تماماً ، وعجزه عن الدفاع عنها . فلقد طرح عروضه لتحويل الجيش الى جيش آلي (ميكانيكي) ، ودفع قضية تنظيم القوات المدرعة . ثم ظهرت العقبة التي يعود سببها الى أن ميلن قد تحول حديثاً لاعتناق المفهوم الجديد الذي استثارة واجتذب تفكيره بصورة تدريجية . ولكنه لم يكن قد فكر في موضوعه بصورة مناسبة . وعلى هذا فقد كان بالمستطاع قذفه بسهولة الى خارج كفة الميزان عند مجابهته باعتراضات لا يستطيع الرد

عليها ، لا سيما عند مناقشته القضية بالتفصيل وهو بعيد عن مصادر الدعم التي كانت تقوم بتلقينه ما يجب قوله وعمله . وكان رد فعله أمام مثل هذا الفشل ، اللجوء الى الانسحاب ، أو التقوقع كالقنفذ . ويعود هذا السلوك الى عادة مألوفة لاولئك الرجال من انصار المدرسة الجديدة والذين كانوا يعملون مع ميلن ويحاولون اثارة الجانب التقدمي فيه ، إلا أن محاولاتهم كانت تصاب بالاحباط بسبب عادة (ميلن) الجديدة .

برزت انتكاسة (ميلن) بشكلها المميز والمزعج في خريف تلك السنة . إذ كان سير داوود كامبل قد أصبح الأمين العام في الأمانة العامة للدولة لشؤون الحرب وذلك في نفس اليوم الذي أصبح فيه ميلن رئيساً عاماً لهيئة الاركان . وبدأ سير داوود كامبل على الفور في استثمار نظام الترفيعات الموجود بطريقة اكثر فاعلية واكثر شمولاً وبمهارة تزيد على جميع المحاولات التي بذلت لاستثمار هذا النظام طوال السنين الماضية (وذلك بهدف اعطاء الأفضلية في الترفيعات لأصحاب الكفاءة أكثر من مجرد اعطائها بحسب الأقدمية) . فعمل على التعجيل في ترفيع الضباط الشباب البارزين عن طريق الترفيعات المتسارعة . ونقلهم الى كتائب اخرى عندما لا تكون كتائبهم قادرة على استيعابهم . ولم تمض سوى أشهر قليلة حتى استطاع كامبل اصلاح نظام الترفيعات ومهد لمخطط جديد . وكان (كامبل) قد مارس طريقته الجريئة في معالجة المشكلة بعمق مثير منذ بدأ نشاطاته الرائدة في قيادة فرقة في الهند ، كما سبق ذكر ذلك ، وبناء على توصية ميلن فقد تم انتقاؤه ليخلف شيتوود كقائد أعلى لقيادة آلدرشوت .

تميزت خطوات كامبل الأولى عندما تم ابلاغه بتعيينه في مركزه الجديد ، باستطلاع وجهات النظر ، وطرح رأيه بشأن القيمة الحقيقية للاسلحة المختلفة وتقديمها الى (ميلن) بهدف الحصول على وجهة واضحة بشأن سياسة تطور الجيش . وقدأعطاني مسودة مشروعه لدراستها والتعليق عليها قبل ارسالها .

وكانت مذكرته تبدأ بتقرير المعطيات التالية (لقد أوضحت الحرب العظمى بجلاء تام ان دور الفرسان ، حتى عندما لا يكون متعارضاً مع دور الدبابات ، قد تغير بصورة أساسية ، بحيث ان فائدتها قد تناقصت وتلاشت) . ولم يكن هناك بين رجال الفرسان ، خلال تلك الفترة قد وصل الى هذا البعد في طرح وجهة نظره على نحو ما فعله كامبل هنا . ثم عاد الى ما كانت تطلق عليه العقيدة القتالية بصورة رسمية اسم (السلاح الحاسم) أو (ملكة أرض المعركة) فصرح بقوله (يخيل لي بأن تلك المشاة التي يجب عليها تنفيذ واجباتها سيراً على الأقدام ، لن تتمكن من التأثير بصورة حاسمة في عمليات الحرب الأوروبية المقبلة ـ وستكون اكثر المعارك الحاسمة على ما يظهر لي ، تلك المعارك التي

ستدور رحاها بين الدبابات لكل طرف من الأطراف المتصارعة ، وستتم هذا المعارك عندما تكون المشاة لا تزال بعيدة كل البعد عن مسرح عمليات القتال . وان عدم زيادة حجم قواتنا المدرعة من اجل المحافظة على المشاة هو في رأيي سياسة انتحارية).وكانت هذه النبوءة الصحيحة صورة لما حدث في ايار (مايو) ١٩٤٠ .

كان من المتوقع أن يرحب (ميلن) بمثل هذا البيان التقدمي في وجهات نظره ،.لا سيا وأنه صادر عن رجل يحتمل له تسلم مركز القائد الأول للجيش الانكليزي في انكلترا ، وهذا ما سيدعم سلطته في الهيئة الاستشارية للجيش عند نقاش السياسة التي يريد تبنيها . ولكن جاء تعليق ميلن (على مذكره داوود كامبل المرعبة) محبطاً للعزيمة وموهناً لها ، وتضمن ملاحظة (سر على مهل) . وكان ذلك مباغتاً لي . وفي نهاية شهر ايلول (سبتمبر) نشرت مقولتين في صحيفة (الديلي تليغراف) تحت عنوان (اعادة تنظيم الجيوش الحديثة) وعالجت فيهما بالتفصيل الجمود في الحركة والمعدات البالية في الجيش وكذلك السبيل لعلاجها .

وكان مضمون المقولتين هو الحافز الذي دفع كامبل لكتابة مذكرته . ولكن (ميلن) أرسل لي رسالة ضمنها تعليقه حول المقولتين وفيها (كانت المقولتان على جانب كبير من الفائدة ، ولكن لا تشدد على هذا الموضوع كثيراً ، ذلك لأنني أخشى قليلاً في أن يتحول العلاج الى جرثوم الحمى القاتلة) وكان هذا الرأي اكثر اعتدالاً مما كان عليه رأي ميلن في السنة السابقة .

كاد رد فعل ميلن اكثر من مربك واكثر من محير ، لا سيا وقد جاء رد الفعل هذا في نفس الوقت الذي كان يعمل فيه على تنظيم عرض للوسائط الجديدة في الجيش ، مع استعراض للتكتيكات الجديدة أمام رئيس مجلس الوزراء ووزراء ما وراء البحار ممن سيحضرون المؤتمر الامبريالي في فصل الخريف .

تقرر اقامة هذا العرض في كامبرلي بتاريخ ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٦ . وأمكن له تقديم لوحة مذهلة للأعمال القتالية الآلية (الميكانيكية) في الحروب المقبلة . فقد تم حشد كل نوع متوفر من نماذج العربات الآلية واظهارها في الاستعراض (بما في ذلك الدبابة الجديدة ـ اينداباندت) والتي بقيت حتى هذا الاستعراض محاطة بنطاق محكم من السرية ، وكان وزنها ٣٠ طناً ، إلا أنها كانت أسرع من دبابة الفيكرز ١٢ طناً . وقد اشتق اسم الدبابة ايندابانت (او المستقلة) من الهدف الأساسي الذي تم تصميم الدبابة بموجبه لتكون اساس القوة المدرعة المكلفة بتنفيذ واجبات الهجمات الاستراتيجية (بصورة

مستقلة) وبمعزل عن كتلة الجيش ، عوضاً عن تقييد حرية عمل هذه الدبابات بحركة فرق المشاة البطيئة . وتصادف ان تم تنفيذ العرض في يوم كانت فيه الأمطار غزيرة التي حولت ارض المنطقة الى محيط من الوحل ، وقد ساعد ذلك - على الأقل - في اظهار امكانات الدبابات التي تسير على السلاسل ، وقدرتها على العمل في مثل هذه الظروف . وانتهى العرض بتنفيذ بيان عملي لمعركة المستقبل على نطاق محدود وفي اطار مساحة أرضية ضيقة وذلك حتى يستطيع الوزراء المشاهدين للبيان متابعة التنفيذ عن قرب ، ومراقبة الطريقة المزدوجة في عمل طرفي القوات للوصول الى الهدف . وقد تقدمت دبابات الاستطلاع القليلة بمهمة قيادة عملية الهجوم ، ثم قامت الدبابات الثقيلة بتنفيذ الهجوم تحت حماية نيران المدافع ذاتية الحركة ، في حين كانت الطائرات تنقض من بين الغيوم لتعمل على تدمير القوات في المواقع الدفاعية ، أما المدافع الرشاشة للمشاة فكانت محمولة في العربات المدرعة وهي تتبع عن قرب الدبابات المتقدمة بمهمة الاستيلاء على الأرض المحتلة . وهكذا ضمت هذه المعركة - المصغرة جميع العناصر التكتيكية لتقنية الحرب الصاعقة - ولو أنها لم تكن استراتيجية - وهي العملية التي قام الألمان بتنفيذها بعد ذلك بمدة ١٣ عاماً من أجل تمزيق المواقع الدفاعية في بولونيا ثم في فرنسا بعد ذلك .

كان المسؤول عن المشروع - التدريبي قد استهل التظاهرة بملاحظة قوية طرحها على رجال الدولة المجتمعين وقال لهم : (انني أترك لخيالكم تصور ما تستطيعه قوة كبرى من هذه الآليات ، وما تحققه من منجزات) وكان واضحاً من تعليقاتهم عند انتهاء المشروع للمعركة - المصغره ، وأن هذا المشروع قد طبع في ذاكرتهم وفرض نفسه على تفكيرهم . ولسوء الحظ فان رئيس المستشارين العسكريين لم يفعل الكثير خلال السنوات التالية لتجسيد هذا الانطباع وتضخيمه في اذهانهم .

وقد برهن هذا التراجع المستمر عن الفكرة جميع خصائص الطريقة التي يتم لإزالة الانطباع الاولي عن طريق خلق العوائق المتتالية والمتصلة .

لم يكن فوللر بين حضور هذا العرض ، إذ كان ميلن قد بعث به الى الهند لمعالجة الموقف العسكري هناك ، ولشرح السياسة الجديدة للسلطات المسؤولة في الهند واقناعها ، اذا كان ذلك ممكناً ، بوجهات نظره .

قام فوللر بجولة على الحدود الهندية ، وتأكدت له صحة وجهة نظره السابقة بان الدبابات تستطيع العمل في القسم الاكبر من تلك المنطقة ، وأنها ستزيد الى حد بعيد من قدرة القوات هناك ، سواء من أجل الدفاع او للتقدم عبر اراضي أفغانستان اذا ما تطلب

•الموقف ذلك . ولدى عودة فوللر الى لندن ـ في الاسبوع ما قبل عطلة عيد الميلاد ، كتب تقريراً أوضح فيه بأن الدبابات الخفيفة ستكون اكثر ملاءمة لعمليات ذلك الاقليم من الدبابات المتوسطة ، وان تبني مثل هذه الدبابات الرخيصة الثمن نسبياً سيساعد في التغلب على مقاومة السلطات الهندية لتحويل الجيش الى جيش حديث بسبب النفقات الباهظة لهذا التحويل . وكانت اعادة تنظيم الجيش في الهند ، لتكوين جيش حديث ضرورة عاجلة نظراً لأن القوات الموجودة هناك مجهزة بالتجهيزات القديمة جداً بحيث لم تعد هذه القوات قادرة على الاضطلاع حتى بدورها لحماية الحدود ، علاوة على ما قد تفرضه عليها الظروف لدعم القوات في الدفاع عن الامبراطورية وذلك في حال حرب كبيرة من جديد .

لقد كان ذلك يتطلب اجراءات واضحة وقيادة قوية من قبل هيئة الأركان العامة . ولكن وعلى الرغم من اهتمام (ميلن) بخلفيات جيش الهند الأمر الذي حمله على ارسال ميلن بصورة عاجلة الى هناك ، كمبعوث خاص من قبله ، إلا أنه لم يتخذ أي اجراء بعد وصول تقرير ميلن اليه ، على الرغم من أن هذا التقرير كان يوضح يقيناً ظنونه وتقديراته للموقف . ولقد كانت هذه النتيجة السلبية من الظواهر المميزه لما أطلقه فوللر بصورة صحيحة عن سلوك ميلن بقوله (لقد بدأ ـ ميلن ـ عمله بصورة جريئه ، وانتهى الى الحذر) واضاف عبارة ساخرة وهي (هل باستطاعة الانسان ان ينقلب عقلياً ، رأساً على عقب ؟ ذلك هو ما فعله رئيس هيئة الأركان العامة) .

لم تجر بعد ذلك أي محاولة لاعادة تنظيم الجيش في الهند حتى مضت فترة أحد عشر عاماً . فقد أصبح هور ـ بيليشا . أمين سر الدولة لشؤ ون الحرب في عام ١٩٣٧ ، فأخذ على عاتقه مسؤ ولية هذه القضية ، وضمن لنفسه دعم رئيس مجلس الوزراء من أجل بذل جهد حقيقي في مجال تحويل الجيش في الهند الى جيش حديث وجعله قادراً على الاضطلاع بدوره الكبير للدفاع عن الامبراطورية .

اذا كانت زيارة فوللر للجيش الهندي لم تكن مثمرة إلا قليلاً ، فان غيابه عن وزارة الحرب كان اكثر اتلافاً للأمل المتوقع في التطوير هناك ، لا سيما وان ذلك قد توافق مع البدايات المبكرة لتنظيم القوة الآلية (الميكانيكية) التجريبية . وكان ميلن قد أظهر استعداده لقبول هذه الفكرة خلال حديثي معه في آرونديل خلال شهر آب (أغسطس) من السنة السابقة (١٩٢٥) وقد أصبح قبوله هذا معروفاً للجميع منذ دخوله وزارة الحرب مباشرة وذلك عندما أعلن أمين سر الدولة في آذار (مارس) ١٩٢٦ عن ادخال تقييم جديد

في الجيش ، من أجل تكوين مثل هذه القوة . في أيار (مايو) علمت من فوللر بأن ميلن كان قد طلب اليه جمع وجهات النظر بشأن تكوين هذه القوة ، ووضع لائحة بالوحدات المتوفرة . ثم نقلت القضية الى مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش ، لوضع الترتيبات التفصيلية مع الفروع الأخرى ذات العلاقة ، ثم اعيدت الى مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش لتغوص بين ملفاته ومحفوظاته وذلك حتى قبل أن يتم ارسال فوللر الى الهند .

على الرغم من تصريح قائد الفرقة الثالثة - جوك ستيوارت - في تموز (أغسطس) بان القوة المدرعة - التجريبية - وكذلك اجراء التمارين والتجارب ستكون تحت قيادته . الا أنه لم يقدم بيانات واضحة عن شكل هذه القوة أو هدفها ، مما حمله على التوجه الى مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش للاستعلام عما اذا كان رئيس هيئة الأركان يعتزم تكوين قوة آلية (ميكانيكية) بكاملها ، أو اذا ما كانوا قد استمروا على تفكيرهم باصطلاح (رتل السيارات الكبيرة - الباصات) مع بعض الدبابات والجرارات التي تقطر المدافع المخصصة للعمل مع القوة . وكان الجيش الافرنسي يعمل على تجربة قوة من هذا النوع أطلق عليها اسم (الفرقة الخفيفة) . وأنهى جوك ستيوارت رسالته بقوله (وأخيراً ، ما هي المساعدات التي ستقدم لي من أجل تنظيم القوة التجريبية ، والانطلاق بها وقيادتها ؟ ذلك انه لا فائدة من مجرد تسليم مثل هذه القوة الى قائد فرقة عادي مثلي .

ان عليكم الاتصال مباشرة مع هذه القوة ، وكذلك مع الكثيرين من المتحمسين الخبراء والمنظرين بقدر ما تستطيعون ، وليست القضية هي قضية تطرف في وجهات النظر بقدر ما هي الرغبة لدى هؤلاء للاقتراب من النيران الإلهية . انني اطالب بالشعور المشترك للقرون الوسطى السالفة) .ولقد كان لهذا الاقتراح تأثيره على قرار ميلن بتعيين فوللر لقيادة القوة التجريبية الجديدة ، نظراً لما يتوفر لدى فوللر (من اقتراب من النيران الالهية) في حين يبتعد ميلن بنفسه عن حرارة هذه النيران . وهكذا فبمجرد عودة فوللر من الهند ، أبلغه ميلن بتعيينه وباختياره لاشغال المنصب الجديد .

أصيب فوللر بالفزع عندما وجد بأن القوة غير جديدة تماماً كما كان يفترض . ذلك ان النقاش الأخير بين مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش من جهة وبين مدير الفرع المالي من جهة اخرى انتهى الى تفاهم بينهما على تعديل تكوين القوة بصورة اساسية ، ونتج ان ذلك تعديل في مفهوم القوة ذاتها . وكانت الرسالة الرسمية التي تلقاها فوللر عشية عيد الميلاد تنص على تعيينه لقيادة لواء المشاة السابع في تيدوورث ، وعندما استعلم عما تعنيه ، أخبروه بان القوة الآلية (الميكانيكية) هي مجرد تشكيل مؤقت للاختبار والتجربة ، وان

.تعيينه لقيادتها يجب أن يكون مرتبطاً بتشكيل دائم ومركز ثابت . ولكن هذا كان يتطلب منه الابتعاد عن تفكيره مع تخصيص وقته لواجبات قيادة اللواء وحامية تيدوورث مع ما يتبع هذا العمل من متابعة جميع تفاصيل الشؤ ون الادارية ، وذلك عوضاً عن توفير قدرته للتركيز على قضية التجارب الهامة ذات الأفضلية الحيوية . ولقد قابلت فوللر مع بداية السنة الجديدة (لعام ١٩٢٧) فأعلمني عن موقفه المضطرب ، وانه سيحاول الحصول على بديل عنه لقيادة الحامية ، ولكن انقضى اسبوع في أثر اسبوع وكلها كانت مشحونة بالأسى نتيجة لعدم حدوث أي تبديل .

رأيت فوللر في وزارة الحرب يوم ٧ شباط (فبراير) ١٩٢٧ ، وأعلمني انه قدم على التومن تيدوورث لاستطلاع الموقف النهائي في القيادة ، حيث انه لم يشهد هناك ولو دليلاً واحداً يشير الى اتخاذ اجراءات لتشكيل الوحدات الآلية (الميكانيكية) المختلفة داخل القوة التي يقودها ، وانه أفهم بطريقة غير مباشرة بأنه سيتم تعيينه في هذه القوة من أجل التجربة فقط وذلك عندما يرى قائد الفرقة ان هذه القوة ستصبح ملائمة . وعلى هذا قابل ميلن في يوم ٨ ، وتحدث اليه عن امكانات تنظيم القوة الآلية (الميكانيكية) بصورة منفصلة في تلك السنة ، وطلب دعمه على الأقل بنقيب يعمل في هيئة أركانه مع كاتب اختزال ليمارس الامور الكتابية ، والسماح له بتسليم ادارة الامور الروتينية العادية في قيادة اللواء لقائد منتخب يتم تعيينه ، وكذلك الأمر بالنسبة لقيادة الحامية (الموقع) . ولكن ميلن كان سيء المزاج في ذلك اليوم ، فاجابه بجفاء واقتضاب (لا تكن ثقيلاً) . وأصبح كل ما يستطيع عمله فوللر بعد ذلك تقديم مذكرة باقتراحاته الى ميلن ـ لمطالعتها في الوقت المناسب.ومرت ايام متتالية دون ان يذكر ميلن شيئاً عن القضية ، وعلى هذا طلب فوللر الى ميلن بعد اسبوع رأيه في المذكرة ، ولم يحصل بالكاد على اكثر من جواب مقتضب (وهو انه لم يجد وقتاً لمطالعتها) وكانت طريقته غريبة جداً في معالجة مثل هذه القضية الهامة والعاجلة .

قرر فوللر عندها الكتابة بصفة شخصية الى جوك ستيوارت ، كملجأ أخير ، على أمل الحصول على مساعدته لاتخاذ تدابير عملية . ولكن جوك ستيوارت ، الذي كان قادراً على ممارسة تأثير سريع جداً ، أساء فهم رغبة فوللر في اعفائه من الاضطلاع بالامور الرتيبة (الروتينية) ، واعتقد ان فوللر اراد ذلك للابتعاد عن سيطرته والتحرر من رقابته له . وأجابه بلهجة قاسية بانه يعتبر ان الواجب الأول لفوللر هو العمل كواحد من قادة ألويته المشاة . وان العمل في التجارب الآلية (الميكانيكية) انما هو واجب اضافي لا يصل الى مستوى اجراء تنظيم جذري لقوة آلية من نوع جديد .

لقد نسي جوك ستيورات وهو يكتب رسالته التي عبر بعد ذلك عن أسفه لما جاء فيها ، ما كانت عليه لهجته يوم كتب رسالته الى مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش في شهر آب (اغسطس) السابق . فكان صده المتسرع في تلك اللحظة القاسية بمثابة اخماد لجذوة (النيران الإلهية) . وقد وجد بالنتيجة انه قام بعمل لا سبيل لاصلاحه .

تحدثت هاتفيا بعد ذلك بيومين مع فوللر وأعلمني عن (الحمام البارد ـ الدوش) الذي تلقاه من جوك ستيورات وقال لي بانه يشعر في أن الأمل الوحيد المتبقي له هو في ارسال (تحذير نهائي) الى ميلن .

أصابني الذهول نظراً لمعرفتي بالموقف ، فقد صدرت التقديرات الجديدة للجيش بتاريخ ٣ آذار (مارس) ١٩٢٧ ، مع مذكرة من أمين سر الدولة تتضمن ما يلي (تتخذ التدابير لجمع القوة الآلية ـ الميكانيكية ـ التجريبية ـ في سهول منطقة ساليسبوري على ان تتكون هذه القوة بكاملها من وحدات آلية ـ يكون الهدف الأول من عملها دراسة الاستخدام التعبوي التكتيكي ـ والتنظيم لقوة من طبيعتها العمل وهي على درجة عالية من المرونة وسرعة التحرك).

كرر امين سر الدولة ما تضمنه تقريره امام البرلمان بتاريخ ٧ آذار وكان مما جاء في تقريره (وستوضع هذه القوة تحت قيادة قائد عمل على اجراء دراسة خاصة لقتال الوحدات الآلية ـ الميكانيكية) وكانت فقرات هذا البيان تتناقض بوضوح مع الحقائق وتبتعد إلى حد كبير عن واقع الموقف .

بعد ظهور الموضوع للمرة الاولى في الصحافة طلب فوللر من ميلن مرة اخرى وهي المرة الثالثة ـ ما اذا كان قد أخذ بالاعتبار ما تضمنته مذكرته السابقة ولكنه لم يتلق اي رد مناسب . وشعر فوللر بأن بذلك المزيد من الجهد سيكون عديم الفائدة . فرجع إلى مكتبه الخاص ، والمجاور لمكتب ميلن وكتب استقالته طالباً احالته على التقاعد من الجيش وليس مجرد تبديل تعيينه من مركزه الجديد.وقد سببت استقالته صدمة كبيرة ذلك لأن الاستقالة عى أساس المبدأ كانت من الامور النادرة كما نشأ عنها موقف اكثر تعقيدا بالنسبة لمقاومي التقدم وذلك لأنه لم يعد باستطاعة هؤلاء وصف رفضه على انه بسبب تعيينه في مركز أقل من مركزه أو لأسباب تافهة كما أن أكثر الطموحين من الرجال كانوا اكثر رغبة في ابتلاع شكوكهم عوضاً عن التضحية بحرفتهم لقاء هذه الشكوك .

علم داوود كامبل بالقرار الذي اتخذه فوللر وذلك مع مغادرته لوزارة الدفاع من أجل تسلم قيادة الدرشوت بعد ان تم تعيينه لهذا المركز الجديد ، واصيب كامبل (بالفزع

المطلق) فاتصل على الفور بفوللر وطلب إليه سحب طلب استقالته وذلك لسببين (فالاستقالة تعتبر خسارة للجيش لا يمكن تعويضها وهي ستلحق قدراً كبيراً من الضرر لهيئة الاركان العامة في وسط الضباط الشبان وستؤ ذي المدرسة التقدمية في الجيش وفي الوقت ذاته فقد أظهر تجاوبه مع فوللر ومشاركته له في عدم توفر الارادة لقيادة تجارب ذات أبعاد كبيرة في أهميتها ، لا سيما مع وجود مثل هذا الاساس من الشكوك والمضامين المرضية والضعيفة) . وعلاوة على ذلك فقد اعتبر (ميلن) بأن كتاب الاستقالة بمثابة (مسدس موجه إلى رأسه) وبذلك استطاع كامبل اقناع فوللر بسحب استقالته مع الموافقة على قبول رفضه لقيادة لواء المشاة السابع . واستجاب فوللر لهذا الطلب ، بعد أن تلقى تأكيداً شخصيا من ميلن ، بانه لا يزال يعتزم متابعة سياسة تحويل الجيش الى جيش حديث .

عند وصول فوللر مرة واحدة إلى ابعد ما يمكن الوصول اليه في تقديم استقالة من الجيش فقد يكون من الخطأ سحب هذه الاستقالة ذلك لأنها أضعفت تأثير الموقف دون الحصول على ضمان قوي للمستقبل وهو أمر يكاد يكون من الصعب توقعه في مثل تلك الظروف ولكن سحب الاستقالة قد ترك من ناحية أخرى أثرا أعمق من الاستقالة ذاتها إذ دحض مزاعم (عدم الولاء) و (الطموح الذاتي) كحجج كان يستخدمها الخصوم وغيرهم ممن ينتقصون من قدر فوللر ويستخدمون هذه الحجج ضده ورغم ذلك وكما يحدث بصورة عامة فان هذه الافواه لم تصمت لفترة طويلة .

كان هناك مجال لاصلاح الاضطراب لو كان هناك مزيد من الشهامة في قبول ميلن لتسوية الخلاف ودياً ، والمحافظة على خدمات فوللر للقيام بالتجارب العظيمة وفي الوقت ذاته تشكيل القوة التجريبية على قاعدة سليمة وكان مثل هذا الأمل هو الذي استثار داوود كامبل ودفعه لبذل وساطته والتدخل بالصلح . ولكن ورغم النجاح في استعادة الفرصة المناسبة إلا انه لم يتم الامساك بها ، فقد تم املاء الشاغر بنقل أحد قادة ألوية المشاة من الفرقة الثالثة (جاك كولنز) إلى تيدوورت . وكان جاك كولينز مدرباً خبيراً للمشاة ، إلا أنه كان يفتقر للخبرة في مجال عمل الوحدات الآلية (الميكانيكية) . وزيادة على ذلك فقد تم تعيين خلف يحتل مكان فوللر كمعاون عسكري لرئيس هيئة الاركان وتمت تسميته بحيث يباشر عمله في اليوم الأول من أيار (مايو) كما ان هذا المركز ذاته تضاءل بصورة واضحة حيث تم تعيين أصغر رتبة عسكرية فيه . وبذلك ترك فوللر (معلقاً في الهواء) . ولم يصدر أمر بتعيينه لمركز تبادلي حتى تدخل السير ادموند آيرونسايد رئيسه السابق في كلية هيئة الاركان والذي أصبح حاليا قائداً للفرقة الثانية في آلدرشوت ، فطلب تعيين فوللر ليكون رئيسا لهيئة اركان الفرقة الثانية . وكان أسوأ ما في الأمر أنه لم يمنح بعد ذلك

الفرصة أبداً لقيادة وحدات آلية (ميكانيكية) حتى يستطيع وضع أفكاره موضع التطبيق والممارسة العملية .

مضت فترة تزيد على ستة أسابيع على استقالة فوللر قبل أن تعلن وزارة الحرب بايجاز في يوم ٢١ نيسان (أبريل) عن نقل العقيد ر. جاك كولينز من قيادة لواء المشاة التاسع لقيادة المشاة السابع . وتوقف فوللر عن اعلامي بشأن عزله لمدة اسابيع على امل ان يفي ميلن بوعوده التي قطعها على نفسه وحتى عندما اعلمني فوللر عن القضية في الأول من نيسان (ابريل) فانني امتنعت عن التعليق عليها وطرحها على الجماهير ، واستمر ذلك إلى أن جاء اعلان وزارة الدفاع فقضى على كل امل في اتخاذ اي اجراء مناسب لرفع القيود المفروضة أو لانشاء قوة خاصة وبقيت الوسيلة الوحيدة المتوفرة هي ممارسة ضغط من خارج وزارة الدفاع لا سيما وأن اعلانها يضمن في وقت واحد الفرصة المناسبة وحرية العمل لتقييم القضية عن طريق معالجة الجماهير لها . وعلى هذا فقد كتبت مقولة بشأنها لنشرها في عدد اليوم التالي على صفحات (الديلي تليغراف) تحت عنوان (سر الجيش ـ هل هناك قوة آلية ـ ميكانيكية) . تسبب نشر المقولة بظهور موجة صدمت وزارة الدفاع وحملت أمين سر الدولة على اجراء تحقيق بشأن القضية وقام هو نفسه بهذا التحقيق وعلمت من مصادر مختلفة بانه اعلم مستشاريه الرسميين وهو ساخط في انهم خدعوه لتضليل البرلمان والرأي العام حتى أصبح يعتقد هو شخصيا ،والاقليم بكامله ان هناك قوة تجريبية مكونة بصورة سليمة لا مجرد لواء مشاة مع بعض الوحدات الآلية ـ الميكانيكية ـ التي يتم الحاقها عليه في المناسبات .اما ميلن فقد دافع عن نفسه باتهام جوك ستيوارت وحمله اعباء الفشل في الوصول الى تدابير ملائمة مع فوللر لوضع هذه القوة موضع التطبيق العملي .وعندما قابلت ستيوارت بعدها عبر عن استيائه ولكن بلهجة الود والصداقة لانني دفعت به إلى (حمام ساخن جداً) ثم أخذ في اعلامي بأنه استدعي إلى لندن لتلقي (لعنات) هيئة الاركان العامة وأمين سر الدولة ايضاً لاشتراكه في التقصير بهذه القضية .وكان موقف ستيورات من هذا التعنيف المزدوج والقاسي موقفاً متميزا بحيث أعتبر القضية ليست اكثر من مجرد مهزلة مضحكة ولم يظهر أقل غيظ من عملي لا في تلك الفترة ولا في الفترات التالية لها . وزيادة على ذلك فقد اعترف صراحة بانه كان على خطأ وهذا ما دفعه الى الكتابة وارسال رسالة لفوللر يقول له فيها بانه (يشعر بالأسى العميق) لهذه النتيجة وقليل هم الجنود الذين حملوا الانتقاد على مثل هذا المحمل الحسن وفق ما عرفته خلال خبرتي الطويلة .لقد دعمت الصدمة التي سببتها مقولتي عندما التقطت مجلة (ويستمينستر) القضية وعملت على نشر مقولة مشابهة لمقولتي وذلك يوم ٢٦ ، وعلى الرغم من أن مقولة هذه المجلة لم تأت بجديد باستثناء

تعديل العنوان وجعله اكثر اثارة واكبر حجما فكان (سر الجيش الآلي - الميكانيكي) وأرسلت هذه المجلة عربة خاصة مع زمرة من الموزعين لبيع النسخ على باب وزارة الدفاع. أصدرت وزارة الحرب في اليوم التالي بياناً وزعته على الصحافة لنشره في يوم ٧٨ . وتضمن هذا البيان : (تقرر بصورة رسمية جمع قوة تجريبية تتكون من وحدات آلية- ميكانيكية بكاملها ، وحشدها في تيدوورث بهدف الاكتشاف من خلال الممارسة العملية والتجربة - ما سيكون عليه تأثير التحول الآلي - الميكانيكي - من نتائج على التنظيم والاستخدام التعبوي التكتيكي - للوحدات ذات القدرة الحركية العالية . وستشمل هذه القوة التجريبية ما يلي :

- فوج دبابات

- سرية عربات مدرعة

لواء مدفعية ميدان - من المدفعية الملكية

بطارية مدفعية مضادة للمدرعات - من المدفعية الملكية

سرية هندسة ميدان - من المهندسين الملكيين

وحدة اشارة - مخابرات -

- فوج مشاة ،يعاد تجهيزه بفوج مدافع - رشاشة مع ٣٦ مدفع رشاش .

نشرت صحيفة الديلي تليغراف بيان وزارة الدفاع مع تعليق اضافي كتبته وفيه : (ان بيان وزارة الدفاع هو مجرد اعادة لبيان امين سر الدولة الأساسي بتاريخ ٣ آذار (مارس) مع اختلاف دقيق في صياغة البيان .

فبينما كان البيان القديم ينص على « قوة آلية تجريبية تتكون من وحدات ميكانيكية بكاملها » جاء البيان الجديد ليقول « قوة تجريبية من وحدات ميكانيكية بكاملها » . فاذا لم يكن هناك سوء نية في هذا التغير الخفيف ، لصياغة الجملة بحيث تعتبر انها تغيير غير مقصود ، فانه بالامكان اعتبار البيان بمثابة التزام من جانب وزارة الدفاع بتنظيم تشكيل جديد من قوة آلية - ميكانيكية - بكاملها ، وليس مجرد سحب عدد من الوحدات الآلية والحاقها بلواء للمشاة ، ذلك لأن هذه الطريقة بدهياً لا تساعد على اتخاذ اجراءات عملية مناسبة ، علاوة على انها ستكون مفككه وغير متلاحمة ، وهي ايضاً غير عملية من ناحية القيادة أو من ناحية التجارب .

انا سنستمر في متابعة المراقبة باهتمام كبير هذه القوة حتى تبدأ تدريبها ، ومن المتوقع بحسب ما تضمنته مجلة « لندن غازيت » التي اعلنت تعيين العقيد كولن ، ان يكون التعيين الجديد لقيادة لواء المشاة السابع المعلن عنه . كان صباح اليوم التالي هو اليوم الأخير لفوللر ، ولكنه الأول في وزارة الدفاع وقد تلقيت منه رسالة تقديرية ثمينة باسلوب مرح وفيها :

- طالعت صحيفة الديلي تليغراف ، واني اهنئك كلاعب بوكر ، فقد احتفظت بالمسدس المناسب في جيبك (حتى الوقت الملائم) ورفعت اليوم الرهان وبعد مضي ستة اسابيع سيكون باستطاعتك تهديدهم برفع ايديهم فاذا كسبوا الجولة تكون انت الأب لأكبر عملية اعادة تنظيم للجيش منذ الحرب ، واذا خسروا فلديك الفرصة لاظهار خداعهم . واني اطلق على ذلك اسم (علم الصحافة) صدرت النشرة الرسمية في ١٢ أيار (مايو) وفيها تعيين كولين لقيادة القوة الآلية ـ الميكانيكية ـ التجريبية مع قيادة لواء المشاة السابع ، وذلك في أثر تعليقي التالي . وعلى الرغم من بقاء تسمية القائد كولين لممارسة قيادة مزدوجة ، ألا أن انشاء القوة الآلية واعطاءها الأفضلية في القيادة قد أصبح محدداً وواضحاً ، وزيادة على ذلك فقد أعطي القائد من المساعدين للعمل في هيئة الأركان اكثر مما كان فوللر قد طلبه ، كما أن أفواج المشاة من لواء المشاة السابع قد افرزوا للتدريب في ألوية أخرى . وبذلك تكون النتائج جيدة جداً في هذا المضمار ، ولكن الفائدة التي أمكن اكتسابها عن طريق تأخير انشاء القوات الآلية المستقلة للتجربة قد جاءت على حساب خسارة فوللر ، وغياب قيادته عن التجارب والإختبارات .

كان من حسن الحظ تعيين شارل برود في وزارة الحرب في نهاية شهر آذار (مارس) للاضطلاع باعباء قسم الاركان العامة (الفرع رقم ٢) بحيث تتعلق به مباشرة تنظيمات الجيش للحرب . وعلى الرغم من انه لا يستطيع ممارسة اكثر من دور غير مباشر في التأثير على التجارب وقيادتها ، وعلى الرغم ايضاً من عمله تحت اشراف مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش المعروف بضعفه ، إلا أن وجوده في هذا المركز الحساس كان عظيم الفائدة في اعادة التجارب الى مسارها الأصلي كما ارادوا التخلص منها أو العمل على انحرافها ، على نحو ما حدث في مرات عديدة خلال السنوات الأربعة التالية .

وكان علي أيضاً دفع غرامة عن جهودي للوصول الى تشكيل قوة آلية (ميكانيكية) حقيقية ، ولو أن هذه الغرامة كانت دون التضحية التي تحملها فوللر بقدر كبير ، كما أنها لم تسبب لوزارة الحرب من الازعاج أو الأذى بالقدر الذي تصورته السلطات المسؤ وله .

فقد استمر ميلن حتى هذه الأزمة في التحدث الي بصداقة حميمة . وسمح لي بالاستمرار في التحرك بحرية تامة عبر مكاتب وزارة الحرب ، دون أي قيود أو عوائق .

وكنت أعرف ، بسبب ترددي في كثير من الأحيان على وزارة الحرب لزيارة الضباط ممن اعرفهم في مختلف الفروع ، وكذلك لزيارة ميلن في مكتبه الخاص ، ما تسببه الاجراءات من ضياع للوقت في الاستعلامات ، من أجل السماح للزوار بالمرور امام مكتب الدخول الجانبي ، كما كنت أدخل باستمرار من الباب الرئيسي ، وبذلك أصبح رئيس الحرس المشهور - داركي - صديقاً حميماً لي . وكان هذا الامتياز يوفر فرصة للانتقام الأحمق والصبياني في مجال المجابهة للعمل من أجل القوة الآلية .

مررت في اليوم التالي لنشر تعليقي على تقرير وزارة الحرب (في يوم ١٨ نيسان - ابريل) وكان ميلن يلعب البول - مول (لعبة قديمة تدفع فيها كرة خشبية بمضرب خاص بغية إمرارها في حلقة حديدية عند طرف مجاز تجري فيه الكرة) وكتبت في مفكرتي اليومية (كان وجه ميلن متجهماً وهو يرد تحيتي) . وقد ذهبت الى وزارة الحرب بعد ظهر ذلك اليوم ، وقمت بزيارة أصدقائي في عدد من الفروع ، فأخبروني بان مقولتي بشأن الفشل في تكوين القوة الآلية (الميكانيكية) (قد سبب ذعراً في وزارة الحرب ، من أعلى قمة فيها حتى آخر ضابط في وزارة الدفاع) . وتبين لي من خلال الحديث حول الخلفيات ، أنهم ينسبون فشل المشروع الأساسي - في جزء منه - الى القصور الذاتي عند مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش (ارشيبالد كاميرون) أما الجزء الثاني في الفشل فيعود الى الاعمال من قبل معاونه الرئيسي (العقيد و . أو . لوين) . الذي كان يطمح لتسلم قيادة قبل أن يصدر ميلن قراره المباغت بتعيين فوللر . ولم أعد بعدها الى وزارة الحرب قبل مضي اسبوعين وكان ذلك عند عودتي من زيارة لكامبريدج ، حيث توجهت مباشرة ، لتنفيذ موعد سابق ، من اجل التحدث مع أمين السر العسكري (جيرالد بويد) الذي جاء خلفاً لداوود كامبل .

تناولت طعام غذاء ذلك اليوم ، وهو يوم ١٦ أيار (مايو) ، في نادي الجيش والبحرية ومعي برود ، ورجعنا معاً الى وزارة الحرب ، ودخلت كالعادة من الباب الرئيسي ، ولكن خلال صعودي الدرج الى الطابق الأول ، وعند سؤال الحاجب عن (بويد) والطلب اليه باعلام بويد عن وصولي ، قال لي الحاجب (وهل حصلت على اجازة دخول الوزارة يا سيدي ؟) فأجبته بأن هذه الشكليات قد أصبحت مهجورة ، كما كان يعرف هو ذلك ، ولكنه أعلمني بأنه تلقى تعليمات خاصة بأن علي قبل مقابلة أي انسان

في طابقه ، الحصول على تصريح من السيد كيرد ، رئيس قسم الصحافة . ثم عمل ، بموجب التعليمات الصريحة الصادرة اليه ، على مرافقتي الى الطابق الأسفل حيث مكتب كيرد في الطابق الأرضي ، لنجد هناك بان كيرد لم يكن في مكتبه ، وذهب الحاجب لاكتشاف المكان الذي ذهب اليه كيرد ، ومكثت في انتظار عودته ، وهنا تتابعت مجموعة من الحجاب في الظهور على المسرح ، وكل واحد منهم يطرح بدوره السؤال ذاته : (هل حصلت على إجازة دخول الوزارة ـ يا سيدي ؟) وأصبح من الواضح بعد هذه المسرحية المضحكة انهم تلقوا جميعاً انذاراً لاستقبالي . ومرت ربع ساعة تقريباً كان الحجاب خلالها يحومون حولي بطريقة مزعجة ، وأمكن العثور بعد ذلك على كيرد والعودة به الى مكتبه .

فأعلمني بأنه تلقى أوامر من أمين سر الدولة حتى أذهب لمقابلته في المستقبل وذلك في كل مرة أرغب بمقابلة أي انسان في وزارة الدفاع ، وذلك لاعلامه عن الشخص المطلوب مقابلته والحصول على تصريح منه . وجرت مناقشة حامية على الاغلب ، علمت من خلالها بأنهم يشتبهون في كتب المقالات ، أو انني أوصي بكتابتها لمجلة (ويستمينستر ـ غاذيت) ، وان هذه المقالات تصيب رؤوس وزارة الدفاع بلدغات أقسى من تلك التي اكتبها لصحيفة (الديلي تليغراف) .

كان لي بعد ثلاثة ايام حديث أطول وأعمق مع كيرد الذي كان اكثر من صديق ، وأعلمني انه راغب في تطبيق التعليمات الجديده بأقصى ما يستطيعه من مرونه . كما أبلغني وفي الوقت ذاته (تلميحاً وبصفة شخصية جداً) بأن مجلس الشورى العسكري قد ناقش امكانات تقديمي للمجلس العسكري (المحكمة العرفية) على اعتبار انني لا زلت اسمياً في لائحة ضباط الخدمة ـ ولو انني محال على التقاعد بنصف راتب ـ والحكم علي بموجب قانون الجيش . ثم تابع حديثه ، فقرأ مقطعاً من (اسس النظام الملكي) يعالج قضية الانضباط ، ومواد الاسرار الرسمية ـ العسكرية . وأجبت على ذلك بأنه اذا ما اراد مجلس الشورى العسكري اتخاذ مثل هذا الاجراء ، لا سيما بالنسبة لقضية قذرة (موحلة) ارتكبوها ، ثم عملوا على اصلاحها وهم مرغمون . فانهم سيضعون أنفسهم بصورة اجماعية في موقف مضحك عند اثارة عاصفة في البرلمان وفي الصحافة . وقد شاركني كيرد وجهة النظر هذه والتي كان يؤيدها بصورة واضحة . ثم تابعت ردي فقلت له بانني غير راغب بمثل هذه التهديدات المبطنة ، وسأطلب على الفور احالتي على التقاعد الكامل عوضاً على الاستمرار بتقاعد (نصف الراتب) لمدة خمسة اعوام اضافية في حالة العجز عن الخدمة كضابط . وعلى هذه قدمت الطلب مباشرة الى أمانة السر العسكرية ، وفي يوم ٨ تموز (يوليو) ١٩٢٧ ، نشرت مجلة (لندن غازيت) المذكرة الرسمية (بانني احلت

على التقاعد بسبب مرضي الناتج عن جراح الحرب وذلك اعتباراً من يوم ٩ تموز (يوليو) ١٩٢٧ برتبة نقيب) .

فكرت فيما قدمه لي كيرد من عروض للاستمرار باتصالاتي مع وزارة الحرب ، والسماح لي بمقابلة الضباط هناك عن طريق ترتيبات تتم بواسطته ، ووصلت الى نتيجة بان هذه الشروط ستكون قيوداً تضايقهم وتزعجهم . وعلى هذا فقد توقفت منذ ذلك الوقت والى ما بعد ذلك ، عن الذهاب الى وزارة الحرب ، ولم أعد أتردد الى هناك ابداً ما لم يطلب الي بصورة خاصة مقابلة بعض المديرين أو أعضاء الهيئة الاستشارية للجيش ، وفي مثل هذه الحالات كنت اطلب باستمرار وضع الاذن بالدخول مسبقاً وانتظاري أمام مدخل الباب الرئيسي . واكتسبت من خلال هذه الظروف تجربة جديدة ، فقد وجدت أن انقطاعي عن زيارة وزارة الحرب ، لم يسبب أي اختلاف بشأن الحصول على المعلومات ، إذ كان لي عدد كبير من الأصدقاء والمؤيدين لوجهة نظري هناك ، وكانوا جميعاً على استعداد لمساعدتي بهذه الطريقة ، وذلك لرغبتنا المشتركة في خدمة قضية التقدم العسكري . وزيادة على ذلك ، فقد كان القسم الاكبر من القادة (الجنرالات) الذين قابلتهم خلال الاسابيع التالية ، أو اجتمعت بهم خلال زيارة المراكز العسكرية ، كانوا جميعاً كما عهدتهم من قبل ، ولم تنقص صداقتهم عما كانت عليه . وكثيراً ما كانوا يوضحون لي تعاطفهم مع العمل الذي اضطلع به . وهناك استثناء واحد من حالات قليلة ، وهو موقف (مونتغومري ميسينغبورد) الذي كانت علاقاتي معه تتزايد توتراً باستمرار ، منذ الصيف السابق ، وبسبب نقده الساخر والعنيف الموجه ضد فوللر في عدد من رسائله التي بعثها لي ، وحججي المضادة التي أرسلتها للدفاع عن فوللر . وفي ١٧ أيار (مايو) ، وفي اليوم التالي (لايقافي المباغت) في دهاليز وزارة الحرب تلقيت منه رسالة متملقة جاء فيها :

(أشعر بالأسف لما بلغني من متاعب حدثت لكم مع وزارة الدفاع ، وايقاف المعلومات عنكم من الداخل ، . . . وأرى بأنكم ارتكبتم أخطر خطيئة في تبنيكم للخط الذي نتج عنه التضحية بمركزكم ، وهو مركز كان عظيم الأهمية في الجيش . . . وان الخط الذي تبنيتموه سيقودك من الآن فصاعداً ، الى موقع تكون فيه غريباً عن اولئك الذين يحتلون المراكز العليا في الجيش ، مما سينقص الى حد بعيد من قيمتك كمراسل عسكري لصحيفة (الديلي تليغراف) . لقد كنت تحتل مركزاً قوياً في فترة ما ، حيث حققت نجاحات كبيرة ، وضمنت بالتالي الفائدة لنفسك .

تلقيت خلال الاسابيع القليلة التالية ثلاث رسائل أخرى مطولة من (مونتغومري) كرر فيها أقواله المضجرة والتي تتلخص بان ايقاف كل نقد لسياسة وزارة الدفاع سيكون لمصلحتي الشخصية ، وان ذلك هو أفضل فرصة لاستعادة (أفضل موقع مناسب) في وزارة الحرب .

لم تكن تلك المناظرة بالخط الصحيح الذي يجتذبني اليه ، وقد فشل (مونتغومري ميسينغبورد) في رؤ ية حجج أقوى من تلك المتعلقة بالفائدة الشخصية . وفي الوقت ذاته ، تلقيت بتقدير عظيم التأكيد الحازم من فريد لوسون ، بانه وعمه (لورد بيرنهام) يعتبران ان انتقاداتي كانت تعليقاً عادلاً على قضية وطنية هامة ، وأن صحيفة (الديلي تليغراف) تدعم موقفي وتساندني من أجل الاستمرار فيها .

أخبرني بيرنهام في الاسبوع التالي ، وبعد عودته من زيارة لأكسفورد بأن سوينتون قد أوضح له قيمة تدخلي لالقاء الأضواء على القضية القذرة (الموحلة) للقوات الآلية (الميكانيكية) ، والضغط من أجل تكوينها .

وأضاف الى ذلك قوله (بأن جميع الرجال المفكرين في الجيش قد قرؤ وا ما كتبته) . وأضاف بيرنهام بدوره ايضاً انه وصل سمعه شهادات مماثلة .

ان بالامكان ذكر أفضل حادثة تعتبر نموذجاً مضيئاً في هذا المجال ، نظراً لأنها اكثر اتساعاً في مضمونها من تلك القصص الخاصة التي حدثت لي . ففي شهر حزيران (يونيو) تم تعيين الرائد . ي . و . دوب ويتيكر لرئاسة تحرير مجلة اسبوعية تصدر عن مؤ سسة عريقة ، وتحمل المجلة اسم (مجلة الجيش والبحرية والقوات الجوية) وقد بدأ ويتيكر عمله باحياء المجلة عن طريق كتابة تعليقات انتقادية تعالج الشؤ ون العسكرية الجارية وتعرض الافكار الجديدة . ولكن لم تمض سوى فترة طويلة حتى بدأت المجلة انتكاستها في اطار من الظروف الغامضة ، وغادت الى اسلوبها القديم لتصبح مجرد صدى لوجهات النظر الرسمية والمفاهيم التقليدية . وبعد مضي سنوات ، وقبل وفاة ويتيكر المبكرة بوقت قصير ، أسرعت الى ويتيكر في فندق المدينة وأخبرني بتجربته غير السعيدة .

وكانت هذه التجربة قد بدأت بعد الصدام في قضية القوة الآلية (الميكانيكية) مباشرة ، وقد خطرت في بعض رؤ وس وزارة الحرب فكرة احلال بديل لي وتقديم مساعدات خاصة له ، وجعله الناطق الرسمي باسمهم . وأمكن اغراء ويتيكر بهذا العرض ، فقبله ، وبذل أفضل ما يستطيعه لتحقيق رغباتهم . وكانت النتيجة (التي نطق

بها بلهجة محزنة) هي أن فقدت المجلة عدداً كبيراً من قرائها في الجيش وفي كل مكان وليس ذلك فحسب ، بل ان الرجال الذين احتضنوا ويتيكر ورفعوه كناطق باسمهم ، لم يلبثوا حتى توقفوا عن قراءة (تعليقاته الاسبوعية) ذهبت الى آلدرشوت. يوم ٢١ أيار (مايو) لمشاهدة تجربة اختراق الضاحية بالسيارات وهي التجربة التي نظمت لحضور الاعضاء المنتخبين لمؤتمر المستعمرات . وبعد جولة صعبة على السباق ، تحدثت طويلاً الى داوود كامبل ، (وكان ذلك للمرة الأولى منذ ترك كامبل وزارة الحرب وأصبح القائد العام لقيادة آلدرشوت) . وسجلت في مفكرتي اليومية عن حديثنا الملاحظة التالية (انه يعتقد بأن فوللر كان متسرع جداً ، ولكن وزارة الحرب ايضاً قد غاصت في الوحل ، وان هناك ألف موقف مثير للشفقة قد حدث في كل حين ، وهو يخشى توقف دعم ميلن له وتخليه عنه . أما بالنسبة لي ، فقد قال داوود كامبل بانه يعرف من خبرته كأمين سر عسكري بأن ميلن يمسك القضية بأسنانه ، وعلى هذه فانه من الصعب التحدث اليه بشأني . ولكنه يرغب في اقناع ميلن لتغيير رأيه عندما يحضر ميلن للاقامة عنده من أجل مشاهدة مهرجان حزيران (يونيو) . وقد أظهر داوود كامبل مرة أخرى انه صديق حميم جداً في هذه الأزمة . كما أظهر ايضاًوضوحاً تاماً في الرؤيا عند تقديره بأن الجيش سيكون الخاسر الرئيسي اذا ما فقد دعم المراسل العسكري ـ الذي يستطيع إثارة اهتمام الرأي العام بالجيش)

أبدى داوود كامبل ملاحظة بشأن طريقة تشكيل القوة الآلية (الميكانيكية) للخروج بهذه القوة من الوحل الذي علق بها . فقد أكدت وزارة الحرب نقل مدير هيئة اركان الخدمة في الجيش (كاميرون) وذلك في وقت مبكر لتعيينه في شاغر مقبل في قيادة الفرقة الرابعة ، وهو مكان اكثر ملاءمة لامكاناته من مركزه السابق . كما تم تعيين اللواء شارل بونهام كارتر مكان كاميرون ، وكان بونهام قد عمل قبل ذلك كرئيس لهيئة اركان ميلن في القيادة الشرقية . وعرف عنه أنه جندي ذو اتجاه تقدمي ، وله عقلية متفتحة تستطيع ادراك وجهات النظر الأخرى ، وينتسب بونهلم الى عائلة معروفة بافكارها التحررية (الليبرالية) . كما كانت له مواقف ليبرالية وتطلعات مشتركة بعاطفة قوية ، أثبتت وجودها لا في التعامل مع القضايا الكبرى لايجاد الحلول لها ، وانما ايضاً في التعامل على مستوى الأفراد . وكان مثل هذا التركيب حافزاً لكامبل من أجل اتخاذ خط قوي ، أو بالأحرى تبني خط واضح ومحدد جداً . كما أن هذا التركيب قد ساعده ايضاً للعمل في تنسيق تام مع ميلن الذي كان يرغب في وجود هيئة أركان تتميز بالفاعلية والجرأة للعمل معه ، ولو أنه لم يكن ليقبل بسهولة ، أو أن يحتمل الى حد بعيد صحبة مساعد يعتقد بأنه يوجهه بالقوة أو يحفزه للعمل ويستثيره .

كان لي بعد ذلك حديث طويل مع بونهام ـ كارتر في بداية شهر حزيران (يونيو) وقد أوضح لي كارتر الصعوبات التي جابهها ميلن في وزارة الدفاع ، واعترف بصراحة أن الأمور جميعها قد اتجهت اتجاهات خاطئة في السنة الأخيرة . وتابع حديثه ليقول بأنه وجد ميلن (وهو مرهق جداً من التعب) بعد خمسة عشر شهراً من دخوله وزارة الدفاع . وعندما وجهت نقداً لعدد من التعيينات الحديثة للمراكز الهامة ، داخل وزارة الحرب وخارجها ، وافق بونهام على أنها كانت تعيينات (سيئة) وتابع قوله بأنه عند تسلمه لمركزه في وزارة الحرب ـ خلال فصل الخريف ـ فانه سيحرص على طرح وجهة نظره (حتى لا تتكرر مثل هذه العملية في الانتقاء السيء للتعيينات) . وكانت جذور الاضطراب تكمن ـ بحسب رأيه في المستوى التعليمي المنخفض لضباط الجيش ـ وأن المستوى في البحرية والقوات الجوية اسوأ مما هو عليه في الجيش ايضاً ـ وعلى هذا فقد كان هدفه الرئيسي هو رفع مستوى التعليم ، وتوسيع تعليم الطلاب الضباط (في الكلية الحربية) حتى يصبح على خط مواز لمستوى الجامعة ، مع العمل ايضاً على تطويع عدد اكبر من الضباط الذين يتم الحصول عليهم من الجامعات عن طريق اغرائهم بتقديم أفضلية في القدم على جميع المرشحين الذين حصلوا على رتب عسكرية . وقد أصبح مثل هذا التطور التعليمي هو الهدف الرئيسي لجهوده ومنجزاته خلال فترة السنوات الاربعة لعمله كمدير لهيئة اركان الخدمة في الجيش ، ولو أن هذه الجهود ، وتلك المنجزات ، أصيبت بانتكاسة بعد ذلك ، على نحو ما يحدث غالباً ، لا سيا في مثل هذا المجال .

على كل حال ، بدأت الحرارة بشكل ملحوظ في اذابة الجليد الحديث المتكون في وزارة الحرب ، سواء نتيجة للجهود التي بذلها بونهام كارتر ، أو تلك الجهود الرئيسية لداوود كامبل . وهكذا فعندما قابلت ميلن ـ في المرة التالية ـ أثناء تدريب القوة الآلية ، كان استقباله ودياً تماماً ، وأظهر كل استعداد للمساعدة .

كما أوضح ايضاً بأنه يوافق على تلك الانتقادات التي تنشرها (الديلي تليغراف) بشأن معالجة هذه القوة التجريبية ، وذلك بصرف النظر عن عدم رغبته لكل نقد موجه لسياسة وزارة الدفاع أو لأعمالها وسلوكها .

كان لي ـ بصورة خاصة ـ صديقان حميان ـ لحسن الحظ أيضاً ـ في القيادة الجنوبية وهما العقيدهـ ـ كارسليك و آ . ب . ويفل رئيس هيئة اركان القيادة والفرقة الثالثة . وكان هنري كارسليك قائد قدير ، ورجل مدفعية ذو فكر عميق . وسبق له أن قاد لواء مدرع في فرنسا عند نهاية الحرب ، وتبنى وجهة نظر متقدمة جداً في قضية القوة الآلية

(الميكانيكية) . كما كان يهاجم بحرارة وينتقد مقترحات المتخاذلين ، أصحاب العزائم الفاترة ، والتعريض بتصورات القسم الاكبر من القادة (الجنرالات) وتطلعاتهم . وكان كراسليك يمثل القدرة المفكرة التي كانت تنقص قائده الجنـرال سـير الكسنـدر غودلي . والذي كان كتمثال صوري على درجة عالية من التهذيب ويتميز بتظاهرة كملكي ممتع يرافق الزائرين والضيوف .

وكان كارسليك واحداً من عدد قليل من الرجال في وسط الدبابات والمدفعية ، ممن اعتنقوا بحماسة فكرة المدافع ذاتية الحركة لدعم القوة المدرعة . أما بالنسبة لارشيبالـد - ويفل ، فقد تعرفت عليه قبل ذلك بسنتين عندما كان في وزارة الحرب .

وكان قد كتب بعضاً من فقرات الموسوعة (الانسيكلو بيديا - بريتانيكا) والتـي أصبحت مستشاراً عسكرياً لها . وتأثرت الى حد بعيد بوضوح ما كتبه وباسلوبه في المرة الأولى عند معالجته موضوع حملة فلسطين ، فطلبت اليه أن يكتب المزيد عن هذا الموضوع عند اعداد الطبعة التالية التي كنت رئيساً لتحرير القسم العسكري فيها ، واقترحت عليه توسيع النسخة الاساسية وتحويلها الى كتاب . وشعرت ببعض من الفخر للنتـاج الجيد الذي جاء ثمرة لتلك الجهود والتي شجعته عليها لتطوير موهبته الأدبية .

حدثت اضافة هامة في تركيب عناصر القوة الآلية (الميكانيكية) خلال صيف عام ١٩٢٧ . إذ كان من المقرر ارسال سرية واحدة فقط من العربات المدرعة ، ولكن عوضاً عن ذلك فقد تم ارسال الفوج الثالث (من قوة المدرعات الملكية) بقيادة تيم - بايل الذي عرف بقيادته الحازمة ، وقد ارسل هذا الفوج من القيادة الشرقية لينضم الى القوة الآلية ، بعد أن أعيد تنظيمه مؤقتاً لتشكيل سريتين من العربـات المدرعـة وسرية من الدبابـات الخفيفة . أو (الناقلات) كما كانوا يطلقون عليها . في حين تم تعيين الفوج الخامس من الدبابات لينضم الى هذه القوة التجريبية ، ومـن ناحية أخـرى ، فقـد كانـت العلاقـة الاساسية في نسبة تركيب هذه القـوة ، تتوافـق مع المقترحـات الأولى لكل من لينـدسي وفوللر . ولكن كان هناك قسم كبير من رأي العسكريين وكذلك كان رأي القائد الجديد للقوة (جاك كولن) بصورة خاصة . هو ان تكون المشاة العادية في ضمن القوة ، وثم الحاق فوج المشاة الثاني من لواء شيشاير بالقوة من اجل اجراء بعض التجارب ، وأمكن تجهيزهم ببعض العربات لتنفيذ بعض الواجبات وذلك عوضاً عن استخدام الخيول التابعة لهم (للبحر والنقل) واستخدام (رتل المركبات) لنقل الرجال .

اعترضت من جهتي على وجهة النظر القائلة (بأن المدرعات تستطيع العمل دون

وجود عنصر المشاة ، الا في الحالات التي تتطلب احتلال الأرض التي قامت بغزوها المدرعات ، وأن أفواج المدافع ـ الرشاشة كافية لتحقيق هذا الهدف المحدود) .

وكنت قد عالجت طويلاً قضية الحاجة لعنصر المشاة في الهجوم من أجل مرافقة الدبابات بهدف التغلب على الحواجز التي يدافع عنها العدو . ولكن يجب ان يكون هؤلاء من وجهة نظري من (المشاة المدرعة) وذلك حتى يصبح بامكانهم البقاء على مسافة قريبة من المدرعات ، لتلبية المتطلبات عند الحاجة بسرعة ، والتدخل بالمعركة دون أي تأخير قد يسمح للعدو بدعم مواقعه الدفاعية في القطاع الذي يتعرض للتهديد . وعلى هذا فقد انتقدت بقوة عملية اشتراك عربات النقل ـ الضعيفة لنقل المشاة والتي كان يطلق عليها للتضليل اسم (افواج المشاة الآلية ـ الميكانيكية) وأوضحت (بان المعنى العميق والحقيقي للمشاة الآلية هو بالتأكيد في الجنود المدربين على المناوشة والذين يتنقلون بالناقلات أو بواسطة العربات المدرعة الأخرى ، ولديهم القدرة على الترجل والعمل كمشاة عاديين ـ في القتال) وكنت قد ناقشت تلك الفكرة منذ وقت مبكر مع القيادات المختلفة ، واقترحت أن يتم تحويل ألوية المشاة الخفيفة والبنادق الى ألوية مشاة منقولة بالناقلات (والتي كنت قد أطلقت عليها اسم ـ الناقلات المدرعة البحرية) للعمل في الفرق المدرعة للمستقبل . وكانت هذه الألوية تتكون من ٢٢ فوجاً (وهي تعادل واحد من ستة من مجموع قوة المشاة في الجيش البالغة ١٣٦ فوجاً) . وكان تحويل هذه الافواج لتأمين المشاة ـ المقاتلة كجزء من القوة المدرعة ، سيكون أفضل سبيل لاحياء دورهم المميز كمشاة متحركة اختصاصية .

أوضح جوك ستيوارت بدوره الحاجة الحقيقية لعنصر المشاة المنقولة في القوة الآلية ـ الميكانيكية وكذلك فعل تيم بايل في تقريره الذي رفعه عند نهاية موسم التدريب والاختبارات . ولكن هذه العروض لم تلق ـ لسوء الحظ ـ الدعم الكافي للحصول على متطلباتها خلال السنوات التالية بسبب اختصار المخصصات النقدية . وكان القسم الاكبر من المتحمسين للمدرعات هم الاكثر اهتماماً ـ بصورة طبيعية ـ من أجل تخصيص كل الموارد النقدية المتوفرة لتجهيز الوحدات المدرعة . في حين كانت حماسة رجال المشاة مركزة بصورة رئيسية للحصول على تجهيزات جديدة لفرق المشاة .

بدأ التدريب الاجماعي للقوة الآلية في ١٩ آب (أغسطس) ، وكانت هذه هي الاختبار الأول لتجربة اسلوب الحركة التي وضع تصميمها جاك كولينز . وقد طلب إلي تشيبالد ـ ويفل التوجه الى سهل ساليسبوري لمشاهدة هذا التمرين على الطبيعة ، وللاقامة في مزرعته (في بريفميرستون) حيث يقيم هو وزوجته .

وبرهنت نتيجة التمرين على صحة التحذيرات التي تلقيتها من مارتل ، وكان يقود في هذا التمرين سرية مهندسي الميدان الآلية ، حيث اعلمني بان تطلعات كولنز تظهر وهي متقاربة مع عادات المشاة التقليدية ، وأوضحت في مقولتي عن التمرين بأن هذه القوة التجريبية انما تشكل هدفاً سهلاً جداً ، وتختلط بعضها ببعض بشكل فوضوي في كثير من الأحيان ، وان هذه القوة اثناء تحركها (كرتل يتلوى على الطرق كالافعى) تكون معرضة للاصابة وهي تمتد على مسافة اثنى وثلاثين ميلاً ، وتعاني من القصف ، والرمي بالرشاشات من هجمات الطائرات المغيرة عندما تتوقف أمام الحواجز التي تقفل الطرق وتمنع الحركة عليها

كانت المشكلة الأولى التي برزت عند تنظيم تجارب القوة الآلية هي كيفية التوفيق في اشتراك النماذج المختلفة جداً من المركبات في القوة مع وجود اختلاف كبير في معدل سرعات هذه المركبات فكانت المركبات التي تتحرك بسرعة على الطرق ، تصبح بطيئة الحركة عند التحرك عبر الاقليم وخارج الطرق ، والعكس بالعكس وقد حاول كولينز التوفيق بين هذه الاختلافات عن طريق التنسيق بين حركة العناصر المختلفة على نحو ما تفعله وحدات المشاة عند تنفيذها لعملياتها وهي تتحرك سيراً على الأقدام وعلى هذا فقد تم توزيع القوة على ثلاثة مجموعات (سريعة ، ومتوسطة ، وبطيئة) وفقاً لسرعة التحرك على الطرق وبحسب نماذج المركبات المتنوعة ، ولكن هذا التوزيع لم يكن ليتلاءم مع سرعة تحرك هذه المركبات خارج الطرق وعبر الاقاليم

لقد تزايدت العوائق في هذا التجمع الاعتباطي ، الذي تم تثبيت سرعة التحرك فيه ، وذلك بسبب تجربة فرض المسافة التي يجب المحافظة عليها بين مختلف المركبات ، وابقائها متقاربة بعضها مع بعض ككتلة من المشاة أثناء المسير وفي النهاية ، أخذت (تمارين) المسير) هذه في الظهور وكأنها محاولة للتمرين على تجميع الآليات في (مركب نوح) ، فكانت اكثر ملاءمة لانجاز حلم رقيب أول منها لتلبية متطلبات اعمال القتال المتحركة وبعد مراقبة المرحلة الثانية اقترحت ما يلي

(قد يكون من الأفضل للمركبات التحرك بصورة مستقلة وبأسرع ما يمكن ، وبوثبات طويلة من نقطة توقف الى نقطة توقف اخرى عوضاً عن التحرك وهي متقاربة بعضها من بعض في نظام الرتل فالتوقف أمر لا يمكن تجنبه وذلك مهما كان عليه السائقون من المهارة في المحافظة على التشكيل وهذا يسبب جهداً كبيراً ، واستنزافاً للقوة ، وتوتراً في اعصاب السائقين اكثر مما يحدث عند التحرك بسرعة من نقطة الى نقطة

اخرى ، وان الاعتراض الواضح على هذا القول هو أن تحرك القوة بسرعة اكبر وبفواصل أطول سيشغل المزيد من مسافات الطرق . وهذا اعتراض سطحي ، إذ أن اشغال الطرق سيتطلب فترات أقصر . ان الحركة الآلية في الواقع قد تكون الموازي العسكري للنسبية ، في مجال تغيير المفاهيم المقبولة في الزمان والمكان . وعلاوة على ذلك . فان الحركة (المتناثرة أو المبعثرة) تكون هدفاً أقل تعرضاً لضربات الجو)

أعتقد بأن جاك كولينز كان حسن النية وهو يبذل جهوده للسيطرة على التحركات التي صممت بحيث تظهر العودة إلى اعمال القتال الجامدة (الاستاتيكية) وقد أصبحت تطلعاته المحدودة اكثر وضوحا عند انتقال القوة التجريبية من اختبارات المسيرة والتحرك إلى الاختبارات العملياتية . وكان القائد يعاني من القلق بشأن تأمين الحيطة لقوته خلال التوقف واثناء التحرك على حد سواء ، وهكذا كان تأمين حيطته الخاصة يشكل الهدف الأول في اهتماماته ، عوضا عن الاهتمام بالتأثير الذي يمكن له تحقيقه على العدو . وأصبح هذا الاتجاه نحو المبالغة في تدابير الحيطة بأشكالها الواضحة موضع التعليقات الساخرة والمزاح الشائع عن الموسم التدريبي في تلك المنطقة ، وكان هناك تعليق ابتكره أحد الظرفاء المرهفي الاحساس ، وأصبح اكثر شيوعاً من كل ما عداه وهو (أن قائد القوة الآلية قد تبنى شعار مدراء المصارف ـ البنوك الذي يقول : لا تسليف ـ أو تقديم مسبق دون تأمين ـ أو حيطة) .

اظهرت الطريقة التي عملت بها القوة ، انه ليس هناك ما هو افضل لتطبيق تدابير الحيطة وحماية المجنبات الخاصة بها من العمل سريعا لتنظيم انتشار يمكن له تهديد المجنبات المكشوفة للعدو . ولم يتمكن قائد القوة ، ولا ضباطه التابعين له اكثرهم والذين توفرت لهم على التتابع فرصة العمل مع القوة في التدريب ـ من تقدير أهمية الانتشار الذي يساعدهم على حشد القوة النارية واشراكها مع القدرة الحركية للمدرعات في القوة الآلية مما يضمن لهم حيطة كافية ضد كل تدخل من قوات العدو . كما أنهم لم يقدروا ايضاً بصورة جيدة التأثير المعنوي الذي يمكن لهم اضافته الى تدابير الحيطة على الرغم من أن هذا التأثير كان واضحاً في كل مكان ظهرت فيه القوة الآلية ضد قوات المشاة ، و أظهرت التجربة بأن هذا العامل ، اذا ما استثمر بصورة جيدة ، هو أفضل بكثير من الانصراف إلى تأمين حيطة القوات ضد مثل هذا النمر الذي يجوس بحثاً عن فريسته ، ودس اصابع القوات حتى تصبح في متناول مخالبه .

لقد أظهرت ردود الفعل في تدابير الحماية الذاتية للقوة الآلية بأنه لم يعد هناك مكان

لتدابير الحماية ـ الذاتية . فلقد نظم حجم القوة ليكون في حدود مجموعة لواء ، وعلى هذا ، فقد كان هناك اتجاه لقياس قدرة القوة بمعايير مشابهة ومقاييس مساوية. على الرغم من ان حساب حجم التسلح كان يفرض الأخذ بمستويات مختلفة إذ أن هذه القوة كانت تشتمل على ٤٥ مدفع دبابة من عيار ٣ رطل و ١٦ مدفع ميدان و ١٦٠ مدفع رشاش ثقيل و ٢٤٤ مدفع رشاش خفيف ، وهذا ما يعادل قدرة نارية تنتجها فرقة مشاة عادية تضم ٢٠ ألف رجل ، أي ما يعادل خمسة أضعاف حجم القوة الآلية وبالاضافة الى ذلك فان بالامكان مضاعفة هذه القدرة النارية في العمليات بواسطة المرونة والقدرة والسرعة في تركيز النيران وحشدها على أي منطقة تتطلب مثل هذا الحشد بالنيران .

لم تظهر ولو شارة واحدة (عند الانتقال بالتجربة الى التمارين التعبوية) تدل على وجود تصميم في المخططات الموضوعة لا ستخدام القوة المدرعة في المناورة الاستراتيجية التي كانت بعيدة حتى عن تصور واضعي المخططات . ومن الواضح ان هذه القوة قد اعتبرت مجرد امتداد اضافي لا اكثر لنموذج الفرقة التقليدية او الفيلق فتم التخطيط لهجومها (كضربات ـ بذراع قصيرة) بحيث تنفذ في حدود ضيقة وباسلوب الضربات المباشرة المرتبطة بمصادفات المعركة دون أي فكرة للقذف بالخصم ووضعه خارج ميزان القوى . فكان الاسلوب التعبوي ـ، التكتيكي ـ ايضاً متشابهاً في سرعته البطيئة مع هجمات المشاة النموذجية وأخيراً ، فقد تم استخدام عناصر الاستطلاع ـ الكشافة ـ في بعض الاحيان كمشاة عاديين لحماية التقدم وتغطيته وهذا مما أدى الى المزيد من الابطاء بسرعة التقدم . وبذلك أصبحت سرعة التقدم بطيئة جداً ومشابهة في سرعتها لنماذج القوات القديمة فكان التدريب بصورة اساسية تجربة للخطأ ، ولو أنه أمكن تعلم الكثير من النقاط المفيدة والتفاصيل الهامة خلال مسيرة هذه التمارين . وكانت خيبة امل كبيرة لنا نحن جميعا الذين اشتركوا في تصوراتهم بما تستطيع مثل هذه القوة من انجازه وتحقيقه . ظهرت خلال هذه التمارين واحدة من بعض البقع المضيئة تمثلت بفاعلية مجموعة الاستطلاع التي استخدمت العربات المدرعة وناقلات الجند بقيادة تيم بايل . وكانت هذه المجموعة تظهر في كل مكان ونجح بيل في استخدام قوة الاستطلاع بجرأة مثيرة واحساس عميق وفق طريقة تضمن له استثمار ميزة السرعة لاحباط كل مقاومة . وأخيرا ظهرت قوة الاستطلاع في كثير من الأحيان وكأنها تجر الجسم الرئيسي والمتثاقل للقوة بسرعة اكبر بكثير مما كان يريدها قائد القوة ، فكانت التمارين تشابه سباقا للخيول التي تجر وراءها الجرافات .

وعلى هذا كان من الممتع ان يعطي بايل الفرصة للاضطلاع بدوره في قيادة كامل القوة للتمرين الذي نظم بصورة خاصة في يوم ٣١ آب (أغسطس) وقد بدأ هذا التمرين

بملاحظة قصيرة من غودلي للاستعراض الذي قدم لوينستون تشرشل ، ثم لمستشار وزارة المالية . وقد تم اختصار التمرين في مدته وفي مجال تنفيذه وذلك حتى يلائم رغبة الحضور ولكن رغم هذه الحدود فقد أمكن اظهار نوعية السرعة العالية في التقدم غير المباشر لاجراء مناورة تطويق طالما كنت ادافع عنها على اعتبار انها الاسلوب الصحيح لاستخدام مثل هذه القوة المتحركة . وكانت هذه هي المناسبة الأولى التي تم فيها وضع النظرية موضع التطبيق . وامكن بذلك ابراز امكانات السرعة الآلية في مناورة القوات خلال التدريب .

قام وينستون تشرشل ، فور وصوله بجولة رافقه فيها غودلي من أجل تفتيش القوة قبل التمرين ، وتبعتهابرفقة كارسليك وراندولف تشرشل الذي كان يبلغ من العمر ١٦ عاماً - والذي أبدى ملاحظات لاذعه بطريقة غير جازمة أذهلت اولئك الذين سيتعرفون عليه في السنوات المتأخرة .وفي نهاية التفتيش توجه الي والده بالحديث وسألني عن وجهة نظري بالطريقة التي يجب أن يسير عليها التمرين كما قال لي ايضاً بأنه استمتع الى حد بعيد بكتابي الذي ألفته عن سيرة (سكيبيو[٤]) لسببين أولهما القاء ضوء حديث على التاريخ . وثانيهما ما تضمنه من دراسة استراتيجية - وذلك على نحو يشابه ما كنت قد سمعته في عدد من المراكز القيادية - وتحدث كثيراً عن الكتاب خلال زيارة حديثة له لمدينة روما ، وأن هناك مؤسسة حكومية تعمل على ترجمته في ايطاليا ونشره وقد وجهت ألي الدعوة لزيارة القوات الايطالية في فصل خريف تلك السنة .

توجهت بعد هذا التمرين الى منطقة المناورة في قيادة آلد رشوت . وبينما كنت هناك اتصل بي شارل برود هاتفياً لينقل إلي دعوة ميلن من أجل حضور مؤتمر في تيدوورث يوم ٨ ايلول (سبتمبر) حيث سيلقي ميلن محاضرة لتوجيه الضباط الأعوان في القوة الآلية (الميكانيكية) وسيطرح وجهة نظره بشأن الخط الواجب اتباعة . وهكذا قدت سيارتي عائداً إلى تيدوورث ، تحت سيل من المطر . ووصلت في الوقت المناسب تماماً .

كان برود قد وضع مسودة للمحاضرة ضمنها عدداً من النقاط التي كان فوللر قد طرحها وكنت انا قد طرحتها ايضاً . ولكن ميلن عمل على املاء المحاضرة بشكلها النهائي وشعرت ببهجة وأنا أقارنها مع المسودة الأولى فأجد بأن ميلن قد ذهب إلى أبعد بكثير مما كان يرجوه كل واحد منا لا سيما بعد ذلك التردد الذي اظهره في الأشهر الأخيرة .

بدأ ميلن محاضرته بالقول أنه من الضروري استهلاك (الموعظة أو الخطبة) بنص معروف ، وأنه أخذ هذا النص في الرسالة الأولى لكورنثيان ، الفصل الرابع عشر البيت الثامن - وهو (إذا لم تكن الطبول لتترك أصداء حقيقية - فمن ذا الذي يجب عليه الاستعداد للحرب ؟) .

أثار تبني ميلن لمثل هذا النص بعضاً من السخرية الفكرية عند البعض منا نحن الذين عرفنا من خلال تجربتنا القريبة . عادته في التقدم والتراجع خلال السنتين السابقتين ، مما كان يثير كثيراً من الاصداء التهكمية والساخرة في السنة الاخيرة . ولكن في هذه الفترة أظهر قدراً من الثقة التي حملت قناعته إلى اكثر الحضور في أنه قد بدأ التخطيط لاعاة بناء الجيش بكامله من جديد . وعلى هذا فانه لم يعتبر مجرد وثيقة لصالح القوة التجريبية . وانما وثيقة عظمى[٥] لصالح الجيل الجديد من الجنود إذ أنه يحررهم من اعباء النظام القديم . وكانت النقاط الرئيسية في خطابه هي التالية : (شهدت ميادين القتال في الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة جموداً هيمن عليها بصورة تدريجية . وكان سبب ذلك ظهور المدافع الرشاشة والاسلاك الشائكة والوسائط المختلفة الأخرى التي تعرفونها . ولقد بدأت تلك التجربة في جنوب أفريقيا ، ولكننا لم نستخلص منها الدروس التي تعيننا على التوجه حيث يجب أن نسير . ولو أننا درسنا الحرب الروسية ـ اليابانية بمزيد من العناية لأمكننا رؤية الاتجاه الذي تسير إليه الأمور ، ثم جاءتنا بعد ذلك الحرب العظمى ، بصورة مباغتة للكثيرين منا . ولو أننا درسنا التاريخ بعناية لما كانت هناك مباغتة على الاطلاق . .

من المفروض علينا العثور على بعض الوسائط لإعادة الحرب حيث تصبح امكانات استخدام فن القيادة متوفرة ، وان الوسائط الوحيدة لتنفيذ ذلك هو في زيادة المرونة وتأمين القدرة الحركية في ميدان المعركة . وهذه هي نقطة البداية ـ الآن ـ ممثلة بلواء المدرعات ، لاحياء امكانات فن القيادة . لقد أصبحنا حاليا ونحن نملك الوسائط ، وعلى سبيل المثال ، فان المحركات البترولية قد عدلت اساليب الحرب . . الطائرة . . والدبابة . .

انني اطلب اليكم لهذا السبب ـ دراسة القضية بالعودة إلى التاريخ القديم وليس المطلوب أن تأخذوا في اعتباركم تلك الهجمات والاغارات الكبرى للخيالة التي قامت بها شعوب المغول والبارتيين ، حيث لم يكن هناك ما يوقف عمل الخيالة فهناك لا زالت الخيالة تعيش في الاقليم ، وتتجاوز في أسفارها المسافات البعيدة ولكن لديك هنا الذروة المطلقة للمرونة الاستراتيجية في مسارح العمليات . وهذا هو النوع من المرونة التي أطلب اليكم دراستها في فصل الشتاء .

وتابع ميلن حديثه ليقول بأن فرق الخيالة وفرق المشاة ستحافظ على وجودها في المستقبل بفضل تطويرها عن طريق تجهيزها بوسائط النقل الآلية الميكانيكية مع دعم تنظيمها بوحدات مدرعة ولكن سيتم تنظيم (الفرق المدرعة) للعمل (كقوة منفصلة تماماً) في تنفيذ الاهداف الاستراتيجية .

ان بامكانكم استخدام قوة من هذا النوع للضربات المتميزة بحرية العمل من أجل الاستداره حول المجنبات . انها قوة مدرعة مخصصة للعمل على المسافات البعيدة وقد يكون من الضروري استخدامها كقوة مدرعة للواجبات القريبة ، ولكن ما اهدف اليه بصورة اساسية هو ان تعمل كقوة مدرعة مرنة تستطيع الوصول الى مسافات بعيدة للقيام بالعمليات الكبرى وتنفيذ حركات الاستدارة الواسعة . يجب عليكم عند العمل في قوة من هذا النوع اتخاذ القرارات بسرعة . . ولن يكون لديكم متسع من الوقت للمناظرة . . وعلى القائد ان يندفع حتى اقصى ما يستطيعه نحو الأمام . . يجب عليكم العمل بسرعة ، والتفكير بسرعة ، وكذلك تدريب القوة حتى تعرف غريزياً ما تريدونه منها .

يجب عليكم ان تضعوا في اعتباركم عامل السرعة الجديدة للحركة وشعاع العمل ، وهو مفهوم جديد تماماً لما يجب عليكم عمله عند التعامل مع المشاة . . والمطلوب في الحقيقة هو تغيير كامل في التطلعات العقلية . .)

ختم ميلن محاضرته بالقول ، انه طلب من هيئة اركانه اعداد لائحة من الكتب حتى يدرسها الضباط . . واعطائهم بعضاً من الملامح التي تساعدهم على العمل . وقد سررت في الواقع وأنا أجد بأن هذه اللائحة التي تضم اثني عشر كتاباً بينها ثلاثة كتب لي . . وكنت الكاتب الوحيد الذي تم تمثيله بأكثر من كتاب.وكانت الكتب المختارة الثلاثة هي باريس أو حرب المستقبل ، وكتاب سيرة سكيبيو ، وكتاب كبار القادة دون قناع (نظراً لما يتضمنه من عرض لاساليب المغول الاستراتيجية منها والتكتيكية) . تحدثت إلى ميلن في نهاية هذه المحاضرة ، فأعلمني بأنه يعتزم تعميم محاضرته بكاملها على الجيش فأسرعت خوفاً من احتمال تردده بعد ذلك ، لاسيما بعد تكرر حدوث هذه الظاهرة في كثير من الاحيان . وطلبت اذناً بالسماح لي في نشر وجيز عما قاله فوافق على ذلك . وهكذا وبعد أن عدت في ذلك المساء إلى التايمز ، أرسلت قسماً لنشره في اليوم التالي مع تلخيص لنص محاضرته التي أرسلت نسخة ثانية عنها (كربون) فظهرت في صحيفة الديلي تليغراف ليوم ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٧ . أسرعت بعد ذلك في العودة لمقابلة كنوكس (مدير العمليات الأرضية) الذي كان قد فرغ على التو من مطالعة تقريري عن محاضرة ميلن فهتف بلهجة من تلقى صدمة مفزعة وقال : (لا أستطيع تصديق ان يقول رئيس هيئة الاركان العامة مثل هذه الأشياء ، وعلي العودة إلى وزارة الحرب فوراً) . وأظهرت النتيجة ان اعتراضه قد حقق اثراً بعيداً في حمل ميلن على تغيير رأيه بشأن تعميم محاضرته وأقواله . ولم يعرف أبداً سبب تراجعه هل هو بتأثير كتلة الجيش أم هو الخوف من الرأي العام . وعلى كل حال

فان عدم تعميم المحاضرة قد أنقذه من تحمل اعباء افكاره الثانية (التي تراجع فيها عن الأولى) .

اجتذبت عملية انشاء القوة الآلية (الميكانيكية) وتجربتها ، اهتماماً كبيراً في خارج انكلترا ، سواء في أوروبا أو في أمريكا . وقد انعكست الصدمة التي اثرت على التفكير العسكري في انكلترا ، في عدد من المقولات والدراسات - وبصورة خاصة في ألمانيا - حيث كان هناك ايضاً يقظة مميزة للاهتمام بمعارك المغول والدروس المستخلصة منها ، وذلك بحسب ما ظهر من دراسات عديدة في هذا المجال . أما الجيش الأمريكي فقد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك عندما قرر اتباع قيادة البريطانيين في تشكيل قوة آلية (ميكانيكية) تجريبية تتشابه في خطوطها العامة وفي تكوينها بالقوة التي ظهرت عام ١٩٢٨ . وخصص معسكر ميد في ماريلاند لهذه القوة التجريبية . وكان من المفروض أن يشكل مثل هذا البرهان العالمي - الكبير في تقدير المفاهيم العسكرية البريطانية حافزاً يستثير المجهودات الجديدة لوزارة الحرب من أجل المزيد من التطور وحتى يستطيع البريطانيون المحافظة على دورهم القيادي الذي اضطلعوا به . ولكن ميلن ورئيس مساعديه أظهرا - عوضاً عن ذلك - انعطافاً جديداً في اتجاه الحذر ، بل وحتى في اتجاه الشك .

جاء الدليل الأول على هذا التحول عندما ترأس ميلن محاضرة كان قد طلب إلى برود القاءها في الجامعة الملكية في تشرين الثاني (نوفمبر) حول موضوع (التنظيم المقبل للقوة المدرعة) . وكان عرض برود يشبه إلى حد بعيد تلك الخطوط التي تضمنتها محاضرة ميلن ذاته في تيدوورث قبل شهرين فقط . ولكن ها هو ميلن الآن ينهض كالعاصفة ليشكر الحاضر ، ثم ليقول بعبارات مميزة : (يجب علي أن أوضح لكم جميعاً . . بان الهيئة الاستشاريه للجيش لا تتحمل أية مسؤ ولية بالنسبة لوجهات النظر التي عبر عنها المحاضر ولا أقول بأنني اختلف معه بشأنها ولكنني لا أحتمل الاضطلاع بمسؤ وليتها) وكان مثل هذا التحذير الصادر عن رئيس هيئة الاركان العامة بمثابة صدمة هزت الحضور نظراً لمكانة برود ومركزه في هيئة الاركان كمدير مكلف بالتخطيط للمستقبل وتنظيم القوات للحرب . وكانت اصداء كلمات ميلن تتناقض تماماً مع اصداء المقطع الذي استهل به محاضرته في تيدوورث : (اذا لم تكن الطبول لتترك أصداء حقيقية فمن ذا الذي يجب عليه الاستعداد للحرب) .

كنا في ايطاليا عندما القيت هذه المحاضرة ، ولهذا لم اسمع بالنتيجة المحبطة للآمال والتي حملها ميلن إلى حضور المحاضرة . قبل عودتي إلى انكلترا في عيد الميلاد . ثم جاء بعد ذلك ومع بداية عام ١٩٢٨ ، المؤتمر السنوي لضباط هيئة الأركان وفيه صرح ميلن

بلهجة اكثر تدميراً حيث قال : (لعلكم فكرتم فيما يجب أن تكون عليه الفرقة خلال ثلاثين وحتى أربعين عاماً ؟ ولكن أحداً منكم لن يشهد ذلك !) وعندما طرح اقتراح (بهدف السبر - أو جس النبض) بان هناك احتمال على الأقل (لتنفيذ برنامج بعيد المدى) من اجل انتاج فرقة وفق النموذج الجديد ، خلال مدة ستة اعوام تقريباً ، زج ميلن نفسه ليجيب (وهل تطلقون على ذلك اسم برنامج بعيد المدى) وختم حديثة بقوله : (ان فكرتنا هي التقدم بهدوء حتى النهاية . في حين انكم تريدون - على ما اعتقد - التقدم بسرعة كبيرة) ثم تعرض بعدها إلى المبالغ النقدية المحددة للتجارب والتطوير دون أن يعترف بأية طريقة ممكنة يحتمل لها تأمين النقود عن طريق الاختصار من الجيش القديم . كما اعلن ايضاً ان الهيئة الاستشارية للجيش لا زالت تخطط للاحتفاظ بفرقة الخيالة على اساس استخدامها للخيول ، مع تطويرها تدريجيا عن طريق تجهيزها ببعض العناصر الآلية (الميكانيكية) . ان باستطاعته الآن التفكير بما سببه من احباط بمثل هذا التقدم في (سباق الحلزون) . ولعل مما كان يزيد من اضطرابي هو معرفتي بصورة خاصة برغبة رؤسائه السياسيين وتقديراتهم لاحداث التغييرات بحجم اعظم وبسرعة اكبر . وأبدأ هنا من الدعوة التي وجهها لي وينستون تشرشل في بداية شهر اذار (مارس) لتناول طعام الغذاء معه في ١١ داونينغ ستريت (مقر الحكومة البريطانية) وأن أصطحب معي وورثينغتون - ايفان للحضور ايضاً لمناقشة الطرائق التي يمكن اتباعها والوسائل التي يمكن استخدامها لخلق الجيش الحديث . وقد وجدت بأنهم يبذلون اهتماماً كبيراً نحو اتخاذ خطوات أوسع للوصول الى ذلك في اقرب وقت ممكن ، وقد أخذ اقتراحاتي بصورة ملائمة وعندما ذهب ونستون تشرشل لحضور جلسة مجلس العموم ، تركني مع وزير الحرب للاستمرار في مناقشة التفاصيل بكاملها .

كان وينستون تشرشل قد أحدث هزة في وزارة الدفاع قبل ذلك بسنة عندما طالب إما بتحويل الخيالة بكاملها إلى قوة آلية (ميكانيكية) . أو العمل على حلها والغاء وجودها والاستعاضة عنها بتوسيع قوة الدبابات الملكية . ولكن ميلن قاوم هذا التخدير مستعيناً بالذرائع التي قدمت له ، ساخراً على الأغلب من فوللر - الذي كان خلال تلك الفترة لا يزال معاونه العسكري . وقد دعمت تلك المقاومة الجبهية بالضغوط الجانبية التي نظمتها قيادات الفرسان والتي كانت تدرك ان بالامكان التأثير على تشرشل باستخدام الذكريات العاطفية التي كان يحملها كعضو قديم من اعضاء فرقة الفرسان الرابعة (الهوسار) .

لقد اصبح واضحاً على كل حال من خلال حديثنا بأن تشرشل يعتزم العودة

للامساك بالقضية وانه سيدعم وورثينغتون ايفان لممارسة ضغوطه في دفع الموقف لتلبية الحاجة في التغيير . وأصبح لزاماً على ميلن تغيير رأيه الآن من جديد (والعودة للتقوقع داخل صدفته ـ كالحلزون) . والانقلاب على خطه المنطقي الذي دافع عنه في ايلول (سبتمبر) .

وصل المستشار ووزير الحرب ، في هذه المرة ، إلى نتيجة وهي تحويل لواءين من ألوية الخيالة ٢٢ (وهما اللواء ١١ هوسار واللواء ١٢ لانسر) إلى لواء راكب للعربات ـ المدرعة ، وذلك على نحو يشابه ما حدث بعد الحرب عندما تم تحويل عدد من ألوية اليومانرى إلى الوية في جيش الاقليم ـ وامكن تحويل الأول (وهو اللواء ١١ هوسار) خلال عام ١٩٢٨ . وعلى الرغم من أن هذا الانتقاء قد جاء الزاميا فقد برهن على أنه انتقاء جيد من الدرجة الأولى نظراً لأن الضباط العاملين في هذا اللواء قبلوا بروح عالية هذا التحول وبذلوا اقصى ما يستطيعونه لبعث روح الفروسية في اطار جديد . وقد ابهجتني تلك الحماسة وعلى هذا فقد اظهرت اهتماماً خاصاً ووثيقاً بنشاطات لواء ١١ هوسار خلال السنوات التالية ، وتابعت ما قام به من اعمال في حملة افريقيا الشمالية منجزاً كل التوقعات والآمال التي كانت منوطة به .

لم يحدث المزيد من التحول لسوء الحظ . وبقي هذان اللواءان وحدهما لمدة ثمانية أعوام حيث قررت وزراة الحرب بعدها تحويل ثمانية ألوية اخرى إلى قوات محمولة أو آلية ـ ميكانيكية . وبعد سنة أخرى بدأت مرحلة تحويل الخيالة بكاملها وذلك قبل ان تندلع نيران الحرب العالمية الثانية مباشرة . وكان الكثير من الاضطرابات والهزائم التي لحقت بالفرق المدرعة البريطانية في الحرب العالمية الثانية تعود الى هذا التأخير في تحويل الخيالة إلى قوة حديثة . وكان هناك تخلف في التحولات إذا ما أمكن مقارنتها بما كان عليه الألمان .

نعود إلى أحداث عام ١٩٢٨ ، حيث امكن ابراز قيمة القوة المدرعة بطريقة أخرى عندما أجري عرض لهذه القوة أمام ملك افغانستان (أمان الله) خلال زيارته الرسمية لانكلترا . وكانت التقارير عن موقفه العدواني لانكلترا ونشاطاته لاثارة الاضطراب ضدها قد سبقته في الوصول . وعندما كنت اتناول طعام الغذاء مع تشرشل ، وصفه بلهجة لاذعة وقال عنه (المتعب) وتحدث عن التقارير الخاصة التي وصلته عن أمان الله خلال توقفه في مصر ، وعن الطريقة التي حاول اتباعها لاثارة الملك فؤاد ، وتحريضه للعمل ضد البريطانيين بقوله : (ولماذا لا تطرد البريطانيين من بلادك ؟ انني لن أسمح

لاحد منهم بالدخول إلى بلادي !) وكان أمان الله قد هاجم في المرحلة الأولى من جولته حاكم بومباي السير ليسلي ويلسون ورفض الجلوس إلى يمينه كضيف شرف على طعام العشاء ، وصرخ به بصورة مباغتة (انك لست نائب الملك هنا !) وعلق وورثينغتون ـ ايفن على حديث تشرشل بقوله (انني لن ارافق أمان الله خلال زيارته لتيدوورث) .

اتخذت ترتيبات الزيارة لاستخدام وسائط ترويض أمان الله ، فتم توجيهه بصورة رئيسية للضغط عليه بقوة الجيش البريطاني وفي اطار هذا الهدف ، كان لزاماً أخذه لمشاهدة مدرسة مدفعية الدبابات في لولوورث وزيارة القوة الآلية (الميكانيكية) في تيدوورث والتي اعيد تعميدها الآن باسم (القوة المدرعة) .

علمت من اصدقائي في القيادة الجنوبية ان مخطط العرض تضمن وضع الملك أمان الله في مقدمة (السدة الملكية) . ثم تبدأ الدبابات في الانطلاق نحوه بكتلة ضخمة حتى تتوقف في اللحظة الاخيرة تماماً . ولكن السلطات المسؤولة في وزارة الحرب استشعرت الخطر من عدم استجابة المكابح في بعض الدبابات كما وضعت احتمال سوء تقدير بعض السائقين في تحديد المسافة التي يجب التوقف عندها مما يسبب سحق الملك ومعه كذلك القادة البريطانيين المرافقين له . وعلى هذا تم تعديل المخطط بطريقة تضمن انحراف الدبابات عند وصولها (للسدة الملكية) وهي تسير بأقصى سرعتها عوضا عن التوقف المباغت امام السدة مباشرة.وعلى كل حال فقد بذلت القوات الجوية الملكية افضل جهودها للتعويض عن هذا التعديل الذي فرضته تدابير الحيطة ، ولاثارة (عاصفة فوق رأس أمان الله) فأرسلت ثلاث طلعات من الطائرات المقاتلة بمهمة الانقضاض فوق السدة مباشرة وعلى رأس قوة الدبابات وقد اقتربت الطائرات قدر المستطاع (لتحلق شعر رأس امان الله) قبل ان تصعد من انقضاضها وهي تزمجر بصورة متواصلة وكنت اجلس في السدة الى جانب شستووود ، وأمين سر وزارة الداخلية جونسون هيكز فشهدت طرف جناح إحدى الطائرات وهو يقترب ليصدم سارية العلم الصغير الذي كان يرفرف وهو يحمل رمز الملك ، فاندفعنا جميعا فرارا من الخطر واصطدم بعضنا ببعض في وقت واحد . وقد ظهر أثر الصدمة بوضوح على الملك أمان الله ايضاً ولو أنه كان من الصعب رؤية مدى تحول لون بشرته الاسود إلى لون أصفر شاحب . وعلى كل حال فقد ضاع الأثر المطلوب للمدى الطويل ، فقد تم خلع الملك امان الله ، وعزله عن عرشه بعد فترة قصيرة من عودته إلى أفغانستان ، وذلك بسبب تعاظم المعارضة بين أفراد شعبه لسياسته المضادة للافكار الحديثة .

وضعت القوة المدرعة مع سربي الطائرات المخصصين للتعاون معها ، موضع العرض والاستعراض ايضاً في صيف تلك السنة للتأثير على اعضاء مجلسي البرلمان الذين كانوا يدافعون عن عقيدة استخدام الخيول وفرسان الخيول واثاروا صخباً وضجيجاً عند اجراء نقاش جديد بشأن موازنة الجيش وأكدوا بحماسة انه باستطاعة المدافع المضادة للدروع وضع الدبابات بسهولة خارج القتال وتدميرها .

امكن تصحيح الفكرة العامة والغامضة لذى الحضور بشأن قتل الدبابة بسهولة . عندما هاجمت الدبابات بالتعاون مع الطائرات التي كانت تقوم بالانقضاض وتحلق على ارتفاع منخفض لتضرب مجنبات المواقع الدفاعية ، وتعيق زمر المدافع المضادة للمدرعات عن تنفيذ واجباتها . وكان اشتراك الدبابات مع الطائرات ظاهرة تميزت بها اكثر استعراضات القوة الآلية وتمارينها خلال هذه السنوات ، وكنت اوضح بصورة مستمرة في مقولاتي التأثير المعنوي لهذا الاسلوب المشترك .

لم تقدر القيادات العليا في وزارة الحرب (وايت هول) لسوء الحظ ـ الأهمية الكبرى لهذه القوة ، واستمرت كذلك حتى ايار (مايو) ١٩٤٠ حيث ظهر العرض الألماني الذي قامت قاذفات القنابل ـ المنقضة (من سلاح الجو الألماني) بالاشتراك مع الفرق المدرعة الألمانية في العمليات لاحداث تأثير مدمر على دفاعات الحلفاء في الغرب . ولم تكن هيئة اركان القوى الجوية تفضل التطور الشامل في اسلوب العمل الذي قد يختلف عن اسلوب تفكيرهم في (القوة الاستراتيجية الخاصة) كطريقة لحسم الحروب بكاملها في المستقبل وذلك باستخدام القاذفات بعيدة المدى لقصف بلاد العدو . وقد يكون من الجدير بالذكر هنا ، بأن عدم رغبتهم في تأمين مزيد من الدعم الجوي للجيش الأرضي كانت مدعمة بصورة عفوية بالحماسة لتنظيم الاسراب التي تعمل بصورة وثيقة مع الجيش لاسيما وانه كانت من عادة الطيارين الانقضاض بصورة مرعبة حتى الارتفاعات المنخفضة للهجوم على الاهداف وكان لهذا الاسلوب أثره في استنزاف اعصاب الجنود مما حمل الهيئة الاستشارية في الجيش على تقديم شكوى ضد هذا الاسلوب الذي يسيء الى روح الوحدات المعنوية .

لم تصبح (القوة المدرعة) رغم تغيير اسمها في عام ١٩٢٨ قوة تختلف في تسليحها المدرع عما كانت عليه في السنة السابقة وكان التغيير الوحيد في تكوينها هو اضافة بعض سيارات النقل الكبيرة التي تسير على ٦ أطر . مع بعض الناقلات التي تسير بنصف ـ سلاسل وأطر (عجلات) وزيادة على ذلك فان الاعمال التدريبية لتلك السنة لم تتضمن

سوى القليل من العمليات التعبوية (التكتيكية) التي تتطلب قدرات القوة المدرعة وتظهر امكاناتها،وكانت اقل من ذلك بالنسبة للمناورات السوقية (الاستراتيجية) . وكان القسم الاكبر من التمارين ينفذ بطريقة (رتل السيارات) والذي ينتهي بانقضاض عادي ومألوف في ظروف محدودة وضيقة.نشرت تعليقاتي عن هذه التمارين في صحيفة (الديلي تليغراف) وناظرت فيها بأنه يجب على القوة المدرعة استثمار الاختلاف الكبير في التحرك بينها وبين قوات المشاة المتحركة على الاقدام من اجل التقدم الى اقصى الحدود الممكنة فقلت : (علينا ان نترك العدو حتى يحتل مواقعه الدفاعية ـ اذا ما اراد ذلك في حين تقوم القوة المدرعة بقطع الامدادات عنه او انها تعمل على نقل قدرتها النارية الى نقاط جديدة وحيث تستطيع ايضاً وفي وقت واحد شل قوات العدو الأخرى ومنعها من العمل . .وذلك عوضاً عن المجازفة بالدبابات في القتال القريب . . ان بالامكان خنق العدد وقطع نقاط تمعضل قواته وعقد تموينه مع احباط روحه المعنوية بنيران الازعاج ، وتنفيذ ذلك كله من قبل القوة المدرعة) وما ان يحدث ذلك حتى تتدهور الروح المعنوية فتنضم الى عوامل الجوع وغياب الدعم عن القوات وتصبح المواقع الدفاعية وحاميتها المدافعة عنها دون تأثير او فاعلية وقد تستطيع القوة المدرعة عندها انجاز ما هو مثالي عند الوصول الى ما طمح اليه المارشال ساكس ـ الخبير بفن الحرب عندما قال :(أنه باستطاعة القائد القدير كسب المعركة دون زج القوات بالقتال على الاطلاق) .

أمكن تنفيذ هذه الدور المثالي بكل ابعده في عام ١٩٤٠ بين سيدان والقناة الانكليزية من قبل القوات المدرعة الالمانية وبصورة خاصة منها فيلق غودريان الذي أطبق بسرعة (كالكماشة) على (قوات الجيش الافرنسي) مع العلم ان هذا الجيش كان يعادل بمجموعة عشرة اضعاف حجم القوة المدرعة الالمانية إلا انه كان يعتمد على قوة المشاة ذات الاسلوب ـ القديم في عقيدتها وفي سرعة تقدمها .

لم تتوفر في بريطانية ابدا فرصة لتجربة مثل هذا الاسلوب ـ الجديد في اول قوة مدرعة تجريبية وذلك لأن هذه القوة التجريبية قد تم حلها بعد انتهاء المرحلة الثانية من الموسم التدريبي في خريف عام١٩٢٨ . وقد جاء الاعلان عن حل القوة بمثابة صدمة للرأي العام وللقسم الاكبر من الزمرة المتعاظمة في الجيش ممن كانوا يعتقدون بأهمية المدرعات،وقد أصيبت هذه الزمرة بالفزع ولكن ذلك لم ينقص من فاعليتها حيث عملت على ارسال المزيد من التقارير التي انتشرت بين الوحدات بهدف حمل وزارة الحرب على (الاستمرار في التجربة) . وكان الخط الجديد هذا مدعماً من قبل فرق المشاة التي تضم بعضاً من المركبات المدرعة .أما بالنسبة للقوة المدرعة فقد نجحت رغم كل نقائصها وجميع

عيوبها نجاحاً رائعاً في التأثير على وحدات الجيش القديم واحباط روحها المعنوية ، مما حمل هيئة الاركان العامة على الشعور بضرورة عمل شيء ما لاستعادة الثقة والحصول على احترام القوات لها من جديد . وعلى هذا تم تحويل قوة لواءين من المشاة لما أطلق عليه في البداية اسم (الألوية الآلية ـ الميكانيكية) وكان اللواء الآلي يضم اليه ثلاثة افواج من المشاة مع سرية مدافع رشاشة آلية في كل فوج وفوج من المدرعات الخفيفة .

لقد كان هناك ايضاً بعض الاسباب الضمنية الأخرى التي حفزت على اتخاذ القرار والتي لم يتم ذكرها ذلك انه اصبح من الواضح تماماً بانه لم يكن من المرغوب فيه احداث المزيد من تطور القوة المدرعة تحت قيادتها الحالية.وهي القيادة التي لم تظهر اي تصور لامكاناتها الاستراتيجية ، كما انها تجاوزت ذلك عندما اكدت بان (المباغتة التعبوية التكتيكية ـ ستكون نادرة جداً بحيث يصعب على المرء تعليق اي أمل عليها) . وهكذا ومع ارتفاع الضجيج لدعم المشاة بالدبابات ، شعر برود وليندسي انهما يستطيعان (قتل عصفورين بحجر واحد) اذا ما خصصت سنة للتجارب المشتركة (دبابات ـ مشاة) لاظهار قدرتهما وعرضها ، وبذلك يتم تمهيد الطريق لظهور قوة مدرعة جديدة تحت قيادة جديدة . وكان علينا الانتظار لسوء الحظ ثلاث سنوات اخرى قبل أن يتحقق هذا الأمل .

□ حواشي الفصل الخامس □

١) في عددي ٢٤ و٢٧ ايلول ١٩٢٦ . وقد ضمنت ما جاء في المقولتين من نقاط بارزة مع بعض المقاطع في فصلين من كتاب صدر لي بالعنوان ذاته . وكتبت الكتاب في شتاء تلك السنة وصدر في حزيران (يونيو) ١٩٢٧ .

٢) يعني فوللر بذلك ان (ورق اللعب) في يدي .

٣) اللواء السير ارنست سوينتون اصبح استاذا محاضراً لمادة التاريخ العسكري في جامعة اكسفورد عام ١٩٢٥ ، خلفاً للاستاذ سبينسر ويلكينسون الذي كان اول من احتل ذلك الكرسي عند تكوينه في عام ١٩٠٩ . (المؤلف) .

٤) سكيبيو او سكيبيون SCIPION : لقب العائلة المشهورة (كورنليس) في روما القديمة ، برز منها خاصة سكيبيون الأفريقي (٢٣٥ ـ ١٨٣ ق ـ م) واشتهر في إسبانيا خلال الفترة الثانية من الحرب البونية ، حيث انتصر على هانيبال في معركة ذاما عام ٢٠٢ ق . م واتهم من خصومه بالاختلاس ، فدافع عن نفسه بالعبارات التي حافظت على شهرتها: ايها الرومانيون : في مثل هذه الأيام انتصرت على هانيبال وعلى قرطاجة . فلنصعد الى الكابيتول ولنرفع شكرنا لله . ومات وهو في المنفى في ليترن بعد ان امر ان يحفر على قبرة (ايها المواطن العاق . لن يبق لك مني سوى العظام) . وهناك ايضا سكيبيون امليان (١٨٥ ـ ١٢٩ ق . م) ابن بول اميل والحفيد بالتبني للسابق . انتصر في نوماس ودمر قرطاجة عام ١٢٦ ق . م واشتهر بلقب الافريقي الثاني . تزعم حزب الارستقراطيين ومات في ظروف غامضة اثناء مناقشة القوانين الزراعية التي كان يعارضها .

٥) الوثيقة العظمى : MAGNA-CHARTA للتنوية بوثيقة الحقوق التي أكره النبلاء الانكليز مليكهم جون على اقرارها في عام ١٢١٥ . وهي وثيقة تشكل ضمانا اساسيا للحقوق بامتياز كبير .

الفصل السادس
مناظرة في القدرة الجوية

كان طبيعياً مثل التنفس بالنسبة لي ، ادراك ما ستحدثه القدرة الجوية من ثورة في الحرب . ولم يكن الأمر يتطلب تصوراً أو توقعاً ، أو حتى مجرد خيال جامح ، بقدر ما كان يتطلب امعان النظر لرؤ ية الأمور بوضوح . فقد كنت في عمر الثامنة عندما قام الأخوة دايت باجراء عرض هدفه اظهار قدرة الطيران بصورة عملية ، وكنت في بداية الثالثة عشرة من عمري تماماً عندما نجح الأخوة دايت في البقاء في الجو ، والتحليق للمرة الأولى خلال ساعة كاملة ، وكان ذلك قبل أن يقوم بليريوت مباشرة بأول رحلة جوية لاختراق القنال البريطاني . وقد أثارت هذه الأعمال البطولية الرائعة اهتماماتي ، كما أن منجزات الطيران في عبور القناة مرات عديده خلال السنة التالية قد اجتذبت اليها حماستي كلها واندفاعي ، بحيث أصبحت منذ ذلك الحين أحاول اغتنام كل فرصة لحضور مباريات الطيران والمسابقات والمهرجانات الجوية . وهكذا فقد كبرت ، وكبر معي بتواقت واحد حب (عصر الفضاء) .

لقد ذكرت في بداية الكتاب أن الموضوعات الأولى التي عالجتها والتي تم نشرها هي تلك التي كتبتها لمجلة (الطيران) والمجلات الاختصاصية الأخرى في موضوع صناعة الطائرات . ومنذ سنوات قليلة ، عملت على استخراج الكتابات والمصورات التي وضعتها وفقاً لتصوري عن تصميم طائرة المستقبل . وقد أصبت بالذهول وأنا أشهد

تماثلها في الشكل وتشابهها مع النماذج المتطورة حديثاً وذلك بعد مضي فترة تزيد على العشرين سنة ، عن وضع هذه التصاميم التي كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن طائرات العصر الذي وضعت فيه .

توقفت عن الكتابة ، ومعالجة المزيد من الموضوعات المتعلقة بالطيران ، رغم تلك الحماسة المبكرة ، ورغم القناعة بأهمية القدرة الجوية . واستمر ذلك حتى عام ١٩٢٢ عندما بدأت في محاولة دراسة تنظيم القوات البريطانية لحرب المستقبل . وكانت الخلاصة التي وصلت اليها في هذا المجال هي أن (الحرب العظمى المقبلة) ستكون خاضعة لهيمنة القوات الجوية والقوات المدرعة . ولكن نظرتي بقيت مقيدة في حدود تعاونهما معاً أكثر من عملهما بصورة مستقلة كل عن الأخرى .

لقد فتحت أمامي آفاق واسعة في شتاء عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ نتيجة لاعادة ابحاثي بصورة شاملة في عقيدة الحرب الموجودة . وأصبح بالامكان تغطية موضوع استخدام القدرة الجوية وابراز فائدتها بصورة مستقلة . وشرعت منذ ذلك الحين والى ما بعد ذلك في بحث (خداع الأساليب النابوليونية وتضليلها) وذلك في اطار (الهدف المعنوي في الحرب) . وهناك دراسة وفق هذا المضمون كنت قد نشرتها في آذار (مارس) ١٩٢٥ في مجلة الامبراطورية ، وهي مجلة لم يعد لها وجود ، إذ توقفت عن الصدور منذ عهد بعيد . وقد يكون من المفيد اعادة ذكر المقاطع التي تتضمن النقاط الرئيسية ، نظراً لأن هذه المحاولة كانت هي البداية لتحديات بعيدة المدى في مجال تطوير المفاهيم الاستراتيجية وسياسة الحرب .

مضى اكثر من نصف قرن على هيئات الأركان في الدول العظمى ، وهذه الهيئات أركان تستند في عقائدها القتالية على الاسلوب النابوليوني في « الحرب المطلقة » بحيث يمكن الوصول الى الهدف الوطني في الحرب عن طريق كسب المعركة الحاسمة فقط ، وتدمير الكتلة الرئيسية لقوات العدو المسلحة . . .

وتهدف هذه الدراسة لعرض الافكار الخاطئة في العقيدة النابوليونية ، ذلك أن (القوى العظمى) قد وصلت الى مستويات متقاربة ، وعملت على تغيير مفهومها للحرب تغييراً شاملاً . ويظهر الخطأ الأساسي للعقيدة النابوليونية من خلال المتغيرات في المواقف المالية والتجارية والقيم المعنوية ، وكذلك الافلاس أو الفقر الكامل الذي تتعرض له الدول الأوروبية بمقادير مختلفة زيادة ونقصاناً بالنسبة لما كانت عليه فرنسا في عهد نابليون بونابرت مثلاً . . .

ترى بماذا سيخبرنا الرأي العام لو استطلعنا وجهة نظره بالنسبة للهدف الوطني ـ أو القومي ـ عند اتخاذ القرار المصيري باعلان الحرب ؟ ان الاستجابة ستكون يقيناً هي في العودة لضمان الاستقرار ، والاستمرار في التدرج نحو ما يمكن اطلاق عليه اصطلاح (سياسة السلم) على ان تكون فترة الانقطاع عن الحياة الطبيعية للإقليم قصيرة جداً ، وعلى ان يكون الثمن المدفوع ـ في الحرب ـ زهيداً قدر المستطاع .ولكن ما هي العقبات التي تعترض هذا السبيل ؟ هناك قبل كل شيء على ما هو واضح التصميم العدواني للأمة من أجل دعم سياستها المضادة لرغباتنا واهدافنا . ونتيجة لذلك فانه يجب علينا تغيير هذا (التصميم العدواني) وجعله ودياً ، ومستغداً للتجارب مع أهدافنا ورغباتنا الخاصة ، وهذا هو ما نستطيع أن نفعله بأسرع ما يمكن ، مع الاقتصاد الاكبر في الطاقة البشرية والامكانات الاقتصادية ، أما أفضل ما نستطيع عمله للمستقبل فهو الاستمرار في ضمان رفاهية الأمة ، ويكون هدف الأمة في الحرب ـ تبعاً لذلك ـ هو إحباط ارادة القتال عند العدو مقابل دفع أقل ثمن ممكن من طاقتنا البشرية وخسائرنا الاقتصادية .

اذا ما أدركنا بأن ذلك هو الهدف الحقيقي ، فاننا سننظر بتقدير الى حقيقة أن تدمير القوات المسلحة للعدو ليس اكثر من وسيلة للوصول الى الهدف الحقيقي ـ وليس من الضروري أن تكون هذه الوسيلة هي الوحيدة التي لا يمكن تجنبها ، أو التي تضمن النجاح بالتأكيد ـ كما أنه من الواضح ايضاً بأن احتلال الأرض لا يشكل الهدف الحقيقي في الحرب ـ خلافاً لما تتم المطالبة به في كثير من الأحيان . وهكذا وعندما نستطيع ايضاح الطريق بعيداً عن ضباب الشعارات التي تحيط بادارة الحرب ، فسندرك بأن الانسان هو الحافز الأساسي ، والمورد الحقيقي لكل صراع ، شأنه في ذلك شأن كل فاعلية له في الحياة ؛ وسيصبح من الواضح تماماً بأننا نستطيع الوصول الى هدفنا في الحرب عن طريق اخضاع ارداة الخصم فقط .

وعلى هذا تصبح الأعمال المختلفة جميعها ، مثل الحاق الهزيمة بالعدو في الميدان ، وكذلك الحرب الدعائية ، والحصاد الاقتصادي ، والوسائل الديبلوماسية ، أو حتى الهجوم على المراكز الحكومية والمراكز السكانية ، وغير ذلك مجرد وسائل للوصول الى هذه النهاية ، وتصبح لدينا الحرية الكاملة لتقدير أهمية كل وسيلة من هذه الوسائل ، وانتقاء ما هو اكثرها ملاءمة لتحقيق الهدف بأقل ثمن ممكن وذلك عوضاً عن التعلق بوسيلة واحدة . وعلى سبيل المثال فان المنتصر هو ذلك الذي يحقق لنا الهدف ضمن الحد الأدنى لتمزق حياتنا الوطنية أثناء الحرب وبعدها . ثم ما هي فائدة النصر الحاسم في المعركة ، اذا أمكن الوصول الى هذا النصر بنزف حاد من الدماء وصل بالأمة الى حافة الهلاك ؟ . . .

عالجت في مقولتي بعد ذلك الطريقة التي تطورت بموجبها عقيدة (الحرب المطلقة) في اطار تعاليم كلاوزفيتز بعد الحروب النابوليونية ، ثم كيف أصبحت هذه التعاليم بمثابة كيان ثابت في الفكر العسكري للأجيال التالية نتيجة لنجاح الجيش الروسي في حروب ١٩٦٦ وحروب ١٨٧٠[1] . وقد أظهرت بأن أنظار مدرسة كلاوزفيتز وأتباعه قد عملوا ـ بمثل ما يعمل له أتباع كل استاذ عظيم ـ عندما أمسكوا بأقوى تعاليمه واكثرها فاعلية ، في حين انهم أهملوا تحفظاته ، ثم حملوا هذه التعاليم حتى نهايتها الخطرة في وضع اطار لعقيدة (الحرب غير المحدودة) في حين كانت تعاليم كلاوزفيتز بصورتها الواقعية قريبة جداً من المفهوم المحدود ـ في التدمير بصرف النظر عن الهدف والثمن المقابل لهذا التدمير .

تابعت بعد ذلك مقولتي ، فعملت على تلخيص عدد من احداث التاريخ التي تقررت فيها نتيجة الحرب بتوجيه الضربة الى (الهدف المعنوي) وشل (ارادة المقاومة عند العدو) دون الوصول حتى لتدمير كتلة قواته المسلحة . وكان من بين الأمثلة المختلفة التي ذكرتها اكتشاف الاسكندر لتركز ارادة القتال حول شخص القائد داريوس (الثالث ملك الفرس ٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق . م) واستثمار هذه الحقيقة لتدمير مقاومة الفرس . وكذلك الأمر بالنسبة لاستراتيجية سكوبيون (٢٣٥ ـ ١٨٣ ق . م .) الذي نقل جيشه الى أفريقيا من أجل توجيه الضربة الى قرطاجة ذاتها ، عوضاً عن مجابهة هانيبال وكتلة جيشه الرئيسية بصورة مباشرة فوق أرض ايطاليا . وكذلك انهيار قدرة نابليون بونابرت وسلطته في عام ١٨١٤ عندما توجه الروس مباشرة الى باريس مستفيدين من الاسترخاء المرحلي لقبضة نابليون عن الشعب الفرنسي الذي استنزفته الحرب . وذلك عوضاً عن توجه الروس نحو الشرق لمجابهة جيش نابليون والهجوم على جناحه . وبعد هذه اللمحة التاريخية الوجيزه ، تابعت مقولتي لطرح وجهات النظر التالية :

ان بالامكان الوصول الى الوسائل التي يمكن بواسطتها تحقيق الهدف المعنوي في اخضاع ارادة المقاومة عند العدو . ويمكن ممارسة هذه الوسائل في المجالات العسكرية او الاقتصادية أو السياسية أو حتى في الدوائر الاجتماعية . وزيادة على ذلك فقد يكون السلاح المستخدم للتنفيذ عسكرياً أو اقتصادياً أو ديبلوماسياً يشتمل ضمناً على الدعاية .

ان موضوع هذه الدراسة يعالج قضية الحرب ، وعلى هذا فان الأسلحة الديبلوماسية والاقتصادية ستكون خارج وجهة نظرنا المجردة ، وذلك ما لم تكن هذه الأسلحة مقنعة بقناع عسكري . وعلى كل حال ، فقد تظهر هناك بعض من الشكوك بأن يكون للسلاح الاقتصادي عند استخدامه في الصراع بين سياسات وطنية متنافسة خلال فترة السلم المزعوم تلك القوة أو الإمكانات للشعور بتأثيراته أو لإدراك أبعاده ومضامينه.

ومرة أخرى ، فإن السلاح العسكري قد يستخدم بمهارة هنا ـ في المجال الاقتصادي ـ دون أن تكون هناك حالة من الحرب المعلنة أو المكشوفة .

وعلى هذا يمكن التساؤل : ما هي اذاً الطرائق التي يمكن بها استخدام السلاح العسكري في الحرب لاخضاع ارداة المقاومة عند العدو ؟

هناك وسيلتان يمكن استخدامها بالنسبة للبحرية ، تدمير القوة البحرية المعادية أو فرض الحصار بهدف قطع كل موارد الإمداد من (ما وراء البحار) . ويتم استخدام هذه الوسيلة الثانية عن طريق فرض الهيمنة على طرق المواصلات ، أو عن طريق الإغلاق المباشر لموانئه . وهناك اعتراض قوي يقف في مواجهة طريقة (فرض الحصار) وهو أن هذا السلاح ذو فاعلية بطيئة في ممارسة تأثير حاسم ، لا سيما وأن عامل الزمن عادة ما يكون حاسماً في الرفاهية الاقتصادية للاقليم الذي يمارس استخدام هذا السلاح ، بحيث يكون هذا الإستخدام مقيداً بشروط مختلفة اخرى تتزايد في قوتها او تتناقص تبعاً للموقف ، وهذه الشروط بعضها سياسي وبعضها اقتصادي ، وبعضها عسكري يمارس دوره ايضاً في الموقف السياسي . أما الوسائل الأخرى بالنسبة للجيش فهي تدمير القدرة العسكرية للعدو وذلك الى جانب فرض الرقابة على طرق المواصلات والموارد الاقتصادية ؛ واحتلال ـ المركز ـ أو المراكز الحكومية ، والمناطق السكنية المأهولة ، وكذلك القبض على الأفراد المحرضين للسياسة المضادة ، أو العمل على الاطاحة بهم عن طريق الانقلابات ، ونشر الذعر بين السكان عن طريق الارهاب . ولكن هذا العمل ، رغم نجاحه المرحلي والمؤقت ، فانه لا يلبث عادة حتى يثير ردود فعل غير مناسبة في وسط دول العالم المتحضر مما يقلب هذا السلاح ضد المعتدي .

تعاني الجيوش ، على كل حال ، من عقبة كبيرة عند استخدام أي وسيلة من هذه الوسائل الأقل تدميراً في قهر الروح العدوانية عند الخصم واخضاعها . ذلك أن تقييد الحركة بمخطط واحد ، يجعل من المحتمل جداً الوصول الى عاصمة العدو أو مراكزه الصناعية ومحاور اتصالاته دون حدوث اللقاء الأول مع الكتلة الرئيسية لجيش العدو ، وهو الجيش الذي يشكل الترس او الستار الوقائي لحماية الأمة والحكومة التي تمثل هذه الأمة . وتشكلت نتيجة هذا القيد الذي يعود تاريخه الى عهد بعيد ، تلك الفكرة المحدودة في أفقها ، بأن القوات المسلحة ذاتها هي الهدف الحقيقي في الحرب . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الزعم الخاطيء ، أن أصبحت الوحدات المقاتلة التي يتكون منها الجيش ـ أو الجيوش ، هي الهدف الذي يجب توجيه الضربة ضده . وأصبحت عملية القتل الاجماعي ـ المسلخ ـ والتي تنفذ بصورة آلية ـ اوتوماتيكية ـ هي وقود الحرب ، كما

أصبحت العقيدة الأساسية للحرب هي قتل أكبر عدد من وحدات العدو ـ كلما كان ذلك ممكناً ـ مع دفع المجموع الكامل للخسائر المقابلة حتى حدودها الدنيا . وكانت هذه العقيدة العسكرية قد وصلت الى ذروتها المأساوية ـ والمضحكة معاً على الجبهة الغربية في الحرب العظمى ـ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م .

لقد كان الغباء واضحاً في هذه العقيدة الخاطئة . وكان باستطاعة كل عقل اكتشاف هذا الخطأ يقيناً اذا ما حاول التفكير بصورة منطقية ، عوضاً عن الاستسلام الأعمى للتقاليد المتوارثة . والحرب بعد ذلك ليست اكثر من مناظرة ثنائية بين أمتين عوضاً عن أن تكون بين فردين اثنين . ولعل لحظة من التأمل الحيادي ـ غير المتحامل ـ في التناظر الوظيفي لمباريات الملاكمة ، تكفي للكشف عن الهدف الذي تفرضه الأحاسيس ـ المشتركة . وليس هناك سوى أغبى أغبياء الملاكمين ممن يحاولون قهر خصومهم والاحتفاظ بالسهم الأخير حتى يتم اضعاف الخصم ، على الأقل ، لحمله على الاستسلام . ذلك ان هذا الاسلوب حتى لو أمكنه تحقيق النجاح في النهاية ، فهناك احتمال كبير في أن تستنزف قوة الطرف المنتصر ذاته ، وأن يصاب أيضاً بالجراح . وعلى كل حال ، فان الملاكم المنتصر ينال مكافأته ، وبامكانه احتمال فترة النقاهة دون حزن أو أسى ، في حين تكون فترة استعادة الأمة لصحتها بطيئة ، كما يرافق هذه الفترة كثير من التفاعلات المؤلمة . ومهما كان عليه أمر هذه المقارنة ، فان الملاكم الذكي هو الذي يستخدم مهارته لضرب خصمه ضربة واحدة حاسمة ، ومع توجيه هذه الضربة في وقت مبكر قدر المستطاع ضد أحد النقاط الحساسة ـ الخطرة ـ كالذقن أو رأس المعدة « فم المعدة » بهدف شل مقاومة الخصم بصورة فورية . وبذلك يستطيع تحقيق هدفه في كسب المباراة دون أن يعرض نفسه لآلام جدية .

لقد أصبحت الدبابة هي الأداة التي تستطيع الوصول الى هذا الهدف العسكري الحقيقي . اما الأداة التي تستطيع الوصول الى مجالات أبعد بفضل امكاناتها فهي الطائرة . ذلك أن هذه المركبة الجوية تساعدنا على القفز فوق جيش العدو الذي يشكل درع الوقاية لحماية الحكومة والصناعة والشعب . وتتوفر بذلك الفرصة لتوجيه الضربة مباشرة ضد مقر مقاومة الخصم ومركز ادارته السياسية . ولكن اذا لم تكن الضربة على درجة كافية من المرونة والقوة ، فليس هناك سبب لاصابة الجهاز العصبي بالشلل في احد الأقاليم المشتركة في الصراع ، مع حدوث هذا الشلل خلال ساعات قليلة من بداية الأعمال العدوانية ، أو حتى خلال أيام عديدة . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة الحديثة المتقدمة في سلم الحضارة ، تشكل نسيجاً متشابكاً شديد التعقيد ، مما يجعلها هدفاً شديد

الحساسية للتأثر بضربة مباغته عن طريق الجو .

أكملت بعد ذلك تصوير التأثيرات المحتملة بمـزيد من التفـاصيل ، ثم أضفت تحذيراً مقترناً باقتراح كالتالي :

ولكن المصلحة الذاتية تتطلب كما تتطلب الضرورات الانسانية أيضاً ، ان تحاول الأمم المتحاربة الوصول الى أهدافها في السيطرة المعنوية على العدو ، مع اصابته بالحـد الأدنى ـ وقدر المستطاع ـ بالجراح الجسدية غير الدائمة والدمار الصناعي ، ذلك ان عدو اليوم هو زبون الغد وشريكه ، وهو أيضاً حليف المستقبل . ان انزال الدمار بالعـدو ، واصابته بنسبة عالية من الاصابات القاتلة ، انما تعني اصابة مستقبل الرفاهية ـ الـذاتية بالخسائر الفادحة ، مع بذر بذور الانتقام ، مما يعرض المستقبل الأمني للخطر .

لقد قدم علم الكيمياء للانسان نوعاً من السلاح يستطيع انقاص الحاجـة للقتـل ويحقق نتائج حاسمـة بمعـدل أقـل بكثـير من الجراحـات الدائمـة ، ممـا كانـت تسببـه المتفجرات . . . وزيادة على ذلك ، فان باستطاعة الكيمياء أن تقدم لنا حالياً من انواع الغازات غير الثابتة ما يكفي للتغلب على المقاومات المعادية . ونشر الرعب خلال فترة كافية لاقتطاف ثمار النصر ، ولكن دون ترك الكوارث الثابته ، والمحن الدائمة التي تأتـي في اعقاب القتل أو تدمير الممتلكات . . . ثم جاءت نهاية البحث لتركز على الملاحظة التالية :

يبقى هناك أمل في أن تكون هذه الدراسة قد أظهرت ضرورة الابقاء على (انسانية الحرب) لا كمجرد قصاصات ورقية تعمل الأمة ـ أو الأمم ـ على تمزيقها اذا ما شعرت بأن حياتها الوطنية معرضة للخطر ، وانما عن طريق تكوين القناعـات بأن انتشـار الموت ، وتوسع نطاق الدمار ، إنما يعرض مستقبل المنتصر ورفاهيته للخطر ، كما أنـه يسيء الى سمعته أيضاً .

وهكذا ، ومع محاولتنا لاظهار أهمية السلاح الجوي كوسيلة لقمع ارادة المقاومة عند العدو ، علاوة على ان اعتبار القوات المسلحة هي الهدف الوحيد في الصراع قد أصبـح ضرباً من الجنون . فاننا سنصل الى نتيجة وهي ان المزيد من التطور العلمي قد يعدل من جديد استنتاجاتنا حول أفضل الوسائـل التـي يمـكن استخدامهـا للوصـول الى الهـدف المعنوي ، وعلى كل حال ، فمن المأمول ان تكون الفكرة عن خطر الحشد من طرف واحد للتركيز على (القوات المسلحة) كهدف وحيد ، ونظرية نابليون عن (الحرب المطلقة) قد أصبحت على درجة كافية من الوضوح ، وعلينا عدم الوقوع ثانية في خطأ الخـداع بـين الوسائط وبين الهدف ، بحيث يبقى هدف الحرب ماثلاً باستمرار أمام سياستنا الـوطنية

لسنوات ما بعد الحرب ، ويبقى الهدف الحقيقي الوحيد هو في العامل النفسي لاخضاع ارادة المقاومة عند العدو ، مع تحمل الحد الأدنى من الخسائر الاقتصادية والبشرية والخلقية . مما يفرض بالضرورة اللجوء الى الاختيار الدقيق ، والانتقاء المدروس للوسائط التي تتوافق بصورة أفضل مع هدفنا من الحرب .

لقد حدث ما كنت اتوقعه ، فقد كانت هذه المرة الأولى التي يتم فيها تحدي عقيدة (الحرب الشاملة) والتي أصبحت موضع الاعتراف بها وقبولها عالمياً سواء من رجال الدولة أو من القادة العسكريين . وكانت هذه المقولة أيضاً ، ذريعة لنظرة أكثر شمولاً بشأن الحرب ، يتم عن طريقها احلال هذه النظرة مكان المفهوم الضيق الذي ينص على أن الحرب هي دائرة اختصاص القوات المسلحة فحسب ، وانه ما ان تبدأ الحرب حتى يصبح لزاماً على رجال الدولة الانسحاب من دروبها لمصلحة القادة (الجنرالات) .

وهو مفهوم فرضته تعليمات كلاوزفيتز ، واستخدمه قادة الحرب العالمية الأولى بصورة ثابتة ، وباستمرار ، كما رددت الصحافة اصداء هذه التعليمات وكذلك فعل الجمهور والقسم الاكبر من رجال الدولة الذين أقروا بهذه التعليمات وخضعوا لها وهم مذعنين .

لقد عملت على التوسع في هذا البحث ضمن كتيبي الصغير (باريس ـ أو مستقبل الحرب) والذي تم نشره في شهر تموز (يوليو) من السنة ذاتها ، وعالجت بمزيد من الشرح والاطالة قدرات القوات الجوية وامكانات القوات المدرعة وكذلك الأسلحة الكيميائية . وكان هناك مجال رحب للمعالجة بعكس ما هو عليه الموقف في تحرير المقولة للنشر في المجلة . وقد تركزت مناظرتي على أن (الاستخدام العسكري الصحيح للقوات المدرعة ـ الدبابات ـ) هو في حشدها وزجها ككتلة ضخمة لتوجيه ضربة حاسمة ضد (عقب أخيل) في جيش العدو ، ممثلاً بمحاور المواصلات والمراكز القيادية التي تشكل الجهاز العصبي للجيش . وهنا تستطيع القوات الجوية تنسيق التعاون في هذا الاختراق العميق للهجوم الذي تقوم به القوات المدرعة . ولكن الواجب الأساسي والدور الحاسم لها هو في توجيه الضربات ضد الجهاز العصبي للأمة المعادية (وهو الجهاز الذي تكون فيه الموارد الاقتصادية ومحاور المواصلات بمثابة عقب أخيل) .

جاء الكتاب ليصدم رئيس هيئة أركان القوات الجوية ، السيد هوغ ـ ترينشارد ، على نحو ما سبق لي ذكره في الفصل السابق . وقد اكتسب الكتاب ـ عن طريقه ـ شهرة واسعة تسببت بانتشاره في القوات الجوية الملكية ، وفي كلية الاركان الجديدة لهذه القوات ، لاسيا وقد جاء ظهور الكتاب في حالة غياب المرجع الرسمي الذي يعالج

استراتيجية القوات الجوية والذي يلائم الميل للتطور وفق وجهات نظر هيئة أركان القوى الجوية حول الموضوع .

لقي الكتاب مزيداً من الدعم ساعد على انتشاره ايضاً ، وقد جاء هذا الدعم عن طريق السيد جيوفري ـ باتلر ، استاذي السابق في التاريخ والذي دخل البرلمان بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب كعضو عن جامعة كامبريدج .

ثم أصبح في عام ١٩٢٥ ، ونتيجة لتوافق الظروف الحسنة ، أميناً خاصاً للسر في البرلمان عند أمين سر الدولة لسلاح الجو « السيد صاموئيل هور » ، واغتنم أول فرصة ليقدم له نسخة من كتيبي (باريس) ، وقد عمل جيوفري باتلر بعد ذلك مباشرة ، وبناء على رغبة صاموئيل هور ، على ترتيب لقاء بيننا لتناول طعام الغذاء معاً ، وكان لي بعد ذلك ، وخلال السنوات التالية ، أحاديث عديدة مع هور ، لم تقتصر على شؤ ون القوات الجوية الملكية البريطانية ، وانما تجاوزتها الى مجالات اكثر اتساعاً ، لمعالجة مشكلات الدفاع وتخفيض التسلح .

كان صاموئيل هور حاد الذكاء جداً ، مع خطوط حادة في قسمات وجهه كانت عكس اسلوبه الدقيق والمتزمت . وهو الاسلوب الذي استثار اللورد بيركينهيد وحمله على وصفه بالكفاءة العالية وانه (آخر السلالة العريقة للعذارى من الخالات ، أو العمات) . وكان اسلوبه ايضاً مميزاً بالاثارة لكثرة استخدامة لكلمة (نعم ـ نعم) كفاصل يتكرر في كل حديث من أحاديثه . ولقد استخلصت من أحاديثي معه ما أقنعني بانه يمتلك الحماسة الحقيقية لتقدم القوات الجوية ، وان هذه الحماسة ليس مجرد وسيلة لدعم طموحه السياسي ، ولكنها نتيجة لاعتقاده الراسخ الذي تكون لديه مع دعمه المستمر لجهود الاصلاح الجزائي ، والغاء عقوبة الاعدام حتى الموت ، والدفاع عن حقوق الانسان .

كانت أولى ثمار هذا الاتصال مع صاموئيل هور ، هو تبنيه لاقتراح وضعته عند بداية الاضراب الوطني العام في ٤ أيار (مايو) ١٩٢٦ . وكان هناك اتجاه عام بين الكثيرين من حزب المحافظين وفي الدوائر العسكرية ، لاعتبار هذا الموقف بمثابة (موقف حزبي) ومعالجته على الأساس . وكان ذلك يتضمن مجازفة كبرى في تطوير الموقف الى حرب أهلية فيما لو بدأت العمليات باطلاق النيران . وكانت هناك مناظرات حادة للامساك بهذه الفرصة من أجل فتح النار ، (وتعليم المضربين درساً لا ينسوه) . وشعرت ان بالامكان تجنب مثل هذه الكارثة والقضاء عليها عن طريق استخدام الغازات المسيلة للدموع ، التي لا تسبب أي ضرر أو أذى أكثر من شلل المتظاهرين مؤ قتاً واخماد جذوة غضب الجماهير عوضاً عن اتخاذ أخطر الاجراءات باطلاق الرصاص . وكنت قد قابلت

ميلن في اليوم السابق لبدء الاضراب العام ، وطرحت عليه اقتراحي ، ولكنه لم يظهر اهتماماً كبيراً بشأنه ، فتوجهت لمقابلةالسير جوفري باتلر في وزارة الطيران وشعرت بالسعادة إذ وجدته وقد تقبل الفكرة مباشرة والتزم - كما قال لي - بالعمل على الفور من أجل تحقيقها مع سام هور ، ثم مع وينستون تشرشل بعد ذلك ، ولم يمض أكثر من يومين فقط حتى وصلتني رسالة منه يعلمني بان الحكومة قد تبنت الاقتراح ، ثم علمت فيما بعد انه قد تم تكليف القوات الجوية الملكية البريطانية بالعمل لنشر كميات من الغازات المسيلة للدموع فوق المراكز الصناعية الرئيسية ثم جاءت نتيجة أخرى من الهند وبعض أقاليم المستعمرات الأخرى لتعمل على اكمال هذا التقدم المباغت في تقنية استخدام الغازات المسيلة للدموع ، وفقاً للفكرة الجديدة وكان ذلك بمثابة أفضل ضمان ممكن ضد كل تطور مباغت في المستقبل لاعمال العنف ، وحتى لا تتكرر مثل تلك المذابح الرهيبة التي تعرض لها الدهماء في أمر يتسار[٢] نتيجة لتساهل الحاكم البريطاني الجنرال ديار

لقد تضمنت مذكراتي اليومية جانباً مضيئاً وهاماً عن وجهات نظر الحكومة لدى خروجها من أزمة الاضراب العام ، وقد استندت فيما تضمنته المذكرات اليومية هنا الى حديث مع جيوفري باتلر وفيه

(لقد سألني فيما اذا كان لدي هناك ثمة أفكار أخرى ، وكذلك رأيي فيما اذا كان على الحكومة القاء القبض على زعماء الاضراب وأجبته بأن القاء القبض على زعماء الاضراب هو مبدأ صحيح عسكرياً ، بحيث تنزل الضربة على رؤوس الرعاة عوضاً عن سقوطها على قطيع الخراف ، ولكن يجب الانتظار وعدم البدء بالحركة للعمل قبل أن تتوفر الذريعة الحقيقية للتدخل وقد قال لي جيوفري باتلر بان وينستون تشرشل في سبيله لابتكار طريقة جديدة وهي (عدم نقل كل ماله علاقة بميدان الصراع قبل ان تصبح معلومات الصراع مجرد أنباء أو أخبار)

حدثت في الربيع التالي أزمة فيما وراء البحار ، وقد تطورت هذه الأزمة مع تقدم الجيوش الثورية الكانتونية بقيادة تشانغ كاي شيك وكانت هذه الأزمة قد بدأت باندلاع نيران الثورة الى الشمال من نهر يانغتس ، وأخذت تهدد بخطرها المستوطنات البريطانية في شانغهاي وفي كل مكان من الصين وقد تم تنظيم قوة دفاعية على عجل لمجابهة هذه الظروف الطارئة ، وأرسلت الى شانغهاي تحت قيادة جون دونكان[٣] وكان غودت رئيس هيئة أركان هذه القوة وعندما كانت هذه القوة تقوم بواجب حماية المستوطنات هناك ، كانت قطع المدفعية البحرية والبواخر البريطانية تبدأ هجومها عبر نهر يانغتس وهنا ، فعندما قابلت سام هور في يوم ٨ نيسان (ابريل) ، أفدت من هذه الفرصة فاقترحت

ارسال المركبات ـ الطائرة الى هناك ، نظراً لكونها السلاح الأمثل للعمل فوق الأنهار الصينية ، كما أنها تشكل وسيلة للردع اقوى في تأثيرها من قطع المدفعية البحرية ، لا سيما وأنها تستطيع التوقف على مسافات بعيدة من مجال عمل القوات الصينية ، ثم تنطلق من هناك لتحلق فوق الوحدات أو فوق جموع الثائرين ، مشكلة بذلك وسيلة واضحة جداً لاظهار قوة بريطانيا وقدرتها للدفاع عن مواطنيها . ولقد أظهر هور تأثره الكبير بهذه النقطة ، وقال بأنه سينقلها على الفور الى ترينشارد ، والى مجلس الوزراء . وبعد ذلك بأيام قليلة ذكر عدد من المراسلين الصحفيين في البرلمان ، بأن هناك نقاش طويل قد جرى بشأن ارسال الزوارق الطائرة الى الصين . وانه قد تم اتخاذ الخطوات الضرورية حتى آخرها .

طلب إلي هور بعد ذلك بقليل ، الحضور للاشتراك في حفلة عشاء صغيرة في منزله في كادوغان ـ غادرن ، وانه نظم الدعوة لحضور بعض من شبيبة المحافظين ـ الأعضاء في البرلمان ـ والمهتمين بقضايا الطيران حتى يقابلوا ترينشارد ـ ويناقشوا تلك القضايا معه . وقد وجدت عند حضور حفلة العشاء بأن مقعدي كان مجاوراً لمعقد أنتوني ايدن ، الذي كان قد أصبح حديثاً السكرتير البرلماني الخاص لدى سكرتير الدولة للشؤون الخارجية السيد أوستن تشمبرلن . وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقابل فيها ايدن ، وقد عملت على الفور لتوثيق الاتصال به . نظراً لما كان يمثله من تطلعات تقدمية وعقلية متفتحة . وقد تقابلنا بصورة مصادفة تماماً في عدد من المرات خلال السنوات التالية . وقد طلب الي في عام ١٩٣٨ ، بعد استقالته من الحكومة ، أن أصبح مستشاره الخاص لقضايا الدفاع . وعلى كل حال ، فقد أصبت خلال تلك الفترة بخيبة أمل وأنا أجد بأن صمود ايدن وتصميمه للدفاع عن هدفه لا يعادل ابداً ذكاءه ونواياه الطيبة .

اتخذت الترتيبات في حزيران (يونيو) ١٩٢٧ لزيارة قاعدة كرانويل حيث كلية الطيران في سلاح الجو الملكي ، مع زيارة مدرسة تعليم الميكانيك في هالتون ، وذلك وفقاً لاقتراح هور منذ اللقاء الأول بيننا . ولدى عودتي الى لندن ، جاء هور لتناول الطعام معي ، ولاعطائه انطباعاتي بشأن اسلوب التدريب وطريقة التعليم . وقد أعلمني بعد ذلك بأنه قد تم تكليف ترينشارد بتوسيع نطاق اعماله ـ كرئيس لهيئة أركان القوى الجوية ، وذلك بهدف تحقيق الاستمرار في تنفيذ سياسة القوى الجوية ، وكذلك من جل سد الثغرات حتى تتعاظم قوة (الجيل الجديد) من شباب القوات الجوية الملكية ، الذين قال عنهم بأن هناك مستقبل مرموق ينتظرهم اكثر مما ينتظر اولئك الضباط الأعوان الذي دخلوا الجيش في فترة الحرب ، وبصورة خاصة من هم بقايا القوات الجوية في البحرية الملكية .

وقد كان هذا التعليق يتوافق تماماً مع ما كنت قد لاحظته ومع ما سمعته من افراد (الجيل الجديد) خلال جولاتي السابقة ومنها الجولة الأخيرة .ويجب الاعتراف هنا انه على الرغم مما قام به افراد (القوات الجوية في البحرية الملكية) من دور كبير في تقديم عدد من الرواد الأوائل ، إلا أنهم اصبحوا بعد ذلك عبئاً ثقيلاً على القوات الجوية الملكية عندما أخذوا فى العمل كشركة أو كمؤسسة تعاونية

كان من بين الزيارات الأخرى التي قمت بها ايضاً ، تلك الزيارة التي نفذت في بداية شهر آب (أغسطس) لمؤسسة التجارب والاختبارات التابعة للقوات الجوية الملكية ومقرها في مارتل بشام من سوفولك . وكانت هذه الزيارة تجربة رائعة بطريقة غير متوقعة ، فبعد ان اتخذ سكرتير الدولة الترتيبات الضرورية للذهاب بي الى هناك ، وصلتني رسالة من مدير البحوث في وزارة الطيران يعلمني فيها عن رغبته في رؤيتي قبل الزيارة ، وليعبر عن قلقه في احتمال قيامي بكشف النقاب عن بعض التطورات السرية . وقد حاول ممارسة ضغوطه للتأثير علي واشعاري بالأهمية الكبرى للأسرار الموجودة هناك . وعلى هذا فقد أصابتني المباغتة عندما وصلت الى مطار مارتل يشام ، ووجدت بأن الطريق الرئيسي كان يخترق مهبط المطار ، بحيث كانت الوسائط (السرية) الجديدة ، تغادر حظائرها « هنغاراتها » على بعد مسافة لا تزيد عن مئات الياردات من الطريق فكان باستطاعة كل انسان يمر هناك مشاهدتها ورؤيتها .

هناك أيضاً قصة مضحكة أخرى تكمل صورة مفهوم (النسر) في عام ١٩٣٨ وهي قصة سمعتها من بعض أصدقائي في القوات الجوية الملكية خلال تلك الفترة . فقد وجهت في حينها دعوة للجنرال ميلك من سلاح الجو الألماني (لوفتـووف) لزيارة انكلتـرا ، وقـد اتخذت الاجراءات لاطلاعه فقط على النماذج المعروفة من الطائرات البريطـانية وقـد تم تقديم الاعتذارات اليه بشأن استحالة مرافقته لزيارة مارتل ـ شام ، وعندها اجاب الجنرال ميلك بابتسامة انه قد سبق له زيارة هذه القاعدة خلال مروزه بها في سيارته الخاصة ثم كان ميلك بعد ذلك بين الحضور لسماع محاضرة دعيت لالقائها في نادي الرور ـ والراين من مدينة رَوسلدورف وذلك في عام ١٩٥٧ وقد افدت من هذه الفرصة فطرحت على ميلك سؤ الا استوضح به عن صحة القصة فعاد وأكد ذلك بينما كان يبتسم ابتسامة هادئة .

تعتبـر هذه القصـة نموذجا للتناقضـات العميـاء وغـير المنطقية بين سياستنـا الامنية وبين ما وصلـت اليـه المـواقع الحاليـة « لاسرارنا » بعـد ان اكتسبـت الأجهزة المسؤ ولـة الخبـرة والتجربـة ولقـد كان مركز الابحـاث والتجـارب للحـرب الآلية (الميكانيكية) في الجيش (في فارنبورو) من المراكز المحظور ارتيادها حتى من قبل الزوار

البريطانيين غير المرخص لهم رسميا بما في ذلك أعضاء البرلمان ولكن مقابل ذلك ونظراً لعدم وجود أي مكان محجوب أو منطقة معزولة مجاورة فقد أصبح من عادة الدبابات والمركبات الآلية (الميكانيكية) الأخرى الموضوعة على (اللائحة السرية) ان تخرج من البوابات الخلفية لتجارب السباق في المنتجعات والحدائق العامة ، وهي الأمكنة المفضلة للمربيات والخدم الذين يرتادون هذه المناطق وهم يدفعون أمامهم عربات الأطفال وكنت كثيراً ما أتساءل عن عدد العملاء الأجانب الذين يذهبون إلى هناك وهم يتنكرون بمثل تلك الوسائل وكان الأمر مماثلا عندما تم تشكيل اول لواء دبابات دائم في عام ١٩٣٤ حيث تم رفض منح الملحقين العسكريين الأجانب الاذن بزيارة هذا اللواء خلال الجولات الموجهة وتمارين الجيش مما كانت تنظمه وزارة الحرب بصورة خاصة من أجل هؤلاء الملحقين هذا مع العلم انه كان بالمستطاع حضور تمارين هذا اللواء في منطقة الايمبر من سهل ساليسبوري وكثيراً ما كان يتم حجب هذه التمارين من قبل جموع المشاهدين والنظارة من المدنيين المتدفقين يوميا من الأقاليم المجاورة وطبيعي انه لم يكن هناك ثمة عائق يعترض سبيل الملحقين العسكريين الأجانب او عملاءهم من الذهاب إلى هناك والاختلاط بالجمهور وهم في ثياب (العملاء السريين) .

لم يبق لدى القوات الجوية الملكية في العام ١٩٢٧ من المخصصات السرية ما يزيد على ما هو مخصص في الموازنة لتطوير هذه القوات وكان ذلك نتيجة لاستمرار ضغط مجلس الوزراء للاقتصاد بالنفقات تحت تأثير نظام تشرشل مستشار وزارة المالية في تلك الفترة وكذلك بتأثير وزارة الطيران وقلقها خوفا من زيادة خطورة معارضة المصالح في الوزارات الأخرى لوجودها ومشاريعها وكان برنامج الحكومة لعام ١٩٢٣ قد تضمن تكوين (قوة جوية للدفاع الوطني) من ٥٢ سرباً (١٧ سرب مقابل و ٣٥ سرب قاذفات قنابل) وذلك خلال فترة خمسة أعوام . ولكن تقرر في عام ١٩٢٦ العمل ببطء حيث لم يكن قد تم الانتهاء من تكوين ما يزيد على نصف عدد الاسراب الجديدة (وعددها ٣٤ سربا) . وكانت تقديرات وزارة الطيران بالنسبة للسنة التالية تتضمن تخفيض المخصصات حتى ١٥ مليون جنيه استرليني تقريبا ، بحيث يتم اضافة ثلاثة اسراب فقط .

أعلمني جيوفري باتلر في آذار (مارس) بأن سياسة زارة الطيران هي في تجميد كل فاعلية في الحدود الدنيا حتى لا تغضب المصالح الأخرى وتأمين بذلك قاعدة الانطلاق من أجل المستقبل . ذهبت بعد ذلك في شهر تموز (يوليو) لحضور الاحتفال السنوي للقوات الجوية في هندون كضيف مدعو من قبل هور ، وبعد حديث قصير مع ترينشارد كان لي حديث مستفيض مع مساعده الشخصي « بودج » الذي نقل إلي تفاصيل معركة حديثة

حدثت في مقر رئاسة مجلس الوزراء (وايت هول) واشتركت فيها قيادة القوى البحرية (آرمير التبي) ووزارة الحرب بهدف الغاء وزارة الحرب وتوزيع القوات الجوية على الجيش وعلى البحرية ولم تكن هذه الحقيقة الواضحة جديدة بالنسبة لي ، ولو أن تقرير بودج قد أضاء جانباً من جوانب سياسة « شد الحبل » وكنت قد عملت خلال تلك الفترة على التقرب (عبر الطريق المقابل من الطرف الآخر للهضبة) وذلك بهدف تقديم كل دعم ممكن لجهودهم وكان هذا الهدف الذي يراودني انما يمثل املا خادعاً ذلك لأنني رأيت الكثير من المتاعب والمقاومات التي عانى منها سلاح المدرعات على ايدي المدافعين عن الأسلحة القديمة في وزارة الحرب ، وتبين لي بوضوح تام بأن كل تقدم محتمل للقوات الجوية ستعرض للإعاقة والتأخير ان هي وضعت من جديد تحت رحمة الأسلحة او المصالح الأخرى .

استمرت المعركة في رئاسة مجلس الوزراء ضد وزارة الحرب وضد القوات الجوية الملكية خلال السنتين التاليتين وقد يكون امراً مثيراً للملل والضجر اعادة ذكر تشعبات تلك المعركة وما تخللها من خداع ومؤ امرات . وقد شعرت في كثير من الأحيان وبسبب حماستي الكبرى للدفاع عن امكانات القوات الجوية وما يتوفر لها من القـدرة بأن سام هور كان يتحرك بحذر كبير ضمن مجال الدفاع عن تطورها وانه يجنح كثيرا لتضخيم ذرائع الحذر وتدابير الحيطة على نحو ما فعله بعد ذلك عندما أصبح سكرتيراً للدولة في وزارة الخارجية وبدأ في التعامل مع قادة الفاشية الديكتاتوريين وقد ظهر لي ، حتى عندما كان سام هور في وزارة الطيران بأنه يدين بالكثير من الحوافز لسكرتيره الخاص الأول كريستوفر بولوك .
خسر سام هور أفضل مساعديه نتيجة وفاة جيوفري باتلر التي جاءت قبل اوانها وفي غير محلها وذلك في عام ١٩٢٩ حيث لم يكن جيوفري قد تجاوز ٤١ عاماً من عمره وكانت وفاته بمثابة ضربة قوية اصابتني ايضاً فقد كان أفضل صديق عرفته بكل معنى الكلمـة ولقـد تكررت زياراتي بعد ذلك إلى كوربوس ولكنني لم أعد أشعر ابداً بما كنت اشعر به خلال حياة جيوفري باتلر وكان يمارس تأثيراً خاصاً يتجاوز مجال تأثيره العام كما كان يبذل افضل جهوده في دائرة صغرى اكثر مما يفضل بذل هذه الجهود على قاعدة واسعة ولم يكن دعمه لتكوين سرب طيران في جامعة كامبريدج ورعايته الأبوية لهـذا السرب ، سوى احـدى مغامراته الكثيرة والمفيدة وقد خلفه بعد ذلك ابن أخيه راب باتلر ، ، وقد أصبح بدوره عميداً لكلية كوربوس ودخل البرلمان ـ مجلس النواب ـ في ذات السنة التي توفي جيوفري وأصبح خلفاً له ايضاً كسكرتير برلماني خاص لهور وذلك عندما أصبح هذا سكرتيراً للدولة في الهند بعد ان بقي خارج الوزارة لمدة سنتين .

أفسحت حكومة المحافظين برئاسة بالدوين المجال لحكومة العمال برئاسة رامسي ماكدونالد ، وذلك في حزيران (يونيو) ١٩٢٩ بعد أن خسر حزب المحافظين اكثريته في الانتخابات العامة . وقد أصبح اللورد تومسون وزيراً للطيران في حكومة العمال عوضاً عن هور ولكن كريستوفز بولوك استمر في عمله كسكرتير خاص اول للوزير وقد عمل على اعداد لقاء مبكر بين اللورد تومسون وبيني واثمر هذا اللقاء عن تطور في العلاقات لايجابية التي لم تقتصر على الشؤ ون الجوية ، وانما تجاوزتها للمواضيع المتعلقة بتطوير لجيش ليكون جيشا حديثا . وسنتعرض لذلك بصورة اكثر شمولا في الفصل القادم ـ وذلك قبل ان يقتل تومسون في كارثة وقعت بعد سنة تقريبا عندما سقطت به الطائرة لجديدة (ر ـ ١٠١) في رحلة تجريبية لها في الهند .

كانت علاقة تومسون الشخصية برامسي ماكدونالد أكثر وثوقاً من علاقة هور ببالدوين . وكان تأثير هذه العلاقة واضحاً لكل مراقب ، ذلك ان مثل هذه العلاقة الشخصية مع رئيس مجلس الوزراء ، بالاضافة الى المعرفة الواسعة بالشؤ ون العالمية قد أعطى تومسون قدرة على التأثير في مجلس الوزراء بقدر يزيد كثيراً على مجال مسؤ وليته الخاصة كوزير للطيران . وقد حمل تومسون اكبر قدر من الأعباء نظراً لما كان عليه بقية الوزراء من النقص في الخبرة . وقد أصبح توم شو بسرعة موضوعاً للمزاح والسخرية في وزارة الحرب ، بعد أن تم نقله إليها من سكرتارية الاتحاد التجاري . وكان موضوع المزاح هو تسميته (بالخاتم المطاطي) الذي يعمل فقط على ختم المقررات المتخذة من قبل مستشاريه الرسميين . اما وزير البحرية . أ . ف . ألكسندر فقد استطاع استقطاب اهتمام زملائه في الوزارة عن طريق إثارة مشاعرهم والهيمنة عليهم وفقاً للطرائق التي وضعتها البحرية منذ عهد بعيد وطورتها كثيراً للتعامل بين الرؤ ساء السياسيين . وبقيت قضية رامسي ماكدونالد بعد ذلك ، فقد كان يشعر بعدم الارتياح ، وبالقصور ايضاً في معرفة الشؤ ون العسكرية علاوة على الشؤ ون الخارجية مما جعله أكثر انقياداً إلى تومسون للإفادة من خبراته والعمل بتوجيهاته .

أدركت وأنا أشهد نتائج مثل هذه العلاقة للمرة الاولى وجود (وزارة خفية ـ وغير ظاهرة) في داخل القسم الأكبر من الحكومات ، بحيث يمكن ان يطلق على هذه الحكومة ووصفها بصورة صحيحة باسم (الوزارة الاساسية) داخل الوزارة الإسمية والرسمية . ففي الوقت الذي تكون في الوزارة هي المسؤ ولة عن اتخاذ القرارات للدولة ـ من وجهة النظر التشريعية ـ فان دماغ الجسم الوطني هو أكبر بكثير من هذه الوزارة حتى يستطيع فعلاً الإضطلاع بهذا الواجب . وهكذا فان (الوزارة الخفية ـ أو غير الظاهرة) هي التي

تضم أولئك الاعضاء من الوزارة الحالية والتي ينسق العمل بينها رئيس الوزراء بالدرجة الاولى ، او يعمل على استشارة افرادها في كثير من الأحيان . وعادة ما يتم تشكيل هذه الوزارة من خلال تكرر اللقاءات بين مختلف الأعضاء ، وذلك خلال تناول طعام الغذاء أو العشاء أو حتى خلال الاقامة مع رئيس الوزراء بطريقة غير رسمية . وقد تتضمن الوزارة أيضاً الرجال ممن ليست لهم صفتهم الوزارية ، ولكنهم يشكلون أعضاء تكميليين يرتبطون بتقدير رئيس مجلس الوزراء لهم واعتماده عليهم وانتقائهم من بين الرجال الذين تتوافق افكارهم مع افكاره ، ويبقى الشرط الاساسي في هذا الانتقاء للعضوية هو الألفة وليست الكفاءة .

تتم دراسة القضايا السياسية من خلال مناظرات خاصة ومناقشات حرة بعيدا عن دائرة الحكومة الصغرى ، وكثيرا ما تتبلور المقررات بصورة مسبقة وقبل اجتماع مجلس الوزراء بكامل هيئته ، بحيث يكون هذا الاجتماع مجرد وسيلة لإعطاء الصيغة الشرعية والمصادقة على القرارات لا أكثر . هذا على الرغم من أن مثل هذا الاجراء قد يظهر بأنه غير شرعي ، وقد يصدم النظريين الذين يفتقرون للخبرة العملية ، ذلك أن هذا الأسلوب يتوافق من الناحية العملية مع نظام رئيس مجلس الوزراء الذي يعمل على شرح مقترحاته إلى زملائه في الوزارة خلال أحد الاجتماعات الرئيسية ، ويحصل بذلك على دعمهم وموافقتهم . وليس هذا الأمر من الأمور التي يصعب تحقيقها عادة ، فطبيعة صعود رئيس مجلس الوزراء قد تحقق بفضل دعم الوزراء الذين سبق تنظيمهم وفق اعداد دقيق ، وذلك هو القالب الصحيح لصياغة السياسة من خلال رئيس مجلس الوزراء الذي يعمل ضمن دائرته الخاصة بالإتصال مع العناصر الذين تعود العمل معهم ومناقشتهم بالشؤون المختلفة لتكوين أفكاره الخاصة .

لقد سجلت ملاحظة في مذكراتي عن حديثي الأول مع تومسون في ١٥ تموز (يوليو) ١٩٢٩ ، وبالإمكان انتقاء بعض المقاطع وعرضها . وهي كالتالي :

يجيد تومسون الحديث باللغة الافرنسية وبطلاقة ، وقد اكتسب من الافرنسيين عادات (الكافيه رويال)وهو يعرف جيدا التمييز بين انواع الخمور كالبورغوندي والبراندي والاطعمة الافرنسية .

انه يعتبر وزارة الحرب كأمر ضروري لا بد من وجود ممثل لها ، ولو أن الوقت لم يحن بعد . وهو يقف بقوة ضد تقييد المخصصات ، وانقاصها عن حدود الاحتياجات.وقد صرح بأنه يفضل الاستقالة على ان يترك القوى الجوية لتسقط تحت ظروف (المخصصات

المالية) وعلى هذا فانه يعتبر صماماً للأمان .

لقد طرحت في مناظرتي (آ) الحاجة لاعادة توزيع المخصصات المالية بين الأسلحة والمصالح (ب) تحويل الرأي العام نحو قبول تقديم بعض من الدعم للبحرية وكثير من الدعم للقوات الملكية . (ج) الحاجة لاقناع الرأي العام واكتساب ثقته بأنه سيحصل على مزيد من الفاعلية بالقوات المسلحة عن طريق انقاص الجيش البري مع تحقيق الاقتصاد في النفقات .

أظهر تومسون قدراً كبيراً من التأثر وأنا أطرح عليه أفكاري بشأن اصلاح الجيش . واقترح علي بأنه سيعمل على ترتيب لقاء خاص في فصل الخريف للاجتماع في موعد على طعام العشاء مع رامسي ماكدونالد وسنودن[٤] من أجل مناقشة القضية .

أظهر تومسون بوضوح أنه لم يكن راغباً في حصول حكومته على أكثرية مطلقة ، حتى لا يقع عند ذلك في قبضة المتطرفين . وكان يأمل في أن يستمر الوضع الحالي لمدة سنتين إضافيتين[٥] .

كان تومسون يحقد يقينا على ت . و . شو (لورنس ـ العرب) . وقال بأن فيليب غيم[٦] ينظر اليه بعدم الرضى ذلك لأن شو يتمتع بالقدرة على اختلاق القصص المختلفة . وقد تقدم تومسون بعرض حتى يضمن عملاً لشو وذلك بتكليفه في كتابة تاريخ القوات الجوية الملكية . وأنه صدم للطريقة التي رفض بها شو هذا العرض .

وصلتني عن طريق كريستوفر بولوك التفاصيل التي تضمنتها ورقة العمل المذهلة في موضوع السياسية الاستراتيجية التي كان قد كتبها ترينشارد قبل تقاعده في نهاية السنة من مركزه كرئيس لهيئة أركان القوى الجوية . وكان قد أعد هذه الورقة لتكون (وصيته الأخيرة وعهده إلى خلفه) من أجل توجيهه . وقد وصفت هذه الوصية بوضوح أكبر بأنها (الانجاز الاخير في حياة ترنشارد) . وقد وضعت مذكرة عما تضمنته الوصية ، بالاضافة الى عدد من النقاط الأخرى التي ناقشتها في حديثي مع كريستوفر بولوك في يوم ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) وفيها : يشكل (الانجاز الاخير في حياة ترينشارد) عرضاً لتنظيم (مجلس الدفاع الامبراطوري) الذي يضم :

(i) تكوين قوة جوية واجبها الاضطلاع بقسط كبير في الدفاع عن الحدود الهندية ، وحتى يصبح بالامكان تخفيض حجم الوحدات الهندية ـ البرية ، ويمكن التوسع في تخفيض القوات على الا يصل الى مرحلة متطرفة جداً .

(i i) تكوين زوارق ـ طائرة ، للعمل في منطقة الخليج (العربي) مع احتمال العمل في البحر الأحمر ، وذلك لتأمين الحماية البحرية . وان عمل هذه الزوارق ـ الطائرة بشكل زوجي سيضمن تحقيق الأمن للزوارق الشراعية التي تعمل في الخليج العربي وعلى السواحل الشرقية لأفريقيا . وعلى سبيل المثال ينطلق هذا الثنائي كزورق في البحر وزورق في الجو .

(i i i) وهو يقترح أيضا تنظيم الرقبة الجوية في منطقة شرق أفريقيا وغربها ، ولكن نظراً للحجم الصغير في التوفير والاقتصاد ، فان هذا التنظيم المقترح غير جدير بالاهتمام ولا يستحق ممارسة الضغوط لمجابهة معارضة الجنود (القوات الأرضية) .

كان من السهل جداً على هانكي استيعاب الذريعة (العسكرية) لما شهدته فلسطين حديثاً من اضطرابات برهنت على قصور الهيمنة الجوية وعجزها عن فرض سيطرتها.ولقد قال بولوك بأنه ليس باستطاعة القوات الجوية ولا قوات الجيش الاضطلاع بشكل مناسب بما تمارسه قوة الشرطة من واجبات . ولقد بقيت السياسات على تفكيرها بأن استخدام الرصاص أقل تطرفاً من استخدام القنابل . وطبيعي انني رفضت الاقتراح الذي ينص على أن تأثير القنابل يبقى مجهولاً . وأنه عاجز عن اثارة الرعب الناتج عن الرمايات المتعمدة ، على نحو ما حدث في مذبحة (أمر يستار) في البنجاب ـ من الهند .

لقد قال بولوك بأن جون سالمون هو أوسع افقاً واكثر حزماً من جيوفري سالموند ولو انه اقل خصباً في افكاره من جيوفري . وكانت القضية قضية حظ اوفر لو جاء جون سالمون خلفاً لترينشارد ، نظراً لسحب عدد من الركائز من أجل ايلينغتون . ولكن هذا الأخير لم يكن قد تجاوز الخمسين من عمره ، وكان عليه الانتظار لمدة أربعة أعوام اخرى . وعلاوة على ذلك فقد كانت لدى ايلينغتون ايضاً المعرفة ـ الذاتية منذ الاتصال الأول بأنه أقل قدرة في التأثير على مجلس الوزراء مما كان عليه جون سالموند ـ أو أن يجاري رؤساء هيئات الأركان في قدرتهم لادارة المؤتمرات والقاء المحاضرات(٧) .

أمكن طبع (وثيقة التوصية) الجذرية التي كتبها ترينشارد وتعميمها كورقة عمل بين وثائق مجلس الوزراء ، وكان ذلك بفضل تأثير تومسون على رئيس مجلس الوزراء ، رغم ما أثاره هذا التصرف من اشمئزاز شديد في وسط هيئة الأركان العامة وفي دائرة لورد البحر الأول . ورغم اعتراضات هانكي ايضاً ونقده الحاد لمثل هذه الظاهرة المخالفة لتدابير الأنظمة العادية .

كان لي في نهاية الشهر حديث مستفيض آخر مع تومسون . وكان لدي لحسن الحظ وقت كاف في تلك الليلة لكتابة مذكرة كاملة تقريباً عما تضمنه الحديث في ذلك اللقاء :

ذهبت لمقابلته في وزارة الطيران ، ووجدته وهو يطالع مذكرتي ، وأعلمني أنه أعطى الموضوع الأول وهو (الفعالية الاقتصادية في الجيش) إلى توم شو . وأن الصعوبة الحالية في طريق التحول إلى الجيش الآلي (الميكانيكي) هي في عدم امكان اجراء وفر مالي هذه السنة . وكذلك عدم امكان ايقاف العقود التي تم الالتزام بها مع الرجال ، والحاجة لتأمين الهدوء والاستقرار في وسط الضباط . كما انه لن يكون هناك وفر اقتصادي على المدى البعيد وذلك إذا ما اقتصر الأمر على انقاص عدد من الكتائب . ولو أن انقاص كتيبة واحدة او فوج واحد قد يوقف عملية التطويع في الجيش .

ومهما كان عليه موقف ميدلتون ، واكثر منه موقف ديربي من الجهل[٨] وعلى الرغم من قدرتهما المحدودة في التأثير ، فقد كان باستطاعتهما اثارة الاضطرابات والمتاعب واعادة المشاريع للاقتراع مع ما يتبع ذلك من اعاقة وتأخير .

كان واضحاً بالنسبة لي أن الاعتراض الحقيقي لمجلس الوزراء على تحويل الجيش إلى جيش آلي (ميكانيكي) هو أولاً ـ عدم تحقيق فائدة فورية لمصحلة الحكومة ،والثاني ـ هو اخراج الرجال من اعمالهم (وعلى سبيل المثال فقد كانت النظرة الى الجيش هي انه فعلاً المجال الرحب لامتصاص العاطلين عن العمل) .

وعلى كل حال فقد صرح تومسون بأنهم في سبيلهم لوضع مخطط كامل لاعادة توزيع المخصصات المالية والاقتصاد في التشكيلات التي هي قيد التنظيم (الوحدات البديلة والمستحدثة) . وكان يعد مشروعاً ، ولكن من أجل السنة التالية ، بهدف انشاء وحدات جديدة ، وبصورة خاصة في سلاح الجو الهندي . وكانت ذريعة تومسون انه يجب احلال الشرطة محل الجيش ـ او تحويل الجيش الى وحدات شرطة ـ مما يرضي دعاة الاتجاهات السلمية . وكانت حجتي في هذه المناظرة هي أن الجيش قد أصبح شكلاً باهظ التكاليف في الوقت الحاضر إذا ما استخدم كجهاز للشرطة ، نظراً لاننا ننظم الجيش وندربه لمصلحة البلاد التابعة لبريطانيا فيما وراء البحار . وكان تومسون يشعر أيضاً أن لسلاح الجو قيوده وحدوده ، وانه لا زالت هناك ثمة حاجة للمشاة ، لا سيما في فلسطين خلال المرحلة الراهنة . وقلت بأن الحاجة هناك هي مجرد حاجة للشرطة فقط .

وأشار تومسون إلى ان البحرية قد استعادت بناء قوتها ، نظراً لأن كل توقف في السفن الحربية من شأنه قذف العمال الى البطالة ، وكان الكسندر واقعاً تحت هيمنة قادة البحر (الادميرالات) . وعلى هذا فقد قبل ماكدونالد اقتراحات تومسون لتعيين قادة البحر في مركزين رئيسيين من المراكز الوزارية (ولم يكن هناك ضرورة لهذين المركزين)

لا سيما بالنسبة للبحرية ، وهذا ما أبرز حالياً الشعور بالأسف . وكان الكسندر شاباً على درجة عالية من الكفاءة ، وقد يكون رائعاً للعمل في التجارة الخارجية ولكن ليس من أجل العمل في الأدميرالية (القيادة البحرية البريطانية) .

وكان شينويل[٩] رجلاً ذكياً جداً . ولو انه يهودي قليلا .

اما توماس[١٠] فكان مركبا من مركبات الخطوط الحديدية . فكان تفكيره يتجه في كل اتجاه من خلال مصطلحات الخطوط الحديدية .

أصبح التوتر في مجلس الوزراء ثقيلاً لا يحتمل . ولم يكن هناك ثمة أمل في الاحتفاظ بعضوية مجلس العموم مع الاضطلاع بأعباء ادارة حكومية . كما لم تكن لدى ماكدونالد تجربة تساعده او معرفة بالاساليب الضرورية في التعامل الديمقراطي .

وكانت هناك فوارق اخرى ، اذ كان من طبيعة اعضاء الحكومة الأخذ بالاساليب الديماغوجية وكان هندرسون متبلد الاحساس . اماماكدونالد، فقد عمل على الابتعاد عن امريكا ، وكان لا بد وان يسقط اي انسان فوراً تحت ثقل التوتر فيما لو سار على خطوات ماكدونالد . وكان التناقض الاساسي هو ذلك القائم بين طبيعة تومسون ومعرفته للحياة وللطعام الجيد وبين متطلبات الاتحاد البخاري من زعيم لا تتوفر له صفات الزعامة مما كان يسبب له قدراً كبيراً من الآلام .

لم يكن تومسون يرغب لأعضاء مجلس النواب الذهاب بجولاتهم الى الطريق ١٠١ وقد أخذ يهددهم حالياً بفرض وجبة غذاء ـ خفيفة على من يخالف رغبته . اما تومسون فكان يعتقد بامكانات ما هو أخف من الهواء . بحيث يمكن تدريب نوع من الرجال حتى يعرفون جيداً الطيران بين مناطق العواصف .

أفاد تومسون كثيراً من مساعدة شاب نشيط هو موريس هانكي ، الذي كان موهوباً للعمل في كل مجال . اما الرئيس بولوك فكان وافر الذكاء ، ولو أن هذا الذكاء لم يكن أصيلاً ، او واسعاً . وكان من المقدر له ان يكون مثالياً كرأس قائد في مصلحة مدنية لا في مجلس الوزراء . وكان لديه ميل غريب لدعم القوات الجوية الملكية مع اخلاص في العمل لتقديم كل دعم ممكن للمستخدمين المدنيين . .

كان تشرشل يشرب كثيراً من شراب البراندي حتى يحافظ على قوامه (بحيث لم يكن يستطيع الحديث الا بواسطة هذا الشراب) . وكان التوتر في نشأته الارستقراطية قد جعل

منه منظماً دقيقاً في عمله . ولم يكن باستطاعته الوقوف في المواقع التي كان يقفها بيركينهيد نظراً لنشأة هذا في وسط فقير - ومن العدم .

تظهر مثل هذه التعليقات القاسية عن تومسون خلال تلك الفترة لتبرهن على انها كانت بمثابة نبوءة خاطئة مزدوجة .

انصرفت في السنة التالية - عام ۱۹۳۰ - انصرافاً تاماً للعمل حتى انجز على الأقل المجلد الأول من (تاريخ الحرب) ولم يترك لي ذلك من الفراغ ما يكفي لكتابة مثل المذكرة التي سبق عرضها بشأن المزيد من الأحاديث حول الأمور الجارية . وعلى هذا ، وباستثناء ما تضمنته اضبارتي عن المراسلات فقد كان علي الاعتماد على ما تضمنته مفكرة الجيب من مذكرات وجيزة . وقد كان لي - إلى جانب المزيد من مقابلاتي مع تومسون - اتصالاتي الوثيقةمع سام هور الذي كان كثيراً ما يرجع لاستشارتي بشأن الاحاديث المختلفة التي كان عليه الادلاء بها امام مجلس العموم .

وكانت المناقشة الأولى في هذا المجال تعالج تقديرات القوات الجوية بتاريخ ١٨ آذار (مارس) . وكان سام هور قد كتب إلي رسالة قبل اسبوع طالباً إلي مدى استعدادي لتناول طعام الغذاء معه يوم ١٤ ، وذلك حتى أقدم اليه بعض التوجيهات التي تعالج تطوير حالتين معاً« المرونة في الدفاع الجوي واحلال القوات الجوية محل الاسلحة الاخرى لتنفيذ بعض الواجبات » . وقد عمل على سحب ما سجله من الحديث في اليوم التالي للقائنا ، وبعث لي نسخة شعرت بالسعادة وانا اجد فيها القسم الاكبر من اقتراحاتي باسلوبها وحتى بالجمل التي تمت صياغتها بها . وقد يكون مفيداً ذكر بعض هذه العبارات الرئيسية ، نظراً لأنهاتبرزبشكل واضح اتجاهي الفكري خلال تلك الفترة :

هل بإمكاننا الافادة ، وحتى اقصى حد ممكن ، من جهازنا الدفاعي - الامبراطوري ، لاستثمار ميزات السرعة والمرونة وهي الصفات الاساسية للقوات الجوية ؟ . .

إن علينا عدم تجميد اي مورد وكذلك عدم إدخار كل ما هو متوفر من رأس المال فيما إذا رغبنا في المحافظة على فاعلية دفاعنا الامبراطوري مع تخفيض النفقات الدفاعية في الوقت ذاته . ان علينا بذل المال بكل ما تحمله هذه الكلمة من أصدق المعاني ، والعمل لحشد كل مواردنا الدفاعية . واذا ما أردت التعبير باستعادة اخرى فانني اقول بأن علينا استخدام المرونة المتوفرة للقدرة الجوية ، وهي المرونة التي يمكن لها العمل كمادة حمضية مذيبة - أسيد - وذلك عندما يتطلب الموقف عملاً عسكرياً ، كما يمكن لهذه القدرة أن

تعمل كالزيت ، عندما يتطلب الموقف التدخل للتهدئة السلمية .

إن قضية الدفاع عن الهند ضد كل غزو خارجي إنما هي قضية قوات جوية في خطوطها العريضة . ذلك أنه مع وجود قوة كافية من سلاح الجو على الحدود فإنني لا ارى أية إمكانية لوصول قوات الغزو الى قلب الهند عبر الممرات الجبلية .ولقد زودتنا تجاربنا خلال السنوات القليلة الماضية ، أن استخدام السيطرة الجوية دون إحتلال أو تدخل من القوات ، إنما يشكل وسيلة ناجحة جداً للمحافظة على النظام ولفرض القانون بين القبائل المنتشرة على إمتداد الحدود . وإننا إذا ما عملنا على استبدال عدد من أفواج القوات البريطانية المتمركزة على الحدود في الوقت الحاضر بما يناسبها من أسراب الطائرات ، فاننا سنحقق وافراً في الانفاق المالي ، وعلاوة على ذلك فستتوفر لنا الحرية لتطوير الجيش البريطاني وفقاً لأحدث الخطوط الواضحة حالياً . لا سيما وأن التطورات في التحول الى الجيش الآلي (الميكانيك) قد وصلت في تراجعها الى الحضيض ، وظهرت أقدم المستويات في الجيش المنتشر على الحدود الهندية . وأعتقد بأن علينا دعم الأمن الخارجي والداخلي للهند وعدم إضعافه أو إنقاص قوته .

إنني لا أريد للطيران المدني الإختلاط بالطيران العسكري . إن ما أريده لهما هو أن يبقى كل واحد منهما منفصلاً عن الآخر . وأن يتم تطورهما وفق الخطوط الملائمة لكل واحد حسب طبيعته . ولكنني أريد تطوير طرائق الطيران المدني ووسائطه ، ذلك لأنني أعتقد في أن تطور كل وسائط المواصلات المرنة في الامبراطورية ، سواء كانت عن طريق المركبات الطائرة أو الزوارق الطائرة أو الطائرات العادية ، سيشكل حافزاً لدعم قوة القانون والنظام ، والمحافظة على السلم والحضارة في جميع أنحاء الامبراطورية . ولعل من المفيد هنا ـ ذكر إنجاز مميز للقائد الأميركي الكبير شيرمان ـ وقد أعاد ذكر هذه الحادثة النقيب ليدل هارت في سيرة حياته المفيدة ـ فقد تولى شيرمان بعد حرب الانفصال واجب الحاكم العسكري للولايات الأميركية بين المسيسيبي والمحيط الباسيفيكي ، وعندئذ جابهته المشكلة الصعبة في اخضاع القبائل الهندية وحملها على قبول السلام . وكانت وسيلته الاولى والرئيسية هي دفع شبكة الخطوط الحديدية عن طريق اتحاد الخطوط الحديدية . وكانت وجهة نظره في ذلك هي أن أفضل وسائط المواصلات انما تعني القانون والنظام وان النظام والقانون أنما تعنيان الحد من اللجوء الى القوة العسكرية . ولقد كان (النقل) هو (الحضارة) . وعلى هذه الطريقة ذاتها عمل الجنرال ويد من اجل اعادة السلم الى هايلاند ـ في سكوتلندا ـ حيث استخدم اسلوب شق الطرقات البرية عوضاً عن ممارسة العمليات العسكرية .

هذا هو الموقف الذي تجابهه الامبراطورية البريطانية حالياً ، فاذا استطعنا استبدال دفاعنا والقضاء على اساليبنا البالية ، عندها يمكن لنا تطوير فاعلية قوتنا مع تخفيض النفقات المخصصة لها . واذا استطعنا الافادة وحتى أبعد الحدود من السرعة ، وخفة الحركة ، والمرونة مما توفره القدرة الجوية ، فاننا نستطيع اجراء انقلاب سريع جداً في دفاعنا الرئيسي ، ونضمن هيبة القانون والنظام بأقل النفقات الممكنة في كل من المال والحياة . واذا كان باستطاعتنا تطوير وسائط اتصالاتنا الجوية ، فاننا سنخلق قناة جديدة لقوة الحضارة . وستتعاظم متطلبات السلم واحتياجاته لدى الشعوب التي ستمر من فوقها هذه الوسائط ـ الطائرات ـ وستتناقص مقابل ذلك الحاجة للحاميات الكبرى وللارساليات أو الحملات التأديبية .

رحب تومسون بهذا الدعم لجهوده التي كانت تسير في الاتجاه ذاته . كما أخبرني بولوك في الوقت ذاته بأن ترينشارد يرغب في إقامة علاقة أوثق معي ، والحصول على دعمي له في صياغة الدليل على تحقيق فائدة أكبر باستخدام القدرة الجوية في الدفاع عن الامبراطورية ، وبصورة خاصة للسيطرة على مناطق الحدود فيما وراء البحار . ذلك أن ترينشارد قد منح لقب النبلاء ـ أمير ـ عند مغادرته لوزارة الطيران (حيث أصبح جاك سالموند خلفاً له كرئيس لهيئة أركان القوى الجوية) وبذلك أصبح ترينشارد قادراً على تشكيل قاعدة جماهيرية له في مجلس اللوردات .

كنت الأكثر استعداداً للتعاون نتيجة لارتيادي هذه المجالات والتعرف على مشكلاتها طوال السنوات القليلة الماضية . وكنت قد توصلت من خلال دراستي لحملة فلسطين عام ١٩١٨ ـ بهدف اعداد تاريخ الحرب ـ الى إدراك الصورة الواضحة تماماً ، لما تقوم به القوات الجوية من دور حاسم ، سواء بجعل قادة العدو (صم بكم عمي) وذلك قبل بدء هجوم اللنبي مباشرة ، أو عند تدمير أرتال العدو المنسحبة على طريق تراجعها بعد ذلك . وبالاضافة الى ما سبق ذكره ، فقد كشفت المناظرات الحديثة على براهين بين أفراد دائرة كبرى من الأصدقاء الذين عرفوا الشرق الأوسط جيداً واطلعوا على احداثه ، وكانت هذه البراهين تذهب الى أبعد مما أكدته الدروس المستخلصة التي وصل اليها لورنس من خبرته في الحرب (وهي أن تكوين قوة مختلطة من المركبات المدرعة والطائرات التي تستطيع الهيمنة على الصحراء) .

وكانت العقول الشابة الحديثة للجنود ممن عرفوا اضطرابات الشرق الأوسط خلال فترة ما بعد الحرب ـ من أمثال جورج ليندسي ـ كانت هذه العقول هي الأكثر استعداداً من

عقول الضباط القادة في التعرف على القيمة الحقيقية للقدرة الجوية في مثل هذه المناطق . ونتيجة لذلك ، ظهرت فكرة القوات الأرضية المتحركة كتكملة لما كان يطلق عليه اسم (المراقبة الجوية ـ أو الهيمنة الجوية) . وقد وجدت موقفاً مشابهاً لهذا بين أكثر عقول الجنود الشابة والمفكرة ، وبين الضباط السياسيين ، تجاه قضية القدرات الجوية في فرض الرقابة على مناطق الحدود الواسعة في الهند ـ وكان هذا الموقف يتناقض مع موقف القادة (الجنرالات) الذين استمروا في عنادهم . وتركز اهتمامهم الأول على تسجيل كل انتهاك أو تجاوز تقوم به القوات الجوية الملكية لتخطي الجيش .

تناولت طعام الغداء مع ترينشارد في ١٩ آذار (مارس) ١٩٣٠ . ووجدته معجباً بافتتاحية صحيفة (الديلي تليغراف) لذلك اليوم وهي تعالج الحوار حول تقديرات القوات الجوية ، تحت عنوان (القوات الجوية ودورها في الدفاع عن الإمبراطورية) وكانت الإفتتاحية دعم لخطاب هور . وكان ترينشارد يظن انني أنا كاتب الإفتتاحية ، وكانت هذه هي الحقيقة . وعندما أخبرته بأنني مصمم على متابعة هذه الإفتتاحية بسلسلة من المقولات التي ستحمل توقيعي ، تقدم الي بعرض لإطلاعي على مجموعة من الفرضيات التاريخية الحديثة التي تضمها إضبارته حول الأحداث والتجارب والدروس المستخلصة خلال فترة ما بعد الحرب .

ذهبت بعد يومين في رحلة الى اليونان وتركيا ، ولكن ما إن وصلت لندن في الأول من نيسان (أبريل) بعد انتهاء الرحلة ، حتى اتصل بي الجنرال بارنو لومو طالباً الي مقابلته (على الفور) لتبادل الحديث ، وقد سجلت في مفكرتي الصغيرة ملاحظة قصيرة جاء فيها (إنه يفكر في منعي عن تقديم دعمي لترينشارد ، وطلب الإستبدال بالقوات الجوية) . وكان من الواضح أن افتتاحية (الديلي تليغراف) ليوم ١٩ آذار (مارس) قد أفزعته ، فقد أظهرت في تلك الإفتتاحية (الحاجة إلى مركز أبحاث حقيقي . حيادي ومتجرد) .

كان بارتي (بارثو لومو) قد أصبح الآن مديراً لمعهد الدفاع الإمبراطوري ، وخلفاً للأميرال ريتشموند في رئاسة كلية هيئة الأركان العليا الجديدة ، والتي تم تنظيمها لدراسة المشكلات الدفاعية على أساس التعاون بين المصالح والأسلحة المختلفة ، وللتوفيق بين وجهات النظر المتباينة . وعلى هذا فقد كان عليه الأرتفاع فوق مستوى إهتمامات الأقسام المختلفة للجهاز الدفاعي والترحيب بكل دراسة موضوعية لمشكلات الدفاع البريطاني في العهد الجديد . ولكن أصبح من الواضح أنه يعارض كل بحث من شأنه زيادة المخصصات المالية للقوات الجوية الملكية على حساب متطلبات الجيش في الموازنة الإجمالية

للدفاع . وكان مما يزيد من قوة الإحباط لمثل هذا الموقف ، وجود اللنبي الذي كان مسؤ ولاً عن التخطيط في عام ١٩١٨ ، مما وفر له الفرصة الكاملة لتقويم أهمية القدرة الجوية في النجاح النهائي للعمليات الهجومية في فلسطين . وعندما أوضحت هذه النقطة خلال مناقشتنا كان اللنبي مرتبكاً بصورة واضحة . وكان حزنه أكثر من أن يستطيع إخفاءه ، لا سيما عندما تابعت حديثي لأخبره بأنني في سبيلي لكتابة مجموعة من المقالات التي بدأت في التخطيط لها .

كانت المقالات تحمل عنوان (الرقابة الجوية ـ وتطبيقها عملياً) وهي عبارة عن تحليل عملياتي لتجربة إستخدام القدرة الجوية خلال فترة تزيد على العشرة أعوام ، مع ما تخللها من خبرات (في مناطق الحدود المضطربة) فوق عدد من بقاع العالم المختلفة والتابعة للإمبراطورية البريطانية ، بحيث أن القضية لم تعد قضية ذريعة للمناظرة من أجل تفضيل إستبدال الوحدات بتنظيمات من الطائرات . وانتهت المقالات بتأملات وإقتراحات أكثر من مجرد استخلاص نتائج محددة .

إن هدفي من هذه المقولة هو إبراز الحقائق التاريخية ، وليس مجرد محاولة لإستخلاص نتائج . ورغم ذلك فانني سأغامر بطرح فكرة واحدة . هي أنني أستطيع إدراك وجهة نظر أولئك الذين يلحون على موضوع الحاجة لضباط طيارين في أعلى قمة المسؤ ولية وذلك بهدف تجنب كل سوء في التطبيق وفي استخدام الطائرات ، أو حتى عدم تفتيت القوى بأعباء ثانوية وواجبات فرعية . ومن الواضح جداً بأن حصاد الفترة الماضية على امتداد اثنتي عشر سنة ، تثبت صحة هذا المطلب وتدعم وجهة النظر هذه . ويوازي المطلب المذكور من الناحية المنطقية تلك الظاهرة التي انتشرت في كل مكان خلال فترة الحرب وما بعدها . حيث حصل ضباط المدفعية على الموقع المهيمن في الإدارة العليا للجيش .

ولكنني أرى أيضا وجهة النظر الطبيعية للجنود والبحارة ، ولو أنني لم أسمع ابداً من أي ضابط مسؤ ول في القوات الجوية أن احداً قد طالب بأن تحل القوات الجوية محل أقدم الأسلحة في كثير من مجالات الدفاع عن الأمبراطورية وفي آفاقها ، ولكن الأمر الحقيقي هو أن كل توسع في مسؤ ولية القوات الجوية يجب ان يعني ـ ضمناً ـ وضع بعض من الحدود على واجبات الجنود والبحارة ومسؤ ولياتهم . وان مستقبلهم هو في تقريب الافق للإلتقاء فيما بينهم .

لقد اصبح من الضروري فتح مجال ملائم من جديد بهدف احباط المقاومة التي تعترض كل تغيير مستحسن ، ولدفع عجلة التقدم الذي يصطدم بخنادق المقاومة

القتالية . ذلك إنه لم يعد باستطاعة الاقليم احتمال خسارة كل عقل مفكر في أي سلاح من الأسلحة ، وابعاده عن مجال فاعليته . ولعل الطريقة العملية لتجاوز هذا الطريق المسدود هي في تنظيم او تكوين هيئة أركان مشتركة بأي شكل من الأشكال ، يحقق من خلاف الضباط تطلعاتهم مهما كان سلاحهم الذي ينتسبون اليه . ويتم لهم ذلك إذا ما توفرت لهم بصورة حقيقية المعرفة بخصائص الأسلحة الأخرى . ويكمن الجوهر الطبيعي لمثل هيئة الأركان هذه في كلية الدفاع الإمبراطورية التي تم انشاؤها الآن والتي ستستمر الحياة المشتركة فيها لمدة أربعة اعوام . ولكن يجب نشر هذه التجربة وتوسيعها عن طريق الإلحاق ، ذلك انه لن يستطيع أحد الوثوق بقدرات سلاح الجو واستثماره بالطريق الصحيحة إلا اذا توفر له الفكر ـ الجوي الذي يعرف ميزات الفضاء .

تلقيت في فصل ربيع تلك السنة ايضـاً طلباً من امريكا لكتابة مقالة في موضوع (مستقبل التسلح ـ واستخدامه المستقبلي) . وقد طرحت في هذه المقالة وجهات نظري بشأن القدرة الجوية ودورها في حرب المستقبل عند استخدامها على نطاق واسع .

اظهرت في مقولتي أيضاً طريقة استخدام القدرة الجوية لشـل الجيوش المعـادية ـ وذلك فيما إذا أهملـت هذه الجيوش تطـوير المرونـة الآلية « الميكانيكية » وحافظـت على التحرك بوثبات الطرق البرية أو بوثبات الخطوط الحـديدية ـ ثم تابعـت المقولـة لمعالجة استخدام القدرة الجوية لتعطيل الإمداد بالذخائر عن طريق قصف مراكز الانتاج وأشرت أيضاً الى ما كنت قد فعلته قبل خمسة أعوام في كتيبي (باريس) ، عندما ركزت على أن تطوير القدرة الجوية سيؤثر تأثيرا كبيراً على أمن الطرق البحرية . سواء كانت هذه الطرق في حدود المياه الاقليمية ـ القريبة ـ أو كانت على مسافة قريبة من شواطىء ـ العدو . وعلى هذا يصبح البحر الأبيض المتوسط ـ على سبيل المثال ـ مجرد قناة ضيقة يمكن استخدامها لخنق كل تدفق في سفن شحن البضائع ، على نحو ما كان يحدث تماماً عند إستخدام القنال الانكليزي في الماضي وذكرت في مجال المناظرة بشأن اغراق القطع البحرية ـ الحربية عن طريق قصفها بالقنابل ، تلك الحجة التي كثيراً ما تميل الى إهمال الحقيقة التالية :

كان لإستخدام القنابل ذات الإنفجار في الغلاف الداخلي أو تمزق الغلاف الخارجي للمقذوف دوره في إنقاص خطورة غرق البواخر حالياً ، ولو أن ذلك لا يمنع من حدوث بعض الأعطال الكافية لشل حركة البواخر وهي في عرض البحر وإرغامها بالتـالي على التوقف فترة في ارصفة الموانيء للإصلاح . وزيادة على ذلك فليس هناك تدابير وقـائية يمكن لها ضمان الحماية ضد خطر الانفجارات تحت الماء ، وإصابـة المحـركات وأجهـزة

التوجيه بأعطال مدمرة . وقد يكون من السهل إصلاح وحدة واحدة من الأعطال في أي اسطول بحري . ولكن الأمر يختلف عند حدوث مجموعة من وحدات الأعطال على التتابع مما يربك ورشات الصيانة والإصلاح في كل ميناء أو رصيف مخصص للصيانة عند كل أمة من الأمم .

وهناك تضليل يقع ضحيته ضمناً الرأي العام الجماهيري ، وحتى الرأي العام الإختصاصي بأن حوادث الأعطال لا اهمية لها ، وأن الأهمية متعلقة بإغراق القطع البحرية المعادية . . . والواقع هو أن شلل البواخر له تأثير متعاظم في شلل الأسطول المعادي بكامله ، سواء بطريقة مباشرة ، او غير مباشرة .

يكون الهدف الحقيقي في الحرب وفقاً لما سبق ذكره هو اصابة العدو بالشلل أكثر من الوصول الى تدميره ، والوصول بالتالي إلى تأثيرات الشلل حتى ابعد الحدود الممكنة . ولضمان تحقيق هذا الشلل ، فان الطريقة المتبعة حالياً في انزال الاصابات هي طريقة غير ضرورية ، وانما يكفي نشر الذعر ، وهو الأمر الذي برهنت على صحته الحرب الأخيرة .

فعلى الرغم من محافظة الأسطول البريطاني الكبير على هيمنته القوية للسيطرة على المياه السطحية لبحر الشمال منذ معركة جوتلاند ١٩١٦[١١] إلا أن هذا الاسطول قد أسلم نفسه رهينة ـ كما كان يحدث في الأزمنة ـ القديمة ـ وأصبح في سجن ـ الأسطول بسبب الخوف من هجمات الغواصات (تحت سطح الماء) .

إن خطر الإبحار من النصف الجنوبي لبحر الشمال ، قد جعل الأسطول البريطاني بكامله عاجزاً عن التوغل في البحر بعيداً عن قواعده الشمالية دون حماية تقارب في حجمها مائة مدمرة . وعندما ظهر في الأفق غزو ألمانيا للدانمارك ، جابهت الحكومة البريطانية الموقف من خلال إعترافها بما يلي (قد يكون من المستحيل تقريباً دعم الشعب الدانماركي لأسباب بحرية) . فإذا كان الأمر كذلك نتيجة لتأثير الغواصات التي تسببت بشلل الأسطول البريطاني شللاً شبه كامل ، مع إرغام هذا الأسطول على التحرك ببطء وهو مغمض العينين تقريباً . فإن الأمر الذي سيظهر بشكل ثابت ومؤكد ، هو ان الموقف سيتزايد صعوبة في المستقبل ، عندما تكون الأسطول الحربي ضمن مجال الطيران المنطلق من أي شاطىء ، او من على ظهر أي حاملة للطائرات .

لقد تسببت وفاة تومسون المأساوية في فصل الخريف من تلك السنة بتدمير كل احتمال لقيام الحكومة بوضع المكابح في طريق مخطط التوسع للقوات الجوية ، أو حتى بالضغط من أجل مزيد من استبدال القوات الجوية بغيرها من القوى . وقد تم املاء المكان الشاغر الذي تركه تومسون ـ ولو أن كلمة املاء الشاغر هنا هي غير ملائمة ـ وذلك

بتعيين نظير من حزب العمال اقل حركية وفاعلية (ديناميكية) من سابقه بكثير لممارسة أعمال وزير الطيران ، وكان هذا الوزير هو اللورد أميلري . ولم تمض سنة على ذلك حتى تم تعيين حكومة جديدة تمثل (الائتلاف الوطني) برئاسة ماكدونالد ، وذلك لتحل محل الحكومة السابقة ، ولكن مع بقاء بالدوين إلى جانبه . وقد أعطيت الحقيبة الوزارية الخاصة بوزارة الطيران الى اللورد لوندون ديري ، وهو ذو اتجاه سياسي محافظ ، وقد استمر في اشغال هذا المنصب حتى عام ١٩٣٥ . وقد اضطلع هو وزوجته ايضاً بواجبات تومسون واعماله كدليل لماكدونالد في العالم الاجتماعي ولكن على نطاق أكثر إتساعاً حيث كان يقيم الحفلات بسخاء كبير من أجل مصلحته ولفائدته . ولقد كان لتأثير لوندون ديري على رئيس مجلس الوزراء دور كبير في مساعدته لتقديم دعم للقوات الجوية الملكية على نحو يزيد عما كان متوقعاً ، وقد استخدم هذا الدعم بطرائق مختلفة ولكن رغم ذلك فانه لم يكن باستطاعته اتخاذ خط قوي في قيادة المناظرات نحو تغييرات جذرية ، ولا سيما في مجال اعادة توزيع موازنة الدفاع . وهذا هو ما كانت تفرضه الحاجة وتتطلبه من أجل مجابهة الظروف المتغيرة واحداث المستقبل الطارئة . ولقد كانت سنة ١٩٣٠ من الاعوام الرديئة بصورة عامة بالنسبة لمشاريع القوات الجوية الملكية البريطانية ، نتيجة لخسارة دعائم قوية بالتقاعد والوفاة ، لكل من ترينشارد وتومسون ، وكذلك بالنسبة لسيفتون برانكر ـ المدير الفعال (الديناميكي) للطيران المدني والذي سقط ضحية أخرى من ضحايا كوارث الطائرة ١٠١ .

ولكن هناك رغم ذلك بقعة ضوء مشرقة هي تعيين بولوك ليكون اميناً دائماً (سكرتيراً) لوزارة الطيران ، وكان هذا التعيين بمثابة قفزة واسعة في ترفيع بولوك من مرتبته السابقة ، وكان مما يزيد من أهمية هذا الترفيع هو عدم تجاوز بولوك خلال تلك الفترة الثامنة والثلاثين من عمره . ونظراً لما يمثله بولوك من (القوة الحركية ـ الديناميكية ـ الأولى المتمركزة في ذروة السلطة) فقد تركت له ، والى ابعد الحدود قضية متابعة الصراع وتوجيهه للحصول على الاعتراف الملائم بقدرة القوة الجوية . وهذا ما جعله بصورة متزايدة هدفاً لخصومه في وسط أقدم الأسلحة (الارضية ـ البحرية) وأنصار هذه الأسلحة في وزارة الحرب . ولكن نظرا لقدرته في إعداد الذرائع المنطقية الحادة في مناظراته ـ المضادة ، فقد أثار في وسط المعارضة مزيداً من الحزن والألم ، وتعاظم التصميم للمطالبة بتجريده وطرده . ووصل هذا الركب المعقد من الاستياء ذروته بعد ستة أعوام ، عندما حدثت المأساة الشخصية ، التي كانت ذات نتائج اكثر مأساوية بالنسبة للاقليم وذلك بزوال معيقات التقدم للقوة البريطانية في السنوات القاسية التي سبقت تجدد الحرب مرة اخرى (في اطار الحرب العالمية الثانية)

□ حواشي الفصل السادس □

١) حرب ١٨٦٦ هي الحرب النمساوية ـ البروسية وحرب ١٨٧٠ هي الحرب الفرنسية ـ البروسية . وقد حققت بروسيا بقيادة (غليوم ـ بسمارك ـ مولتكه) من خلال هذه الحروب (الوحدة الالمانية) . وانتصرت بروسيا على فرنسا في معركة سيدان ، ولحقت الهزيمة بنابليون الثالث ، وكان ذلك سبباً في قيام البروليتاريا المسلحة بثورتها المعروفة في ١٨ آذار ـ مارس ـ وشكلت كومونة باريس . « المعرب »

٢) أمريتسار ـAMRITSAR ـ من مدن اقليم البنجاب في الهند عدد سكانها نصف مليون تقريباً ـ وهي المدينة المقدسة لاتباع مذهب السيخ الديني ـ كانت المدينة مسرحاً للاضطرابات ضد الانكليز ـ المعرب ـ

٣) انظر الفصل الثالث ـ المراسل العسكري ص (٦٩)

٤) فيليب سنودنPHILIP SNOWDEN ـ كان مستشار وزارة المالية في حكومة العمال الجديدة .

٥) كانت منترحاتي تتلخص بما سيرد ذكره في الفصل الثاني (١٧٤ ـ ١٧٥) وقد طلب الي تومسون في السنة التالية (١٩٣٠) قبول اقتراحه بالذهاب الى مجلس اللوردات ، كعضو مستقل ، وكان يهدف من اقتراحه الافادة من تلك القاعدة للتعبير عن وجهة نظري في تغيير الظروف ، واعادة تنظيم الجيش ودعم القوى الجوية . وفي الوقت ذاته جاءني اقتراح مشابه في خريف تلك السنة عن طريق فيليب ـ نويل ـ بيكر المساعد الأول لسكرتير الدولة للشؤون الخارجية ـ آرثور هندرسون ـ ولكنني وجدت انه سيكون من الصعب علي القيام بهذا العمل مع الاستمرار في بذل جهودي للكتابة .

٦) مساعد المارشال للطيران ـ السير فيليب غيم ـ عمل عضواً في القوى الجوية لشؤون الأفراد خلال الفترة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٨ ، انظر ايضاً الفصل ١٥ ـ .

٧) السير جون سالموندSIR-JOHN-SALMOND» هو الذي تم اختياره خلفاً لترينشارد في رئاسة هيئة اركان القوى الجوية وتقاعد في شهر آذار (مارس) ١٩٣٣ . قبل انتهاء المدة المحددة له وذلك حتى يفسح المجال لأخيه الأصغر (السير جيوفري سالموند) الذي مات بعد ذلك خلال فترة شهرين . وخلفه عندئذ السير ادوارد ايلينغتون الذي شغل منصبه طوال السنوات الأربعة الصعبة التي تبعت وصول هتلر الى السلطة في المانيا ـ واقدام غورنغ على تطوير سلاح الجو الالماني ـ اللوفتووف ـ .

٨) لقد شغل أمير ميدلتونEARL-MIDLETON منصب سكرتير الدولة لشؤون الحرب في الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩٠٣ ، كما شغل هذا المنصب أمير دربي في الفترة ١٩١٦ ـ ١٩١٨ ـ .

٩) عمانوئيل شينويلEMANUEL-SHINWELL- عضو برلماني ، وأمين سر مالي ـ في وزارة الحرب

١٠) جون ـ هـ ـ توماس .J.-H. THOMAS ـ وزير ، وعضو برلماني ولورد حامل الاختام الخاص ـ ثم وزيراً للعمل

١١) جوتلاند- JUTLAND شبه جزيرة شمال سليسفيكSLESVIG(وهو القسم الشمالي من الدانمارك) ويبلغ عدد سكان جوتلاند ٢ مليون تقريباً . وقد وقعت معركة بحرية حاسمة غرب جوتلاند في ٣١ أيار (مايو) ١٩١٦ انتصر فيها الانكليز على الالمان .

الفصل السابع
البداية والتقدم

عندما عقد المؤتمر السنوي لهيئة اركان الجيش في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٩ كانت هناك تخمينات كثيرة حول الطريقة التي ستتبعها هيئة الأركان في ايضاح سبب موت القوة المدرعة التجريبية ، وعما ستطرحه من مقولة في موضوع اعادة بعثها المبكرة بشكل افضل من السابق وقد انعش ميلن الآمال عندما بدأ بتوجيه توصياته الى « ضباط الجيش جميعهم » طالبا اليهم دراسة موضوع كتبه الجنرال فون سيكت ، الذي كان نظيره السابق في قمة الجيش الالماني الجديد وكانت قد تمت اعادة طبع الموضوع في النشرة الشهرية (وجيز معلومات الاستخبارات) واوضح بصورة خاصة النتيجة التي وصل اليها سيكت وهي « بان ما يجب ان يتوفر في كل اقليم هو جيش نظامي يتكون من قوة مرنة صغيرة ولكنها على درجة كبيرة من الفاعلية وعلى مستوى عال من التدريب ، وعلى درجة عالية من القدرة الآلية ـ الميكانيكية ـ ويحتمل لهذا الجيش ان يدعم فيما بعد بقوة الأمة المسلحة الاحتياطية »

بدأ ظهور ميلن على كل حال في اتخاذ بعض ظواهر الضعف بعد تلك البداية البهيجة ، وذلك عندما طرح ملاحظته التالية (ولكن لا تظنوا ان السبب في ذلك يعود الى اننا انتهينا من دفن القوة المدرعة بعد موتها تماما) إذ اصبح من الواضح تماما بان السرعة ستكون بطيئة جدا وان فكرة انشاء الفرق المدرعة تنزلق في ذاكرته بعيداً الى الوراء وقد أكد ذلك عندما قال (اننا نعمل حاليا للفترة المقبلة في حدود عشرة اعوام)

لقد كانت تلك الكلمات هي انذار سيء ، وتحذير شؤم انعكس على مسيرة الاحداث .(ففي حدود عشرة أعوام) ، اصبح من الواضح تماما عام ١٩٣٩ ان الجيش البريطاني قد اضاع كثيرا من الوقت ، في حين استطاع الجيش الالماني ، ان ينطلق الى السباق عبر مسيرة صعبة وشاقة ، لا من اجل كسب السباق فقط ، بل من اجل قيادة تطورات حاسمة في تكوين قوة مرنة على درجة عالية من القدرة الآلية (الميكانيكية) .

كانت الدلالة المبكرة الوحيدة التي تبشر بنجاح مرتقب في المستقبل هي الانجاز الذي اعلنه ميلن امام مؤتمر هيئة الأركان حيث قال بأن وزارة الحرب على وشك الانتهاء من اول دليل رسمي يعالج هذا الموضوع . ولقد تلقيت في الاسبوع الأخير من آذار (مارس) رسالة من شارل برود يطلب الي فيها الذهاب الى وزارة الحرب لمقابلة رئيسه بونهام ـ كارتر ، وذلك قبل يوم واحد من اصدار الدليل الجديد . ولدى الوصول الى وزارة الحرب ، قال لي برود (ستجد في الدليل كثيرا من الشروح الطويلة) ثم اضاف بونهام كارتر (بأنه قد تم اصدار الكتاب لا من أجل الجيش فقط ، بل من اجل الصحافة ايضا وذلك بهدف تربوي هو توجيه الرأي العام نحو ما يعنيه التقدم العسكري من اجل الحصول على دعم (هذا الرأي العام) وتأييده .وسألته فيما اذا كان اصدار الدليل الجديد ايضا من اجل جيش الاقليم فقط أم من أجل الجيش النظامي ايضا . وعندما اجاب بالنفي ، ناقشته حول اهمية تنفيذ ذلك وقيمته بالنسبة للجيشين معا ، وقد عمل على تقويم ما طرحته عليه بسرعة ، فاتخذ فورا الاجراءات المناسبة للتوسع في توزيع الدليل الجديد وزيادة انتشاره .

كان برود هو الذي عمل على نسخ الكتاب وسحبه ، وكان يتميز بقدرة خاصة على تنسيق الأفكار الجديدة وبلورتها بعد جمعها من مصادرها المختلفة والتقاطها من ينابيعها التي تفجرت في سنوات ما بعد الحرب (العالمية الأولى) . وكان اسم برود يمثل بجدارة تطلعاته (الواسعة) ، فقد كان تقدمياً قوياً ، ولو انه كان يحافظ بصورة غريزية على التوازن بين المدارس العسكرية (العالية) و (المنخفضة) مع توازن مماثل في افكاره اللاهوتية .

كان عنوان الدليل الجديد هو (التشكيلات المدرعة والميكانيكية ـ الآلية) ولكنه كان معروفاً بالاسم الشائع الذي اطلق عليه وهو (الكتاب الارجواني) أو (البداية الارجوانية) وقد اشتق هذا الاسم (التهكمي) من الوان الغلاف ، اكثر مما اشتق من (النصوص الارجوانية) التي حفظتها دفتا الغلاف ، وذلك لأن الاسلوب الذي استخدم في الكتابة كان بعبارات متحفظة وبجمل موزونة بدقة حتى يصبح الكتاب مقبولاً وفق

مفاهيم الرؤساء القادة . فكان من الصعب نتيجة لذلك ادراك العقيدة الثورية ، وتقويم اهميتها الكبرى إلا من قبل اولئك الذين يستطيعون استخلاص ما هو مكتوب بين السطور بفضل مهارتهم في فن القراءة ، ولكن الدليل تضمن مقاطع توضح تفوق القوات المدرعة على قوات المشاة في قدرتها ، وفي مرونتها ، وفي قوة احتمالها ، كما ذكر ايضا بأنه من المتوقع قيام القوات المدرعة بتقدم يومي لمسافة ثلاثين وحتى خمسين ميلاً ، ثم الاستمرار في ذلك لمدة اسبوع او اكثر ، وقد تحققت هذه النبوءة بعد عقد من الزمن في بولونيا وفرنسا وروسيا .

تميز الدليل الجديد عما سبقه بميزات كثيرة غير ابراز الحقيقة في معالجة الأداة الجديدة ، والتعامل معها . وذلك لأنه سار على نقيض الاتجاه في التركيز على تطور مثل هذه الآلة ، خلال مراحل الهجوم ، حيث أظهر طريقة استخدام القوات الآلية (الميكانيكية) لجعل الأساليب التكتيكية اقل آلية (ميكانيكية) واكثر مرونة . كما إنه اوضح قدرات القوات المدرعة في تعزيز فن القيادة وزيادة اهميته ، لا سيما في مجال استثمار التقرب غير المباشر وتطويره . وبرز ذلك بصورة خاصة من خلال النص التالي«: قد تسبب المناورة الكبرى في المستقبل ، مثل ما كانت في الماضي ، تطويق قوات كبرى وهامة ، وذلك عندما تجد هذه الأخيرة نفسها في موقف مسدود ، لامخرج منه»وكانت هذه نبوءة جديدة اخذت ابعادها كلها عندما اندلعت نار الحرب التالية .

كنت أرغب في ان ارى الدليل الجديد وهو يعالج بمزيد من التفصيل القدرة الاستراتيجية للقوات المدرعة عند قيامها باختراق عميق حتى مؤخرة قوات العدو لقطع خطوط مواصلاته ، وعزل مواقع مدفعيته ومحاور امداده .

أحبط الدليل بعضاً من آمالي ايضا عند معالجته لعدد من النقاط الاخرى ، فقد كنت أرغب ايضاح الأهمية الكبرى للهجمات الجوية على الارتفاعات المنخفضة وذلك بالتعاون مع الدبابات ، وكذلك التأثير المعنوي وامكانات استخدام الدبابات في القتال الليلي ، وقيمة مزج الدبابات الخفيفة بالدبابات المتوسطة على نحو ما كنت قد اقترحته في مقولاتي الصحفية عام ١٩٢٧ . والحاجة الى الدبابات ـ البحرية ـ ثم المشاة المدربة بصورة خاصة على ركوب الآليات المدرعة ـ للعمل كقسم مستقل في القوة المدرعة . كما لم يظهر الدليل الجديد أي اعتراف بهذه الحاجة ، وذكر بصورة سطحية (يمكن نقل فوج أو اكثر من افواج المشاة بواسطة سيارات النقل الكبرى ـ الباصات ـ والحاقها على التشكيلات المرنة للعمل تحت الظروف) . وخيل إلي ان ذلك عبارة عن إعادة مكررة للخطيئة الأساسية التي

تعرضت لها الوحدة التجريبية عام ١٩٢٧ ، تحت قيادة جاك كولينز ، وذلك لاقامة جسر بين وجهات النظر المتقدمة بشأن تنظيم قوات (بكاملها من الدبابات) وبين افكار مدارس (المشاة) .

يجب القول على كل حال ، بانصاف وعدالة ، ان الذريعة المتطرفة في تنظيم (قوة كاملة من الدبابات) لم تكن نتيجة للايمان بتبديد قوة الدبابات وقدرتها عند عملها لدعم الأسلحة الأخرى ، وانما كانت نتيجة للرغبة الطبيعية ، والمنطقية في تنظيم قوة متجانسة (متماثلة) عوضا عن تلك الوحدات المختلطة التي تم جمعها في عام ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ والتي كانت تختلف كثيرا في قدراتها سواء عند العمل على محاور الطرق ، او عند العمل فوق مختلف اراضي الاقليم . وكان الانطباع السيء الذي تركته تلك الكتابات في الموضوعات المختلفة قد عزز الافتراض بدمج عنصر قتال المشاة العادية (على الأقدام) مع القوة المدرعة ، بهدف مساعدة المدرعات على إزالة الحواجز المحمية ، وكان ذلك يعني بصورة حتمية تضمين واشراك مركبات النقل الكبرى ـ ذات العجلات ـ والمقيدة بالتحرك على الطرق وهي لذلك ضعيفة ومعرضة جدا للخطر ، بحيث لا تصلح للعمل باتصال وثيق مع الدبابات . ووجدت بالنتيجة انه من الصعب ابراز الاهتمام بفكرة تطوير المدرعات وحاملات الجند المدرعة لهذه الغاية ـ ومما كان يزيد من هذه الصعوبة عدم الشعور بهذه الحاجة حتى من قبل اكثر العناصر حماسة للمدرعات . علاوة على قيود المخصصات المالية واختصار هذه المخصصات . ولكن ، وعلى الرغم من عدم شمول الدليل الجديد على أي ذكر للمشاة المدرعة ، فقد افسح الدليل الجديد المجال المفتوح لمثل هذه التطورات عن طريق التنويه بمبدأ يقول انه (بالمستطاع تكوين التشكيلات المتحركة لتضم مركبات على ان تكون هذه بصورة عامة متشابهة في ميزاتها وسرعتها ووقايتها ـ بالدروع ـ وقدرتها على السير فوق مختلف الأراضي) .

وفقا لهذا المبدأ الذي تم الالتزام به ، فقد بقي هناك ثمة رجاء في ألا تستمر التشكيلات المتحركة (التي تشبه السيرك بتنوعها عند الانتقال) وان تستبدل بتشكيلات اقوى واسرع تتجاوز معوقات الضعف والبطء عند التحرك خارج محاور الطرق . كانت ملاحظاتي قليلة على كل حال اذا ما قيست بما شعرته من الرضى وانا ارى المفهوم الجديد للحرب الآلية (الميكانيكية) . وقد اصبح مقبولا ومطروحا في دليل رسمي . وقد رحبت بصورة خاصة بالايضاحات التي تضمنها الدليل في موضوع القوات الآلية ـ الميكانيكية ـ كوسيلة لبعث الفن العسكري عن طريق تطوير التحركات غير المتوقعة . واجراء الاختراق بسرعة اكبر من قدرة الخصم على تغيير اوضاعه لمجابهة هذا الاختراق . وقد كان ذلك احد

مقالاتي الرئيسية لكتابي (إعادة تنظيم الجيوش الحديثة) ، وقد توسعت في هذه الابحاث عند كتابة فقرات التاريخ العسكري في جميع العصور من خلال عملي في الموسوعة البريطانية (انسيكلوبيديا - بريتانيكا) . وتم جمع النتائج التي امكن الوصول اليها وتدوينها قبل كل شيء على شكل وجيز ثم توزيعه على عدد من الباحثين العسكريين الآخرين ، ثم امكن توسيع هذه الدراسة في عام ١٩٢٨ لطرحها في اطار كتاب حمل عنوان (استراتيجية التقرب غير المباشر) . وكان ديل ، وفيشر وفوللر ، وغورت ، وكارسليك ، وت . و . لورانس - العرب - من بين الاصدقاء خاصة ممن قدمت اليهم مسودة المشروع ، كما تلقيت منهم تعليقاتهم التي كانت ذات عون لي . وقد امكن نشر الكتاب في السنة التالية من قبل دار نشر بيل بعد ان غيرت عنوان الكتاب بناء على رغبتها ليكون (المعارك الحاسمة في التاريخ) وقد رجعت الى العنوان الأصلي عند اعادة الطبعات التالية للكتاب من قبل دار نشر (فابر وفاير) وكانت الاستنتاجات الاساسية في الكتاب :

تبرز الحقيقة المتعاظمة بوضوح لتبرهن على ان التقدم المباشر للهدف العقلي او حتى المادي - الفيزيائي - وفق الخط الطبيعي للتوقعات التي يضعها الخصم ، هو عادة ما وصل الى نتائج سلبية ، وقد تم التعبير العلمي عن السبب بالقول ان قوة اقليم العدو تكمن بتفوقه العددي وموارده في حين تتعلق فاعلية هذه القوة بصورة اساسية في (الاستقرار) و (التوازن) الذي تضمنه الادارة والرقابة وكذلك بالحالة المعنوية والقدرة على الامداد . وتتشابه الحالة السابقة الذكر مع حالة الجسم الذي تغطيه العضلات لتخفي عظام الجسم واربطته .

ان التحرك على الخط الطبيعي لما هو متوقع انما يعني دعم (توازن العدو) ، وزيادة تصلبه وقدرته على المقاومة . وان محاولة القضاء على الخصم ، في الحرب او في أي صراع ، دون اضعاف مواقعه التي ينطلق منها في هجماته . ودون افقاده لتوازنه ، انما تتم فقط عن طريق استنزافه - الذاتي وزيادة معدل التوتر المفروض عليه ، ويمكن تحقيق النصر اذا ما استخدمت مثل هذه الاساليب في حالة واحدة فقط هي توفر هامش كبير من التفوق الساحق في بعض اشكال القوى ، وحتى في هذه الحالة فهناك احتمال في خسارة الحسمية ، ومقابل ذلك فان دراسة التاريخ العسكري خلال مسيرته كلها ، وليس خلال فترة معينة فقط ، تبرهن على ان المعارك الحاسمة جميعها والتي تم فيها دحر العدو وافقاده توازنه النفسي ، قد بدأت بمحاولة ناجحة للتغلب على العدو . وان هذا التغلب قد جاء نتيجة لتطبيق الهجوم الاستراتيجي غير المباشر سواء جاء ذلك عن عمد او بطريق المصادفة . وقد يظهر هذا الهجوم الاستراتيجي غير المباشر باشكال مختلفة على نحو ما سيكشف عنه تحليلنا للاحداث التاريخية .

ان دراسة تاريخ الحرب بكامله ، وامعان النظر فيه ، انما يشكل العامل الاساسي للتحكم بفن التقرب غير المباشر ، وتقويم اهمية هذا الفن بكل ابعاده . ولكن باستطاعتنا على الاقل بلورة ، او تشكيل الدروس المستخلصة ، ومن ثم تصنيفها في اطار مبدئين بسيطين ، احدهما سلبي والآخر ايجابي . ويظهر المبدأ الأول السلبي على ضوء البرهان الساطع وهو انه ما من قائد كان على حق وهو يزج بقواته في هجوم مباشر ضد عدو يحتل مواقع ثابتة وقوية . اما المبدأ الثاني الايجابي فيظهر على نحو مغاير ، وذلك انه عوضا عن البحث في هجوم يستطيع افقاد العدو توازنه ، فانه بالامكان تحقيق النجاح في افقاد العدو توازنه قبل ان يبدأ هذا الهجوم .

. . . تبقى ارادة الرجل هي العامل الأساسي الذي لا يمكن تقويمه او حسابه في ميزان الحرب وتعبر هذه الارادة عن ذاتها بالمقاومة ، وتكمن هذه بدورها في المجالات التكتيكية (التعبوية) . إذ ليس من شأن الاستراتيجية التغلب على المقاومة ، الا من خلال طبيعتها . وان هدفها هو القضاء على احتمالات المقاومة ، وهي تبحث للوصول الى هذا الهدف عن وسائل استخدام (الحركة والمباغتة) والعمل على تطويرها . ويؤثر العاملان ـ الحركة والمباغتة ـ بعضهما ببعض تأثيرا متبادلا . فالحركة هي التي تنتج المباغتة ، والمباغتة هي التي تضمن للحركة قوة دفعها ، كما ان الحركة عندما تزيد من تسارعها ، او تغير من اتجاهها ، فانها تحمل معها نوعا من المباغتة حتى لو كانت الحركة مكشوفة وغير مخفية ، وفي الوقت ذاته فان المباغتة تمهد الطريق للحركة عن طريق اعاقة العدو ومنعه من اتخاذ التدابير المضادة او الحركات المضادة .

هنا يمكن التساؤل عن كيفية دحر العدو استراتيجياً ؟ . ان دحر العدو سواء في افق المجال المادي او الاداري انما هو نتيجة للحركة التي : آ) تقلب مواقع العدو ؛ وترغمه على (تغيير جبهته) بشكل مباغت ، وتحمله على اعادة تنظيم قواته . ب) تجزيء قواته وتعزلها بعضها عن بعض ج) تعرض محاور امداده للخطر. د) تهدد طريق ـ او طرق ـ إنسحابه في حالة اضطراره للتراجع من أجل اعادة تنظيم مواقع جديدة وقواعد داخل ارض الوطن . . . وكلما كان الجيش كبيراً ، وكلما كانت تنظيماته اكثر تعقيداً ، كلما كان تأثره بالتغير المباغت خطيراً ، وكان تعرض خطوط مواصلاته للخطر كبيراً . . .

ان دحر العدو في المجال النفسي ما هو الا نتيجة للضغوط المادية التي نستخدمها لتترك اثرها على تفكير القيادة . ويبرز هذا الأثر بقوة عندما يتحقق العدو من خسارته لميزاته بصورة مباغتة . وعندما يشعر أيضاً أنه في حالة عجز عن مجابهة حركات خصمه بحركات مضادة . وفي النهاية فان دحر العدو نفسيا وقهره إنما ينبعُ بصورة اساسية من -

الشعور بالوقوع في الشرك (او المصيدة) .

يوضح ذلك سبب توجيه معظم الحركات المادية الى مؤخرة العدو . فالجيش ـ مثله كمثل الرجل ـ لا يستطيع الدفاع عن ظهره ـ او مؤخرته ـ ضد الضربة الا اذا قام بحركة استدارة تساعده على استخدام سلاحه في الاتجاه الجديد . وان هذه (الاستدارة) المؤقتة تفقد الجيش توازنه كما تفعل بالرجل تماماً ، ولكنها تتطلب من الجيش فترة اطول من عدم الاستقرار ، وهذا امر لا يمكن تجنبه ، ونتيجة لذلك ، فان العقل يكون اكثر تأثراً وأقوى تحسساً بكل تهديد موجه الى ظهره .

ان التحرك المباشر ضد الخصم هو على النقيض من ذلك ، اذ أنه يدعم توازنه المادي ويعزز توازنه النفسي . ويساعده على زيادة قدرته للمقاومة . وعلى هذا ففي حالة نجاح جيش بدحر جيش العدو نحو الوراء ، فانما هو يقربه من قواته الاحتياطية ومحاور امداده وقوات دعمه ، فتتشكل بذلك جبهة جديدة ومتماسكة الى الخلف عوضاً عن تلك الجبهة الأصلية الضعيفة التي تم القضاء عليها . ويحمل هذا الموقف الجديد قدراً من التوتر والاحكام أكبر مما ينتج عن التغير من تضارب او ارتباك .

تتجاوز حركة الاستدارة حول جبهة العدو للوصول الى مؤخرته ـ في أهميتها وهدفها ـ مجرد تجنب المقاومة لتصل بالصراع مباشرة الى نهايته . وذلك ان هذه الحركة ، تعني بأعماقها ، الاستيلاء (على خط الضعف قليل المقاومة) . ويرتبط التوازن في المجال النفسي (بالخط غير المتوقع أو الضعيف في احتمالاته) . وهذان الوجهان هما لقطعة نقد واحدة . وان تقويم ذلك بصورة صحيحة يتطلب توسيع افق فهمنا للاستراتيجية وتعميق ادراكنا لها . ذلك انه اذا ما أخذنا بما هو واضح من (خط الضعف قليل المقاومة) ، فان وضوحه ينطبق على الخصم ايضاً ، إذ أن هذا الخط لا يمكن له ان يستمر على حاله (كخط ضعف قليل المقاومة) . ويجب ان لا يغيب ان انظارنا ونحن ندرس الملامح المادية تلك الملامح المعنوية ، وعندما يتم مزج العاملين معاً في اطار استراتيجية التقرب غير المباشر ، بشكل محسوب يصبح بالامكان دحر العدو وافقاده توازنه .

تستطيع القوات الآلية (الميكانيكية) بفضل ما يتوفر فيها من ميزات (السرعة والمرونة) ان تكون أفضل وسيلة لمتابعة هذا العمل المزدوج بما يتجاوز في فاعليته كل ما عرفته الجيوش في الماضي . وكانت هذه الفكرة هي الاساس الذي ركزت عليه في مقولاتي ومناظراتي خلال السنوات التالية . ولسوء الحظ فقد التقطت العقول المتفتحة ـ والنشطة في قيادة الجيش الالماني الجديد هذا المفهوم وحملتها على أبعاد أوسع مما فعلته قيادة الجيش

البريطاني ، وكانت القيادة الألمانية هي اول قيادة وضعت التقنية الجديدة موضع التنفيذ بما أطلقت عليه باسم (الحرب الصاعقة) الألمانية . وكان المفهوم الأساسي لهذه الحرب انما هو تطوير بسيط للتطبيق الطبيعي لمفهوم (السيل الجارف) وفق اسلوب عمل القوات المتحركة الآلية (الميكانيكية) .

كنت اتابع البحث عند معالجة هذا الموضوع بهدف تطوير صياغته ، واستمر عملي في ذلك ما بين فترة وأخرى ، حتى وصل تعريفي لها ووصفي اياها في السنوات الأخيرة الى ما يلي :

يكمن سر النجاح في جزء منه بالاشتراك التعبوي (التكتيكي) ما بين الدبابات والطائرات . وفي جزء منه ايضاً بتوجيه الضربات غير المتوقعة سواء في اتجاهها او في توقيتها ، ولكن فوق كل شيء بمتابعة الهجوم وذلك باستثمار الاختراق التكتيكي للجبهة وتطويره الى اختراق استراتيجي عميق ، تقوم بتنفيذه قوات مدرعة تتسابق امام كتلة الجيش الرئيسية وتعمل بصورة مستقلة عنه .

تتعلق سرعة الانطلاق العظيمة لمثل هذه القوة بالوصول الى الاختراق العميق والحاسم وبالقدرة على الاستمرار في تقدمها دون توقف . وتحافظ القوة على تقدمها المستمر ، سواء عن طريق الالتفاف حول المقاومة ، او عن طريق اختراق المواقع الضعيفة ـ ففي مثل هذه الحالات ـ يتجمع سيل الدبابات في تدفقه عبر الثغرات الضيقة ، ليعود الى الانتشار من جديد ليأخذ اتساع مجاله الأصلي ، ويتم شل الخصم عن طريق التصميم المستمر لمتابعة التقدم بسرعة والمقترن بتنويع نقاط ـ الاختراق . ذلك أنه بعد الاختراق الأساسي ، وفي كل مرحلة من المراحل ، تحمل القوات المدرعة المتحركة بمرونة عدة تهديدات متتابعة . ففي الوقت الذي يتم فيه تطوير التهديد الحالي الى اختراق يأخذ مكانته بسرعة كبيرة عندما يصل الى احتياط العدو ، وليعمل على تجميد المقاومة هناك قبل انهيارها . وتمارس المباغتة تأثيرها في المجالين التعبوي (التكتيكي) والسوقي (الاستراتيجي) على حد سواء ، وذلك منذ بداية العمليات وحتى نهايتها . وتعتبر السرعة العالية (هي التقرب غير المباشر) للوصول الى منطقة العدو الخلفية حيث تتمركز فيها المواقع الحيوية ، المعروفة بضعفها والتي تضم أجهزة الرقابة والامداد .

توفرت لي الفرصة بعد ذلك لمناقشة هذا التعريف مع غودريان ، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية . وقال بأنه (يوافق تماماً) على ما تضمنه التعريف ، كما أخبرني أنه كان قد أوجز التعريف بكلمات « المرونة والسرعة والتقرب غير المباشر »(١) .

يعود الفضل في تطوير النظرية الى تلك الدراسة التي قمت بها في موضوع الجمود القاتل الذي سيطر على حرب الخنادق (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وعرض فيها الطرائق التي استخدمت لتجاوز حالة مماثلة من الجمود وكذلك الوسائط التي استخدمت للتغلب على تلك الحالة خلال الحرب الاهلية الأميركية ، وبصورة خاصة من قبل شيرمان على الجبهة الغربية(٢) .

كان مسرح العمليات الأميركي مجهولاً تماماً من قبل الباحثين العسكريين البريطانيين وكذلك من مراجع هيئة الاركان . وكان اهمال ما تضمنته أحداث ذلك المسرح انما هو نتيجة للتأثير المسبق وبصورة خاصة تأثير كتاب العقيد ج . ف . ر هندرسون الذي كان بعنوان (ستونويل جونسون والحرب الأهلية الأميركية) فقد تم التركيز في هذا الكتاب على جذب انتباه تلاميذه في كلية الاركان واستقطابهم وقام هؤلاء باستقطاب انظار تلاميذهم بعد ذلك الى هذا المرجع ذاته الذي تضمن معركة فرجينيا ولا شيء سواها . وقد بقي ذلك الكتاب الجميل هو احد المصادر للدراسات الحية القليلة عن التاريخ العسكري خلال تلك الفترة . واصبح المرجع الحتمي للترفيع ولدخول مسابقات الانتساب لكلية الاركان خلال الاجيال المتتابعة . فشكل بذلك مثل السحر الذي هيمن على الجيش البريطاني حتى أصبح باستطاعة عدد كبير من الجنود ذكر لائحة بكل مناوشة وكل طريق من طرق شيناندو ـ الوادي ـ دون اي معرفة بما كانت عليه الحرب من الفاعلية في الغرب . ولم يحاولوا بذل اي جهد للتأكد من ان الحملة هناك كانت اكثر اتساعاً واكبر اهمية وأقوى حسماً مما كانت عليه عمليات (الوادي) .

كانت هناك نتيجة اكثر خطورة وهي تكون عادة عسكرية في الحط من قيمة الاختراق العميق حتى مؤخرات العدو بواسطة القوات المتحركة ، والاستخفاف بتأثيرها على ضوء فشل جيث وستوارت في عملياتهما على المسرح الشرقي ، واستخدام هذه العمليات كنماذج للبرهان على ان هذه (الإغارات) كانت عديمة الفائدة ، وانها مجرد ضياع للوقت وتبديد للقوى . ولقد كان هناك ثمة تجاهل شبه تام للنجاحات المتكررة التي كانت تنجزها قيادات الفرسان (الخيالة) الاتحادية في الغرب . عن طريق شل كتلة الامداد والتموين بالقطارات ، وذلك بقطع أو تهديد امداد المدفعية بمتطلباتها وحرمان الجيوش الوحدوية منها . ولقد استطاع قادة من امثال فوديست ومورغان قيادة قوات متحركة ، ولو انها كانت صغيرة ، من أجل تجميد قوات اكبر وأقوى الى ان جاء شيرمان فوضع الحل الجذري للمشكلة .

كانت عمليات شيرمان منسقة بالاشتراك مع عمليات بيدفورد فورست على المسرح

الآخر ، وعلى هذا فقد ظهرت بانها تتوافق مع اتجاه تفكيري نحو احياء الاعمال القتالية المتحركة (المرنة) وبعثها من خلال تطوير القوات المدرعة . ولذلك فعندما طلب الي عام ١٩٢٨ وضع كتاب عن احدى الظواهر الكبرى في الحرب الأهلية الأميركية (ومن المفضل اختيار القائد لي وعملياته) . عملت على اختيار شيرمان عوضاً عن لي ، وأخذت في معالجة معارك شيرمان كموضوع لابحاثي .

لقد تطور مفهومي الأساسي للاختراق الاستراتيجي العميق بواسطة القوات المدرعة سريعة الحركة ثم نضج هذا المفهوم في ادراكي من خلال دراسة حملات المغول في القرن الثالث عشر . ثم وصلت الى نظرة اكثر وضوحاً في تطبيقها ضد كتلة الجيوش الحديثة والمرتبطة بخطوط المواصلات الحديدية للامداد ، وذلك من خلال اكتشافي للعمليات المنافسة التي قادها شيرمان وفوريست ، ومن خلال عملي على ارتيادها .

كما كان لدراسة حملات شيرمان ايضاً تأثيرها العميق على اتجاهاتي الفكرية الأخرى في المجالات التعبوية (التكتيكية) والسوقية (الاستراتيجية) . ويستطيع كل قارىء لكتبي التي صدرت بعد عام ١٩٣٠ ملاحظة مدى استخدامي في كثير من الأحيان لمشاهد الحرب وصورها خلال قيادة شيرمان لعملياته وذلك بهدف دعم وجهات نظري ، وبصورة خاصة في مجال تقويم المباغتة او ما هو غير متوقع كأفضل ضمان للأمن والتقدم السريع على حد سواء .

وكذلك اهمية المرونة على مستوى التخطيط والتنظيم ، وفوق ذلك كله بالعمل وفق خط يضمن الشروط لتوجيه تهديدات متتالية لاهداف متتابعة (وهو ما أطلق عليه شيرمان جملة وضع الخصم امام اختيار واحد من بديلين كلاهما في غير صالحه ـ كالأختيار للجلوس فوق واحد من وتدين ـ قرنين .) وهي القيمة لما أطلقت عليها اصطلاح (مناورة الاستنزاف بالهجمات المتتالية) للامساك بالخصم والايقاع به في الفخ عن طريق اشراك الهجوم الاستراتيجي بالدفاع التكتيكي ، او (الدفاع المرن مع المقاومة وفق توقيت محكم بدقة) ، وتلبية الحاجة لقطع حمولات المعدات والتجهيزات . وخلق المعوقات الاخرى ـ على نحو ما فعل شيرمان ـ بهدف تطوير الحركة والمرونة .

لقد ظهر مفهوم (الاهداف التبادلية او المتتابعة) وكأنه يسير في الاتجاه المضاد لمفهوم (المحافظة على الهدف) الذي تم تعريفه والإحتفاظ به كشيء مقدس في العقيدة الرسمية بعد عام ١٩١٨ وكأول مبدأ (من مبادىء الحرب) . وقد حمل هذا المبدأ بصورة عامة وشاسعة على ان مضمونه يعني تركيز جهد القائد بصورة حتمية على هدف واحد من اجل

اكتساب هدفه او مقصده . ولم يكن ذلك سوى تأويل بسيط جداً وتفسير سطحي ، او انه مجرد عادة عقلية كان لها أقوى الأثر في تشكيل عقبة ثابتة امام ابراز القيمة الحقيقة للاهداف العديدة وضرورة هذه الاهداف .

وعلى هذا فربما كان من الافضل اعادة التعرض لمناقشة المفهوم الجديد من خلال ذكر مقطع لمقولة كتبتها بعنوان (اعادة برمجة الاستراتيجية) وطرحتها في كتابي التالي عن النظرية العسكرية . وهو الكتاب الذي حمل عنوان (الطريق البريطاني للحرب) وكذلك في كتابي عن الاستراتيجية ، عند اعادة اصداره في النشرات التالية .

لكل مشكلة في الحرب ، ولكل مبدأ من مبادئها ازدواجيته ، مثل ذلك كمثل قطعة النقد الواحدة ذات الوجهين . ومن هنا تظهر الحاجة لحل وسط محسوب جيداً كوسيلة للتسوية . وهذه نتيجة لا يمكن تجنبها لحقيقة ان الحرب هي عمل مشترك بين فريقين ، وبذلك يفرض الموقف على أحد الفريقين اتخاذ موقف الدفاع او الاحتراس عندما يوجه الفريق الآخر ضربته . وتكون النتيجة الطبيعية هي الحاجة لارغام الخصم على ترك موقفه الدفاعي والتخلي عن تدابيره الاحتراسية حتى تكون الضربة قوية ومؤثرة . ويأتي التأثير في تركيز القوى عندما تكون قوات الخصم منتشرة فقط . وعادة ما يعمل احدهم على نشر قواته الخاصة وتوزيعها بهدف ضمان تحقيق ذلك . ويكون التناقض الظاهري في تركيز القوى ان هو الا نتيجة لانتشار قوى الطرف الآخر وثمرة لها . وان تدمير كتلة قوات العدو يتطلب تجزئتها وتوفير هذه الاجزاء .

هناك نتيجة ابعد مدى في ظروف عمل الفريقين ، وهي ان ضرورة ضمان الوصول الى الهدف تتطلب من أحدهم الوصول الى اهداف تبادلية . وهنا يكمن التناقض الحيوي الذي تضمنته عقيدة فوش واتباع مدرسته من اصحاب العقيدة القتالية للقرن التاسع عشر والتي تستند الى تفكير من اتجاه واحد ، وهو تناقض بين النظرية وبين التطبيق . ذلك انه لو كان العدو على ثقة من وجهة نظرك بالنسبة للهدف فستكون لديه افضل فرصة ممكنة لوقاية نفسه ولاتخاذ تدابير الحيطة الضرورية من اجل احباط عمل اسلحتك . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانك اذا ما أخذت بخط تستطيع منه تهديد اهداف متتابعة - تبادلية - فانك سترتبك تفكير العدو ، وستشتت قواته . وزيادة على ذلك ، فان هذه الوسيلة هي أفضل الاساليب الاقتصادية (لارباك) الخصم ، ذلك لأنها تسمح لك بالاحتفاظ باكبر نسبة من قواتك وهي جاهزة للعمل على خط عملياتك الحقيقي - كما تضمن هذه التسوية اكبر قدر من تركيز القوى مع تلبية ضرورة الانتشار والتوزع .

ان غياب الاهداف التبادلية هو أمر يتناقض والطبيعة الحقيقية للحرب . . . ففي

كل موقف ، وحيثما وجدت قوة مضادة لم تتوفر القدرة على ضبطها واحكامها . فان على المرء ان يتوقع ويبحث عن مسارات تبادلية واهداف متتابعة . فالتكيف مع المواقع هو القانون الذي يتحكم بسلوك الحرب وبسلوك الانسان في الحياة ، أما التركيز او حشد القوى فليس اكثر من شكل من اشكال صراع الانسان ضد ما يحيط به .

ان من المحتمل ان يقرر القائد في مخططه الاساسي البحث عن اهداف تبادلية ، فاذا ما عمل العدو على تغطية هذه الأهداف وحمايتها ، فسيكون القائد حكما اذا ما وجه ضربته الى اهداف اكثر تعرضاً . وعلى هذا يجب ان يكون للمخطط فروعه ـ مثل الشجرة ـ وذلك إذا ما كانت هناك رغبة في ان تكون هذه الشجرة مثمرة . وان مخططاً لا يضم سوى هدف وحيد انما هو عمود اجرد او جذع شجرة لا ثمار له .

ان اختيار خط التقدم الذي يضمن توفر اهداف عديدة (تبادلية) انما يساعد القائد على الاحتفاظ بقواته وهي متجمعة ومركزة عوضاً عن اقتطاع اقسام منها لاعاقة العدو ومنعه من تركيز قواته لمجابهته . ويستطيع القائد بذلك الافادة من ميزات الخط الواحد للعمليات مع تجنب مساوئه . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت الفكرة في ان القوات المدرعة السريعة هي السلاح الذي يستجيب بصورة خاصة لهذه الغاية ويتلاءم معها . فالمرونة الآلية (الميكانيكية) تزيد من ميزات العمل على خط يهدد مجموعة من الأهداف التبادلية المتتالية . كما انها توفر للقائد القدرة على اخفاء اتجاهه والتمويه عليه خلال مدة اطول من السابق . وذلك بسبب توفر القدرة على الانحراف حتى الساعة الأخيرة .

كانت تلك هي النقطة الرئيسية التي اوضحتها عام ١٩٣٠ ، ثم ظهرت في مجال التطبيق عام ١٩٤٠ من خلال التقدم السريع للقوات المدرعة الالمانية بعد عبورها نهر الموز قرب سيدان مستفيدة الى حد بعيد من الطريق الذي يهدد نجاح مجموعة من الأهداف التبادلية . وتركت الفرنسيين في حالة من الشك حول الاتجاه الحقيقي الذي ستتبعه القوات المدرعة الالمانية إذ كان امامها الاختيار إما التوجه مباشرة الى باريس وإما التقدم نحو مؤخرة الجناح الأيسر للحلفاء في بلجيكا ، وبعد ذلك وعندما اندفع الالمان نحو الأمام ظهر الشك مرة اخرى حول الاتجاه الذي سيسلكونه ، إذ كان أمامهم الاختيار إما للتوجه الى أميان أو الى ليل . وقد استخدموا الطريق الأول ثم انتقلوا الى الثاني ، ثم تابعوا تقدمهم دون مقاومة تذكر حتى وصلوا شاطىء القنال ، وحققوا بذلك تأثيراً حاسماً .

* * *

ان عملي في وضع كتاب عن شيرمان والحرب الأهلية الأمريكية ، لم يساعدني على

تحريض افكاري التكتيكية والاستراتيجية وتوسيع معارفي فيها فحسب ، وانما كان من أغنى الأقسام في قيمته بالنسبة لتعلم الابحاث التاريخية . وقد كانت الحرب الحديثة والوحيدة التي تتوفر لها وثائق رسمية يقوم بفحصها ودراستها مؤ رخون غير رسميين . وقد عملت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على جمع كل الوثائق المتوفرة ومخططات الطرفين المتحاربين خلال تلك الحرب التي استمرت اربعة أعوام ، وعملت على نشرها . وذلك عوضاً عن اتباع الطريقة الأوروبية الحديثة في اصدار تاريخ رسمي له طريقته الجذابة والمغرية بالمطالعة . وكان قرار الحكومة الأمريكية متسماً بالحكمة الى ابعد الحدود ، لأنه كان افضل طريقة لتجنب القيود والضغوط ما كان منها مكشوفاً او ضمنياً مستتراً ، والتي قد يخضع لها المصنفون للتاريخ الرسمي . أما اطلاق اسم (التاريخ الرسمي) فكان يتضمن تناقضاً في صياغته إذ ان من طبيعة الكلمة الثانية (الرسمي) الغاء اهمية الكلمة الأولى (التاريخ) . وعلى النقيض من ذلك فان تسمية (التسجيلات الرسمية او الوثائق للجيوش الاتحادية والوحدوية) انما تبرهن من خلال مجلداتها البالغ عددها (سبعون مجلداً ضخماً) على انها تشكل قاعدة غير مقيدة لدراسة الحرب . من خلال ما تقدمه من مشاعر ومقررات لكل طرف من الطرفين المتحاربين خلال عملهما يوماً بعد يوم ، وحتى ساعة بعد ساعة . وعلاوة على ذلك فان جمع (المراسلات) و (التقارير) بصورة منفصلة ومستقلة جعل بالامكان متابعة ما كان يفكر به القادة وما يفعلونه في تلك اللحظة ، ومقارنة ذلك بعدها بما قالوه في تقاريرهم التالية ، وكانت مثل هذه المقارنة تبرز الاختلاف الكبير بين وجهات نظرهم عند مسيرة تيار الأحداث ، ثم وجهات النظر عند ترجيع الأحداث واستعادة مجرياتها . كما انها تظهر مدى كفاءة هؤلاء القاده ـ على نحو ما يحدث في كل حرب ـ في كتابة تقاريرهم بمثل هذه الطريقة لتغطية الأخطاء في تقريرهم للمواقف ، وخلال تنفيذهم ، وكان ذلك انجازاً رائعاً ، او القاء نظرة فاحصة للتاريخ لاستخلاص الحقيقة . وعلى هذا فقد كانت هذه المجموعة تضمن للباحث تدريباً واسعاً للعمل بحذر في مجال التاريخ .

لقد كانت هناك ثمة حاجة لمثل هذا الحذر لا من أجل فحص تقارير القادة فحسب بل من أجل فحص اعمال المؤ رخين ايضاً ، على نحو ما وصلت اليه بوضوح اكبر خلال اضطلاعي بهذا الواجب . فعندما أخذت في الاستغراق بهذا العمل انصرفت اليه بجدية ومواظبة ، وعكفت على دراسة مجموعة (من التسجيلات الرسمية) التي كانت الحكومة الأمريكية قد قدمتها هدية لمعهد المؤسسة المتحدة الملكية في رئاسة مجلس الوزراء البريطاني . وأصبح من عادتي استعارة اثني عشريه من المجلدات في وقت واحد ولمدة

طويلة . وقد أخبرني امين سر المكتبة ، وهو رجل عجوز امضى اربعين سنة في عمله . بأنه لم يعرف أحداً قد رجع الى هذه الوثائق في السابق ، وقد برهنت لي هذه الحقيقة على ان معظم الكتب التي وضعت في انكلترا عن الحرب الأهلية الأمريكية انما كانت تستند الى مصادر ثانوية ومن الدرجة الثانية . ووجدت زيادة على ذلك وفي كثير من الأحيان ان الكتب البريطانية والأمريكية على حد سواء مما كتب عن الحرب الأهلية الأمريكية ، انما كانت تنسخ المراجع وتكتب لائحة المصادر فتأخذها بعضها من بعض . . وواضح ان لائحة المراجع هذه كانت تكتب دون دراسة جيدة ودون عناية كافية بالرجوع الى (التسجيلات الرسمية) فكانت غالباً ما تكرر لائحة المراجع ذاتها . وأصبح واضحاً ان كثيراً من الكتب التي يزعم واضعوها انها (ابحاث) ـ انما كانت تكتب باهمال ودون عناية ، وان عادة ذكر المصادر ليست في كثير من الأحيان سوى طعم هدفه التأثير على القارىء .

تعلمت من ناحية اخرى ، ومن خلال عملي في هذا الكتاب قيمة المعرفة الشخصية للأرض وأهمية دراستها بحيث تتجاوز قيمة هذه المعرفة كل تقدير . فعندما اضطلعت بعملي أصابني دوار مباغت ، وكانت مخاوفي الرئيسية تتركز على صعوبة اجراء مثل هذه الدراسة التفصيلية للحملات والمعارك دون رؤ ية للأرض التي كان يدور القتال فوقها . وخلال تلك الفترة لم أكن قد قمت بزيارة لأي ميدان معركة من ميادين الحرب الأهلية الأمريكية ، في حين انني كنت قد زرت ميادين كثيرة على المسرح الأوربي . كما كنت قد اجتزت بصورة خاصة القسم الأكبر من الجبهة الغربية التي شهدت معارك (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وذلك عندما كنت اعد مجموعة من المقالات تحت عنوان (بعد عشر سنوات) وعالجت فيها المعارك الرئيسية هناك . وكان علي بالنسبة لموضوع « شيرمان » الاعتماد في الدراسة على الخرائط بالاشتراك مع التسجيلات والقصص التي حدثت خلال تلك الفترة ، وما ورد عنها من روايات . وكم شعرت بالبهجة والسلوى معاً أن اتلقى بعد أن صدر الكتاب رسائل من (لجان دراسة الحرب الأهلية) في جورجيا وكارولينا ، تذكر بانه نظراً لمعرفتي الجيده لتلك المواقع والأماكن ، وانهم يأملون في أن اعمل على زيارتهم والاقامة معهم خلال زيارتي التالية . ولكن ما هو اكثر بهجة من ذلك ، هو ما حدث لي عند مقابلتي للجنرال جورج باتون في عام ١٩٤٤ حيث قال لي بأنه عمل منذ عشر سنوات مضت على قضاء شهر من الزمن في متابعة حملات شيرمان على الطبيعة وكتابي في يده . وانه وجد بأن الكتاب هو (دليل جيد جداً) لتلك الحملات .

تثير هذه النقطة تعليقاً أبعد مدى ، فعلى الرغم من انني زرت بضع مئات من

ميادين القتال خلال فترة الاربعة عشر سنة السابقة ، فانني وجدت بأن رؤ ية ميدان المعركة أقل فائدة من الدراسة الدقيقة للخرائط ، مع استخدام الخيال المبدع لتكوين صورة واضحة في الذهن عن ظواهر الأرض وطبيعتها . واذا ما شاهد أحدهم الأرض قبل كل شيء دو ن دراسة مناسبة للخارطة ، فانه ربما خسر بعضاً من المؤ ثرات الهامة . أما اذا فقد أحدهم الميزة الواضحة للاستطلاع الشخصي على الطبيعة (لمعرفة الأرض) ، فان عليه دراسة الخارطة بعناية اكبر . والافادة الى ابعد الحدود من خياله المبدع لتكوين صورة ذهنية على الأرض . ولقد توصلت من خلال تجربتي الطويلة الى استخدام الاختيار التالي : (اذا ظهرت لي بعض ملامح الأرض غريبة عني عند زيارتي لها . فانما يعني ذلك ان دراستي للخارطة لم تكن صحيحة . أما اذا ظهر لي عند زيارتي للأرض واستطلاعي لها بأن كل ما تحمله من ظواهر انما هو معروف لي ومألوف ، فان ذلك يعني بأن دراستي للأرض كانت صحيحة ودقيقة . ولقد جاءني مثل هذا الاختيار بصورة غير متوقعة خلال فصل الربيع من عام ١٩٣٠ ، وذلك عندما طلب الي الذهاب كواحد من المحاضرين على مجموعة من المندوبين المنتجين لجولة في بلاد اليونان وكريت والقسطنطينية .

كان موضوع محاضرتي هو الحروب القديمة . وقد تم وضع مخطط المحاضرة في الأمسية السابقة قبل وصولنا القسطنطينية . ولكن بما اننا كنا على وشك المرور بمضيق الدردنيل فقد كان هناك طلب عام وهو ان باستطاعتي عوضاً عن مخطط محاضرتي السابقة ، القاء محاضرة عن حملة عام ١٩١٥ التي كان هدفها الاستيلاء على المضائق . ولحسن الحظ فانني كنت قد حملت معي كمية من المذكرات والملاحظات وبعض الخرائط لدراستها بصفة شخصية . وعلى هذا فعندما وقفت لالقاء المحاضرة ، اوضحت بأنه لم تسبق لي رؤ ية الدردنيل او استطلاع شبه جزيرة غاليبولي حيث تم انزال القوات البريطانية هناك .

ونتيجة لذلك فانه ليس باستطاعتي اعطاء اكثر من ملامح عامة للحملة ورسم خطوطها البارزة فقط . ولكن سرعان ما سقط هذا التحذير من الذاكرة ومضى الى غياهب النسيان في اذهان المستمعين ، ذلك انه مع اقتراب الباخرة ، في صباح اليوم التالي ، الى الشاطىء وقبل دخولها المضيق ، وجدتني مطوقاً بحشد منهم وهم يسألونني ان اشرح لهم طبيعة الأرض مع الاشارة الى تلك الأقسام التي مارست دورها سواء في عملية الانزال او عند التقرب التالي داخل ارض الجزيرة مع شرح تفصيلي لكل ما حدث . وقد بوغتت انا نفسي وشعرت بالهدوء والسكينة ، عندما وجدت ان باستطاعتي تمييز هذه الظواهر الأرضية منذ النظرة الأولى . ولم تغب عن رؤ يتي حتى تلك الأخاديد المنخفضة والصغيرة التي عرفتها خلال دراستي السابقة للخارطة .

صدوت النشرة البريطانية لكتاب (شيرمان) في شباط (فبراير) ١٩٣٠ ، اي بعد ثلاثة اشهر من صدور النشرة الأمريكية . وجاء اول رد فعل مبكر لظهور الكتاب من داوود كامبل (القائد الأعلى لقيادة منطقة الدرشوت) الذي اقترح على وزارة الحرب ان يكون موضوع التدريب (المناورة) في قيادته للسنة التالية مركزاً على ما اطلق عليه اسم « مسيرة شيرمان » بهدف تجربة انقاص اعباء (الذيل الاداري) الضخم الذي كان يرهق الجيش بوسائط النقل . وتحقيقاً لهذه الغاية فانه فكر في اختبار لتعبئة الفرقة الأولى وهي بقوة الحرب ، ثم تحريك هذه الفرقة ، وقد حصل كامبل على موافقة وزارة الحرب لتنفيذ مشروعه . ولقد برهن الاختبار على وجود ركام كبير من المواد غير الضرورية بسبب الاصرار على التمسك بالعادات القديمة ، والاتجاه للوقاية ضد كل احتمال ممكن او طارىء غير متوقع ، مهما كانت درجة هذا الاحتمال ضعيفة . كما ظهر بأن السبب الاكبر للتأخير انما يعود الى ان اللائحة الزمنية الموجودة لتعبئة التجهيزات ، قد فرضت على الوحدات الاستمرار في حمل ما يكفيها من التموين لمدة اربعة ايام من كل ما تحتويه مخازن الامداد والتموين ، وذلك بصرف النظر عن ميزة النقل الآلي التي جعلت عملية الامداد اسرع بكثير مما كانت عليه في الماضي وأكثر سهولة ايضاً . وقد تم العمل بعد هذا الاختبار الجديد على اختصار عدد مركبات النقل في الفرقة وانقاصه بمعدل ثلاثين بالمائة ، وقد ساعدت تجربة المسير ذاتها للتأكيد على ان هذا الاختصار كان اجراء عملياً . وقد تحركت وزارة الحرب نتيجة لذلك فأصدرت اوامرها حتى يتم في المواسم التدريبية للسنوات التالية التركيز بالدرجة الأولى على تخفيف الحمولات في الذيل الاداري . وتشكيل لجان خاصة لهذه الغاية في كل القيادات الرئيسية واجبها ارتياد مشكلة تخفيف التجهيزات الفردية للجندي وتبسيطها وايجاد الحلول المناسبة لها . وقد عملت بعض هذه اللجان على استشارتي . وعلى الرغم من عدم اعتماد توصيات اللجان الا بصورة جزئية . فقد كان من اول النتائج ادخال النموذج الجديد من لباس الميدان (الباتل ـ دريس) .

وصل كتاب (شيرمان) الى مستوى أرفع وحقق أصداء اوسع في خارج انكلترا . فعندما حضرت مؤتمر نزع السلاح في جنيف مع بداية عام ١٩٣٢ ، قابلت آغا خان ـ الذي كان واسع الاطلاع غزير المعرفة بالشؤون العسكرية ـ كبير الاهتمام بها ، وقد اعلمني آغا خان بأن رئيس الوفد العسكري الالماني ـ الجنرال فون بلومبرغ ـ يرغب في مقابلتي ، وانه رغب اليه ترتيب هذه المقابلة . وعندما تقابلنا اخبرني بلومبرغ بأنه تأثر الى حد بعيد بالدروس التي استخلصتها من حملة شيرمان وفائدتها بالنسبة للتطبيقات الحديثة . وانه عمل على تطبيق هذه الدروس في تدريب الوحدات الالمانية التي كان

يقودها في شرق بروسيا قبل تعيينه في مركزه الحالي . وقد اخبرني خلال الحوار الذي استمر طويلا بيننا انه عندما كان طالباً في كلية الاركان الالمانية لم يكن هناك من يعرف شيئاً عن الحرب الأهلية الامريكية . ولكنه اصبح يدرك الآن ان ذلك الاهمال كان خطأ كبيراً . وعلى هذا فقد اشترك مع رئيس هيئة اركانه ـ العقيد فون ريشنو ـ في وضع ترجمة خاصة للكتاب من اجل تعميمه في نطاق دائرة الضباط فقط وذلك عوضاً عن الانتظار حتى صدور ترجمة عادية في المانيا . وفي وقت متأخر من تلك السنة عملا ايضاً على القيام بترجمة مشابهة لكتابي الجديد (طريق بريطانيا في الحرب) .

عمل الرئيس الالماني الفيلد مارشال فون هندنبرغ وهو في العقد التاسع من عمره ، على تعيين هتلر كمستشار لالمانيا في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ ، فتم على الفور تعيين بلومبرغ وزيراً للدفاع . وأصبح بالتالي قائداً أعلى للقوات المسلحة كلها ، ومنح رتبة مشير (فيلد مارشال) ولم يكن يتجاوز من العمر في تلك الفترة سوى ٥٤ عاماً . وكان ريشنو ذا امكانات جيدة ، عرف بطموحه وبفكره السياسي العسكري . ونظراً لعلاقته الوثيقة بهتلر طوال سنوات عديدة ، فأصبح نتيجة لذلك رئيساً للهيئة الوزارية ثم اصبح فيما بعد رئيساً لهيئة الاركان المشتركة ، وعلى الرغم من الاعباء الكثيرة التي القيت على عاتق ريشنو ، وعلى الرغم أيضاً من جهوده في تطوير اعادة تسلح الجيش الالماني ، فقد استمر في ترجمة كتاباتي ، بحسب ما علمته بعد ذلك عن طريق الملحق العسكري البريطاني في برلين ـ آندزو ثورن ـ الذي علم بذلك لأنهم كانوا في كثير من الأحيان يطلبون مساعدته لاعتقادهم انه قد يفيدهم (في ايضاح بعض النقاط التي لم تكن واضحة تماماً بالنسبة لهم) . وكان اهتمام ريشنو يظهر اهتماماً مشابهاً لما كان يبديه غودريان بفكرة الاختراق الاستراتيجي العميق ، واحتمالاته ، وكذلك القدرة على تنفيذه بواسطة القوات المدرعة . وقد قاد في عام ١٩٣٩ ، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية قوات الجيش العاشر الذي كان يضم كتلة فرق البانزر التي قامت بالاختراق حتى وارسو ، مما كان له تأثير حاسم في افتتاح مرحلة الحملة البولونية .

ثم حُمِلَ كتابي عن (شيرمان) داخل انكلترا الى مستويات مختلفة ، وكانت ردود الفعل منه متباينة . لا سيما بعد ان جاء مونتغومري ـ ماسينغبورد كرئيس لهيئة الأركان العامة خلفاً للجنرال ميلن . فقد كان من عادة هيئة الاركان انتقاء حرب خاصة كموضوع في قسم التاريخ العسكري لمدة ثلاثة اعوام ، وذلك من اجل اختبار الضباط للترفيع ، وقد وقع الاختيار على الحرب الأهلية الأمريكية لتكون هي الموضوع . وقد اعلنت عن ذلك في اوامر الجيش لشهر حزيران (يونيو) ١٩٣٩ . وتضمن الأمر ايضاً ترشيح كتابي

(شيرمان) وكذلك كتاب فوللر (غرانت ولي) بين مجموعة الكتب الثلاثة المخصصة للدراسة وقد أصدر الجيش امره باختيار الكتب قبل الرجوع الى رئاسة هيئة الأركان العامة وعندما قرأ مونتغومري ماسينغبورد امر الجيش انفجر غاضباً وفقد السيطرة على اعصابه لوجود كتابين عرف عن مؤلفيهما الهرطقة والخروج بالبدع مما يفرض ابعادهم ومصادرة مؤلفاتهما عوضاً عن تقريبهما ولكن وحتى لو اراد ابعاد الكتابين فقد كان من الواضح جداً خطأ حكمه المسبق نظراً لعدم وجود كتب تبادلية تحل محلها وعلى هذا . وبناء على الحاح مونتغومري وإصراره فقد عمل الجيش على الغاء امره في الشهر التالي . وصرف النظر عن الحرب الأهلية الامريكية كلها كموضوع للدراسة

* * *

كان وجود الانحراف الرجعي على رأس القيادات العسكرية للجيش البريطاني خلال هذه السنوات التي تعاظم فيها خطر التهديد بالحرب من جديد نتيجة لوصول هتلر الى مواقع السلطة في المانيا ، امراً مؤسفاً وحدثاً محزناً ، إذ فقدت بريطانيا المبادأة في تطوير اول دبابات سريعة ـ الحركة ، وأضاعت فرصة تطوير اول قوة آلية (ميكانيكية) تجريبية ، وخسرت بذلك ايضاً نظريتها في استخدام مثل هذه القوة

عندما صدر كتاب (البداية الارجوانية) عن وزارة الحرب في عام ١٩٢٩ متضمناً المفهوم الجديد ، شعر أنصار هذا المفهوم بصورة طبيعية ان صراعهم على امتداد عشر سنوات قد انتهى بقبول فكرتهم ، وانه قد صدر الحكم العادل لمصلحتهم من قبل اعلى المستويات القيادية ، ولكن هؤلاء الأنصار لم يلبثوا طويلاً حتى أدركوا ما وقعوا فيه من خداع

كانت النتيجة الطبيعية هي ضرورة العمل المبكر لتحويل تنظيم الجيش وتدريبه للانتقال به من مرحلة الجهد الفصلي الى قاعدة العمل الآلي (الميكانيكي) ولكن قد يكون من النادر في شؤون حياة الانسان ، ومن النادر بصورة خاصة في افق الحياة العسكرية ان يتبع التنفيذ المنطقي ما هو منطقي من استنتاجات وعلاوة على ذلك فقد اختفت فرصة حدوث مثل ذلك بفضل التقاء مجموعة من العوامل المتضادة منها سياسة حكومة المحافظين برئاسة بالدوين واجراءاتها لتخفيض النفقات والمصاريف الوطنية في كل اتجاه ثم اعتقاد الحكومة بضعف احتمال اندلاع حرب اخرى على المسرح الأوربي وعدم اهتمام الكتلة الجماهيرية الواسعة او القادة السياسيين بأمر تطوير الجيش وتحويله الى جيش حديث وهناك عامل كان له نتائجه البعيدة وهو حالة الخنق في الترفيعات داخل

الجيش مما أخر ظهور جيل الشباب من الجنود على مسرح الأحداث ، لا سيما وان هؤلاء كانوا قد تعلموا من تجربتهم الشخصية الثمن الباهظ الذي دفعوه نتيجة للاهمال والعبث في الحرب الأخيرة ، وكذلك الحدود الضيقة لعمل القوات (الراجلة والراكبة على الخيول) من مشاة وفرسان .

كان التردد في اعلى مستويات الجيش مدعماً - على كل حال - بعدد كبير من الضباط في المستويات الوسطى . ذلك ان معظمهم كان قليل المعرفة بالمزايا الآلية (الميكانيكية) فتم بصورة غريزية حجب الثقة عن الحدث الجديد الذي سيقلب كل شيء بصورة جذرية - لا سيما وان هذا الشعور قد رافقه بصورة طبيعية قلق بشأن تأثير الحدث الجديد على مستقبل حرفتهم وطبيعة عملهم . ومن هنا كانت نتيجة ظهور الدليل الجديد هي (انه ليس باستطاعة الضباط الحصول على افضل النتائج من آلياتهم - مركباتهم - طالما لم تتوفر لهم الكفاءة الآلية - الميكانيكية - الكاملة) وكان ذلك تحذيرا لضباط مشاة القرون الوسطى الذين لا يمتلكون اي ميل للآليات بالاضافة الى الفرسان الذين كانوا (يحبون خيولهم) .

لقد رافق مثل هذه الانحرافات داخل الجيش ، تعاظم في المشاعر المضادة - للحرب لدى الجماهير تجاوزت حدود السلبية التي كانت تلقي خلال تلك الفترة بثقل يزيد في اعبائه على ما تتطلبه الاتجاهات السلمية . وكان هناك استعداد لدى كثرة من الرجال لقبول شعار (لا حرب اخرى) ربما لأنهم لم يكونوا راغبين في مزيد من الاحتمالات غير المريحة او المزعجة . كما ان مزاجهم بعد الحرب ، وحالة التعب التي وصلوا اليها جعلتهم غير راغبين في قبول ما هو أسوأ من اعباء الضرائب لما بعد الحرب .

لقد عاد حزب المحافظين الى السلطة بناء على وعده بتخفيض النفقات . والتزم الحزب بوعده طوال فترة وجوده في الوزارة اعتباراً من عام ١٩٢٤ . فأخذ في اقتطاع قسم من الموازنة العسكرية وتخفيضها في كل سنة بمقدار يزيد قليلاً عن السنة التي سبقتها . وقد اعاد ونستون تشرشل تجديد الاهتمام آنياً بالتقدم العسكري ، ولكنه سرعان ما غرق تحت تأثير رغباته حتى يبرهن عن وجوده في تخفيض الضرائب كمستشار لوزارة المالية . وعلى هذا فعندما كان يتم تقويم موازنة الجيش لعام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ، طلب تشرشل اجراء تخفيض بمقدار مليوني جنيه استرليني ، ولو انه وافق في النهاية على الاكتفاء بتخفيض نصف مليون جنيه استرليني . مما جعل التخفيض بكامله يصل حتى ٤٠ مليون جنيه . وقد حملتني هذه التخفيضات المستمرة على طرح الموقف فكتبت في صحيفة الديلي تليغراف ما يلي : (تعمل كل سلطة خارجية على تنفيذ ما يثير الرعب ، وما ينذر بسوء العواقب ،

وذلك عن طريق زيادة نفقاتها على جيوشها . أما حكومتنا فتعمل على النقيض من ذلك وكأنها لا ترى شواهد الانذار باقتراب العاصفة . وسيكون ادراك الحكومة لواجبها تجاه الأمة ادراكاً خاطئاً ان هي استمرت في تخفيض قوتنا العسكرية الهزيلة بصورة اكثر قسوة ، لا سيما وان الأمم الأخرى لا تقلد السلوك الذي اتبعناه باستمرار)

جاء في الفصل السابق ذكر وصول حكومة بريطانية جديدة الى السلطة شكلها حزب العمال في خزيران (يونيو) ١٩٢٩ . وكانت وجهة نظر هذا الحزب تتمثل بالايديولوجية السلمية والتقاليد المضادة ـ للعسكرية ، ولهذا ظهر احتمال تخفيض الموازنة العسكرية بشكل حاد وقاس . ولكن عوضاً عن ذلك لم تقدم هذه الحكومة على اجراء تخفيض جدي عندما جاء تقدير الموازنة التالية ، بحيث انها لم تتجاوز في النقص حدود السنوات السابقة . ويعود السبب الأكبر في ذلك ، وفقاً لما قدرته ، وبحسب ما توفر لي من المعلومات بعد حين ، الى تأثير امين سر الدولة الجديد للقوى الجوية اللورد تومسون والذي كان يحمل رتبة عميد في الجيش النظامي ، ثم عمل في هيئة اركان الحرب العليا للحلفاء في فترة (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وذلك قبل ان ينصرف كلياً للسياسة . .

لم يفقد تومسون اهتمامه بمجال فاعليته المبكر عندما تسلم عمله الجديد . فعندما تناولت معه طعام الغذاء في شهر تموز (يوليو) ـ أي بعد مضي أسابيع قليلة على تشكيل الحكومة الجديدة ، طلب تومسون إلي اعداد مذكرة عن امكانات الجيش الآلي (الميكانيكي) وقيمته حتى يقدمها الى رئيس مجلس الوزراء . وكنت خلال هذه الفترة على وشك البدء بجولتي السنوية لمتابعة المناورات التدريبية للجيش ، ولكنني رغم ذلك فقد ضغطت الوقت خلال هذا الموسم المليء بالعمل حتى استطعت اعداد مذكرتين رفعتهما اليه في شهر آب (أغسطس) .

كانت المذكرة الأولى تعالج موضوع اعادة تنظيم الجيش المحلي وتكوينه كقوة يمكن ارسالها للحملات الخارجية بحيث تضم ثلاثة فرق مشاة حديثة وثلاثة فرق مدرعة خفيفة وثلاثة ألوية مدرعة متوسطة وذلك عوضاً عن القوة الموجودة والمكونة من خمسة فرق مشاة بحسب التنظيم القديم ، وفرقة فرسان ـ خياله ـ . واقترحت توفير القدرة البشرية والتعويض بما تتطلبه من نفقات ثمنا للوسائط الحديثة .

وقد استندت في التكوين التفصيلي الى ما تضمنه الدليل الجديد مع بعض التعديلات . أما في المذكرة الاضافية ، فقد أظهرت طريقة اعادة تنظيم افواج المشاة وفق اسلوب متقدم تكون فيه هذه الافواج نصف آلية (ميكانيكية) ولا يزيد عدد أفراد الفوج

على خمسمائة مقاتل . وتضمنت المذكرة الثانية معالجة للمشكلة العسكرية في الهند ، وطريقه تحويلها إلى قوات بريطانية حديثة يمكن لها التوافق مع التغيرات التي تشهدها القوات البريطانية في البلاد .

أظهر تومسون تقديراً كبيراً لما تضمنته المذكرة من احتمالات . ولكن كان عليه خوض معركة مع المعارضة لفرض المقترحات ، واقناع بعض زملائه في الوزارة لاتخاذ قرارات ربما كانت تتعارض مع مبادئهم السلمية ، فتظهر العملية وكأنها اعادة تسلح .

ولقد كان لعملية استبدال الخيول بالدروع بعضاً من الظواهر التي لم يضعها في تقديرهم حتى اولئك المحافظين من الجنود . وكان من هؤلاء توم شو أمين سر الدولة الجديد لشؤون الحرب والذي لم يكن يملك أي استعداد للمشاركة في دفع قضية التبديل ، وكان يميل تقريبا ليكون صدى لما يحضره له مستشاره الرسمي ، وأذكر هنا ما أصاب داوود كامبل من غضب عندما طلب مقابلته ، وقدم اليه حجمه وذرائعه المطوله ، فما كان من توم شو إلا أن التقط ورقه مطبوعة على الآلة الكاتبة ، وأخذ يقرأ مثل الببغاء ما كانت تتضمنه من اجابات محضرة أخذ في طرحها قبل أن يسمع من داوود كامبل حججه وذرائعه . وعلى كل حال فقد كان وزيراه الشابين اكثر انفتاحاً على الأفكار الجديدة . ولقد قابلت لورد دولاوير مساعد أمين السر البرلماني في معسكر من معسكرات الحدود ، بعد فترة قصيرة من مقابلتي لتومسون ،وقد طلب دولاوير إقامتي معه في منزله ـ في ساسكس في الاسبوع التالي ، وتقديم مذكرة له في موضوع ما هو مطلوب للاصلاح بالنسبة للجيشين النظامي وجيش الاقليم على حد سواء .

تم تعيين أمانويل ـ شينو يلل أمين سر جديد للشؤون المالية في وزارة الدفاع ، وكانت طريقة عمله تسبب صدمة للموظفين عندما يعمل هؤلاء على تقديم ما هو في حاجة للحصول على توقيعه ، حيث كان يطلب المزيد من المعلومات والكثير من الأسباب المنطقية والحجج المقنعة قبل ان يضع توقيعه ، وكان من عادته أن يسأل باستمرار . ولماذا ؟ . . . مما كان يسبب لمرؤوسيه الصداع وألم الرأس . وزيادة على ذلك فقد عمل أمانويل في خريف تلك السنة على تحريض أمين سر الدولة حتى يطلب من رئيس هيئة الاركان البيانات التوضيحية عن سياسة تنظيم القوات الآلية (الميكانيكية) . وقد انتقل هذا الواجب الى برود ، الذي طلب اليه العمل لوضع (سياسة اعادة التنظيم للسنوات الخمسة المقبلة) .

شعر برود أنه مكبل بقيود للحد من الاقتراحات بقدر يزيد على ما كان يريده ، كما

أنه كان على اطلاع تام بأن ميلن والعدد الأكبر من الاعضاء العسكريين الآخرين في المجلس العسكري ، كانوا جميعاً غير راغبين في الموافقة على أي برنامج لتطوير القوات الآلي (الميكانيكي) قد يجر في اعقابه تخفيضاً كبيراً في قوة الجيش القديم . كما أن الظروف الاقتصادية الزمنية لم تترك عملياً فرصة كبرى لاجراء مثل ذلك التعويض الاقتصادي . ولكن برود لقي تشجعياً من ميلن الذي عبر عن وجهة نظره من مصير الفرقة الخامسة ـ التي كان يتم العمل لاعادة تنظيمها بعد اجلاء وحداتها عن الراين ـ وأن وحدات هذه الفرقة هي قوة (فائضة) بحيث يمكن حلها ، وكان هذا يعني توفر امكانية تخفيض يزيد على اثني عشر فوجاً من المشاة . وانطلق برود من هنا ليضع مسودة مشروع لتكوين ٤ ألوية مدرعات وفقاً للمخطط الأصلي الذي تضمنه (الكتاب الارجواني) .

وضع برود مخططه بحيث يكون مقبولاً من القسم المالي في وزارة الحرب ، مع امكانيات تنفيذه خلال أقصر فترة ممكنة . فاقترح تخفيض مستوى قوة اللواء من ١٥٠ مدرعة ـ الى ٨٩ مدرعة بحسب تنظيم (ملاك) السلم . وتنفيذ ذلك على أساس تغيير التنظيم في افواج المدرعات بحيث يضم الفوج سريتين فقط ، تكون قوة السرية مكونة من ١٢ دبابة متوسطة (والسريتين للدعم المباشر) أما السرية الثانية فتتكون من ١٧ دبابة خفيفة . وزيادة على ذلك ، فان سرية ثالثة إذا ما أضيفت فستكون من الدبابات المتوسطة ، وعلى هذا فلن تكون هناك زيادة على مجموع ١٤٨ مدرعة من الدبابات المتوسطة التي كانت جاهزة ومتوفرة في الأفراج الأربعة الموجودة في الجيش . وكانت اضافة ٢٠٠ دبابة خفيفة تقريباً ستبلغ في تكاليفها أقل من نصف مليون جنيه استرليني ، نظراً لأن انتاج الدبابة الخفيفة التالية لن تتجاوز في تكاليفها ألفي جنيه ، مقابل تقديرات لنفقات انتاج الدبابة المتوسطة الجديدة من وزن ١٦ طن تبلغ ١٦ ألف جنيه ، وكانت هذه الدبابة مصممة لتحل محل دبابة الفيكرز القديمة ، والتي اعتبرت دبابة متوسطة وضعت في الخدمة منذ عام ١٩٢٣ . وكان تصفيحها ضعيفاً لا يتجاوز (٨ مم) بحيث لم يكن كافيا للوقاية لأكثر من الرصاصات العادية .

صدر مخطط الخمس سنوات ليكون مخططاً متواضعاً جداً . ذلك أنه جاء مختلف تماماً عن التوقعات في انتاج تشكيلات مدرعة وتنظيمها وتدريبها اعداداً لحرب الحركة . فكان بالنتيجة خطوة قصيرة جداً ، وقد تسببت هذه الخطوة التي اتخذت في عام ١٩٣٠ في ظهور الكثير من الاضطرابات عندما تطلب الموقف محاولة اجراء تحولات سريعة في فترة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ وذلك لمجابهة احتمالات الحرب التي ظهرت وشيكة الوقوع ولا مجال لتجنبها أو تفاديها .

لقد جاء موت تومسون في ارتطام الطائرة الجديدة (ر-١٠١) في ٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٠ ليبعد الرجل الوحيد الذي كان يظهر اهتماماً - في مجلس الوزراء - لاعادة التنظيم العسكري وفقاً لقواعد جديدة واكثر فاعلية . كما تلاشت فرص أفضل بموت أمين امدادات الجيش ، السير ويرن هاستينغ آندرسن في كانون الأول - ديسمبر - وكان قد أصبح حديثاً من الدعائم القوية لتأييد الأفكار الجديدة . وذلك على النقيض من المواقف الضعيفة التي كان يتخذها مدراء هيئة الاركان .

وكان قد تم قبل ذلك بأسابيع قليلة ، وخلال وجود ويرن هاستينغ بعيداً في حالة من المرض ، أن وضع (مخطط السنوات الخمسة) على الرف ، دون أن يتم تقديمه الى مجلس الوزراء . وكانت الحجة التي قدمت الى برود هي أن ميلن والأعضاء العسكريين الآخرين في مجلس الجيش يشعرون (بالخوف من الحكومة) وأن خوفهم يتركز على عدم قبول مجلس الوزراء للمخطط ، وأنهم يفضلون تأجيل تقديمه حتى تعود حكومة المحافظين للوزارة . وقد استخدمت هذه الأرضية ذاتها لقلب مشروع تكوين فوج دبابات في مصر ليحل محل أحد ألوية الفرسان هناك كبداية لتكوين لواء دبابات في الشرق الأوسط . وهكذا كان شبح الاتجاه التقليدي المضاد - للعسكرية في حزب العمال هو الستارة الوقائية المناسبة التي يمكن تحميلها بالحجج لاخفاء سلبية اولئك الذين يعارضون كل تغيير في العلاقات التقليدية للجيش .

حدث بعد ذلك ، وفي العام ١٩٣١ ، أن وقع انهيار مباغت في الاقتصاد ، وأخذ هذا الانهيار والقادم عبر الأطلسي من أمريكا بالانتشار في اتجاه الغرب . فتم دفن مخطط الخمس سنوات . وعلى الرغم من ان حكومة حزب العمال قد أفسحت المجال لتكوين حكومة ائتلافية في فصل الخريف من تلك السنة كان حزب المحافظين هو المهيمن عليها ، فان قيادة الجيش لم تعمل على نبش المخطط واخراجه من تحت التراب رغم مرور الأزمة الاقتصادية وتجاوزها . وبقي هذا المخطط في مكانه حتى عام ١٩٣٧ - أي بعد أربعة أيام من وصول هتلر الى السلطة في ألمانيا وعندها عملت وزارة الحرب على التحرك في وقت متأخر لتكوين ثلاثة ألوية مدرعة .

* * *

كان أسوأ ما في الأمر نتيجة التقاء مجموعة العوامل التي تسببت في ضياع الفرص هو عودة الموسم التدريبي لعام ١٩٣١ لتنفيذ أفضل خط في التجربة التكتيكية (التعبوية) لاستخدام القوات المدرعة ، حيث أمكن احراز تقدم كبير وهام في الجمال التقني (الفني)

بعد جهود ضائعة استمرت سنتين . فلقد أمكن تحريض ميلن للموافقة على جمع افواج المدرعات الثلاثة التي كانت موجودة في جنوب الاقليم ، على شكل لواء يعمل في الموسم التدريبي لعام ١٩٣١ ، وسمح لهذا اللواء بالعمل وفقاً للاساليب التعبوية (التكتيكية) الملائمة لمثل هذه التشكيلة المدرعة ، عوضاً عن اشتراك هذه التشكيلة للمساهمة في تمارين فرقة المشاة . ونظراً لتوفر الرغبة الواضحة في أن تتم قيادة اللواء المدرع في الموسم من قبل قائد يستطيع الاضطلاع بهذا الواجب ويخصص له كل وقته وجميع امكاناته . فقد تم تعيين شارل برود مع اعطائه رتبة لواء والتعويضات المالية لهذه الرتبة . ولكن هذا القرار لم يتخذ حتى آذار (مارس) ؛ فأصبح من الضروري وضع المخططات بسرعة وذلك حتى يصبح بالامكان اصدار التعليمات الضرورية مع بداية الموسم التدريبي في نيسان (أبريل) ١٩٣١ . وتم تنظيم قيادات اللواء بطريقة هادئة جداً في اليوم الأول من نيسان (أبريل)ولو أن هذه القيادة لم تكن تضم سوى قائد اللواء ، ورئيس أركان اللواء ومساعد كاتب . ولكن مجال برود تزايد في اتساعه عندما اتخذ قراراً اضافياً بتشكيل فوج خفيف لالحاقه على قوة اللواء وذلك على الرغم من أن تنفيذ هذا القرار كان مستحيلا إلا في حالة واحدة (هي حالة آدم وحواء) حيث يتم شق ضلع من كل فوج من الأفواج الموجودة وأخذ قوة من الرجال والمعدات لتكوين هذا الفوج الاضافي . وقد تعرضت هذه الافواج ذاتها لاعادة التنظيم وفق العلاقات الجديدة والنسب التي كنت قد اقترحتها منذ عام ١٩٢٧ والتي كان يتم تكرارها والتمسك بها خلال السنوات التالية .

كانت مذكرتي لعام ١٩٢٧ تتضمن اقتراحاً باتباع اسلوب المزج بين (النار والحركة) مما يلائم الوحدات المدرعة لتلقينها من خلال التجربة (على مراقبة هجوم عدد كبير من الدبابات بالتناوب ، وتأمل ردود الفعل والانعكاسات ضدها) في حين يكون جوهر العملية (هو ترجمة حديثة لأساليب المغول التعبوية ـ التكتيكية) .وكان اقتراحي هو التالي :

يجب قيام الدبابات بهجومها عن طريق الوحدات المشتركة ـ بأقل من السرية ـ وبالتناوب بين الدبابات والمصفحات .

تبدأ المصفحات بقيادة الهجوم لتمهيد الطريق وذلك لكشف نيران العدو واختبار مواقعه الدفاعية . فاذا ما ظهر بأن هذه المواقع ضعيفة ، اندفعت المصفحات في تقدمها « بكامل قوتها » في حين تسير الدبابات الثقيلة في أعقابها . أما اذا كانت المواقع الدفاعية قوية ، فعلى المصفحات التوقف عند حدود أقرب مسافة ممكنة من مواقع النيران ، مشكلة

من نفسها ستاراً دقيقاً من المعاقل الصغيرة او القلاع المتحركة ، ونظراً لأنها تكون في توقفها هدفاً للنيران ، فانها تعمل على تغيير مواقعها إذا ما تطلب الأمر . ثم تعمل الدبابات على التسلل من خلال ستارة المصفحات للتعامل مع مواقع المدافع المضادة للدبابات التي تفتح نيرانها ضدها ، وتسكت نيران هذه المدافع بوابل كثيف من نيران المدافع الرشاشة التي تطلقها المصفحات . ومن الصعب تصور نجاح أي زمرة من زمر المدافع في ممارسة عملها تحت تأثير نيران هذه المدافع الرشاشة عندما تضاف اليها سيول النيران القوية التي تطلقها مدافع الدبابات وهي تتحرك بسرعة نحو اهدافها . وعندما تكون الدبابات مشتبكة مع النسق الأول للمدافع المضادة للدبابات ، تبدأ المصفحات سباقها وهي في مقدمة القوات للمرور من بين مواقع العدو ، ولتكرر تنفيذ هذه العملية ذاتها ضد مواقع العدو المنسقة بالعمق .

وعلى هذا يكون هجوم الدبابات هو تناوب للتفاعل بين الحركة ، والتفاعل بين محصلة النيران .

بعثت بهذه المذكرة إلى داوود كامبل ، وعدد آخر من القادة ، ثم عملت على نشرها في مقولة بصحيفة الديلي تليغراف (بتاريخ ٢٧ ايلول - سبتمبر - ١٩٢٧) . وكانت خلال تلك الفترة ، عملية طرح فكرة الاشتراك بين الدبابات المتوسطة والمدرعات الخفيفة فكرة مشكوك بأمرها في جميع الأحوال على المستويات التي تقل عن مستوى اللواء . كما ان هذه الفكرة لم تكن مطروحة في (الكتاب الأرجواني) عندما تم اصداره في ربيع عام ١٩٢٩ . ولكن صدر أمر في وقت متأخر من تلك السنة بالسماح لاجراء تجربة لتطبيق الفكرة من خلال اشتراك سرايا الدبابات المتوسطة مع المصفحات الخفيفة في الفوج الثاني من لواء الدبابات الذي اصبح بقيادة هوبارت ، ثم اعادت بقية أفواج الدبابات تنظيمها في عام ١٩٣٠ وفقاً لهذه العلاقات ذاتها . ثم اتخذت خطوة أبعد مدى في عام ١٩٣١ حيث تم تعديل البنية التنظيمة للأفواج ، فأصبحت كل سرية تضم فصيلا من الدبابات المتوسطة وفصيلاً من المدرعات الخفيفة (المصفحات) . وقد كانت تلك العلاقة المشتركة في تنظيم قوات المدرعات على مستوى السرية ، سبباً في اعادة النظر لاصدار تعديل في (الكتاب الارجواني) مع اعادة التسمية لتكون (التشكيلات الحديثة) . وتم اصدار الكتاب في صيف تلك السنة .

لقيت فكرة التوقف من أجل اطلاق النيران المزيد من المقاومة العنيدة ، وبصورة خاصة في وسط كلية الدبابات الملكية ذاتها . وكانت مدرسة مدفعية الدبابات في لولوورث

قد عملت باسلوب يشابه اجراءات البحرية ، فركزت جهدها منذ البداية على تطوير اساليب الممارسة العملية والشروط الفنية للرمي أثناء الحركة ، وحققت نتائج مثيرة عندما استطاعت اعداد زمر على درجة عالية من الكفاءة . ولكن أمكن الوصول حتى عام ١٩٣١ إلى قبول فكرة التوقف من اجل رمي النيران نظراً لما توفره من ميزات ـ بصورة خاصة في المصفحات ـ نظراً لعدم الاستقرار في قاعدة الرمي . ولكن التغيير العام في الفكر لمصلحة الرمي أثناء التوقف ، والبحث عن حظيرة أو ساتر في الأرض عندما يريدون توفير الحماية ، وميزة التوقف في مواقع حاكمة ومحمية ، كل ذلك لم يظهر قبل وقوع المعارك الأولى للحرب العالمية الثانية ، حيث برهنت البحرية على قيمتها الكبيرة والتي كان ثمنها باهظاً .

برهنت تجربة اللواء المؤقت طوال ستة أشهر ـ وهو اللواء الذي أطلق عليه اسم « اللواء الأول للقوات المدرعة الملكية » ـ على انجاز نجاح كبير للقوى المدرعة في المجالين التعبوي (التكتيكي) والفني (التقني) . وكان هذا النجاح على كل حال ـ وبكلمات موجزة ـ يتعاظم في حجمه على ما انجزته القوة التجريبية التي نظمت في عامي ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ . ولقد برهنت هذه التجربة على انها اكبر تأثيراً في الخبرة التكتيكية للجيش البريطاني ، منذ تجارب السير جون مور على الألوية الخفيفة في معسكر شور تكليف وذلك خلال السنوات الأولى من القرن الماضي ، والتي أدت الى تطوير المشاة الخفيفة وفقاً للتصنيف الذي اتبعته الجيوش النابوليونية . ثم جاءت تجربة عام ١٩٣١ لتأخذ أبعاداً أكبر في تأثيرها من كل ما سبقها .

يعود الفضل الاكبر في هذه النتيجة الى قدرة برود في اشراك العوامل المختلفة . ووضع جميع الخطوط التفصيلية عند تخطيطه للتمارين من أجل تنفيذ الواجب المحدد في انتاج (أفواج قادرة على المناورة) . واخضاع هذه الافواج للتجربة ، في مناخ التحرر من العادات البطيئة سواء في التفكير او العمل ، وهي العادات التي كانت نتيجة طبيعية لارتباط عمل أفواج الدبابات بقوات المشاة ، والارتباط الوثيق فيما بينهما ، واستخدام الدبابات كمجموعات صغرى لدعم المشاة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وخلال العقد التالي للحرب . أما الآن فقد تم العمل على النقيض من السابق حيث استخدمت الدبابات بطريقة اكثر تركيزاً وتم تدريبها حتى تستجيب للفكرة الأساسية في التقرب غير المباشر . وذلك حتى تتمكن من استثمار قدرتها الأصلية (الجوهرية) والكامنة في سرعة الدبابات ومرونتها للاستدارة من حول كل موقع قوي واختراق اضعف المناطق في ترتيب العدو . ولقد طبقت هذه الفكرة الرئيسية ـ أو المبدأ ـ حتى على مستوى الوحدات

الفرعية التابعة وعن طريق المزج أيضاً بين الدبابات المتوسطة والمدرعات الخفيفة . وعلاوة على ذلك ، فان المدرعات الخفيفة ـ الصغيرة ، والتي تتحرك بمهارة بحيث تصعب اصابتها ، تستطيع اجتذاب انتباه الخصم نحو اتجاه معين ، في حين تكون الدبابات المتوسطة في سبيلها الى اخذ اتجاه آخر .

عرف الخط الجديد للتجربة مصدر قوة آخر ، وذلك عن طريق الدعم القوي الذي حمله القائد الأعلى الجديد لقيادة المنطقة الجنوبية ، وهو سيسيل رومر (خلف مونتغومري ماسينغبورد ، الذي كان قد نقل حديثاً لمنصب معاون القائد العام في وزارة الحرب .) وقد نقل سيسيل رومر الى القيادة العامة الأخبار الجديدة والتغيير الرائع في رسالة بعثها الى ليندسي وذلك عندما بدأ موسم التدريب في الأول من نيسان ـ أبريل ـ أما برود فكان يستمر في أقواله بأنه سيدشن عمله (بمحاضرتين تبدآن بجنكيز خان) .

عندما اقترحت بأن تستفيد التكتيكات الآلية (الميكانيكية) من التقنية التكتيكية لجيوش المغول وفقاً للشروط الحديثة ، أوضحت في حينها أن نجاحهم في مجال التطبيق انما يعود في حد كبير منه الى القاعدة التي يتم الاستناد اليها في تمارين الميدان ـ بحيث تتم قيادة المناورات المختلفة وتوجيهها بواسطة الشارات لتجنب كل تأخير ينتج عن ارسال الأوامر عن طريق المراسلين . ووافق برود على الفكرة ، وعمل وفقاً لذلك على وضع اسلوب ملائم للدبابات . بحيث تصدر الأوامر لمختلف انواع المناورة بواسطة حرفين رمزيين (كوديين) . وكلاهما يتم نشره باشراك علمين ، العلم الاول فوق العلم الآخر ، أو بواسطة استخدام اللاسلكي لاذاعة الحرفين بالمورس . وقد حقق الاسلوب الاشاري الجديد نجاحاً كبيراً وانتشاراً واسعاً فسد بذلك الثغرة طوال الفترة التي سبقت تطوير الهاتف اللاسلكي وتحسين تجهيزاته لاستخدامها في جميع أنواع مركبات القتال .

القيت محاضرات لايضاح الاساليب التكتيكية الجديدة على الضباط وصف الضباط في الأفواج جميعها ، وبعد ذلك نفذت مجموعة من التمارين التكتيكية بدون وحدات (تمارين للقادة) وبناء على الدروس المستخلصة من هذه التجارب . تم اشتقاق خمسة تمارين تكتيكية اساسية من أجل التدريب الأرضي .

بدأت المراحل ، التدريبية للفصائل والسرايا والأفواج بصورة مستقلة في المراكز الأساسية لهذه القوات ، وعند انتهاء المراحل التدريبية الجزئية جمع اللواء بكامله في معسكر تيلشيد على سهل ساليسبوري في بداية شهر ايلول (سبتمبر) .

كانت احدى الظواهر البارزة جداً في تمارين عام ١٩٣١ هي الاسلوب الجديد في

القيادة والذي أدخله برود بهدف اجراء الاختراق بسرعة واستثمار الظروف الطارئة . وكنت منذ سنوات أطالب بتنفيذ فكرة ما أطلقت عليه اسم (الاتصالات نحو الأمام) كتطبيق حديث على جميع المستويات القيادية من القمة وحتى القاعدة . وهو الاسلوب الذي مارس نابليون تطبيقه باستخدام (معاوني قادة المعسكرات) للحصول على المعلومات بسرعة عما كان يحدث من تطورات ، ونقل التعليمات والأوامر من نابليون الى قادته في الوقت ذاته وذلك عوضاً عن انتظار وصول التقارير الى الخلف - خلال فترة قد يتغير الموقف خلالها ، وتصبح الأوامر غير متوافقة مع الموقف او متكيفة معه . وعلى هذا فقد شعرت بالبهجة لرؤية برود وهو يطبق الفكرة مستخدماً لهذه الغاية ثلاثة ضباط برتبة رائد (ميجر) كانوا يركبون عربات مدرعة خفيفة (مصفحات) واطلق عليهم اسم (ضباط ميدان) عوضاً عن (ضباط اتصال) وذلك لايضاح دور هؤلاء كمنتجين من قبل القائد بحيث يستطيعون توجيه العمليات اذا ما تطلب الموقف ذلك . وكان قائد اللواء ينطلق الى المقدمة خلال التقدم الى ميدان المعركة مباشرة ، ويرافق القائد ضابطان من (ضباط الميدان) وقادة الأفواج وجميعهم بدباباتهم . ويأتي بعد ذلك النسق الثاني من الدبابات وفيها قادة سربتين من سرايا كل فوج من الأفواج . ثم يأتي النسق الثالث وفيه كتلة اللواء تحت القيادة المؤقته (لضباط الميدان) .

ظهرت ، مع نهاية الفترة الزمنية المحددة للتمارين ، امكانات تطوير الاساليب التعبوية (التكتيكية) الملائمة لحركة القوة المدرعة ومرونتها . وتوفرت بذلك الاجابة القاطعة على كل شكل من اشكال الدفاع الثابت المضاد للمدرعات . كما انجزت هذه التمارين أيضاً تقدماً واضحاً في (القيادة والادارة) . فلقد ترجمت الحجج النظرية التي كنت أطرحها الى تطبيقات عملية ، وتتلخص هذه الحجج بأن اللواء المدرع هو النوع الوحيد من التشكيلات التي يستطيع القائد السيطرة عليها وادارة مناورتها في الميدان الحديث للمعركة - ضمن الحدود الصارمة لمضمون مصطلحات القيادة - . ولقد فقدت الخيالة (الفرسان) تلك القدرة في مجابهتها للنيران الحديثة . أما بالنسبة لتشكيلات المشاة فان المناورة التعبوية (التكتيكية) تتطلب القسم الأفضل من النهار أو أكثر من ذلك . ولكن الأمر يختلف بالنسبة للواء الدبابات الذي يستطيع القيام باكبر المناورات التكتيكية خلال ساعات قليلة ، أما المناورة الموضعية فلا تتطلب اكثر من بضع دقائق .

علاوة على ذلك ، لم يكن باستطاعة الفرق وفقاً للنماذج - التنظيمية - التي كانت موجودة القيام باكثر من هجوم واحد في يوم المعركة . وما ان تضطلع الفرق بواجبها حتى يصبح من الصعب سحبها للعمل على زجها في قطاع جديد . وهي محدودة في عملها بما

يمكن ان يطلق عليه اصطلاح (استخدام قدرتها - النارية ضد نقطة واحدة) . وعلى النقيض من ذلك ، فان التشكيلة المدرعة تستطيع التعامل مع (عدد من النقاط) خلال تنفيذها لواجبها التكتيكي اليومي . وذلك دون افراط في الجهد او التوتر . كما تستطيع هذه التشكيلة اجراء تحول استراتيجي - بالانتقال من ميدان معركة الى ميدان معركة ، خلال بضعة ايام قليلة[٣] .

ان هدف التقرب الاستراتيجي هو خلق ظروف ملائمة يمكن من خلالها تنفيذ العمل التكتيكي بفاعلية وبصورة حاسمة . وقد كانت وجهة نظري الرئيسية التي طالما كررتها في كتبي ورددتها في مقولاتي بصورة ثابته هي أن تركيز القوى وحشدها ضد النقاط الضعيفة يتعلق بأنتشار قوة خصمك وتوزعها . وهذا ينتج بدوره عن التوزع الذي يعطي مظهر التناثر ويحقق تأثيراته الجزئية. فتناثر قواتك ، وتناثر قواته ، وحشد قواتك بصورة مركزة - ثم حشد قواته الخ . . . من مثل هذه الحالات المتناوبة التي تنتج عن كل حالة فيها نتائج معينة . وان تركيز القوى ما هو الا ثمرة التناثر المحسوب بدقة . ولدينا هنا مبدأ أساسي قد يسبب فهمه الصحيح تجنب الوقوع في الخطأ الأساسي (وهو الاكثر شيوعاً) بألا تعطي خصمك حرية العمل والوقت الكافي لتركيز قواته من اجل مجابهة قواتك المركزة (والتي يتم حشدها على محور الجهد الرئيسي) .

لقد فكرت عند معالجة قضية الانتقال من التقرب الاستراتيجي الى العمل التكتيكي ، بأن اجعل هذا المفهوم واضحاً عن طريق استخدام الأمثلة القوية ، وبصورة خاصة تلك التي استخلصتها من معارك نابليون بونابرت الأولى ، وتلخيص الاسلوب بتشبيهات متنوعة ، مفوضاً عن عمل القوة - المدرعة - كجسم واحد . يستطيع الجيش أو القوة ، العمل كالاخطبوط الذي يحرك أطرافه في عملية جس - أوسبر ، وأي طرف يستطيع بعد ذلك الإمساك بالخصم يساعد بقية الأطراف كلها حتى تتحرك بصورة آلية (اوتوماتيكية) لتطبق عليه . وهناك مثل أفضل لتشبيه انفتاح تجمع الفرق ومقارنتها بجسم سائل ، أو مثل فقاعات الزئبق التي تتدفق مباغتة لتتجمع بعضها مع بعض حتى تشكل علقة (أو خثره) عند اصطدامها بحاجز . أو تشبيه ذلك بشبكة منتشرة ثبتت أطرافها بالصخور لتسمح لرتل العدو بالمرور . وعندما يصبح العدو في وسطها تطبق الشبكة عليه من حول نقطة الضغط . فتتحطم الصخور وتتفتت بعضها مع بعض لتسقط على العدو الذي اقتحم منطقتها . وان (هذه التشكيلة التي تضمن لنفسها الوقاية الذاتية) تعمل عند (الصدمة) على (حشد قواتها وتركيزها في تشكيل الهجوم) .

وهناك أيضا تشبيه آخر استخدمته وهو المقاتل الروماني المزود بالشبكة ليلقي بها

على خصمه في حلبات الصراع الروماني القديمة . وكان المجالد يظهر في مواجهة خصم أفضل يتسلح بالرمح أو السيف مع شبكة ورمح ثلاثي الشعاب ، وتستخدم الشبكة لايقاع الخصم بالشرك أما الرمح فلقتل الخصم وذبحه عندما يتم الايقاع به .

كانت هذه التشبيهات كلها تتجاوب مع الفكرة الاساسية « للسيل الجارف » التي طورت اسلوبها منذ عام ١٩٢٠ - بحيث يتم الانتشار لعملية الجس او السبر ثم يتم التجمع والتركيز لتوجيه الضربة ، ثم يأتي بعد ذلك الانتشار من جديد لاستثمار الاختراق . وقد شبهت ذلك ايضا باسلوب (لعبة الشهب المضيئة) حيث تأتي الضربة قبل رؤ ية الضياء ، وهذا مما لا يسمح للخصم ما يكفي من الزمن لمجابهتها بعمل مضاد . وعلاوة على ذلك فقد أوضحت باستمرار ان الممارسة العملية لاشراك الانتشار في الحركة مع التركيز عند توجيه الضربة ستتعاظم باستمرار نتيجة لتطور المرونة الآلية (الميكانيكية) ونتيجة ايضاً للتطور في أجهزة الاتصال (الراديو اللاسلكي) .

بقيت المشكلة الرئيسية هي معرفة الكيفية التي سيستفيد فيها الجيش البريطاني من هذه القدرة الجديدة ، ومعرفة ايضاً متى سيتم له ذلك ، حتى يصبح قادراً على خوض الحرب ؟ . . .

□ حواشي الفصل السابع □

١) ويبقى هذا التعريف أفضل مما هو عليه لو تمت اضافة كلمة (الزخم - او قوة الدفع) ولو ان هذه الاضافة ستجعل التعريف أقل اثارة واضعف وقعاً .

٢) شيرمان ويليام SHERMAN-WILLIAM جنرال امريكي من مواليد مقاطعة لانكستر(١٨٢٠ - ١٨٩١) وهو من اكبر الزعماء الاتحاديين خلال حروب الانفصال . (المعرب) .

٣) لقد برهنت تجارب الحرب العالمية الثانية على خطأ هذا المفهوم ، فقد عملت على جبهة النورماندي فرق مدرعة بكاملها ، كما ان الجبهات السوفييتية كانت تضم في قوامها ، اكثر من فرقة مدرعة في كثير من الأحيان.(المعرب) .

الفصل الثامن

نزع التسلح

ـ المنظار الضخم ـ

اتصل بي السير صاموئيل هور في بداية شهر أيار (مايو) ١٩٣١ ، وسألني عما اذا كان باستطاعتي زيارته في منزله للتحدث معه بشأن التطورات الجديدة وذهبت اليه في الخامس من الشهر ذاته ، فأعلمني بأنه تم تعيينه كعضو في اللجنة الفرعية للأحزاب الثلاثة ، وهي اللجنة التابعة لهيئة الدفاع الامبراطورية التي تم تشكيلها لمناقشة السياسة الوطنية وصياغتها تمهيداً لمؤتمر نزع السلاح العالمي الذي كان من المقرر عقده في جنيف مع بداية السنة التالية (١٩٣٢)

كان ممثل حزب العمال في اللجنة الفرعية هو رئيس مجلس الوزراء (رامسي ماكدونالد) ووزير الخارجية آرثور هندرسن ، اما حزب المحافظين فكان يمثله السير اوستن شامبرلان والسير صاموئيل هور وكان من المقرر ان يشترك في هذه اللجنة أيضاً ثلاثة وزراء أيضاً

لقد كان هور يرغب في استشارتي بشأن (المباديء العامة التي يمكن تبنيها) لصياغة الاطار السياسي وبعد نقاش طويل ، وحوار شامل ، قال لي بأنه يريد الاستمرار في استشارتي بشأن (جميع النقاط الصعبة والمختلفة التي ستبرز طوال فترة عمل اللجنة)

لقد كنت حتى تلك الفترة لا امتلك سوى معرفة قليلة لمشكلة نزع السلاح ـ ويعود

السبب في ذلك الى انني كنت أشك في امكان نجاح اي مخطط لنزع السلاح في امكان منع الحرب بصورة ناجعة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كنت مركزاً كل جهدي حول مشكلة تجعل (حرب المستقبل) أقل تدميراً للحضارة مما كانت عليه الحرب المدمرة والطويلة ، وبحيث يمكن تجنب التآكل البطيء والاستنزاف مما تميزت به (الحرب العظمى) الأخيرة .

كان طلب هور يمثل تحدياً وحافزاً لدراسة مشكلة نزع السلاح بموضوعية ، على نحو ما حاولته لاكتشاف مشكلة حرب المستقبل . وقد استطعت عن طريق المزيد من أحاديثي معه ، خلال الاشهر التالية ، اطلاعه على تجاه تفكيري ، مع المناقشة أيضاً في مؤتمر غليدهال الذي تم تنظيمه من قبل عصبة الأمم حيث طلب الي التحدث . وقد شعرت في شهر كانون الأول (ديسمبر) بأنني أصبحت قادراً على صياغة النتائج في مذكرة بعثت بها الى هور . كما ضمنت ما احتوته هذه المذكرة في رسالة بعثت بها الى فيليب - نويل - بيكر السكرتير البرلماني الخاص لهندرسون في وزارة الخارجية .

وفي الوقت ذاته ، رجع هور الى الوزارة كوزير للدولة لشؤون الهند وذلك عندما تم تشكيل الحكومة الوطنية في آب (اغسطس) في حين رفض هندرسون والقسم الاكبر من زعماء حزب العمال الانضمام الى ائتلاف الاحزاب الثلاثة ، وقد خسر مع كل المعارضة تقريباً مقاعده البرلمانية في الانتخاب العام الذي تم في تشرين الأول (اكتوبر) . ولكن هندرسون أعيد انتخابه من قبل عصبة الأمم كرئيس لمؤتمر نزع السلاح . وأصبح بامكانه ممارسة رئاسته للمؤتمر الآن بصورة اكثر شمولا مما كان يمارسها وهو وزير لخارجية بلاده . وقد رافقه نويل بيكر كمساعد رئيسي له ، وبقي ساعده الأيمن بكل ما يتضمنه ذلك من معنى .

حصلت مذكرتي (الى هور ونويل بيكر) على استجابة كاملة بكل ما تضمنته من مقترحات وافكار جديدة ، وأصبح بامكاني بعد ذلك تطويرها الى كتيب يحمل عنوان (مشكلة الأرض المنزوعة السلاح - الحل المبسط والكامل) .

توصلت من خلال ارتيادي لمشكلة نزع السلاح كوسيلة لردع العدوان الذي يستطيع منع الحرب الى نتيجة وهي ان القسم الأعظم من الاساليب التي نوقشت في المباحثات التمهيدية والتي استمرت قبل ذلك سنوات طويلة ، لم تكن ناجعة حتى عندما كانت هذه الاساليب تحصل على موافقة الجميع ، وقد كان ذلك مخيباً للآمال . ولقد انتهى

النقاش الى مسودة اتفاقية يمكن الأخذ بها من قبل المؤتمر ، ولكن عندما وصل الأمر الى تصنيف بعض الأسلحة ، لم يعد هناك سوى بعض من الرجاء في الحصول على موافقة عامة ، او تأمين اي قاعدة اساسية مضمونة لنزع السلاح .

لقد بقي اختلاف وجهات نظر الدول وبصورة خاصة المانيا وفرنسا بشأن قضية نزع الأسلحة الأرضية ، اختلافاً لا مجال لتسويته او التوفيق بين فوارقه . وظهر التناقض تقريباً في كل القضايا المتعلقة بعدد القوات وحجم التشكيلات المقاتلة التي يمكن لجيوش هذه البلاد الاحتفاظ بها ، وكذلك الأمر بالنسبة لتدريب الاحتياط ، وطريقة الخدمة العسكرية ومدتها ، وانواع العتاد وتصنيفها ، والموازنة المخصصة للدفاع ، وانواع القيود التي يمكن تحديدها لهذه الأنواع جميعها . وقد كان من الواضح بأنه كلما تعاظمت مستويات هذه المشكلات المتنوعة ، كلما اصبح الواجب اكثر صعوبة في ايجاد الأرضية المشتركة التي يمكن الاتفاق للوصول اليها .

بعد ذلك ، واذا ما طرح الموقف بمعزل عن الضغوط الجديدة والتوتر الذي هيمن على العلاقات الدولية ، يظهر السبب في ارتفاع تلك السحابة من الشك ، وفقد الثقة ، فوق سماء طريق الاقتراب من مؤتمر نزع السلاح في جنيف . وهذا هو ما أشرت اليه في كتابتي لأوراقي الخاصة (بأن الذرائع الرياضية او الحجج الحسابية - في صياغة التسلح لم تتطور من الناحية الأخلاقية او المعنوية ، فالاختلافات تؤدي الى الاحتكاك . وليس هناك اسلوب لتقويم القوات المسلحة في مضامينها او في حجومها بحيث يمكن له ارضاء الاطراف جميعها) .

علاوة على ذلك ، فحتى لو قبلت السلطات المشتركة - في مؤتمر جنيف - وهي مكرهة ببعض القيود ، وحتى لو امكن الوصول الى بعض التخفيض في ميزان التسلح فان مثل هذا التعديل الجزئي للقوات المسلحة الموجودة سيكون تقديراً طفيفاً سيزيد من الشعور الوطني بالأمن ، هذا بالاضافة الى ان الجهد المبذول قد يتطلب من التكاليف اكثر مما يستحقه نظراً لما ينتج عن ذلك من احتكاك خلال المناظرات البيانية المتطاولة . وعندما تناولت طعام الغذاء مع السير موريس هانكي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عبر لي عن تشاؤمه من دور المؤتمر في تعميق المبارزات الوطنية وزيادة خطورتها وما تثيره من شكوك . وكانت الحكمة المهيمنة هي (ان الحظ سيكون الى جانبنا اذا ما استطعنا الوصول الى نهاية مؤتمر نزع السلاح دون التورط بالحرب) .

أصبحت العوائق التي تعترض كل تقرب عددي من المشكلة ، على درجة كافية من

الوضوح ، وذلك خلال فصل الخريف من تلك السنة ، وتأكد لي ذلك من خلال ردود الفعل التي وجدتها في مناقشاتي مع اصدقائي سواء في وزارة الحرب ، او في وزارة الطيران او في دوائر القيادة البحرية (الادميراليتي) . وكانت الفكرة المهيمنة عليهم جميعاً هي ان المؤتمر قد ينتهي الى قرار بتقييد قوتنا الضعيفة في كل مجال ، وعلى هذا فقد تحول الآن الصراع بين الاسلحة الى (ائتلاف) توجهه غريزة مقاومة كل تقييد في حجم القوة العددي الذي يحتمل تخفيضه .

اذا كانت مثل هذه المواقف هي السائدة في بريطانيا ، الاقليم الذي تتوفر فيه اعظم الاسباب لتحويل عوامل العدوان ، فلا غرابة ان تظهر بشكل واضح المقاومة في وسط العسكريين المحترفين من بقية الاقاليم في اوربا وبشكل اقوى بكثير مما هي في انكلترا ضد كل حدود تفرض لتقييد عدد القوات وحجمها ، لا سيما مع وجود عدد من الاتجاهات في تلك الاقاليم ترفض الخضوع مباشرة للسلطة وتعلن عن تذمرها في مجابهة الآخرين الذين يعملون على الوقوف مع ميزات التخفيض في القوى ، نظراً لأنهم كانوا يجدون في الحرب الوسيلة الأساسية لتأمين حمايتهم الخاصة والمحافظة على امنهم . لقد كان ادراك هذا الموقف مدعماً بنتيجة وهي ان التقرب الوحيد والناجع من مشكلة نزع التسلح انما يكمن في الوصول الى حل جذري يمكن له ترجمة كل الخصومات حول التقييد العددي او الحسابي . وكنت كلما تزيد عمق دراستي للمشكلة كلما ظهر لي بوضوح ان القضية هي قضية (نوعية) اكثر منها قضية (كمية أو عددية) - وان جذور هذه القضية تكمن في نوعية الاسلحة التي تلتحم بالتلاؤم مع متطلبات الهجوم . فاذا ما امكن الوصول الى الغائها على المستوى العالمي ، فعندئذ فقط ستتوفر الفرصة الحقيقية للقضاء على التطلعات في القيام بعدوان ناجع .

لقد كانت أقسى الاختبارات التي جابهتني خلال كفاحي للوصول الى نظرة موضوعية كاملة للقضية ، هي في الأساس قضية انفصال المرء عن جميع الاهتمامات الأخرى التي قد تلقي ظلالاً قاتمة على المشهد وتعيق الرؤية الواضحة . وتأكدت على الفور بأن الحل الواضح سيجر في عقابيله ليس فقط ايقاف تطوير الدبابات كوسيلة عسكرية ، وانما سيلغي كل مفهوم لبعث القدرة في الهجوم ، وسيبطل ايضاً فن الحرب عن طريق الضربات (الصاعقة) بقوات آلية (ميكانيكية) على درجة عالية من المرونة والقدرة الحركية . وكان ذلك يعني الغاء كل ما قمت به من تبشير بالمفهوم العسكري الجديد طوال العشرة اعوام الماضية . فاذا ما تقدمت باقتراح (لنزع التسلح) ، فسيكون الثمن المقابل في حال الحصول على تبنيه في المؤتمر القادم هو خنق (وليدي) الخاص بي .

علاوة على ذلك ، فعندما قررت ابـراز حل الالغـاء والدفـاع عنـه ، لم اكن قد وصلت في رؤ يتي الى الوضوح الذي ظهر لي فيا بعد ، بأن مفهومي العسكري للهجوم (الصاعق) وبقوات من النموذج الجـديد . هو الوسيلـة الناجعـة لتحقيق نصر حاسـم وسريع ، مما يتلاءم مع قدرات القارة الأوربية ، والاهداف العدوانية فيها اكثر مما يتلاءم مع اقليم كبريطانيا ذات السياسة المحافظة والموقع الجغرافي كجزيرة مستقلـة ؛ وكذلك كدولة لها مواردها المحدودة ولها اسلوبها البطيء في الاعداد للحرب .

انتشرت رسالتي التي وجهتها الى نويل ـ بيكر في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣١ وذلك لأن بيكر اذاعها فور تسلمها عند طرحه لموضوع (نزع التسلح) . وقد نوهت في هذه الرسالة الى ان تحريم الدبابات ليس بالأمر السهل على ما قد يظهر للوهلة الأولى . ويحتاج الأمر لتعريف اكثر دقة ، اذا ما اريد تحويل ذلك الى مطلب عملي ، نظراً لتعاظم انتاج المركبات المدرعة الصغرى والمسلحة بالمدافع الرشاشة ، وهي التي اطلق عليها في البداية (بمصفحة ـ او تانكيت) واصبحت الآن تعرف باسم (دبابات خفيفة) . وتتزايد الحاجة لهذا التعريف لتحديد ما اذا كانت هذه الأسلحة قسماً من قوة مدرعة (حاملات المدافع ـ الرشاشة المدرعة) يتم استخدامها من قبل المشاة . وعلى هذا فقد اقترحت بانه من الأفضل تصنيف الفوارق على اساس (الوزن) وذلك لوضـع حد لجميع المركبـات المدرعة التي يمكن لها ان تكون كبيرة بقدر يكفي للاختراق عبر الخنادق الدفاعي . وكذلك الأمر بالنسبة لجميع انواع المدفعية القادرة على تدمير مثل هذه الدفاعات والتي يجب وضع حدود لقيودها . مما يفرض الالتزام بحدود الاسلحة في عيار ٤ انش . وان تثبيت هذين الحـدين (الـوزن وعيار الأسلحـة) سيؤ دي الى تخفيض قدرة الجيوش (الهجـومية) الى مستوى منخفض جداً . وسيكون (الدفـاع) على درجـة كافية من القـوة لردع الـدول المعتدية عن محاولة الغزو والعدوان . وكتب لي نويل ـ بيكر في رسالته الجوابية بانه يعتزم ارسال نسخة مصورة عن مذكرتي الى الكسندر كادوغان في وزارة الخارجية ، لأنه (اي كادوغان) يتفق في تفكيره الى حد بعيد مع طريقتنا في التفكير ، وانـه سيكون ـ على ما اعرف ـ مسروراً ومبتهجاً في حصوله على الأفكار الجديدة . وانه قد مارس عمله في وزارة الخارجية لسنوات طويلة ، وهذا العمل يجعله كبير الاهتمام بالموضوع .

عالجت بمزيد من التفصيل في دراسة طويلة قضية نزع الأسلحة الأرضية وحلها ، وبدأت المعالجة بالموقف الأوروبي . وبعد ان اشرت الى الصعوبات في الوصول الى اي اتفاق يستند الى قاعدة العوامل (الكمية) والمقارنات ، طرحت افكاري حول (النوعية) في شكل نزع التسلح كحل للمشكلة :

ان هذه المشكلة هي في تجريد الجيوش من نزعاتها العدوانية ـ وجعلها عاجزة عن الهجوم او غزو الاقاليم المجاورة ولديها اي امل بالنجاح . فاذا استطعنا الوصول الى ذلك ، فستصبح الجيوش في الواقع مجرد وسيلة دفاعية ـ بحسب ما تحمله من اسم مطابق لها تماماً ـ وهي دفاعية في الحقيقة ، او كقوة بوليسية ـ شرطة ـ لا يمكن لها ان تسبب الاستنفار في الاقاليم المجاورة او اثارة الاضطراب فيها . ان الحل الذي يمكن مجابهته هو حل وحيد على ما يظهر ، هدفه التوفيق بين النقاط في القضية الرئيسية للفرنسيين والالمان ، وهذه النقاط وحدها تستطيع فرض احترامها على الأقاليم الأخرى . والحل بسيط ، وهو في البحث العميق عبر تجربة الحرب الحديثة وظروفها ، ولكن ، وحتى يتم انجاز مضامين هذا الحل ، فانه يجب علينا قبل كل شيء فهم دروس تلك التجربة .

لقد حقق الالمان انتصارهم في عام ١٨٧٠ ، وبعد ذلك وضع مولتكه مخططاً جديداً للهجوم عبر اللورين في حال تجدد الحرب ، ولكنه عمل في عام ١٨٧٩ على قلب مخططه ، وقرر اتخاذ موقف الدفاع في مواجهة الافرنسيين . لماذا ؟ . . لأن هذا الجندي المتمرس بالقتال عرف بأن التحصينات الجديدة على امتداد الحدود الافرنسية . سيحبط كل هجوم وسيقضي على كل امل في النصر تقريباً . وقد توصل خلفاؤه الى هذه النتيجة ذاتها . ولكن شليفن وصل في عام ١٨٩٧ الى وضع مخطط يتم بموجبه تجنب حاجز الموانع الدفاعية عن طريق الالتفاف حولها ، والانطلاق عبر البلد المحايد ـ بلجيكا ـ . وكانت التحصينات الدفاعية على الحدود البلجيكية ضعيفة نسبياً ، وكانت كذلك ايضاً فيما وراء الحدود الطويلة الممتدة بين فرنسا وبلجيكا . وعندما اقبل عام ١٩١٤ ورفض البلجيكيون اعتبار بلادهم ممراً حراً لقوات الغزو . ظهر السؤال التالي : ما هو المفتاح الذي استخدمه الالمان لفتح البوابة البلجيكية ؟ لقد كان هذا المفتاح هو المدفعية الثقيلة . وقد اهتز العالم عندما سمع الانباء بأن قلاع ليج ونامور قد سقطتا بدورهما عند اول صدمة .

ولكن مقابل ذلك كان هناك سلاح آخر ، ولو انه قليل في اعداده ، ولكنه استطاع على الفور اعادة التوازن لمصلحة الدفاع ، وكان هذا السلاح هو المدفع ـ الرشاش الذي ساعد على قيادة الجيوش المندفعة في هجومها نحو الجمود والاستقرار ، فتعاظمت اهمية الخنادق ، وضمن المدفع الرشاش انه كلما تعاظم تأثيره كسلاح ، كلما اضطرت الجيوش للتوقف والثبات ، وهي عاجزة عن التخلص من مأزق الجمود . لقد كان الهجوم عقيماً وضعيفاً . وكان تأثير مدفعية الميدان ضعيفاً على العدو المتخندق . فتم اللجوء الى المدفعية الثقيلة لاستخدامها في الميدان مع مضاعفتها مرات عديدة . ولقد استطاعت هذه المدفعية الثقيلة توفير الامكانات للهجوم حتى نهاية الحرب . ولكن نجاح هذه الهجمات كان محدوداً

بفضل كتل المدفعية المدعمة في الفترة الأخيرة من الحرب بسلاح تكميلي جديد هو الدبابة ، وأصبح بالامكان التغلب على الحواجز الدفاعية التي تشكلها الخنادق والمدافع الرشاشة عن طريق (المدفعية الثقيلة والدبابة فقط) . ولكن جيوش اليوم هي اقل قدرة في الوقت الحاضر مما كانت عليه في العام ١٩١٨ ، من حيث اضطلاعها بالهجوم الناجح ، فقد تعاظمت نسبة المدافع الرشاشة ، وتزايدت الأسلحة النارية الآلية (الأوتوماتيكية) الخفيفة ، في حين تناقصت المدفعية الثقيلة . ولم تتمكن الدبابات من اضافة اعداد كافية لسد هذا النقص .

تبقى احتمالات العدوان قائمة ، على كل حال ـ طالما بقيت الجيوش محتفظة (بمفاتيح المعلبات) او مفاتيح تجاوز المواقع الدفاعية) حتى لو امكن القضاء على احتمال العدوان . إذ قد يبقى الخبراء العسكريين المحترفين في جهالتهم العسكرية ويتمسكون بأمل الحصول على النصر . وليس هناك سوى طريقة واحدة هي اظهار عجز الهجوم بشكل واضح واحتمال ابطاله ، مما يساعدنا على ازالة هذه القدرة المشجعة على العدوان . ولكن ، ومن اجل الوصول الى ذلك ، وازالة التفوق في الدفاع الأرضي ، فان على الامم الموافقة على شيئين (الغاء المدفعية الثقيلة ثم الغاء الدبابات الثقيلة في الخطوة التالية) .

من السهل الحصول على موافقة المانيا لمثل هذه المقترحات ، نظراً لأنها اكدت منذ توقيعها على معاهدة فرساي في عدم اقتناء هذين السلاحين . كما يجب ان توافق فرنسا ايضاً على هذه الشروط بسهولة ، ذلك لأنها ترغب في ان تبرهن للعالم على انها لا تحتفظ بجيشها الا من اجل انقاذ امنها والمحافظة على سلامتها . كما ان موافقتها تضع في يدها الحل البسيط لبلوغ هدفها في الحصول على ضمانات ضد الغزو . الأمر الذي لم تحصل عليه ابداً ولم تتمتع به .

لم يكن من المسموح به لألمانيا ـ وفقاً لمعاهدة فرساي امتلاك مدفعية تزيد في عيارها على ٤ انش ، كما لم يسمح لها بامتلاك الدبابات . وان باستطاعتها الآن التمويه على اعداد الرجال باستخدام الطرائق المختلفة . وكذلك الأمر بالنسبة لاعداد المدافع الرشاشة وبقية انواع الأسلحة الصغرى . ولكن ، وضمن الأهداف العملية ، فان تحريم امتلاك المدفعية الثقيلة والدبابات سيكون تحريماً ناجعاً . ذلك انه حتى لو تم امتلاك مثل هذه الوسائط الضخمة وامكن اخفاءها ، فان هذه الوسائط ستكون زهيدة القيمة طالما لم يتمكن سدنتها من التدريب عليها ، والتعامل مع مدفعيتها وممارسة استخدامها في تمارين الميدان . وسيكون من الصعب جداً المحافظة على السر عند حدوث مثل هذا الاستخدام . وبذلك يمكن انقاص خطر (النوايا السيئة) حتى حدودها الدنيا ،

وتخفيضها بصورة نهائية قدر المستطاع مع عدم وجود طبقة اخرى من الأسلحة التي يمكن اختيارها للعمل على ابطالها . ويبقى خطر معاهدة عدم الاعتداء بعد ذلك اقل بكثير في حالة ابطال الأسلحة مما هو عليه عند العمل ضمن حدود تخفيض الأسلحة ومجرد تقييدها . وباستطاعة الرجل الافرنسي ان يعلق آماله بعد ذلك في ابقاء المانيا دائماً وهي محرومة من ميزة طبيعة تسلحها ، ولكن تكون هناك حاجة للمكابح الابدية او القيود ضد امتلاك المانيا للمدفعية التقليدية او الدبابات طالما ان الأقاليم المجاورة لا تمتلك مثل هذه الأسلحة . ولكن اذا تم الغاء ذلك من قبل المانيا فان المواقع الدفاعية الافرنسية على الحدود ستتحول بصورة آلية (اوتوماتيكية) لتكتسب قوة لا تسمح بالاختراق ولتصبح منيعة لا يمكن مهاجمتها وضماناً لا يمكن النيل منه .

ان الامم ـ اذا ما وافقت على وضع حد للمدفعية جميعها حتى لا تتجاوز عيار ٤ انش ـ فباستطاعة التحصينات ان تجعل الحدود يقيناً بمثابة السد الذي لا يمكن اجتياحه او غزوه . ذلك ان استخدام المدفعية الخفيفة ضد التحصينات الدائمة او حتى ضد حقول الميدان ذات الخنادق المحضرة جيداً ، يشابه تماماً عملية القاء الحصى ضد الجدران القوية .

هناك قيد تكميلي يضاف الى هذا القيد وهو المتعلق بحجم الدبابات . هنا يمكن لسؤال ان يفرض ذاته وهو : لماذا لا يتم الغاء الدبابات ؟ ويكمن الجواب في الصعوبة العملية ـ او الاستحالة في النهاية ـ للتمييز بين مركبات القتال المدرعة التي اطلقنا عليها اسم (الدبابة) وبين تلك النماذج الأخف وزناً ، والتي عادة ما تكون وليس دائماً ، على عجلات وأطر عوضاً عن السلاسل (الجنازير) والتي اطلقنا عليها اسم (عربات مدرعة) . وان كل مركبة تجارية ملائمة ، سواء كانت على سلاسل او على نصف ـ سلاسل (نصف مجنزرات) او حتى على ٦ عجلات ، يمكن استخدامها بشكل ملائم كعربة مدرعة وتجهيزها بشكل مناسب لهذه الغاية . وتظهر صعوبة او استحالة التمييز بين هذه النماذج بصورة متزايدة نظراً للتطور الذي استحدث في صناعة المركبات ذات السلاسل الصغيرة لنقل المدافع الرشاشة . ولكن هذه لا تستطيع اختراق المواقع الدفاعية المحصنة ولو ان حاملات المدافع الرشاشة المدرعة هذه كانت عبارة عن دبابات صغيرة . وزيادة على ذلك ، فان قدراتها لنقل المدافع الرشاشة بسرعة في اتجاه اي نقطة مهددة هي من المميزات التي تدعم قدرة الدفاع الحديث . وعلى هذا فانه بالامكان الاعتماد عليها لدعم السلم . ولهذا السبب ذاته ، فان باستطاعتها تمهيد الطريق امام تخفيض اعداد الرجال الذين تحتاج الجيوش اليهم .

ان الدبابات الثقيلة هي على النقيض من ذلك ، إذ انها سلاح هجومي في أساسه ، وهي غير متشابهة مع المدفعية الثقيلة ، اذ انها دونها في القدرة للتأثير على التحصينات ولكنها تتشابه مع المدفعية الثقيلة ايضاً كوسيلة لسحق خنادق الميدان وحواجز السياج الشائك ، وعلى هذا يمكن اعتبار الدبابات الثقيلة من وسائل الاختراق عبر الحواجز . وقد يكون تحديد وزن (المركبات المدرعة) بوزن ٨ ـ ١٠ طن هو قيد ناجع بصورة منطقية . ولو ان تحديد وزن هذه الدبابات بثقل ٥ طن سيكون بمثابة ضمان افضل .

هناك ايضاً نوع آخر من القيود المقترحة لتحديد اعداد المدافع ـ الرشاشة ، والاسلحة المختلفة الصغرى . وهنا تكمن الصعوبات العملية الواسعة بطريقة التحديد . وانني ارغب القول بأن كل تحديد من هذا النوع هو امر غير مرغوب فيه ، ذلك لأنه سيعتبر ضربة مباشرة لقضية السلم من خلال (نزع التسلح)، نظراً لأن اختراع الأسلحة النارية الآلية (الاوتوماتيكية) وتعدد انواع هذه الأسلحة قد جعل يد الدفاع هي اليد العليا . وهي تقع عملياً في طبقة تصنيف التحصينات .

ليس هناك تهديداً اوخطراً من تطوير التحصينات ، وكذلك الأمر بالنسبة لمضاعفة الأسلحة النارية ـ الآلية (الأوتوماتيكية) الخفيفة ـ فكلما زاد عدد هذه الأسلحة كلما أصبح احتمال نجاح الهجوم ضعيفاً لا امل فيه ولا رجاء ـ . وكذلك فان الأقوى في الردع هو الذي سيتجنب العدوان . واذا لم تكن الطبيعة الانسانية على استعداد لتجنب الحرب فوق ارضياتها الاخلاقية او المعنوية ، فقد يصبح بالامكان حملها على تجنب الحرب فوق الأرضيات العسكرية ، وذلك عندما يكون التفوق الدفاعي مضموناً .

ان الرجل المثالي قد يرثي لمستوى الجيوش في وضعها الراهن ، وما يتم تخصيصه لها من نفقات . أما الرجل العملي فعليه التأكد من مدى تأثر هذه الجيوش برغبته في توفير الحماية له ، وتأمين متطلباته الغريزية في المحافظة على بقائه ووجوده . ويبقى على رجل الدولة ان يضع في اعتباره الطبيعة البشرية كما هي ، فيعمل فقط على رفع الروح المعنوية ، حتى يصل بالتالي الى ما يتوقعه وهو وضع هذه الروح المعنوية فوق متطلبات الأمن المادية . ولكن اذا قبلنا بأن هذه الغريزة هي امر حتمي لا يمكن تجنبه ، فان بالامكان الوصول الى الامن عن طريق عدم الاعتداء ، ويتم ذلك بالنسبة للحرب البرية بواسطة الوصول الى اتفاق يمكن له ابطال المدفعية الثقيلة والدبابات الثقيلة .

اذا امكن قبول ذلك ، تصبح قضية تحديد حجم القوات ، وتدريب الاحتياطي الخ . . . هي قضية غير مادية وهي قضية ايضاً لا يمكن حلها على ما هي عليه كما ان ابطال

المدفعية الثقيلة والدبابات الثقيلة سيجعل بالامكان تخفيض حالة الجيوش وتحويل الجنود المقاتلين الى رجال يرتدون الدروع دون ان يحملوا السيوف . . .

عندما اكملت هذه الدراسة المستفيضة في الاسبوع الثاني من كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ ، بعثت بنسخ عنها الى هور والى لورد (سيسيل) أيضاً ، رئيس لجنة نزع التسلح . نظراً لغياب نويل ـ بيكر بصورة مؤقتة . وذهابه الى أثينا . وقد استقبل هور الدراسة وما تضمنته من مقترحات بحرارة . وقال بأنه يرغب في مناقشتها معي بصورة تفصيلية . وقد تضمنت مذكراتي اليومية عن هذه المناقشة ما يلقي بعضاً من الأضواء الهامة على وجهات نظره :

ذهبت لمقابلة السير سام هور في مكتب الهند ، وقال لي بأنه يهتم اهتماماً خاصاً بمقترحاتي في موضوع نزع التسلح الأرضي ، نظراً لأنها تتوافق مع افكاره الخاصة في آلة الحرب الجوية ، وهي اكثر الآلات خطورة من حيث الممارسة العملية ، ومن حيث التأثير مما يتطلب ابطالها او وضع حد لها . وعلى سبيل المثال فان ما يجب العمل به (لنزع السلاح) هو ما يتميز بقدرته على توجيه الضربات القوية والحاسمة . فاذا ما تم كسب الوقت ، فان بالامكان الدخول في المفاوضات .

كان الاستماع الى هور امراً مشجعاً وهو يقول بأن فكرة التركيز على (نزع التسلح النوعي) قد لقيت من يستقبلها بصورة ملائمة في مجلس الوزراء ، كما استقبلها بصورة ملائمة ايضاً السير جون سيمون سكرتير الدولة الجديد لوزارة الخارجية .

كان لويس سبير رئيساً للبعثة العسكرية البريطانية في باريس أثناء الحرب وبعدها ، وقد تحدثت معه عند تناول طعام الغذاء في تلك الفترة ذاتها ، واعلمته عن مخططي لنزع التسلح . فكان من اكثر المتحمسين ووصف مخططي بانه يمثل (البساطة الحقيقية ـ الاصيلة) . كما ناقشني بشأن نشر المخطط قبل اجتماع مؤتمر نزع السلاح . وعلى هذا اتخذت الاجراءات مع آرتور ويستون ، ناشر صحيفة (الديلي تليغراف) لنشره قبل الذهاب الى مؤتمر جنيف . وظهر المقال في الأول من شباط (فبراير) ١٩٣٢ . اي في اليوم السابق لافتتاح المؤتمر . وقد اشارت اليه واقتبست منه الصحافة الأوربية على نطاق واسع ، كما رجعت اليه في الأيام القليلة التالية ، وكان ذلك برهاناً واضحاً على ان المقترحات قد تركت انطباعاً قوياً في نفوس الاعضاء المجتمعين في المؤتمر .

توقفت في باريس خلال طريقي الى جنيف ، وعلمت من بعض الأصدقاء هناك ان الدوائر الحكومية الفرنسية قد اتخذت التدابير لاستنفار الجيش وحشده بهدف مجابهة

استمرار المانيا في اصلاح ميزان مدفوعاتها ، وانها ناقشت ايضاً فكرة قصف المانيا كضمان لتأكيد تطلعاتها . واعطوني التفاصيل عن ذهاب الحكومة الافرنسية الى مجالات اوسع في تفكيرها لجمع وحدات على الحدود استعداداً للتحرك في اتجاه قلب المانيا . ولم يكن ذلك كله بداية ملائمة لافتتاح المؤتمر وكان من الواضح ايضاً بأن حكومة السيد تارديو تعارض بعناد حجة الحكومة الالمانية في تقديم التنازلات . وكانت الحكومة الالمانية آنذاك حكومة معتدلة يرأسها الدكتور برونينغ ـ وتطالب بمبدأ المساواة لتنتهي الى نزع التسلح في طرف واحد . وزيادة على ذلك فقد صرح الممثلون الالمان بوضوح عبر احاديثهم الخاصة في ان كل محاولة لاعادة احتلال بلادهم لن تجابه بمجرد المقاومة السلبية التي جوبهت بها في عام ١٩٢٣ ، وانما ستجابه بمقاومة ايجابية .

برزت ازمة اخرى من نوع مختلف عشية المؤتمر ، نتيجة لرفض الحكومة السويسرية السماح لكارل راديك بدخول الأراضي السويسرية ، وكان كارل راديك لاجئاً فيها طوال اقامة لينين في سويسرا قبل قيام الثورة الروسية وهو الآن مدير صحيفة الازفستيا الناطقة باسم الحكومة السوفييتية . ومقابل هذا الرفض هدد الوفد السوفييتي بالانسحاب من المؤتمر . ووجدت الحكومة السويسرية نفسها مرغمة على الموافقة بأن يتم قبول راديك بتعيينه رسمياً كعضو في الوفد السوفييتي . واتخذت الاجراءات الفورية لذلك . وأصبح من الواضح مباشرة بأن راديك هو الموجه وهو العقل المفكر في الواقع لأعمال الوفد ، وقد مارس دوره بقدر يزيد على ليتغينوف وزير الخارجية السوفييتية الذي كان يحمل اسمياً لقب رئيس الوفد الذي القى احاديثه العامة وخطاباته على المؤتمرين . بدأ المؤتمر رغم هذه العقبات جميعها ورغم المقدمات المثيرة للشكوك ، واخذ المؤتمر اتجاهه نحو الأفضل في الاسبوع الثاني لانعقاده . وفي يوم ٨ شباط (فبراير) ترك السير جون سيمون الكرة لتتدحرج في المؤتمر عندما اعلن انه يمثل وجهات نظر الحكومة البريطانية ، وأوضح ان (مغريات اللجوء الى الصراع المسلح ستتناقص بصورة واضحة إذا ما امكن دعم الدفاع وتقويته على حساب نفقات الهجوم) واقترح بأن يكون هذا افضل خط يمكن اتباعه لوضع مخطط تفصيلي .

تبعه بعد ذلك ممثل فرنسا السيد تارديو ، الذي كان يميل الى اسدال ستار من الضباب على المخرج عندما طرح عبارة غامضة هي (المخطط السلمي) لانشاء قوة عالمية تحت قيادة عصبة الامم ، وعرض على الدول المجتمعة ، التي تمتلك الدبابات او المركبات المدرعة المشابهة ، وتملك مدفعية الميدان الثقيلة ايضاً ، بأن تضطلع باعباء الاشتراك في القوة التي سيتم وضعها تحت تصرف عصبة الامم . وكان من الواضح بأن هذا الاقتراح

الافرنسي ، والاقتراحات المماثلة الأخرى ، انما كانت تهدف للمحافظة على ميزات القوة العسكرية الافرنسية . وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك شكوك لدى الأقطار الأخرى بشأن الموقف الافرنسي من انشاء (قوة زجرية ـ للعقاب) بالاستناد الى (قوة الشرطة ـ البوليس ـ الدولية) وقد تعمقت جذور هذه الشكوك نتيجة تعاظم نفوذ فرنسا والدول التابعة لها ، وهيمنتها على المؤتمر . وقد انتشرت نكتة خلال تلك الفترة وهي ان ادارة المؤتمر وتوجيهه تخضع (لمؤسسة ماسيغلي وبوليني وبونس) وهذا الحكم الثلاثي مكون من رئيس عصبة الأمم وزير الخارجية الافرنسي والوزير اليوناني في باريس ووزير خارجية تشيكوسلوفاكيا .

أمكن ـ على كل حال اتخاذ خط واضح في اليوم التالي نتيجة تصريح مندوب الولايات المتحدة الأمريكية السيد هوغ جيبسون الذي قال (ان على هذا المؤتمر تخصيص جهده لابطال هذه الأسلحة التي يتم انتاجها بصورة اساسية للحرب العدوانية ، ونعتقد ان باستطاعة المؤتمر الاضطلاع بهذا الواجب بنجاح) .وتابع قوله للدفاع بصورة خاصة عن قضية الحاجة لابطال الدبابات الثقيلة ، والمدفعية المتحركة الثقيلة في الحرب الأرضية وكذلك ابطال الغواصات في البحر .

وذكر الدكتور برونينغ ايضاً (ان المقترحات الالمانية التفصيلية التي تمت صياغتها ، انما تستند في قاعدتها الى مبدأ تحريم او الحد من الأسلحة الهجومية بصورة اساسية) .وفي يوم ١٠ شباط(فبراير) اتخذ وزير الخارجية الايطالي السنيور غراندي هذا الخط ذاته ، بل انه كان اكثر وضوحاً وأكثر دقة في صياغة مقترحاته . وكذلك فعل ليتغينوف عندما طرح العروض الروسية في اليوم التالي . وهكذا ، ومع نهاية الاسبوع الأول وقف خمسة من ممثلي الدول العظمى في صف واحد لدعم اتجاه نزع التسلح في اطار تحويل ـ وسائط الهجوم في جميع المجالات ، في حين اصبح هذا المبدأ ضمن المخطط الافرنسي .

لم تقدم لسوء الحظ ولو حكومة واحدة خطاً واضحاً لتقرير المقترحات الأولى لنزع التسلح الكمي . مما اثار مناقشات لا نهاية لها ومحاورات عقيمة لا فائدة منها ، سواء على المستوى السياسي او على المستوى العسكري ، وذلك في محاولة الوصول الى اتفاق بشأن تحديد المستويات العددية التي يمكن الاحتفاظ بها من قبل الدول المختلفة . وزيادة على ذلك فأن هذا البرنامج المركب قد جاء ليخلق المزيد من العقبات في طريق اللجان الفنية التي تم تشكيلها لترجمة المباديء العامة الى مخطط تفصيلي . ونتيجة لذلك فقد تضاعفت الفرص أمام المحترفين المتطرفين في كل اقليم لتبديد الوقت في الدفاع عن اهتمامات بلادهم

ومصالحها الخاصة ، على امل اعاقة الوصول الى كل اتفاق حتى يفقد المؤتمر قوته الدافعة (زخمه) ، ويتلاشى في مستنقع الاضطراب والمنافسة . وتم لسوء الحظ ايضاً تأجيل جلسات المؤتمر في منتصف آذار (مارس) من اجل عطلة عيد الفصح ولمدة اسابيع عديدة . وقد جاء تأجيل المؤتمر تلبية للرغبة في ايقاف مناقشات القضايا الحاسمة الى ما بعد الانتخابات العامة التي كان قد حان موعدها في كل من فرنسا وبروسيا . يمكن بعد ذلك تلخيص الموقف من التأجيل في مقولة نشرتها في الديلي تليغراف ، وقلت فيها : ـ

يكتسب اسلوب (نزع السلاح) النوعي اهتماماً متعاظماً ، نظراً لما يتميز به من بساطة فنية (تقنية) سواء بالنسبة للتسلح البري او البحري ، وكذلك نتيجة للتطلعات الأصيلة في الوصول الى نزع سلاح حقيقي وفعال . أما الاعتراضات ضد هذا الاسلوب في (نزع التسلح) فهي اعتراضات سياسية او سياسية ـ استراتيجية .

لقد جاءت المقترحات الافرنسية منذ بداية مؤتمر نزع السلاح لتقف بصورة رئيسية في الموقع المضاد للاسلوب النوعي ولتكون بديلا له . ولقد طاف المؤتمر على حدود هذه المقترحات وعند أطرافها ، وبالامكان القول ان هذه المقترحات تصل لأبعد مما يهدف اليه المؤتمر وما هو في حدود اختصاصه . جاء المخطط الافرنسي ، بما يضمه من تفاصيل ، غريباً في ظواهره ذات الوجه الواحد فاقتراحها او عرضها لتدويل الطيران المدني هو اقتراح يتوافق مع حقيقة امتلاك المانيا لأضخم اسطول جوي للنقل المدني . . .

يهدف المخطط الافرنسي ايضاً الى تسليم عصبة الأمم الأسلحة التي قد تهدد التحصينات الافرنسية والقلاع ، كالمدفعية الثقيلة بعيدة المدى ، في حين انه يسمح لفرنسا بالاحتفاظ بمدفعيتها المتحركة المتوسطة والثقيلة مما يوفر لجيوشها الميدانية القدرة على الهجوم . وهكذا فان المخطط مصمم بصورة متقنة تماماً للتوافق مع القضية الافرنسية .

ولكن المخطط الافرنسي يعترف ضمناً بأن اقوى الأسلحة في فاعليتها هي التي تحتوي الخطر الحقيقي في التسلح . وهذا الاعتراف بمبدأ النوعية هو امر لا يمكن تجاوزه بسهولة او اهماله .

مهما كان عليه الموقف ، فلا زال هناك طريق طويل امام الاسلوب حتى يكتسب دعم العالم وقبوله . فالرأي العسكري الافرنسي ، بحسب ما وجدته ، يميل الى التذرع بحجة ان الدفاع سيكون ضعيفاً إذا ما تم تجريده من هذه الاسلحة وهم يؤكدون بأن المدافعين سيحتاجون للمدفعية الثقيلة من أجل ايقاف المعتدين وجلب القوات الاحتياطية والدبابات لطرد هؤلاء المعتدين من كل موقع يحتلونه ويتخندقون به على حدودهم .

في وسط مثل هذه المناظرات تضيع نقطة حقيقية وهي ان هذه الأسلحة قد تكون مفيدة للمدافعين . ولكنها اساسية للمعتدين ولا يمكنهم الاستغناء عنها . ففي هذه الأسلحة تكمن الفرصة الحقيقية للمعتدي حتى يسحق بواسطتها التنظيمات الدفاعية الحديثة ، ونتيجة لذلك فان الاقليم الذي يبحث يقيناً عن امنه ولديه تطلعات سلمية حقيقية ، سيجد في تقييد هذه الأسلحة ما يريده من ميزات تجعل من حدوده مواقع لا يمكن اختراقها .

ولكنني جابهت عند دفاعي عن هذه النقطة اعتراضاً حقيقياً لا يمكن صراحة الا قبوله ـ وهو ان ابطال هذه الاسلحة قد يضمن سلم الحدود الافرنسية ، ولكن فرنسا تريد مثل هذه الاسلحة بهدف توفير القدرة للقيام بالهجوم من اجل مساعدة حلفائها .

كان موقف المانيا هو مناصرة اسلوب التحديد النوعي للأسلحة وهو امر يشكل صدمة لا يمكن تجنبها لقبول فرنسا لهذا الاسلوب . وقد كانت الهوة بين الاقليمين هي الحقيقة الاساسية في المؤتمر ، وظهر انه من المستحيل الوصول الى نتيجة ما لم يتم اقامة جسر فوق الهوة للتوفيق بين الطرفين . . .

هناك الآن ضغط لفرض القوة ، وستدرك فرنسا عاجلاً او آجلاً بأن عليها اعادة التفكير لاتخاذ قرارها فاما ان تفضل شكلاً الموافقة على نزع التسلح ، او مجابهة اقدام المانيا على اعادة تسلحها . وقد أدرك الرجال الفرنسيون بعيدو النظر المأزق ـ المرتقب . . .

ليس هناك واحد ممن كانوا على اتصال بالمندوبين الذين مثلوا المانيا ، يمكنه الاعتقاد بانهم يستطيعون ، او بالاحرى يجدون الجرأة لقبول اي اتفاق لا يستجيب للتطلعات المعنوية لشعبهم في مبدأ المساواة . ولقد اصبح من الواضح بأن هذا الهاجس لا يسمم الوضع الداخلي للدولة الالمانية فحسب ، وانما يسمم ايضاً علاقاتها الخارجية . ان الفقرة ٥٣ من نص المعاهدة التي خلدت اتفاقيات السلم ، قد اصبحت معنوياً من الاشياء البغيضة جداً في انظار الالمان وكذلك بالنسبة لحلفائهم السابقين . وليس من السهل بالنسبة للرجل الانكليزي العملي او الرجل الافرنسي فهم التعاظم لهذا الاهتمام من خلال مجرد صيغة لبعض الكلمات ولكنهم في حاجة لأن يفعلوا ذلك إذا ما ارادوا تحويل هذه الاتفاقية للوصول بها الى نهاية سلمية .

ان هذا امر ممكن ، ولدى المرء سبب للاعتقاد بأن حكومة المانيا الحالية قد تكون على استعداد لتقديم بعض التنازلات العملية للوصول الى اتفاق وذلك مقابل اعتراف واضح بحقهم النظري في المساواة .

ان مثل هذه التنازلات قد تأخذ شكل اتفاق او حتى معاهدة للحد من تسلحهم الحالي ، ولمدة طويلة ، وبحيث يبقى حجم هذا التسلح دون مستوى تسلح الدول المجاورة لهم .

فهل ستمسك فرنسا بهذه الفرصة التي قد تسنح لها ؟ من الممكن ذلك ، نظراً للشعور المتعاظم بالمأزق الذي يتزايد ضغطه . ولكن من المشكوك فيه ان يتحقق ذلك ما لم تمنح فرنسا بعض الامتيازات لدعم مخططها الذي يهدف لتقوية عصبة الامم . ذلك اننا في حين ننظر الى اتفاقية كوفنانت وحلف لوكارنو كالتزامات ، ونشعرهم بأنها اعباء ـ على بريطانيا ـ ينظر الفرنسيون اليها على انها ليست اكثر من قصاصات ورق قليلة القيمة ، وانها مجرد ضمانات فارغة للمساعدة .

هذه هي في النهاية فرصة كل نتيجة للمؤتمر قد تنقلب على ارادتنا في تقديم التنازلات . فعار الفشل قد يقع على كاهلنا ان نحن امتنعنا عن المشاركة في كل شيء . ولن يتطلب ذلك منا الشيء الكثير . واذا ما اخذ في الاعتبار اي ضمان مادي ، فسيظهر بأن الفضاء هو اكثر المجالات المرغوب فيها .

ففي مجال التسلح البحري والتسلح البري هناك صعوبات تقنية وصعوبات سياسية ، ولكن مجال الحرب في الجو هي الحافز القوي حتى لو كانت تشكل بالنسبة لنا بعضاً من المجازفة المادية في الضمانات لتبادل الدعم . وتبقى الحرب الجوية على كل حال اقل خطورة من سباق التسلح الجديد ، والذي ظهرت بواكيره لتبرهن على فشل المؤتمر .

كنت اتحرك عند طرح هذه المقترحات بشأن امكانات ايجاد الوسائل لاقامة جسر بين وجهات النظر الافرنسية ـ الالمانية ، وفقاً للتجربة المضيئة ، عندما عملت كوسيط لنقل وجهات النظر الخاصة بين المندوبين الافرنسيين والالمان ، الذين عرفتهم من اكثر المفكرين في الوصول الى الاتفاق والراغبين فيه .

وجدت في احاديثي مع هؤلاء الالمان بأن وجهة نظرهم تتلخص في ان وجود حكومة برونينغ هي افضل فرصة ، او ربما الفرصة الوحيدة ، لاقامة سد في وجه المد النازي المتصاعد ، وان الوسيلة هي في ضمان اعتراف لتطلعات بلادهم في المساواة ضمن عصبة الامم . وكنت اكثر الناس قدرة على التأكد من شرعية حجة الالمان العاجلة ، بعد ذلك الذي رأيته في الصيف السابق من التظاهرات الجماهيرية الكبرى للحزب النازي ، وتكون لدي شعور في حينها بأن هناك ثمة سحابة سوداء قاتمة تجتاح سماء الاقليم عشية الانهيار الاقتصادي . ولكن هؤلاء الاصدقاء الالمان في المؤتمر نقلوا لي بأنه إذا ما امكن منح

حكومة برونينغ التنازلات المطلوبة لتحقيق مبدأ المساواة فان برونينغ يقبل بمثل الشروط العملية للحد من قوة الجيش الالماني وفقاً لما ترغبه فرنسا من أجل ضمان شروطها الامنية. وعندما نقلت ذلك الى اصدقائي الافرنسيين وجدت انهم قد قوموا بسرعة الفائدة من مثل هذه الاجراءات. وأظهروا ميلاً عميقاً للامساك بهذه الفرصة بقوة وعدم اضاعتها.

سمعت من هؤلاء الأصدقاء الافرنسيين، بعد أيام قليلة، ان تارديو قد تنحى عن متابعة الموقف الافرنسي متذرعاً بحجة اقتراب الانتخابات الافرنسية، وانه يعتقد بان هناك انحرافاً قوياً ومتعاظماً نحو اليمين، وان كل تنازل من جانبه للتطلعات الالمانية في المساواة سينعكس على الاقتراع مما يؤدي الى هزيمته بالانتخابات. وكانت حساباته ـ على كل حال خاطئة، فقد اظهرت نتائج الانتخابات ان الانحراف قد تطور لمصلحة اليسار، ووجد تارديو نفسه وهو ملقى به الى خارج الوزارة في الاتجاه المضاد لما كان يتخيله. ولكنه في الوقت ذاته أظهر اتجاهاً واضحاً عندما طلب مقابلة برونينغ في جنيف بصورة عاجلة، من اجل مناقشة اسس الاتفاق لمصلحة فرنسا بصورة ودية ـ وكان على برونينغ العودة الى برلين وهو صفر اليدين. وكان فشله في الوصول الى اتفاق على اي تنازلات هو الضمان لنجاح مؤامرة الجنرال فون شليشر، الذي كان يعمل الى جانب الرئيس الكهل ـ الفيلد مارشال فون هندنبورغ ـ فتم طرد برونينغ من الوزارة لمصلحة حكومة قوية برئاسة الهرفون بيبان المعروف بقسوته.

لم تمض على ذلك اكثر من ستة اشهر حتى تم استبدال بيبان كمستشار لالمانيا بشريكه في التآمر شليشر. ولم يمض سوى شهران حتى حقق بيبان انتقامه باقناع هندنبورغ للتخلص من شليشر وتعيين هتلر كمستشار لالمانيا ـ تحت وهم الخداع بأنه واصدقاءه من الجناح اليميني الوطني سيتمكنون من التأثير على هتلر ووضعه مع حزبه النازي تحت سيطرتهم. وكانت تلك نقطة الانعطاف الحاسمة لسلسلة مأساوية من الاخطاء في تقدير المواقف التي انتهت بنتائجها المدمرة على العالم.

***

كان حضور مؤتمر (نزع السلاح) سبباً في عدد من اللقاءات الهامة جداً. ولم يكن ما هو اكثر فائدة من مقابلتي مع كارل راديك، وقد تأخر حدوث هذه المقابلة حتى ١٩ شباط (فبراير) ١٩٣٢. وسجلت وجيزاً للنقاط الرئيسية في حديثنا:

قام يوليان غراند بدور الوسيط للتعارف فيما بيننا. فقال لي راديك مباشرة: «انت

مشهور جداً في روسيا . وقد طالعت القسم الأكبر من كتبك » ثم قال لي فيما بعد بأنني وفوللر معروفان في كل مكان من المانيا ولكن ضمن اوساط محدودة . أما في روسيا فالكل يعرفني ، كل واحد يقرأ الصحف ، وان افكاري موضع المناقشة باستمرار .

وأخبرني بأن هيئة الاركان العامة الروسية قد ترجمت كتابي (اعادة تكوين الجيوش الحديثة) وانها اصدرته اصداراً خاصاً ، ووعدني بارسال نسخة منه .

قام (كارل راديك) بتقديمي الى « سيمون فانتزوف » رئيس هيئة اركان المنطقة العسكرية لروسيا البيضاء ، وكان شاباً لا يزيد عمره عن ٣٥ عاماً ، واعلمني راديك ان العدد الأكبر من قادتهم الكبار تتراوح اعمارهم بين ٣٥ و ٤٠ عاماً كما اعلمني راديك ايضاً بأن الروس قد تأثروا كثيراً بوجهات نظري حول حرب المستقبل ، وهم يعتقدون بأهمية تحويل الجيش الى الآلية (المكننة) . ولكنهم يشعرون بأن الخيالة (الفرسان) سيستمرون في ممارسة دورهم على امتداد الحدود ذات الطرق الرديئة ـ وذلك الى ان تتحسن حالة الطرق ـ في حدود عشر سنوات على ما يتوقع ـ . وان روسيا تنتج ٧٥ الف جرار في السنة ، وهناك فكرة واضحة في تحويل الانتاج لخدمة الأغراض العسكرية .
كان راديك على يقين بأن العالم هو في عشية سباق جديد للتسلح ،وانه مدفوع نحو هذاالاتجاه بقوى لا يمكن مقاومة عنادها او تصلبها . فرماد البارود المتفجر في كل مكان من العالم ، ومنها انبعاث الروح الوطنية في الصين وأمريكا واليابان وانكلترا .

تحدث راديك كثيراً عن المناخ الثقافي الجديد في الجيش الأحمر ، وعن حرية الفكر والنقد ، والاتصال الوثيق بين الضباط ورجالهم الذين يعيشون حياة مشتركة واحدة . وعلى هذا فانهم سيقاتلون حتى لو انهارت جميع الجسور . وقال لي انه يستطيع ان يكون شيوعياً او محافظاً ، وليس بامكانه السير في طريق وسط لا يستطيع فهمه .

كان لنا بعد ذلك احاديث مستفيضة في ردهات المؤتمر وأروقته وذلك في كل يوم تقريباً ، حيث كانت تلك الأروقة هي بؤرة المؤتمر . وقد كان راديك متحدثاً رائعاً له عقل متألق وتفكير متحرر ولو ان اخاديد الماركسية كانت تطغى على تفكيره في بعض الأحيان . مما كان يخلق التناقض في شخصيته . وكان راديك هو الروسي الوحيد الذي قابلته في عقد الثلاثينات والذي استطاع ان يغامر بتوجيه نقد صريح وتعليقات ضد الستالينية . كما كان واحداً من مجموعة قليلة تركت في نفسي الشعور بأنهم اصيلون في ايمانهم الشيوعي وزهدهم في طرائقهم الحياتية وتقشفهم . هذا على الرغم من انه حقق نجاحاً بطولياً في ممارسة عمله كمساعد وثيق الصلة بلينين وتروتسكي وستالين ومستشاراً لهم جميعاً .

كان بوني فوللر وزوجته يقضيان اجازتهما في لوزان وحضرا الى جنيف لقضاء يوم فيها . وقد تعرضت لذكر ذلك أمام راديك ـ بعد اسبوع من تعارفنا ، فأظهر ميلاً قوياً لمقابلة فوللر الذي جاء وحده بعد الغذاء وجلسنا معا لفترة ثلاث ساعات . وسجلت في مفكرتي مذكرة قصيرة عما دار من حديث جاء فيها :

وصل راديك في الساعة الثالثة بعد الظهر ، ومكث حتى الساعة السادسة ، وقد هتف عند دخولنا (يا للمصادفة ـ لقد التقى العقلان العسكريان لبريطانيا العظمى في غرفة واحدة !) .

تحدث بعد ذلك عن قدرة روسيا العظمى ـ ٤٠٠ ألف جرار تتحول لخدمة الأغراض العسكرية . غني غير محدود في ثروة المناجم في سيبيريا وبصورة خاصة حقول الفحم . اكتشاف آبار النفط قرب بحر قزوين وكذلك في الأورال حيث تتوفر لها حماية أفضل . يعتقد راديك بأن روسيا في مأمن من التهديد الجوي نظرا لقلة الأهداف وتباعدها ـ فوق مساحات شاسعة ـ وقد تسبب سياسة التصنيع ظهور اهداف هامة . وقد تصبح طبقات الجو العليا (ستراتوسفير) هي مجال العمل . طلب راديك إلي الذهاب لزيارة روسيا ، ولكنه قال لي بأن النشاط الفكري الحقيقي هو خارج موسكو ـ نظرا لوجود البيروقراطية وانتشارها (هناك) . ستالين ـ فوق كل شيء ـ هو رجل ارادة . وعينا لينين تشعان بالبريق دائما . .

سألني راديك خلال حديث من أحاديثنا في الاسبوع التالي ما اذا كنت أرغب بالذهاب الى روسيا ـ بدعوة من حكومته ـ للعمل كمستشار في الحرب الآلية (الميكانيكية) على أساس انهم كانوا يخططون في تلك المرحلة لتكوين اولى الوحدات الآلية (الميكانيكية) الكاملة وفق العلاقات التي اقترحتها وطالبت بها . ونقل إلي بأن مثل هذا الالتزام الاستشاري سيقابل بمكافآت عاليه وبقدر معادل من المكانة والأهمية . كما أوضح لي بأنني اذا ما اردت الذهاب الى هناك لفترة ما ، وسأتلقى عندها المبالغ المتراكمة والمخصصة للمؤلفين عن المبيعات الضخمة لما تم نشره من كتبي باللغة الروسية ، نظراً لأنهم وبحسب عاداتهم المتبعه ، كانوا ينشرون ما يترجمونه دون الحصول على اذن من المؤلف ودون ان يدفعوا له أية مكافأة .

اعتذرت عن قبول العرض ـ بأدب ـ ذلك لأن مثل هذا الاغراء لم يستثير حماستي للاستجابة وفقا لأفكاري الفنية . كما لم يكن لدي اهتمام بمجتمع جديد وتجربة اقتصادية قد تحملني على الحياة وعلى العمل ـ ولو بصورة مؤقتة ـ تحت الاشراف الكاملة للدولة .

وكانت تجربتي في وزارة الحرب البريطانية ، والعمل فيها تحت ضغوط معتدلة نسبيا ، وكذلك الجهود لقمع الافكار ، هي كلها تجربة كافية لي حتى اتحرك حاليا بحذر ، لاسيما وانني لا أستطيع التنفس في وسط مناخ تكون فيه الحرية والتفكير والنقاش مكبلة بمبدأ بوليسي او بنظرية سياسية وان هذه القناعة الأساسية ذاتها هي التي قادتني بالتالي لرفض الدعوات المتكررة من حكومة النازيين في المانيا ، حيث قيل لي بأن هتلر كان تلميذا متحمسا لكتاباتي العسكرية .

شعرت بالبهجة فور عودتي من جنيف عندما اعلمني أصدقائي في وزارة الحرب ـ ممن يقرأون الصحف الروسية بأن (راديك) قد كتب مقولة في صحيفة (الازفستيا) وصف فيها مقابلته مع فوللر ومعي بأنها قمة عمله خلال اقامته في جنيف . وقال بأننا كنا الوحيدين من بين الذين قابلهم هناك ، ممن لهم طابعهم المميز على اعتبار أننا (رواد الثورة) في اساليب الحرب . وكان ما قاله يعبر عن الجانب المشرق في تطلعاته ، ويحدد اتجاهه الغريزي في تقويم أي رجل بافكار ثورية وعلى أساس الوحدة الروحية والفكرية ، وذلك بصرف النظر عن مجالات عمل الرجل ، ومهما كانت عليه الاختلافات في وجهات النظر .

* * *

كثيرا ما شاهدت في السنوات التالية ترجمات المقولات عن الصحافة الروسية والمجلات العسكرية فيها تناقش كتبي والكتابات الأخرى ، وبصورة خاصة تلك التي تعالج الحرب الآلية (الميكانيكية) في المستقبل ، والقوات المدرعة . وكانت أكثر هذه الكتابات ملائمة ، ولو انها كانت تميل في كثير من الأحيان الى تفسير مفاهيمي بطريقة اكاديمية جدا ، بحيث انها لم تكن تظهر من الوضوح في ادراك المفاهيم بمثل ما كانت تتضمنه التعليقات العسكرية الألمانية . وعلاوة على ذلك ، فقد كان هناك ثمة عودة الى أساليب التفكير القديمة في استخدام الدبابات كوحدات صغرى لدعم المشاة بعد حركة (التطهير الكبرى) في عام ١٩٣٧ والتي ذهب ضحيتها الآلاف بينهم المارشال توخاشفسكي والعدد الأكبر من القادة في أعلى المراتب وكذلك كارل راديك . وكان اذعان البقية وخضوعهم ليس ضمانا وجهتهم اليه غريزة المحافظة على البقاء فحسب ، بل انه فتح المجال لتيار الترفيعات السريع الذي أحدثته عملية التطهير . ولم يكن ضباط الجيش الأحمر وحدهم هم حصاد مثل هذه الاغراءات ، وفق ما أظهرته التجربة .

كانت حركة (التطهير الكبرى) مدمرة جداً للفاعليات العملياتيه في القوات

المسلحة الروسية . وكانت بصورة خاصة ردة رجعية انعكست على القوات المدرعة الجديدة ، كما انعكست على مفهوم استخدام هذه القوات ، ذلك ان القسم الاكبر من اكثر العقول التقدمية في القيادة السوفييتية العليا قد أبيد في هذه الحركة . وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك نقطة أصبحت هي موضع النقد في كثير من الاحيان ، بين كل مفاهيم ي ومفاهيم فوللر ، وذلك على أساس أن هذه النقطة تبرز بشكل واضح ميزة النوعية على ميزة الكمية مما كان يتعارض مع العقيدة الماركسية وروح (الديمقراطية) الشيوعية . ولقد أصبح هذا الاتجاه في النقد اكثر وضوحا بعد حركة التطهير ، ودعم باستخلاص دروس الحرب الأهلية الاسبانية بصورة خاطئة ـ بصورة خاصة عند تعيين قائد الدبابات الجديد ـ الجنرال بافلوف ـ الذي كان قد ارسل الى اسبانيا كمشرف على استخدام الدبابات الروسية التي دعمت بها قوات الجمهوريين .

لقد استخلص بافلوف ، من خلال البراهين الجزئية للصراع ضد جيوش غير مجهزة ، وضعيفة الوسائط ، بأنه من غير العملي استخدام التشكيلات الآلية (الميكانيكية) للقيام بدور عملياتي مستقل ـ وكانت وجهة النظر السطحية هذه تتشابه مع تلك التي هيمنت طويلا على هيئات الأركان البريطانية والافرنسية . وقد دعم زعيم الحزب المجرب ـ المارشال فورشيلوف ـ وجهة نظر بافلوف ، فأمكن تحقيق النجاح لاقناع ستالين بقبول هذه النتيجة .

تم اتخاذ قرار على هذا الأساس في وقت مبكر من عام ١٩٣٩ ، لحل الفرق الآلية (الميكانيكية) السبعة والتي كانت كل واحدة منها تضم بعضاً من خمسمائة دبابة والتي كان قد تم تكوينها حتى ذلك الوقت . ووزعت ما تضمه أفواج الدبابات على تشكيلات المشاة بهدف تنفيذ دور الدعم القريب وفقا للاسلوب القديم . وقيل ان هذا القرار قد اتخذ رغم معارضة القادة ممن عرفوا بكفاءتهم ـ ومن الذين بقوا على قيد الحياة بعد حركة التطهير ، من امثال شابوشنيكوف وجوكوف الذين مارسوا دوراً أساسياً في انقاذ روسيا من حرب الصاعقة الألمانية في عام ١٩٤١ .

عندما أظهر الألمان فاعلية القوات الآلية (الميكانيكية) في بولونيا ثم في فرنسا وبرهنوا على الامكانات العملية للممارسات العملياتية بصورة مستقلة عن كتل القوات التي تسير على الأقدام . استطاع ستالين ان يرى بوضوح خطأ استنتاج بافلوف ، فعمل في عام ١٩٤٠ على نقض قراره السابق . فتم وضع المخططات لتكوين عشرين فيلقاً مدرعاً أو اكثر ، على ان يتضمن الفيلق فرقتين من الدبابات وفرقة مشاة آلية (ميكانيكية) وبحيث يتم الانتهاء من عملية التنظيم في خريف عام ١٩٤١ .

ولكن عملية التكوين لم تكن سهلة بمثل ما كانت عليه عملية الحل والتوزيع ، وقام هتلر بغزو روسيا عندما كانت القوات السوفييتية تعمل على اعادة التنظيم وهي في حالة من سوء التدريب في مناوراتها وسوء الادارة في قيادتها العليا . فاستطاعت قوات الغزو الألماني اجتياح التشكيلات المنظمة حديثا على التتابع ، وتدميرها وهي موزعة ـ وقد تم تدميرها جميعا وهي متناثرة بآلاف الدبابات بين قوات المشاة . علما بأنه عندما وجه هتلر ضربته في حزيران (يونيو) ١٩٤١ كانت روسيا تتفوق بثلاثة أو أربعة أضعاف على اعداد الدبابات الألمانية . وكانت روسيا قد بدأت أيضا في انتاج الدبابة ت ـ ٣٤ المتفوقة في مميزاتها على انواع الدبابات الألمانية ولكن التفوق النوعي في التقنية العملياتية وفي تجارب الحرب المكتسبة كان عظيما الى جانب الألمان بحيث لم يبق من اعداد الدبابات الروسية الضخمة سوى القليل عندما أقبل فصل الشتاء لدعم الروس وتأمين بعض من الاستقرار لصالحهم . ولم تتمكن روسيا من اعادة التوازن إلا بعد سنة من الصراع المرير واعادة التنظيم وقد استطاعت روسيا المحافظة على وجودها بفضل اعادة تجديد قواتها الآلية ـ الميكانيكية ، وزيادة هذه القوات مع تبني تقنية تتوافق مع تقنية قوات البانزر الألمانية .

أعادت مجموعة قليلة من الشخصيات المميزة في فترة عامي ٤٠ ـ ١٩٤١ ما هو (مخزون) من كتبي في القيادات الروسية ، وأمكن تحقيق منجزات واضحة بأسرع ما تم تحقيقه في انكلترا أو أمريكا من حيث انتشار التطبيقات لافكاري وفقا لاسلوب غودريان في تدريب قوات البانزر وفي تقنية استخدامها . وقد تلقيت رسالة في آذار (مارس) ١٩٤٢ من السفير الروسي في لندن ـ ايفان مايسكي ـ والذي لم أكن قد قابلته لأكثر من عامين ، وجاء في رسالته انه يرغب في مقابلتي بأسرع ما يمكن لتبادل الحديث . فاتفقت معه على المقابلة لتكون في ٢٠ آذار . وسألني عندها ما اذا كانت الحكومة البريطانية قد استخدمتني عند وضع مخططاتها الاستراتيجية ـ وكان سؤاله مجرداً عن كل لياقة ديبلوماسية ـ ثم تابع حديثه فأوضح ان حكومته تهتم ـ كحليف ـ اهتماما عميقا بكل انهيار في دفاعنا عن الملايو في مجابهة الغزو الياباني . وقد أصبح السبب الخاص لاستعلاماته واضحا كل الوضوح بعد يومين عندما علمت من لويد جورج بشأن الزيارة التي قام بها حديثا ـ مايسكي ـ لمقابلة لويد جورج الذي قال لي بأن مايسكي قد بدأ حديثه باعادة ملاحظة وهي (أن لدى الانكليز غريزة سليمة لأعمال القتال البحرية ، ولكنهم دون ذلك في فهم الحرب البرية على ما يظهر).وتابع مايسكي فسأل لويد جورج ما اذا كانت الحكومة البريطانية قد استخدمتني . فأجابه لويد جورج بأنه على ما يعلم لم يحدث مثل ذلك . وكانت الاجابة بمثابة صدمة اصابت مايسكي الذي قال (اننا نعتبر ليدل هارت كأفضل دماغ عسكري

مفكر في بريطانيا) . وبعد ان وجه مايسكي انتقاده لعدد من القادة والمخططين الذين قابلهم الروس ، انتهى الى القول بأنه تلقى تعليمات من حكومته لينقلها الى وزارة الخارجية البريطانية بشأن اهتمام ستالين وقلقه من فشل البريطانيين في التخطيط الاستراتيجي ، وعبر عن أمله في ان يتم استخدامي بفاعلية وبصورة جدية .

مهما كانت تعنيه تلك الأقوال ، فلقد كان تدخلا مشؤوماً في أسوأ الظروف . ذلك انه تصادف في تلك الفترة وجود اقتراح في وزارة الحرب حمل بصورة جدية لتكوين فرع أبحاث عملياتية تحت إشراف السير هنري تيزارد واشرافي كمستشار له على أن يتبع الفرع لهيئة الجيش الاستشارية . واستدعيت الى هناك لمناقشة هذا المشروع . ولم يكن هناك ما يمكنه تحقيق النجاح في دعم المعارضة وتقويتها مثل تقديم اقتراح روسي ، إذ لم تمض سوى أشهر قليلة بعد ذلك حتى تم اقرار المشروع بشكل معدل . ولكن لم يتم تعيين تيزارد أو تعييني للعمل في ذلك الفرع .

* * *

حدث في مؤتمر نزع السلاح في جنيف عام ١٩٣٢ أن قابلت أيضاً الجنرال وورنر فون بلومبرغ الذي كان المستشار العسكري الرئيسي للوفد الألماني والذي أصبح بعد سنة واحدة قائد القوات المسلحة الألمانية . وقد عمل اكثر من كل ما عداه ـ باستثناء غودريان ـ على نشر كتاباتي والدعاية لأفكاري في المانيا . وكان طويل القامة عريض المنكبين قوي البنية ولم تكن لديه ظواهر التكبر او العجرفة او حتى تلك القسوة المقترنة بصورة شائعة باسم (الضابط البروسي) . في حين كانت طريقته في المزاح او المرح مقترنة بصراحة حلوة تظهر عند عرضه لأفكاره .

لقد سبق ذكر بعض النقاط التي تضمنتها أحاديثنا في الفصل السابق ، ولكن هناك عدد من النقاط الأخرى التي تم تسجيلها في يومياتي والتي كانت بدورها على جانب كبير من الأهمية . فقد تحدث الجنرال وورنر فون بلومبرغ عن تجربته في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وانتقد كثيرا موقف الغرور ـ الذاتي للقادة الكبار خلال فترة السنوات التالية لانتصار المانيا في حرب ١٨٧٠ مما أدى الى فشلهم في التعرف على الدروس المستخلصة من الحروب الأخرى وابرزها تعاظم القدرة الدفاعية نتيجة تطور الأسلحة النارية . وأنه لم يسمع أبداً بالحرب الأهلية الأمريكية ، ولم يتم التعرض لها او مناقشة احداثها في كلية الاركان الألمانية قبل عام ١٩١٤ ، كما تمت (اضاعة) أهم الدروس الحديثة في الحرب الروسية ـ اليابانية . وعملت القيادة الألمانية على حفظ التقارير الثمينة

التي بعثها المراقبون العسكريون الألمان هناك ـ في أمريكا واليابان ـ ولم توزع إلا ضمن دوائر محدودة ، بحيث لم يعمل الجيش الألماني على الافادة منها ـ ضمن درجة صغيرة ـ الا بعد عشر سنوات من اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى .

استمر بلو مبرغ في ابداء ملاحظاته فذكر بأن القيادة الألمانية العليا ، مثلها مثل خصومها ، قد بقيت حتى اثناء مسيرة تلك الحرب ، بطيئة في التوافق مع اساليبها ضمن الشروط الجديدة ، وانعكس ذلك على الجيوش التي كيفت نفسها بصورة بطيئة جداً . في حين كان جيل الشباب أكثر سرعة في التعلم ، فاسلوب الدفاع الجديد لعام ١٩١٧ كان من ابداع أصغر الشباب عمراً في هيئة أركان لودندورف ، وبصورة خاصة منهم النقيب (الكابتن) غيار ، والذي لم يقف عند حدود كتابة التعليمات التكتيكية الجديدة ، بل انه أوجد افكارها .

تحدث بلومبرغ بصراحة ايضا ، منتقداً اصرار اصحاب العقيدة ـ القديمة ـ على مواقفهم في قيادة الجيش الألماني بعد الحرب ـ وبصورة خاصة ايمانهم الصلب بالهجوم ، الذي لا يترك اكثر من الشعور بالضعف العددي ـ بالنسبة للدول المجاورة لهم ـ وعلاوة على ذلك فان عدم وجود الدبابات يجعل كل هجوم غير ناجح . وعلى هذا فقد ناضل ـ بلومبرغ ـ لتصحيح هذا التصلب في العقيدة الهجومية الألمانية ، فجرب بفرقته المتمركزة في شرق بروسيا نوعا من الدفاع المتحرك والمقاومة ، وبصورة خاصة ، اسلوب (المناورة المستمرة) التي اقترحتها في كتبي عن شيرمان وفوش . وقد تأثر بلومبرغ كثيرا باسلوب فوش في تحديد عمل القادة عند تعاملهم مع كتل الجيوش .

عبر بلومبرغ بوضوح ، عند مناقشة مؤتمر نزع السلاح ، عن موافقته على المبدأ النوعي في الحد من الأسلحة الهجومية الأكثر ملائمة للعدوان ، وقال بأنه نصح حكومته بدعم هذا المبدأ ، ولكنه كان يأمل أيضا في ان ينتهي المؤتمر الى قرار بتخفيض حجم الجيوش . وتضمنت مذكراتي اليومية بعضا من الملاحظات المضيئة التي طرحها بشأن هذه النقطة : انه كجندي محترف ـ أي بلومبرغ ـ يفضل نزع السلاح ، ذلك انه عن طريق بعث الجيوش الصغيرة والتي يمكن قيادتها بسهولة ، سيعيد احياء فن القيادة وروح الفروسية ، وتكوين روح المحارب الحقيقي في الاعمال القتالية . (انه وهو يتحدث عن هذا الهدف العظيم ، يبرز حماسة ـ الألماني الحقيقي ـ) .

لقد أصبح من الواضح انه ينظر الى موضوع نزع السلاح على أنه ليس أكثر من وسيلة للوقاية من الحرب بقدر ما هو وسيلة لصنعها ، وفي الحالين يبقى نزع التسلح أول

ضررا على الانسانية وأكثر فائدة للفنان العسكري . وقد أصبح في النهاية عاطفيا متحمسا وهو يتحدث عن قيمة (الفروسية) في الحرب ، وعن بعث روح (الفرسان) . لقد أذهلني بلومبرغ بأصالته الحقيقية في ضميره المهني ، حتى وببراءته التي هي كبراءة الاطفال ، لاسيما بعد ان جعلتني مراقبتي الدقيقة للقادة في المراكز العسكرية العليا طوال فترة مديدة متشائما في نظرتي الى امثال هؤلاء القادة .

لقد كان أمراً مأساوياً محزناً أن يتم اختيار مثل هذا الرجل لقيادة القوات الألمانية عندما تسلم النظام النازي السلطة في ألمانيا ، ومنحه بعد ذلك لقب المشير (الفيلد مارشال) الأول للرايخ الثالث . ولقد تم انتقاء بلومبرغ في الواقع لهذا المنصب بفضل الرئيس هيندنبورغ وثقته الشخصية به . وكان هندنبورغ يأمل في ان يستطيع بلومبرغ كبح التدخلات النازية بالقوة ، في حين كان هتلر يأمل في استخدام بلومبرغ كوسيلة لمساعدته . وبرهنت تقديرات هتلر على أنها أقرب الى الصحة والدقة لسببين اولهما لأن هتلر كان ذكيا في اللعب بورقة المثالية ـ الرومانسية التي تميزت بها شخصية بلو مبرغ . والثانية هي ان اكثر القادة المحافظين كانوا يكرهون افكار بلومبرغ الاصلاحية ويقاومونها ، فعملوا بذلك على دفعه بقوة متزايدة لدعم هتلر . وكانت طريقته الرقيقة ـ المهذبة ـ وموقفه المعتدل قد حملت على تسميته منذ وقت مبكر بلقب (الأسد المطاطي ـ أو المصنوع من الكاوتشوك) . وها هم الآن يطلقون عليه لقب (ذيل شباب هتلر) وذلك بعد ظهور فيلم يصور فاعليات ونشاطات الشبيبة المتحمسين في تنظيم الحزب وتعميدهم . وكان هذا التنظيم عبارة عن مجرد تعديل لخط الكشافة . وكانت ميزات بلومبرغ وخصائصه في الصفاء والبراءة هي محور التقرب لخلق المشكلات في حياته ، وهي المشكلات التي سارعت في طرده من وظيفته في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٨ والتي عجل منها موضوع زواجه ، اذ انه بعد زواجه بست سنوات من ارمله ، كانت سكرتيرة ضاربة على الآلة الكاتبة في وزارة الدفاع ، ثم ظهر ان لدى الشرطة سجلا محفوظا لها كعاهرة . وقد رفض بلومبرغ كل طلب للانفصال عنها . وكانت حياته العسكرية ـ بكلمة وجيزة ـ صورة لما يمكن ان يكون عليه الجندي البسيط والنقي .

كان تأثير بلومبرغ ، على كل حال ، كبيرا في مجال واحد على الأقل وهو تأثير اكبر فاعلية مما يظهر للوهلة الأولى . ذلك ان الظاهرة المباغتة للحرب التالية قد برهنت على ان الجيش الألماني قد اكتسب شهرة في مجال السلوك البشري اكثر من تلك التي حصل عليها في حربي ١٨٧٠ و١٩١٤ . في حين كانت التوقعات تشير الى ان اضافة (النازية) الى (البروسية) ستسير بهذا السلوك نحو الأسوأ . ان القيود ، والعناية الكبرى لتجنب كل ما من شأنه

تلطيخ سمعة الجيش الألماني وتاريخه . قد تجد أثراً لها في سلوك بلومبرغ والقادة الآخرين ممن شاركوه وجهات نظره ، فطبعوها في عقلية الجيش ونفسيته .

لقد تضاءلت قيمة الغزو الألماني وتناقصت أهمية احتلال الاقاليم المجاورة ـ رغم ما حققته من انتصارات بسبب النشاطات الوحشية التي قام بها الغستابو . وكذلك اعمال قوات س . س . التي كانت متميزة بقسوتها المروعة . ولقد قمت بجولة في الأقاليم المحررة من أوروبا بعد الحرب ، وسمعت الثناء الكبير في كل مكان على سلوك الجنود الألمان ، وكان يقابل ذلك انعكاسات غير مناسبة عن قوات التحرير (للحلفاء) . ويظهر في النهاية ان الاتصال الوثيق والمديد خلال فترة الاحتلال ، قد خلق شعوراً طيباً بين كتل الجماهير العادية عند كل طرف من الأطراف ، اكثر مما خلق الشعور بالكراهية العميقة بحسب الاحكام المسبقة التقليدية . وليس التقارب الافرنسي ـ الألماني سوى واحدة من أفضل النتائج البارزة .

* * *

ذكرت فيما سبق أنني سمعت عن طريق آغاخان وللمرة الأولى ، اهتمام بلومبرغ بكتاباتي ، وانه حضر لمقابلته في جنيف عام ١٩٣٢ . وكان مؤتمر نزع السلاح ايضا هو السبب في لقائي للمرة الأولى مع آغاخان ذاته الذي كان من أفضل الشخصيات الهامة التي عرفتها في حياتي . وكان يمثل الهند في المؤتمر ، كما كان رئيس وفد الهند في جمعية عصبة الأمم . قدم آغاخان لزيارتي في الفندق حيث أقيم وذلك بعد وصوله الى جنيف بفترة قصيرة ، وتحدثنا طويلا بشأن مخططي لنزع السلاح النوعي ، وهو المخطط الذي اخبره عنه سام هور .

تقابلنا بعد ذلك مرات عديدة خلال الاسابيع التالية وقد أذهلني منه توقه الكبير للمعرفة بقدر يتعادل مع نهمه للطعام ، وقد تبين لي ذلك في احدى المناسبات ، وكنت وزوجتي نتناول طعام الغذاء معه . فالتهم ثلاثة اطباق من انواع الطعام التي كان يرغب بها بصورة خاصة . وكان الى ذلك انسانا غير عادي في اهتماماته الواسعة والكبيرة ، ومعرفته الكبرى بكثير من الأشياء . وعلى الرغم من ان التاريخ العسكري لم يكن سوى جانب واحد من جوانب معرفته فقد ذهلت عن غزارة معلوماته ودقتها في موضوع معركة المارن لعام ١٩١٤ .

انني لم اعرف رجلاً مثل اغا خان يناقش بعمق وباسلوب لاذع قضية العلاقات البريطانية ـ الهندية المعقدة والتي كان يراها هو بوضوح تام . وكان يتابع المسار المتدهور

لهذه العلاقات وينسبه الى تغير المواقف التي تطورت في القرن التاسع عشر على ايدي الرسميين البريطانيين خلال تعاملهم مع الهنود ، ثم جاء فقدان الثقة المتبادل للمفهوم الامبريالي الجديد مع تدفق الرسميين لفحص المنتجات . وكانت تنقص هؤلاء (الثقة بالنفس) فحاولوا التعويض عنها بالاعتماد على افتراض التفوق الطبيعي (للرجل الأبيض) مما اثر الحساسية لدى الهنود . وهكذا حلت عادة العزلة والبروتوكولات المتيبسة محل العلاقات الاجتماعية السابقة والتي كان يتم فيها بسهولة اختلاط البريطانيين بالهنود . وكان لهذا التبدل تأثيره في تجميد العلاقات ، ثم تزايد هذا الجليد عمقاً نتيجة سلوك زوجات الرسميين البريطانيين بعد ان تزايدت اعدادهن ، ولم تحاول الزوجات بذل اي اهتمام في تعلم طرائق الحياة الهندية ، واقتصر اهتمامهن بأنفسهن فقط وبعلاقاتهن مع الجاليات البريطانية الصغيرة ، فتعاظم الشعور بالانفصال عند حدود (حاجز الملونين) .

كنت قد ناقشت هذا الموضوع مع عدد من الاصدقاء الهنود قبل احاديثي مع آغاخان وبعدها ، وقد اكدت هذه المناقشات جميعها دقة تشخيص اغا خان وصحته . وكان الامر الذي يسترعي الانتباه هو اعتراف الكثيرين من الهنود طواعية بالنقاط الجيدة في نظام الادارة البريطاني ، وبصورة خاصة مقاييسه القضائية واستقامته . في حين كانوا يوضحون التأثيرات ـ المرضية لانحرافات الكثيرين من البريطانيين في الهند ـ سواء في احاديثهم او في سلوكهم ، وكأنهم كانوا يتعاملون مع من هم دونهم من العينات ، او النماذج البشرية ، وهي نماذج كان يحكم عليها مسبقاً بعدم الكفاءة في ادارة شؤونها الخاصة ويفرض عليها البقاء تحت الرقابة (الابوية) للبريطانيين . وذلك مهما كانت عليه هذه النماذج من الكفاءة المثيرة والقدرة . وكان هذا الاسلوب يستثير القسم الاكبر من طليعة المثقفين الهنود ، بحيث انه لم يكن يظهر ادراك البريطانيين فحسب ، بل انه كان يشكل ثغرة اساسية في الاساليب الجيدة للادارة البريطانية .

تعاظمت نقمة الهنود واستيائهم نتيجة تزايد عمق شكوكهم بالوعود البريطانية في منح الهنود حكومة ذاتية على مراحل متتالية تضع قناعا لاخفاء العقول الامبريالية الحازمة والتي تعمل على تقدمهم ولو مجرد الانتقال بهم من (الحضانة) الى (المدرسة الابتدائية) . وابقائهم كتلاميذ ثابتين . وقد كانت العواطف التي عبر عنها الرسميون البريطانيون في الهند ، وكذلك الاحاديث التي طرحها الخطباء على المنابر النيابية (البرلمانية في ويستمنستر) بمثابة منبه لمس الأسماع والعقول المتحفزة فدعم الشكوك وحفزها . وزيادة على ذلك ، فقد كان من الغريب لهذه المنبهات الا تجد لها في كثير من الاحيان التربة الخصبة ، وهذا ما سبب اول صدمة لاعجابي بشخص وينستون تشرشل وذلك اثناء

تناول طعام الغداء معه حيث كان صديقه القديم السير بيندون بلود ، المجرب والخبير المشهور بشؤ ون حروب الحدود ـ الهندية ، يتحدث بتذمر عن السياسة الجديدة التي اعلنتها الحكومة البريطانية (لترك الادارة الذاتية للهنود) . واوضح تشرشل باسلوبه الساخر كيف يمكن الغاء ما تضمنه التصريح السياسي عن طريق التطبيق ، وابطال ما اثاره من اصداء بعيدة. وهذا هو ما سبب الصدمة لي .

* * *

يمكن لأكثر الأعمال جدية ان تنقلب الى فصول هزلية ، ولقد جاءت احدى هذه الاعمال التي وقعت في جنيف (عن غير قصد) عن طريق السير جون سيمون وزير الخارجية البريطاني فقد اجتمعت جميعة عصبة الأمم هناك في جلسة عمومية لمناقشة قضية الغزو الياباني الجديد لمنشوريا وذلك بعد انتهاء مؤ تمر نزع السلاح بفترة قصيرة . وكانت الصين هي التي طلبت الى عصبة الأمم عقد هذا الاجتماع . ولقد كان هناك طلب تقدمت به كثير من الدول لفرض المقاطعة على اليابان ـ بما في ذلك حظر تصدير البترول اليها . ولكن الحكومة البريطانية ، ادراكا منها لضعف دفاعها الخاص عن الشرق الأقصى ، رغبت في تجنب التورط في اي خطوة من شأنها اثارة انتقام اليابان ودفعها لردود فعل مماثلة. ، مما قد يعمل على تسريع الحرب في المحيط الهادي (الباسيفيكي) . وهكذا فعندما وقف لالقاء خطابه ممثلاً لبريطانيا في مناقشات جمعية عصبة الأمم حاول سيمون تملق ميثاق العصبة واظهار الولاء الكاذب له مع بذل الجهود الضمنية لاعاقة كل اتجاه خطر يمكن تطبيقه عمليا . وقد ظهرت هذه السياسة غير الحاسمة(المائعة)، بأسوأ صورة لها من خلال طريقة سيمون واسلوبه ، ذلك انه كان من عادته عندما يلقي خطابه فرك يديه بعضهما ببعض ، وقد اقترن ذلك مع خطه في المراوغة والتملص عند المناقشة فظهر بشكل زائف ومنافق ، بحيث ان المراقبين الاوربيين ممن تعودوا على مطالعة كتب شارل ـ ديكنز اطلقوا على سيمون لقب (اورياه ـ هيب) ونتيجة لذلك ، سقط رصيد بريطانيا في المؤتمر بشكل سيء وعلمت فيما بعد ، بأن عادة سيمون في (فرك يديه) انما كانت بسبب استخدامه اسلوب كتابة النقاط الرئيسية في خطابه على سلسلة من البطاقات ، ثم اختلاس النظر اليها على التتابع مع محاولة اخفائها بصورة جيدة .

كانت معرفتي السابقة بسيمون مقتصرة على لقاء في غرفة الطعام او في القاعة العامة خلال الاعياد عند زيارتي لأكسفورد . وقد تأثرت هناك كثيراً بقدرته الجدلية وحججه المنطقية والموزونة خلال مناقشاته وخطبه . وعلى هذا فقد شعرت بالحزن عند رؤيتي

لعجزه الكبير في مناقشته العامة امام عصبة الامم في جنيف وكان كثير من أعضاء الوفد البريطاني يشتركون معي في وجهة نظري بكفاءته وكان هناك على كل حال ، ما يثير المزيد من الأسى ، عند عودة سيمون الى لندن من اجل اجتماع مجلس الوزراء ، اذ كان من اصعب الواجبات عليه العمل كمتحدث باسم الحكومة فتم استبداله مؤقتا بوزير سلاح الجو الجديد اللورد لوندونديري ، ولكن جاء نجاح لوندونديري مخالفا لكل التوقعات . فقد استطاع اعادة مكانة بريطانيا وهيبتها المهتزة وتحقيق ذلك بشكل رائع وكان نجاحه في تحقيق هذا الانجاز نتيجة لمزجه (الحضور) اكثر ما يمكن مع (الحديث) اقل ما يمكن ، ممارساً دوره بكفاءة عالية واخلاص واضح ، حتى يستطيع الحصول على اعجاب المراقبين الاجانب وتعليقاتهم على اسلوب (السيد العظيم) مقلداً ذلك سلوك اجداده القدامى (في كاستلريف) الذين اضطلعوا بأمور التسوية السلمية بعد الاطاحة بنابليون بونابرت ولقد كان التأمل الطويل في الاسلوب المتوارث وما حققه من نتائج هو الذي اقنعني ان عيوبه تزيد على حسناته ومزاياه وان ذلك كان عاملا في تدهور مكانه بريطانيا خلال النصف ـ قرن الماضي من الزمن ـ وعلى هذا فانا من اكثر الناس سعادة وانا اسجل القضية بحسب ما ظهرت عليها من القيمة

غادرت جنيف في آذار (مارس) ، وذلك قبل وقت قصير من تأجيل مؤتمر نزع السلاح بسبب عطلة عيد الفصح ، وكان علي العودة لالقاء محاضرة على ضباط القيادة الجنوبية في موضوع (مستقبل المشاة) ، حيث كانت التطلعات متوجهة في تلك الفترة نحو مفهوم ناجع يستند في قاعدته الى مبدأ نزع التسلح النوعي واسلوبه ، وكانت النظرة الى الموضوع هي افضل بكثير مما كنت اتوقعه عند بداية مؤتمر نزع السلاح فقد اصبحت الحكومةو معظمها ، كما أصبح ممثلو هذه الحكومات يتزايدون في تأييدهم لهذا الاتجاه كأفضل حل للمشكلة

أظهر الاعضاء العسكريون في الوفد البريطاني موقفاً موضوعياً يستحق الاعجاب وكان قسم وزارة الحرب يضم اللواء آ ج تيمبرلي ـ الذي اصبح بعد ثلاثة اعوام خلفاً لي كمراسل عسكري لصحيفة الديلي تليغراف (وهو اخ المؤرخ الديبلوماسي العظيم هارولد تيمبرلي) ـ كذلك العقيد آلان داوني وهو الذي سبقت معرفتي له بصورة جيدة من خلال صداقتنا المتبادلة مع ت و لورانس (الملقب بلورانس العرب) والرائد بريان روبرتسون (ابن المشير ، والحاكم العسكري في المستقبل

لألمانيا بعد الحرب التالية ـ ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) . وقد اجتمعت في جنيف بالكثيرين منهم ، كما اجتمعت ايضا بممثلي وزارة الطيران ومنهم مجموعة النقباء جون تريمـاين بابينغتـون وترافورد ـ ليف مالوري الذي قدم مساعدة كبرى في تطوير تعاون القوات الجوية مع القوة الآلية (الميكانيكية) التجريبية ـ في عام ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ ولواء الدبابات التجريبي في عام ١٩٣١ . وقد اضطلع بابينغتون ، بالتالي ، بدور كبير في التدريب الفني للقوات الجوية الملكية . اما ليف مالوري فقد اصبح القائد الاعلى للقوات الجوية التي استخدمها الحلفاء في غزو النورمانـدي عام ١٩٤٤ . وبكلمـة موجـزة ، كان القسـم العسـكري للوفـد البريطاني يضم نخبة جيدة من الخبراء الاختصاصيين . واضطلع هؤلاء بدورهم كخبراء امام مشكلة يجب عليهم حلها ، اكثر مما عملوا في المراوغة او اقامة السدود والعوائق .

عندما عاد مؤتمـر نزع السـلاح للاجتماع ، كتـب لي نويل بيكر في يوم ٩ نيسـان (ابريل) ما يلي : (تسير افكارك في المقدمة ، وبامكانك الاعتماد على الرئيس والمحيطين به في ان يبذلوا كل ما يستطيعونه للمساعدة في هذا المجال).واتبع ذلك في الأول من أيار (مايو) ببطاقة تهنئة رقيقة جاء فيها : (اعتقد انه يجب ان تكون انـت الاب الحقيقـي لعقيدة نزع السلاح النوعي والتي حصل سيمون في الاسبوع الماضي على الموافقه عليها بالاجماع) . ولكن ، وفي الوقت ذاته تلقيت معلومات سيئـة ـ مشؤ ومـة ـ من قيادات اخرى وهي ان مناقشات اللجان الفنية تميزت ببذل جهود كبيرة وفقـاً لتعليمات وزارات الخارجية في عدد الدول بهدف الاستخفاف بمبدأ نزع السلاح النوعـي وزرع الالغام في طريق تنفيذه . وقد جاءت هذه التطورات الجديدة ، والتحركات المضادة لتدميرها بعد اجتماع الهيئة العامة مباشرة وموافقتها بالاجماع على المبدأ الذي طرحته الحكومة البريطانية ودعمته .

حدث بعد ذلك ، وفي مناقشة البرلمان يوم ١٣ ايار (مايو) وقبل عطلـة اسبـوع العنصرة (الذي يبدأ بيوم احد العنصرة) ان قام وينستون تشرشل بهجوم مكشوف على مبدأ نزع التسلح النوعي (وكان تشرشل في حينها عضواً برلمانياً مستقلاً لم يسند اليه منصباً في حكومة الائتلاف الوطني الجديدة) . وقد وصف تشرشل المبدأ بأنه (حيلة ساذجة) . لكنه كان على ما يظهر بعيداً عن الرؤ ية الواضحة لأسباب هذا المبدأ نظراً لأنه استند في حجته الى نقطة وهي ان الاسلحة قد تستخـدم في الهجوم او في الدفاع على حد سواء وتبعاً للظروف . وبذلك فانه لم يدرك النقطة الحقيقية للتمييز بين الموقفين . وعلى هذا فقـد قمت بالتعليق على خطابه في مقولة نشرتها صحيفة الديلي تليغراف يوم ١٧ أيار (مايو) وقلت فيها :

ليس هناك رجل دولة او قائد من قادة الحرب العالمية (الأولى) قد اظهر سرعة ودقة في ادراك ظروف النجاح مثل تشرشل . ففي تلك المجلدات الرائعة التي كتبها تحت عنوان (ازمة الحرب) اظهر تشرشل بوضوح تام وباسلوب قوي كيف كانت قدرة الهجوم تصبح مشلولة ،امام ذهول هيئات الاركان ، بسبب الاصطدام (بالقدرة الدفاعية والاسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة المتمركزة في الخنادق) .

اوضح مستر تشرشل ـ زيادة على ذلك ـ وبصورة مستمرة ان نجاح الهجوم (يتعلق بعاملين « آ » القدرة النارية « ب » القدرة الحركية.وتؤ من المدفعية الثقيلة العامل الاول . اما العامل الثاني وفقاً لمنظور تشرشل فتؤ منه الدبابات الثقيلة . وها هو الان يقول بأن أبطال هذين العاملين الأساسيين لنجاح الهجوم هو (حيلة ساذجة) .

ان تشرشل وهو يرفض هذا الاقتراح العملي ، يطالب ببذل الجهد لصياغة اتفاقيات من شأنها تحريم (الاستخدام غير المقيد للأسلحة والتي تهدد غير المقاتلين والسكان المدنيين) . وهو يفضل ان يعمل مؤتمر جنيف على تخصيص كل جهده « وتكريسه » من أجل وضع انظمة جديدة وقوانين خاصة هدفها تقييد الخطر الذي يتعرض له (المقاتلون في منطقة القتال) وذلك عوضاً عن اضاعة الوقت في نزع السلاح النوعي . وان اعتقاد تشرشل بفاعلية مثل هذه التدابير يظهر بصورة اكثر من مباغتة من كفره بتقييد وسائط العدوان .

كان دفاع تشرشل من اجل وضع انظمة جديدة للحد من استخدام الأسلحة عوضاً عن الحد من الاسلحة ذاتها ، امراً يتناقض تناقضاً فاضحاً مع موقفه وعمله بعد عشر سنوات ، عندما اصبح رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للحرب . ذلك انه عندما وجد بأن قصف المصانع قد اصبح الهدف ، وان تدمير هذا الهدف قد احتل مكانته على نطاق واسع ، فانه هو ذاته الذي اتخذ القرار بتركيز الجهد لتدمير منازل السكان في بلاد العدو دون تمييز . وقد نقل القرار القاسي الى قيادة طيران القصف في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ ضمن امر توجيهي للتركيز على (تدمير الروح المعنوية لسكان العدو المدنيين ، وبصورة خاصة منهم عمال المصانع) . وان هذا التغيير في السياسة ـ الاستراتيجية لما اطلق عليه اسم (قصف المناطق) بهدف التخفيف من قسوته على الاسماع ، لم يحقق النتيجة المطلوبة ، وفشل في اتخاذ الهدف ، ولكنه كان من اكثر الأمور وضوحاً ، في خروجه على قواعد الحرب.وكانت توجيهات هذا الامر من اكثر التوجيهات بروزاً في خروجها على الأعراف الانسانية . فقد انتهت هذه الخطوة ، مع تطور السلاح الذري ، الى ان

اصبحت شعوب العالم وهي تعيش باستمرار تحت ظلال الكتلة المدمرة التي تهدد الانسانية بالفناء .

كان الوجه الآخر المثير للسخرية في هجوم تشرشل على مبدأ نزع السلاح النوعي ضمن خطابه في ١٣ ايار (مايو) ١٩٣٢ هو ذلك الذي برز بعد ثمانية اعوام بدقة يوم اخترق الالمان بشكل خطير المواقع الدفاعية في الغرب - على نهر الموز - بقوات رأس حربة تتركب من اسلحة لم تكن تعتبر كأسلحة هجومية فعلاً اكثر من سواها .

كان يشارك تشرشل في وجهات نظره وفي هجومه على تبني الحكومة لمبدأ نزع السلاح النوعي بعض الوزراء في الحكومة وبصورة خاصة منهم لوندونديري وهيلشام وداف كوبر .

كان اكثر ما باغتني اشتراك بوني فوللر في الهجوم على مبدأ نزع السلاح النوعي نظراً لما عرفته عنه من عقل مفكر يصل الى ابعاد واسع ونظرا لما يتميز به من تفكير منطقي . وقد نشر فوللر مقولة في المجلة البريطانية ، عدد حزيران (يونيو) . وقد استهل مقولته بعرض شامل ادان فيه السياسيين (بصورة عامة) ، ثم انتقل الى اتهام مؤتمر نزع السلاح لأنه مجرد خدعة سياسية لتضليل الشعب او للابقاء على الاوضاع الراهنة . فالهدف الحقيقي لفرنسا هو ضمان الابقاء على هيمنتها وفرض وصايتها على اوروبا وكبح اعادة احياء المانيا . ومهما كانت عليه مثل وجهة النظر هذه من الحقيقة فانها تتجاهل واقع فرنسا انذاك والمتمثل بأنها كانت العقبة الرئيسية في وجه كل اتفاق لنزع السلاح النوعي .

كان هناك ثمة هجوم اكثر في خطورته من تلك الهجمات المباشرة على فكرة نزع السلاح النوعي ، وهو الهجوم غير المباشر او التحرك المضاد الذي قاده بعض المتحمسين للدبابة ، وبصورة خاصة منهم تيم بايل الذي كان المدير المساعد للقوات الآلية (الميكانيكية) .

سبق ان ذكرت في الفصل الخامس انه قد تم قبل ستة اعوام صنع اول دبابة ثقيلة ، وسريعة الحركة اطلق عليها اسم (الاستقلال - ايندابياندت) . وظهرت البدايات الاولى لها في استعراض كامبرلي ، ولكن لم ينتج من هذا النوع سوى دبابة واحدة ، نظرا لان وزارة الحرب لم تكن راغبة في تأمين الأموال اللازمة لصنع المزيد من الدبابات . وهكذا تم وضع تصميم الدبابة آ - ٦ - من وزن ١٦ طن ، على امل ان تكون الدبابة الجديدة ارخص في تكلفتها ولها ذات المميزات المطلوبة . وقد جاء التصميم الجديد ليجمع افضل

ميزات الدبابة (الاستقلال) ، مع ميزة زيادة السرعة حيث وصلت سرعتها عند التحرك على الطرق حتى ٣٠ ميلاً بالساعة ، مع ميزات مماثلة عند التحرك خارج الطرق وعبر الاقاليم . ولكن وزارة الحرب توقفت امام تكلفتها ، ولو انها لم تتجاوز مبلغ ١٦ الفُ جنيه استرليني . وتم تأجيل كل انتاج لهذه الدبابة حتى عام ١٩٣٠ حيث نجح تيم بايل عندها في الحصول على اذن بصنع ثلاث دبابات منها . وقد وصف لي تيم بايل وهو يضحك الاسلوب الذي اتبعه للوصول الى هدفه (كنوع من الخدع المكيافيللية) . وكانت القضية المطروحة هي تلبية المتطلبات في تجربة انواع مختلفة من علب السرعة ومن السلاسل (الجنازير) . ولكنه لم يتمكن من الحصول على الموافقة لطلبات اخرى خلال السنة التالية او بعدها .

عندما عرف تيم بايل امر المقترحات في جنيف عام ١٩٣٢ لنزع التسلح النوعي ، وما ينتج عنها من حد لمركبات القتال المدرعة في حدود الدبابات الخفيفة التي تنقص في وزنها عن ١٠ طن ، ادرك بايل بسرعة بأن هذا يعني التضحية بانجازه العزيز من وزن ١٦ طن . وشعر بالفزع من هذه النتيجة فطلب الى هيئة اركانه مقاومة المقترحات ، وكان سعيدا وهو يجد تقديرا مباغتا لهؤلاء الأطفال حديثي الولادة - والذين لم يكن مرغوباً بهم في السابق - ولم يكن مثل هذا التقدير قد ظهر من قبل . وعلى هذا فان تيم بايل لم يلق صعوبة كبيرة في اقناع هيئة الاركان لارسال تعليماتها الى وفدها العسكري في جنيف من اجل تصنيف الدبابات التي هي اكثر من ١٦ طن كدبابات(هجومية) . وقد شجع هذا الاتجاه الافرنسيين الذين كانوا يريدون الاحتفاظ ببعض النماذج التجريبية الضخمة من وزن ٧٠ طن ، فأخذوا في الدفاع عن قضية الوزن لزيادة حتى اكثر من ذلك المستوى . وهذا جعل المقترحات كلها مجرد هراء ، بل ان المقترحات الجديدة قد استخدمت لمماحكات طويلة والمراوغات الكثيرة في وسط اللجان العسكرية الفرعية لمؤتمر جنيف والتي استمرت حتى تبدد كل امل في الوصول الى اي اتفاق لنزع السلاح مع وصول هتلر الى السلطة في المانيا في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ .

ادركت الحكومة البريطانية قبل ذلك بأشهر قليلة ، عقم تقنية المماحكات والمراوغة . وعرفت الطريق الذي كان يجب السير فيه للتقدم . ونقل الي هور ذلك في بداية تشرين الثاني (نوفبر) مع تعليق ختامي جاء فيه (انني على يقين بأنه كان من الأفضل لو التزمنا بتلك الفكرة العميقة والواقعية - لتقييد الأسلحة العدوانية - والتي تعتبر انت المسؤول الأول عن انتشارها الكبير ، ذلك ان الالتزام بهذه الفكرة من شأنه توفير ظروف افضل للوصول الى نتائج عملية) . وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفبر) تحدث سيمون الى

الحكومة فتبنى جميع تفاصيل اقتراحاتي التي طرحتها في كانون الثاني (يناير) . ولكن عندما اقبل منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) وترجمت الحكومة هذه المقترحات الى اتفاقية عالمية مصدقة وموقعة ، كان الوقت متأخراً جداً ، اذ أنهت الحكومة الألمانية الموجودة عملها بحلول حكومة هتلر محلها . وكان عامل الوقت هنا حاسماً ، مثله في السلم كمثله في الحرب سواء بسواء . علاوة على ذلك ، فقد طرح هتلر الاجابات أوضحها على انتقادات مفهوم نزع السلاح النوعي . كما دحض الذريعة التي طرحت بأنه ليس هناك اسلحة خاصة يمكن وصفها بأنها اسلحة هجومية اكثر من غيرها . فقد كشفت المحفوظات (الارشيف) الالمانية عندما تمت مصادرتها وفحصها بعد الحرب العالمية الثانية ، ان هتلر اصدر اوامر معينة لاعادة تسليح المانيا وفق برنامج يمكن له (التركيز على الاسلحة الهجومية ، وبصورة رئيسية منها المدفعية الثقيلة والدبابات الثقيلة). وفي التوجيهات التالية ركز هتلر على الدبابات الثقيلة اكثر من المدفعية .

لم تحاول بريطانيا بذل جهود مشابهة لتطوير الدبابات المتوسطة او الثقيلة ، حتى بعد ان انهار مؤتمر نزع السلاح . ولم يسبق لوزارة الحرب قبل عام ١٩٣٧ ان اتخذت خطوات ايجابية لانتاج اي نوع من الدبابات استعدادا لحرب الحركة سوى ما كان لديها من الدبابات الخفيفة . ونتيجة لذلك لم يتم ايضا تسليم اول دفعة صغيرة من الدبابات المتوسطة حتى عام ١٩٣٩ اي قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب وفي تلك الفترة ، كان الألمان قد انتجوا مئات الدبابات من نماذج افضل في تجربتها .

توضح هذه الحقائق بصورة واضحة جداً ، انه كان من الأفضل بكثير لانكلترا وللغرب لو امكن التضحية ببعض الدبابات من وزن ١٦ طن مما كان متوفراً في عام ١٩٣٢ وذلك حتى يستطيع الغرب ـ وانكلترا ـ الوقوف في موقع افضل لتحقيق الهدف العظيم في ضمان اتفاق عالمي لنزع التسلح دون تأخير او ابطاء . ولو امكن وضع مثل هذه الاتفاقية موضع التنفيذ لأمكن ـ على الاقل ـ وضع هتلر في موقف صعب يعيقه عن تطوير الوسائط الضرورية لتحقيق النجاح في تحركاته العدوانية .

الفصل التاسع

تطورات عسكرية حديثة

ظهر في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢ مجلد آخر من التاريخ الرسمي البريطاني لحملة الجبهة الغربية وكان هذا المجلد يغطي عمليات نصف السنة الأولى من عام ١٩١٦ ، وبداية هجوم السوم وقد ذهب الجنرال ادموند ـ الذي كان قد بلغ السبعين تماما من عمره ـ الى مسافات بعيدة في كشفه عن المفاهيم الخاطئة ، وتقديرات المواقف السيئة مما كانت تقع فيه اعلى القيادات ، وقد تجاوز في ذلك ما فعله في المجلدات التالية ، ثم بعد ان اصبح اكثر تقدما في العمر ، واكثر ميلا لتبرئة القيادة من اخطائها في انظار رفاقه القدامى واخلاصا منه لحرفته وتعود ان يقول (انه لا يستطيع ذكر الحقيقة بصراحة في تاريخ رسمي ، ولكنه يأمل ان تكون هذه الحقيقة واضحة لاولئك الذين يستطيعون قراءة ما بين السطور) لكنه كان في هذا المجلد قد عمل على ابراز الاخطاء بدرجة كافية من الوضوح جعلت من السهل علي تمييزها واستخلاصها ، ومن ثم التنويه اليها عند مراجعتي للمجلد المذكور

لقد جاء ظهور المجلد وكأنه صدمة أصابت ميلن ـ الذي كان خلال تلك الفترة من الحرب في مكدونيا ، وكان ذلك حافزاً له ـ وليس بسبب اهتمامه الشخصي ـ ليعمل على تشكيل لجنة في وزارة الحرب بهدف دراسة الحرب واستخلاص ما يمكن تطبيقه بصورة ملائمة في (دليل التدريب للجيش) وفي التدريب العملي واسندت رئاسة اللجنة الى رتبة عالية ـ الفريق وولتر كيرك ـ مع ٧ أعضاء كلهم برتبة لواء أو من المرشحين لرتبة لواء

وقد طلب الي عدد من أعضاء اللجنة طرح وجهات نظري بشأن هذا الموضوع وبصورة خاصة منهم اللواء برتي فيشر الذي كتبت بناء على طلبه مذكرة ضمنتها ما خيل الي انه من اكثر الدروس اهمية .

أطلعني فيشر في الشهر التالي على الأوراق المختلفة التي كتبها هو بنفسه وكذلك ما كتبه اعضاء اللجنة ، وطلب إلي دراستها بعمق ، وابداء ملاحظاتي بشأنها . وشعرت بالسعادة وانا أجد وجهات نظره متوافقة مع وجهات نظري . وكان أفضل ما في الأمر ان التقرير المشترك النهائي للجنة قد تبنى معظم النتائج التي استخلصتها وكانت بعضها مكررة بحرفيتها .

كانت اولى الدروس الأساسية هي ابراز الحاجة الرئيسية لتحقيق المباغتة ، ووسائط تحقيقها ، وتطوير الهجمات الليلية ، وتحويل (فتح الثغرة) الى (اختراق عميق) عن طريق التطوير الفني للتسارع في استثمار الظفر ، وبالاستخدام للقوات الآلية (الميكانيكية) الكاملة ، والمدعمة بالطيران الانقضاضي ، وباستخدام اسرع وسائط الاتصالات الداخلية ، مع التطوير الكامل للأجهزة اللاسلكية ، وكذلك تحقيق المزيد من اندفاع القيادات نحو الامام ، مع ممارسة الحد الأدنى من الأوامر التفصيلية . وكانت النقاط الأخرى تعالج الحاجة لتطوير تقنية الهجوم المضاد والتدريب عليه . والحاجة لتخفيف حمولة جندي المشاة ، وتجهيزه وكأنه بطل رياضي ، وكذلك الحاجة لتبسيط تمارين المشاة ، وتجديدها متى تتوافق مع الاساليب التعبوية (التكتيكية) الحديثة .

كان القسم المتوافق بحرفيته مع عباراتي هو (اهمية المباغتة) وكانت خلاصته هي التالية : لا بد لنا نتيجة للدراسة وان نتأثر بالأهمية الكبرى للمباغتة في الهجوم او في الدفاع على حد سواء .

اننا نعتبر ان اعظم درس يمكن استخلاصه من الحرب العالمية الاولى هو عدم احتمال قيام الهجوم في الحرب الحديثة ، او الوصول الى النجاح المطلوب ضد عدو يحتل مواقعه الدفاعية ، ما لم يتم شل قدرته على المقاومة بواسطة اما :

(أ) بعض أشكال المباغتة . او الحصول على :

(ب) التفوق الناري بدرجة كافية لتحقيق تأثير يعادل تأثير المباغتة .

وتكون النتيجة هي ان التحركات الليلية قد تكون في كثير من الاحيان الوسيلة الوحيدة للحصول على المباغتة التعبوية (التكتيكية) . ويكون الهجوم الليلي اكثر الوسائل

اقتصادا في القوى عند تتويجه بنصر تعبوي (تكتيكي) . . .

اننا بالنتيجة من انصار الرأي القائل ان (أدلة التدريب) تحتاج لايضاح اكثر والتركيز بقوة اكبر على الأهمية الحيوية للمباغتة وعلى التقرب غير المباشر ، ونقترح اضافة مقطع الى (قواعد الخدمة في الميدان) . . . لتحقيق الاثر التالي :

(ان القائد الذي يحدد الهجوم ثم يفشل في تحقيق المباغتة ، انما يفقد الميزة الاساسية التي يوفرها له الهجوم) .

اما بشأن المباغتة الدفاعية . . مفاده ما تستقطب اهتماما كافيا ولو لم تتم ممارستها خلال فترة الحرب ، وكذلك رغم عدم اهتمامنا بها خلال التدريب في ايام السلم .

ونتيجة لذلك فان اساليبنا الهجومية تتطلب اعادة صياغتها ، نظراً لأنها لا زالت تتضمن نقاط الضعف ذاتها .

تضمنت الفصول الاخرى مزيداً من الانتقادات ، المباشرة منها وغير المباشرة ، لسلوك القيادة العليا وعملها خلال الحرب . وكان ذلك اكثر ما يستثير الانتباه ، واكثر ما كان يشرف برتي فيشر بصورة خاصة ، الذي كان القائد المعاون للجنرال هيغ والذي أصبح الآن موضع ثقته .

لقد عبر ميلن عن تصميمه لنشر تقرير لجنة كيرك ، او على الأقل اصداره وتوزيعه بشكل يضمن توفره لجميع الضباط من اجل دراسته . ولكن عندما اصبح هذا التقرير جاهز للاصدار في عام ١٩٣٣ ، جاء مونتغومري ميسينغبورد ليخلف ميلن في منصبه كرئيس لهيئة الاركان العليا ، ونظرا لان مونتغومري كان هو رئيس الاركان السابق للجيش الرابع اثناء هجوم السوم ، فقد كان لديه اكثر من سبب (للتحسس) من كل ايضاح (للدروس) التي تعكس بصورة عدوانية ما تضمنته مخططاته (من اخطاء) . وكان قد احتج قبل ذلك على ما تضمنه التاريخ الرسمي من انتقادات ، ولكن احتجاجاته لم تحقق اي نجاح ـ ولهذا فانه لم يعد من الغريب او من المباغت الا يكون راغباً في توزيع اكثر من عدد محدود جداً من تقرير لجنة كيرك .

لقد اعتبر التقرير وثيقة سرية ، وذلك بدلاً من وضعه ليكون في متناول الجيل الجديد من الضباط الذين حرموا من خبرة الحروب الحقيقية ، وليكون موجهاً لهم . وتم انتقاء مقتطفات فقط ، ذات طبيعة عامة ، وطبعت ، ولكن حتى هذه المقتطفات ، لم توزع الا على مستوى قادة الأفواج . وهكذا اسدل ستار حجب أضواء ـ تقرير لجنة

كثيرك . عن اعين الجيل الجديد من الضباط الذين سيكونون قادة المستقبل ، وكانـوا في حاجة كبيرة لتوجيهاته ، من أجل تجنب الأخطاء الاساسية على الاقل والتي كان يجب عدم الوقوع فيها .

لم يحاول اكثر من عدد من الضباط القادة ، بذل جهود لتطبيق توصيات ما تضمنه التقرير ، وكان هذا هو اكثر ما يخيب الآمال ، على الرغم من ان التقرير قد اكد بوضوح قيمةالعمل الليلي ، وابرز اهمية التوسع في التدريب عليه . وكان آرشي ويفل هو واحد من هذا العدد القليل الذي طبق التوصيات عندما كان قائدا للواء المشاة التجريبي السادس في منطقة آلدرشوت . ولكن ما من واحد طبق التوصيات على نطاق واسع بمثل حماسة تيم بايل الذي كان قد عين على التولممارسة عمل مختلف في تدريب المشاة كقائد للواء القنال في مصر ، وحرمت عملية تطوير الجيش الى (جيش ميكانيكي) من القوة الدافعة التي كان يمارسها تيم بايل في الضغط على وزارة الحرب . وكان قد انتقـل من منتخـب الفرسـان الملكيين للمدفعية ، الى فرقة الدبابات الملكية عند انشائها في عام ١٩٢٣ ، وها هو الان ينطلق الى منعطف جديد في تكتيكات المشاة ، وهو المنعطف الذي شجعه على اقتحامـه ودعمه فيه جوك ـ بورنيت ـ ستيوارت الذي أصبح القائد الأعلى للقوات البريطـانية في مصر .

أعلمني تيم بايل في رسائله ، وأثناء زياراته لانكلترا ، بما كان يبذلـه من جهـود لتطوير (الاحساس الليلي) . وانه قرر عند وضع مخطط الموسم التدريبي (تنفيذ الاعمال القُتالية بكاملها في الليل ـ والنوم في النهار) . وكانت الوحدات تفقد اتجاهها في الليل ، وتتعرض للضياع ، وعلى هذا فقد اتخذت الترتيبات للانطلاق مدة ساعة تقريباً في كل ليلة للتوغل في الصحراء ، والمحافظة على الاتجاه حتى الوصـول الى الهـدف ، وذلك خلال الموسم التدريبي وخارج اوقات المناورات ، وقد عمـل تيم بايل بعـد ذلك على تنـظيم المسيرات الليلية في منافسات بين الفصائل حيث كان على كل فصيلة قطع مسافة ثلاثين ميلاً تنتهي بعملية استطلاع للهجوم على موقع دفاعي . وكانت تمنح علامات التقدير على اساس السرعة ، والمحافظة على الاتجاه ، والصمـت والميزات النـوعية الأخـرى . وقـد نجحت اسرع الفصائل (من اصل ٢٧ فصيلة متنافسة) في تجاوز المسيرة ، والاضطلاع بالواجب خلال فترة ٣ ساعات . وبعد ذلك ، تم تطبيق هذه الاختبارات على مستوى السرايا والأفواج .

كانت الظاهرة المميزة هي بروز عدد كبير من الضباط الذي خدموا تحت قيادة بايل

خلال تلك الفترة ، وعرفوا بتفوقهم في الحرب التالية ، وفي ذلك المسرح من مسارح العمليات . وكان أحد قادة الكتائب المميزين هو « برنارد مونتغومري » الذي تولى بعدئذ قيادة لواء دورويكشاير الملكي الأول . وكان « مونتي » يشك في البداية بشأن نجاح التطبيق العملي لأعمال القتال الليلية ، وبصورة خاصة عند تنفيذ هذه الاعمال على نطاق قوات كبيرة . وكان يميل الى الزعم بأن ذلك قد يقود الى مصادفات سيئة وربما الى اضطراب مدمر - وهي وجهة نظر عبر عنها خلال مناقشاتنا المتبادلة عندما كنت أكتب دليل تدريب المشاة في عام ١٩٢٠ . وكذلك عندما كان يكتب من جديد الاصدار الثاني - والوحيد - لذلك الدليل بعد عشر سنوات (١٩٣٠) . ولكن تيم بايل جابه مزاعمه وادعاءاته بحزم « ووبخه باسلوب لاذع » وطلب اليه « التكيف مع اعمال القتال الليلي » . ولم تمض فترة طويلة بعد ذلك ، حتى عمل مونتي تحت الضغط على قيادة مسيرة تقرب طويلة في الليل وعبر الصحراء للهجوم على موقع يدافع عنه فوج من حرس المشاة التابع للواء آخر ، واستطاع مباغتة الموقع الدفاعي ، والسيطرة على الحامية المدافعة عنه (ووضعهم في الكيس) بحسب تعبيره في التقرير الذي رفعه الى بايل في رسالة تفيض بالبهجة .

أصبح « مونتي » اعتباراً من تلك اللحظة متحمساً لمذهب القتال الليلي . وعند عودته الى مصر في عام ١٩٤٢ للاضطلاع بقيادة الجيش الثامن ، استخدم العمليات الليلية بصورة متكررة ، وكان ذلك اسلوبه في الاختراق العميق داخل المواقع الدفاعية المعادية - من العلمين حتى تونس .

حمل لي تيم بايل في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣ ، اثناء زيارته لانكلترا ، دعوة مؤثرة من جوك ستيوارت للذهاب الى مصر في شتاء تلك السنة من أجل رؤية التمارين . ثم اتبع جوك ستيوارت هذه الدعوة بمزيد من الاغراء عندما عرض عليه انه سيتخذ الاجراءات لتكليفي بقيادة مجموعة لواء في احد هذه التمارين . وكانت تلك احدى ميزاته وخصائصه في الخروج بعيدا عن الاساليب التقليدية - ذلك انه ما من احد غيره ذهب الى ابعد من طلب مساعدتي لوضع مخطط او استشارتي في قضية كان يضطلع بأعبائها . وفي تلك الفترة ذاتها تلقيت دعوة مماثلة من الجنرال سير ارثور - ووشوب المندوب السامي والقائد الأعلى في فلسطين وشرقي الاردن ، والذي كان شديد الميل لاستخدام اساليبي التدريبية عندما كان قائد فرقة . وعلى هذا تم فيما بينهما الاتفاق على وضع برنامج مدته سبعة اسابيع لزيارتي في شهري شباط - آذار (فبراير - مارس) ١٩٣٤ بحيث تبدأ الزيارة بتمارين اللواء ، ثم الذهب الى النيل والعودة الى تمارين القيادة ، وكان علي بعدها الذهاب الى القدس والاقامة مع

ووشوب وزيارة قوة الحدود الاردنية ايضاً . وكان علي لسوء الحظ ، ارجاء برنامج الزيارة ، وتأجيله بسبب تطورات اكثر الحاحا حدثت في انكلترا . وعلى الرغم من تحديد الزيارة لتتم خلال الفترة ذاتها من السنة التالية . فقد كان عليّ الغاؤها ايضاً بسبب تعييني في حينها كمراسل عسكري لصحيفة التايمز . وكان علي البقاء في دائرة الضوء لمعالجة برنامج اعادة التسلح مع الحكومة ، مع معالجة المشكلة الملحة لاعادة تنظيم الجهاز الدفاعي . وأصبحت مثل هذه العوائق ظاهرة تتكرر في كل شهر آذار (مارس) من كل سنة ، بعد تسلم هتلر للسلطة وتطبيق عادته في بدء التحركات الجديدة في ذلك الشهر اعتبارا من عام ١٩٣٥ وما بعده .

كنت أكثر الناس اسفا لضياع فرصة حضور التمارين في مصر ، ذلك لأن تلك التمارين ، وما كان يسبقها من تدريب لتنفيذها ، قد استمرت لاشباع الافكار والأساليب التي طالما دافعت عنها خلال فترة طويلة . وقد كان اعتقادي الخاص بأهمية العمل الليلي يعود الى زمن هجوم السوم في عام ١٩١٦ .

كانت الهجمات الليلية نادرة جدا ايام الحرب العالمية الأولى . وكان هناك ثمة اعراض عام ومقاومة لتجربة مثل هذه المسيرات الليلية التي ظهرت غريبة بسبب هيمنة المدافع الرشاشة على أرض المعركة ، وكان ذلك هو العامل الرئيسي الذي تسبب في حدوث المأزق المتطاول خلال فترة الحرب - والذي كثيراً ما تحول الى جمود قاتل في ظروف عدم الوضوح في الرؤيا للخروج من المأزق . وبعد ذلك ، ونظراً لوجود اعتراف عالمي بصعوبة الهجوم النهاري على عدو متخندق في مواقع جيدة . فقد تم اهمال احتمالات الهجوم تحت غطاء الظلام - باستثناء الهجمات الصغرى والاغارات - . واستبدت بالقادة من جميع الرتب فكرة على نحو غير سوي بأخطار الفوضى والضياع ، فاختاروا اعادة الخطر الأكبر - وهو خطر محقق - ولجأوا الى الغاء الهجمات الليلية من برامج تدريب وحداتهم .

كان احد الاستثناءات القليلة لهذه القاعدة في الامتناع عن أي عمل ليلي على نطاق واسع ، هو ذلك الهجوم الالماني على موقع النسق الثاني لقوات الحلفاء في السوم وذلك في منتصف تموز (يوليو ١٩١٦ . وكان من خوارق الطبيعة رؤية التضاد بين منظر ميدان المعركة في الاول من تموز (يوليو) حيث كانت العصائب الكثيفة من الألبسة الخاكي تفيض كثيراً بحجمها على تلك الالبسة الميدانية ذات اللون الرمادي ، وبين منظر ميدان المعركة في ١٤ تموز (يوليو) حيث كانت النسب بين الألوان معكوسة بصورة ظاهرة تماماً .

لقد كان لتلك الصدمة في عام ١٩١٦ تأثيراتها العميقة على تفكيري التعبوي

(التكتيكي) . وعندما توفرت لي الفرصة بعد الحرب لكتابة دليل تدريب المشاة . عملت على ايضاح قيمة العمل الليلي ، وقيمة الستائر الدخانية ، لتحقيق المباغتة في جميع اشكالها . وعلى الرغم من اقدام وزارة الحرب على اسقاط الكثير من العبارات التي جاءت في المسودة ، قبل اصدار الدليل بصورته النهائية ، فقد بقي من بين النقاط التي اوضحتها خلال تلك الفترة العبارة التالية (تتفوق ساعة الظلام بميزاتها على ميزات الستائر الدخانية التي تساعد على تحقيق المباغتة الزمنية ـ ذلك ان الدخان يحذر العدو ـ سواء بالنسبة لاتجاه الهجوم او بالنسبة لتركيز القوى وحشدها .

عندما بدأت في الاعداد لكتابة تاريخ الحرب ، والذي تم نشره بعد عشر سنوات تقريبا . أصابني الذهول للتواتر في توافق الظروف الضبابية عند بداية اكثر الهجمات الناجحة وقد أهلتني هذه الملاحظة لوضع تحليل يشمل جميع الاعمال الهجومية التي نفذت على الجبهة الغربية خلال الحرب . وأصبح من الواضح ان الضباب ـ الذي يوفر ساعة من الظلمة للوحدات القائمة بالهجوم ـ هو الذي ضمن تحقيق النصر في كل مناسبة تقريبا لاجراء اختراق سريع وعميق . ولقد رافق الضباب ساعة قيام الهجوم الافرنسي قريبا من السوم في صباح اليوم الأول من تموز (يوليو) ١٩١٦ . ورافق الضباب ايضا النجاح الكبير الذي حققه الهجوم الافرنسي في فردان خلال فصل الخريف من تلك السنة ، وهو الهجوم الذي أعاد بضربتين سريعتين القسم الاكبر من الأرض المفقودة خلال الهجوم الألماني المستمر من شباط (فبراير) وحتى تموز (يوليو) . وقد ضمنت ساعة الضباب للبريطانيين تحقيق المباغتة في ضربتهم الموجهة الى كامبري « في تشرين الثاني » نوفمبر ١٩١٧ . وكان الضباب حليفا لعمليات الاختراق العميق الألمانية في عام ١٩١٨ ولكن الضباب كان غائبا عند تنفيذهم لهجماتهم الثلاثة الأخرى التي تم احباطها في ٢٨ آذار (مارس) و٩ حزيران (يونيو) و١٥ تموز (يوليو) .

وكان الضباب كثيفا أيضا عندما عمل لصالح البريطانيين في صباح ٨ آب (اغسطس) ١٩١٨ ، كما ساعد الضباب الفرقة ٤٦ على اختراق خط هندنبرغ في ٢٦ ايلول (سبتمبر) . وتلك هي بعض من أبرز النماذج المذهلة ، والأمثولات الواضحة .

ان تأمل هذه الحقائق يفترض على المخططين عدم الاعتماد دائما على الضباب ، بسبب طبيعته ، لاسيما في الصيف ، حيث تكون الظروف الأخرى اكثر ملاءمة للهجوم ـ ويجب بذل اعظم جهد ممكن لاكتشاف امكانات تبادلية لتوقيت الهجوم . وقد كانت احدى هذه الامكانات المتوفرة هي انتاج ضباب صناعي ، عن طريق ايجاد وسائل لتطوير ستائر

الدخان حتي تكون على نطاق اكبر بكثير . والامكانات الاخرى هي استخدام الظلام ـ ويتضمن ذلك الحساب اليومي لساعات الظلام . وقد بدأت خوض معركة لابراز الطاقات الكامنة والميزات المتوفرة لكل من الاسلوبين بعد وصولي لهذه النتائج مباشرة . وطالبت من اجل اجراء التعادل بين الاسلوبين العمل : اولاً ـ على اعادة النظر بعمق في اسلوب تدريب العمليات الليلية . ثانيا ـ اجراء ابحاث علمية لتوفير امكانات انتاج ضوء قمر اصطناعي يستطيع عند الحاجة تلبية المتطلبات وبصورة خاصة من اجل استثمار الاختراق الأولي للمواقع المعادية .

عملت على تلخيص ذرائعي في محاضرة بعنوان (مستقبل المشاة) بعد ان طلب إلي ذلك الجنرال سير سيسيل رومر ، القائد الأعلى الجديد للمنطقة الجنوبية ، من اجل القائها في تيد وورث ـ على الضباط في تلك المنطقة وذلك في وقت مبكر من عام ١٩٣٢ .

لقيت مقترحاتي قبولا حسنا عند رومر ، كما تقبلتها القيادات الأخرى بصورة ملائمة . وبدأت التجارب في السنة التالية على اتجاهين اولهما لايجاد الوسائل من اجل انتاج اضاءة اصطناعية لميدان المعركة للمساعدة في استثمار الاختراق . وثانيهما لتجهيز الدبابات بمصابيح كشافة قوية في مقدمتها بحيث يمكن استخدامها اما للحصول على الدقة عند استخدام السدنه لمدافعهم في الرمي الليلي ، او من اجل منع سدنة المواقع المضادة للدبابات في صفوف العدو عن طريق تسليط الضوء الباهر الذي يخطف ابصارهم . ولكن المخصصات المالية المطلوبة لهذه الابحاث كانت زهيدة جدا بحيث لم تكن كافية لانجاز التجارب وللاقتراب من الهدف الذي كان يتطلب المزيد من الجهد . والمزيد من النفقات .

لقد تأخر تطوير ضوء القمر الاصطناعي كوسيلة للمساعدة في العمليات الليلية بحيث لم يظهر استخدامه في ميدان المعركة قبل غزو النورماندي في عام ١٩٤٤ . واعتبارا من ذلك اليوم مارس القمر الاصطناعي دورا هاما ، في الأعمال القتالية وبصورة خاصة خلال المراحل الأخيرة من الحرب . وقد نسب مونتغومري اليه دوراً هاماً في عملياته ، وابرز قيمته في برقيته الأخيرة (ان الاتجاه للعمل ليلا بصورة متعاظمة ـ قد اصبح سهلا الى حد بعيد بفضل ضوء القمر الصناعي) .

أما الامكانات الثانية لتطوير مصابيح خاصة بالدبابات من اجل استخدامها في الهجوم الليلي ، فقد ظهرت على انها اقرب الاحتمالات للتنفيذ ، وذلك عندما قدم الضابط البحري المتقاعد ، الرائد ثورن ، نموذجاً لوزارة الحرب في عام ١٩٣٣ يمكن له العمل

كوسيلة من اجل زيادة الضوء الساطع الذي يخطف الابصار . كما أصبح فوللر بعد تقاعده وخروجه من الجيش . مستشارا لمؤسسة خاصة تعمل على تطوير الأجهزة وفي عام ١٩٣٧ حمل فوللر الى وزارة الحرب التصميم الملائم ، ولكن الجهود المبذولة والأموال المخصصة لتطوير هذا التصميم في السنوات القليلة التالية كانت زهيدة جداً بالمقارنة مع القدرة الكبيرة المطلوبة . وعلى الرغم من ان الموافقة على تخصيص مبلغ اكبر بكثير قد تأخرت حتى عام ١٩٤٠ ، إلا ان موقف الشك استمر في الهيمنة على كثير من القيادات ، وبصورة خاصة في وسط القادة (الجنرالات) الذين قد يستفيدون من هذا الدعم . الجديد . وجاء نطاق السرية المتعاظم ليشكل عقبة اضافية ، فقد تردد القادة في الاقدام على مجازفة استخدام جهاز لم يخضع نسبيا للاختبار . هذا على الرغم من تجهيز لواءي دبابات بما كان يطلق عليه اسم (قناة الاضواء الدفاعية) . ق . ض . د ولكن استخدام هذه الاجهزة الضوئية كان يتأجل باستمرار ، بحيث لم يتم استخدام أي من هذه الدبابات لتنفيذ واجباتها الخاصة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية .

* * *

تضمنت محاضرتي (مستقبل المشاة) الى جانب دفاعي عن الهجوم الليلي ، والوسائط الجديدة المطلوبة لهذه الغاية ، تضمنت عددا من المقترحات لزيادة الفاعلية التعبوية (التكتيكية) لذلك السلاح ، وتابعت ايضاح ذلك :

لا يمكن للمشاة ـ حتى ما كان منها من أفضل المشاة الخفيفة ـ ان تحل محل الحاجة للفرسان الحديثة (ذلك لانها لا تستطيع الضرب بسرعة كافية أو اجراء المطاردة العميقة بصورة فورية) لحسم المعركة . والشرط الوحيد الواجب توفره حتى تستطيع المشاة الاضطلاع بهذا الدور هو أن تأخذ المشاة شكل القوات الراكبة ، وان تكون راكبة بكاملها في مركبات مدرعة صغيرة . ويمكن لمثل هذه القوات ان تكون من رجال المدرعات الخفيفة عندما تعمل كقوات راكبة ، أو كمشاة خفيفة عندما تعمل وهي راجلة .

بعد اقتراح مثل هذه التطورات كهدف رئيسي لتنظيم المشاة الآلية (الميكانيكية) المدرعة انعطفت الى (القضية المباشرة) للخطوات التي يمكن اتخاذها بهدف التنظيم الحديث للمشاة ، وبعث حيويتها وفاعليتها . وكانت نقطتي الأولى هي (انه يجب العمل على النور لتصنيف المشاة ضمن طبقتين ـ المشاة الثقيلة والمشاة الخفيفة ـ ويلائم الشكل الأول اعمال الدفاع فقط . (إذ أن حمل المشاة الثقيلة على الهجوم في ميدان معركة حديث ، انما هو بمثابة دعوة لذبحها ، وهو أمر يتشابه مع ما كان يقوم به اقطاعيو الفلاحين عند

دعوتهم لمجابهة الفرسان المرتدين للدروع) . وعلى هذا يجب ان يكون القسم الخاص بقتال المشاة الراجلة ، مكونا من المشاة الخفيفة او المتحركة وذلك في جميع الفرق العاملة التي يطلب اليها في المستقبل التوجه للقيام بالحملات المقاتلة . كما يجب ان تكون افواج المشاة جميعها في الجيش النظامي منظمة وفق هذا النموذج . ان جيش الحدود هو الذي يؤمن (حاميات المشاة) التي تضطلع بواجب حماية خطوط المواصلات والواجبات المختلفة الأخرى ذات الطابع الدفاعي . ولكن يجب توفير الفرصة أمام أفضل وحدات المشاة تدريب في هذا الجيش للاضطلاع بأكبر دور ممكن (كمشاة خفيفة) .

تضمنت مقترحاتي لتكوين المشاة الخفيفة وبعثها ، مجموعة من الإيضاحات في اقسام متتابعة تعالج الأسلحة والتجهيزات ووسائط التحرك والتنظيم والاساليب التعبوية (التكتيكية) والتدريب .

لقد طالبت أن يكون للمشاة الخفيفة ، أسلحة خفيفة ، عند قتالها على الاقدام . إذا ما أريد لهذه المشاة ان تكون على درجة كافية من المرونة وخفة الحركة . وأوضحت في هذا المجال الحاجة للبارودة الخفيفة في وزنها . وذكرت ان (الرصاصة من عيار أصغر ستكون على درجة كافية من الفاعلية) وأن زيادة الوزن في البارودة المستخدمة - آنذاك - انما كانت في قسم منها نتيجة للشرط المطلوب توفره في ان تكون البارودة على درجة كافية من القوة لاحتمال الضربات القوية التي تتعرض لها في تمارين النظام المنضم (أو العرض والاستعراض) . حيث كان صدى قعقعة السلاح ، وضربة الأخمص على الأرض ، هي المؤثرات المثيرة للبرهان على دقة التمرين . ان للبارودة نصف الآلية ميزاتها ، ولكن تبنيها يخضع لعامل الوزن . وان اكبر مشكلة يمكن مجابهتها هي امكانات تجهيز المشاة الخفيفة بالأسلحة النارية الآلية (الاوتوماتيكية) . فالسلاح الذي يستهلك الذخيرة دون حساب يتطلب تزويده بالذخيرة ايضا دون حساب ، وهذا يعني زيادة في الوزن . وعلى هذا فانني اقترح مبدأ أساسيا للمشاة ، وهو أن تسليحها يجب ان يقتصر فقط على الأسلحة الآلية - الاوتوماتيكية - عندما يكون بالمستطاع تحميلها على ناقلات الجند الآلية (الميكانيكية) .

بالنسبة للثياب والتجهيزات ، يمكن القول ، ان حقيبة - البغل - لم تتجاوز في ثقلها ما يعادل ثلث وزن الجسم ، في حين كانت حمولة رجل المشاة في الحرب الأخيرة (العالمية الأولى) ترتفع حتى ثلثي وزن جسم الانسان ، وبقيت هذه الحمولة حتى عام ١٩٣٢ معادلة نصف وزنه تقريبا بصورة متوسطة . وهناك دليل يمكن الأخذ به ، واقتباسه عن الفرسان ، فقد تبين ان الوزن الأقصى الذي لا يمكن ان يعيق التحرك هو ربع وزن

جسم الحصان . ويشير ذلك عند تطبيقه على حمولة الرجل - ان تكون الحمولة في حدود ٣٠ ليبرة . وكل حمولة اضافية يجب الاعتماد في نقلها على المركبات . واقترحت - في حينها - الأخذ بمبدأين اضافيين وهما ان تسمح له ثيابه وتجهيزاته بحرية الحركة ، وأن يتم تجنب كل ما من شأنه اعاقته . وعلى سبيل المثال . ألا يكون هناك ما هو معلق أو متدل دون تثبيت وبصورة خاصة تحت الورك .

ذكرت عند العودة الى وسائط الحركة ، ان مسير الجندي على الطريق قد أصبح في عالم الآليات عبارة عن صورة من مخلفات الماضي وبقاياه . (وأن الاتجاه الحديث للحركة هو في استخدام السيارات - لاجراء التحرك الاستراتيجي) . وهناك ثمة احساس مشترك ومجرد وهو أن الرجال في سياراتهم يستطيعون الوصول الى مواقعهم قبل وصول الرجال الذين يسيرون على اقدامهم . كما ان بأستطاعتهم بأعداد اكبر - وبقدر ما يمكن تأمينه من مركبات كافية للنقل . ولكن وفي جميع الحالات يمكن لعدد قليل يحتل موقعا ولديه قدرة على الدعم ، أن يضمن شروطا في التفوق على عدد اكبر يصل بصورة متأخرة ، وتجابهه مشكلة تجاوز هذه القوات . وفي النهاية ، فانه من غير المعقول ألا يتم الاستخدام الكامل لوسائط النقل الآلية من اجل نقل المشاة في كل حرب مقبلة . فقد تتخلف الجيوش عن ظروف المدنية ، وقد تقف وراءها ، ولكنها لا تستطيع أن تتجاهلها .

ان ذلك يقود الى مشكلة وهي كيفية تكوين افواج (المشاة الخفيفة) وتنظيمها ضمن حدود الوسائط المتوفرة بصورة مباشرة . ولقد كانت النسب والعلاقات التي اقترحتها لتكوين القوة وتنظيمها هي سرية من العربات الخفيفة لحمل الرماة ، وسرية آلية (ميكانيكية) من أسلحة الدعم ، وسرية احتياطية محمولة على السيارات ، ويمكن لهذه الأخيرة (تحميلها بعربات كبيرة نسبية ، ويفضل ان تكون من النموذج القادر على العمل في جميع الأراضي - بحيث تكون مجنزرة « على سلاسل » أو على ست عجلات) وتابعت طرح المقترح التالي (ويبقى من الأفضل - أن تكون السرية في فرقة المركبات الخفيفة مقسمة الى قسمين ، وكذلك الأمر بالنسبة للسرية الاحتياطية) وهذا قد يكون في الحقيقة اكثر تلبية لظروف المعركة ، لأنه يضمن في وقت واحد الحلول التبادلية لما تحتاجه عمليات التقرب ومن ثم استثمار الظفر . وقد ولدت من هنا فكرة النموذج التنظيمي (الخماسي) إذ أن النسب الخماسية ضمنت زيادة المرونة التعبوية (التكتيكية) ، والتي كنت قد ابرزتها بجميع تفاصيلها بعد ذلك بعشرة أعوام - والتي امكن بعد عقد آخر من الزمن تبنيها في كل من جيوش أمريكا ، فرنسا ، واستراليا والباكستان . (ولم تكن قوة مثل هذه الأفواج تزيد على خمسمائة مقاتل . . . ذلك ان زيادة العدد عن هذا الحجم من شأنه اعاقة الرقابة

والسيطرة ، كما ان الزيادة العددية تفرض أيضاً المزيد من النفقات مما يشكل عائقا لتأمين التجهيزات الخاصة بمثل هذه الافواج) .

ذكرت عند الوصول الى الاساليب التعبوية (التكتيكية) الخاصة بالنموذج الجديد للمشاة ما يلي « انه من الطبيعي استخدام اسلوب . « ناوش وتجول » على مستوى الافراد والجماعات ، أما على مستوى القيادة فيمكن الاستناد الى قاعدة التسلل في أفضل أشكاله المتقدمة ، والتي كنت قد ابتكرت لها اسما منذ اثني عشر سنة مضت ، وعمدتها بلقب (السيل الجارف) ، واعتبرتها هي الاسلوب المناسب للهجوم » .

لقد تم ابتكار الاسلوب حتى يتوافق مع حقيقة أن الدفاع الحديث عادة ما يكون منسقا بالعمق . وهذا يزيد من صعوبة معرفة قوة المقاومة عند اتخاذ الترتيبات الأولية للهجوم . وقد صمم هذا الاسلوب لضمان السرعة في التقدم الموضعي واستمرار هذا التقدم ، وهو اسلوب يضمن الوقاية ضد المقاومة المتماسكة للعدو المدافع . وتتعلق النتيجة الآن بمجموع التأثيرات لانهيار الوحدات الصغيرة في الكثير من المواقع الموضعية . . .

تكمن أفضل الفرص لهذه التأثيرات في استثمار الظفر والتقدم الذي يصبح مجرد عملية اندفاع آلية تبدأ على التتابع من الفصيلة وحتى المستويات العليا . نحتاج لهذه الغاية للوسائط التي تحقق الافادة من كل ميزة موضعية يمكن اكتسابها . مع انقاص تأثير كل فشل موضعي . ان اسلوب (السيل الجارف) يستند الى الظروف ـ التي لا يمكن تجنبها في الحرب ـ فالنجاحات في الحرب غير متوازية ، والتقدم غير متساو (في جميع الاتجاهات) .

يظهر هذا التقدم غير المتوازي بشكل ظروف سيئة . حتى أصبح من الشائع جداً ان يؤدي ذلك الى فشل التقدم (او المد) الناجح . ولكن بالامكان قلب هذه الميزات عن طريق تطبيق اسلوب (السيل الجارف) للتقدم . ففي هذا الاسلوب يستطيع كل قائد وحدة (سرية أوفوج أو لواء) أن يتحرك بصورة آلية (اوتوماتيكية) الى الأمام ومعه قوته الاحتياطية التي تدعم تقدم كل وحدة فرعية تحقق أفضل النجاحات .

عملت ايضا على تقديم عرض للطريقة التي يمكن اتباعها في ميدان المعركة وتطبيقها ، وذلك وفقا للمؤشر الوحيد الذي حددت ظلاله في الدليل الجديد لتدريب المشاة والذي كان قد اخرجه مونتغومري حديثاً .

وصلت بعد ذلك الى تدريب المشاة الخفيفة وقلت (اننا نحتاج كبداية لاصلاح تمارينا للنظام المنضم ، وهي التمارين التي ليست في واقعها اكثر من بقية بالية تعود لقرن

مضى من الزمن . ولا زالت تعيش في الحركات التعبوية (التكتيكية) الحالية . واننا لا نفقد عن طريق الاستمرار في تطبيقها عامل القيمة الزمنية فحسب ، وانما نعزز ايضا الغرائز الخاطئة في الحرب الحديثة . اننا نطور غريزة التراصف (النسق) عوضاً عن غريزة الاتجاه . وننتشر في خطوط وفي أرتال متقاربة عوضاً عن الانتشار في تشكيلات تعبوية (تكتيكية) حديثة . ان كل الفوائد الحالية التي تتم المطالبة بها لتطوير التدريب ، انما يمكن الوصول اليها عن طريق اصلاح اسلوب التدريب الذي يعتمد في اساسه على (تدريبنا للمعركة) والذي يستند ايضا الى الاساليب التعبوية الحديثة عوضا عن تلك الاساليب التعبوية (التكتيكية) التي تعود لأيام حرب القرم . ثم أوضحت ان هناك كثيراً من القيم التي يمكن تعلمها من تمارين الميدان للكشافة ، وطالبت أن يبدأ التدريب التعبوي (التكتيكي) للجندي فور تطوعه في الجيش بهدف تنمية غريزته (التكتيكية) التعبوية منذ البداية ، بحيث أنه ما ان ينهي (تدريبه) حتى يصبح من العسير عليه التصرف بشكل غير صحيح . ثم أوجزت مسيرة التدريب التعبوي الفردي . وأوضحت بصورة مختصرة الأهمية الخاصة لتدريب التقرب من أجل العمل الليلي ، كما وجهت تحذيراً للتدريب على الانسحاب (كتدبير دفاعي) وضرورته لدعم الروح المعنوية كواحد من الاساليب التعبوية (التكتيكية) الأرضية .

ذلك انه يفرض اختباراً نفسياً قد تفشل الوحدات في تجاوزه ما لم تكن مستعدة له ، وعلى هذا يجب ان يطبع في الذهن فكرة ان مثل هذه الانسحابات ما هي الا أشكال طبيعيه ، وانها تحركات تعبوية لها اهدافها . ولو طلب الى الوحدات التي أشبعت بفكرة الهجوم على انه الشكل الوحيد لأعمال القتال ، القيام بالانسحاب لتعرضت للانهيار . ومن هنا يجب على الوحدات التعود لتنفيذ الانسحاب منذ أيام السلم ، لتنفيذه بصورة أمنية وناجحة في الحرب اذا ما طلب اليها ذلك . وان اهمال هذا التدريب قد كلف الافرنسيين غالياً في عام ١٩١٤ ، كما انه أدى الى انهيار المانيا في عام ١٩١٨ .

ناقشت في النهاية القيمة النوعية المميزة لمهارات المشاة ، ودافعت عن هذه القيمة مستفيدا في ذلك من الدروس المستخلصة لحروب العصابات (غيريللا) بهدف تطوير المهارات ، وانتهيت الى القول :

ان من الخطأ القول أن تدريب المشاة هو أكثر انواع تدريب الأسلحة سهولة . وليس هناك كالمشاة ما هو في حاجة للمزيد من الفكر وللمزيد من المهارة ، اذا ما كانت راغبة في ممارسة دورها (في الحرب) بصورة ملائمة . وان السبب في صعوبة تدريب المشاة هو انها أقل اهتماما بعناصر العتاد من بقية الأسلحة . ان جندي المشاة يتعود على

استخدام سلاحه ، ولكن هذا الاستخدام يأتي تكميلياً لاستخدام الاساليب التكتيكية ولاستخدام الأرض خلال مرحلة التقرب من خصمه والوصول الى هدفه . ان تدريب المشاة ، التي هي في اساسها سلاح تعبوي (تكتيكي) ، انما تعني اجراء ممارسة فن من الفنون ، في حين ان تدريب الاسلحة الأخرى هو تدريب تقني للتطبيقات العلمية . ونتيجة لذلك فان جندي المشاة هو دون غيره من جنود الأسلحة الأخرى في مجال التقنية . ولكنه رجل فنان في الميدان . وهذا هو عنوان الشرف الذي يتوق الجندي للاضطلاع به في حرفة الأسلحة .

عملت على نشر هذه المحاضرة عن (مستقبل المشاة) مع بعض التوسع ، على شكل كتاب صغير « كتيب » وذلك بعد احد عشر شهرا (في شباط ـ فبراير ـ ١٩٣٣) وحمل الكتيب عنوان المحاضرة ذاتها . وقد تم استقبال الكتيب استقبالا حسنا في بريطانيا وفي امريكا أيضا . ولكن كانت المانيا هي اكثر الدول حماسة لهذا الكتيب ، اذ عملت على اصدار ترجمته ، وساعدت على انتشاره في الجيش ـ على نطاق واسع ـ وقد استخدم في تدريب الوية المشاة الآلية (الميكانيكية) في فرق البانزر بعد ان تم تشكيلها في عام ١٩٣٥ ، في حين عملت تنظيمات س . س . على تبنيه كدليل لها .

مضى أكثر من ربع قرن على نشر هذا الكتيب عندما تلقيت طلبا في عام ١٩٥٩ من مدرسة المشاة في جيش الولايات المتحدة الأميركية ـ في فورت بينينغ ـ لاعادة طبع الكتيب ، وجاء في هذا الطلب : (نظراً لأن الكثير من النتائج التي توصلت اليها في تلك الفترة لا زالت صالحة ، وصحيحة حتى اليوم على نحو ما كانت عليه يوم كتبتها ، هذا على الرغم من التغير الكبير الذي حملته معها الأسلحة النووية والصواريخ وبعض التطورات الثورية الأخرى) . وبعد ذلك بثلاثة اعوام تلقيت رسالة من مدرس المشاة في كلية الاركان الأمريكية (في كامبرلي) جاء فيها : (لعلها كتبت في عام ١٩٦٢) وعلى هذا فانه ليس من الضروري أن تصبح الافكار التعبوية (التكتيكية) قديمة لمجرد انتشارها ، على نحو ما هو مزعوم بصورة عامة .

خلال الفترة ما بين القائي لتلك المحاضرة وبين نشرها على شكل كتاب ، ظهر لي كتاب كبير ، تم نشره في تموز (يوليو) ١٩٣٢ ، وحمل عنوان (طريق بريطانيا الى الحرب) . وجاء ما تضمنه الفصل الأول تحديا للعقيدة الاستراتيجية والافتراضات التي أدت الى أجهاض معارك ١٩١٤ ـ ١٩١٤ والاستنزاف الذاتي فيها من خلال محاولة استخدام طريقة القصف الشديد والهجمات العنيفة عبر الجمود الذي هيمن على الجبهة

الغربية أما الفصول الأخيرة فكانت تعالج تطور القوات الآلية (الميكانيكية) وقدراتها كحل تبادلي متوقع لحروب المستقبل وذلك للخروج من المواقف الجامدة التي كان ثمنها باهظا

كان من بين التعليقات على هذا الكتاب ثلاثة تميزت بصورة خاصة بمضامينها ـ واسلوبها اللاذع التهكمي ـ عند التأمل فيها ، وقد جاءني التعليق الأول من الخبير ، والذي حافظ دائماً على مظهره كجندي ، وهو الجنرال سير يان هاميلتون وفيه (انك تعمل الآن على اذاعة عبارات حيوية في اللحظة النفسية الملائمة وستكون كل فكرة من افكارك بذرة او نواة ـ لإنبات خصيب ـ) أما التعليق الثاني فقد كتبه كومبتون ماكينزي في مجلة الكتب الصادرة عن الديلي ميل ـ والذي جاء فيه (بأن الحظ سيكون معنا اذا أعرنا انتباهنا الى ما يريد تعليمه لنا ، وسيكون من سوء حظنا ان نضع عبقريته تحت تصرف الأقاليم الأخرى التي تقوم كتبه بأفضل مما يقومها رجال بلده) وجاء التعليق الثالث من ألمانيا ، وعن طريق العقيد وولتر فون ريشنو (الذي أصبح فيما بعد برتبة فريق) والذي عمل على اجراء ترجمة خاصة للكتاب بهدف نشره بين الضباط الألمان ، وكتب (بأنني في كتبي لا أتبع النظريات الجامدة وانما اضع قواعد جديدة) وفي ايلول (سبتمبر) **١٩٣٩** (أي بعد سبعة أعوام) كان ريشنو يقود الجيش العاشر ـ الذي كان يضم كتلة الفرق الآلية (الميكانيكية) الألمانية ـ خلال حملة بولونيا وعمل على تطبيق (القواعد الجديدة) في تنفيذه للاختراق الحاسم حتى الوصول الى وارسو ولسوء الحظ ، فانه لم يكن هناك مثل هذا التقويم أو حتى الاعتراف ، بالتأثيرات التي يمكن الوصول اليها ، سواء في وسط القادة العسكريين البولونيين ، أو في وسط حلفائهم الغربيين وعلى هذا ، كان من السهل تماما على القوات المدرعة الالمانية تنفيذ عملياتها في عام **١٩٣٩** ، واعادة ذلك مرة اخرى في عام **١٩٤٠**

كان عام **١٩٣٢** مخيباً للآمال بالنسبة للدفاع عن قضية التحرك الآلي (الميكانيكي) ذلك ان التقدم المذهل الذي أمكن انجازه بواسطة لواء الدبابات المشكل في السنة السابقة قد حمل معه توقعا عاما في ان يكون هذا اللواء عاملا بصورة دائمة

لكن هيئة الأركان العامة طوت الاقتراح قبل قدوم السنة الجديدة وكانت الذريعة التي قدمت للصحافة هي انه قد تم تأجيل هذه القضية بانتظار ما سينتهي اليه مؤتمر نزع السلاح في جنيف ، ولكن تلك الذريعة لم تكن مقنعة ، نظراً لأن الدبابات الخفيفة من نموذج مارك ٢ ، وهي الدبابات الوحيدة التي كانت في سبيلها لتسليح الجيش ، كانت أقل

من وزنها وثقلها من أي حد يمكن تثبيته في جنيف . وكان السبب الحقيقي للتأجيل هو ان الاجنحة المختصة في وزارة الحرب عجزت عن اعادة تنظيم المعسكرات وايجاد الأماكن الضرورية لجمع الوحدات في منطقة واحدة قريبة من ميادين التدريب في سهول ساليسبوري- وذلك وفقا لما صرح به مفتش قوة المدرعات الملكية كنيث ليرد الى سلفه جورج ليندسي الذي نقل الى مصر كرئيس لهيئة أركان القوات البريطانية هناك .

كان أكثر ما ترغب هيئة الجيش الاستشارية في الوصول اليه هو أن يتم تدريب أفواج الدبابات جميعها - كلواء - تحت قيادة ليرد في الفترة ما بين تموز (يوليو) وايلول (سبتمبر) . ولكن هيئة أركان الجيش أظهرت اتجاها حديثا للعودة الى الفكرة القديمة للتعاون الوثيق بين افواج الدبابات وأفواج المشاة . وأصرت على ان تنفيذ مجموعة من تمارين ليرد لمثل هذه الممارسات العملية . وجاءت النتائج - على ما هو متوقع - غير معادلة لما تم بذله من جهود ، وغير متكافئة مع قدرة لواء الدبابات لمسيرة التدريب .

وتوفرت في الاسبوع الأخير فقط فرصة صغيرة لعمل اللواء كقوة واحدة ، وقد استخدم اللواء هنا لتجربة قدرته على المناورة الاستراتيجية ، حيث تم خلالها تغطية مسافة ٩٠ ميلا في تدريب مستمر لمدة يومين .

وكان هناك في المراحل الأولى من التدريب بعض من تمارين الأفواج الهامة لقتال الدبابة ضد الدبابة ، ولكن اكثر ما كان متألقا هو تجربة غير متوقعة لفوج دبابات خفيف في تطوير الاختراق العميق . ولقد فرضت هذه التجربة بقوة ان يتم العمل بمجرد اختراق مركبات القتال المدرعة للثغرة في المواقع المعادية ، للانطلاق بسرعة والتسلل (بحزم) حتى لا تتوفر للقوات المدافعة أي فرصه لسحب المشاة نحو الاجناب في الوقت المناسب من أجل تكوين خط جديد للمقاومة عند المؤخرة . وقد ظهر بوضوح اكثر من كل وقت مضى ان الدبابات هي الوسائط المثلى للتسلل أو تطبيق الاساليب التكتيكية (للمواقع الرخوة - اللينه) للتقدم على امتداد الخط الأضعف في مقاومته ، في حين تعمل الوحدات الأخرى على معالجة المقاومة بتجزئتها الى (مجموعة جزر صغيرة) وتمزيقها . ولقد استخدم الألمان هذه الاساليب التعبوية (التكتيكية) بصورة أساسية في عام ١٩١٨ ، مما ساعدهم على تحقيق نجاحات رائعة - ولو انها محدودة - علماً ان عمليات التسلل تلك قد نفذت بواسطة وحدات المشاة (المتحركة على الأقدام) مما جعل الشك يحيط بقدرتها على الالتفاف حول نيران المدافع الرشاشة وتطويقها . وقد ظهر الآن أن التسلل بقوة الدبابات الخفيفة ، قد اصبح يحمل معه اعظم التطلعات واكبر الآمال .

أوضحت بعدها وأنا الخص النتائج البعيدة لمضمون (تسارع التحركات في ميدان المعركة) واستثمارها في المجالين التعبوي (التكتيكي) والسوقي (الاستراتيجي) وما تستطيع انجازه القوة المدرعة .

تكمن اهمية الوسائط في مثل هذه القوة ، وهذه الوسائط هي الوحيدة التي يمكنها استثمار الاختراق وتطويره بسرعة كافية والى عمق كاف للحصول على التأثير الحاسم . . . ان القادة الذين تعودوا على معالجة التشكيلات العادية للمشاة والخيالة والمدفعية قد يضلون بصورة سيئة عندما يرزحون تحت مثل هذه الظروف لتنفيذ الواجبات الثقيلة . . . وليس باستطاعتنا تعليق الآمال ـ على ما هو واضح ـ في استخدام التشكيلات الحديثة بفاعلية ونجاح ما لم يتم تطوير القيادات العليا ، وما لم يتم أيضا تطوير العقيدة القتالية في اطار ما يمكن ان يطلق عليه (الاحساس الزمني ـ لعمل المدرعات) .

ان المقصود بهذا الاصطلاح (الاحساس الزمني ـ لعمل المدرعات) هو التوقيت الصحيح للانطلاق نحو الهدف الحاسم . ويتم بذلك كسب عامل الزمن بسرعة لتنفيذ القرار . وهذه هي القيمة الحقيقية للمناورة التي تحقق مثل هذه الآمال في الحرب الحديثة . حققت هيئة الأركان العامة نتيجة أفضل في مجال تلبية الحاجة لجعل المشاة اكثر مرونة عند تطبيقها لاساليبها التعبوية (التكتيكية) . وتبنت الإفتراض بأن التدريب على حرب العصابات سيساعد على تطوير المبادأة و(الخداع) . وعلى هذا فقد قررت تخصيص الموسم التدريبي لعام ١٩٣٢ من اجل ممارسة تدريب الوية المشاة وفرقها على (قتال المستعمرات) . وعلاوة على ذلك ، ففي حين كانت وزارة الحرب لا تزال تفكر في توصيات اللجان والهيئات المختلفة لدراسة كيفية اعداد لباس رجال المشاة وكيفية تجهيزهم بأعتدة خفيفة وغير ذلك ، كان بعض القادة يحاولون اجراء التجارب وفقا لمبادأتهم الخاصة من اجل التغيير . وكان القسم الاعظم منها مشابها لما كنت قد اقترحته ضمن هذا الاتجاه خلال محاضرتي في القيادة الجنوبية عن(مستقبل المشاة)والتي تم توزيع نسخ منها على اللجان قبل نشرها على شكل كتاب . كان الأمر الملاحظ هو مدى التقارب الذي أمكن الوصول اليه في مستوى (تخفيف وزن حمولة الجندي) . إذ استطاع جيرالد دالبي ، الذي كان خلال تلك الفترة قائدا للواء المشاة الثالث في قيادة آلدرتسوت، أن يحقق نجاحا في تخفيض حمولة الجندي من ٥٦ ليبرة حتى ٣٥ ليبرة ، عن طريق تطبيق التخفيض على حقائب الظهر . وظهرت الفائدة بشكل مذهل في تمارين اللواء ، وبصورة خاصة منها عندما قامت الوحدات بتغطية ما يزيد عن ثلاثين ميلا خلال الاربع والعشرين ساعة الأخيرة من مشروع تدريبي استمر ثلاثة ايام ثم تنفيذ معركتين اثناءها . وحافظت

الوحدات بعدها على كامل قدرتها ـ وكان عدد الذين أصابهم الوهن او الاعياء اقل بكثير من المعتاد عندما كانت هذه الوحدات تنفذ مشاريعها وهي تحمل عتادها العادي .

أنتجت وزارة الحرب خلال فصل الخريف لتلك السنة نوعا جديدا من الألبسة والأعتدة ، ووضعتها في السنة التالية تحت الاختبار والتجربة في فوجين احدهما تابع لقيادة آلدرتسوت والثاني في القيادة الشرقية . ولكن النماذج الجديدة ، جاءت كحل وسط للتسوية ـ على نحو ما يحدث غالبا ـ بحيث أنها لم توفر على حمولة الجندي من العتاد اكثر من عشر ليبرات ، كما أن مظهر لباس الميدان الجديد ـ الباتل دريس ـ لم يكن مقبولاً في شكله ، وكانت النتيجة عدم موافقة الجنود او الرقباء على استخدامه او ارتدائه .

كان من الممتع انعطاف الانسان بفكره نحو آفاق واسعة (في النصف الثاني من عام ١٩٣٢) للوصول حتى الطرف الآخر من المهارة العسكرية . فقد وجهت لي الدعوة للاشتراك في محاضرات (ليس كنولز في معهد ترينتي التابع لكامبريدج ـ للسنة الدراسية ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ .) وتوفرت لي الفرصة لصياغة أفكاري في موضوع الفلسفة الاساسية للحرب والقوات المسلحة . واخترت لأطروحتي (حركة الفكر العسكرية من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين واثرها على تاريخ أوروبا) . وساعدت هذه الدراسة على متابعة تأثير الفكر على العمل وتقويم أثر النظرية على التطبيق العملي . ونشرت هذه الأطروحة في كتاب حمل عنوان (شبح نابليون) . وأضفت في الفصول اللاحقة ما يبرز اثر الأفكار الجديدة ، أو الانحلال العسكري ، من خلال صياغة مسيرة التاريخ على امتداد الألفي سنة الماضية . ثم جاء القسم الأخير ليعالج موضوع (تحرر الفكر) وقد طرحت فيه وجهات نظري في موضوع الظروف الملائمة لتطوير الافكار الجديدة . وضرورة التحرر الفكري من اجل المحافظة على العقيدة القتالية للجيش وتدريب هذا الجيش وفقاً لأحدث التطورات وحتى يتم تطبيق التقنية والعلوم المتقدمة .

انني وأنا انظر اليوم الى الوراء ، حتى ثلاثين عاماً تقريباً ، أصل الى نتيجة وهي ان عام ١٩٣٢ كان من أفضل سنوات عمري انتاجا . وأكثرها خصباً في تكوين مفاهيمي المتباينة والمتنوعة . فقد بدأت السنة بنزع التسلح النوعي ، ثم توفرت لي المساعدة لصياغة (دروس الحرب) . وبلورتها في تقرير لجنة وزارة الحرب واحياء الهجوم الليلي بصورة أساسية ، مما قاد بالتالي لتطوير ضوءالقمر الصناعي ، ثم اقتراح أو اعادة اقتراح الاصلاحات المتنوعة في التنظيم والتجهيز واللباس والنقل والاساليب التعبوية (التكتيكية) وتدريب المشاة . وبعد ذلك اقترحت في كتاب (طريق بريطانيا الى الحرب) اجراء تطورات جديدة في تقنية القوات المدرعة واستخدامها ، وكذلك اعادة

النظر في التوجهات الاستراتيجية وتتويج فاعلية تلك السنة ونشاطاتها ببعض من الدراسة وبعض من التفكير في موضوع ما أصبح يعرف باسم الفلسفة العسكرية

هناك أيضا فقرة اخرى ـ ولو انها شخصية مجردة ـ الا انها جديرة بالذكر قبل الانتهاء من تقرير عام ١٩٣٢ ، وما حدث خلاله من منجزات ذلك أنه عندما تشكلت حكومة الائتلاف الوطني في ايلول (سبتمبر) من السنة السابقة ، تم تعيين جون بوشان كعضو برلماني عن جامعات اسكوتلندا ، وأصبح أقرب المستشارين الشخصيين لرامسي ماكدونالد ، وتوثقت العلاقة بينه وبين بالدوين وقد أخبرني جون بوشان في خريف تلك السنة ، ثم اخبرني بالمزيد في نيسان (ابريل) من السنة التالية ، بأن الثلاثة قد وضعوا مخططا لاعادة تنظيم لجنة الدفاع الوطني ، وأنه طالب بتعييني فيها كمنتخب لهانكي الذي أوضح أنه لا يمكن تعيين بديل له في تلك الفترة وانه مرهق جدا بواجباته المزدوجة كأمين سر للوزارة وكعضو في لجنة الدفاع الوطني ، وانه من الضروري تأمين منتخبين عنه لاشغال مكانه في كل من المجالين ، بحيث يخلفانه عندما يتقاعد وقال بوشان بأنه وجد عند ماكدونالد وبالدوين قبولا حسنا لفكرة تعييني كمنتخب في لجنة الدفاع الوطني ، وكذلك تقبلها بقية اعضاء مجلس الوزراء وبعض كبار موظفي الدولة

كتب لي بوشان على كل حال في تشرين الثاني (نوفمبر) ليعلمني ان اقتراحه قد فشل (نظراً لوجود بعض من المقاومة ضدك في دوائر وزارة الحرب لاسيما وان حكامنا الحاليين يخضعون بصورة رهيبة لرحمة وجهات نظر الضباط وآرائهم)

أخبرني بوشان مزيداً من التفاصيل في موضوع معارضة وزارة الحرب عندما تقابلنا بعد ذلك[٢] ولكنني سمعت من بولوك ومن عدد من الأصدقاء الآخرين في وزارة الطيران ان اكثر الاوساط القيادية شكاً وريبة قد وضعت تقويمها بالاستناد الى ارضيات ثلاث الاولى هي انني ابرزت قيمة القوات الجوية بشكل واضح جدا لتكون في المقام الأول والثانية هي ان النتيجة ستكون اعطاء نسبة اكبر للقوات الجوية في وزارة الدفاع والثالثة هي انني قد لا اكون (الشخص المناسب) لمتابعة معارك الاصلاح البطيئة ولعل هذا هو السبب الذي حمل هانكي على الاعتقاد ان تعييني كمنتخب عنه سيسير في اتجاه احتلالي لمكانته عند تقاعده المبكر وهو الأمر الذي اصبح معروفاً على نطاق واسع واعتقد ان هذه الارضيات الثلاث كانت معقولة جداً وفقاً للمقدمات ـ بأن العمل الهادىء وفقا للاسلوب الذي كان مهيمناً هو الأمر المرغوب فيه اكثر مما كان مرغوبا في العمل بالاسلوب المتسارع وعلى كل حال ، فقد تم بعث اقتراح مماثل في عام ١٩٣٥ على نحو ما سيتم ذكره في الفصل الاخير

أحيل السير جورج ميلن على التقاعد من مركزه كرئيس لهيئة الاركان العامة . وذلك في شهر شباط (فبراير) ١٩٣٣ ، بعد ان تم التمديد له مرتين حتى بلغت خدمته ٧ سنوات في مركز الأركان عوضا عن ٤ سنوات على نحو ما جرت عليه العادة .

وكان خلفه الذي تم اختياره هو السير ارشيبالد مونتغومري - ماسينغبورد والذي كان قد امضى السنتين السابقتين في وزارة الحرب كقائد مساعد لرئيس هيئة الاركان والعضو الثاني لهيئة الجيش الاستشارية . وكانت المعلومات التي جمعتها خلال تلك الفترة تشير الى ان اكثر المرشحين احتمالا للتعيين هو السير سيسيل رومر ولو وقع عليه الاختيار لكان العمل في تطوير الجيش ، وخلق جيش حديث ، قد وصل الى مراحل افضل بكثير مما كان متوقعاً .

على الرغم من انقضاء سبعة اعوام على خدمة ميلن في القيادة العليا ، واشغاله لمنصب القائد الاعلى خلال المرحلة الأخيرة من خدمته ، فان دوره الرئيسي لتقدم الجيش قد حدث خلال السنوات الأولى فقط . وعندما تقاعد كانت نسبة القوى على حالها دون تغيير ، فقد كان هناك ٤ أفواج دبابات فقط ، وهي ذات القوة التي كانت موجودة عند تعيينه . وكان بعيدا كل البعد عن تكوين اي « فرق مدرعة » على خلاف ما كان قد بشر به عندما اعلن عن ذلك في تبدوورث عام ١٩٢٧ ، كما عمل على حل كل من اللواءين اللذين تم تشكيلهما بصورة مؤقتة وعلى سبيل التجربة خلال فترة قيادته . وحافظ على بقاء الجيش بحجم ١٣٦ فوج مشاة ، و ٢٠ كتيبة فرسان (خيالة) ، تم تحويل اثنتين منها فقط من قوة الفرسان الى كتائب عربات مدرعة .

لم يكن من المتوقع حدوث تغيير في هذه السياسة ، خلال فترة خلف ميلن ، وهو مونتغومري ميسينغبورد ، ولم يظهر هذا التغيير على الرغم من تعاظم الخطر النازي بصورة واضحة ، مع ما رافق ذلك من مؤشرات انذارية مثل اعادة تنظيم الجيش الالماني وتسليحه خلال السنوات الثلاث التي مارس فيها مونتغومري قيادته .

يعود سبب غياب الاحساس بضرورة العمل السريع والعاجل - في جزء منه - الى وجهة النظر التي التزمت بها هيئة الاركان العامة ، والتي تم التعبير عنها في عام ١٩٣٣ عندما وقف مونتغومري ميسينغبورد ليدافع عن الفرق المدرعة باسلوب لاذع وبنظرة عمياء ليقول في حديث له (هناك بعض الانتقادات في الصحافة تقول ان علينا تنظيم الجيش من جديد لخوض الحرب في اوروبا . ولكنني سأغامر واقول بأن الجيش لن يستخدم لخوض حرب كبيرة في اوروبا خلال كثير من السنوات المقبلة) . وجاء بعد ذلك رئيس امداد

الجيش وتموينه السير دونالد شارل ليصرّح بمزيد من الثقة العمياء في شهر كانون الاول (ديسمبر) فيقول : (لن تكون هناك حرب طوال حياتنا) . وكان ما أذهلني يقيناً هو ان يقف السير هيوغ اليس الذي كان في حينها مدير التدريب العسكري ، ثم اصبح بعد سنة مديراً للامداد والتموين للجيش خلفاً للسير دونالد شارل ، فيتبنى وجهة النظر ذاتها . وظهر ذلك خلال مناقشة في اميسيوري خلال شهر ايلول (سبتمبر) عند حضور تمارين المنطقة الجنوبية ، حيث تصدى هيوغ ليجادل بأن اليابان لا تشكل خطراً على بريطانيا ، وانها تواقة بحماسة لصداقتها . هذا اولا ، ثم انه لن تكون هناك ثمة حرب في اوروبا طوال حياتنا لان الامم قد تعبت جدا من الحرب . وتابع حديثه فطرح توقعاته البعيدة عندما قال انه لا يعتقد ان فرنسا ستخوض الحرب اذا ما تطورت الأزمة .

عملت في أيار (مايو) ، وبعد صعود هتلر الى السلطة بأشهر قليلة على جذب الانتباه نحو الشواهد الانذارية التي يتضمنها التنظيم الفرقي الجديد الذي تبناه الجيش الالماني كأساس لتدريبه السنوي ، ونشرت مقولتي حول هذا الموضوع في صحيفة الديلي تليغراف واشرت فيها الى الابتعاد الكبير عن اللوائح الخاصة بالتسلح والملحقة بمعاهدة فرساي . فقدتضاعفت قوة المدفعية الى اكثر من الضعف ، محققة بذلك زيادة ثمانين بالمئة في مدفعية دعم افواج المشاة على ما كانت تمتلكه الفرق البريطانية . كما ان المهندسين والاشارة وارتال الامدادات اصبحت كلها آلية (ميكانيكية) وكذلك المدافع الرشاشة وقسم من المدفعية . وكان التنظيم الجديد لفرق الفرسان الالمان الثلاثة يحمل مؤشرات واضحة نحو التصميم لتمهيد الطريق من اجل تحويلها الى فرق آلية (ميكانيكية) اكثر قدرة وقوة . وقد طورت هذا التحذير في تموز (يوليو) الى مقولة اكثر وضوحا واكثر اسهاباً تحت عنوان (اعادة التسليح والتدريب في المانيا) وكانت النقاط الرئيسية في تلك المقولة : حددت معاهدة فرساي قوة الجيش الالماني بحجم ١٠٠ الف رجل . وحددت مدة الخدمة باثنتي عشرة سنة بهدف الوقاية من كل توسع في حالة وقوع حرب ، وحرمان المانيا من استثمار الاحتياطي الكبير المدرب .

لقد اصبح من المعروف ، على كل حال ، ان السلطات المسؤولة في الجيش قد سمحت بالتطوع لمدة ٦ سنوات ، او اقل من ذلك ، بهدف زيادة الخريجين من الرجال المؤهلين للتدريب بكفاءة ، نظرا لمستواهم الرائع في التدريب ، ويستطيع هؤلاء تشكيل الاطار القادر على التحرك السريع لزيادة حجم القوى .

ان المادة البشرية لمثل هذا التوسع كامنة في استعداد التنظيمات المختلفة وهي تنظيمات

نصف عسكرية بدأت تتفجر منذ الحرب حتى وصلت الان ذروتها في تنظيم (الميليشيا النازية) . . . .

لكن عملية تقويم الدرس الرئيسي من وجهة نظر كل انسان يتطلع الى الحرب الحديثة ، تتركز على التفوق الناري للآلة (المكننة) لا على قوة الرجل واستطاعته ، ومن هنا فان مقياس حجم الجيش الالماني هو في حجم تسلحه اكثر مما هو في حجمه العددي .

ان المخصصات لنفقات عتاد الحرب ـ بالنسبة للجندي ـ قد زادت بمعدل اربع مرات على ما كانت عليه في جيش ما قبل الحرب . وهذا امر يعرفه كل انسان بأنه يتوافق مع أفضل الوسائط العسكرية في العالم . . .

ويظهر الآن من خلال ما تكتبه بعض الصحف التجارية ، ان هناك مجموعة من المصانع الألمانية ، ومنها مصنع راين ـ ميتال في دوسلاورف ، قد اخذت في انتاج بعض نماذج الاسلحة لبيعها للخارج ، نظرا لان الجيش الألماني محروم بصورة رسمية من استخدام هذه الاسلحة . ولكن من الطبيعي الافتراض ان فائض هذه الأسلحة سيبقى في المانيا للاستهلاك المحلي .

لقد ظهرت في التمارين ايضاً (المناورات) المدفعية المضادة للدبابات والمدفعية المضادة للطائرات وهي بتنظيمها الكامل ـ بما فيها اجهزة التسديد ـ وقد وضعت في براميل خشبية على سبيل الحيطة من اجل عدم استخدامها . ويظهر كم هو بسيط هذا الحل التبادلي . ذلك ان مثل هذه الحيلة ، التي سمحت لهم باستخدامها نصوص معاهدة السلم ، قد اصبحت مادة للتسلية .

شوهدت في التمارين (المناورات) كذلك ، دبابات هيكلية ، وهي تشترك مع حاملات الجنود لتنفيذ مشروعات تكتيكية تخرج عن نطاق واجبات الامداد العادي . وتوافق ذلك مع وجود عدد كبير من الجرارات (المجنزرات ـ على السلاسل) . وليس من الصعب تأمين صفائح من الدروع ، حتى لو لم تتوفر امكانات انتاج دبابات كاملة ، على نحو ما تفعله روسيا ـ كما هو معتقد ـ .

تظهر مشكلة تأمين الطائرات العسكرية بصورة اكثر سهولة . فقد عملت مجموعة من المؤسسات الصناعية الألمانية على انتاج محركات خاصة وصفت بانها من افضل المحركات لتلبية المتطلبات العسكرية وصناعة الطائرات . وفي الواقع ، فانها لا تحتاج الا للتسلح بالرشاشات وتجهيزات قذف القنابل .

والى جانب ذلك ، يختفي في كل عام عدد من الضباط (من لائحة الجيش) ليعاودوا الظهور بعد سنوات وهم يحملون أجنحة الطيارين . ويقف وراءهم احتياطي ضخم من الطيارين تضمهم هذه او تلك من التنظيات العسكرية .

اشار هيوغ اليس مباشرة الى هذه المقولات عندما عبر عن وجهة نظر مضادة . كما ظهر حديث مونتغومري ماسينغبورد في شهر ايار (مايو) ليكون هدفا لدحض المقولات السابقة .

جاءت تقديرات الجيش لعام ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ في بريطانيا ، لتتضمن زيادة مليون ونصف مليون جنيه استرليني عن السنة السابقة . ولكن اللورد هيلشام امين سر الدولة لشؤون الحرب ، رفع مذكرة اعتذارية بشأن هذه الزيادة ، وأوضح في مذكرته بأن المجموع لا يزال اقل بمليون جنيه استرليني من موازنة عام ١٩٣١ . وعلاوة على ذلك ، فقد تم تخصيص مبلغ ٣٩ الف جنيه استرليني فقط من اصل هذه الزيادة الزهيدة بهدف دعم التسلح بالدبابات والعربات ذات السلاسل (المجنزرات) .

كان قرار مونتغومري ـ ميسينغبورد بعد ذلك هو اسوأ ما في الامر ، فقد تضمن هذا القرار عدم جمع لواء الدبابات مرة اخرى حتى ولو كان ذلك من أجل التدريب . وعلى هذا فقد تم توزيع وحدات الدبابات مرة اخرى في مجموعات على قوات المشاة للعمل كأفواج دبابات فرقية . ورافق هذا القرار المزيد من سوء الطالع بسبب تعيين هوبارت في آذار (مارس) كمفتش لسلاح الدبابات الملكي ، وكان هوبارت اكثر قدرة على تولي قيادة اللواء كقوة واحدة . ونتج عن ذلك ضياع قيمة اللواء ، خلال تمارين عام ١٩٣٣ ، وعدم بروز اهم ميزاته وهي المرونة ، فجاءت التمارين تافهة ومخيبة للآمال ، كما انها اوضحت مرة اخرى التناقض الكبير بين حركة المشاة والتحرك السريع للدبابات ، وكذلك عدم توافق قادة المشاة مع الدبابات بسبب السرعة البطيئة للمشاة .

كان عدم التوافق واضحا مما ساعد على اتخاذ قرار باعادة جمع لواء الدبابات في السنة التالية ، وكان التجمع في هذه المرة نهائيا وثابتاً . اما صعوبات ايواء اللواء وتمركزه فلم تجد من العقبات ما كان قد تم التأكيد عليه سابقاً . بسبب الضغوط القوية التي جاءت من خارج الجيش ومن داخله لتجميع لواء الدبابات .

كانت نهاية عام ١٩٣٣ حزينة على كل حال . ففي ١٣ كانون الاول (ديسمبر) تم وضع اسم جون فوللر على لائحة المحالين على التقاعد ، بعد ان امضى ثلاثة اعوام دون عمل (اي منذ تم ترفيعه الى رتبة لواء) وكان ذلك اكثر من مجرد باعث للأسى لاضاعة

عبقرية ، او نبذ كفاءة قيادية عالية . فقد اعترف عدد ضخم من الجنود ـ وبصورة خاصة خارج بريطانيا ـ بنافذ بصيرته ، في حين حمل له الكثيرون ممن عملوا معه ، قادة له مرؤوسين في هيئة اركانه ، احتراماً عميقاً لما تميز به من كفاءات عملية . ولكن عندما جاء فوللر بنبوءته ، نهضت ضده الاحكام المسبقة ، على نحو ما يحدث دائما عند ظهور كل نبوءة ، وكان مما زاد من حدة الاحكام المسبقة ضد فوللر حدة انتقاده لاولئك الذين عرفوا بتفكيرهم البطيء او أفق رؤ يتهم المحدود . وقد تمركزت الاحكام المسبقة ضد فوللر بصورة خاصة ـ بكل قوتها وخلال مدة طويلة ـ في عقول القادة في هيئة الاركان الجديدة . التي ما ان تمركزت في مواقعها حتى عملت على ازالة ظل فوللر ، ولا ريب انه لو تم اختيار رومر لرئاسة هيئة الأركان لكانت النتيجة مختلفة ، ذلك ان رومر قد اوضح لي ـ في فصل الصيف ـ بأنه يرغب في رؤ ية فوللر حتى يضمن له فرصة افضل في مجال القوات الآلية (الميكانيكية) .

ان استعادة ذكريات هذه الفترة والتأمل فيها ، على كل حال ، يتوافق في التواقت الزمني مع ولادة اول تشكيلة مدرعة كاملة . كل ذلك مع ما كان له من اثر عميق في انجابها ، وقد احرق فوللر نفسه لبناء المدرعات وبعثها كما تظهر الفونيكس (او العنقاء) من رمادها المحترق .

فكرت بعد ذلك بسنتين ـ وبصورة آلية ـ انه ربما تتوفر فرصة لعودة فوللر الى الجيش عن طريق ايرونسايد[٣] الذي عاد من الهند في ربيع عام **١٩٣٦** . ليتسلم عمله الذي تم تعيينه فيه كقائد عام للمنطقة الشرقية . وكان ايرونسايد من اقوى الدعامات التي ساندت فوللر طوال سنوات عديدة . وقد اندفع لانقاذه عندما تدهورت علاقة فوللر مع ميلن في عام **١٩٢٧** بسبب الخلاف على قضية القوة الآلية (الميكانيكية) التجريبية .

طلب الي ايرونسايد ، بعد اضطلاعه بمسؤ ولية قيادته الجديدة مباشرة ، حضور تدريب تكتيكي دون جنود (مشروع قيادة) سيعمل على تنفيذه في مقاطعة ساسكس ، وقابلته في ويتش كروس قريباً من فوريست ـ رو . وحدثني بعد الترحيب بي مباشرة ، عن الخسارة التي لحقت بالجيش نتيجة احالة بوني فوللر على التقاعد . ووصف ذلك (بالعار والفضيحة) على أساس ان فوللر (هو افضل عقل مفكر في الجيش) . وعلى هذا ، فقد امسكت بالفرصة ، واقترحت على آيرونسايد اخذ المبادأة للمطالبة باعادة فوللر الى لائحة الضباط العاملين وذكرت له عدداً من الشواهد السابقة لحالات مماثلة يستطيع الاستناد اليها لدعم قضيته ، لا سيا وأنه اصبح الآن ، ومن خلال مركزه القيادي

الجديد ، واحداًمن الأعضاء الرئيسيين لانتخاب العناصر القيادية . وكم كانت مباغتة اذهلتني اجابته المترددة : (آه . . . انني لا استطيع ذلك ، اذ انه سيفسد نظام الأقدمية والترفيع) . وقد كشف رد فعله البشع عن نموذج التفكير الخاضع لقانون (دور البقه في الترفيع) رغم ما كان يتميز به ايرونسايد كمفكر عسكري تقدمي . وعندما تم تعيين ايرونسايد رئيساً لهيئة الاركان بعد ذلك بثلاثة اعوام (عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية) . شعر بخطأ موقفه وحاول ايجاد مخرج لتصحيحه . فطرح موضوع اعادة فوللر الى لائحة خدمة الضباط العاملين ، ولكن وزارة الحرب سحقت هذا الاقتراح بسبب نشاطات فوللر الحديثة في مجال السياسة ـ هذا على الرغم من وقوف هور بيليشا الى جانبه اكثر من كل القسم الاكبر من زملائه في الوزارة .

تضمنت الحفلة السنوية لكلية الأركان في كانون الأول (ديسمبر) **١٩٣٣** ، فصلاً خفيفا من المسرحيات الشعرية والغنائية ، وكان هذا الفصل يختص بتمثيل شخصيتي. وقد اصر مدير الكلية انذاك ـ ديل ـ على لجنة الطلاب المنظمة للحفلة تقديم الفصل الخاص بي ، حتى اذا كان لدي اعتراضات ضدها تم حذفها . وكان ذلك تصرفاً دمثاً ودقيقا منه ، وقد طالعت نص الفصل المسرحي ولم اجد فيه ما يثير الاعتراض ، بل على النقيض من ذلك فقد وجدته ممتعاً جداً .

وكان الفصل عبارة عن صياغة شعرية جديدة لمسرحية (اليس في بلاد العجائب) وكان القسم الذي يخصني يرمز لي باسم (ديدل دارت) وقد قام بتمثيله النقيب كينيث سترونغ ، الذي اصبح فيما بعد رئيس هيئة أركان الاستخبارات في قيادة ايزنهاور ، ثم اصبح بعدها مديراً لمكاتب الاستخبارات المشتركة في وزارة الدفاع البريطانية .

كانت المسرحية تبدأ بمظهر الطلاب (النقباء) وهم يشكون من الصداع لاصطدامهم بمخطط طرح امامهم ، وهنا يدخل احد المدربين (وايتنايت) ويدفع امامه (آلة الزمن المصغرة) والتي يمكن لها استحضار اشباح النقباء العظماء للمساعدة في العثور على حل المشكلة . وقد تم استحضار اشباح القادة : القيصر ونابليون وبلوخر و ويلينغتون كل بدوره ، ولكنهم جميعا لم يحققوا الفائدة المرجوة . واستمر الفصل المسرحي على النحو التالي :

اليس : لحظة واحدة ، ان ما نحتاجه هو شيء ما اكثر جدة ، اكثر حداثة . ومن الافضل استدعاء معلم (ناقد) لهذا الواجب . (ويلتفت الى وايت) هل تستطيع اقتراح احدهم ، سيدي ؟

وايت : اعرف ، اننا سنستدعي اعظم النقباء (الكابتن) جميعا .

اليس : ومن هو ، يا سيدي ؟

وايت : انه ديدل دارت بالطبع !

الجميع : (بحركة تعجب واعجاب) ديدل دارت !

(يدخل ديدل دارت . وعليه سيماء الفزع قليلاً لهذه الحركة المباغتة ، وهو يحمل مسماعا - سماعة - ضخماً)

ديدل : اين انا ؟ وماذا حدث - يا للشيطان ؟ .

وايت : استميحك عذراً يا سيدي ، لازعاجك بمثل هذه القسوة . انني لم اكن اعتقد ان هذا الجهاز سيعمل بمثل هذه الجودة - انه اختراع صغير لي - آلة الزمن - .

ديدل : اختراع ؟ رائع . انني كليا مع المخترعات . ولطالما تمنيت ان يتبنى الجيش بحرية المزيد منها ، وبصورة خاصة كلية الاركان . . .

وايت : (يسعل) احم ، انك هنا في كلية الاركان .

ديدل : يا للسماء ، اخرجوني من هنا ، فقد يصيبني المرض او الاضطراب في كل دقيقة . لماذا ؟ لانني اخشى العدوى من التيبس ، وانا آخر رجل في العالم يريد الاصابة بهذا المرض .

وايت : حسنا ، اننا نريد مساعدتك يا سيدي . هذا هو الموقف ، وهؤلاء الرجال ، كما يظهر قد وضعوا انفسهم في مأزق . ونعتقد بأنه كان من الافضل تسمية الآلة (بالقيادة العسكرية الاستشارية) وفقاً للقضية التي تتضمنها .

ديدل : (يقوم بدراسة الخارطة ويكتب على ورقة وهو يستخدم المسماع) ثم يقول : الحالة سيئة للغاية ، وهي حالة مشاة وحيدة العين . فالحشد غير منتشر بصورة كافية . و اعتقد انه ليس هناك سوى علاج واحد هو حقنة (زرقة) كبيرة من الدبابات . مع مائة او مائتين من العربات المدرعة ، تؤخذ مرتين في اليوم بعد الطعام ، وقد يكون لهذا العلاج تأثير لاعادة الصحة ، ولن يكون مجرد علاج مسكن او مهدىء .

وايت : والان - يا زميلي العزيز ، دعني اطلعك على اختراعي الصغير . فلعلك راغب في مقابلة بعض قادتك البارزين - وانني استخدم نسبياً - وبديهياً - اولئك الذي سبقوك . وقد فرغنا على التو من التحدث الى بعضهم . وسأعمل على استدعائهم من جديد . (يتبدل المشهد) فيدخل (القيصر ونابليون وبلوخر وويلنغتون) ، ويتخذ ديدل دارت موقف المصعوق ويراه القادة العظام ، فيتراجع ، وهو يقوم بحركات متواضعة متلقياً بالشكر تحياتهم .

القيصر : (بلهجة ايطالية) ـ سلاماً ، يا افضل النقاد والمعلمين على الاطلاق .
نابليون : المجد والخلود لاعظم العظماء (بلهجة فرنسية) .
ديدل دارت : آها ـ اعتقد انه شبح نابليون !
بلوخر : هاي ـ ايها الناقد العظيم (بلكنة المانية) .
ويـل : تحية يا سيدي . انك اعظم النقباء (الكابتن) بيننا جميعاً .
ديدل دارت : شكرا لكم يا سادة . شكراً (وينحني بالتحية) . ثم يقول نظـرا لوجود اصدقائنا هنا ، وقد قدموا لمقابلتي ـ عن طريق التقرب غير المباشر فقط ـ فانني احب ان تعرفوا المزيد عني .

الاغنية رقم ٥ ـ وهي اغنية القادة العظام (النقباء) يصاحبها الرقص .

(ديدل دارت ـ النقباء ـ ووايت)

وايت : ابطال الزمـن الماضي ، وجنـود العصر المنصرم .
ترى من كان يشك في الماضي بنزعتنا العسكرية .

اننا نطالب الآن بالشهرة ، وننادي الكوكب الساطع .

انظر من يقف هناك ! انه جواب صلوات القادة .

اننا نعتقد بمعرفتنا للفن العسكري .

وننادي بالناقد (المعلم) ليحتل مرتبة فريدة .

ذلك انه لم يعمل على ايضاح ما هو غامض في بطون التاريخ

ولكنه يتنبأ للمستقبل ، وهذا هو ديدل دارت .

هذا هو الرجل الذي تريدونه ، وتحتاجونه ،

لانه هو الذي يستطيع اخباركم بكل ما سيحدث .

وعلى الرغم من انه لم يتخرج من كلية الاركان

فهو الرجل الذي تنادون به وتحتاجونه

عن طريقه عرفنا بأن اساليبنا التعبوية (التكتيكية) قد اصبحت قديمة

وعرفنا بشاعة استراتيجيتنا .

انه يناقشكم باسلوبة العاطفي المثير ويجعل مشكلاتنا واضحة مهما كانت شائكة وصعبة

اننا منذ الان فصاعدا ، سنهتدي به

فلنجعل منه الضوء الذيسيوجهنا ـ ولنكسب من دفء قلبه قليلاً حتى لو لم يتم تعيينه في هيئة الاركان ، ولو انه لا يزال مبعداً فسيبقى الرجل ـ رجلنا ـ انه النقيب دارت

□ حواشي الفصل التاسع □

١) اصبح فيما بعد السير فريدريك بايل ، وقد ورث اللقب الذي منحته الملكة فيكتوريا لوالده عندما كان اللورد مايو في دوبلن ـ حيث كان يحمل ثلاثة القاب مميزة ، البروتستانتي والوطني الارلندي والمخلص للولاء

٢) وتكرر ذلك أيضا عندما تم تقديم اقتراح نوع آخر الى رئيس مجلس الوزراء وكان هذا الاقتراح بهدف الاعتراف بخدمتي للفكر العسكري وللتقدم واصدار تقويم تقديري لذلك وتقبل رئيس مجلس الوزراء الفكرة بصورة ملائمة ، ولكنه لم يلبث ان تخلى عن الفكرة عندما نقل اليه وزير الحرب الجديد (اللورد هيلشام) بان هناك ثمة اعتراضات قد برزت في الدوائر العليا لوزارة الحرب

٣) كان ايرونسايد مفرطاً في الطول ، عريض المنكبين ، فكانوا يطلقون عليه في الجيش اسم الدبابة

الفصل العاشر
قدرة الدروع

ظهرت القدرات الحاسمة لمرونة القوات المدرعة في الحرب ، خلال فترة مناورات الجيش عام ١٩٣٤ ، وكان ذلك نقطة تحول حاسمة في التقدم العسكري ولم يكن هذا التقدم في الوسائط المادية ، وانما كان في الاساليب الجديدة لطرائق استخدام المدرعات في المجال العملياتي ذلك انه في حين تم انجاز التقدم العملياتي ، فوق قاعدة دائمة ، وعبر التطور البطيء لقوة اللواء المدرع الأول خلال مدة طويلة ، فقد جاء التوسع الحالي لقوة الدبابات الملكية عن طريق تشكيل وحدة اضافية هي قوة الفوج الخفيف الأول وزيادة على ذلك ، وعلى الرغم من تسليم اجزاء الدبابات الخفيفة الجديدة (التـي يعمـل على الدبابة الواحدة منها ثلاثة سدنه) خلال تلك السنة ، فقد كان على اللواء العمل باستمرار مع ناقلات الجند المدرعة المسلحة بالمدافع الرشاشة واستخدام هذه الناقلات كمصفحات خفيفة ، بينما تم الابقاء على الدبابات المتوسطة (في الافواج الثلاثة المختلطة) على نحو ما كانت عليه نماذجها التي ظهرت منذ نهاية الحرب ، أي أصبح عمرها عشر سنوات

كانت مناورات لواء الدبابات الأول في عام ١٩٣٤ ذات أثر كبير في تطوير حرب المدرعات رغم جميع العوائق التي سبق ذكرها ويكمن هذا الأثر ، في جزء منه ، في تلك التطورات للاساليب التعبوية (التكتيكية) التي تم ابداعهـا وتطبيقهـا من قبـل اللـواء التجريبي المدرع في عام ١٩٣١ ، ولكن القسم الاكبر من هذا الأثر يعود الى تطبيق مفهوم القوات المدرعة الذي يفرض استخدام الاختراق الاستراتيجي العميق ولسوء الحظ فان الأهمية التاريخية لمناورات عام ١٩٣٤ تعود الى حقيقة ان الاساليب الجديدة التي ظهرت

هناك هي التي تم تبنيها في الخارج ، في ألمانيا ، وكان لها أثرها الحاسم في مسيرة المراحل الأولى للحرب العالمية الثانية ، وكذلك خلال مسيرة الحرب كلها .

كان المعنى البارز لمناورات عام ١٩٣٤ هو انها طبقت عمليا الاساليب الجديدة للمرة الأولى في مجموعة من التمارين المنظمة . وقد استخدم ذلك لاظهار امكانات المدرعات عمليا كقضية واقعية للجنود الذين لديهم بعض من الخيال العسكري وبعض من الحرية الفكرية البعيدة عن الاحكام المسبقة . وأظهرت لهم ان الجيوش قد أصبحت حالياً تملك الوسائط لاحداث ثورة في زيادة التخطيط للحرب عند الاجيال الجديدة ، من أجل القضاء على جمود حرب الخنادق الذي هيمن على الحرب العظمى الأخيرة (الأولى) ، وأصبح في قبضة الجنود الوسائط الضرورية لبعث الحركة في الحرب بطريقة اكثر فاعليه (ديناميكية) وتحقيق ذلك بسرعة اكبر وبصورة اكثر حسماً مما عرفه تاريخ الحرب من قبل .

لقد كان من الواضح ايضا ، ولو ان عددا قليلا من الضباط هم الذين استخلصوا على ضوء هذا الوضوح ، ان الهجوم الآن قد اكتسب من جديد ميزة القدرة التي يمكن مجابهتها بتطوير مماثل في تقنية الدفاع ، عن طريق استخدام وسائط الحركة ذاتها . ونظراً لأن الجيوش عادة ما تكون بطيئة في تكييف نفسها مع الشروط الجديدة ، فقد كان من المتوقع مرور فترة من التأخير حتى يتم تطوير الاساليب الجديدة للهجوم ، وينتج عن ذلك مرور فترة أطول من التأخير حتى يتم تطوير الاساليب المضادة بصورة ناجعة تضمن الوقاية اللازمة . وسيكون هذا التأخير المعتاد ، وفقاً لما أوضحته في كثير من المناسبات لصالح الاقليم ، او البلد ، الذي يتبنى الاسلوب الجديد للهجوم ، حتى ولو بصورة جزئية ، في حين تكون نتائج التخلف خطيرة بالنسبة للخصم الذي يعتمد على اساليب الدفاع القديمة .

كان قرار وزارة الحرب بانشاء لواء الدبابات الأولى قد اتخذ منذ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٣ . وتم انتقاء هوبارت (او هوبو كما كان يلقبه اكثر الناس) لقيادة هذا اللواء ، ولم يتم الانتقاء فقط بسبب كفاءة هوبارت وامكاناته ، ولكن بهدف توفير الأموال واختصار النفقات على أساس انه يستطيع الاضطلاع بهذا الواجب علاوة على عمله كمفتش للقوات المدرعة الملكية . وهذا من شأنه التوفير في نفقات تكوين مركز لواء اضافي . ولحسن الحظ ، فقد كان باستطاعة هوبارت الاضطلاع بالاعباء المزدوجة بفضل ما توفر له من القدرة والكفاءة .

كان من الطبيعي ان يعود تفكير هوبارت مباشرة لقضية الاختراق العميق عوضاً عن

ذلك الدور المحدود للتعاون الوثيق مع المشاة (وهو الدور الذي اضطلعت به الدبابات في الموسم التدريبي لعام ١٩٣٣) واجراء محاولات لاظهار الامكانات الواسعة للدبابات .

وقد أغتنم هوبارت اول فرصة ليطلب الي تقديم مقترحات تفصيلية بشأن الطريقة التي يمكن بها للقوات المدرعة ، والتي يمثلها لواء الدبابات ، العمل بصورة مستقلة في حرب المستقبل . وكانت مذكرتي لهذا النقاش (في ١٠ تشرين الثاني - نوفمبر) تتضمن عدداً من النقاط التي كانت لها معانيها في المستقبل .

اقترحت - بالدرجة الأولى - انه في حال وقوع حرب اخرى على الجبهة الغربية ، فان اكثر موقف يحتمل تطويره هو ذلك المشابه لموقف عام ١٩١٤ عندما عملت قوة الحملة البريطانية على الجناح الأيسر للقوات الافرنسية في مواجهة قوات الغزو الألماني . وتابعت قولي بافتراض ان يكون احتمال استخدام القوات المدرعة البريطانية اكثر فاعلية لدعم الهجوم المضاد ، وذلك بحركة استدارة واسعة حول أجنحة قوات الغزو وللعمل ضد منطقتها الخلفية - وكنت في مقولات سابقة قد اظهرت ما تستطيع انجازه مثل هذه القوة في الظروف الزمانية والمكانية لموقف عام ١٩١٤ ، لو وجدت هذه القوة في تلك الفترة - . واقترحت بصورة خاصة توجيه الهجوم - المضاد للدبابات ضد خطوط مواصلات قوات الغزو في الأردين . وقال هوبارت ان وجهة نظر هيئة الاركان تتلخص « في ان منطقة الأردين لا تصلح لتحرك الدبابات » . واجابة على ذلك أخبرته انني توصلت الى نتيجة مغايرة من خلال جولاتي في الاردين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٢٩ . وأوضحت أيضا أن الطرق التي تسير من الجنوب في اتجاه الشرق ما بين منطقة نامور في اتجاه اللوكسمبورغ هي طرق اكثر ملاءمة لحركة الدبابات من تلك التي تصل ما بين الشرق والغرب . وانها تضمن نسبيا التقدم السهل للقوات الآلية (الميكانيكية) دون ان تصطدم هذه القوات بأي عائق ، كما ان هذه القوات قادرة عند الضرورة على التحرك ضمن مجال واسع خارج محاور الطرق .

أريد ان أضيف هنا ، بأنني قد عبرت في كثير من الاحيان ، في مناقشاتي وكتاباتي منذ عام ١٩٢٨ ، عن معارضتي لوجهة نظر هيئات الاركان في القيادات الافرنسية والبريطانية على حد سواء ، في أن منطقة الاردين هي منطقة عنيفة بطبيعتها ولا يمكن اقتحامها .

ففي تعليقاتي على كتاب الحروب الحاسمة في التاريخ ، انتقدت مخطط الحلفاء للهجوم النهائي عام ١٩١٨ ، ودحضت الافتراضات بأن الأردين هي منطقة (منيعة على المرور منها) وذكرت أنها (منطقة ذات طرق جيدة) وانها اقرب الى المنطقة السهلية منها

الى المنطقة الجبلية . وفي كتابي عن فوش ، انتقدت وصفه لمنطقة الاردين بانها (كتلة غير صالحة للعبور تقريبا) . واغتنمت هذه الفرصة فأوضحت ان (وصفه يبالغ في عدم امكانات عبور الاردين) وكان هذا تعليقاً على كتابة احداث الماضي بنظرة نحو أفق المستقبل . استمر التضليل رغم ذلك ، وكانت القيادة الافرنسية راضية عن نفسها وهي تضع مخططاتها في عام ١٩٤٠ على هذا الأساس . وتوفرت الفرصة بذلك أمام الألمان لاظهار خطأ الافرنسيين ، وتحقيق نصرهم الحاسم على الافرنسيين باختيارهم الاردين لاختراق قوتهم المدرعة الرئيسية . وكانت هذه النتيجة المشؤومة هي احدى الامثولات الصارخة في التاريخ الحديث عن كيفية خضوع فريق الخبراء المحترفين واستمرارهم في التأثر بفكرة ثابتة تسلموها من جيل سبقهم وتابعوا حملها دون ان يعيدوا فحصها او تقويمها .

أوضحت في مناقشتي مع هوبارت أيضاً في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٣ ان القوة المدرعة تستطيع الافادة من قدرتها الحركية ومرونتها لتضليل العدو ـ عن طريق التهديد المتتابع للأهداف ـ وذلك على النقيض من العقيدة المتصلبة (الارثوذكسية) التي تتضمن تركيز الجهد منذ البداية على هدف واحد . وكانت النقطة البارزة التي وضعتها هي ان هناك ثمة فرصة قد تتوفر لمثل هذه القوة لكسب ما تحتاجه من الوقود لاعادة ملء الدبابات وكذلك تأمين الامداد بالمواد الغذائية عن طريق الموارد المحلية في مناطق العدو الخلفية ، والأمر كذلك بالنسبة لخطر المقاومة الذي سيختفي عند التوغل في اعماق اكبر . وقد استطاع هوبارت تقويم أهمية هذه الامكانات بسرعة ـ على النقيض مما كانت عليه العقول المحافظة ـ ولهذا اخذ هوبارت على عاتقه مسؤولية تطبيقها قبل خمسة أعوام من تطبيق قوات البانزر الألمانية لها في الحرب .

عمل هوبارت بعد مناقشاتنا على وضع الخطوط العامة (لمشروع) من اجل لواء الدبابات الجديدة ، وناقشه مع ليندسي وبرود في الشهر التالي ، ثم قدمه الى هيئة الاركان العامة ، وتلقى في شهر كانون الثاني (يناير) الرد على مشروعه كتوجيهات رسمية ، في اطار شكل به بعضاً من التعديلات ، ولكن المشروع احتفظ بما يكفي لتدريب اللواء وفق الخطوط العامة التي كان يريدها هوبارت . وكانت النقاط الرئيسية كالتالي :

يمكن استخدام لواء الدبابات في الواجبات الاستراتيجية او في العمليات نصف ـ المستقلة ضد بعض الأهداف الهامة في تنظيم مؤخرات العدو . . . ويستطيع لواء الدبابات تجنب النقاط القوية والهجوم ضد النقاط الضعيفة . . . وعلاوة على ذلك فانه يجب

توفر القدرة للواء المدرع من اجل تحقيق المزيد من تنسيق التعاون مع الأسلحة الأخرى عندما يتطلب الموقف مثل هذا العمل .

حددت التوجيهات بعد ذلك الاهداف الرئيسية للعام التدريبي ١٩٣٤ ، مثل تطوير مناورة اللواء (كقوة كاملة) وممارسة تنسيق التعاون مع القوات الجوية الملكية ، وتجربة أساليب الامداد والصيانة ، وتحقيق الهدف في التحرك لمسافة ٧٠ ميلا في اليوم أو ١٥٠ ميلاً في مدة ثلاثة أيام ، مع تنفيذ عملية في الحالتين . وهكذا استخدم هوبارت التوجيهات بصورة جيدة لتدريب لواء دباباته في تلك السنة . وقد عمل كبداية للمشروع على اجراء تدريب لهيئة الأركان في كامبريدج خلال شهر أيار (مايو) . وعندما طالعت التقرير شعرت بالبهجة وأنا اجد انه قد تضمن كثيرا من المقترحات والنقاط الرئيسية التي طرحت خلال مناقشاتنا ، وفي كتاباتي السابقة : كان الموقف العام مشابهاً لما كان عليه الموقف في ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ . يتقدم العدو عبر الحدود وأمكن ايقاف قوات الغزو . الهجوم المضاد على وشك البدء بتنفيذه ، وتشتمل واجبات قوات هذا الهجوم على القيام بتحرك لمسافة مائة ميل للاستدارة حول جناح العدو بواسطة لواء الدبابات الموجه ضد التنظيمات الدفاعية الخلفية (المؤخرات) والتي تقع على بعد مسافة أربعين ميلاً الى الخلف من مواقع المعركة الرئيسية . لقد وضعت المواقف في اطار يبرز دور اللواء المدرع في احداث اكبر قدر من الشلل والاضطراب في منطقة العدو الخلفية ، وتضليل العدو وارباكه أو حتى ايقاع الشلل بقياداته الحيوية ومراكزه العصبية ، وقطع خطوط مواصلاته ، وايقاف تدفق الامدادات ، وكذلك تدمير مراكز الاتصالات اللاسلكية ومراكز الادارة والسيطرة على القوات . وكان على لواء الدبابات ، حتى يضطلع بهذه الواجبات ، التحرك على جبهة عريضة ، وتكون العلاقات بين الدبابات وفقاً لذلك مرتبطة بعدد من المراكز والمواقع الكثيرة قدر المستطاع . كما يمكن للواء الدبابات أيضا العمل في منطقة يتوفر فيها عدد من الأهداف التبادلية ، وبهذه الطريقة يمكن ترك العدو في حالة من الشك حتى اللحظة الأخيرة بشأن الهدف الحالي لعمل القوات المدرعة .

كانت نتائج هذا التقرير ايضا مرضية للغاية . وكانت أولى هذه النتائج (هي ان الواجب المحدد للواء الدبابات قد ظهر معقولا من الناحية العملياتية في الحرب ، كما انه يحمل التوقعات بالنجاح عند التنفيذ على شرط ان يتم حل مشكلة الامداد بنجاح) أما النتيجة الثانية فهي ان (التعاون مع سلاح الجو الملكي خلال مراحل العمليات جميعها قد أصبح عاملا حيوياً للنجاح) وأن (هجوم قاصفات القنابل يشكل سداً لتغطية هجوم الدبابات) . وهناك نتيجة اخرى وهي ابراز قيمة (الامداد الجوي) .

قد يكون من الصعب ، على الأجيال اللاحقة التي عرفت تلك الانتصارات الساحقة للقوات المدرعة في الحرب العالمية الثانية ، ان تدرك المنطلقات المبدعة والابتكارات الرائعة التي تضمنتها تمارين لواء الدبابات ، وكيف ظهرت تلك التمارين في صورتها الخيالية امام انظار الجنود ، خلال تلك الحقبة الزمنية إذ اعتبر القسم الاكبر منهم ان فكرة عمليات الدبابات في التوغل حتى عمق كبير للوصول الى مؤخرة العدو انما هي فكرة غير عملية ، وانها مجرد حلم لن يلبث حتى يتبدد عندما يأتي اختبار الحرب والى جانب هذا الاعتراض العام ، كان هناك انتقاد للفكرة من زوايا خاصة تتعلق بالاهتمام او بالمصلحة فقد اعتبر كثير من رجال الفرسان (الخيالة) ان هذه الفكرة ، ما هي الا محاولة جائرة لاغتصاب دور الفرسان ، واقترحوا بأن تعمل الدبابة السريعة لمساعدة الخيالة في العمليات المتحركة ومقابل ذلك ، اصر كثير من رجال المشاة على معاملة الدبابة كخادمة للمشاة عوضاً عن السماح لها (بالركض على هواها) وكما تشاء وحدها

لقد ظهرت النظرة السلفية لتلك الفترة من خلال مناقشات مجلس العموم عند تقرير موازنة الجيش للعام المالي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ حيث طرح عضو حزب العمال عن ليف (المستر تينكر) سؤالاً حول قيمة الاحتفاظ بخيول الفرسان بأعدادها الكبيرة ولكن سرعان ما تصدى العضو المحافظ عن الدائرة الانتخابية المجاورة لـ (كناتسفورد) وهو اللواء ماكينز ، فأخذ في تقديم تهنئته الى الأمين العام المالي لوزارة الحرب « دوف كوبر » وليقول (انه ليس هناك اي عتب او تغيير في موضوع الفرسان ، وانه ليس هناك الغام او اختصار للقوة ، وليس هناك ايضاً اضافة لأي نوع من الدروع وأقول كجندي قديم في سلاح الفرسان انها لا تزال موضع الرضى الكبير ، على الرغم من كل ما قاله الهون عنها وان عضو ليف ، الذي نشعر بالبهجة جميعاً عند سماع رأيه ، لا يزال في كل عام يهاجم الفرسان ، وعلى هذا فانني سعيد وانا اقول بأن كلماته لا تسقط الا على آذان صماء انني اعرف بأنه يشعر بالبهجة الكبرى وانا اقول مثل هذه الكلمات « ايها السيد تينكر انني سأنجح الآن » وتلك هي القضية شيء واحد لا يزال موضع الرضى الكبير وهو ان السلطات تشعر ان يوم الفرسان لم تغرب شمسه ، وفي الحقيقة فلا زال هناك امام الفرسان الكثير ليحققوه على نحو ما امكن لهم انجازه في الماضي)

انتهت عاصفة المناقشة عندما وقف الناطق باسم وزارة الحرب « دوف كوبر » ليقول (اعتقد يقيناً ان الوقت لا زال مبكراً جداً - هذا اذا كان هناك وقت سيتم فيه الافتراض بأن دور الخيالة قد انتهى وانني مقتنع بأنه قد تم اختصار قوة الخيالة وانقاصها بالقدر الكافي) وفي مناقشة اخرى ، ذهب كوبر الى مدى ابعد عندما وقف

لمقاومة كل ذريعة للتغيير ، على ارضية ان (ليس هناك من يستطيع اخبارنا مسبقاً بالظروف التي ستمر بها اي حرب مقبلة قد نضطر الى خوضها) .

تحديث وجهة نظره في تعليق لي نشرته صحيفة الديلي تليغراف بتاريخ ٢٧ آذار (مارس) على شكل (رسالة الى رئيس التحرير) . وأشرت في هذه الرسالة الى ان ظروف الحرب المقبلة كثيراً ما عولجت من قبل تلاميذ الحرب الذين اعترضوا فعلاً على ما امكن لهم دراسته من الحرب السابقة . وان الجمود الذي هيمن على حرب عام ١٩١٤ - ١٩١٨ لم يكن إلا ظلاً لظروف الحرب الأهلية الأمريكية ، وهو الجمود الذي نتج عن تطوير الأسلحة النارية .

ربما كان من المفيد الاستماع الى السيد دوف كوبر بشأن تغير الظروف الجديدة لتأمين وقاية افضل تحمي طبيعة الحصان من قابلية الاصابة بالجراح . ويظهر ان ذلك ممكن فقط لو استطاعت وزارة الحرب وضع مخطط لتربية الخيول حتى تكون ضد الرصاص .

ان بالامكان تجنب الكثير من خداع الرؤيا وضلال الفكر ، لو امكن التأكيد على ان القيمة الأساسية للخيول انما تكمن في قدرتها الحركية ، وان الحصان لم يكن اكثر من وسيلة للوصول الى هذه النهاية . ولقد استطاعت الرصاصة اصابة القدرة الحركية للحصان بالكساح والشلل ، ولكن تطور الدبابة السريعة قد ضمن الفرصة لاعادة قدرة الحصان في اطار آلي (ميكانيكي) ، وتصحيح القدرات السابقة للخيول وبعثها .

لقد اوضحت ان الجيش لا زال يحتفظ بـ ٢٠ كتيبة خيالة نظامية و ١٦ كتيبة من خيالة اليومنري ، الى جانب ٢١ كتيبة فرسان هندية في حين لا يوجد لدى هذا الجيش اكثر من اربعة افواج من الدبابات - وهي ليست مجرد نسبة معقولة من الناحية الحسابية .

كانت هناك ذريعة أخرى شائعة خلال تلك الفترة ، أمكن التعبير عنها في مقولتين لدعم الخيالة . وتتضمن المقولة الأولى (انني سعيد لأن وزارة الحرب لا تنفق سوى القليل على افواج الدبابات . . . وليس باستطاعتك الفرار بعيداً عن حقيقة ان المدفع من عيار ٣ او ٦ رطل سيوقف اي دبابة) . وتؤكد المقولة الثانية بثقة (ان الدبابات في مجابهتها للمدافع الحديثة المضادة - للدبابات والمتميزة بدقتها ، ستكون مجرد إضاعة لأموال دافعي الضرائب ممن يعلقون آمالاً كبرى على الدبابات ، انها مجرد ترف له ثمنه الباهظ . . . ولن يكون امام الدبابات في الحرب المقبلة فرصة للعمل لمدة طويلة) . . .

تبنى الجنرال ادموند وجهة النظر ذاتها ، عندما كتب لي رسالة في تموز (يوليو) من

السنة الماضية تعليقاً له على كتابي الأخير طريق بريطانيا الى الحرب ، وألزم نفسه بنبوءة تقول (ان كل دبابة تظهر انفها ستصاب حسب رأيي بضربة قاضية على الفور ، . . . وان الحروب التي تتصورها انت وفوللر قد تجاوزها الزمن) . ولقد كانت مثل وجهة النظر هذه لاقناع الذات امراً خطيراً لا سيما عند صدورها عن رئيس قسم التاريخ في الفرع العسكري لهيئة الدفاع الامبراطورية ، وعن الرجل المسؤول عن استخلاص النتائج الصحيحة من الماضي لتوجيه الجيش في المستقبل .

أصبح دوف كوبر اميناً عاماً للدولة في شؤون الحرب عام ١٩٣٥ ، وعندما وضعت امامه تقديرات الجيش لموازنة عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ ، علق بسخرية وتهكم على تقرير (الخبراء العسكريين) الذين (سيطلبون اليك تبديل آخر حصان لديك بمحرك دراجة . ودفع آخر جندي من جنود المشاة الى داخل الدبابة) . وتابع تعليقه على ملاحظة العقيد هندرسون بقوله (ستمر سنوات من النقد العسكري في اعقاب كل اختراع عظيم وذلك قبل ان يعود للفكر العسكري توازنه) . وصرح بان هناك جميع الشواهد على ان اختراع (الرصاصات الخارقة للدروع) قد تقدم على (الدروع المقاومة للرصاص) . وكان دوف كوبر يعتبر انه سيكون من المحتمل خلال سنوات على الأقل (ان تصبح اثقل الدبابات وأقواها ضعيفة أمام النيران تماماً كما هو الأمر الآن بالنسبة للعربات الخشبية القديمة في مجابهة النيران الحالية) . وقد صرح عند اجابته على المناقشة (لقد توفرت لي الفرصة اثناء الحرب الأخيرة لدراسة القضايا العسكرية في حياتي الخاصة وفي الحياة العامة على حد سواء ، وكنت كلما أوغلت عمقاً في الدراسة كلما أصبحت اكثر تأثراً بأهمية الفرسان (الخيالة) ودورها في الحروب الحديثة) . وكان المرجع في حياته الخاصة يعود بصورة واضحة لعمله في اعداد سيرة الحياة الرسمية لهيغ ، والتي كان قد كتبها كجانب من نشاطاته في وزارة الحرب وواجباته فيها . ولم يكن الموقف الظاهر في حديث دوف كوبر مقدمة ميمونة لتكوين لواء الدبابات التجريبي ، الذي صدر المرسوم بانشائه والذي كان من الواجب البدء بتنفيذه في الشهر التالي .

بدأ الجنود ، والذين حاولوا انتقاد الدبابة بقسوة للانتقاص من قيمتها ، في تلقي دعم متعاظم من خلال استخلاص ما تضمنته التقارير التي ظهرت في بداية عام ١٩٣٢ بشأن نوع جديد من (الرصاص الخارق ـ للدروع) و (المجنح) وهو الرصاص الذي كانت تطلقه بواريد مصممة بصورة خاصة ، كان قد وضع تصميمها مهندس الماني اسمه « هرغرليتش » وتمت تجربتها في مؤسسة لاختبار الأسلحة الصغرى في رايخ ويهر بالقرب من برلين . وارتفعت الأصوات للمطالبة بدعم السرعة العالية لرصاصات (ما فوق

الثاقبة) . بهدف مساعدتها لاختراق الدروع التي يزيد سمكها عن نصف انش . وقد علقت على هذه الطلبات في مرات كثيرة على صفحات الـديلي تليغـراف ، فعبـرت عن الشكوك بشأنها استناداً الى ارضيات تقنية متنوعة ، وافترضت ايضاً ان الهدف من نشر هذه التقارير في وسط الجمهور ما هو الا (خدعة كبرى) مصممة لخدمة سياسة الردع في مجابهة تهديد التقدم الافرنسي عبر الحدود ـ ومن اجل فرض دفع التعويضات بالقوة على المانيا ـ في تلك الفترة التي لم يكن لدى المانيا دبابات . ولكن لم يكن هناك مثل هذه الشكوك ـ بأي شكل من الاشكال ، لتردع المقاومة البريطانية لقبول هذه التقارير واستثمارها ضد تطوير السلاح الآلي (الميكانيكي) في الجيش الحديث . وعندما قابلت « شيتوود » الذي اصبح الأن قائداً اعلى في جيش الهند اثناء احدى زياراته لانكلترا ، ابدى ملاحظته بمرح ونشوة وهو يقول بأن اصداء رصاصات ما فوق الخارقة كانت بمثابة النعوة لدفن نظرياتي بشأن القوة المدرعة . وبقي خاضعاً لهيمنة هذه التقارير المفرطة في مبالغتها حتى سنوات عديدة بعد ذلك .

كان الجنرال سيلي أميناً عاماً في الدولة لشؤون الحرب خلال عام ١٩١٢ ـ وعـام ١٩١٤ وكان قائداً موهوباً جداً في قيادة الخيالة (الفرسان) خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد عمل الجنرال سيلي على نشر الموقف الاساسي للمعارضة عام ١٩٣٣ عندما وقف على حدود الدبابات ووصفها بتهكم وازدراء بانها « تلك الأشياء البتـرولية » . وهنـاك ضوء جانبي يبرز الكراهية الغريزية من خلال رسالة وصلتني في تلك الفترة وجاء فيها بأن (انصار الفروسية والخيول يشكلون اعداداً كبيرة سواء في مجلس النواب او في الأقاليم ـ وانه ليس لدى هؤلاء اي سبب لقناعاتهم سوى حب الخيول والصيد ، الأمر الذي يطغى على كل الحجج المنطقية) .

لم يكن مثـل هذا الحـكم المسبـق وفي الجـذور الاجتماعية امـراً جديداً في تاريخنـا العسكري . وهناك نموذج قديم أظهر فيه الجيش البريطاني طريقته البطيئة في استثمار ميزة الاسلحة النارية . وتخلفه عن بقية الجيوش ، بصـورة خاصـة في رفـع نسبـة القناصـة (بالبواريد) عن نسبة حملة الرماح . وقد ذكر روجر ويليام في كتابه (حديث الحرب) عام ١٥٩٠ انه كان في حماسه للبرهان على ان الرمح هو من اكثر الاسلحة اصالة ونبلاً . وجاء ايلتون بعد ستين عاماً ليخصص الفصل الثاني من كتابه (الهيكل الكامـل للفـن العسكري) للغاية ذاتـها تحت عنـوان (الاسباب الكثيرة لاعتبـار الرمح هو من اكثـر الأسلحة اصالة ونبلاً) . وجاء السير شارل الأول . فأوضح الأسباب الجوهرية لذلك في كتابه الكلاسيكي (التقليدي) (جيش كرومويل) وقال ان سبب احتفاظ الرمح بقيمته

كأفضل الأسلحة هو انه اقدمها على الاطلاق . وانه احتفظ ايضاً بقيمته النبيلة لأن جميع المغامرين من الفرسان الذين تطوعوا لخوض الحرب ، كانوا يفضلون التشبه بالوصف الملتصق بالفارس (الذي يجر رمحه) . وعلى هذا فقد كان رجل الرمح هو الرجل النبيل اذا ما قورن بالمقاتل المسلح بالبارود .

لقد أبرز شكسبير هذه النقطة ذاتها في مسرحيته « هنري الخامس » عندما وصف جولة الملك متنكراً في المعسكر خلال الليلة السابقة لجولة « آجينكورت » وسأله بيستول - المسدس - (وهو اسم رمزي) بقوله (هل انت ضابط ، ام انت مجرد سافل ، معروف وشعبي ؟) وأجابه الملك : (انا الرجل النبيل في السرية !) - وهل تجر رمحك القوي ؟) وكان جواب الملك : (هو كذلك !)

لقد ضحى فرسان القرن السابع عشر بقضيتهم نتيجة التزامهم العنيد بقناعاتهم ومفاهيمهم . وضاعت منهم فرصة تطور الأسلحة النارية بسبب كبريائهم وتفضيلهم للرمح وحكمهم المسبق على البارود . وتوالت عليهم الهزائم قبل ان يعمل كروموبل على بناء الجيش الجديد . وكذلك فان فرسان القرن العشرين تسببوا في شلل اقليمهم وتعريضه للخطر نتيجة تأثرهم بمفهوم اجتماعي مماثل . وهو تفضيلهم للحصان وحكمهم المسبق في ادانة الآلة . وقد تعرض تنظيمهم للهزيمة امام قوات هتلر المدرعة . وعلى الرغم من ان تلك الهزيمة لم تكن نهائية ، الا ان تأثيرها كان اكثر تدميراً للرفاهية والثروة بحيث أصبح من المحال على بريطانيا العودة بعد الحرب لكامل صحتها .

كانت هناك عقبة اخرى ابعد تأثيرا في تطور القوات المدرعة ، وهي الرغبة في ابقاء المدرعات كخادمة للمشاة . وعلى الرغم من ان هذه الظاهرة كانت إكثر وضوحا في فرنسا كما كانت نتائجها عام ١٩٤٠ اكثر تدميرا على الشعب الافرنسي ، الا انها كانت بالنسبة لبريطانيا وجيشها تمثل حدا قويا في كبح قدرتها . وعلى هذا فقد كان الدور الجديد الذي اضطلع به لواء الدبابات في المنهج التدريبي لعام ١٩٤٠ يشابه الى حد بعيد اسلوب النظر الى طريقة مطالبة المستعمرات باستقلالها .

هناك ثمة نموذج وضاء لهذا الموقف اظهرته التعليقات على الاتجاه الجديد ، وهي التعليقات التي صدرت عن قائد كبير من قادة المشاة . وتضمنت هذه التعليقات نقدا لفكرة توغل الدبابات العميق الى داخل بلاد العدو ، ووصفت الفكرة بانها (غير عملية من المحال تطبيقها) . وتابع المعلق قوله (لأعظم عمليات الخداع جميعها) والتي تقضي (بالالتفاف حول مجنبات العدو ومؤخرته) (بهدف دعم الهجوم الرئيسي) و (الافادة من

الاثر المعنوي) الذي تخضع له وحدات العدو التي تتصدى لمقاومة قوات مشاتنا . وكان من رأيه ان مثل هذا العمل المنعزل لا يساعد الهجوم ، وانه من الافضل استخدام الدبابات لدعم المشاة بصورة مباشرة لاختراق سياج الاسلاك الشائك واجتياح مواقع المدافع الرشاشة التي تغطي جبهة العدو . وفي جميع الاحوال ، فانه لن يكون للدبابات مثل ذلك التأثير المعنوي المشابه لما امكن تحقيقه من اثر عند ظهور الدبابات للمرة الاولى (في الحرب العالميةالاولى) . وان اعظم نجاح يمكن انجازه قد تحقق في عام ١٩١٧ - ١٩١٨ ، عند ظهور هذا السلاح . وانتهى المعلق الى نتيجة ساخرة عندما قال (وانني افترض بان خط التفكير الظاهر في المذكرة ، الحديثة انما هو نتيجة لظروف العمل في سهل ساليسبوري ، وفي ميادين التدريب المشابهة له .

تظهر مثل وجهة النظر هذه ، مدى الرؤ ية المحدودة في مثل تلك الاوساط التي استبعدت احتمال التوغل العميق للدبابات والذيتم تنفيذه في عام ١٩٣٩ ، و ١٩٤٠ . ولقد رافق جعل الحقيقة الجغرافية (بان القسم الكبير من مناطق اوربا مشابه لسهل ساليسبوري) افتراض بأن اي طبيعة لاقليم آخر ستكون منيعة على تحرك الدبابات . وكانت الثقة الخادعة التي استمرت في الهيمنة على جنود المدرسة القديمة في كل مكان قد التحمت بفكرة التحرك المحدود للدبابات مما مهد السبيل للكوارث المأساوية التي ادت الى انهيار الدفاع في الاردين وهولاندا ويوغوسلافيا واليونان .

كان هناك عذر على الاقل في عام ١٩٣٤ بشأن التعلق بفكرة خاطئة هي استحالة عمل الدبابات بفاعلية في المناطق او في الليل ، نظرا لعدم تحقيق النجاح الرائع في تأمين الانوار والاضاءة في الدبابات ، الا خلال تلك الفترة حيث تم تحقيق هذا الانجاز في الحدود الشمالية - الغربية للهند . وقد ترددت السلطات العسكرية هناك ترددا كبيرا امام تحويل سريتين من اصل السرايا الثماني الموجودة في الهند الى سرايا دبابات خفيفة تتم تجربتها في عمليات الحدود وكان قد امكن اجراء التحويل في عام ١٩٣٣ ، وتمركزت احدى السريتين في اقليم بلوخستان ، حيث تولى هنري كارسليك القيادة هناك خلال تلك الفترة وذلك بعد ترفيعه الى رتبة لواء . وقد ارسل لي هنري كارسليك تقريرا مفصلا عن تمارين تلك السنة ذكر فيه ان (سرية الدبابات الخفيفة قد وصلت الى كل مكان فوق الارض الصعبة لذلك الاقليم . وانها تحركت لمسافة ١٠٠ ميل في اليوم ، ولمدة ايام ثلاثة على التتابع ، دون ان يصاب سدنتها بالارهاق او التعب . كما عملت السرية في احدى المناسبات على القيام بحركة التفاف حول مجنبة العدو للوصول الى مؤخرته وامكن تنفيذ التحرك في الظلام لمسافة ١٠ أميال فوق ارض مجهولة - صعبة جدا

وكثيرة التعاريج ـ وذلك بين الساعة الواحدة والساعة الخامسة صباحا .

وعلى الرغم من ان (عقيدة) استخدام المدرعات تمنع تكليفها بواجبات الاستطلاع فقد عمل هنري كارسليك على استخدامها في هذا الواجب نظرا لأن الخيالة قد استنزفت قوتها بعد تنفيذها لواجب الاستطلاع بوثبات على يومين متتالين كانت كل وثبة يومية منها لا تتجاوز الخمسين ميلا . وظهر ان الدبابات الخفيفة ذات اهمية (لا تقدر بثمن) عند تكليفها بهذه الاعمال . ويمكن ان يضاف الى ذلك ان هذه الدبابات قد برهنت في عام ١٩٣٥ ايضا على (قيمتها الثمينة) في القتال عندما تم استخدامها في قمع التمرد الخطر الذي اثارته القبائل الاسلامية (المحمدية) وكانت سرعة الدبابات ، وعدم تأثرها برصاص البنادق امرين كافيين لمباغتة رجال القبائل الذين سرعان ما اطلقوا عليها لقب (الافاعي الباصقة) .

* * *

تم تشكيل لواء الدبابات الاول رسميا في الاول من نيسان (ابريل) ـ (وهو اليوم المنحوس ـ بسبب تداول الكذب فيه) . ولكن تم تشكيل فوج الدبابات الخفيف ـ وهو الفوج الجديد ـ عن طريق اقتطاع جزء من قوة كل فوج من الأفواج الاربعة الموجودة ، ولم يكن بالمستطاع تجهيز الفوج لاكمال استعداده قبل حزيران (يونيو) . كما تجمع قوة اللواء بكاملها في معسكر تيلشيد من ساليسبوري قبل شهر تموز (يوليو) . وكان الى جانب فوج الدبابات الاول (الخفيف) افواج الدبابات الثاني والثالث والخامس . والتي اطلق عليها الآن اسم (افواج الدبابات المتوسطة) ولكن سرايا هذه الافواج كانت تضم خليطا متنوعا فهي مشكلة من فصيل دبابات متوسطة من ٥ دبابات وفصيل من ٧ دبابات خفيفة . وكانت الظاهرة الرئيسية ، الجديدة في هذا التشكيل (علاوة على الفوج الخفيف) هي وجود وسائط نقل اللواء التي تم تنظيمها لجعل اللواء قادرا على تحقيق الاكتفاء الذاتي من وقود واغذية وذخائر وامدادات متنوعة لمدة ايام عديدة ، وبذلك تتوفر له القدرة للاستقلال عن محاور امداده وخطوط مواصلاته عندما يعمل على ضرب خطوط مواصلات العدو . وقد كتب لي هوبارت ، وهو يبعث لي ببرنامج عمله ما يلي :

(قد يكون من المفيد جدا لو استطعنا اقناع الجنرال بورنيت ستيورات ـ المشرف على تدريبنا ـ . ذلك اننا سنتمكن عندها من انجاز مرحلة حقيقية في التقدم الى الامام نحو الواقعية ، وفي اتجاه القوة والمفهوم اللذين ربما ضمنا بعضا من الفائدة لانكلترا ، عندما ستندلع نار الحرب المقبلة) .

كانت سرعة السير ، ومدى التقدم ، عند ممارسة التحرك الاستراتيجي ، مقيدتين بقدرة الدبابات المتوسطة القديمة . وقد وجد بأن اللواء قادر على التحرك بسرعة ٨ أميال بالساعة ، وانه يستطيع قطع مسافة ٦٠ او ٧٠ ميلا في مسيرة يوم عادي لمسيرة عشر ساعات ، وكانت نسبة الاعطال الآلية (الميكانيكية) بين الدبابات المتوسطة لاتتجاوز حدود الخمسة بالمائة فقط ، وذلك نتيجة للصيانة الدقيقة والعناية بالدبابات عند كل توقف .

كان لواء الدبابات ، وهو في تشكيلة الانتشار الجيدة ، عادة ما يشغل في التحرك جبهة عشرة اميال تقريبا ، كما ينتشر بالعمق على المسافة ذاتها (١٠ ميل) اما فوج الدبابات الخفيف فكان ينتشر على مسافة اكبر ، حيث كان يتقدم مسافة خمسة اميال ليسبق مقدمة الدبابات المتوسطة ويتحرك على محاور طريقين او ثلاثة طرق عندما تتوفر امكانات ذلك ، وعلى جبهة ثلاثة حتى خمسة اميال ، وكان تغيير الاتجاه يتطلب المزيد من الممارسة والتدريب ، ولكن ذلك عادة ما كان يتطلب لاكمال تغيير الاتجاه فترة ثلاثة ارباع الساعة في ضوء النهار ، وفترة اطول منها في الليل . وكانت جميع الاوامر تصدر بواسطة الهاتف اللاسلكي ، حتى على مستوى الاتصالات داخل سرايا الدبابات ذاتها .

تم تخصيص الاسبوعين الاولين لتدريب اللواء بكامله على تطوير تحركه التعبوي (مناورته التكتيكية) واتقان اساليب تجاوز العوائق مثل الانهار والتي تستند اليها القوات الدفاعية ، ولكن بعد ذلك بدأت تجربة استخدام القدرة الاستراتيجية ، لتشكيل المدرعات ، وفي الاسبوع التاسع ، وصلت المناورة الى ذورة ـ مجالاتها البعيدة ـ وتجاوزت كل المراحل السابقة لها . ذلك انه بعد التوغل العميق في اتجاه الغرب ، داخل المنطقة الخلفية للعدو ، بدأ مسار التحرك بالانحراف ـ لتهديد الاهداف المختلفة ، وتضليل التحرك ـ المضاد للعدو ـ واستمر اللواء في تقدمه داخل المناطق المخفية والمستورة في نطاق الغابات القريبة من « كرانبورن شيس » وذلك مع بداية المساء . وقد ذكرت تقارير الرصد الجوي متابعتها لهذا التحرك . ولكن اللواء لم يلبث ان تحرك من جديد بعد منتصف الليل مباشرة ، وقبل طلوع الفجر ، كان اللواء قد اختفي مرة اخرى في منطقة غابات تبعد اكثر من ثلاثين ميلا عن الغابة السابقة ، وقد تحركت ارتال اللواء على طرق خداعية . منطلقة بصورة ظاهرية على اتجاهات مختلفة . ونظرا لما تضمنته التقارير عن طبيعة الارض كثيرة التعاريج فقد احيطت عملية التحرك بالكثير من التضليل والخداع . وكمنت الدبابات طوال النهار التالي وهي مختفية في الغابة في حين كانت الطائرات (المعادية) تمسح غرب انكلترا بحثا عن اللواء المدرع . وعندما حل الظلام من جديد ، استأنف اللواء تحركه في

طريق العودة ، وبدأت الارتال مرة اخرى في المسير على اتجاهات مختلفة وامكن هـ الوصول بعد وثبتين طويلتين الى « تيلشيد » وقبل بزوع الفجر بقليل .

ولقد استطاعت الدبابات المتوسطةخلال مناورتها التي استمرت اثنين واربعين ساعة ان تتجاوز بمعدل وسطي مسافة ١٢٠ ميلا تقريبا ـ في حين وصلت مسافة الدبابات الخفيفة حتى ١٦٠ ميلا .

كانت النقطة المميزةجدا في هذه المسيرة هي ان لواء الدبابات قد تجاوز اكثر من نصف المسافة في التحرك الليل • وكان المعدل الوسطي لسرعة التحرك في الظلام لا تنقص اكثر من ميل واحد فقط في الساعة عن سرعة التحرك العادية في النهار . وكانت هذه النقطة مميزة جدا لأن الذرائع الرئيسية في المناقشات المبكرة لمدرسة الفرسان قد تركزت على ان الدبابات عاجزة عن التحرك في الظلام بمثل ما يستطيعه الفرسان . .

وكان تطوير التحرك الليلي هو احد الظواهر الرئيسية في تدريب لواء الدبابات كما كان التقدم الذي امكن انجازه يستحق الاعجاب . فلقد عمل هوبارت على اعطاء الوحدات فرصة الممارسة العملية باستمرار ، لا في مجال المسيرات الليلية البسيطة فحسب ، ولكن في تنفيذ الانحرافات غير المتوقعة عن الطرقات ، وفي مجال التغييرات السريعة للاتجاهات . واصبح باستطاعة اللواء ، في نهاية الموسم التدريبي ، تنفيذ هذه العمليات ، فوق الطرق ، والسير عبر الاقاليم على حد سواء ، وبسرعة اقل بقليل من السرعة في ضوء النهار ، هذا على الرغم من استخدام الاضواء الزرقاء الجانبية فقط . وكان الوصول الى مثل هذه المهارة الليلية هو المفتاح الرئيسي لمقترحاتي في مخططات هوبارت وذلك بهدف تطوير فن المناورة الخادعة للقوات المتحركة .ـ

لم تكن القيمة الكبرى لهذه التمارين الاستراتيجية هي في اختبار قدرة القوات المدرعة فقط ، ولكن ايضا بدورها المثير (من خلال العرض) لابراز ما تستطيع مثل هذه القوات الاضطلاع به وتنفيذه . وعلى الرغم من ذلك فقد استمر المتزمتون (المتعصبون) من الجنود في نقدها وفي وصفها (باللاواقعية) مع السخرية من فكرة توغل القوة المدرعة لمسافات بعيدة الى الخلف من جبهة العدو ، دون ان يتم دحرها او تدميرها . واستمرت هذه الشكوك ولم تتبدد ، عندما اشرت الى ان هناك براهين كثيرة ضمها التاريخ العسكري وهي لتظهر قدرة القوات المتحركة على تهديد عدد من المواقع داخل بلاد العدو ، مع توفر الفرصة للتوغل العميق دون مقاومة في كثير من الاحيان ، وكذلك قطع خطوط مواصلات جيش العدو دون اي تدخل من هذا العدو .

ورفضوا تصديق امكان الوصول الى مثل هذه النتائج في الحرب ا لحديثة ، وتمسكوا بشكوكهم حتى عام ١٩٤٠ . وهناك نقد آخر من انتقاداتهم وهو ان مثل تلك العلاقات المتنوعة والمعقدة في التحركات التي تقوم بها افواج الدبابات ، وهي تستدير حول الاقليم ، وتضاعف المسافة في الرجوع على سلاسل الدبابات ، ستكون تحركات صعبة للغاية في الحرب ، وبقي الامر كذلك حتى جاءت عمليات جيش البانزر الاول بقيادة فون كلايست لتظهر على مسرح روسيا المزيد من التوسع في الاعمال البطولية المدعمة بالمناورات الخداعية ، فامكن بذلك تكوين عدد من الثغرات وازالة قوات مقاتلة بكاملها وهي (متناثرة في كل مكان) .

اثارت تقاريري والتقارير الاخرى عن مناورات اللواء المدرع اهتماما في الخارج اكثر بكثير من اهتمام وزارة الحرب البريطانية بشأنها . وكان غودريان في ذروة حماسته واندفاعه بحيث انه لم يتمكن من كبح جماح نفسه والانتظار حتى تتم ترجمة هذه التقارير وتوزيعها عن طريق وزارة الدفاع الالمانية في برلين ، فعمل على تكليف مدرس الماني ـ على نفقته ـ من اجل ترجمة المقولات والتقارير فور ظهورها . وعندما تم تعيينه في السنة التالية لقيادة فرقة البانزر التي شكلت في الجيش الالماني ، عمل غودريان على تنظيم مجموعة من التمارين وفق العلاقة التي استخدمها هوبارت في تمارينها ذاتها . وكان هناك ضابط بلغاري الحق بهيئة اركان غودريان وتأثر بحماسته ، ثم اخبر صديقا لي قابله خلال زيارته للبلقان فقال له (بأن التمارين كانت مجرد اعادة للعبة من اللعب) .

اوضح تقرير هوبارت عن تمارين عام ١٩٣٤ ومناوراته ، والذي رفعه الى وزارة الحرب ، مجموعة من النقاط التي استقبلت بحماسة من قبلي بصورة خاصة . وكانت احدى هذه النقاط هي القدرة العظمى لاشتراك تأثير الدبابات مع تأثير الطيران . وقال في تقريره (انه من المحال تقريبا المبالغة في تقويم اهمية التعاون بين القوات الجوية الملكية ولواء الدبابات . ذلك ان التعاون الوثيق بينهما هو الشرط الاساسي لانجاز كل نجاح في كل عملية من العمليات القتالية . هذا مع العلم ان كل ما امكن الحصول عليه من الجهد الجوي للمناورات هو طلعة استطلاع وطلعة طيران مقاتلة . وقد كان التوفير في استخدام الطيران لموارده في هذا المجال الاساسي امرا يثير الشفقة بالمقارنة مع الدعم الجوي الكامل الذي كان يتم تأمينه للقوات المدرعة الالمانية عندما تم انشاء هذه القوات و تنظيمها .

ولقد استمر تقييد التعاون بين الدبابات والقوات ـ الجوية بتأثير العقيدة القتالية التي كانت تعتنقها هيئة الاركان الجوية البريطانية وهي عقيدة (الاستراتيجية المستقلة) للقوى

الجوية . ولهذا كانت قيادة القوى الجوية تحرص على تأمين الحد الادنى من التعاون مع القوات الأرضية .

أمكن خلال تلك السنة احراز قدر كبير من التقدم لتطوير القوات الجوية في كثير من المجالات ، فقد تمت اقامة قواعد لاسلكية كمبدأ ثابت في تأمين الوسائط الأرضية لشبكات الاتصال والرقابة مع القوة المدرعة . وكان برود قد عبر في تقريره عن اعمال اللواء عام ١٩٣٢ وأوضح بأن الهاتف اللاسلكي (هو ضرورة اساسية لنجاح المناورة) وعلى هذا فانه يجب تدريب الافراد في كتائب المدرعات على استخدامه . ولكن بقي الرأي الشائع هو ان استخدام هذه الأجهزة سيكون صعباً جداً للعمل على نطاق عام ، وان هذه الأجهزة تصلح فقط للعمل في تأمين الاتصالات بين قيادات الأفواج وقيادة السرايا . ولم يوافق هوبارت على هذا الرأي ، فعمل مثل ليندسي وبرود على دراسة تقريري عن حملات المغول وقواتهم ، وهو التقرير الذي يوضح مدى ارتباط فاعلية هذه الحملات وقوتها بفضل حل مشكلة ادارة حركة القوات والسيطرة عليها . وقد أصبحت الأجهزة اللاسلكية في العصر الحديث هي الوسائل الواضحة لتحقيق هذه الغاية . وهكذا فعندما اصبح هوبارت قائداً للواء الدبابات الأول . كان شعاره (اذا كنت تثق باللاسلكي فعلاً ، فانه سيعمل على خدمتك) ، وطلب الى الضباط جميعهم بمن فيهم ضباط القيادة اتباع دورات اضافية حتى اصبحوا على درجة عالية من الكفاءة في استخدام الأجهزة اللاسلكية ، هذا بالاضافة الى استثارة الضباط وتشجيعهم ، وقد نظمت الدورات الاضافية في الساعات التي تعود الضباط خلالها على ممارسة لعب كرة المضرب (التنس) ولم تستغرق مدة الدورة حتى نهايتها اكثر من ثلاثة اسابيع .

كان الهدف الأول لهوبارت هو زيادة المرونة وسرعة الحركة ، وهذا يعني استخدام الجهاز اللاسلكي اثناء التحرك . وقد وصف الموقف بالملاحظة التالية (لقد عملت عادة العمل باستمرار وفق اوامر قادة المشاة ، وفي مجموعات صغيرة ، على تطوير عادة التقدم بوثبات قصيرة ، مع خروج الضباط من مدرعاتهم للتشاور على أفضلية الوثبات) وعلى هذا فقد كانت وجهة نظره (بأن الحاجة الأولى هي الايحاء الى الضباط جميعهم بضرورة استخدام اللاسلكي بين الدبابات اثناء التحرك ويأتي بعد ذلك اقناعهم انهم يستطيعون الافادة من هذه الأجهزة اللاسلكية بكفاءة) .

لعل أفضل مثال يبرز جهود هوبارت للحصول على افضل مردود للأجهزة اللاسلكية هو ذلك الذي حدث له عندما زار مصنع وول ـ ويتش ووجد بأن عملية تقطيع

الكريستال (الذي تحمله الدبابات معها لتغيير طول الموجة) تمارسها سيدة وحدها قد اختصت بهذا العمل ، فعمل على دعوتها لزيارة اللواء ورافقها الى مقر قيادته ، واصطحبها في دبابته وكلفها باستخدام جهازه اللاسلكي ، كل ذلك حتى يقنعها بضرورة زيادة قوة الارسال (زيادة المخرج)

كانت المشكلة الثانية التي اعارها هوبارت قدراً كبيراً من اهتمامه ، هي مشكلة تنظيم نقل لواء الدبابات ، وابداع الاساليب للتحرك ، لا من أجل تجنب الفوضى أثناء التحرك فحسب ، بل من اجل القضاء على تأثيرات هجمات العدو الجوية وكنت أرغب في مطالعة تقريره الذي اوضح فيه ضرورة تطوير نقل المدرعات للعمل في جميع الأراضي ، ولكن هوبارت كان يشعر ان اقتراح كل اضافة للنفقات في المستقبل قد تستخدم من قبل المعارضة في هيئة الأركان كذريعة ضد تطوير القوات المدرعة ، وكحجة ضد السماح لهم بالتدريب على الهجمات العميقة في المناورات وعلى هذا فانه لم يذكر في تقريره حتى الاحتمالات او الامكانات المطلوبة وتركز جهده الرئيسي خلال تلك الفترة على انقاص اعداد المركبات (الآليات) في تنظيم الحرب ، وقد ناقشنا هذه المشكلة في كثير من الأحاديث وقد عمل بعد تمرين هيئة الأركان (في مشروع القيادة) في ايار (مايو) على تخفيض العدد من ٣٥٧ الى ٢١٧ وذلك قبل ان يبدأ اللواء بتنفيذ مناورته ، ثم عمل على اجراء تخفيض جديد حتى ١١٧ مركبة . ولقد كانت هذه الفكرة الحذرة في التخفيض (للذيل الاداري) تتناقض بوضوح مع التضخم الكبير الذي ظهر مع اندلاع الحرب في عام ١٩٣٩ ، والذي استمر بعد ذلك حتى عام ١٩٤٢ ، حيث تم تسليح الجيش البريطاني بالدبابات الأمريكية (شيرمان) وعندها نسي الجميع درس (شيرمان) بانقاص (المعوقات التموينية) لصالح زيادة السرعة وأصبح مجموع وسائط النقل لقوة اللواء المدرع تزيد على ٤٠٠ مركبة استخدم لواء الدبابات في الاسبوع الثاني من ايلول (سبتمبر) للقيام بتجربة بعيدة المدى تكون نهاية الموسم التدريبي ، وذلك وفقاً للاقتراح المطروح منذ فصل الخريف الماضي ، عندما دخلت في نقاش طويل مع « هوبو » بشأن استخدام القوة المدرعة عند حدوث حرب جديدة في اوربا ، وفي اليوم التالي لهذا النقاش تلقى جورج ليندسي رسالة من هوبو « تتضمن بعضاً من الملاحظات التي اقترحتها عن استخدام القوة المدرعة منذ المراحل الأولى للحملة الأوربية ، وطلب هوبو في نهاية رسالته الى ليندسي « امكانات تنسيق التعاون للتدريب في السنة التالية » وكان هوبو يعني تنسيق التعاون بين لواء الدبابات وبين لواء المشاة السابع نصف الآلي (الميكانيكي) الذي تولى ليندسي قيادته منذ عودته من مصر في السنة السابقة وهو اللواء الذي استخدم لتجربة

التشكيل الجديد للمشاة . وأجاب ليندسي على هوبو ، فاقترح تقديم طلب مشترك للقيادة بصورة رسمية للحصول على اذن (لتنظيم مشروع تدريبي على مستوى (فرقة متحركة) كخطوة جديدة (نحو الامام) .

وافقت القيادة على الاقتراح ، وبدأ العمل في القيادة الجنوبية لتنفيذ مشروع قيادة (لعبة الحرب) منذ بداية عام ١٩٣٤ يتم فيه افتراض استخدام لواء الدبابات ولواء المشاة الآلي (الميكانيكي) ، ولكن كان لا بد ايضاً من استخدام لواء الفرسان (الخيالة) لتلبية رغبة الفرسان . وكان الهدف يبعد مسافة مائة ميل تقريباً عن قاعدة الانطلاق . وقد برهن هذا التدريب على ما كان قد تم البرهان عليه سابقاً ، رغم ان التدريب قد جرى على الخرائط ، بان قوة الفرسان كانت عديمة الفائدة في ممارسة دور الاستطلاع أمام مثل هذه القوة نظراً لأنها لا تمتلك السرعة ولا قدرة الاحتمال للاضطلاع بمثل هذه الواجبات . وعلى هذا وافقت هيئة الاركان العامة على اخراج لواء الفرسان من (القوة المتحركة) اثناء تنفيذ المشروع الكبير الذي وضعت مخططاته ليتم تنفيذه في ايلول (سبتمبر) . واتخذت الترتيبات لاضافة لواء الفرسان على قوة فرقة المشاة التي تمثل الطرف المقابل في المناورة .

تسلم ليندسي قيادة هذه التجربة الحاسمة للقوة المتحركة (التي نظمت بصورة مرتجلة) نظراً لترفيع ليندسي حديثاً لرتبة لواء . وكانت القوة التجريبية تضم لواء الدبابات ولواء المشاة السابع الآلي (الميكانيكي) ولواء مدفعية آلي (ميكانيكي) وقسم من كتيبة العربات المدرعة ووحدات مساعدة مختلفة . ولكن هذه القوة لم تحصل في الواقع على اي فرصة للتدريب المسبق ، كما لم يمارس اركان القوة اي عمل مشترك بعضهم مع بعض ، ولقيت الاتصالات (الشبكات اللاسلكية) بعضاً من العوائق ، كما استخدمت الحافلات المدنية (الباصات) لحمل المشاة الآلية (الميكانيكية) . وقد بدأ ليندسي المشروع بعبارات مؤثرة وجهها الى الضباط ، قال فيها (سنبدأ الليلة مغامرة كبرى في اقتحام المجهول) .

كان الجنرال بورنيت ـ ستيوارت قد رجع من مصر في فصل الربيع من تلك السنة وتم تعيينه قائداً أعلى للمنطقة الجنوبية ، فتولى بذلك وضع المشروع التدريبي وادارته . وكان ويڤل هو رئيس فريق الحكام في المشروع ، وكان ويڤل قد رفع حديثاً الى رتبة لواء وكتب كتاب (قواعد الخدمة في الميدان) قبل ان يتولى قيادة الفرقة الثانية التي كانت متمركزة في قاعدة آلدرشوت . وظهر أن الظروف مناسبة جداً لنجاح مثل هذا المشروع بفضل وجود قائدين تقدميين في تفكيرهما (ستيوارت وويڤل) . ولكن لم يكن بالمستطاع الاعتماد على وجهة النظر المتفائلة هذه ، نظراً لما عرف عن جوك ستيوارت من صفتين جعلتا من المستحيل توقع النتائج مسبقاً او التنبؤ بها .

كان جوك ستيوارت يتميز بعقل متفتح وذهن وقاد وخيال خصب مع رؤ ية لجزئيات الأمور . وكان موقفه من الدبابات موقف المتشكك عندما كان في هيئة الأركان العامة في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد انتشرت بعض تعليقاته (الساخرة) عنها على نطاق واسع . وقد غير ستيوارت رأيه عن الدبابات خلال سنوات ما بعد الحرب وأظهر في بعض الأحيان رؤ يته الواضحة لميزات الدبابات وقدراتها ، ولو انه استمر عرضياً ، أو في المناسبات ، في دعم فكرة (الأسلحة المضادة ـ للدبابات) عند كل فرصة تسمح له في التحدث عنها ، فيظهر وكأنه من خصوم الدروع ، وان عليه مجابهة الحالمين بقدراتها غير العملية والذين يجب كبح جماحهم . وقد سبق في الفصل الخامس ذكر طريقة صده دون تفكير لوجهات نظر فوللر ومقاومته له في تجربة عام ١٩٢٧ بشأن قوة المدرعات الأصلية (الأساسية) . وعلى الرغم من اسفه وندمه لهذه التصرفات السيئة ، فقد حضر احد تمارين هذه القوة لعبور الأنهار في السنة التالية (وهو يحمل صنارة الصيد في يده رغم ارتدائه للثياب العسكرية الرسمية) . وعندما ظهرت الدبابات عند الضفة القاصية للنهر ، انطلق لاشباع رغبته في اطلاق التعليقات الساخرة على كفاءتها ، وأصر على زعمه في استمرار ممارسته للصيد اثناء صراع الدبابات لعبور النهر .

غضب سدنة الدبابات لهذا السلوك الساخر الذي سلكه قائد الفرقة ، ولم ينظروا اليه على انه مجرد تصرف ترفيهي مسل على نحو ما فعلت ، ذلك انهم كانوا غير قادرين على الرد المناسب بمثل ما كنت أفعله في هذه المناسبة وفي مناسبات اخرى عندما كنا نندفع بحماسة في تبادل الطعنات « ما بين هجوم ودفاع » للبرهان على وجهات نظرنا امام عدد من الضباط الأعوان الذين كانوا يتحلقون حولنا وهم يستمتعون بمناظراتنا الجدلية ، ولم يكن جوك ستيوارت يتلقى الصدمات او يردها بروح من الحقد ، وانما بروح طيبة . فهو لم يكن يحمل الغيظ او الاستياء ، ولكنه كان يثيره . وكانت هذه الروح ، بالاضافة الى سلوكه غير الرسمي مع مرؤ وسيه هما الأمران اللذان يجعلانه قريباً الى قلوب هؤلاء المرؤ وسين ، محبوباً لديهم .

مقابل ذلك ، لم يكن ، جوك ستيوارت ، محبوباً الى هذه الدرجة من قبل رؤ سائه ، لا سيما اولئك الذين كان ينظر اليهم على انهم اغبياء او مصابون بالغرور . وعندما كان جوك ستيوارت قائداً للفرقة الثالثة في القيادة الجنوبية ، كان هدفاه الرئيسيان قائدين لم يلبثا ان توليا على التتابع قيادة تلك القيادة وهما غودلي ، ومونتغومري ميسينغبورد ، وكان مغرماً في طرح الأسئلة الماكرة والخبيثة التي تظهرهما في المؤتمرات بمظهر المجنونين او الأحمقين ، ويجعل الضباط الأعوان المجتمعين في المؤتمر ينفجرون

بالضحك . ولعل النموذج الواضح لاسلوبه الشيطاني في المزاح هو ذلك الـذي حدث عندما ارسل الى مدير المكتب المالي طلباً للحصول على نفقات السفر من اجل (تناول طعام العشاء مع القائد الأعلى للمنطقة) . وحصل من المكتب المالي على وثيقة واضحة تفيد بأن الذهاب لمأدبة العشاء لا يسمح بدفع النفقات ، فأجاب جوك ستيوارت على الفور (اذا لم يكن العشاء مع قائد المنطقة واجباً ، فالله وحده يعرف ما هو) . وكان جوك ستيوارت يعرف انه من الطبيعي انتشار هذا التعليق بشأن الاعباء المرهقة في رفقة قائد المنطقة ، حتى يصبح معروفاً لكل من في المنطقة وخارجهـا بسرعـة ، وحتـى يثـير في الجميع موجـات الضحك . وفي احدى المرات ، وعندما صعق مونتغومري ميسينغبورد من تعليقات جوك ستيوارت اللاذعة ، التفت اليه ليقول له بحدة (عندما تتحـدث مع قائـد اعلى فعليك اخراج غليونك من فمك ووضعه جانباً) فما كان من ستيوارت الا ان ضاعف جهده لاثارة الضحك .

وقد تطورت هذه المماحكات نحو الأسوأ وأصبحت ظاهرة واسعة الانتشار عندما اصبح ميسينغبورد رئيساً لهيئة الاركان العامة وعاد جوك ستيوارت من مصر ليتولى قيادة المنطقة الجنوبية . وكثيراً ما فكرت ، وانا اشارك جوك ستيوارت وجهة نظره بأنه « يبحث عن المتاعب » . وكانت النتيجة الطبيعية هي ان مونتغومري ـ ميسينغبورد لم يعمل (عند احالته على التقاعد) على التوصية ليكون جوك ستيوارت خلفاً له . على الرغم من انه كان واضحاً بأن ستيوارت هو من اكثر المرشحين كفاءة وقدرة . وكان الأمر المباغت لي هو ان أجد لدى جوك ستيوارت عزوفاً تاماً عن هذا المنصب ، وعدم التوقـع في الوصـول اليه ابداً .

ان هذه الخطوط البارزة للخلفية الشخصية قد تساعد على ادراك التراجع المشؤوم للمد والذي حدث في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٤ . وقد كنت اشعر بعـدم الراحـة وانـا اتحدث الى جوك ستيوارت بشأن تمارين القوة المتحركة في السنة التالية ادراكاً مني لموقفه الضار والمؤذي ، وقد قال لي في حديثه آنذاك (لقد استطاعت الدبابات ان تعمل بسهولة وان تجري بسرعة في تمارين هذه السنة ، وان الطريقة التي عالجت فيها اسلوب عملها هي التي احبطت روح المشاة ، وعلى هذا سأبذل جهداً كبيراً لتصحيح التوازن في هذا التمرين النهائي) . وكان هناك ما زاد من عدم شعوري بالارتياح ، وهو معرفتي لويفل الذي كان رئيساً لهيئة الحكام ، والذي كان مخلصاً جداً لأفكار رئيسه السابق وكان يتبع على ما يظهر خطاه دون اي مناقشة ، هذا الى جانب ميوله في الخضوع الى الرتبة الأعلى . وظهر ذلك بوضوح قبل سنة حيث كنت استمع اليه وهو يلقـي محـاضرة تحت عنـوان (التـدريب

للحرب) وشعرت بالبهجة وانا اجد التطابق الكبير في وجهات نظرنا ، ولكن عند انتهاء المحاضرة وقف « عميد المحافظين » الجنرال كنوكس ليعارض بقوة ما تضمنته المحاضرة من (وجهات نظر) وأصبت بخيبة امل وانا استمع الى ويفل ، وقد وقف لا من اجل الدفاع عن ارضية تفكيره وانما ليقول معتذراً (ان معرفة الجنرال كنوكس وخبرته هما بصورة طبيعية اعظم بكثير وأكثر اتساعاً من معرفتي ومن خبرتي ، وعلى هذا ، فاذا ما كان هناك ثمة اختلاف بيننا على نقطة من النقاط ، فانه يقيناً على حق وأقرب الى الصواب) .

كان مخطط المناورة بحسب ما وضعه جوك ستيوارت يتضمن دفع قوة متحركة للقيام باغارة بعيدة المدى في العمق ضد تجمع صغير من الاهداف في سهل ساليسبوري ، وهي الاهداف التي افترض وقوعها خلف اجنحة الجيش المقابل . وكانت تغطي هذه الاهداف وتعمل على حمايتها قوات المشاة والفرسان (الخيالة) . بحجم مضاعف ، وقد وضعت الاهداف للقوة المتحركة جميعها ضمن حدود مسافة اميال قليلة ، وذلك للتعويض عن القوة الاضعف في حركتها (من النموذج القديم) عند مجابهتها للقوة المتحركة المنظمة وفق الاسلوب الحديث . وزيادة على ذلك ، فقد كان على القوة المتحركة الانطلاق من منطقة التجمع في غرب سيفيرن عند الجانب الأقصى من عنق الزجاجة في غلوسستر . ولم يكن هناك اي جسر في جنوب المدينة هذه ، بحيث كانت كل محاولة للاستدارة نحو الشمال انما تعني زيادة كبيرة في المسافة بالنسبة للقوة الموجودة (والتي يمكن تبديلها بصورة مؤقتة) حتى من أجل اقرب الطرق المباشرة واقصرها نحو الهدف . . . وكانت المسافة الفاصلة بين القوة المتحركة واهدافها تزيد على سبعين ميلا ، بالاضافة الى ثلاثين ميلاً كان على القوة المتحركة اجتيازها بعد الاغارة للابتعاد عن قبضة العدو ، وكان من الضروري السماح بهامش كبير يضاف الى هذه المسافة من اجل عمليات الالتفاف الموضعية حول الحواجز ، ومن اجل العمليات التعبوية (التكتيكية) . وكانت مثل هذه المسافة عملية ومعقولة بالنسبة للدبابات الخفيفة الجديدة وبالنسبة لرتل السيارات (الباصات) ولكنها كانت طويلة جداً بالنسبة للدبابات المتوسطة القديمة دون توفير فترة طويلة للتوقف من اجل اعمال الصيانة .

كان الطريق المباشر ، الى جانب هذه العقبات كلها ، هو الطريق الجيد الوحيد ، حتى بعد الخروج من عنق الزجاجة في غلوسستر ، لأن بقية الطرق التبادلية عبر كوتسوولد كانت متعرجة وشديدة الانحدار . وجاء بعد ذلك ما هو اسوأ من كل ما سبق عن طريق تقليص فرص مباغتة القوة المتحركة للقوات المدافعة نتيجة اختصار المهلة الزمنية ، إذ تضمن مخطط المناورة عدم السماح بالتحرك حتى الساعة ٢٠٠ من صباح يوم ١٩ ايلول (سبتمبر) عوضاً عن التحرك في الامسية السابقة على نحو ما جرت عليه العادة . وعلى

هذا لم يكن امام القوة سوى ٤ ساعات للتحرك المستور قبل ظهور اول ضوء . ولقد عمل مدير المشروع التدريبي ايضاً على اعلام ليندسي بألا يجازف كثيراً في التعرض للخسائر الكبيرة او الاجهاد في الهجوم نظراً لأن ذلك قد يعيق قواته او يحرمها من الاستعداد للاشتراك في المعركة الرئيسية التي يفترض لها ان تنفذ في يوم ٢١ ايلول (سبتمبر) . وكان ذلك ـ كما قال لي ليندسي بمرارة ـ يشابه الفارس (الجوكي) الذي يطلب اليه محاولة كسب جائزة سباق الخيل مع الاحتفاظ بقوة الحصان على استعداد للسباق من جديد ، بعد انتهاء السباق الأول مباشرة . ولقد كان من الصعب ، في الواقع ، ابداع مشروع تدريبي اكثر ملاءمة لذلك الهدف ، حتى لو لم يتضمن المخطط الأساسي تصمياً لتقييد القوة المتحركة ، إذ أن مجموعة هذه القيود قد اعاقت امكانات التحرك السريع ، والضرب دون توقف ، مما جعل من الصعب جداً على القائد تنفيذ مخططه بصورة مرضية . وتسببت عوامل وضوح الهدف وتقييد التقدم وعائق الوقت في حدوث احباط سبق البدء بتنفيذ العملية . وكان ذلك ظلاً متقدماً للنتائج المشابهة والتي جاءت في اثر عوامل مماثلة ايضاً حدثت للقوات المدرعة البريطانية بعد ذلك بعشرة اعوام ، عندما اندفعت عبر الاردين في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٤ .

وصل رتل المشاة المنقول بالعربات عند الفجر الى هنغرفورد . واستطاع تشكيل رأس جسر على كينيت وقناة آفون . وفي منتصف الليل تقريبا انضم لواء الدبابات الى قوة رأس الجسر ، وكان هذا اللواء قد بدأ تقدمه من غلوسستر في الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبا ـ نظراً لعدم توفر منطقة مناسبة في منتصف الطريق تستطيع اخفاء اللواء اذا ما اراد التوقف اثناء تقدمه . وقد انفصل احد أفواج الدبابات عن قوة اللواء للهجوم على مارلبورو (مدينة) والواقعة على بعد ثمانية اميال الى الغرب من هنغرفورد ، وذلك بهدف توسيع جبهة الهجوم وخداع العدو . وفي هذه الفترة كان قد تم في الطريق المقابل ارسال فوجين من المشاة المنقولين بالمركبات المدنية (الباصات) وعلى الرغم من عدم تمكن هؤلاء المشاة من تجهيز مدافعهم المضادة ـ للمدرعات عند ظهور الدبابات المتقدمة ، فقد عمل الحكام على ارجاع الدبابات وارغامها على التوقف لمدة نصف ساعة كان مشاة الخصم خلالها يحتلون مواقعهم الدفاعية . ورغم ذلك ايضا ، فقد اخترقت الدبابات منطقة عنق الزجاجة في مارلبورو ، ولكن الحكام تدخلوا من جديد ليعلنوا قياساً على وسائط نقلهم بأن نصف الوقود قد ضاع ونفذ وعلى هذا بقيت القوة المتحركة مثبتة في اليوم التالي (يوم ٢٠ ايلول) ومتوقفة عند رأس جسر هنغرفورد ، في حين كان يتم الاعداد لمخطط الهجوم في وقت مبكر من يوم ٢١ .

. اقام ليندسي مراكز قيادته في بير ـ اين (فندق الدب) في هنغرفورد ، وقضيت معه القسم الاكبر من الوقت خلال هذين اليومين . لقد كانت دراسة لعملية الاحباط . فقد وفرت له عناصر الاستطلاع الجوي والأرضي ما حمله على تقدير موقفه بان الطرف المقابل (الممثل العدو) قد اخذ في حشد قواته ضده لدعم المواقع الدفاعية المضادة . وعلى هذا فقد حاول العمل خارج الطرق بهدف تشتيت العدو ، والاسراع ايضا في زج لواء الدبابات . ولكنه هنا أسرع الى اقتحام المتاعب مع هوبارت الذي اصبح مقتنعاً بأن المقامرة اصبحت معبأة ضد القوة المتحركة ، سواء من قبل مدير المشروع او من قبل الحكام ، فرفض هوبارت بعناد ممارسة دوره في هذه المسرحية ، واصر على عدم التعاون لتنفيذ مقترحات ليندسي الصحيحة . وأمضى جورج ليندسي بعد ظهر اليوم التالي وهو يهرول صعوداً وهبوطاً في مقر قيادته ، وكأنه نمر قد وضع في القفص .

تدخل جوك ستيوارت في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم لتوجيه ضربة يتم بها تتويج المشروع ، وكان ذلك على اثر تلقي أمر بتخلي القوة المتحركة عن فكرة الاغارة حتى تكون على استعداد للاشتراك في المعركة الرئيسية الخيالية . ولكن الطرف المقابل ايضا تلقى اذنا في الحصول على الوقت الكافي لاكمال ترتيباته الدفاعية . وأصبح من الصعب جداً على القوة المتحركة التقدم او حتى التراجع والانسحاب نظراً لأن قائد قوات الطرف المقابل (الممثل للخصم) وهو اللواء كنيدي قد تصرف بذكاء وبجرأة في استخدام العناصر المحمولة (بالمركبات) والتابعة لقوته من اجل تكوين شبكة واسعة من سدود الطرق والالغام الميدانية عبر خطوط قوات الغزو (القوات المتحركة) . وأظهر الحكام قدراً كبيراً من التشجيع لدعم جهود سد الطرق بحيث استطاع المدافعون نشر حقول الالغام باعجوبة خلال فترة قصيرة لم تتجاوز حتى العشر دقائق . وقد اعاق ذلك الدبابات عن الخروج بعيدا عن محاور الطرق ، في حين كانت المدافع المضادة ـ للمدرعات مسددة لتغطية الطرق حتى في الظلام .

لقد اعاقت هذه التدابير انسحاب القوة المتحركة ، ولكنها لم تنجح في الاحتفاظ بالقوة داخل الفخ ، وذلك بفضل ما توفر للقوة المتحركة من المرونة ومن القدرة المتحركة أمكن الافادة منها بمجرد التحرك من جديد . فعلى الرغم من صعوبات تحرير مثل هذه الكتلة الضخمة من المركبات في الظلام ، امكن تأمين الانسحاب وانجازه في صباح اليوم التالي وتجمعت الدبابات في منطقتها الجديدة ، وزيادة على ذلك فقد امكن استخلاص درس ساطع للمستقبل برهنت على صحته الطريقة التي عملت بها كتلة الدبابات في التفرق عند مجابهتها لحاجز من الحواجز . وقد نجح التمفصل في ايجاد طرق تبادلية حول

الحاجز ، وتحقق الاتصال بعد ذلك بسرعة مثل قطيع من كلاب الصيد .

لقد جاءت حقيقة الانسحاب لتحجب عن أعين المراقبين اكثرهم الدروس المستخلصة من نجاح الانسحاب . وكان باستطاعة مدير المشروع التدخل لتصحيح الظروف ، وكذلك لتقويم الشروط التي فرضها المخطط الذي وضعه للمناورة ، ولكن تدخله هذا قد أدى الى ظهور شعور خاطىء كان له تأثيره البعيد على النتائج غير الصحيحة فلقد حضر المشروع عدد كبير من الضباط الذين يحملون اعلى الرتب في وزارة الحرب ومعهم عدد كبير من القيادات الأخرى لمشاهدة تجربة القوات المتحركة . ولم يشهد معظمهم ما يستحق المشاهدة في المراحل الاولى من المشروع التدريبي ، ثم قفزوا الى النتيجة السطحية لهذه التجربة العملياتية ، وانتهوا الى الاحباط المتمثل في انه من المحال ممارسة مثل هذه العمليات وتطبيقها في الحرب . وقد كان اليوم الاخير للمشروع يوم تجربة ميدانية لجميع المتشككين ، فقد فيه انصاف المؤمنين بالقوة المتحركة كل ايمان لهم بها واضاعوا كل ثقتهم فيها .

وجاء بوني فوللر لسوء الحظ ليشهد هذا التدريب الأخير (وكان بوني قد احيل على التقاعد) فكتب مقالاً عنه لصحيفة ايفنينغ نيوز افادت منه القوة المعارضة للاستشهاد بما تضمنه من نقد لكفاءة القوة المتحركة ، وهو النقد الذي استند الى حقائق سطحية .

لقد جاءت انتقادات المشروع اكثرها في الوسط العسكري ، دون الأخذ بالعوائق التي فرضها المشروع التدريبي في مخططه ، مع الاهمال ايضا لتلك العوائق التي جاءت من سرعة العمل في تكوين القوة على عجل . ورافق هذا القصور في التحليل ايضا ضعف في الخيال لتقويم الفوارق بين ظروف العمل في ايام السلم وشروط العمل في الحرب .

وقد ذكرت في مقال لي نشرته صحيفة الديلي تليغراف انه على الرغم من شمول المخطط التدريبي لعدد من الأهداف ، الا ان هذه الاهداف كانت قريبة بعضها من بعض حتى كأنها من الناحية الاستراتيجية تشكل هدفاً وحيداً . وان هذه الحقيقة قد أزالت فكرة تنوع الاهداف ، وهي الفكرة التي لا تبرز اهميتها في تحقيق ظروف المباغتة فحسب وانما تبرز اهميتها ايضا على اعتبار انها أقوى أوراق اللعب التي تمتلكها القوة المتحركة . وتشكل الخطوط الطويلة لطرق المواصلات الحديديةفي الحرب الحالية ، وهي الخطوط الواقعة خلف العقدة الحديدية في ساليسبوري . هدفاً ثميناً يزيد في قيمته على مجموعة مراكز القيادة . وكذلك الأمر بالنسبة للمطارات والسدود المنتشرة حول نيذر- آفون والتي يكون من الصعب على الحاميات تأمين الدفاع عنها كلها . وزيادة على ذلك ، فان

(أرض المنطقة الشرقية) الداخلية ، تتداخل مع الأهداف الاخرى - التي تتعلق بها قوات الجيش المدافع اثناء الحرب ، والتي يمكن لقوات الاغارة ان تتفرق عندها . وليس هناك اختبار اثناء السلم يستطيع تكوين جو من الغموض والخداع بمثل ما تفعله القوات المعادية عند فرض سيطرتها على الطرق الداخلية ، و مع ما يتبع ذلك من أثر على الحياة المدنية وعلى المناطق الخلفية للقوات العسكرية .

لم تترك هذه النقاط سوى تأثيرات قليلة خلال تلك الفترة ، واعتبرت بمثابة حجج (مجردة ونظرية) . في حين تم تجاهل العوائق الصناعية (للاختبار العملي) . وتطور رد الفعل القوي في اوساط هيئات الاركان العامة ضد فكرة استخدام القوةالمدرعة المتحركة للعمليات او الهجمات الاستراتيجية بعيدة المدى . وكان لرد الفعل المذكور تأثيره على التطلعات لتشكيل مثل هذه القوة . وعلى الرغم من انقاذ المشروع من الفشل فقد ظهر تراجع عن الاتجاه العاجل لمناقشة التدابير الضرورية في وزارة الحرب لتطوير هذه القوات ، مع ظهور اتجاه اكثر وضوحاً الآن نحو برنامج تجديد فرق المشاة واعادة تنظيمها باسلوب حديث .

اصبح بالامكان - منذ الآن متابعة مقارنة التطور في الجيوش البريطانية والألمانية ، وبصورة خاصة خلال السنوات الثلاث التالية ، وهي التي كانت سنوات صعبة وقاسية - فعلى الرغم من عدم تشكيل اكثر من فوج الدبابات الأول في المانيا حتى عام ١٩٣٤ ، الا انه امكن حتى نهاية عام ١٩٣٥ تطوير ذلك حتى ثلاثة الوية دبابات المانية ، مع دمج هذه الالوية في تشكيل الفرق المدرعة الثلاث التي تم تنظيمها . وعلى النقيض من ذلك ، فان الجيش البريطاني لم يشكل فرقته الأولى من هذا النوع حتى عام ١٩٣٧ ، كما لم تبذل جهود بالتالي للتعويض عن الزمن الضائع في هذه السنوات الثلاث ، واستطاع الجيش الالماني تنظيم ٦ فرق مدرعة حتى عام ١٩٣٩ في حين لم تنجح بريطانيا في تنظيم اكثر من فرقتين بقيتا غير كاملتين في تجهيزهما ووسائطهما .

* * *

تحقق لي انعطاف في مهنتي مع نهاية عام ١٩٣٤ ، وهو العام العاشر الذي انقضى على ممارستي للخدمة كمراسل عسكري في صحيفة الديلي تليغراف . وقد استمتعت الى ابعد الحدود بأجواء قصر بيتربورو خلال السنوات الثلاث الأولى ، حيث كان لورد بيرنهام هو المالك الرئيسي للصحيفة ومدير التحرير فيها ، يعاونه ابن اخيه فريد لوسون (الذي اصبح فيما بعد لورد بيرنهام) وهما اللذان اظهرا اهتماماً كبيراً بقضايا الدفاع . ولكن حدث

في نهاية عام ١٩٢٧ ان بيعت الصحيفة إلى تجمع ثلاثي اقطاب الصحافة الجديدة ـ السير ويليام بيري واخيه غومر والسير ادوارد ايليف ـ (الذي اصبح خلال السنوات القليلة التالية اللورد كامروز واللورد كيمسلي واللورد ايليف) ، وذلك بهدف تتويج سلسلة الصحف التي كانوا يمتلكونها . وقد أصبح كامروز هو رئيس التحرير لصحيفة الديلي تليغراف والمالك الرئيسي لها . وكان للرجل كفاءات عالية ، فبذل جهداً كبيراً لتطوير قدرة الصحيفة وزيادة جاذبيتها ، فأخذ معدل زيادة توزيعها يرتفع باستمرار . وقد تجنب بدهاء اجراء اي تغيير عنيف في هيئة تحرير الصحيفة . ولكنه لم يترك العلاقة الشخصية لهيئة التحرير على نحو ما كانت عليه في عهد سلفه ، فأختفى مناخ (العائلة) وهو المناخ الذي طالما حرص على وجوده فريد لوسون قبل ان يصبح في العهد الجديد مديراً للادارة . كما استمر ارثور ويستون في عمله كرئيس للتحرير خلال الانتقال للعهد الجديد .

حدث مع قدوم العهد الجديد ايضا ضغط متعاظم للحصول على الانباء الساخنة و(تحقيق السبق الصحفي) دون ادراك مناسب للشرط الاساسي وهو ان على المراسل حماية موارد معلوماته ، وعدم خيانة الثقة الممنوحة له ابدا . وقد استطعت خلال هذه السنوات تزويد الصحيفة بالكثير من التوقعات المستقبلية والاجراءات المقبلة والتعيينات في المراكز القيادية قبل اعلانها بصورة رسمية ، وفعلت ذلك كله بحذر كبير مستخدماً في ذلك اسلوب الاستنتاج اكثر من استخدام اسلوب الاعلام المباشر ـ بحيث كان من الصعب متابعة اي اثر شخصي لمصدر المعلومات ، او احراج اولئك الذين كانوا يعتمدون على محافظتي على السر ، ويثقون بي .

لقد ادى اصراري على تنفيذ هذا الشرط ، ورفضي لكل ضغط يهدف لتجاوزه ، ادى الى حدوث صدام مع رئيس التحرير ، وتطور ذلك الى صراع لم اتعرض لمجابهته خلال السنوات السابقة ، ونظراً لما تميز به رئيس التحرير من ادراك منطقي وتهذيب في التعامل ، فقد وقع عليه عبء الضغط المتعاظم من اتحاد المالكين الجدد . ونتج عن ذلك تحول مرحلي ظهر في تقديم استقالتي عام ١٩٣٢ .

ظهر هناك ايضا مجال جديد للصراع في عام ١٩٣٣ عندما تم استيراد مستشار جديد للتحرير من الصحافة الشعبية فأخذ في ممارسة الاقتطاع من المقولات وتعديلها حتى يتم تقديمها بمظهر اكثر حيوية ، وكثيراً ما كان يتم ذلك بطريقة غير ماهرة بحيث كانت التعليقات تسقط من كفة الميزان ، اما مقاطع الانتقادات فكان يتم ابرازها بصورة مبالغة جداً في حين كان يتم حذف المقاطع التي تظهر الحسنات والميزات . وكانت النتيجة

الطبيعية ، والمتعلقة بطبيعة عملي ، هي ان علاقتي مع وزارة الحرب قد اخذت تتزايد في صعوباتها وتعقيداتها .

تعاظم في الوقت ذاته الطلب لتقديم المزيد من مثل هذه المقالات ، فبينما كان المعدل الوسطي لانتاجي في الفترة ما بين عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٠ هو في حدود ١٢٠ مقالة وفقرة اعلامية في السنة ، فإذا به يرتفع بمعدل خمسين بالمائة تقريباً خلال السنوات الثلاث التالية . وقد ضغط ذلك بقسوة على عامل الوقت الذي كان باستطاعتي تخصيصه لوضع الكتب وتحريرها .

أخذت فكرة الانسحاب من الصحافة النظامية تراودني ، نتيجة لما سبق ، وذلك منذ عام ١٩٣٤ . حتى استطيع التفرغ وتخصيص وقتي بصورة رئيسية للكتب مع العمل في المناسبات على كتابة المقالات وفق حريتي . ولكن خلال هذا الاقتران كنت اقترب من روبن . بارينغتون ـ وورد الذي عرض علي العمل في التايمز باسم المسؤ ولين فيها . وقد حملني ذلك على تأجيل اتخاذ مثل هذا القرار وتنفيذه الى ما بعد خمس سنوات أخرى .

استمرت علاقة الصداقة الوثيقة بين بارينغتون ـ وورد وبيني منذ ذلك الحين وكان الاتصال فيما بيننا يتزايد منذ كنت اعمل ـ بصورة مؤقتة ـ مع صحيفة الاوبزرفر في عام ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ حيث كان هو يعمل معاوناً لرئيس تحرير صحيفة الساندي ، وكنا كثيراً ما نتناول طعام الغداء معاً خلال السنوات التالية ، حيث اصبح معاوناً لرئيس تحرير صحيفة التايمز . وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفبمر) ١٩٣٤ تلقيت رسالة منه يطلب الي فيها تناول طعام الغداء معه في الاسبوع التالي ـ اذا كان لدي متسع من الوقت لذلك . اعلمت بارينغتون ـ وورد خلال تناول طعام الغداء عن فكرتي في الاستقالة من صحيفة الديلي تليغراف . ووجدت ان هذه الفكرة كانت موجودة في رأسه عندما اعلمني بأنه اقنع جيوفري داوسون بضرورة تأمين مراسل عسكري بصورة دائمة لصحيفة التايمز ، حتى يعمل المراسل في هيئة الصحيفة وذلك لتعاظم الاخطار في الموقف الاوربي ، وطلب اليه الاستعلام عما اذا كان مثل هذا التعيين يهمني . ونقل الي بأنهم في (التايمز) سيوافقون على رغبتي في التحرر من مضايقات الاستعلامات واساليب جمع المعلومات على اعتبار انها قضية سلوك مبدئية ، ووعد بتأمين مزيد من الوقت لدراستي . وزيادة على ذلك ، فانهم كانوا يريدون مني ان أكون مستشارهم في المشكلات الدفاعية بصورة عامة . وكان هذا من شأنه تأمين تغيير كبير اتجاوز فيه المجال الضيق الذي كنت اعمل على تغطيته .

اتخذت الترتيبات على هذا لاجراء مقابلة في منتصف كانون الأول (ديسمبر) مع

جيوفري داوسون وبارينغتون ـ وورد ولينتس سميث المدير الاداري الذي اقترح تخصيص مرتب سنوي لي بمبلغ ١٥٠٠ جنيه استرليني بالاضافة الى علاوة بمبلغ (٦٥٠ جنيه استرليني) لتغطية نصيبي من السكرتارية ، ونفقات السيارة وصيانتها وبقية النفقات النظامية . ولكنني فضلت البدء بتقاضي المبلغ الأساسي الذي كنت اتقاضاه من الديلي تليغراف وهو مبلغ ١٢٠٠ جنيه . على ان يكون هذا المبلغ قابلاللتسوية بعد تجربة عام وعلى ضوء ما يترك لي من وقت اتفرغ فيه لتحرير الكتب . ولكن . لسوء الحظ ، جاءت حرب الحبشة والتوتر المتعاظم في اروبا لتستنزفا القسم الاكبر من هذا الوقت .

وللتعويض على ذلك ، اضافت التايمز بسخاء زيادة مبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني في العام كتغطية للنفقات . وليس هناك من يتمنى مزيداً من الدعم ومزيداً من التعامل المنطقي على ما كانت تمنحه لي صحيفة التايمز خلال سنوات خدمتي فيها . ولم اكن اكثر سعادة مع اي صحيفة عملت معها ، بمثل ما كانت سعادتي في علاقاتي الشخصية مع (هيئة تحرير التايمز) وعلى هذا فقد كان ظهور أي اختلاف هو قضية مؤسفة ، ولا سيما عندما يتطور هذا الاختلاف باستمرار نتيجة لتباعد وجهات النظر بشأن (خط الافتتاحيات) الذي كان يهدف لاسترضاء الالمان على حساب المبادىء وتجنبا للعدوان ، وهو الخط الذي اتبعته السياسة الخارجية على نحو ما سيأتي ذكره .

كانت الظاهرة الترحيبية لعملي الجديد هي اتخاذ الترتيبات حتى استطيع كتابة (الافتتاحيات) في موضوع مشكلات الدفاع وكذلك شؤون الجيش وذلك ما بين فترة واخرى ، وطلب الي داوسون ايضا كتابة الافتتاحيات لتوسيع مجال القوة البحرية وقضايا الطيران . وكان من المحتمل ان يؤدي ذلك إلى الاحتكاك والصدام مع الملحقين البحري والجوي ، وهما الاميرال ثورسفيلد وكولستون شيفرد وكلاهما كان كاتباً مميزاً في مجال اختصاصه ولكن العلاقة فيما بيننا استمرت بصورة جيدة جدا خلال السنوات التالية ، بفضل صداقتهما ولموقفهما في تنسيق التعاون .

عملت صحيفة التايمز على اجراء تمهيد ممتع لتعييني في صحيفتها وذلك لحل مشكلة التعريف بحقيقة انضامي لهيئة تحريرها . وخرجت بذلك قليلاً وقدر المستطاع على عادتها في تجاهل التعريف واغفال الاسماء . وفي يوم نشر اول مقالة لي وضع في رأس المقالة (لمراسلنا العسكري) ورافق ذلك اعلان كبير في صفحة الاخبار الرئيسية المقابلة حمل اسمي مع بداية جاء فيها (النقيب ب . هـ . ليدل هارت ، الكاتب المعروف في مشكلات الدفاع ، وقد انضم الى هيئة تحرير التايمز كمراسل عسكري وكمستشار للشؤ ون العامة في

الدفاع . وسيكون اشتراكه ـ وفقاً لتقاليد الصحيفة ـ غفلاً من الاسم عند نشر المقالات وظهورها) .

تبع ذلك توزيع نشرة على نطاق واسع للاعلان عن تعييني ، واستمر توزيع هذه النشرة عندما اقبل الموسم التدريبي في الصيف التالي ، حيث وزعت النشرة من جديد في جميع المراكز العسكرية والمعسكرات .

الفصل الحادي عشر

الاحباط

بدأت الحكومة البريطانية في وضع برنامج متواضع لاعـادة التسلـح واصـلاح ما وصفته باعتدال (انه قصور خطير قد تراكم في قواتنا الدفاعية ووسائطنا للدفاع) . وذلك بعد مضي سنتين على صعود هتلر الى السلطة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من صدور امر هتلر الى الوفد الألماني بالانسحاب من مؤتمر نزع السلاح في جنيف . وقد تضمن (التقرير الخاص بالدفاع) هذا الاعتراف ، وهو التقرير الذي صدر في ٤ آذار (مارس) ١٩٣٥ . على شكل تقرير حكومي رسمي (البيان الأبيض) ، كتمهيد للمناقشة العامة بشأن الدفاع وهي المناقشة التي كان من المقرر البدء بها بعد اسبوع - وفي هذه المناقشة طرحت للمرة الاولى موازنات القوات الثلاث المنفصلة (البرية والبحـرية والجـوية) في اطـار موازنـة واحدة . ولقد اشار (البيان الأبيض) عن غير عمد ، على ان الحكومة (لم تعد قادرة على اغماض عينيها عن حقيقة استمرار الحاجة لتطوير دفاعنا بشكل ملائم من أجل المحافظة على أمننا) واستمر البيان في القول انه تم حتى صيف عام ١٩٣٤ التأكد من ان المانيا (قد اعادت تسلحها علنا وعلى نطاق واسع) وكنت انا وآخرون قد ذكرنا قبل ذلك بعام هذه الحقيقة ، وهنـاك ايضـا تصريح واضـح تضمنه مقطع آخر من(البيان الأبيض) يقـول (باننا . . ادركنا نقطة هامـة وهـي عدم توفـر ما هو ضروري للدفـاع عن أنفسنـا ضد العدوان) .

رغم ذلك ، فان الموازنة قد رفعت المخصصـات الاجمـالية من ١٢٧ مليون جنيه

استرليني حتى ١٣٧ مليون جنيه استرليني ، وهذا يعادل ربع ما خصصه هتلر لاعادة تسلح الجيش الالماني . وكانت اصغر حصة من أصل زيادة العشرة ملايين جينه استرليني قد خصصت للقوات الجوية الملكية على الرغم من ان هذه القوات قد انحدرت الى المرتبة السادسة بين القوات الجوية في العالم.

اعلن هتلر للجماهير ، بايماءة ساخرة ، عن ادانته لمعاهدة فرساي ، واسقاطها . وذلك بعد ايام قليلة من تكوين القوات الجوية الألمانية بصورة رسمية . وتبع ذلك ، بعد اسابيع قليلة بالاعلان عن اعادة تطبيق نظام التجنيد الالزامي ، وتشكيل جيش السلم من ٣٦ فرقة ـ اي خمسة امثال ضعف القوة المسموح بها وفق معاهدة فرساي ـ ومقابل ذلك . فان الحكومة البريطانية لم تتخذ على كل حال أي خطوة لزيادة برنامجها المختصر قبل مضي سنة اخرى .

قدمت موازنة الجيش عن عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ الى البرلمان البريطانـي ، في ذات اليوم الذي تم فيه الاعلان عن التوسع الكبير في زيادة قوة الجيش الالماني . وكانت اعظم ظواهر القصور في تقويم الموازنة هي في المخصصات الهزيلة بصورة خاصـة ، لتطـوير احدث اقسام الجيش . فلقد كانت الزيادة الاجمالية هي في حدود ٤ مليون جنيه استرليني عما تم تخصيصه في موازنة الجيش السابقة والتي لم تتجاوز ٤٠ مليون جنيه استرليني . وهي نسبة صغيرة اذا ما تمت مقارنتها بالاحتياجات والمتطلبات ، وقد تم تخصيص ٢٧٠ الف جنيه استرلينـي من اصـل هذه الـزيادة ، لجميع انـواع المركبـات ذات السلاسـل (المجنزرات) ـ بما فيها الدبابات ضمنا . وكانت مجمـوع الحصص التـي يشملهـا هذا التخصيص محددة بمبلغ ٧٧٢ الف جنيه استرليني لتلك السنة . ولعل الضوء المميز الذي يكشف عن الحالة ويظهر الموقف هو تخصيص مبلغ لعلف الخيول بزيادة من ٤٤ الف جنيه الى مجموع كامل يتجاوز ٤٠٠ الف جنيه في حين تمت زيادة المبلغ المخصص لوقود الآليات بمقدار ١٢ الف جنيه بحيث لا يتجـاوز المبلـغ الاجمـالي ١٢١ الف جنيه . واذا كانـت الحكومة تحمل قسطها من المسؤولية في عدم تخصيص زيادة مناسبة للموازنة العسكرية ، فان مسؤولية تخصيص مبلغ زهيد جدا للقوة الآلية (الميكانيكية) انما يقع على عاتق هيئة الاركان العامة التي كان يترأسها مونتغومري ـ ميسينغبورد .

لقد حمل مونتغومري ـ ميسينغبورد في الخريف السابق على الموافقة لاستبدال فرقة الخيالة بفرقة متحركة تكون فيها الوحدات محمولة على العربات الآلية (الميكانيكية) او السيارات ، وذلك عوضاً عن تحميلها على الخيول . وكان يجب تكوين عناصرها بصورة رئيسية من لواء الدبابات (الموجود) ولواء الخيالة الآلية (الميكانيكية) (وهو اللواء المكون

من ثلاث كتائب محمولة في عربات خفيفة على السلاسل (مجنزرات) وكتيبة محمولة في مصفحات خفيفة) . وكان يجب الا تشمل الفرقة في تنظيمها على اي وحدات للمشاة ، والاقتصار فقط على كتلة عناصر الخيالة للاضطلاع بواجب (القتال الراجل - كمشاة) . وكان ذلك بمثابة تقليد لخطوات الجيش الافرنسي الجديدة نحو تحويل خيالتها (فرسانها) الى وحدات محمولة اطلق عليها اسم (الدراغون المحمولة) . وقد قررت الهيئة الاستشارية في الجيش الانطلاق ببداية صغيرة جدا لاجراء التجارب في هذا الاتجاه من خلال لواء « الهوسار » الثالث الذي شكل عام ١٩٣٥ . وتميز اعلان القرار بصفة بارزة هي صدور مذكرة ايضاحية توضح ان سبب اختيار هذا اللواء انما يعود الى تمركزه في سهل ساليسبوري ، وان ذلك لن يحرمه من فرصة البقاء كلواء من الخيالة ، وذلك اذا ما تطلب الموقف اتخاذ مزيد من الخطوات في اتجاه تحويل الخيالة الى قوات آلية (ميكانيكية) .

كان من الطبيعي ؛ وفقاً لهذا النموذج من التمرد المثير للسخرية . ان تكون قرارات الهيئة الاستشارية للجيش بعيدة عن اتخاذ الخطوات الحاسمة في اتجاه تحويل الخيالة (الفرسان) الى قوات ميكانيكية ، وتفضيل التوسع في قوة الدبابات الملكية .

لقد قررت الهيئة الاستشارية ايضا تحويل وسائط نقل فرقة المشاة على اساس تكوينها كقوة محمولة ، باستثناء المدفعية الفرقية . واعادة تنظيم الوية المشاة على اساس ان يتكون اللواء من ٣ افواج رماة بنادق وفوج من المدافع الرشاشة ، المجهزة بحاملات مدرعة مسلحة بالمدافع الرشاشة .

كان هناك ثمة مستوى آخر للتعبير عن الرغبة المهيمنة في دعم فرق المشاة ، وقد تمثل ذلك باتخاذ قرار لتنظيم فوج من (مشاة الدبابات) في كل فرقة من هذه الفرق . وكان الواجب الأساسي المحدد لهذه الافواج هو تأمين (الدعم المباشر للمشاة) ولهذا السبب كان من الضروري تسليح الافواج المذكورة بالدبابات الثقيلة وذات السرعة البطيئة والمتميزة بشعاع عملها المحدود (مجال عملها القصير) . وكانت القوة الموجودة من الدبابات هي ٤ افواج تمركزت في الشمال ، ولم يتم ادخالها ضمن لواء الدبابات ، وقد تقرر الان وبصورة نهائية تحويلها الى (افواج دبابات الجيش) لدعم المشاة . واقترحت الهيئة الاستشارية في الجيش تكوين فوج في كل سنة من السنوات الثلاث التالية حتى عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ مع اضافة فوجين آخرين في سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩ . وكان هذا القرار بمثابة برنامج لحركة - بطيئة جداً في كل اتجاه ، كما ظهر بشكل واضح جدا ان تخصص افواج الدبابات الجديدة لتأمين الدعم المباشر للمشاة ، عوضاً عن كونها خطوات في اتجاه تشكيل المزيد من الوية الدبابات للعمليات المتحركة .

عندما تمت صياغة هذا البرنامج في خريف عام ١٩٣٤ ، طلب الي الذهاب الى وزارة الحرب في ١٣ تشرين الثاني (نوفبر) لاجراء دراسة تفصيلية وخاصة امـام المدير الجديد لهيئة الامداد اللواء غوفن هيوود . وكان موقفه التقدمي مثيراً للبهجة ، كما كان موقف مساعـده العميد اريك دورمـان ـ سميث يزيد على موقفـه عندمـا وقف ليطـرح الايضاحات التفصيلية للبرنامج الجديد . وعلى هذا فقد خرجت من هذا اللقاء ولدي اكبر الآمال في تقدم سريع نحو بعث الجيش في اطار جديد ، ولو انني انتقدت انحراف المشاة في البرنامج الجديد . ولكن في اليوم التالي أصيبت آمالي بالاحباط وأنا استمع الى محاضرة في معهد الخدمات المتحدة الملكية ، حيث طرح العقيد ماكريدي البرنامج الجديد بصورة علنية . وهنا وقف رئيس المؤتمر (رئيس هيئة الاركان العامة مونتغومري ـ ميسينغبورد) ليقول في نهاية المؤتمر (بأن احدى النقاط واكثرها اهمية مما قاله العقيد ماكريدي هي ابراز خطورة الانطلاق بسرعة لتكوين الجيش الحديث) . وقد اوضح رئيس هيئة الاركان موقفه كل الايضاح عندما كرر تركيزه على النقطة الرئيسية (يجب علينا السير بصورة بطيئة والتحرك بحذر) . وفي اليوم التالي وضعت تعليقاً في صحيفة الديلي تليغراف اشرت فيه (الى ان حالات الطوارىء لا تنتظر دائماً حتى يتم اجراء التغييرات بصورة بطيئة) .

كان المبلغ الصغير والمضحك والذي تم تخصيصه للامداد بالدبابات في موازنة عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ . ما هو الا أوضح برهان على عدم ايمان مونتغومري ـ ميسينغبورد بقيمة قوات الدبابات وضعف اهميتها . وأظهر حماقة التفكير في شكل البرنامج الموضوع لاعادة تسليح الجيش . فقد تمخض الجبل عن ولادة فأر آلي « ميكانيكي » وتحملت بريطانيا غرامة الريادة ، لممارسة الدور القيادي في هذا المجال الجديد ، ولم يظهر قادة الجيش فيها اي احساس بأهمية كسب التفوق . وتسبب حذرهم الكبير في اظهار فشلهم الكبير عن رؤية ما تتضمنه مركبات القتال المدرعة والسريعة الحركة من ميزات (مـن بـين جميع وسائـط الحرب البرية) بحيث انها تضمن بعث ما يفقده الجيش من قدرة في الهجـوم . ولقيت الافكار التي طرحها فوللر ، وعملت لتطويرها وجاء هوبارت ليظهرها عملياً ، اعراضاً من قبل المسؤولين في وزارة الحرب بحيث انها تركت اثراً في خارج بريطانيا اكثر مما تركته في بريطانيا نفسها . ولم يقتصر اثرها خارج بريطانيا على المانيا وروسيا بل تجاوزها ايضا الى امريكا . فاذا ما تمت العودة الى عام ١٩٣٠ فسنجد ان القيادة الاميركية قد عينت المقدم ادنا ـ شافي لمهمة تدريب نواة القوة الآلية (الميكانيكية) هناك والعمل على تطويرها .

وقد اعلمني المقدم شافي عن مدى تقديره الكبير لكتابي الذي حمل عنوان شيرمان ، وكذلك الكتب التي تعالج مواضيع الحرب الآلية (الميكانيكية) ، وكان أمله هو وضع

هذه الافكار موضع التطبيق والممارسة العملية . والآن ، ومع نهاية عام ١٩٣٤ ، أصبح المشرف على تجارب القوات الآلية (الميكانيكية) الجنرال دوغلاس - ماك - آرثر رئيساً لهيئة أركان الجيش الأميركي ، فعمل بقوة على ايضاح الافكار بشأن المستقبل السوقي (الاستراتيجي)والمستقبل التعبوي (التكتيكي) في تقريره السنوي الى الامين العام لوزارة الحرب . وكان من الواضح ان منجزات اللواء الأول للدبابات قد تركت اصداء اقوى على البعد مما تركته في آذان اولئك الذين كانوا على مقربة جدا من اللواء الاول . وكان أغرب ما في الامر ، استمرار قادة الجيش البريطاني في اتباع طريقة (السير البطيء لتكوين القوات الآلية - الميكانيكية) في حين كانت الشواهد تتجمع من حولهم منذ عام ١٩٣٣ لتشير كلها الى ان حربا اخرى في اوروبا قد اصبحت اكثر من مجرد احتمال .

جاء توجيه هيئة الاركان لمناورات الجيش وتدريبه في عام ١٩٣٥ ، مميزا بصورة خاصة لاستناده الى فكرة التدريب على (حرب في أوروبا) عوضاً عن (حرب في المستعمرات) . ولكن السلفية في العودة الى المفاهيم القديمة ، ولما يمكن ان تتخذه هذه الحرب من ظواهر ، هي التي كانت واضحة في عدد من مذكرات الجيش التدريبية (المشؤومة - التي حملت رقم ١٣) والتي تم اصدارها في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٤ تحت توقيع رئيس هيئة الاركان . وكانت هذه المذكرات مجرد مرجع لتمارين لواء الدبابات الحديثة ، وعلى الرغم مما تضمنته من ذكر لامكانات استخدام مثل هذا التشكيل (في بعض الواجبات الاستراتيجية ضد بعض الاهداف العميقة) الا انها أوضحت بشكل كبير (ان دورها التكتيكي هو الدور الرئيسي) حيث يتم استخدامها بتعاون وثيق مع كتلة المشاة . وزيادة على ذلك ، فان رئيس هيئة الاركان ، عاد فأعلن بان مناورة السنة المقبلة للواء الدبابات (ستوجه بصورة رئيسية للعمل في المعركة الرئيسية او قريباً منها) . وكان هذا القرار بمثابة عملية بتر لكل توسع في تجربة العمليات الاستراتيجية . وبقي بعد ذلك ما هو اسوأ من كل ما سبق ، فقد كان من المقرر حل اللواء بصورة مؤقتة خلال المرحلة الاخيرة من الموسم التدريبي ، واستخدام افواج دباباته المتوسطة (لتمثيل افواج دبابات الجيش)لتأمين دعم فرق المشاة بصورة مباشرة .

أظهرت مذكرات الجيش التدريبية (رقم ١٣) ايضا، التمسك بالفكرة القديمة القائلة باستخدام الدبابات لدعم الخيالة (الفرسان) ، ذلك لان المذكرات قد نصت على توجيه (قادة الفرسان وقادة الدبابات لتوثيق عرى التعاون فيما بينهم ، ودراسة أساليب بعضهم البعض بهدف تكوين عقيدة مشتركة لعمل مشترك) . وكانت فكرة انعاش الخيالة واطالة عمر خدمتها ، قد جاءت عن طريق رسالة بعث بها المشير السير فيليب

شيتوود ، الحاكم العام للهند . وكانت القيادة في الهند قد عملت حديثاً على تشكيل سريتين من المدرعات الخفيفة (مصفحات) ، وجاء النجاح المبكر لقوة المدرعات الحديثة ، حتى يدحض وجهات نظر المتشككين ، وليبدد الاعتقاد الذي طالما احتضنته مدرسة الجنود القدامى بشأن عجز الدبابات عن العمل على حدود الهند . ولكن عوضاً عن الافادة من هذا النجاح لتكوين حافز يدفع السلطات لاستبدال الوحدات المتحركة وفق التنظيم القديم بوحدات حديثة . فقد جاء النجاح ليشجعهم على النظر الى الدبابات كوسائط يمكن لها اطالة عمر الفرسان والمحافظة على وجودهم . وذكر بأن جيش الهند لم يكن راغباً في تبني الدبابات المتوسطة لمدة طويلة ، ولم يصمم على تشكيل لواء من الدبابات . وانطلق شيتوود من هذا المنطلق ليقرر ان باستطاعة الدبابات الخفيفة العمل على تأمين قوة دفع الخيالة (الزخم) ، ولابقاء الفارس على صهوة جواده . وقد ترددت هيئة الاركان في بريطانيا عند تلقيها لهذه المقترحات ، واثارت الشكوك في نتائجها ، وطرحت للمناقشة نتائج كل محاولة تمت لاشتراك الدبابات مع قوة الفرسان وكيف انتهت هذه المحاولات الماضية جميعها الى الفشل . وعلى هذا فانه من غير المتوقع تحقيق المزيد من الفاعلية اذا ما تم العمل لهذا الاسلوب في المستقبل ، لا سيما وان الدبابات قد تجاوزت الان في سرعتها الى حد بعيد سرعة الخيول ، علاوة على بقاء الخيول ضعيفة وسريعة التأثر بنيران الرشاشات . ولكن الرغبة في استرضاء الخيالة كانت اقوى من المنطق ، فظهرت تعليمات التدريب الجديدة بمثابة تغطية لجميع وجهات النظر تحت مظلة التوجيه .

كانت القضية الوحيدة التي اتخذت فيها هيئة الأركان العامة خطاً واضحاً ومحدداً هي قضية عدم توسيع لواء الدبابات على حساب الاسلحة الأخرى . ورفض رئيس هيئة الاركان كل اقتراح وبشكل قاطع بهذا الشأن ، في حين انه وافق على تحويل كتائب الفرسان تدريجيا الى وحدات آلية (ميكانيكية) . ولكن بقي القسم الاكبر من الخيالة مصمماً على موقفه في رفض التغيير ، وعدم القبول به ، الا في حالة الوصول حتى مرحلة اعتبار هذا التغيير هو المخرج الوحيد ، مع الرغبة في المحافظة على الخيول حتى اطول مدة ممكنة ، وكانت مقاومة الفرسان للتغيير ، ومقاومة السلطات لارغامهم على التغيير ، من اسباب اعاقة كل تقدم . وكان مثل هذا التردد مدعماً بطلبات الاقتصاد والحذر ، وعلى هذا اصبحت كل خطوة مجرد محاولة بطيئة تقصر كثيراً عن تلبية الحاجة .

ظهر مفهوم هيئة الجيش الاستشارية في شأن (التحول التدريجي) من خلال القرار القاضي بالبدء في التحول عام ١٩٣٥ ، عن طريق تكوين فصيل تجريبي واحد من القوات المحمولة في كل كتيبة . وبعد ذلك بعام واحد ، تقرر تكوين ثمانية كتائب آلية

(ميكانيكية) من قوة الفرسان (خمسة كتائب منها فرسان محمولة ـ يتم حملها على الناقلات الخفيفة من النماذج الجديدة العاملة على السلاسل « المجنزرات » ـ وصممت الناقلات بحيث يستطيع الرجال القفز الى خارجها فوراً للعمل على الأقدام) في حين تكون الكتائب الثلاث الأخرى كتائب دبابات خفيفة . وقد كان ذلك تطوراً مميزاً في التفكير وفي العلاقات او النسب المطلوبة في تشكيل الأسلحة حتى لو لم يتم تنظيمها ، فقد تغيرت البنية التنظيمية للفرقة المتحركة لتشمل لواء من الدبابات ولواءين من الخيالة الألية (الميكانيكية) يشمل كل لواء منها كتيبتين من المركبات وكتيبة من الدبابات الخفيفة . وبعد مضي سنة اخرى ، ومع تعيين رئيس جديد لهيئة الاركان ، أمكن تكوين كتيبتي دبابات خفيفة (عوضاً عن كتيبة واحدة) في كل لواء خيالة آلي (ميكانيكي) . وبعد مضي فترة قصيرة من عام ١٩٣٧ تحركت الهيئة الاستشارية في الجيش لاتخاذ خطوة اكثر تقدماً نحو الأمام عندما قررت تنظيم جميع كتائب الفرسان لتكون راكبة في دبابات خفيفة ، في حين ترك موضوع القتال الأرضي (على الاقدام) داخل الفرق ليقع على عاتق المشاة المحمولة .

توصلت هيئة الأركان ، بعد مجموعة من التغيرات الفكرية المتكررة بشكل مثير للسخرية الى القاعدة الاساسية التي كان قد اقترحها هوبارت قبل ثلاثة اعوام ، وفق النسب الأصلية بين الأسلحة ذاتها . وكان الفارق الهام والوحيد في تكوين القوات لا في نسبة الاسلحة فيما بينها ـ فقد خصصت وحدات الدبابات الخفيفة الآن ليتم تسلميها الى ايدي الفرسان ـ وكان لا بد لهذا التغيير من تعقيد التفاعلات التي ابرزت مزيدا من العقبات في طريق التحول ، واستنفزت مزيدا من الوقت في اعادة التدريب ، مما ادى الى مزيد من التأخير في اعداد الفرقة الاولى للوحدات المدرعة قبل ان تصبح جاهزة للقتال . وكان لا بد من دفع ثمن باهظ لقاء التقاليد المحافظة ، وذلك مهما كان حجم المجد ، ومهما كان الثمن المرتفع الذي امكن الوصول اليه في الحرب التالية . ولو اختارت الهيئة الاستشارية في الجيش السباق للوصول الى هذه النتيجة عن طريق التوسع بتطوير القوات المدرعة الملكية . لكان بالمستطاع تنظيم الفرق وفق النموذج الجديد بصورة اسرع بكثير ، ولكان بالمستطاع ايضا مضاعفة الانتاج لتكوين مثل هذه الفرق قبل اندلاع الحرب مما كان يضمن الفرص لتسارع الاحداث . وكان بالمستطاع نقل ضباط الخيالة (الفرسان) والرجال الذين لهم ميول مناسبة للعمل في السلاح الجديد ، مع توفر القدرة للمحافظة على روح التقاليد والابقاء عليها عن طريق ترك وحدات الدبابات الجديدة لتحمل الاسماء التاريخية للفرسان مقترنة مع ارقامها ـ وذلك على نحو ما تم بعد الحرب عندما تم تحويل

كتائب اليومانري (فرسان الغزو - ومنهم الحرس الملكي) الى كتائب مدفعية او سرايـ
القوات المنقولة بالعربات المدرعة والتابعة لألوية الدبابات .

لقد كانت عدم رغبة وزارة الحرب في توسيع القوات المدرعة انما تعكس العادة الفكرية التي تضع عاملي « العمر » و « الأقدمية » قبل عامل « الكفاءة والفاعلية » . فكانت النظرة الى التسلح الجديد كمولود طفيلي يجب الابقاء عليه في زاوية متواضعة اكثر من اعتبار الوريث الشرعي للتاج في مملكة الجيش وفي عالم الحياة العسكرية . وكان هناك ايضـ اعتبار القى بثقله في كفة الميزان ضد التوسع في القوات المدرعة الملكية وهو ان هذا التوسع سيعمل على التعجيل بقدوم اليوم الذي يصل فيه الضباط المسيطرون على التقنية الحديثة الى قمة الجيش . وكانت مثل هذه التطلعات غير مرغوب بها في وسط القادة الذين يعتمدون على عامل الخبرة فقط في التقنية القديمة ، ونظرا لوجود القسم الاعظم من الضباط القادة في الجيش في هذا الموقف ، فقد كان من الطبيعي جدا ان يعاني اصغر الاخوة بين افراد عائلة المقاتلين مما كانت تعاني منه سندريللا مع اخوتها . وكان ذلك قاسياً على الضباط الاعوان من اصحاب العقول التقدمية والذين انضموا الى سلاح المدرعات منذ تكوينه ، كما كان سيئاً بالنسبة لمستقبل الجيش . وكان موقف الضباط يتناقض مع المبدأ الذي برهنت التجربة على صحته (وهو ضرورة كون قادة الجيش الآلي من الشبان) فقد كان متوسط العمر في عام ١٩٣٥ من أجل الترفيع الى رتبة مقدم يزيد في سلاح المدرعات على ٤٦ سنة ، والى رتبة رائد في حدود اربعين عاماً . في حين لم يتم ترفيع الضباط الأعوان حتى رتبة نقيب منذ عام ١٩٣٢ ، هذا مع ان متوسط عمر الضباط القادة كان في حدود الخمسين عاماً .

عملت الهيئة الاستشارية للجيش خلال هذه الفترة ، وما بعدها ايضا ، على عزل نفسها والتقوقع «كالقنفذ» من أجل التراجع عن كل اقتراح يقضي بالافادة من قوة المدرعات التي تمت تجربتها للحركة الآلية (الميكانيكية) واستخدامها كوسيط لتوسيع القوة الآلية الميكانيكية نحو الأفضل. وقد تم اتخاذ ذلك الموقف الدفاعي لا من أجل حماية مصالح المؤسسة القديمة فقط ، وانما خوفاً من ترفيع (شباب) قوة المدرعات بسرعة كبيرة الى ارفع مستويات الجيش بحيث يصبح مجال التغيير واسعاً . وقد يتطور ايضا بسرعة اكبر من القدرة على كبح جماحه او تقييده .

كان ذلك كله مشابهاً لموقف قيادة سلاح البحرية (الادميراليتي) من تعاظم قوة الجيش الجوي خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. وتظهر دراسة مصنفات (اختبارات) تلك الفترة ، وبشكل مميز ، مدى التطابق في طرح الذرائع - المضادة عند مجابهة كل حالة

من الحالات . وفي الموقفين كان الفكر المحافظ هو الـذي يتقـدم على الفـكر التقدمـي ـ وجاءت النتائج متقاربة ايضا لتكون خطرة ومدمرة عند ظهور الحرب التالية .

تم جمـع لواءالدبابـات من جديد في شهـر تمـوز (يوليو) عام ١٩٣٥ ، واقيم له معسكر من الخيام في سهل ساليسبوري لاجراء التدريب المشترك ، ذلك ان وزارة الحرب لم تكن قد اتخذت بعد،الترتيبات لنقل الوحدات من مراكزها المنفصلة الى معسكر ثابت قريباً من أرض التدريب .

كانـت توجيهـات رئيس هيئـة اركان الجيش تقضي بالتـركيز على (استخـدام الدبابات) في المعركة الرئيسية او قريباً منها خلال المراحل التـدريبية ، وهـذا ما أعـاق هوبارت عن تطوير نوع التدريب الذي تمت ممارسته في السنة السابقة ليكون اكثر ثورية . وعلى كل حال ، فقد احتال هوبارت من اجل التخطيط لمشروع تدريبي ، كان يحمل في ظاهره الاسم التعبوي (التكتيكي) في حين يمتد الى تجربة اسلوب القوة المدرعة في التقدم السوقي (الاستراتيجي) . مع تجربة قدرة المدرعات على التحرك بنظام الانتشار (نظام الفتح للمعركة) وكذلك ما يمكن انجازه عند تجريد المدرعات من رتل النقـل (الـذيل الاداري) . (وكان قد تم تخفيض قدرة رتل النقل في تلك السنـة بحيث لم يكن عدد العربات يتجاوز ٩٩ مركبة خصص معظمها لنقل الذخيرة الاحتياطية والوقود ، ووسائط اصلاح الخط الأول للطوارىء) . وفي هذا المشروع التدريبي عمل اللواء طوال التحرك على محور الاقتراب ، على الانتشار في جبهة اكثر اتساعاً من كل المحـاولات التجـريبية السابقة ، وبدون استخدام عربات النقل للمرافقة ، بحيث وضعت داخل الدبابات جميع رزم الأغذية وجميع المواد المختلفة المطلوبة للامداد خلال مرحلة التقرب بكاملها .

استخدم اللواء في هذا التمرين ايضاً ، خلال تقدمـه على جبهـة واسعـة ، جميع الدروب والممرات الممكنة عبر نطاق الغابات في التلال الواقعة شرق آفون ، وبذلك كان التمرين ظلاً متقدماً للطريقة التي استخدمها غودريان بعد ذلك بخمسة اعوام ، عندما قاد قوات البانزر للتقدم عبر الاردين بهدف الامساك ، عن طريق المباغتة ، بنقط العبور على نهر الموز حول سيدان .

تضمنت مناورة عام ١٩٣٥ ظاهرة جيدة بصورة خاصة وهي طريقـة عمـل فوج الدبابات الخفيفة داخل اللـواء لاظهـار الامكانـات العملية ، وقيمـة المقـدرة لعمليات الدبابات في الليل ، والميزات التي يمكن الوصول اليها عن طريق تطوير المهارة لاستثمار ساعات الظلام . ويعود الفضل الأكبر في ذلك لقائد فوج الدبابات الخفيفة الذي تم تعيينه

حديثاً لقيادة الفوج وهو آلان كونتر ، واستطاع تحقيق المزيد من النجاح عندما انتقل بفوجه الى مصر بعد ذلك مباشرة بهدف دعم القوات هناك في مجابهة الأزمة التي تسببها غزو ايطاليا للحبشة (اثيوبيا) . وقد لقب الفوج بلقب (الدم) ، وتم تبديل اللقب ، لمزيد من التحبب بلقب (دلو الدم) لرسم احتمال ما يمكن حدوثه عند توغل الدبابات داخل كتلة المشاة . ولكن رغم الوحشية الظاهرة في اللقب فقد كان الفوج أفضل برهان لتحقيق واجباته دون اراقة دماء عن طريق المباغتة وذلك عوضاً عن الهجوم المباشر .

أمكن تحقيق التقدم العملياتي في هذه السنة الثانية التي مضت على وجود لواء الدبابات ، رغم العقبات الكثيرة . ذلك ان عمر الدبابات المتوسطة وصل الآن حتى الثلاثين عاماً ، ولم يكن بالمستطاع المحافظة عليها وهي على قيد الحياة لولا الصيانة المستمرة التي كان يمارسها السدنه ويضطلعون بها . وزيادة على ذلك ، فان تنسيق التعاون الذي امكن تأمينه مع القوات الجوية ، كان اكثر بخلاً واقتصاداً مما كان عليه في السنة السابقة . وعلى هذا فقد كان من المحال تطوير العمل المشترك للدبابات والطيران على نحو ما كان متوقعاً وعلى نحو ما تمت مناقشته في بداية السنة .

ثم ايقاف مناورة لواء الدبابات بعد ذلك ، في بداية شهر ايلول (سبتمبر) بهدف توزيع الوحدات على فرق المشاة لاجراء التمارين الفرقية ضمن اطار مناورات الجيش في المرحلةالتالية وهي المناورات التي نفذت للمرة الأولى منذ عام ١٩٢٥ .

نظم كل طرف من الطرفين لمناورات الجيش بحجم فيلق او فرقتين في كل منهما . فكان الفيلق الأول (الأرض الشرقية) يضم اليه الفرقتين الأولى والثانية من قيادة آلدرشوت تحت قيادة قائدها الأعلى السير فرانسيس ـ غاثورن ـ هاردي . أما الفيلق الثاني (الأرض الغربية) فكان يضم اليه الفرقة الثالثة من القيادة الجنوبية والفرقة الرابعة من القيادة الشرقية تحت قيادة القائد الأعلى (للمنطة الشرقية) السير سيريل دوفريل .

كان من المعروف ان مركز مونتغومري ـ ماسينغبورد كرئيس لهيئة الاركان العامة سيصبح شاغراً في فصل الربيع من السنة التالية . وعلى هذا فقد اعتبرت المناورات في وسط الدوائر بمثابة اختبار ومباراة بين دوفريل وبين غاثورن ـ هاردي للوصول الى منصب رئاسة هيئة الاركان العامة . وكان الرهان على الفوز لصالح غارثون هاردي على اعتبار انه اكثر اقداماً وجرأة من منافسه . وكان انتقاده اللاذع للأخطاء التي يكتشفها خلال التدريب قد اكسبه لقب (اوقفني واشتر واحدة) وقد اشتق هذا اللقب الساخر عن لوحات الاعلان الملصقة على الجدران وعلى عربات (الآيس ـ كريم) التي كانت تحيط

بمنطقة التدريب . أما دو فريل فكان يحمل لقباً اقل في سخريته ، ويعود هذا اللقب به الى ايام الحرب عندما كان يقود فرقة في عمره المبكر الذي لم يكن يتجاوز ٤١ عاماً ، وكان في حينها يتميز بحزمه وقسوته في الاصرار على الهجوم باستمرار مهما كانت الخسائر مما حمل على تلقيبه (بالجزار دوفريل) . ولكن تقدمه في العمر اكسبه نضوجاً فأصبح أقل عناداً لدى متابعة الأعمال التعبوية (التكتيكية) ، وأقل حماقة في نقدها . وعلى الرغم من مظهره البعيد عن العسكرية ، وقسماته المنفرة ، لا سيما عند مقارنته بمنافسه رجل الحرس ، وعلى الرغم ايضاً من اسلوبه غير الشائق ، فانه كان قريباً من قلوب اولئك الذين خدموا تحت قيادته ، وموضعاً لثقتهم به . ورغم ذلك ، فقد كانوا قلة هم الذين توقعوا رؤ يته وهو يسرع في العدو للوصول الى مركز القمة في الجيش . ولكنه استطاع في مناورات الجيش اثارة الاضطراب وإرباك خصمه عندما استطاع الانحراف عن خط السير الواضح الذي كان يتوقعه في التحرك . وعندما فشلت حركة التطويق التي قام بها بسبب قيام خصمه بهجوم لاجراء تطويق مضاد ، عمل على اقتحام المجازفة بنشر قواته على جبهة اكثر اتساعاً لتطويق التطويق . وقد دعمت هذه النتيجة سمعة دوفريل وعززت شهرته ، فلم تمض فترة طويلة بعد ذلك حتى تم الاعلان عن اختياره لمركز رئيس هيئة الاركان العامة .

اتجهت هذه التمارين التي نفذت على نطاق واسع ـ لسوء الحظ ـ نحو استقطاب الانتباه بشأن اعادة تجديد فرق المشاة واعدادها للحرب في اوربا ـ وفقاً للملامح التي تحمل تشابها كبيراً مع حرب عام ١٩١٨ ، مع اجراء بعض التطورات . وكانت احدى التأثيرات الهامة هي دفع المضمون الذي امكن الوصول اليه من خلال التمارين المبكرة للواء الدبابات وارجاعه الى الوراء مع التعتيم الكثيف على الدروس بعيدة المدى والمستخلصة من تلك التمارين .

وأصبح القادة البريطانيون اعتباراً من ذلك التاريخ والى ما بعد ذلك ـ بصورة عامة ـ حتى اكثرهم في النضوج الفكري ، وهم يظهرون المزيد من الاهتمام في تطلعاتهم للحصول على الاسلحة الحديثة والتجهيزات الجديدة لأسلحتهم وقواتهم ، مع اظهار اهتمام اقل من قبل في موضوع القوات المدرعة والتقنيات العملياتية الجديدة . وبالامكان متابعة اثر هذا الاتجاه ، على نحو ما وجدته عند مراجعة اعداد المجلات العسكرية البريطانية الرئيسية خلال تلك الفترة ، بحيث كان من النادر العثور على المقالات التي تعالج حرب المدرعات بالمقارنة مع غزارة هذه المقالات في عام ١٩٢٠ وحتى بداية الثلاثينات . واذا ما تم استثناء ما كتبه فوللر ـ بعد احالته على التقاعد وانضمامه الى حركة موسلي ـ وكذلك ما كتبته أنا ، فان الاهتمام الاكبر كان موجهاً الى الشؤ ون السياسية ، مع

بعض الجهود للاسهام في عقيدة الحرب المدرعة ونظريتها . وعلى النقيض من ذلك ، فقد كانت المجلات العسكرية الأجنبية ـ وبصورة خاصة منها المجلات الالمانية ـ مكتظة بصورة متعاظمة بالمقالات في هذا الموضوع .

استقطب انجاز اللواء المدرع في عام ١٩٣٥ قدراً من الاهتمام في خارج بريطانيا اكثر مما استقطبه داخل بريطانيا بعد مرور عام واحد على عمر هذا اللواء . وكان تعليقي على تمارينه موضع اهتمام كبير ودراسة دقيقة في المانيا على نحو ما اعلمني هانكي وعدد من القادة في وزارة الحرب ، وكذلك آندرو ـ ثورن الملحق العسكري البريطاني في برلين ـ وهو مفكر تقدمي جداً ، من رجال الحرس قاذفي القنابل ، كان يدعم بقوة الأفكار العسكرية الحديثة في كل مجال . كما كان على اتصال وثيق مع القادة البارزين في الجيش الالماني .

وسمعت الكثير ايضاً بشأن هذه القضايا من العقيد جيار ـ فون ـ شويبنبرغ ، الذي عين ملحقاً عسكرياً لالمانيا في لندن ، وهو اول ملحق عسكري منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، وذلك قبل تسلم هتلر للسلطة في المانيا مباشرة . وكان الحب للافكار العسكرية الجديدة يقترن لديه بالكراهية العميقة للافكار النازية ، وانطلاقاً من هذا الاقتران اخذت الصداقة تتعاظم فيما بيننا ، وعلى هذا فانني كثيراً ما التقيت به وبعائلته خلال السنوات القليلة التالية . وتم استدعاؤه الى المانيا في فصل الخريف من عام ١٩٣٧ لتسليمه قيادة فرقة البانزر الثالثة .

شكلت المانيا اول فرقها المدرعة الثلاث ، في وقت واحد ، وذلك في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٥ ـ (اي بعد انقضاء ٦ اسابيع على نهاية السنة الثانية لتشكيل لواء الدبابات البريطاني) . وقد بذلت جهود كبيرة حتى امكن الحصول على موافقة غودريان وقبول مقترحاته . وعلى الرغم من ان غودريان كان لا يزال يحمل رتبة عقيد . فان دوره القيادي في تطوير المدرعات كان كبيراً الى حد لا يمكن انكاره ، مما حمل القيادة الالمانية على تعيينه لقيادة احدى هذه الفرق المنظمة وفق الاسلوب الحديث ، وبعد سنتين تقريباً تم ترفيعه لقيادة الفيلق الذي يهيمن على الفرق المدرعة الثلاث. وكانت هذه الفرق منظمة وفقاً للنسب او المعدلات التي كنت قد عرضتها في صنحف عام ١٩٢٢ ، وفي مقالي عام ١٩٢٤ تحت عنوان (تطوير ـ نموذج جديد ـ للجيش) . وفضلت القيادة الالمانية هذه المعدلات على تلك التي تبنتها وزارة الحرب البريطانية لتنظيم الفرقة المتحركة (فجعلت من الجيش بكامله جيش دبابات ـ بدون مشاة آلية «ميكانيكية» للمرافقة عن قرب) .

كان غودريان ، بالاضافة الى ذلك ، سريعاً في التقاط احدث مقولاتي ومناظراتي

عن استخدام مثل هذه القوة استراتيجياً ـ لقطع الشرايين الحيوية لجيش العدو وحرمانه من امداداته ـ عوضاً عن مجرد استخدامها بطريقة تعبوية (تكتيكية) ضمن حدود منطقة القتال . وكنت قد نشرت في صحيفة الديلي تليغراف مقولة بتاريخ ٢٤ آب (اغسطس) ١٩٣٥ ضمن اطار محاولة لجذب الانتباه نحو هذه القدرات الاستراتيجية ، واستعرضت فيها بصورة وجيزة تحليلي لعمليات الفرسان (الخيالة) ضد طرق المواصلات في الحروب السابقة ، وبصورة خاصة منها الحرب الأهلية الامريكية ، وأوضحت التأثير العظيم الذي يمكن الوصول اليه عن طريق استخدام القوات الآلية (الميكانيكية) . وكانت النقاط الرئيسية في هذا التحليل هي :

(تظهر ـ هذه القوة ـ ان تأثير قطع خطوط المواصلات هو اعظم بكثير ، وله وقع اسرع بكثير ، إذا ما نفذ ضد جيش يتحرك نحو هدفه او يقوم بتنفيذ عملياته دفاعياً ، في حين ان هذا التأثير يتناقض بالنسبة ذاتها عند قطع خطوط المواصلات لجيش يتمركز دفاعياً . ويظهر التحليل ايضاً انه كلما كان هدف الضربة المتحركة بعيداً في العمق . كلما كان تأثيرها أعظم وأقوى ، وكلما كانت اخطار تدخل العدو لايقاف الضربة ذاتها قليلة ايضاً ـ ذلك ان نسبة احتمال معارضة العدو لها ستكون يقيناً اقل منها « عند العمل في حدود منطقة القتال) . . . ففي حين تكون الضربة القريبة من مؤخرة جيش العدو ذات اثر اكبر على معنويات قادة العدو ـ ولا حاجة للقول ان القرار الحقيقي للخروج من المعركة يتكون في اذهان القادة وبالاستناد الى معنوياتهم . . .)

جرب غودريان الوصول الى هذه النقاط الرئيسية خلال مناوراته اثناء السنوات الأربعة التالية ، وأصبح المدافع الممتلىء حماسة عنها في مجابهة الموقف المتشكك لهيئة الاركان العامة الالمانية . ووضع غودريان هذه الأفكار موضع الممارسة العملية في عام ١٩٤٠ للوصول الى نتائج حاسمة عن طريق قطع خطوط مواصلات الحلفاء في اميان التي تقع على بعد اكثر من مائة ميل الى الخلف من جبهة الجيوش الفرنسية ـ الانكليزية التي كانت تتقدم داخل بلجيكا .

حدث في الولايات المتحدة الامريكية أيضاً ، تأثر عميق في بعض الأوساط القيادية للطريقة التي أبرزها اللواء المدرع البريطاني عن قدرات المفهوم الجديد للحرب المدرعة . وظهر ذلك في التقرير السنوي الذي قدمه الجنرال ماك ـ آرثر في عام ١٩٣٥ عند نهاية المدة المحددة له كرئيس لهيئة الأركان . وصرح بان نموذج حرب عام ١٩١٨ قد عفى عليه الزمن ، ولم يعد صالحاً للتغلب على تفوق المواقع الدفاعية الحديثة ، وكان مما قاله :

أصبحت القدرة الوقائية للأسلحة الحديثة عظيمة جداً ، بحيث ان تنظيمها بقوة . ومهارة ، في المواقع الدفاعية من شأنه ـ عملياً ـ ضمان الوقاية ضد الاخطار . وليس بالامكان تجنب مجابهة مواقع العدو المجهزة الا عن طريق العمل المباغت . وليس هناك ما هو اكثر اهمية من التفوق في القدرة المتحركة لكسب المباغتة وتحقيقها . ان هناك اتجاهاً ثابتاً ومستمراً في العالم الحديث نحو الوصول الى سرعة اكبر واعظم ، وسيجد كل جيش نفسه اذا ما فشل في المحافظة على مواكبة هذا الاتجاه بعيداً جداً عن اتخاذ ما هو ضروري من التقدم نحو التطور الحديث ، فيتقهقر باستمرار حتى يصل الى مرحلة من التدهور لا يمكن اصلاحها . . .

وقال ماك آرثر ، انه بالامكان الوصول الى الحركية الجديدة عن طريق اشراك القوات الآلية (الميكانيكية) على الأرض مع القصف الجوي الموجه ضد (النقاط الحساسة في تنظيم امداد العدو) . وأسهب في الحديث عن التمييز بين (عملية نقل القوات) المجردة ، وبين الجيش الآلي ـ الميكانيكي ـ الحقيقي المجهز بمركبات قتال مدرعة . ومع اعتراف ماك آرثر بقيمة الدبابات وأهميتها لدعم هجوم المشاة . إلا انه استمر في القول (بأن هذا المفهوم المقيد او المعيق للحركة الآلية (المكننة) قد فشل تماماً في صياغة المباديء التي يجب لها توجيه الجيش الأمريكي نحو مزيد من التطور والتقدم) وان هذا التطور يجب له ان يشير باستمرار لانتاج جيش متحرك حديث يمكن له (خلق ظروف افضل) . وكان مما قاله :

. . . ذلك ان اشتراك القدرة القتالية مع السرعة الكبرى في التحرك على الطرق ، ستتركز في ذاتها على شكل قدرة هائلة للقيام بالعمل المباغت في العمق . . . وهذا هو عمل الجيش الحديث المنظم بدرجة عالية والذي يتم احكام آليته « ميكانيكيته » بصورة دقيقة . ونتحدث بصورة عامة فنقول ان هناك ثمة نقاطاً حساسة جداً قد تظهر على مجنبات هذا الجيش او مؤخرته ، ولكن هذه النقاط ستبقى مأمونة ضد كل هجوم ، الا في حالة واحدة هي زج وحدات متحركة الى ابعد الحدود . . . (اي متفوقة على القوات المتحركة بسرعتها الحركية . كالقوات المحمولة او المنقولة جواً) وأوضح ماك آرثر ان مثل هذه التحركات بعيدة المدى وذات السرعة ـ العالية تتطلب (تجريد الوحدات المقاتلة من كل العوائق غير الضرورية) ، بحيث يقتصر المتاع المحمول على الحد الضروري من التجهيزات والاعتدة والامدادات . واقترح ايضاً تكوين نموذج خاص من المشاة المنقولة بعربات تسير فوق مختلف الأراضي لدعم المدرعات (الدبابات) عند تنفيذها لمثل هذه الواجبات العميقة . وكان الأمر المميز ايضاً ، انه اوصى فوق ذلك بدراسة العمليات والاسلوب الذي طبقه

جنكيز خان والمغول (كمنجم غني وغير محدود يمكن استخلاص فلذات المعرفة الثمينة والمفيدة منه لصياغة الجيش وتكوينه لحرب المستقبل)

استلهم ماك آرثر توصيته تلك ، على ما قيل لي فيما بعد ، من اعادة قراءته لكتابي (عظماء القادة دون قناع) والذي عالجت في الفصل الأول منه حملات المغول . وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً احرز ماك آرثر نجاحاً رائعاً في عمليته للانزال البر - مائي فوق شواطيء انشون ، خلف جناح جيش القوات الحمراء في كوريا ، وعلى أثر ذلك عقد اجتماعاً صحفياً ذكر فيه انه صمم مخططه الجريء بعد اعادة قراءته لمسيرة عمليات حملة وولف في كيوبك عام ١٧٥٩ . وكان الفصل الأخير من كتاب (عظماء القادة دون قناع) هو الذي يتضمن مسيرة هذه الحملة . . وكانت هذه الأنباء على جانب كبير من الأهمية - بالنسبة لي على الاقل - اذ عرفت منها تقديره الكبير لما تميز به ذلك الكتاب .

كان تقرير الجنرال ماك آرثر عام ١٩٣٥ بمثابة اعلان رسمي عبر فيه عن ايمانه بالقدرة الحركية للسلاح المدرع ، وكان فيه اكثر وضوحاً واكثر دقة من الجنرال ميلين الذي سبقه بثمانية اعوام . ولكن الجيش الامريكي في تلك الفترة ، كان مثله كمثل الجيش البريطاني ، إذ لم يكن لديه سوى القليل من التطلعات للحصول على الوسائط التي تدعم من قدرته ، كما ان التطلعات هذه - على قلتها - لم تلبث ان تبددت امام الموقف المحافظ (التقليدي) الذي اتخذه خلفاء ماك - آرثر ، وعلى هذا اصبح على آدنا - شافي بذل جهوده التجريبية على نطاق محدود جداً . وبقي الأمر كذلك حتى تموز (يوليو) ١٩٤٠ - حيث قامت قوات البانزر الالمانية بتحقيق انتصارها الحاسم عند اجتياحها لفرنسا ، وعلى أثر ذلك حصل شافي على موافقة القيادة لتكوين الفرقة الأولى (من أصل الفرق المدرعة الست عشرة والتي عمل الجيش الامريكي على تنظيمها خلال السنوات القليلة التالية) وكان شافي قد رفع الى رتبة لواء - ولكن الأمر المؤسف هو ان هذه الفرصة لم تتوفر له حتى السنة الأخيرة من حياته ، ولكنه عاش قدراً كافياً على كل حال حتى رأى حلمه وهو يسير بصورة صحيحة في الطريق الثابت والأكيد .

تعرض القادة الافرنسيون من اصحاب التطلعات التقدمية لمعاناة الاحباط بصورة مشابهة ايضاً . إذ انه على الرغم من خطر الحرب ، والتهديد الذي كانت تمثله سياسة هتلر بصورة اكثر دقة هناك ، وعلى الرغم ايضاً من الادراك العميق لذلك اكثر من ادراك بريطانيا او اي بلد آخر ، فانه لم يكن هناك مثل ماك - آرثر في أعلى مستويات الجيش الافرنسي لتقويم الحاجة للوسائط الجديدة ، وللأساليب التي يمكن لها مجابهة التهديد . وكانت هناك ايضاً ظاهرة الرضى عن الذات بشأن التفوق في الاصالة الحرفية (المهنية)

للقيادة الافرنسية ، وازدراء كل احتمال عن امكانات تعلم اي شيء من الخارج او الافادة منه .

ذهبت لزيارة باريس في فصل الربيع من عام ١٩٣٥ ، ووجدت عزوفاً كاملاً عن الاهتمام بالمفاهيم البريطانية بشأن حرب المدرعات والتي كانت قد وصلت ذروتها . وكان لي صديق قديم هو بيير كومرت ، رئيس قسم الصحافة في الجامعة الوطنية ، وكان قد أعيد حديثاً الى وزارة الخارجية الافرنسية ليمارس عمله بكفاءة مماثلة لكفاءته في قسم الصحافة . وقد تعهد باتخاذ الاجراءات لزيارتي . ولكنني وجدته عند وصولي وهو في حالة ظاهرة من الضيق ، وأوضح لي بأنه لم يتمكن لأسباب كثيرة من تنظيم مقابلات لي مع بعض القادة في وزارة الحرب ممن كان قد اقترح زيارتهم - وعندما جاء الى بريطانيا في عام ١٩٤٠ ، بعد سقوط فرنسا - اعلمني عن مدى خيبة امله للاستجابات غير الحماسية وللتطلعات المحدودة او النظرات الضيقة التي كان عليها القادة الافرنسيون . وكان هو ذاته من أعظم المفكرين التقدميين ومن الرجال الافرنسيين النادرين الذين عرفت فيهم الفكر العالمي . وقد علمت من مصادر أخرى بأن استدعاءه من - مؤتمر نزع التسلح في جنيف - لم يكن الا نتيجة التذمر منه لعدم استخدام مكانته في هيئة الجامعة لدفع اهتمامات الافرنسيين بنفس القوة التي كانت ترغبها الوزارة .

كانت هذه الزيارة مفيدة على كل حال بسبب المناظرات المفيدة جداً والتي تمت مع اربعة من الضباط الشبان الذين قابلتهم بناء على مبادأة بيير كومورت . وكان احدهم هو فوتران ضابط الاتصال بين وزارة الطيران ووزارة الحرب . وكان يطمح لممارسة دور عظيم في المستقبل ، لكنه قتل لسوء الحظ عندما تحطمت طائرته فور هروبه من فرنسا الى لندن في عام ١٩٤١ . وكان الضابط الثاني هو صديقه الحميم فاللوي ، الذي اصبح القائد الأعلى للمركز الأوربي التابع للحلفاء وذلك في الفترة ما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٠ . أما الضابط الثالث فكان روفير ، الذي اصبح رئيساً لهيئة الاركان العامة الافرنسية لمدة سنوات عديدة . وكان الضابط الرابع هو الجنرال بوفر الذي أصبح رئيس وفد هيئة الاركان الافرنسية في القيادة العليا لقوات الحلفاء في اوربا ، ثم اصبح عضواً في قيادة حلف شمال الاطلسي (الهيئة الدائمة في واشنطن) . وكان واضحاً بالنسبة لي عندما قابلتهم للمرة الأولى - وبقي الأمر كذلك ايضاً وأنا استعيد الذكريات عنهم - ان بيير كومورت كان ذا احساس سليم في (تمييز المتفوقين المتصرين والتقاطهم) . فقد كانوا جميعاً من الذين أظهروا اهتماماً عميقاً بتطورات قوتنا المدرعة وبمفهوم استخدامها واساليب عملها . وكانوا يحملون املاً كبيراً في ان يتمكن الجيش الافرنسي من اتخاذ منعطف جديد وفقاً لهذا الاتجاه

بعد وصول الجنرال غاملان الى منصب القائد الاعلى منذ فترة قصيرة كبديل للجنرال ويغان . ولم يكن الجيش الافرنسي حتى تلك الفترة ، قد ذهب الى ابعد من اعادة تعديل نسبة العلاقات القديمة وتحويل فرقة واحدة فقط من فرق خيالته الى (فرقة آلية - ميكانيكية - خفيفة) تضم اليها الدبابات الخفيفة والعربات المدرعة ووحدات الدراغون (التنين) المحمولة بسيارات النقل . ولكن الآمال التي علقت على غاملان ليبرهن على انه اكثر تقدمية من سلفه ، ولم تلبث - هذه الآمال - ان أصيب بالاحباط فوراً ، وأشعر وانا استعيد الذكريات انه ربما كان باستطاعة ويغان دفع عجلة التغيير التي كان قد بدأها - لو بقي في منصبه - اكثر مما فعله غاملان في توسيع تلك التغييرات وتطويرها .

ذهبت أثناء زيارتي لباريس - كعادتي - الى دار نشر برجيه - لوفرولت - وهي الاختصاصية بنشر الكتب العسكرية ، وهناك اكتشفت كتيبا صغيرا يحمل عنوان (نحو الجيش المحترف) لمؤلفه شارل ديغول الذي كان القائد المعاون للمشير (المارشال) بيتان خلال جولتي في الجيش الافرنسي عام ١٩٢٦ ، وكان صديقا أيضا للعقيد أميل ماير الكاتب العسكري والمفكر التقدمي للجيل السابق ، والذي كثيرا ما كنت اتبادل الرسائل معه ولقد شعرت بالبهجة وأنا أطالع الكتيب ، حيث وجدت ان ديغول قد أخذ بالذريعة او الحجة وعمل على التوسع بها كمحور لفرضيته ، على نحو ما فعلت عند دفاعي عن هذه الذريعة بعد جولتي السابقة من أجل اظهار حاجة فرنسا لتكوين قوة آلية (ميكانيكية) ضاربة تضم الجنود المحترفين للقيام بتنفيذ الواجبات بأسرع مما تستطيعه كتلة المجندين « في الخدمة الالزامية » وهي الأطروحة التي ساعدت على انتشار هذه الفكرة في تلك الفترة . وعلى هذا . فقد كان من دواعي خيبة الأمل ان أسمع بأن هذا الكتيب لم يجتذب اليه الانتباه بحيث أن حجم البيع لم يتجاوز حدود عدد من النسخ القليلة .

كان نموذج الفرقة الآلية (الميكانيكية) التي أبرزها ديغول ، يشابه في خطوطه العامة تلك النسب التي اقترحتها عام ١٩٢٤ في كتابي (النموذج الجديد) ، ولكنه لم يكن قريب الصلة في الوقت ذاته بنسب القوى لفرق البانزر الألمانية الجديدة التي كانت أقرب الى مقترحاتي . فقد كان النموذج الذي اقترحه ديغول كبيراً جدا في حجمه بحيث تصعب المناورة بوحداته ، فهو يقترح ان تشمل الفرقة ٧ - ٨ أفواج دبابات على اقل (بما يزيد على ٦٠٠ دبابة) مع ٧ أفواج مشاة و١٨ بطارية مدفعية ، وكان ديغول يتوقع استخدام كتلة الدبابات والمشاة على (أنساق) متتالية ، وذلك عوضا عن تقسيم هذه الكتلة الى تنظيمات فرعية تضم مختلف صنوف الأسلحة في اطار مجموعات قتالية ذات حجم يضمن السهولة في ادارته ويكون اكثر فاعلية واكثر مرونة في مناورة

القوات المشتركة . ولكن ديغول لم يكن حتى تلك الفترة قد مارس الخدمة مع الدبابات ولم تكن لديه خبرة بمشكلات التعامل مع القوة المدرعة ، وعلى هذا فقد كانت نظرته أقرب الى الضبابية وعدم الوضوح ، ولو ان هذه الرؤيا كانت بعيدة المدى . وقد كان من سوء حظ فرنسا ان جميع الرجال الفرنسيين ـ باستثناء عدد قليل منهم ـ لم يكونوا يشاركونه الرؤ يا ، وكان الرجل الوحيد الذي يضمن له الدعم القوي في الوسط السياسي هو بول رينو ـ الذي بقي بعيدا عن الحكم منذ عام ١٩٣٢ ولم يرجع الى السلطة حتى عام ١٩٣٨ .

كانت العقبة الكبرى في بريطانيا هي القصور في الرؤيا على مستوى القمة . إذ كان هناك قبل عشر سنوات الكثير من الشواهد على ان قادة الجيش قد استطاعوا تقويم أثر مرونة السلاح المدرع وقدرته الحركية بالنسبة لحرب المستقبل ، لكن اختصار الموارد المالية لم يلبث ان أسدل ستارا من التعتيم الذي حجب الرؤ يا الواضحة .

ثم ها هي الحكومة الآن تعترف بضرورة وضع برنامج لاعادة التسلح تحت ضغط اعادة التسلح الألماني ، ولكن لم يعد هناك في وسط اعلى مستويات القيادة وداخل وزارة الحرب من يستطيع الرؤيا بوضوح وفقا لمتطلبات المستقبل . (وبكلمة موجزة ، عندما كان هناك وضوح في الرؤيا ، لم تكن الموارد متوفرة وعندما تقرر تخصيص الموارد المالية لم يعد هناك وضوح في الرؤيا) .

فهؤلاء الذين كانت تقع عليهم مسؤولية وضع التقديرات للموازنة ، وتحديد نسب الزيادات المالية ، كانوا في حالة اقتران وثيق بالطرائق القديمة التي افقدتهم القدرة على الافادة من الفرص وتطوير نوع جديد من القوة ، يختلف عن اهتمامهم باجراء تجديد جزئي للأسلحة القديمة .

أصبح انعطاف سياسة وزارة الحرب اكثر وضوحا مع الاعلان الذي صدر عن الوزارة قبل يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٥ مباشرة ، بشأن تحويل ٢٨ فوج مشاة الى أفواج مدافع رشاشة ، لدعم كل لواء من ألوية المشاة بفوج من هذه الأفواج ، مع تحويل جميع وسائط النقل لجميع المشاة وكذلك المدفعية الفرقية لتكون على أساس قوة المحركات (الآليات) عوضاً عن قوة الخيول . وعلى الرغم من كون هذا الاجراء خطوة تقدمية في طريقته ، الا انه كان يعني انحراف التمويل وموارد الانتاج الصناعي المتوفرة انحرافا بعيدا عن الهدف المقصود ، وذلك عوضا عن استخدام (الاموال وموارد الانتاج الصناعي) لتوسيع القوات المقاتلة المتحركة وتكوين الفرق المدرعة . أما قادة الجيش ، الألماني ، فقد

عملوا على النقيض من ذلك ، حيث ركزوا جهدهم لتكوين عدد من أمثال هذه الفرق . وبرهنت سياستهم انها كانت اكثر فائدة عندما اقبلت الحرب بعد أربعة اعوام ، فكانت هذه الفرق المدرعة عاملاً حاسماً في بداية الحملات الحربية . وكان باستطاعة الجيش البريطاني تحقيق فائدة اكبر لو اتبع السياسة الألمانية . ففي أزمة عام ١٩٤٠ ، كان باستطاعة ثلاث فرق مدرعة توجيه ضربة ـ مضادة بسرعة ، مما كان سيجعل لهذه الفرق قيمة اكبر من الثلاث عشرة فرقة مشاة منقولة بالمركبات (السيارات) والتي تم ارسالها الى فرنسا لدعم الدفاع عن الغرب .

عندما كانت وزارة الحرب تعكف في عام ١٩٣٥ على موضوع تجديد أقدم الأسلحة ، تعرضت عملية تطوير القوة المدرعة الهزيلة (اللواء المدرع الوحيد) للمزيد من العوائق والعقبات نتيجة للأزمة التي وقعت في خريف تلك السنة على أثر غزو موسوليني للحبشة (اثيوبيا) . فقد أدى انتهاك موسوليني الصارخ لميثاق عصبة الأمم ، واتخاذ الحكومة البريطانية للموقف القوي بصورة فورية في جنيف من أجل ادانة العدوان واحباطه ، أدى ذلك كله الى قذف خطر الحرب مع ايطاليا الى السطح خلال التطور الطويل للاحداث . وحملت الأزمة معها تأخير المنجزات وتأجيلها بسبب ما أظهرته القوات البريطانية في مصر من قصور في الاستعداد وعدم كفاية لمجابهة احتمال تقدم الايطاليين عبر ليبيا بهدف الوصول الى قناة السويس بما فرض تأمين الدعم الفوري ، وارساله من انكلترا بما في ذلك الفوج (الخفيف) الأول من لواء المدرعات) وسريه من الفوج الرابع . وكانت هذه الوحدات صغيرة كقوات دعم ، ولم يكن باستطاعتها الاعتماد إلا على قوتها الخاصة ، ولهذا تم تجريد لواء الدبابات من جميع مدرعاته الخفيفة وأجهزة اتصالاته اللاسلكية .

ارتفعت الآمال بحدوث تحسن سريع في موقف الدبابات عندما تم تعيين سيرهوغ أليس في فصل الربيع من عام ١٩٣٤ ، لمركز المدير العام للتسليح والمدفعية . مما جعله المسؤول عن تأمين وسائط القتال للجيش ، وكان المعروف عن أليس أنه من أفضل جنود قوة الدبابات في الحرب العالمية الأولى ، وقد أصبح عند تعيينه الجديد وهو يحمل رتبه فريق (ليفتنانت جنرال) . ولكن لم يشارك في حمل هذه الآمال القسم الاكبر من أقرب مساعديه في تلك الحرب ممن استمروا في خدمة قوة المدرعات ، ولو انهم استمروا في بذل أقصى الجهود للايحاء بانه النموذج للقائد خلال مرحلة قيادة الدبابات في فرنسا من عام ١٩١٦ وحتى نهاية الحرب .

ولكن مقابل ذلك ، فقد تعاظمت الشكوك بشأن قدرته على ادراك المشكلات ثم في

ايجاد الحلول المناسبة لها ، خلال فترة السنوات الثلاث (١٩٣٠ - ١٩٣٣) حيث كان يمارس عمل مدير التدريب العسكري في وزارة الحرب . لقد كان مهندسا عسكريا في الأصل ، ولم يكن متمكنا بصورة جيدة من الاتجاه الجديد لتكتيكات المشاة ، كما انه وقف بعيدا عن التطورات الحديثة في الاساليب التعبوية (التكتيكية) للدبابات - فكان على النقيض من مهندس عسكري ظهر حديثا وتحول الى المدرعات (وهو هوبارت) - وأصبح بسبب الشكوك في كفاءته كمدير عام للتسليح ، أكثر وضوحا بالنسبة لي عندما تحدثت اليه بشأن قيادة هوبارت لمناورات لواء الدبابات في عام ١٩٣٤ . فأجاب بسخرية في انه يشك بأمكانات تطبيق التقنية الجديدة في الحرب ، كما أظهر شكله ايضا باحتمال وقوع حرب اخرى ، سواء في أوروبا أو حتى في الشرق الأقصى .

دفعت في شهر شباط (فبراير) ١٩٣٦ . موازنة الجيش عن عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ، ولم تكن هذه الموازنة تتضمن ما يشجع كثيرا على الأمل بتقدم مناسب او تغيير في المخصصات . وكانت المذكرة المرفقة بالموازنة والتي وضعها أمين الدولة لوزارة الحرب (دوف كوبر الذي تم ترفيعه في تشرين الثاني - نوفمبر - لهذا المنصب) قد تضمنت ما هو ضروري لاستمرار تطبيق البرنامج الذي وضع في السنة السابقة ، وبدأ العمل به ، ولم تتضمن توسيع الظلال المتقدمة لبيان الحكومة الجديد بشأن الدفاع . فتم تخصيص مليوني جنيه استرليني فقط من اصل ٥٠ مليون لتطوير القوة الآلية (الميكانيكية) والقدرة على النقل (المركبات) . وخصص نصف هذا المبلغ الزهيد تقريبا لابدال الخيول في المستقبل ، بالمركبات ذات السلاسل (الجنازير) لنقل الخط الأول من المشاة . وأصبحت عملية الامداد بالدبابات والمركبات ذات السلاسل (المجنزرات) أقل حاليا مما كانت عليه في السنة السابقة ، كما كانت هناك بعض الظواهر الغريبة الأخرى .

أدلى دوف كوبر بحديث عند تقديمه للموازنه ، وكان هذا الحديث تعبيرا عن الموقف العقلي الذي أظهر مثل تلك الفوارق والتناقضات في المعالجة ، وهو الموقف الذي استمر في كبح جماح تقدم القوة الآلية (الميكانيكية) . فقد اعتذر (دوف كوبر) للفرسان الخيالة عن القرار المتخذ للبدء بتكوين ٨ ألوية آليه (ميكانيكية) وكان مما قاله : (ان هذه العملية تشبه الطلب الى موسيقي عظيم في السابق ان يقذف بأداة الفيولون ليخصص ذاته في المستقبل لاذاعة الاسطوانات - في الغراموفون) كما نقل وجهة نظر وزارة الحرب (التي ستبذل أقصى جهدها للابقاء على امتيازات الفرسان - الخياله) والتعويض عن ذلك بما أطلق عليه (التضحية الكبرى) طالبا اليهم قبول وسائط الحركة الحديثة .

على الرغم من تقديم علاوة اضافية لموازنة الدفاع في شهر تموز (يوليو) وفقا لوعد الحكومة في بيانها ، ورفع موازنة الجيش الاجمالية لتلك السنة حتى ٥٦ مليون جنيه استرليني ، فان الزيادة المخصصة للامداد بالدبابات والعربات ذات السلاسل الأخرى (المجنزرات) لم تتجاوز اكثر من ١٠٠ ألف جنيه استرليني ، في حين تمت مضاعفة هذا المبلغ تقريبا من اجل المركبات ذات العجلات (السيارات للنقل) فوصل المبلغ المخصص لها حتى مليون وسبعمائة ألف جنيه استرليني .

لم تكن الجهود المبذولة للاسراع في تجاوز مسافة السباق للتحول الى الجيش الآلي (الميكانيكي) على قلة كفاءتها ، وعدم تناسبها ، الا برهانا جديدا يمكن وضعه الى جانب الزيادة الاضافية في الموازنة من اجل ابراز الاعتراف الضمني بما حملته حرب الحبشة (الحرب الاثيوبية) من دروس هامة . فالمسيرة المبكرة لقوات الغزو الايطالية ، وطريقة العمل بسرعة لايقاف التقدم عبر ذلك الاقليم الواسع ، قد أبرزتا ضعف رسائط النقل على العجلات (السيارات) المقيدة بتحركها بتوفر طرق المواصلات . ولكن عندما تعلم الايطاليون طريقة تنظيم قواتهم لتكون اكثر ملاءمة مع ايجاد الطرائق المناسبة لعملها ، جاءت عملياتهم لتبرهن بوضوح ظاهر على قوة الضربات الآلية (الميكانيكية) وامكاناتها . . ففي الجنوب ، تقدم الأثيوبيون حتى وصلوا الى اقليم مكشوف فقامت القوات الايطالية بتوجيه هجوم مضاد بالدبابات سحقت به القوات الاثيوبية ، ثم قام غرازياني بتحقيق انجاز ضخم عندما انطلق للمطاردة حتى مسافة ٢٤٠ ميلا من دولو الى نيفيلي ، وأشرت الى ذلك في مقالة نشرتها صحيفة التايمز وجاء فيها (لقد كان ذلك تجربة لقدرات الأرتال المتحركة بالاشتراك مع الطائرات ـ رأس حربة الهجوم) .

ثم جاء برهان أضخم ، ولو انه جزئي ، عن قيمة القوات الآلية (الميكانيكية) ، وقدرتها على الاضطلاع بالضربات الاستراتيجية بعيدة ـ المدى وذلك عبر استيلاء ارتال « ستاراك » على غوندار ، حيث قامت هذه الارتال بالسير مسافة ٣٤٠ ميلا خلال ١٤ يوما عبر الاقاليم الشمالية التي هي من أصعب الاقاليم . وفي بداية شهر ايار (مايو) تعرضت قوات الجيش الاثيوبي للانهيار ، وكانت رغم بدائيتها من أقوى الجيوش ، وابرزت في صحيفة التايمز الدرس المستخلص وهو (لقد انتصرت الآلة على الرجل ، وسحق أسد يهوذا « شعار الدولة الاثيوبية » بين فكي الكماشة الأعلى والأسفل للقوات الآلية الايطالية . . . . انها كتابة على الجدار ـ ولكنها كتابة عميقة المضمون لانها حفرت على جدار جبل منعزل وبعيد) ولكن هذا التحذير الواضح جدا لم يلق اهتماما كافيا في دوائر وزارة الحرب البريطانية .

لم تعمل وزارة الحرب على تعويض النقص في العتاد والرجال لاكمال لواء الدبابات في الوقت المناسب اعدادا للموسم التدريبي في عام ١٩٣٦ ، وعلى هذا فانه لم يكن بالمستطاع الذهاب الى أبعد من تدريب الأفواج ، وعلى الرغم من ذلك ايضا فانه لم يكن بالمستطاع البدء بالتدريب قبل نهاية شهر آب (أغسطس) . وكان التدريب قضية تبديل موقت ، تم فيه الرجوع بصورة اضطرارية لأجهزة الاشارة البصرية عوضا عن الهاتف اللاسلكي ، وقامت العربات ذات السلاسل (المجنزرات) بتمثيل دور الدبابات الخفيفة . ولولا قدرة هوبارت الفائقة في اثارة الحماسة لكان من المحال تنفيذ أي مشروع تدريبي له قيمته في ظروف تلك العقبات الكثيرة والمتنوعة . ان قصة تطور الدبابات في الجيش البريطاني خلال فترة الثلاثينيات ، على نحو ما سبق معالجته ، انما هي قصة الاهمال المستمر وسوء المعالجة . ولم يتم إلا في الفترة الاخيرة - من الثلاثينيات - بذل الجهود للتعويض عن السنوات الضائعة . وقد استمرت العوائق رغم ما حدث من تأخير ، فجاءت الجهود في وقت متأخر جدا . ولكن ، ومع وضع جميع الظروف المحيطة بالاعتبار ، فان النواقص التي ظهرت عندما اندلعت الحرب (العالمية الثانية) كانت اقل وضوحا مما تم انجازه في السنتين الأخيرتين لا سيما مع مواجهة الصعوبات المتراكمة .

لقد وضع تصميم الدبابة من وزن ١٦ طن في عام ١٩٢٨ وظهرت الأجهزة الاختبارية - التجريبية - في عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ ، ولم يحدث بعد ذلك أي تقدم حقيقي ، باستثناء انتاج الدبابات الخفيفة حتى عام ١٩٣٧ . وكان تصميم الدبابة ١٦ طن يضم اليه افضل الميزات التي احتواها تصميم دبابة الاستقلال (ايندباندت) ، وكانت اكثر سرعة من كل منافساتها في العالم خلال تلك الفترة التي ظهرت فيها . فلو استمرت الجهود لتطويرها خلال الفاصل الزمني الذي كانت تتوفر فيه الموارد المالية للانتاج ، لكان من المحتمل ان تحافظ بريطانيا على زعامتها في تصميم الدبابات . ولكن الهيئة الاستشارية للجيش امتنعت عن تبني الدبابة ١٦ طن نظرا لأن ثمنها قد بلغ ١٦ ألف جنيه استرليني ، وعلى هذا فقد فكر المدير المسؤول عن التسلح الآلي (الميكانيكي) - اللواء آلن برو - في انتاج دبابة أصغر وأرخص ثمنا من نوع الدبابات المتوسطة ، مستخدما المحركات التجارية ، بحيث يكون وزن الدبابة في حدود ١٠ طن . وجاءت التجربة مخيبة للامال عبر سلسلة النماذج التي تم اختبارها وتعرضت عملية التطوير للاعاقة . وفي الوقت ذاته ، تم هجر كل محاولة للمزيد من تطوير الدبابة ١٦ طن . وعلى هذا كان الموقف عام ١٩٣٦ ، باختصار ، الغياب الكامل عن الانظار ، وحتى عن الاذهان لكل ما يمكن وصفه بدبابة متوسطة حقيقية . وكان ذلك مروعا لاسيما وأن النازية الألمانية قد كونت

قواتها المدرعة على نطاق واسع ، واعتمـدوا الى حد بعيد على كتلـة الدبابـات الخفيفـة السريعة ـ على أساس مواصفات الدبابة البريطانية كاردن ـ ثم طورت الى دبابات متوسطة ذات ميزات جيدة (منها دبابة البانزر ٣) من وزن ١٩ طن ومسلحة بمدفع سريع الطلقات عيار ٣٧ مم ، وكذلك (البانزر ٤) من وزن ١٧ طن (تمت زيادة الوزن بعد ذلك الى ٢٢ طن) مسلحة بمدفع من عيار ٧٥ مم ، يتميز بمعدل رمي منخفض وقد عملت المانيا على بدء انتاج النموذجين معا منذ عام ١٩٣٧ ، ولو ان هذا الانتاج بقي ضمن حدود اعداد قليلة . ونتيجة لذلك ، فقد الجيش البريطاني دوره الريادي الأصيل في تطوير الدبابات وذلك قبل سنوات ثلاث من بداية الحرب العالمية الثانية .

الفصل الثاني عشر
السياسة ـ الاستراتيجية البريطانية

سبق أن ذكرت في الفصل الثالث ما قمت به من تحد لمفهوم (الحرب المطلقة) وهو المفهوم الذي طوره اتباعه الى عقيدة تنص على ان المسار الصحيح في الحرب هو في بذل جهد غير محدود للوصول الى هدف غير محدود . وفي الفصل السادس قدمت وجيزا مختصرا للأرضيات التي استندت اليها في تحدي هذه العقيدة التي هيمنت على العسكرية الأوروبية وعلى الفكر السياسي ، بداية من القرن الثامن عشر والى ما بعد ذلك مع ما نتج عن ذلك من أثر مشؤوم وخطر تقريبا على الحضارة في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . وهي الحرب التي اطلق عليها منذ ذلك الحين بالحرب العالمية الأولى .

لقد قادتني دراسة تاريخ تلك الحرب الى مزيد من الثقة بمدى ما الحقته تلك العقيدة من ضرر وفساد بسياسة بريطانيا واستراتيجتها . بالاضافة الى ذلك فانني عملت عند اعداد كتابي عن فوش (الذي صدر عام ١٩٣١) على دراسة قضية التفاهم الافرنسي ـ البريطاني عام ١٩٠٤ والذي تطور الى تنسيق تعاون بين هيئات الأركان العسكرية ، بحيث وجدت بريطانيا نفسها عندما ظهرت أزمة عام ١٩١٤ ملتزمة لدعم فرنسا والاستراتيجية القارية إلى حد اعمق بكثير مما كانت تحسب حسابه الحكومة البريطانية ، مما ادى الى التخلي عن سياستها الأساسية واستراتيجيتها في الحرب . وحملتني تلك الدراسة أيضا على رؤية الطريقة التي ابتلعت فيها بريطانيا ـ على غير ارادة منها ـ العقيدة الاستراتيجية السائدة في القارة الأوروبية ، وذلك عن طريق هيئة الاركان العامة التي تم

تشكيلها حديثا ، ثم قبول الحكومة البريطانية لتوجيهاتها دون التأكد من نتائجها الطبيعية

كانت الاستراتيجية البارزة لبريطانيا تستند الى استخدام (القدرة البحرية) لاشراكها مع الضغط الاقتصادي ضد خصومها ومع العمليات البرمائية ضد الأطراف الضعيفة والامداد المالي وتأمين الامدادات المتنوعة الأخرى الى حلفائها في القارة الأوروبية كانت تلك الاستراتيجية غريزية الى حد بعيد ، ونتاجا طبيعيا لموقف الدولة كجزيرة ، وقد وصفها فرانسيس بيكون كمبدأ موجه أساسي في محاضرته (عظمة الممالك والدول) حيث ذكر بوضوح ما يلي (يتمتع من يسيطر على البحر بقدر كبير من الحرية ، ويتدخل في الحرب بقدر كبير أو بقدر صغير حسب ارادته ، في حين كثيرا ما يجد اولئك الأقوياء جدا في البر أنفسهم وهم في حالات ضيق عظيم) وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه الاستراتيجية في القرن الثامن عشر هي التي حددت لحزب التوري التقاليد الحربية ، ذلك لأن فوائدها كثيرا ما دعمت اولئك الذين عارضوا حكومات حزب الهويغ لمغامراتهم باهظة التكاليف في مجال السلطة السياسية للقارة الأوروبية

طبقت استراتيجية (المحافظة على القوى) بنجاح على امتداد اكثر من ثلاثة قرون ، اعتبارا من عهد الملكة اليزابيت الأولى ، واحبطت التهديدات الخطرة التي ظهرت على التتابع في اسبانيا وهولاندا وفرنسا وكان منافسونا ، رغم تفوقهم في القوة المسلحة ، يقفون في كل مرة وقد استنزفت قواهم في جهد مضاعف ، لتوجيه الحملات البرية الضخمة من جهة ، والتنافس معنا للفوز فيما وراء البحار من جهة اخرى وتجنبت بريطانيا وحدها استنزاف الجهد في السعي وراء السراب لتحقيق انتصارات قارية ولو انها كثيرا ما أرسلت حملات عسكرية لدعم حلفائها مباشرة او بطريقة غير مباشرة ، إلا انها لم تكن بقوات كبرى في جميع الاحوال ، فكانت هذه الحملات بمثابة دعم نوعي ، ومادي ، ونفسي ولم تخرج بريطانيا عن استراتيجيتها التاريخية هذه ابدا حتى جاءت الحرب العظمى في القرن العشرين وهي عندما فعلت ذلك ، ذهبت الى حد استنزاف ذاتها « وحتى نقطة اللاعودة » بالنسبة لغناها ورفاهها السابق ، وبالنسبة لمكانتها في العالم

كان ذلك التغير المشؤوم في السياسة والاستراتيجية ، نتيجة لتأثير فرديناند فوش « مشير في المستقبل » على جندي بريطاني بصورة خاصة هو السير هنري ويلسون « مشير المستقبل ايضا » ففي عام ١٩٠٨ أصبح فوش مديرا للكلية الحربية الافرنسية ، وفي

تلك الفترة كان هنري ويلسون قائدا لكلية اركان الجيش البريطاني في كامبريلي . وكان ويلسون ارلنديا . نقل في طفولته الى روضة أطفال في فرنسا ثم اصبح مشربا بالاخلاص لكل ما هو فرنسي ، وأصبح جنديا رائعا ولكنه سطحي التفكير ، وتأثر بصورة غير طبيعية بكتب فوش (مبادىء الحرب وادارة الحرب) وهي الكتب التي تستند الى مواد قام فوش بجمعها من مصادر متنوعة دون اجراء بحث مستفيض من قبله . تملكت هنري ويلسون الحماسة لمقابلة المؤلف « فوش » نظيره المقابل في فرنسا ، وتطور التفاهم القلبي الجديد بين الرجلين الى وثاق عسكري متين ربط بين البلدين . فقد قام هنري ويلسون بزيارة للكلية الحربية في باريس ذات يوم من مطلع شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٩ . وقام بجولة كان استقباله فيها أقرب الى الفتور . ولكن ذلك لم يردعه على كل حال ، فعاد من جديد بعد ظهر ذلك اليوم ، وبعد الاستماع الى المحاضرات ، قفز بحماسة عندما وجه اليه فوش دعوة طارئة لتناول الشاي معه . وأخذت حرارة اللقاء ترتفع حول مائدة الشاي بصورة تدريجية ، وتطورات الصداقة التي كان لها نتائجها الحيوية . وأخذت شخصية فوش في الهيمنة اكثر فأكثر على شخصية ويلسون (حتى وكأنه ينومه مغناطيسيا) . فحمل ويلسون معه الى انكلترا تلك الأساليب الافرنسية لغرسها في كلية الاركان . ثم أضاف الى هذا التقليد عبادته العمياء ـ المجردة من التفكير ، للحب الرومانسي الذي حمله الى مسافات بعيدة جدا بحيث انه لم تمض بعد ذلك سوى اعوام قليلة حتى قام بزيارة ميادين حرب ١٨٧٠ ، ووضع عند اقدام تمثال « فرنسا » خارطة لمناطق حشد القوات البريطانية على الأرض الافرنسية في حال وقوع الحرب . وكانت تلك حركة شاعرية ، الا انها بعيدة جدا عن التفكير الاستراتيجي الهادىء والرصين .

لم يكن فوش قد ذهب من جانبه ، يقينا ، الى هذا الحد ضمن الاتجاه ذاته . فقد حافظ على قدرته الحسابية . فعندما سألة ويلسون في زيارته الثانية عن تقديره (لأصغر قوة بريطانية يرغبها للمساعدة العملية) من اجل دعم فرنسا في حال وقوع الحرب مع المانيا ، أجاب فوش (جندي متطوع واحد ؛ وسنبذل أقصى عناية ممكنة حتى لا يقتل) . وتظهر إجابة فوش خبثه ودهاءه في تقديره للتأثير العاطفي لكلماته ، وكيف انه استطاع سحب ثقل الجهد البريطاني بكاملة وزجه في الحرب القارية . وكانت تطلعاته الاستراتيجية محدودة وضيقة جدا ، بحيث انه عندما ذكر بالدعم الذي تستطيع البحرية البريطانية تأمينه له ، صرح بأن هذا الدعم لا يساوي في الحرب (القارية) اكثر من (حربة واحدة) .

ترفع ويلسون في الوقت ذاته الى مركز رئيسي في انكلترا خلال تلك السنوات من الاعداد للحرب ، وأصبح مديرا للعمليات العسكرية في وزارة الحرب ، وتركز عمله على

وضع المخططات في أدق تفاصيلها ، وهي مخططات وضعت الجيش البريطاني ملحقا للجيش الافرنسي وتابعا له ، وكانت منظمة بصورة دقيقة ، بحيث كان من الصعب جدا اجراء أي تعديل على تنفيذها عندما وقعت الحرب . وقد أصبحت ترتيباته في عام ١٩١٤ بمثابة الحبل الذي التف حول عنق بريطانيا والذي لم يكن هناك من يستطيع حل عقدته أو فكه . ولم يتمكن من فك احكام هذا الوثاق واكسابه المرونة الا جنود اخرون ورجال دولة تدخلوا عندما ظهرت حالة الطوارىء العاجلــة

ما هي النتائج التي ترتبت على ذلك ؟ لو ان بريطانيا لم تنضم الى فرنسا ، فان الضمانات التي شملتها ترتيبات ويلسون « بصورة ضمنية » ستقود بريطانيا حتما الى تقويم الموقف المخزي وتصحيحه . ثانيا . ان هذه الترتيبات فرضت على بريطانيا ارسال جيشها الى فرنسا للعمل وفقا للمخططات الافرنسية . وكانت النتيجة هي ترك بلجيكا دون دعم .

هذا ولو تم ارسال الدعم البريطاني الى بلجيكا وفقاً لاقتراح البعض ومنهم لورد روبرت ، لما كان من نتيجة ذلك توفير فرصة جيدة امام القوات البريطانية لضمان الدفاع عن آنتويرت والقطاع الساحلي فحسب ، بل ربما كان بالمستطاع احباط كامل المخطط الالماني المحكم للتقدم داخل فرنسا . ولقد برهنت الوثائق الالمانية ذاتها ان القيادة العليا للقوات الالمانية قد أخذت في الشعور بالقلق المتعاظم من خطر تعرض جناحها الايمن وخطوط مواصلات قواتها مع زيادة كل توغل في العمق داخل فرنسا ـ وفي هذا الجو المثير للاعصاب تم اتخاذ القرار المشؤوم بالانسحاب من المارن ، وهو القرار الذي خضع جزئياً للتقارير عن انزال قوات على الشاطيء البلجيكي ، وان هذه القوات البريطانية الجديدة تتكون من (٣٤٠ ألف مقاتل) تتبعها قوات روسية . وقد كان هذا الانهيار العصبي في وسط القيادة الالمانية ، ما هو الا نتيجة انزال قوة لواء من ثلاثة آلاف مقاتل تابعين للبحرية في ساحل اوستند ، عملت الإشاعات المضخة على زيادة عددهم حتى ٤٠ الف .

عودة أخرى الى ترتيبات هنري ويلسون مع هيئة الأركان الافرنسية قبل الحرب ، حيث تظهر بوضوح نتيجة ثالثة وهي ان الرباط الوثيق مع الجيش الافرنسي قد ترك البلجيكيين دون دعم مما ضمن ممراً للقوات الالمانية عبر بلجيكا للوصول الى أضعف نقاط الحدود الافرنسية . وهذا يعني اغراق الجيش البريطاني في كارثة الانهيار الافرنسي . وقد امكن النجاة من الكارثة في المارن ، ولكن النجاح الجزئي لم يكن كافياً لتحرير البريطانيين من دورهم الالزامي في دعم الجبهة الافرنسية . وهذا يعني انه أصبح لزاماً على

البريطانيين منذ ذلك التاريخ ارسال المزيد والمزيد من القوات البريطانية الى فرنسا ، والاحتفاظ بجزء فقط لتنفيذ الاهداف الاستراتيجية التقليدية ويعني ذلك أيضاً انه أصبح على البريطانيين ـ البقاء ـ كشريك صغير (قاصر) في الخلف . في حين كانت بريطانيا في جميع حروبها الماضية الشريك الاكبر ، وكان موقفها المنعزل والمستقل هو الذي يجعلها قادرة على تحقيق التوازن . وكان من نتيجة ذلك كله هلاك حملة غاليبولي وضياع البلقان وانهيار روسيا ، واطالة امد الحرب قبل كل شيء .

لقد بذل الحلفاء ، دون توقف ، كل جهودهم خلال تلك السنوات ، للتغلب على الالمان في اقوى نقاطهم على الجبهة الغربية ، مما أدى بالحلفاء لاستنزاف قوتهم . وبالمقابل فان الخسارة التي كان يتم انزالها بالقوات الالمانية في كل عام من سنوات صراع الاستنزاف ، كانت اكبر من قدرة الجيش الالماني على تعويض الخسائر عن طريق تجنيد الشبيبة ممن يبلغون سن الخدمة العسكرية . ولقد استطاع فوش عن طريق تأثيره سحب بريطانيا الى خط استراتيجي ضيق في القارة الاوربية (وكان هذا الخط الاستراتيجي كالاخدود الضيق الذي لم يلبث ان اصبح افضل بقليل من آلة لفرم الكتل البشرية) ، وكان دور فوش هنا هو تحميل حليفه من الخسائر ما يزيد على تلك التي اوقعها نابليون كعدو . وعندما اصبح فوش قائداً لجيوش الحلفاء في السنة الأخيرة من الحرب لم يكن دوره ، بحسب اقواله ، يزيد على دور رئيس فرقة يقود جوقة من الموسيقيين ولكنه استطاع كمعلم للحرب ، وكأستاذ لويلسون ، ان يجعل منه القبضة التي هزت مهد بريطانيا ـ وهو البحر ـ الذي احاط بها ووفر لها نطاقاً من الحماية عاشت فيه وازدهرت لأمد طويل .

* * *

بعد ارتيادي بفترة قصيرة لهذه الخلفية عن فترة ما قبل الحرب لكتابي الذي وضعته عن فوش ، طلب الي القاء محاضرة اخرى في معهد الأسلحة المشتركة الملكي ، وطرحت في هذه المحاضرة تأملاتي في مسيرة السياسة الاستراتيجية ـ البريطانية ونتائجها خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ مع مقارنة ذلك بما كانت تتبعه بريطانيا في جميع حروبها السابقة . وألقيت هذه المحاضرة في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ، ثم اتخذت هذه المحاضرة بعد ذلك اساساً للفصل الأول من كتابي(طريق بريطانيا الى الحرب)وهو الكتاب الذي تم نشره بعد ذلك بفترة ١٨ شهراً . جرى نقاش في اثر المحاضرة دعم فيه المتحدثون من العسكريين جميعهم ، ومن مختلف الزوايا ، قضية الجهد الكثيف في القارة الاوروبية ، بحسب الخط الاستراتيجي الذي تم الاضطلاع به في الحرب . وكان المؤيد الوحيد لذرائعي هو الاميرال ريتشموند الذي بدأ الحديث بقوله (ان بيان المحاضر بشأن استراتيجيتنا التقليدية . من

وجهة النظر التاريخية ، هو بيان صحيح جداً) ثم تابع حديثه فأوضح ان اضاعة فرص العمليات البرمائية في الحرب الأخيرة ، كان على جانب كبير من الخطورة ، ثم انهى حديثه بقوله :

ـ هناك عقيدة بريطانية قديمة وضع اساسها بشكل واضح لورد هاردويك وتتضمن هذه العقيدة ان يكون هدفنا العظيم في الحرب هو استخدام قواتنا في مسارح العمليات التي تكون فيها قواتنا أقوى من قوات العدو بحيث تستطيع تحقيق اعظم النتائج ، وبحيث تكون خسائرنا أقل ما يمكن مع تكبيد العدو افدح الخسائر ، وأخيراً بحيث يمكن انجاز النصر للحصول على افضل النتائج المفيدة . ولقد بقيت هذه الافكار الرئيسية دون ريب ثابتة على امتداد السياسية الحربية البريطانية للقرن الثامن عشر ، ثم بدأت في الانحدار مع نهاية القرن التاسع عشر . ذلك اننا لم نضع اطاراً جديداً وكاملاً للأعمال القتالية عندما ظهرت الحرب الأخيرة بوضوح ، وكان ثمن ذلك باهظاً جداً . وسواء كانت المحاضرة صحيحة او خاطئة . فان النقاط التي جذب المحاضر انتباهنا اليها هي نقاط بين تلك التي يجب علينا دراستها بعناية عند التعرض لكل نقاش يتعلق بقضية اعادة تكوين قواتنا المقاتلة .

كان الاستقبال الأساسي لتأملاتي في هذه المحاضرة استقبالاً عدائياً جداً ، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان من الممتع رؤ ية مدى انتشار وجهات نظر مماثلة تم التعبير عنها على نطاق واسع في القيادات العسكرية خلال السنوات القليلة التالية . وكان اول المؤ شرات هو قرار هيئة الاركان العامة في فصل الخريف التالي ، بأن يوجه تدريب الجيش لعام ١٩٣٢ نحو « الاعمال القتالية في المستعمرات » وتوجيه التدريب في السنتين التاليتين لذلك من اجل الاستعداد لقتال القوات على نموذج القدرة الأوربية في مسارح الحرب لما وراء البحار ، على ان يتضمن ذلك مجموعة من عمليات الانزال .

تطور هذا الاتجاه الجديد بعد تحرك العدوان الياباني وانتقاله الى داخل حدود الصين بداية من فصل الخريف لعام ١٩٣١ . وظهور تحول مضاد لبريطانيا في السياسة اليابانية ، مما سبب القلق بشأن المواقع البريطانية وأمنها في الشرق الأقصى . وأصبح الحديث عن هذا الاتجاه اكثر وضوحاً بعد ظهور خطر الحرب مع الفاشية الايطالية ، وهو الخطر الذي ظهر في فصل الخريف من عام ١٩٣٥ نتيجة غزو ايطاليا للحبشة (اثيوبيا) . وأخذ المفكرون من العسكريين في التأكد (بدقة اكثر من رجال الدولة) من صعوبة انتشار بريطانيا ذات الموارد المحدودة في مواجهة الخطر المزدوج على مواقعها في كل من الشرق

الأقصى والشرق الأوسط . وزيادة على ذلك ، فقد اصبح هذا الخطر ثلاثياً نتيجة اعادة هتلر تسليح المانيا .

لم تجابه المانيا منذ عام ١٧٧٩ تهديداً ثلاثي الزوايا ، حيث تسببت تلك الفترة في ضياع مستعمراتها الأمريكية وكذلك مواقعها الأخرى فيما وراء البحار . ولكن الخطر الحالي أكبر بكثير ، وليس ذلك بسبب قوة خصوم البريطانيين ووفرة مواردهم ، وانما ايضاً بسبب الصعوبات الناتجة عن تقدم القدرة الجوية وما تمثله من خطر على قدرتها البحرية - وهي دعامتها الرئيسية - وبصورة خاصة في مياه المضائق المحدودة .

كانت النتيجة التي وصلت اليها عند تأمل هذا الموقف الجديد هي ان افضل الوسائل لمجابهتها انما تكمن في تطوير نظام الأمن الجماعي ، مع الاشتراك بامكاناتنا في اطار ملائم لظروفنا الاستراتيجية ومواردنا . ذلك انه على الرغم من تصرفنا بحكمة اكبر مما فعلناه قبل عام ١٩١٤ بالنسبة للمحافظة على سياستنا التقليدية في الانفصال عن القوى السياسية في القارة الاوربية ، الا اننا الآن قد الزمنا انفسنا بدعم عصبة الامم حتى ابعد الحدود ، بحيث اصبح من المتعذر علينا الانسحاب بشرف ، واصبح علينا ايضاً تحديد خطوط دفاعنا الى مسافات بعيدة جداً لضمان امننا ، وللعودة الى سياستنا القديمة .

اوضحت هذه النتيجة في مقالاتي الافتتاحية التي نشرتها صحيفة التايمز عند التحاقي للعمل معها في آذار (مارس) ١٩٣٥ وذلك قبل اعلان هتلر الجماهيري بتدابيره واسعة النطاق لاعادة تسليح المانيا ، وتمزيقه لبنود اتفاقية السلم والتنكر لقيودها . وقد بدأت مقالي الأول (في ١٤ آذار - مارس) بمراجعة للموقف ، وانتقاد للاجراءات المحدودة والتدابير الصغيرة جداً بحسب ما جاءت في بيان الحكومة الجديدة بشأن الدفاع للابقاء على ما اطلق عليه (المستوى المناسب للدفاع) وقلت :

قد نستطيع بجهد كبير ، ونفقات ضخمة تصحيح نسبة التوازن بالقوى مع خصمنا . وليس هناك علاج بمقادير قليلة يمكن له معالجة حالتنا الضعيفة ، اذ ليس باستطاعتنا تعديل الموقف الجغرافي .

ما هي النتيجة التي يمكن الوصول اليها عن طريق هذا التقرب الفني من المشكلة ؟ ان نبني سياسة العزلة ، على ما هو ظاهر ، لا يحمل الا قدراً يسيراً من الأمل في تحقيق الأمن . وتبقى الاستراتيجية هي أعظم قوة يمكن لها ضمان متابعة اسلوب الأمن الاجماعي ، ومن المؤسف ان تبقى هذه الاستراتيجية مختفية تماماً تحت ستار اعتبارات دونها

اهمية عند التطبيق العملي . وكلما امعن المرء في تأمل الظروف الاستراتيجية التي يمكن تجنبها في هذه الأيام ، كلما ظهر له بوضوح اكبر ان تطوير الأمن الاجماعي ليس مجرد مثل اخلاقي اعلى او اسلوب معنوي وانما مصلحة بريطانية تنطلق من افضل وجهات النظر العملية . فبواسطتها نمتلك الأمل بالوصول الى الحل (المناسب) وبدونها لا نستطيع ان نفعل شيئاً) . ثم كتبت في افتتاحية اليوم التالي :

قد يكون من المريح بالنسبة للكثيرين منا لو امكن مرة اخرى امتلاك تدابير الامن التي كنا نستمتع بها قديماً بواسطة البحرية . ولكن حتى لو امكن ضمان دفع الثمن المادي للتغلب على عقبات الامكانات ، فان تدخل القدرة الجوية سيعيق ذلك . وقد يكون من المريح لو استطعنا تطوير قوة جوية بدرجة كافية من المنعة لمنع كل هجوم جوي جدي على الاقليم ، ولكن حتى لو كان بالمستطاع تأمين الثمن المطلوب ، فان الشروط الفنية لا تضمن تأمين مثل تلك الدرجة من الأمن المطلق ، ذلك انها لن تكون كافية لحماية خطوط مواصلاتنا عبر المحيطات . ويمكن تطبيق هذه الذرائع ذاتها للاجابة على اولئك الذين يطالبون بدعم زيادة قوة الجيش دون تقدير مناسب للأسلحة الأخرى (البحرية والجوية) . وهكذا فانه من المستحيل ايضاً من الناحيتين الفنية والمالية ، الوصول الى مستوى كاف من التسلح في المجالات الثلاثة بما يضمن لنا العودة الى حدود امننا القديم . وان تأمل هذه الحقائق يقودنا ، طوعاً او كرهاً ، نحو تبني الحكمة في سياسة الأمن الاجماعي . . .

كتبت مقالتي الأولى والافتتاحية بعد نقاش مع رئيس التحرير « جيوفري داوسون » وكذلك مع « بارينغتون ـ وورد » وتم نشرهما بكاملهما دون اي تعديل من قبل رئيس التحرير . وزيادة على ذلك ، فقد اتخذت صحيفة التايمز خطاً قوياً في ادانتها للعدوان عندما قام الايطاليون بغزو الحبشة ، وشجبت اتفاقية هور ـ ليغال لما تضمنته من تنازلات بهدف اشباع شهية موسوليني للتوسع ـ وكانت النتيجة هي استنكار مجلس الوزراء للاتفاقية ، وارغام هور على الاستقالة من منصبه كوزير للدولة للشؤون الخارجية . ووقعت عندها في حيرة وفزع وانا أشهد جيوفري داوسون وهو يكتفي بالاستنكار اللفظي ، ويعرض عن متابعة القضية ، عندما ناقشته بضرورة الضغط حتى أقصى الحدود لاصدار قرارات اقتصادية يتم بموجبها ايقاف امداد ايطاليا بالزيت (البترول) . وأشرت الى انه على الرغم من توقف الايطاليين عن متابعة التقدم بصورة مرحلية ، كنتيجة لصعوبة تأمين الامداد على محاور الطرق الرديئة ، فان القوات الايطالية لن تلبث ان تتابع تقدمها

من جديد للقضاء على الجيش الاثيوبي ـ الضعيف ، الا اذا امكن حرمان القوات الايطالية من الوقود الذي تحتاجه لاستئناف التقدم . ولكنني لم اتمكن من حمل جيوفري ـ داوسون على رؤ ية ضرورة المتابعة لحملة الاستنكار مع اجراءات ناجعة ، لكن التايمز تابعت افتتاحياتها في معالجة الموضوع (باسلوب لطيف ـ معتدل) ، هذا ولو انه كان من الواضح ان الذهاب بعيداً في استعداء موسوليني سيكون امراً بالغ الخطورة خلال السنوات المقبلة ، لو اننا فشلنا في تحويل تقدمه ، ذلك ان نجاحه في العدوان ضد الحبشة « اثيوبيا » سيقنعه بضعفنا من الناحيتين المعنوية والمادية ، وهذا ما يضخم عقدة طموحه للمزيد من التوسع في افريقيا على حسابنا .

كان موقف داوسون في دعم عصبة الأمم بالاقوال لا بالأعمال يشابه مواقف اصدقائه في مجلس الوزراء الذي كان يترأسه حالياً ستانلي بالدوين . وعرف عن ستانلي ارادته الجيدة للعمل ولكنه كان كسولاً ، وغير مهتم بقضايا الدفاع ، فكان خط سياسته الداخلية يتلخص في انه بالامكان ان تحل معظم المشكلات نفسها اذا لم يتم التدخل لحلها . وكان يعتقد انه بالامكان تطبيق هذا الخط ذاته عند معالجته لقضايا السياسة الخارجية للديكتاتوريات الجديدة .

ظهر في شهر ايلول ، وبشكل واضح ، ان موسوليني على وشك التقدم داخل الحبشة في كل لحظة ، وتحدث هور في جنيف بشكل قوي عن دعم حقوق الأمم الصغيرة ، واكتسب استحساناً عظيماً عندما صرح بوضوح في جنيف عن وقوف بريطانيا (للمحافظة على التعاون بين دول عصبة الأمم جميعها ، والعمل بصورة خاصة لمقاومة جميع الأعمال العدوانية بحزم وبصورة اجماعية) . ثم جاء بالدوين في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وعلى اثر العدوان الايطالي ، ليتبنى شعار (الامن الاجماعي) من اجل استخدامه كشعار حكومي في الانتخابات العامة التي كانت تتم في حينها . وعاد الى مركزه الوزاري على هذا الأساس ، وقد ايدته في ذلك اصوات ٢٤٧ عضواً هم الأكثرية الساحقة في مجلس العموم . وبعد ذلك بأسابيع قليلة اجتمع هور مع وزير الخارجية الافرنسية ، بيير لافال ، في باريس ، واتفقا على اتخاذ الترتيبات لتسليم قسم كبير من الحبشة الى ايطاليا كطريقة لارضاء موسوليني ، وتجنب كل عمل تحت علم عصبة الأمم .

كان جيوفري داوسون يعرف جيداً واكثر من كل ما عداه الطريقة التي تم بها هذا التحول السياسي المذهل ، ولهذا فانه كان يعتبر بالدوين اكثر تقلباً من هور . وقد علمت منه ايضاً ان الملك هو الذي طلب الى بالدوين اعادة تكوين علاقات جيدة مع ايطاليا ، وانه كان يفضل بصورة اساسية الأخذ بمقترحات باريس قبل ان تصبح ردود فعل الجماهير

ظاهرة واضحة . وهذا الأمر معروف بوضوح في خارج انكلترا ـ وفقاً لما اوضحته الاذاعة الافرنسية ـ على انه منسوب للملك جورج الخامس ، وذلك بعد وفاته في ٢٠ كانون الثاني (يناير) .

انني اميل الى الاتفاق مع وجهة نظر ايدن التي عبر عنها في مذكراته ، فقد ذكر ان احكام سام هور في هذه الفترة كانت متميزة بالظواهر المرضية ، ولكنني اتجاوز تقديرات ايدن في تقويمي لتلك الظواهر ، حيث لاحظت في السنة الأخيرة عدداً من الاحكام المتميزة بسوء التقدير . ففي مرة وجه سام هور دعوة الى عدد كبير من الاصدقاء لحضور حفل في نادي التزلج على الجليد الواقع في بارك ـ لين . وكان هدفه هو البرهان على مهارته كمتزلج على الجليد . وعلى الرغم من كونه ماهراً جداً بين الهواة ، إلا انه لم يكن لامعاً عند مقارنته برفاقه المحترفين الذين حضروا الى هنا لممارسة اللعب وظهر التناقض واضحاً وبشكل مضحك . وكان اكثر ما يثير الحيرة هو تفكيره في تنظيم (حفلة من هذا النوع) لاظهار مهارته .

كنت اشعر بعدم الارتياح ايضاً نتيجة تبادل الحديث معه قبل فترة قصيرة من الوقت سبقت ظهور ازمة الحبشة ـ وعلى الرغم من ان الحديث بشأنها قد جرى بصورة غير مباشرة ، الا انه تحدث عنها بطريقة (ذرائعية) وباسلوب سفسطائي يتناقض مع القيم والاحساس بالقيم والمبادىء ، مما أثر بي خلال السنوات المبكرة لصداقتنا .

لقد وضع ترينشارد بعض التعليقات القوية لكل من المشهدين وذلك خلال حديثي معه في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) .

أخذ ترينشارد في رثاء مقترحات باريس السلمية . وأظهر استغرابه للبلاهة والغباء مما ظهر حديثاً كحقيقة في سلوك هور وايدن ، وكيف كان ضعف هور عاملاً كبيراً في ذلك . وذكر انه يجب الا يغيب عن الذاكرة ما قام به سام هور من اعمال عظيمة خلال ادارته للهند ، وكذلك ايضاً فانه عندما تم تعيينه كوزير للطيران كان الهدف هو تصفية السلاح ولكنه ادار ظهره للمنصب الوزاري وعمل على توفير فرص النجاح للطيران . ولكن (ترينشارد) يجد ان هور يخضع بسهولة كبرى للتقلب عندما يهيمن عليه الشعور بسوء السمعة او انه اكثر برودة من الرجال الآخرين . ويظهر ان دماغه يتوقف عن العمل في مثل هذه الظروف .

استمر ترينشارد في حديثه للوصول الى بعض التأملات الهامة في قيمة الشك بدور

(المنصب او المركز) ، ذلك انه هو ذاته قد سعى الى المنصب لتولي وزارة الطيران للمرة الثانية   وعلى الرغم من انه اظهر نفسه من خلال اعماله بمظهر اتساع افق التفكير ، الا انه كان يجد صعوبة كبرى في ادراك ما هو ضروري فعلاً للمنصب وما يجب اتخاذه من قرارات تظهر له انها صحيحة   وعلى هذا فانه انقلب الى العمل المبدئي وفقاً للقواعد والأسس ، ووجد ان ذلك اكثر سهولة. .وذلك انه محظوظ في الوصول الى (المنصب) والبقاء لمدة كافية سمحت به بالوصول الى هذه الحقيقة

تولى داوسون القيادة الجماهيرية والخاصة لرفض اتفاقية باريس بالقوة ، وحمل هور على الاستقالة .ولكنه بعد انقاذه لشرف بريطانيا عند هذا الحد ، لم يعد مستعداً للدفاع عن أية خطوة ايجابية تساعد بريطانيا على انجاز التزاماتها لعصبة الأمم

وعندما أنهارت مقاومة القوات الاثيوبية في بداية أيار (مايو) ، حرر داوسون المقالات الافتتاحية التي تميزت بالحزن وربما بالندم وتأنيب الضمير   وذكر فيها انه ربما كان من الحكمة (بالنسبة لبريطانيا العظمى) وقبل ان تتخذ الحكومة خطاً قوياً في الحديث الذي تبناه هور في خطابه الذي القاه في جنيف خلال شهر ايلول (سبتمبر) ، لو أن الحكومة اعادت النظر في التزاماتها على ضوء توقع الاحداث منذ أن ظهرت بواكيرها وكان باستطاعتها على ضوء هذه الالتزامات النظر فوراً الى قوتها العسكرية   ثم كان عليها قبل كل شيء ان تكون على يقين سلفاً بأن جوارها يقاسمونها القناعة في قدسية الوفاء بالالتزامات

لم يكن ذلك مقنعاً جداً   ففي حين اتخذت الممانعة الافرنسية كذريعة لفشل بريطانيا في الوفاء بالتزاماتها ، كانت بريطانيا هي المسؤولة عن حماية محاور الاقتراب الى قناة السويس ، وهو الطريق الذي كان يتم استخدامه لامداد ايطاليا بالموارد البترولية ، ولتأمين الدعم لقواتها التي تقوم بغزو الحبشة (اثيوبيا) واجتياحها   وكان بالمستطاع اغلاق ذلك الطريق دون احتمال اي قدر من المجازفة   ذلك انه على الرغم من احتمال قيام القوات الجوية الايطالية بالانتقام عن طريق قصف القواعد البحرية البريطانية في مالطا والبحر الابيض المتوسط ، فان الاسطول البريطاني يستطيع الانسحاب عند تلقي الأمر الانذاري والتوقف عند النهاية البعيدة في البحر الأبيض المتوسط وفي البحر الأحمر ، حيث يقع وراء مجال العمل المحدود للقوات الجوية الايطالية

كان هناك أمر مبالغ الى حد معين ، وهو اتخاذ الوزير نيغيلل ـ شامبرلين خطأ

واضحاً خلال تلك الفترة . وكان موقفه اكثر وضوحاً حتى من موقف انتوني ـ ايدن ـ حيث طالب ـ وفقاً لما تضمنته مذكراته ـ بفرض حظر نفطي ضد ايطاليا . وقد حدث نقاش في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) صرح شامبرلين فيه (يجب علينا اذا ما تطلب الأمر ممارسة دورنا القيادي لأنفسنا عوضاً عن ترك القضية للتخلف والاهمال) . وفي ٨ كانون الأول (ديسمبر) ، وهو اليوم الذي تقابل فيه هور مع ليفال في باريس ، عمل شامبرلين على طرح وجهة نظره وفيها (علينا عدم إظهار ضعف يشجع موسوليني ليكون اكثر عناداً واكثر تصلباً . . . عن طريق وضع جيشه العظيم عند الطرف الآخر من قناة السويس ، وقد وضع موسوليني عقدة الانشوطة حول رقبته ، وترك نهايتها معلقة في قبضة كل قوة بحرية تستطيع شدها . وقد يكون بعيداً عن التصديق في أن يغامر موسوليني بمهاجمتنا وهو في مثل هذا الموقف ، وانا لا اعتقد انه سيفعل ذلك في النهاية . . . بعد ذلك باسبوع ، وبعد الكشف عن اتفاقية هور ـ ليفال ، كتب شامبرلين رسالة الى احدى اخواته جاء فيها (ليس هناك ما هو أسوأ من موقفنا ، فلقد تدهورت هيبتنا تماماً في شؤ وننا الخارجية داخل البلاد وخارجها ، وتمزقت إرباً كرزمةمن ورق الكرتون : ويحتمل لنا أن نهزم فيما اذا كان علينا خوض صراع الانتخابات من جديد) هذا مع العلم ان سيرته الشخصية التي كتبها سيركيث فيلينغ لم تتضمن ولو نصاً واحداً اضافياً في اليوميات او اي مؤشر جديد يظهر انه عاد من جديد للمطالبة بتطبيق الحظر النفطي . وقد عملت الحكومة ـ مثل ما فعل جيوفري داوسون ـ خلال الأشهر القاسية التي تبعت رفض اتفاقية هور ـ ليفال ، اذ انسحبت للتعلق بأمل غامض « ضبابي » هو ان يتوقف الغزو الايطالي بصورة نهائية .

لقد كان الجبن والخور هو العامل الرئيسي في فشل كبح جماح موسوليني خلال هذه الفترة القاسية ، ولكن مع ذلك ، فقد كان عدد من اعضاء الحكومة الذين وقفوا بصورة غريزية موقفاً عدائياً من فكرة عصبة الامم المتحدة وموقفها المحتقر ، كما كان يشارك في هذاالموقف العدائي القسم الاكبر من قادة اسلحة الجيش ، وكبار القادة في وزارة الحرب . ولقد نتج الأثر المتصاعد عن تردد السياسة البريطانية في اختيار واحد من مسلكين ، فاما الدعم الناجع والقوي لعصبة الأمم ، واما العودة الواضحة الى سياسة العزلة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر . وكان هذا التردد في المسيرة يحمل في مضامينه اقصى درجة من الخطر مع الحد الأدنى من الضمان او الأمن . ولم تعد هناك اية فرصة جيدة اخرى لردع المعتدي منذ بداية عدوانه ، وهكذا كان الفشل في تنفيذ مثل هذا الاجراء خلال هذه القصة بمثابة نقطة التحول الحاسمة والمشؤ ومة خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين .

ولقد كان انهيار (الأمن الاجماعي) عبر القلوب الخائرة في ازمة الحبشة خلال فصل ذلك الشتاء ، هو الذي شجع هتلر على المزيد من التحديات في آذار (مارس) ١٩٣٦ عندما رجع الى اقليم رينلاند ، مقامراً على القصور الذاتي لفرنسا وبريطانيا رغم المخاوف التي عبر عنها مستشاروه من العسكريين الذين كان يسيطر عليهم القلق .

لم تحصل الحكومة البريطانية على توجيه واضح بدرجة كافية ، او تتلقى اي دعم او تشجيع على العمل من قبل مستشاريها العسكريين خلال هذه الفترة الصعبة وبصورة خاصة منهم ـ على الأقل ـ رئيس الاركان العامة مونتغومري ماسينغبورد .

عقد اجتماع في معهد الدفاع الامبراطوري خلال شهر كانون الأول (ديسمبر) وتحدث فيه مونتغومري ـ ميسينغبورد ، وعلمت من مارتل وآخرين ممن حضروا ذلك الاجتماع بأن (موقفه كان مباغتاً ومؤلماً) فقد ظهر بمظهر الرجل المرهق ، وتحدث بغموض ، فترك شعوراً لدى الحضور بأن (فكرته الوحيدة) هي (تأجيل الحرب ـ وعدم النظر الى الأمام) .

* * *

كان ديلل قد اتصل بي هاتفياً في آذار (مارس) السابق ، بعد كتابة مقالاتي الافتتاحية في صحيفة التايمز ، وطلب الي الحضور الى وزارة الحرب للحديث معه بشأن قضايا الدفاع الحديثة والمتوقعة ، وكان ديلل قد أصبح مديراً للعمليات العسكرية والاستخبارات .

ووضعت على اثر ذلك مذكرة طويلة تضمنت النقاط التي تمت مناقشتها والتي تلقي اضواء هامة على وجهات النظر قبل ظهور ازمة الحبشة (اثيوبيا) بفترة قصيرة . وهي وجهات نظر الرجل الذي كان يعتبر الى حد بعيد افضل مفكر استراتيجي في الجيش البريطاني بين الحربين العالميتين ، والذي اصبح رئيساً لهيئة اركان الحرب العامة في عام ١٩٤٠ .

ناقشنا الموقف العالمي بعد ان طرحنا الخرائط . وسألني عن وجهة نظري فيما اذا كان تأكيد المانيا على الحظر الروسي هو تأكيد حقيقي . وذكرت انني اعتقد بأنه كذلك ، ولو بصورة جزئية ، ومن الناحية النفسية . فلقد كانت روسيا دائماً هي الشبح المرعب الذي ترك بصماته على الفكر الالماني وعلى الشعور . هذا بالاضافة الى ان روسيا ايضا هي الطريق الذي يريد الألمان اتباعه للتوسع . لقد كان يكره بوضوح فكرة اننا قد نقف الى جانب روسيا في كتلة تضم فرنسا وايطاليا وروسيا ضد الكتلة الالمانية ـ اليابانية . وتساءل

بقوله : ولماذا لا نترك المانيا حتى تتوسع في اتجاه الشرق على حساب روسيا ؟ واجبته بأن ذلك قد يكون صحيحاً للوهلة الاولى ، ولكنه قد يكون خطراً على المدى البعيد ، فهناك خطر من تغذية النمر وتقويته لانه قد ينقلب عليك . واننا نشكل حالياً اقوى عقبة في وجه الطموح الالماني على نحو ما كنا عليه في الماضي . فقد يشعر الالمان بالصداقة نحونا ، وقد نشعر بالصداقة نحوهم ، ولكن هناك الاحساس بهذا العائق الذي يكمن تحت العلاقات المتبادلة بيننا .

وطلب الي افتراض الاسباب التي تحملنا على الاتفاق مع روسيا ، فأجبت(١) بالاستناد الى الحقيقة (التي اعترف بها كلانا) وهي صعوبة العمل ضد اليابان ، وان امريكا وروسيا هما الوزن المعاكس والقوي ضد التهديد الياباني لمواقعنا في الشرق الأقصى ، (٢) لان فرنسا لا تتخلى عن روسيا ، ولأننا لا نستطيع التخلي عن فرنسا . ونوه الى انه ، بعيدا عن كراهيته للنظام الروسي ، يعتقد بعدم فاعلية الروس وقدرتهم مما يجعلهم حلفاء ضعافاً (لا يعتمد عليهم) . ولكنني دحضت هذا الاعتقاد بالاشارة الى ان روسيا قد حققت معجزة في حرب عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ هذا على الرغم من العقبات التي اثقلت كاهلها (بسبب ضعف الجيش وطول خطوط مواصلاته) ولم تكن المعجزة بنجاح اليابانيين ، ولكن بصغر حجم (هذا النجاح) . وعلى كل حال فان التقارير جميعها تشير حالياً الى ان روسيا قد اصبحت افضل بكثير نسبيا مما كانت عليه ـ ووافق ديلل على ذلك ـ بحيث ان طائراتهم تستطيع الوصول الى جميع مدن اليابان . وهذا هو الخطر الذي يجثم فوقها .

كان ديلل يرغب بشكل واضح في أن تتجه بريطانيا لعقد اتفاق للعمل بصورة مشتركة مع اليابان وامريكا في الصين،ولكنه اعترف بعدم رغبة هذه الاخيرة في الاتفاق. واشرت الى ان التجربة قد برهنت على ان ترك اليابان انما يعني ترك الحرية لها حتى تطردنا ، وهذا هو الطريق الذي تريد الحصول عليه ، بالقوة ، لا ان يعطى لها عطاء . واوضحت ذلك بالأمثلة ووافق على هذه النقطة واتفقنا على ان المبدأ الاساسي هو التعاطف مع المشاعر اليابانية وتركها تختار الطريق الذي تريد السير فيه .

انتقل النقاش الى معالجة موقفنا في الشرق الأقصى . وفكرنا معا ان توجيه ضربة مباغتة ضد سنغافورة ستكون بعيدة الاحتمال ، الا اذا اهمل شأنها ، واتفقنا ـ على انه في حال حدوثها ـ فستكون ضربة جريئة جداً ، ولكن الاستراتيجية اليابانية لم تكن عبر تاريخها جريئة ، واشرت ان اليابانيين كثيراً ما كانوا يعانون من اساليبهم الحذرة . وناقشنا

ايضا تحركاتهم الواضحة في تنظيماتهم السرية وفي ممارستهم لأعمال الجاسوسية ، واعطي أمثلة على ذلك .

كانت هونغ كونغ هي نقطة ضعفنا ، واقترحت على ديلل الذي اظهر موافقته ، بان من الافضل المجازفة بخسارتها عن طريق الدفاع عنها بقوات خفيفة جداً ، عوضاً عن دعمها وتقويتها الى حد كبير لجعلها من الناحية النفسية مثل « فردان » او « بورت آرثر » مما يعرض هيبتنا ومكانتنا للخطر الكبير في حال ضياعها (وسقوطها في قبضة اليابانيين). هذا وسيكون من الصعب الدفاع عنها ، على الرغم من سهولة الضغط لتهديد جناح القوات اليابانية بواسطة اسطولنا المتمركز في سنغافورة . ويتمثل خطر اليابانيين بالسيطرة على بعض النقاط الهامة في الشرق والغرب ، لاستخدامها كقواعد جوية ، او للمضايقة والحصار . ولكن بالمستطاع انقاص هذا الخطر عن طريق تشكيل القلاع والتحصينات التي تضمن الدفاع الذاتي لحماية الواجهات البحرية (واستخدام الاسمنت المسلح وحواجز الاسلاك الشائكة المتنقلة) لتحقيق هذه الغاية .

طرح ديلل السؤ ال التالي : واين نستطيع ترك مجال التوسع لألمانيا ؟ ولم يكن جاداً تماماً في طرح هذا السؤ ال عندما اقترح اعطاءها الهند . التي اصبحت عبئاً على بريطانيا . ولكنه اصبح اكثر جدية عندما ذكر الصومال واثيوبيا - اذ انه لم يكن يرغب في رؤ ية المانيا (وهي تزيد على ايطاليا) في الجلوس على رأس مياه النيل . وقد يكون لدى فرنسا الاستعداد لبيع مدغشقر لكن هل تكتفي المانيا بذلك .

كان من الممتع مناقشة القضايا العسكرية مع قائد مفكر مثل جاك ديلل - ولو انه كان من الواضح عدم رؤ يته لطريقة يمكن بواسطتها - في حدود مواردنا الضيقة - مجابهة الاحتمالات المشؤومة التي اخذت في الظهور بتواقت واحد ، في الشرق الاقصى وفي الشرق الأوسط وفي اوروبا . كما انه لم يكن على استعداد للتقدم باقتراح من شأنه تخفيض التزاماتنا ، او اعادة توزيع الأموال والواجبات على الأسلحة الثلاثة (البحرية ، الجوية ، الأرضية) .

كان جوك ستيوارت يفكر على كل حال ، وفي الوقت ذاته ، في التحرك باسلوب جذري جديد ، وكان ذلك نتيجة تأملاته في تجاربه طوال ثلاثة اعوام خدمها في الشرق الأوسط وذلك قبل تعيينه لقيادة المنطقة الجنوبية في انكلترا . وقد اخبرني بهذا الشأن عندما تقابلنا في شهر تموز (أغسطس) اثناء مناورة لواء الدبابات ، وهي المناورة التي استندت الى « فكرة عامة » لمعركة المارن في عام ١٩١٤ مع اختبار نهري يمثل المارن . وكان جوك

ستيوارت واحداً ممن عملوا في التجارب المبكرة للقوة المدرعة وذلك قبل سبعة اعوام ، وقد حضر الان لمراقبة المناورة وبيده صنارة صيد السمك . وها هي مذكرة عما قاله في هذا الحديث :

تحدث « جوك ستيوارت » باحتقار عن اساليب تدريب جيشنا لحرب اوروبية مماثلة « لمعارك المارن » ، لقد كان القادة في وزارة الحرب يفكرون وفق ظروف الحرب الاخيرة . والان ليس باستطاعتنا حتى الاضطلاع بالواجب الأول وهو الاحتفاظ بالحاميات الامبراطورية بطريقة مناسبة . . . يجب ان تعتمد قوة الحملة التي يحتم ارسالها الى الخارج . وفقاً لنظرة جوك ستيوارت ـ على القوات الجوية الملكية . نظراً لامكان قيادة هذه القوات وتوجيهها دون مجازفة او مخاطرة ودون تورط ايضاً قد يتطور فور انزال القوات الارضية الى القارة الاوروبية .

ويجب الاحتفاظ بالجيش للاضطلاع بدوره الخاص في حماية الامبراطورية ، وتكوين احتياطي للواجبات الامبريالية التي لا يستطيع سلاح الجو القيام بها . وكان ـ جوك ستيوارت ـ قد وضع حديثا مذكرة تتضمن هذه الخطوط ، ولو انهم استقبلوها في البداية ببرود وازدراء ، الا انهم الان تبنوها واعتمدوا بعضاً من نصوصها .

ان جذور الاضطراب تكمن في موقف اولئك الذين يحتلون الان مراكز السلطة في وزارة الحرب ، ويزعمون ان كل شيء في حالة جيدة . انهم يشكلون مناخاً من الاعجاب المتبادل ومجتمعاً يفتقد الى الثقة . اننا منذ عهد هالدين ، لم نعرف قادة سياسيين ينطلقون الى كل مكان يحيط بهم لمعرفة وجهات نظر الجيش ورأيه . ولقد قابل منذ عهد قريب هيلشام (دوغلاس هوغ) واكتشف انه رغم انقضاء سنوات عديدة عليه وهو في وزارة الحرب ، الا انه لا يعرف شيئاً عن حالة الجيش الحقيقية . وقد طلب اليه برونيت ستيوارت ان يقوم بجولة للاطلاع بنفسه على الحالة ، والتحدث الى القادة الحاليين وغيرهم لمعرفة موقف الجيش ، ولكنه اجابه بأن وزارة الحرب لا ترغب منه ان يفعل ذلك . وفي مثل هذه الظروف يمكن التساؤل عن مدى ما يمكن للحكومة ان تعرفه من الحقائق الواقعية .

اعلمني جوك ستيوارت انه فرغ على التو من قراءة مقالتي عن جيش الحدود (الجيش الاقليمي) وانه يحمل تقديراً كبيراً لما تضمنته من وخز للرؤوس بالدبابيس ، وبصورة خاصة بالنسبة للاتجاه نحو اخفائه ، والتمويه على حالته المرضية ـ وتأثيره الضعيف . وتذمر في جميع الأحوال من موقف الجماهير بصورة عامة وعدم ادراكها للموقف وقصورها

في معرفة عيوبنا ونقائصنا . وذكرت له انني اعمـل على تذكير الجماهـير واطلاعهـا على التطورات باستمرار . ولكنه عندما اجاب بان ذلك ليس على درجة كافية من القوة ، وقال (انك تنتقد بأسلوب رقيق جداً) اجبته بانه منذ سنوات قليلة فقط كان قد كتب لي متذمرا من انتقاداتي المفرطة ، وغير الملائمة ، وعندئذ غير من لهجته .

لقد ذكرت بانني اوافق تماما على ان قوتنا غير كافية أبداً لمجابهة الحالات الطارئة في الشرق الأوسط والشرق الأقصى ، وأن كتلة القوات المرسلة الى الخارج ليست في حاجة الى احتياط استراتيجي فحسب من أجل هذه الغاية ، وانما هي ايضا في حاجة للتجديد نظراً لأنها وهي في شكلها التنظيمي القديم بعيدة جداً عن تحقيق الفائدة منها وهي هنـاك في حاجة لاعادة التنظيم اكثر من تلك المتمركزة فوق الأرض البريطانية . وكنت قد أوضحت في أول مقالتين نشرتهما عن الجيش الافرنسي في حزيران (يونيو) (أنه لن يكون للقوات الأرضية التي نشترك فيها ، وزن فعال ، الا اذا كانـت هذه القـوات آلية ـ ميكانيكية ـ وعندئذ يمكن لهذه القوات ان تلقي بثقلها ، مهما كان حجمها صغيرا ، ذلك لأن قلة عدد الوحدات الآلية الافرنسية تجعلهـا غـير قادرة على منافسـة تلك التـي يعمـل الألمان على تطويرها . وأعتقد نتيجة لذلك بأن علينا اعداد فرقة من هذا النـوع على الأقل ، وقـد يكون من الأفضل ايضا اضافة دعم من القـوات الجـوية لمساعـدة فرنسـا وبلجيكا) . دعمت الأزمة الأثيوبية طلب جوك ستيورات لتحويل هدف الجيش بكامله للدفـاع عن الامبراطورية ، واكتسب رأيه قبولا متعاظما في دوائر الجيش ، وبصورة خاصة في وسط جيل القادة الصاعدين ، وبينهم مونتغومري . وكان من الممتع بالنسبة لي ، وأنـا أجـد القادة الذين أتذكر جيداً رفضهم القوي لما تضمنته محاضرتي في عام ١٩٣١ بشأن التقاليد الاستراتيجية البريطانية ، أجدهم وهم يطلبون إلي العودة لمعالجة هذا الموضوع . ولكن التفكير في وزارة الحرب كان منقسما على نفسـه نظـرا لأن عملية ارسـال قوة الحمـلات البريطانية الى القارة الأوروبية قد أصبحت عادة فكرية ، وكذلك فقد كان هناك شعور بأن هذا التحول في مفهوم الدفاع عن الامبراطورية من شأنه القضاء على الآمال في توسيع الجيش على نطاق كبير (وكذلك بالنسبة للمراكز القيادية) وذلك في حال تفجر حرب تشابه تلك ما بين عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . وعلى هذا فان القضية العاجلة في تسوية سياسة للجيش قد اتجهت بخطوات حذرة مترددة بين وجهـة النظـر هذه أو تلك من النظـرات المرحلية الآخذة في الصعود .

لقد بذلت جهدي لايضاح المشكلة . وابراز الحاجة لمعالجتها ، فكتبت مجموعة من

مقالات ثلاثة نشرتها صحيفة التايمز في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ، تحت عنوان « جيش اليوم » . وابرزت في المقالة الأولى ، المساوىء الكثيرة في العتاد وبصورة خاصة عدم كفاءته لمجابهة عدو استطاع تطوير قواته الآلية (الميكانيكية) لقد تضاعفت الدبابات بسرعة في جيوش القارة الأوروبية ، وليس لدى كتلة المشاة عندنا ـ للدفاع ضدها ـ ما هو أفضل من الاعلام الخضراء والحمراء التي تم التعود عليها وتحريكها خلال سنوات طويلة لتمثيل مواقع المدافع المضادة للمدرعات التي تتمركز في انتظار الدبابات . وليس هناك اكثر من وحدات قليلة تم تسليحها بالمدافع الحالية ، المتميزة بصعوبتها في التحرك ، وهذه ليست من النوع المناسب لتحقيق الهدف المطلوب .

ان الحالة المادية لقوة دباباتنا هي سيئة جداً ، حتى لو كانت أفضل بصورة ظاهرية ، وأصبحت عيوبها اكبر بالمقارنة مع دورها المتعاظم .

وأشرت بعد ذلك الى ان (القدرة الكافية للجيش) تتعلق قبل كل شيء بقضية الواجبات التي سيكلف بها .

عندما قدمت الوزارة في السنة الماضية موازنتها ، عددت الاهداف لمخصصات الدفاع فكانت أربعة : الدفاع عن هذا الاقليم ، والدفاع عن قواعدنا البحرية ، والمحافظة على النظام والأمن في أقاليم الامبراطورية ، والدفاع عن مصالحنا في الخارج . وهذه الأخيرة هي الواجب الذي تعودنا ان نطلق عليه اسم (قوة الحملات اوالارساليات) والآن يطلق عليها اسم (القوة الميدانية) وقد استمر وزير الحرب في اقواله بأن هذه الاهداف الأربعة (هي أهداف متساوية الأهمية) وهو اعلان يفتقد الى الاحساس بالنسبية . ذلك أنه لابد من المفاضلة بين اهداف الصراع عند وضع كل سياسة دفاعية في السلم او تحديد أي استراتيجية للحرب . فالعمل لتكون قويا في كل مكان ضد خصم معادل في موارده او متفوق في بعض النسب ، انما يعني انك ستكون ضعيفا في كل مكان . ولقد كانت عقبة الحصول على القوة في كل مكان لتغطية الاهداف جميعها هي الصخرة التي تحطمت فوقها سياسات دول كثيرة . اننا بحاجة لتصنيف أهدافنا وفقا لأهميتها وعندئذ يمكن تقدير مدى قدرة التنظيم على تحقيق الهدف الرئيسي . وامكاناته ايضا لخدمة الأهداف الأخرى .

لقد تأثرت الأهداف جميعها بتغير الظروف ، ففي الحرب العالمية الأولى ، كانت مخاوف الغزو سببا في ابقاء نسبة كبرى من وحداتنا في انكلترا ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨ ، وقد علمنا ان الألمان لم يفكروا أبدا في مثل هذه المحاولة ، وان تطور القوات

الجوية قد زاد من صعوبات عملية الغزو ، ذلك ان اقتراب اسطول النقل ، ثم الانزال فوق شواطىء معادية ، قد أصبح اكثر من مجرد مغامرة لا سيما في مواجهة قواعد القوات الجوية المنتشرة على الشواطىء ، وعلى الرغم من ان الدفاع الأرضي عن الاقليم ضد الهجمات الجوية قد أصبح عملا جديدا من واجبات الجيش ، إلا أنه عمل اختصاصي من نوع مختلف .

أما بالنسبة للدفاع عن القواعد البحرية ، فقد كان من الواجبات التي لا تحتاج إلا إلى نسبة صغيرة من قوة الجيش . وللاضطلاع بهذه الواجبات ، كانت الوحدات تلحق باستمرار بالقوات البحرية ذاتها ، وبالامكان اعتبارها الآن ملحقة ايضا على قوة الدفاع الجوي ، وسيكون الموقف في الحاميات العسكرية اكثر استقرارا وتوازنا من اي وقت مضى ، إذا ما استطاعت هذه الوحدات تنسيق التعاون فيما بينها .

يبقى بعد ذلك يقينا ما هو اكثر اهمية بين واجبات الجيش ، وهو واجب (حفظ الأمن في أقاليم ما وراء البحار) . وتستطيع القوات الجوية الاضطلاع بالواجب الأول في المحافظة على الأقاليم غير المتمدنة او ضعيفة الكثافة البشرية ، وكذلك في احباط غزو الحدود ، وبصورة خاصة عندما تتعاظم الاضطرابات على هذه الحدود . ولكن بالنسبة لحفظ النظام في الاقاليم المكتظة بالسكان فانه لا شيء أفضل ، على ما هو واضح ، من الوحدات الأرضية لتلبية مثل هذه الحاجة . واذا كان من الواجب المحافظة على الامبراطورية ، فانه يجب اعطاء هذا الواجب الأولوية في سلم وظائف جيشنا ، ولو ان هذا الواجب لم يحدد بصورة دقيقة في واجبات الجيش بقدر ما حددت له واجبات الحرب . وتبقى القضية الأساسية في التوفيق بين متطلبات هذا الواجب ، وبين امكانات قوة الحملات (الارساليات) ، بحيث يجب انجاز هذا (التوفيق) حتى نصل الى قرار لتجنب العمل الأرضي (البري) في أي حرب مقبلة عن طريق استخدام قوة اخرى . ولكن ماذا يتضمن ذلك ؟ لقد كان العامل الواضح في المشكلة هو في مساوىء الهجوم الأرضي ومحاذيره في حين أصبح الهجوم الجوي لا يتضمن إلا الميزات والمحاسن .

ان هذه المقارنة ، عند اضافتها الى مساوئنا الحالية ، تفترض تكليف القوة الجوية للاضطلاع بواجب الهجوم ، عوضا عن تكليف قوة الحملات (الارساليات) بهذا الدور . واذا ما تم وضع تأثير القوة الجوية العظيم ، بحسب ما هو متوقع ، فان بالمستطاع ايضا توجيه هجماتها من أرض شواطئنا أو من القواعد التي يمكن تأمينها بسهولة اكبر ومن مسافة اكثر بعدا عن العدو مما تكون عليه عادة المناطق المطلوبة لعمليات الجيش ،

وبالامكان ايضا تجنب كثير من العوائق والتعقيدات الضمنية او المتطورة عندما يتم انزال جيش فوق أرض القارة الأوروبية . وباستطاعة الجيش عندها الاضطلاع بواجب حماية الامبراطورية وواجبات (الشرطة) مع احتمال اضافة واجب تغطية قواعد القوات الجوية التابعة لحملاتنا (أو لقوة ارسالياتنا) فيما وراء البحار .

ان تبسيط مشكلاتنا العسكرية بمثل هذا الاسلوب في اعادة توزيع الواجبات ، انه يستحق يقينا دراسة جدية ، ولكن نظرا لعدم وزن العوامل جميعها فانه من السابق لأوانه الوصول الى نتيجة . وان العمل التمهيدي الأساسي هو أجراء دراسة عميقة ، واجراء تطبيق عملي الى أبعد الحدود بهدف (احياء التطلعات في قدرة الهجوم الأرضي) .

اقترحت (على سبيل الاجراءات المرحلية لمعالجة الموقف الحالي) ونظراً لعدم توفر الوسائط الضرورية للهجوم في الجيش (تسليم واجبات الارساليات القديمة ـ الحملات ـ للقوات الجوية ، ويظهر ذلك أقرب الى المنطق من مجرد الحلم بارسال جيش الى الميدان بأسلحة جديدة لا وجود لها الا في الخيال فقط) .

ناقشت في المقالة الثانية طرائق احياء القدرة الهجومية للجيش ووسائطها ، فأوضحت ان المعدات الآلية ـ الميكانيكية ـ الجديدة لا تكفي وحدها طالما انه لم يحدث تطوير للتقنيات التكتيكية (التعبوية) الحديثة . وأشرت في البداية الى المناورات السنوية فقلت :

لقد عادوا الى تكرار الاساليب القديمة عوضا عن الانطلاق مباشرة والتقدم الى الأمام من اجل تجربة الأفكار الجديدة . واذا ما فكر احدهم بأن هذا هو افضل ما نستطيع توقعه أو نأمله ، فان على المرء عدم التردد في الانحناء لسيادة الدفاع السامية في الوقت الحاضر ، وأن يستسلم المرء لفكرة تكليف الجيش بواجب وقائي لا اكثر . نظرا لما في ذلك من ضرر أقل من تضحية لا جدوى منها .

تابعت بعد ذلك طرح حججي من جديد لتطوير استخدام الهجوم الليلي لاختراق مواقع العدو ، وتوجيه الابحاث لايجاد الوسائل من اجل تقدم الدبابات تحت ستار الظلام او الضباب الصناعي مع استخدام الانوار الصناعية لزيادة السرعة في تطوير الهجوم .

بدأت المقالة الثالثة وأوضحت ان عامل الوقت قد اصبح حاسما بصورة متعاظمة نتيجة للتقدم في زيادة السرعة الآلية (الميكانيكية) . (ذلك ان اكتساب ميزة السرعة ، تفترض الاسراع في العمل) . وان مستويات الحرب لا تتجه الى جانب « الكتائب

الكبيرة » بقدر ما تتجه الجانب الذي (يتوغل بسرعة) ليصل في الأول . وتابعت مناقشتي للمناورات الاستراتيجية والتقنيات ، وقلت في النهاية :

يمثل الاعتراف في التطور نحو التقدم ، اعظم حاجة في الوقت الحاضر . وكانت القاعدة المتبعة حتى نهاية القرن الثامن عشر هي في التقرب مع حشد القوى سواء من اجل التقرب الاستراتيجي (حتى ميدان المعركة) او التعبوي ـ التكتيكي (فوق ميدان المعركة) . ثم جاء نابليون فطورا أفكار بورسيه . وأدخل النظام الفرقي الجديد (توزيع القوى في مرحلة التقرب الاستراتيجي) وأصبح الجيش يتحرك بأقسام مستقلة . ولكن الاقتراب التكتيكي بقي ـ بصورة عامة ـ ملتزما بمبدأ حشد القوى وتركيزها . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، ومع تطوير الأسلحة النارية أصبح الاقتراب التكتيكي (التعبوي) وفق نظام الانتشار، بهدف القضاء على تأثير النيران . ولكن التقرب بالاستراتيجي عاد من جديد ليصبح مركزا ، وذلك نتيجة ـ بصورة جزئية ـ لتعاظم كتل الجيش ـ ونتيجة ايضا لعدم فهم اسلوب نابليون .

يجب علينا اليوم الاعتراف بالحاجة لاحياء التقرب الاستراتيجي الموزع (المنتشر) وذلك إذا ما كانت هناك أي فرصة لاحياء الاستراتيجية والافادة من تأثيرها . ذلك ان هناك طرفين جديدين ـ القدرة الجوية والقدرة الآلية ـ الميكانيكية ـ وكلاهما يشيران الى مزيد من التطور في (التقرب الاستراتيجي المنتشر) . فخطر الهجمات الجوية ، وهدف تضليل العدو وخداعه ، ثم الحاجة لاستخلاص كامل القيمة من القدرة الحركية الآلية (الميكانيكية) . هي كلها تفترض بأن يتم تقدم القوات وفق أوسع نظام لتوزيع القوى بما يتوافق وظروف العمل المشترك ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضا التقدم بنظام منتشر يتوافق وتلاحم القوى . وان تطور اجهزة الاتصالات اللاسلكية قد أصبح حاليا من العوامل المساعدة للتوفيق بين توزع القوى وانتشارها وبين تحقيق مبدأ السيطرة على القوى .

قد يكون هناك ثمة امل في احياء فاعلية الجيش وقدرته ، عن طريق تطوير مثل هذه الاساليب الجديدة ، بحيث يكون هدف الاساليب هو اختراق منطقة والسيطرة عليها عوضا عن مجرد الوصول الى خطوط والاستيلاء عليها ، وبحيث يكون الهدف العملي هو شل قدرة العدو عوضا عن الهدف النظري وهو سحق قواته . وقد تنجح مرونة القوات وتدفقها من حيث فشلت القوات المركزة التي ورثت تيبسا وصلابة جعلتها عديمة الفائدة . ان البحر هو اقوى من المحدلة البخارية ، وباستطاعته التعويض ليكون مثلنا

الأعلى العسكري ، والصعوبة الرئيسية هي الشك في قدرة جنودنا الذين تم تدريبهم على الطرائق الحديثة لرفع مستوى هذه التقنية الجديدة . وطالما انهم لا يستطيعون ذلك ، فانه من الأفضل التخلي عن كل حلم في الهجوم ، وتكريس أنفسنا للحقيقة الحالية وهي انه ليس باستطاعة الجيش اكثر من ممارسة واجب دفاعي في حرب حديثه .

تابعت ممارسة الضغط في عدد من المقالات لاظهار الحاجة الطارئة لاتخاذ قرار حكومي عاجل بتحديد دور القوات الميدانية في الجيش ، وكذلك تكوينها ونوع الأعتدة المطلوبة وفقا لما هو واضح ، وارتباط ذلك بتجهيز القوات واعدادها للعمل (كحملات) في أوروبا ، أو البقاء كاحتياط استراتيجي يتم ارسالها الى اقاليم ما وراء البحار . وقد حاولت تلخيص المشكلة في افتتاحية تم نشرها في ١٠ شباط (فبراير) ١٩٣٦ :

لقد قيل في كثير من الأحيان بأن اشتراكنا في نظام الأمن الاجماعي لن يكون كافيا بمجرد تقديم المساعدة بقوات جوية وبحرية . ولكن عامل الوقت يتدخل هنا في صلب المشكلة . . .

هناك صعوبة في معرفة الطريقة التي يمكن اتباعها لعبور البحر ، وطالما ان من الصعب وصول القوة الميدانية الى مسرح العمليات منذ المرحلة الأولية ، فان مساعدتنا قد تكون اكثر فائدة اذا ما اخذت شكل الاشتراك باكبر نسبة من القوة الجوية ، ولعل بالامكان تقويم هذه المساعدة بشكل افضل في الخارج عندما يتم التأكد من ظروف المشكلة ، ومهما كان عليه الموقف فان قوتنا الميدانية بشكلها الحاضر لا تصلح الا للدفاع فقط ، في حين ان المطلوب من القوة الأخيرة عند وصولها الاضطلاع بدورها التقليدي وهو الهجوم المضاد . ولهذا يجب ان تكون هذه القوة اكثر فاعلية واكثر قدرة حركية من فرق المشاة الموجودة حاليا . فقد تستطيع فرقة او فرقتان كاملتان من القوات الآلية (الميكانيكية) القاء ثقلهما في كفة ميزان القوى ، في حين تكون اضافة اربعة فرق أو خمسة من الفرق العادية ، ليست اكثر من زيادة لمثل تلك القوى القديمة التي لا تستطيع القيام باكثر من احتلال المواقع ، وقد يكون لدى الاقاليم الأوروبية فائض من مثل هذه القوى .

ان ما لم اكن أتوقعه في نقاش قضية الحاجة للتدخل بأسرع ما يمكن عن طريق زج قوة يتم ارسالها الى اوروبا . هي تعرض فرنسا ذاتها للهجوم مباشرة ، بحيث تقف فرنسا في احتساب الزمن بينما تكون القوات الألمانية الآلية تجتاح حدود الحلفاء الشرقيين لفرنسا ، وذلك عوضا عن قيام الفرنسيين انفسهم بالهجوم لدعم حلفائهم . وعلى هذا فقد كتبت

افتتاحية اخرى في ٦ آذار (مارس) وأوضحت فيها من جديد اهمية عامل الوقت حتى وصلت الى القول :

لم يلق البيان الحكومي بشـأن الدفـاع اي ضوء على هذه المشكلـة ذات الاهمية الأولى ـ ولم يظهر بوضوح ما اذا كان سيتم امتلاك قوة ميدانية ام لا ـ كما لم يتضمن البيان الحكومي ولو أشارة واحدة الى ارتياد هذه المشكلة . ويظهر على السطح ان البيان يشتمل في مضمونه الاستمرار بصورة آلية (اوتوماتيكية) في امتلاك القوة الميدانية . ويمكن القول ببساطة ان من وظائف الجيش تأمين الحاميات فيما وراء البحار ، والاضطلاع بنصيبه في الدفاع عن الوطن ، وضمان قوة مجهزة تجهيزاً خاصاً من اجل الاستعداد للعمل فيما وراء البحار ، وحيثما طلب اليه ذلك . وطالما ان الأمر على هذا النحو فان المبدأ الذي يتم اتباعه هو ان مسؤ ولية وزارة الحرب تنحصر في ضمان تنظيم الجيش وتجهيزه للاضطلاع بأصعب الواجبات وأقساها للصراع ضد القوات المسلحـة في القـارة الأوربية ، وهـي قوات قد نظمت وفق نسب ومعدلات جعلتها تتوافق وأحدث التطورات التقنية الحديثة . واذا كان الأمر كذلك . فان التجهيز لهذا النوع من الحرب هو في أخفض مستوياته الدنيا ، وإذا كان تجهيزه وفقاً لأخفض المستـويات فانـه لا يستـطيع تحقيق اي امـل في مواجهـة اعلى الاختبارات وأرفعهـا . وخـلال ذلك ، تكشف السياسـة التقليدية عن عدم اجـراء اي تعديل ، وستقع مسؤولية سقوط الجيش سريعاً على مسؤوليتها ما لم يتم تنظيم الجيش وفقاً لأحدث الأشكال المتطورة مع تسليحه بأفضل الأسلحة واكثرها فاعلية وقدرة .

كانت اكثر الظواهر المسلية لهذه الفترة في مجال الاتصـالات الشـخصية هي تزايد العلاقات الودية ، وروابط الصداقة ، مع دوف كوبر ، وذلك منذ عودته الى وزارة الحرب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ كأمين عام لوزارة الحرب . في حين اننا كثيراً ما اشتبكنا في مبارزات قوية من خلال المناظرات العلنية عندما كان اميناً عاماً لوزارة المالية في الفترة بين عام ١٩٣١ وعام ١٩٣٤ ، (على نحو ما سبق لي ذكره) ولكن الأمور كانت تمر بهدوء تام عندما كنا نتقابل بصورة عرضية ، هذا على الرغم من الاختلاف الكبير بين وجهتي نظرنا الى الأمور العسكرية ، بل وحتى في الخطوط السياسية العامة ايضاً ، إذ كانت ردود فعله رجعية ومحافظة بصورة غريزية ، ولكنه كان لحسن الطالع نموذجاً فريداً بين الرجال الذين يستطيعون تقبل النقد دون غيظ او حقد .

ارسل لي دوف كوبر بعد عودته الى وزارة الحرب مباشرة ، رسالة طلب الي فيها تناول طعام الغداء معه ، علماً أنني كنت قبل ذلك مباشرة قد كتبت بحثاً انتقادياً قاسياً

نشرته في صحيفة التايمز والملحق الأدبي للتايمز ضمنته مراجعة للسيرة التي كتبها هيغ عند اصداره للمجلد الأول . (وجاء في المذكرة التي كتبتها بعد المقابلة) : بدأ « دوف كوبر » حديثه عن العاصفة التي اثيرت ضد مقترحات باريس السلمية . وذكر انه كانت هناك مشاعر عامة وقوية جداً لتأييدها بشكل واضح . وقال انه بوغت للطريقة التي اتبعها شعبنا بصورة مفاجئة وعلى اوسع نطاق للتعبير عن مشاعره تجاه عصبة الامم ، وذلك بعد ان وضع الفرنسيون ثقتهم بها وايمانهم فيها . (وكان ذلك مباغتاً ايضاً لمجلس الوزراء) . واعترف برأيه على اننا اكتسبنا هيبة كبرى عن طريق قيادتنا لفكرة فرض العقوبات الاقتصادية او العسكرية (على ايطاليا لانتهاكها حرمة القانون الدولي) والآن قذفنا بذلك كله الى مسافة بعيدة جداً . . . وافق « دوف كوبر » على ما طرحته ، عندما ذكرت له انه نظراً لوجود خطر في سياستنا للردع وفرض العقوبات ، فقد كان من الضروري توقع هذا الخطر وابرازه ، وعلاوة على ذلك فقد كان هناك خطر اكبر ومحقق حتماً عند تمييع التهديدات او الخضوع لها . وكان يعتقد ان موقف موسوليني يتضمن مزيجاً ضخماً من الخداع والتضليل . . .]

وصل بعد ذلك الى الموضوع الذي وجه لي دعوة تناول الطعام معه من اجله ، فذكر لي مدى تأثره الكبير بمقالاتي الحديثة عن وضع الجيش والتي نشرتها في صحيفة « التايمز » وتابع قوله بانه يشعر بضرورة تبادل الدعم والمساعدة فيما بيننا . وطلب الي التردد لزيارته في كل وقت ارغبه من اجل تقديم افكاري وطرح انتقاداتي . وأعرب عن تقديره وشكره لذلك ، وان ذلك سيكون تعاوناً ضمنياً (دون ذكر المصدر الذي وردت منه الافكار والانتقادات) حتى (لا يشعر القادة اننا نعمل ضدهم) . وذكر ان على الأمين العام في الدولة التوقف عن تلقي الاستشارات بصورة غير رسمية ، ونتيجة لذلك فانه اصبح اكثر معاناة عند اصدار احكامه وطرح وجهات نظره لا سيما وانه يفتقر الى قاعدة واسعة بدرجة تكفي لتكوين القرارات . هذا كما ان باستطاعتي اطلاعه على الرأي العام للعسكريين من مختلف الرتب ، وبصورة خاصة وجهات نظر القادة في المراتب العليا نظراً لامتناعهم عن كل اتصال خارجي ، هذا بالاضافة الى انهم لا يرغبون بالرجال الجماهيريين (القادة المدنيين) نظراً لحساسيتهم المفرطة تجاه النقد (وبسبب رقة جلودهم التي لا تحتمل الخدش) وذلك عوضاً عن تقديرهم لقيمة كل انتقاد يوجه اليهم ، وما ينتج عنه من تقدير جماهيري للجيش ـ بحيث انهم ينظرون الى كل اقتراح بمثابة محرض للوصل ويعتبرونه (اهانة شخصية) .

عبرت عن رغبتي في تقديم المساعدة بهذه الطريقة مع احتفاظي باستقلالي التام

لابداء انتقاداتي ـ التي قال عنها ـ بانه يقدرها تماماً ويعتقد بانها مرغوبة جداً من بعيدي النظر .

ناقشنا بعد ذلك مشكلة وزارة الدفاع ، وكذلك تجدد الخلاف والاحتكاك بين وزارة الحرب ووزارة الطيران ، وكان من انصار فكرة تكوين كلية حربية واحدة للأسلحة الثلاثة (البرية والبحرية والجوية) على ان يحدد عمر الدخول اليها بستة عشر عاماً ، وذلك كوسيلة نحو تطوير الاحساس المشترك والتطلعات الموحدة . وانتقلنا بعدها الى موضوع آخر فسألني عن رأيي في عدد من قضايا الجيش ، وانطباعي عن عدد من القادة العسكريين في هيئة الجيش الاستشارية وعن مدراء الادارات ممن كانت معرفته بهم ضئيلة .

طلب الي دوف كوبر زيارته مرة اخرى في منزله الواقع في شارع غوار ، وذلك لاجراء حديث اطول من السابق ، في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٣٦ . وقد اراد مني ـ قبل كل شيء ، شرح وجهة نظري بالتفصيل في موضوع (اعلى تنظيم للدفاع) كهيئة اركان مشتركة مع اقتراح الشخص المناسب لقيادتها . وتابع حديثه فأظهر مدى الصعوبة التي يعانيها حالياً لايجاد الرجال ممن تتوفر لهم القدرة الكافية لاشغال المراكز الهامة ، على نحو ما ظهر له بوضوح في وزارة الحرب . وقد قادته هذه الفكرة لتقويم مونتغومري ميسينغبورد عندما تقدم هذا لمجادلته بشأن الضباط الذين فصلوا عن الخدمة ويجب احالتهم على التقاعد حيث قال له (هناك عدد كبير من الرجال الاكفاء الذين يمكن لهم الاضطلاع بمراكزهم) وقد اذهلته هذه الملاحظة نظراً لقناعته (بأنهم قلة اولئك الاكفاء من الرجال في كل عمل واختصاص) . ولقد تكونت قناعة لدى دوف كوبر عن عدم كفاءة مونتغومري ـ ميسينغبورد وتخلفه عن روح العصر كرئيس لهيئة الاركان العامة . وعلى كل حال فقد اصبح لزاماً (على الرجل الكهل المسكين) ان يتقاعد فوراً . وأصبح من الواضح ان نظرة دوف كوبر الخاصة قد تحولت الى اتجاه اكثر تقدمية ، وقد عبر عن ذلك باسلوب ساخر حيث قال :

لقد ناقشه مونتغومري ميسينغبورد منذ فترة قريبة جداً بضرورة تأمين حصانين لكل ضابط من ضابط لواء الفرسان ، حتى يصبحوا من القوات الآلية (الميكانيكية) مع تأمين خيول ايضاً لكتيبة الدبابات التي لم تمتلك منذ تنظيمها ولو حصاناً واحداً . وقد تعود ايضاً استخدام ذريعة الصيد كوسيلة لتنمية السرعة في اتخاذ القرار . وعلى الرغم من حب دوف كوبر للصيد الا انه لم يلاحظ شخصياً وجود هذه الصفة بدرجة كبيرة بين افضل الرجال ممن يمارسون الصيد ! ان قيادة سيارة صغرى في الشارع الغربي الواسع هي افضل اختبار

واكثر فائدة لتطوير القيادة ، ولهذا السبب فقد كان يرغب في تطوير معرفة السيارات لدى الشبيبة من الضباط في كلية ساندهورست .

كان دوف كوبر قد لمس مدى قصور فرقتين وحتى ٤ فرق من المدرعات لقوة الحملات او الارساليات الى الخارج . وكانت صعوبة الاعتماد على القوات الجوية تصطدم برغبة الافرنسيين في الحصول على دعم الوحدات الارضية البريطانية . لقد قادنا ذلك لمناقشة استراتيجية الحرب ، واوضحت له مدى ما وصلنا اليه من التزام عميق ارغمنا انفسنا على قبوله عندما الحقنا تحرك قوة حملاتنا وارساليتنا بفرنسا عوضاً عن توجيهها الى بلجيكا حيث كان باستطاعتها ممارسة دور اكبر بكثير في احباط المخططات الالمانية المحكمة والدقيقة .

طلب الي لورد هاليفاكس في الاسبوع التالي تناول طعام الغداء معه ، بهدف استشارتي في موضوع المكان (العنوان) الذي يجب عليه تحديده وفقاً لوظيفته كعميد لجامعة اكسفورد (في كاتدرائية سان بول) وذلك من أجل رفع الستار عن النصب التذكاري ل . ت . و . لورنس (المعروف بلورنس العرب) والذي حدد موعده في ٢٩ كانون الثاني (يناير)

كان لورد هاليفاكس قد عمل طوال خمس سنوات كنائب لحاكم الهند ، أصبح بعدها عضواً في الوزارة ، كما عمل لفترة قصيرة من عام ١٩٣٥ كأمين عام لوزارة الحرب وذلك قبل ان يصبح (لورد حمل الاختام الخاصة) . وهكذا فعند مرافقتي له في طريق العودة الى مجلس اللوردات ، سألني عن وجهة نظري في (القضية المطروحة على مجلس الوزراء) لتقرير مدى اعتمادنا في دعم (الأمن الاجماعي) سواء على البحرية او القوات الجوية او ايضاً عن طريق ارسال الحملات البرية (قوة الارساليات) ، وكذلك فيما اذا كان من الأفضل الاعتماد على قوة اكبر من القوات الجوية في دعم (الأمن الاجماعي) . وكانت اجابتي تتشابه مع ما تضمنه مقالي بعد ذلك بثلاثة اسابيع والذي نشرته في ١٠ شباط (فبراير) في« صحيفة التايمز » وذكرت فيه (ان الاجابة على المشكلة تكمن في عامل الزمن) (وان النموذج الوحيد لقوة الحملات البرية هو الفرق الآلية ـ الميكانيكية ـ وذلك اذا ما اريد ان يكون لهذه القوة قيمة حقيقية) . وعلى هذا فاذا ما قرر مجلس الوزراء ارسال اية قوة من الجيش فسيكون ارسال فرقتين آليتين (ميكانيكيتين) أفضل من ارسال اربعة فرق عادية ، حتى لو طلبت هيئة الاركان العامة ذلك بحجة ان الفرق العادية تشكل القسم الأكبر من الجيش . وانتهت مذكرتي اليومية عن المقابلة بالفقرة التالية (لقد

كان هاليفاكس يشك بصورة واضحة في اقتراحي ولكنني اصبحت ، بحسب تقديراتي ، وأنا اعتقد انه الآن اكثر ميلاً للموافقة على وجهة نظري) .

في اليوم التالي لنشر مقالتي (الافتتاحية) ، تلقيت رسالة من دوف كوبر يطلب الي فيها إظهار مدى استعدادي لتناول طعام العشاء معه في نادي « بيك » بتاريخ ١٤ وبحضور تشرشل وفوللر بهدف مناقشة القضايا الدفاعية . واتصل بي « ترينشارد » هاتفياً بعد تلقي الرسالة المذكورة مباشرة ، ليعلمني انه ايضاً قد تلقى دعوة للاشتراك في المناقشة ، وانه يريد معرفة ما اذا كنت سأقبل الدعوة حتى يقبلها . وعند اجابتي على دعوة دوف كوبر قلت في الرسالة انني سأكون سعيداً لتلبية الدعوة والحضور ، ولكنها ستكون مباغتة لي لو استطاع احدنا التحدث ولو بكلمة واحدة مع حضور فوللر ووينستون وترينشارد ، بحسب ما علمت الآن ، نظراً لاسلوبهم في الحديث واستئثارهم به . وستكون على كل حال سهرة ممتعة ومشرقة ، هذا اذا لم يغمر الطوفان اشراقة نورها .

جاءت السهرة برهاناً على ما توقعته ، وكانت امسية رائعة ، بحيث انني عندما رجعت الى البيت في الساعة الثانية صباحاً ، كتبت مذكرة طويلة جداً لما دار من نقاش ، وبما انها كانت تعكس المرحلة التاريخية لتلك الفترة ، فانني سأذكرها فيا يلي بكاملها ، ما عدا بعض الفقرات المغرقة في تفاصيلها مما تضمنه حديث فوللر عن زيارته لمسرح العمليات في الحبشة (اثيوبيا) :

وجدت دوف كوبر في المشرب (البار) ، وكان يطالع صحيفة (نيو ستيتمان) ولاحظت ان الصحيفة قد استثارته . وقلت له بانني وجدت فيها مادة محرضة . فقال بانه عندما قرأ عمود (هذه انكلترا) (وجد نفسه فوراً يوافق على ما كانوا يفكرون فيه انه غريب ومضحك) . وكان ذلك يلقي الضوء على حدوده العقلية وانحرافه العاطفي .

وصل بعد ذلك فوللر وترينشارد ووينستون على التتالي ، وكان من الممتع ملاحظة فوللر يكرر باستمرار وهو يوجه حديثه الى ترينشارد مبتدئاً بكلمة سيدي « سير » . وكان الممتع في الأمر هو ما كان يقوله فوللر ويكتبه في نقد الأثر المتشنج لهذا الموقف العسكري .

تناولنا طعام العشاء في غرفة خاصة من الطابق العلوي ، وأشار دوف كوبر الى مناقشة البرلمان في ذلك اليوم لبيان السير مودري سوتر عن وزارة الدفاع وهو البيان الذي بدأ به النقاش . وانطلق ترينشارد بسرعة كبرى للحديث عن تأثيرات النظام الحالي ، ولكن وينستون كان يزيد من سرعة حديثه بثبات وانتظام . وعندما حاول فوللر التدخل في

الحديث مرتين على التوالي تصدى له وينستون واسكته ببرودتام وهو يقول له (هل تتركني أكمل ما كنت أقوله ؟) . وعندما تحدث فوللز بعد ذلك ، تراجع وينستون مظهراً انه خسر الجولة ـ بحسب ما قاله له دوف كوبر ـ وهذا ما ضمن فرصة الحديث لفوللر ، خلال فترة من الوقت ، وذلك لذكر تجاربه وانطباعاته عن الحبشة (اثيوبيا) .

رجع الحديث بعد ذلك الى القضية العامة وهي قضية الدفاع ، واصبح الحديث اكثر تشعباً . فأوضح ترينشاردموقف الهيمنة الذي تتخذه وزارة البحرية (الأدميراليتي) وتأثيرها في رفض كل نقاش لمتطلباتها . ووافق دوف كوبر على ذلك . (وقد رجع د . ك الى هذا الموضوع فأعرب عن قلقه وقلق اعضاء الحكومة بشأن ما قد يحدث لو اقامت ـ الادميراليتي ـ العقبات ، وكانو يعتقدون انها لا تزال تحتفظ بهيمنتها على الرأي العام والجمهور . وقد تحديت ذلك بقوة وقلت له ان ذلك مجرد وهم في الادميراليتي وهو ضلال لا وجود له في الخارج) .

كان وينستون يشك بوضوح في قيمة الاسطول ـ المقاتل ، ولو انه يميل الى الاعتقاد بان انزال قطعة بحرية مقاتلة او قطعتين من شأنه تكوين نوع من الخداع ؛ ولكن ما كنا نريده فعلاً هو اكثر من مجرد اسطول ضعيف . وأوضح وينستون ان الاقاليم الوحيدة التي تمتلك اساطيل قتالية هي اليابان وأمريكا . واننا لن نذهب لقتال امريكا . اما في مجابهة اليابان فيجب علينا عدم تنظيم مقاومة قوية عن هونغ كونغ . ووافقت على ذلك فأوضحت ان دعم الدفاع عن هونغ ـ كونغ ما هو الا الصاق هيبتنا وربطها الى موقع قد لا نستطيع الاحتفاظ به . وانه من الخطر جعل هونغ كونغ مثل فردان وبورت آرثور (وبالمناسبة لم يكن دوف كوبر يعرف عدد الأفواج الموجودة هناك) . اما بالنسبة لسنغافورة فكان وينستون يعتقد ان اشتراك الطائرات وقطع الاسطول مع المدفعية الساحلية للدفاع عنها ، هو أفضل تنظيم دفاعي ، وهو يزيد في قيمته ايضا على اضطلاع الاسطول ـ الحربي وحده بواجب الدفاع عن سنغافورة .

كررت هنا ما كنت قد ناقشت به لورد هاليفاكس منذ اسابيع قليلة ، فذكرت ان المانيا لا تشعر بالقلق من اسطولنا ـ البحري ، وهذا هو سبب عدم اهتمامهم بالاتفاقية البحرية ، واعتمادهم منذ وقت بعيد على قدرتهم الجوية للوصول الى موانئنا الغربية (ويعود ذلك ايضاً الى ثقتهم الكبرى بالهجوم المباشر على تجارتنا بالوسائط العديدة التي اصبحت متوفرة لهم الآن) .

استمر الحديث عند الانتقال الى قضية تنسيق التعاون . وتحدث وينستون عن الأثر

الكبير لافتتاحيات صحيفة « التايمز » . واصر ترينشارد على اهمية هيئة الدفاع الامبراطورية التي تتجاوز مجرد الاستماع الى وجهة النظر الرسمية - وهذاما كان يمارسه بالدوين ويكتفي به - وان على هذه الهيئة الاستماع الى وجهات نظر مختلفة من خارج الدوائر الرسمية ، ومن رجال امثال ريتشموند وفوللر الخ . . . على نحو ما سبق اتباعه في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . ووافق وينستون على ذلك بقوة . كما ناقش « وينستون » موضوع الحاجة لمن يعملون على تنسيق التعاون لتوزيع المخصصات المالية بين الأسلحة الثلاثة (البرية والبحرية والجوية) ، لكن ترينشارداستشعر الفزع من فكرة ازدواج الرقابة المالية ، ولكن وينستون اشار الى ان القرار النهائي متروك لوزير المالية في الحكومة ، واعرب عن اعجابه الكبير بماضي هانكي وخدماته ، ولكنه اعتبر انه توقف الآن عن متابعة ما هو ضروري من تقدم . وقال ترينشارد انه لم تعد لديه الكفاءة او القدرة للاضطلاع باعباء رئاسة المجلس .

كان الاتفاق تاماً بين وينستون ودوف كوبر في تقويم ما تمثله المانيا من خطر ، وانه لا يوجد ما يوقف هذا الخطر سوى تقسيم المانيا بعد شن حرب ضدها . وذكرت انه كانت هناك ثمة فرصة حقيقية للاتفاق اثناء فترة حكومة برونينغ في بداية عام ١٩٣٢ ، لولم يكن تارديو متيبساً ومتصلباً . لكن وينستون ودوف كوبرا اتفقا على ان الجهود الضمنية للعودة بألمانيا الى قدرتها القديمة وقوتها باتباع كل وسيلة ممكنة ، حتى تحت حكم ستريزمان .

طرح وينستون نظريته المعروفة وهي ان الجيش الافرنسي يشكل حزام الأمان الوحيد للدفاع عن اوربا . وكان يعتقد ان قيمته اعلى بكثير مما هو متوفر لهيئة الاركان العامة البريطانية . وكان موقفه مماثلاً لموقف هيغ في استخفافهما دائماً بالافرنسيين .

انتهى الأمر بنا للتحدث عن جيشنا . فقال وينستون بأن وورثينغتون - ايفان كان يرغب في تكوين جيش حديث ، ولكن ميلن وقف في طريقه . وكان من الضروري تحويل الفرسان الى تنظيم حديث منذ عهد بعيد . وانه لا يرى فائدة من الخيال في حرب اخرى الا من اجل الاضطلاع ببعض الواجبات في مناطق خاصة . ولكن عندما حاول هو (وينستون) كوزير للمالية فرض ذلك على وزارة الحرب ، عمل ميلن على قطع الطريق عليه وايصاد الباب في وجهه . (ولاحظت ان فوللر لم يتفوه ولو بكلمة واحدة في موضوع مواقفه خلال تلك الفترة مع ميلن - مخالفاً بذلك قناعاته الخاصة) . وناقش فوللر موضوع الحاجة للتخلي عن اسلوب كاردويل ، وتولى وينستون النقاش ضده . ووجدت انه لم يدرك مدى الضعف في حجم الوحدات البريطانية على الحدود الشمالية - الغربية ، او

اضطلاع جيش الهند بواجبات ثلاثة . واشار فوللر الى ان اسلوب كاردويل قد سقط في مجال الممارسة العملية منذ نهاية الحرب ، وانه تمت الاستعاضة عنه باسلوب ماكسز لاجراء التبديل المباشر من المخازن والقوات الاحتياطية . وان هذا الاسلوب قد حقق نجاحاً على امتداد ثلاثة اعوام حتى جاء ماكدونو وقلبه رأساً على عقب بسبب خصومته الشخصية لماكسز وخلافه معه .

ادليت بشهادتي ايضا في هذا الموضوع ، واقترحت على دوف كوبر العودة الى تلك الاوراق والعمل بها (تماماً كما فعل دولا وور قبل ذلك وفقاً لمقترحاتي) وقد رجع فوللر لمعالجة هذه النقطة مرة اخرى في نهاية الحديث ، وطلب الى دوف كوبر مراجعة تلك الأوراق .

كانت طريقة وينستون المألوفة هي التحدث الى عدد من الرجال ، في موضوع المقارنة بين الجيش الافرنسي وجيشنا في وقت واحد . وقد دفعني ذلك الى ابراز خطأ هذا الاسلوب في الحساب وفقاً للظروف الحديثة ـ نظراً لعدم وجود علاقة اساسية في الموضوع . واستخدمت البراهين والشواهد من التحليل الذي كنت قد وضعته للتفوق العددي الساحق الذي كان لصالحنا في عدد من الهجمات الفاشلة في الحرب ضد الألمان وضد الاتراك . وقد سبب لهم ذلك نوعاً من الصدمة . وكان دوف كوبر ووينستون يميلان الى نسب ذلك للتفوق الفني لدى الجيش الألماني . (وقد يثير ذلك نوعاً من التسلية نظراً لاتخاذ دوف كوبر هذا الخط او هذا الاتجاه مع هيغ) . وهنا ايضا اثرت الشك ايضا في التفوق النوعي للقيادة الالمانية ، وافترضت ان الميزة الاساسية انما تكمن بنسبة اكبر في ظروف العمل .

وافق دوف كوبر وترينشارد ووينستون على ان ما هو مطلوب من كل قوة يتم ارسالها (للحملات فيما وراء البحار) بأن تعتمد على الفرق الآلية (الميكانيكية) . هذا وعلى الرغم من عدم رغبة وينستون في ترك اسلوب كاردويل ، فقد قال بانه يرغب في الزام الهند للاخذ بنموذج تنظيم القوات الذي نريده ، عوضاً عن تركها بعيدة عنا .

اظهر ترينشارد مدى الحاجة لفرقة صغيرة ـ وكانت القوة الجوية نموذجاً للاتجاه الحديث في توجيه الضربات بالاعتدة (الآلات) وبقليل من الرجال ، حيث يستخدم الرجال بصورة اساسية في التنظيم . وظهر دوف كوبر وكأنه يخاف من تبني مثل هذه الفرق الصغيرة عوضاً عن الفرق الكبرى الحالية وذلك حتى لا يعمل حزب العمال على تخفيض عدد القوات الحالي (وكانت هذه مخاوف الهيئة الاستشارية في الجيش منذ زمن بعيد) .

كان دوف كوبر ووينستون يؤ منان ايمانا عميقاً بالتحصينات الفرنسية على الحدود ، وقال دوف كوبر بأنه يأمل الآن في ان يعمل البلجيكيون على تمديد شبكة الحصون حتى حدودهم . وقال بانه يعتقد في ان ذلك سيحمل الالمان على الاتجاه شرقا عوضاً عن التوجه نحو الغرب .

طرح دوف كوبر (ما كانت تطرحه هيئة الاركان العامة) من حيث حاجتنا لارسال قوة ميدانية للبلاد المنخفضة من أجل تأمين قواعد جوية هنـاك . وهـو مطلـب لم يكن الافرنسيون ايضاً يرغبون عنه بديلاً (ولقد كان هناك تبادل في بعض وجهات النظر ، الا انه لم يكن بالمستطاع اتخاذ ترتيبات في عهد لوكارنو على نحو ما كانت عليه في عام ١٩١٤ ، كما انه لم يكن بالمستطاع التفكير بترتيبات مشابهة مع الألمان) وكان وينستون واضحاً جداً عندما قال بان علينا امتلاك قوة ميدانية ولكن علينا الاحتفاظ بها كلها من اجل استخدامها عندما نريد وبالطريقة التي نريدها .

اشرت الى ان قيمة امتلاك القوة الميدانية يتعلق قبل كل شيء بامكانات الوصول الى هناك في الوقت المناسب . وقال دوف كوبر بان مخطط تعبئة القوات وحشدها هناك يتطلب مدة زمنية قدرها ١٤ يوماً . ولو اننا لا نمتلك حالياً سوى فرقة آلية (متحركة) واحدة . وتساءلت عما اذا كان بالامكان تنفيذ ذلك في الوقت المناسب . وافترضت ان ذلك يعني بالنسبة لنا دفعها الى فرنسا في حالة تفضيلها على دعم كبير بالقوات الجوية ، اما بالنسبة لقيمة ضمان القوات الجوية فانه يرتبط بالقدرة على زيادة مجال عمل الطيران . وذكرت ان اعادة تجهيز قواتنا الميدانية لن يتحقق قبل عام ١٩٣٩ ، وحتى ذلك الوقت سيكون مدى عمل الطائرات كافياً وفي غير حاجة لتلك المواقع الوسيطة . وقد اظهر دوف كوبر ووينستون اهتماماً كبيراً باحتمال تحرك الألمان في عام ١٩٣٧ .

وجه دوف كوبر تأنيباً لوينستون على اساس انه هو الذي وضع قاعدة (لا حرب قبل ١٠ سنوات) وهي القاعدة التي تخلينا عنها منذ عام ١٩٣٢ . وقال وينستون انه ادخل هذه القاعدة ببساطة كقاعدة للعمل يجب اعادة تقويمها في كل عام .

كان وينستون يقدر بقوة خطر الهجوم الجوي على انكلترا ـ لا سيما في حالة استخدام القنابل الحرارية . لكن دوف كوبر لم يكن يشعر بقلق كبير ، وكان يعتمد في ذلك على ان القصف لن يدمر الروح المعنوية للجماهير البريطانية . وكان وينستون يظهر عدم ثقته في التأثير المحتمل . هنا تظهر الحاجة للجيش من اجل حفظ النظام قبل كل شيء . وقال دوف

كوبر انه لا يوافق على مثل هذا المبدأ ، وذلك ان على رجال الشرطة الاضطلاع بهذا الدور . . الخ . .

كان دوف كوبر في حيرة بشأن الطريقة التي يمكن اتباعها لايصال الضباط الشباب الى اعلى المراكز القيادية . وقد بوغت عندما قلت له بأنه تم ترشيح هيغ لمنصب رئيس هيئة الاركان العامة وهو في عمر ٤٤ عاماً . وتدخل ترينشارد فذكر ان وينستون قد عينه قائداً اعلى وهو في عمر ٤٤ عاماً وذكر انه هناك حاجة لضباط قادة اصغر من ذلك في سني العمر . وكان يرغب الان في تعيين غورت رئيساً لهيئة الاركان العامة (وقد أظهر ترينشارد ودوف كوبر ايضاً تأييدها القوي ا- شيح غورت ، ولعلهما بالغا قليلاً في تقديره . . .) .

غادر ترينشارد الحفلة في الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى يلحق بالقطار ،ولكننابقينا واستمر الحديث حتى الساعة ١٢٣٠ ، حيث اوصلت دوف كوبر الى منزله . وقال لي ونحن في الطريق انه فكر في دعوة هيغ اليس للانضمام الينا في تلك الامسية . ويظهر انه العضو الوحيد الذي يقدم له مساعدة حقيقية من بين بقية اعضاء الهيئة الاستشارية في الجيش . وكان بديهيا ان يكون تأثره به كبيراً . وطرحت بعض التحفظات . ثم تحدث عن عدد من الرجال الآخرين ـ وسألني عن رأيي في ديلل . . .

قال لي (دوف كوبر) ونحن نغادر مكان الاحتفال (اننا لن نتفق ابدا بشأن الحرب الماضية ، فدعنا نأمل في اتفاق بشأن الحرب التالية) . ثم اضاف بعدئذ ـ بلهجة غريبة ـ انه يثق بالسيرة الرسمية لهيغ (ان عليه ان يصنع قضية) وأجبت انه على الرغم من كفاءته للاضطلاع بهذا المنصب (فقد كانت احسن قضية) هي الا يستخدم من الذرائع ما يمكن الرد عليها بسهولة .

كانت امسية مثيرة ولو ان نتيجتها جاءت اقرب الى الاحباط . ذلك انه اجتمع هنا عدد من ابرز رجال الجيل الماضي في عالم الدفاع . ولديهم يقينا عقول اكبر بكثير من عقول القادة الحاليين العاملين في الخدمة ـ وهذا على الرغم من الاضطراب الكبير في احاديثهم ، والبحث عن الاسلوب المنمق اكثر من البحث عن الحجة المنطقية . وعلى الرغم ايضاً من فشلهم الواضح في كثير من الاحيان في الوصول الى النقطة الاساسية للموضوع الذي تتم مناقشته .

لقد اظهر القسم الاكبر من الحديث وبشكل واضح مدى الحاجة لعادة التفكير العلمي في دراسة احداث الماضي . والقصور في دقة التفكير عند معالجة النقاط في الفترة

الراهنة . وطلما اننا لا نستطيع تنظيم النقاش في مشكلة مجردة ، فأي امل ممكن في الوصول الى حل متوازن ، يستند الى حقائق وليس الى أوهام ؟ . . .

* * *

اتخذ مجلس الوزراء - بعد ذلك بقليل - قراراً بشأن السياسة الاستراتيجية لبريطانيا ، كما حدد واجبات قوة الارساليات (الحملات) الى خارج بريطانيا . واستخدم بالدوين بصورة واضحة تعيين وزير لتنسيق التعاون الدفاعي (وهو القرار الذي وافق عليه وهو كاره له) من اجل اتخاذه كذريعة مناسبة للمزيد من المماطلة والتأخير . ولم يتلق الوزير - أو الحكومة - اي توجيه واضح من قبل هيئة الاركان العامة ، حتى بعد تعيين السير سيريل دوفريلل كرئيس جديد لهيئة الاركان العامة في شهر نيسان (ابريل) ولو انه استطاع اجراء بعض التطورات في عدد من المجالات مما ميزه عن سلفه ، وكان اقل ميزاته انه اظهر تفتحا عقلياً في مواقفه من الافكار التعبوية (التكتيكية) الجديدة . وكان يتميز بصورة اساسية بتلك الصفة التي اطلقها عليه الجيش وهي (انه جندي عملي) ولديه قدرة جيدة في هذا المضمار المحدود ، ولكنه لم يدرس مسبقاً القضايا الاستراتيجية ، كما انه لم يتعود النظر الى الافق الواسع لمشكلات الاستراتيجية العليا . فكان من الصعب عليه والحالة هذه ، صياغة السياسة الجديدة ، ويضاف الى ذلك ان رئيس مساعديه ومدراء هيئة الاركان كانوا من افضل التقنيين ، الا ان نظرتهم كانت اقل اتساعاً من نظرته .

كانت هيئة الاركان تكره بصورة طبيعية التخلي عن اي وظيفة من وظائف الجيش السابقة والقاء اعبائها على عاتق الأسلحة الاخرى . ولهذا كانت تقاوم بصورة غريزية كل اقتراح لتكليف القوات الجوية بواجبات دعم الحلفاء في القارة الأوربية . وكان توسيع الاعباء والواجبات يتضمن تخصيص نسبة اكبر من مجموع موازنة الدفاع .

لقد استندت مخططاتهم الاساسية الى فكرة (او مفهوم) القوة الميدانية وفق المستوى الموجود . وفي حدود ٥ فرق ، كحد اقصى خلال المرحلة الأولية من بداية حرب اخرى . ولكنهم كانوا عاجزين عن التفكير في كيفية اعداد هذه الفرق الميدانية وتنظيمها سواء لاستخدامها في القارة الأوربية او كاحتياط استراتيجي للدفاع عن الامبراطورية . وبقيت السياسة التي وصفها جوك ستيوارت واصحاب مدرسته الفكرية هي السياسة المهيمنة . وزيادة على ذلك ، فان الاتجاه نحو المحافظة على الدور السابق للجيش ، لم يرافقه تحقيق

اي انجاز واضح بحيث ان وزن هذه الفرق القليلة من المشاة حتى لو تم تحويلها الى فرق محمولة ، ستبقى بعيدة عن الوصول الى نصف عدد الفرق المدرعة .

مضت سنة اخرى دون الوصول الى قرار في اتجاه اي من هذه المشكلات الهامة . واستمر ذلك الموقف الغائم والضبابي حتى خريف عام ١٩٣٧ .

الفصل الثالث عشر
مناظرة للتخطيط المشترك

لم تظهر في بريطانيا إلا في وقت متأخر جداً فكرة معالجة المشكلات الدفاعية بصورة شاملة ، عوضا عن معالجتها كأجزاء منفصلة مستقلة . وكان ذلك غريبا جداً بسبب موقعها الخاص كجزيرة صغيرة لها امبراطوريتها الواسعة فيما وراء البحار ، وترك ذلك اثره على مشكلاتها الدفاعية كلها ، حيث كانت هذه المشكلات ملتحمه متأصلة بالعمليات البرمائية ، فأصبح فصل العمل البحري عن العمل البري امرا صعبا على المدى المحتمل لحالة القدرات القارية . ويظهر التسجيل التاريخي لاحداث الحروب البريطانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فشل القسم الاكبر من عملياتها البر - مائية نتيجة التنافس بين البحرية والجيش في مجال تنسيق التعاون بين هذه الأسلحة .

ظهرت أول محاولة للتحرك في اتجاه وضع اسلوب لتنسيق التعاون بهدف التخطيط للعمليات والسيطرة عليها ، وكان ذلك نتيجة للفشل في الحروب التي مارست فيها القوات الأرضية دورا مهيمنا في حين لم يترك للبحرية سوى دور قليل الأهمية ، نظراً لعدم ظهور تهديد في تدخل قوة بحرية خارجية ولو مرة واحدة خلال تلك الفترة . وجاء الاضطراب الفاضح والتخبط العسكري في حرب جنوب أفريقية ضد البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) ليظهر ضرورة تكوين هيئة صغيرة مستقلة من ثلاثة خبراء جاؤ وا من الخارج وهم اللورد ايشر (عميداً للهيئة ورئيساً لها) والعقيد سير جورج سيدنهام كلارك والاميرال

سير جون فيشر ، أشهر قادة البحرية نشاطا في اجراء الاصلاحات الحديثة . وكانت مهمة الهيئة النظر في (اعادة تكوين وزارة الحرب) .

جاءت هذه الهيئة (لاعادة تكوين وزارة الحرب) . وأصبحت تعرف باسم (هيئة إيشر) . وقد انطلقت فوراً إلى ما وراء مثل هذا الواجب المحدود . فأوضحت في تقريرها الأساسي الذي رفعته في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ ما يلي :

تعتمد الامبراطورية البريطانية في تفوقها على بحريتها العظيمة وعلى الهند ، وكذلك على قدرتها الاستعمارية . وعلى هذا فليست هناك وسائل يمكن لها تأمين تنسيق التعاون في المشكلات الدفاعية ، ومعالجتها كمشكلة اجمالية واحدة ، او تحديد الواجبات الخاصة للعناصر المختلفة بصورة دقيقة ، ولضمان ذلك لا بد من العمل وفق مخطط ثابت لاعداد الترتيبات السلميه هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى يجب وضع سياسة حربية محددة لمجابهة حالة (أو حالات الطوارىء) على ان تستند هذه السياسة الى فرضية صلبة ونظرية ثابتة يجب صياغتها ووضعها .

عمل ايشر وزميلاه على تجاوز قضية (اعادة تكوين وزارة الحرب) ودعمها بهيئة للاركان فطالبوا بصورة اساسية بتكوين هيئة عليا تعمل لصالح مجلس الوزراء ويمكن لها الحصول على المعلومات جميعها وتنسيق التعاون . واستخدام الخبرة المتوفرة لتقديم النصيحة المطلوبة من اجل صياغة سياسة وطنية عند اندلاع الحرب مع اتخاذ ما هو ضروري من قرارات تمهيدية للسلم . وأوضحت الهيئة (ان مثل هذه المعلومات والنصائح يجب لها الا تشتمل فقط على متطلبات أفق وزارء الحرب ، بل يجب لها ان تشمل ايضا مجال وزارة البحرية (الادميراليتي) والفروع المختلفة للدولة) .

كان قد تم تنظيم هيئة وزارية منذ عام ١٨٩٥ ، وقد جاءت توصية (هيئة ايشر) لتساعد على تطوير هذه الهيئة حتى تصبح اكثر اتساعا وحتى تصبح جهازا استشاريا اكثر ملاءمة ، وله أمانه سر (سكرتاريه) صغيرة ودائمة . ووفقا لهذا التنظيم يكون رئيس مجلس الوزراء هو (الرئيس الدائم) لهذه الهيئة الجديدة للدفاع عن الامبراطورية ، ولكن تكوين هذه الهيئة يبقى متغيرا بحيث يمكن له ان يضم علاوة على الوزراء وقادة الأسلحة (البرية ، البحرية ، الجوية) الخبراء غير الرسميين وكذلك اعضاء المعارضة ممن يتم استدعاؤهم لاستشارتهم ، وللاشتراك بمناقشة الهيئة ، وفقاً لما يجده رئيس مجلس الوزراء مناسباً .

قبل رئيس مجلس الوزراء ـ آنذاك ـ آرثور بلفور الاقتراح ، وعمل فوراً على

تشكيل الهيئة الامبراطورية للدفاع التي باشرت عملهـا في أيار (مـايو) ١٩٠٤ . وقـد انهارت هذه الهيئة بمجرد استبدال حكومة بلفور بحكومة كامبل بانيرمـان وبعـد اجـراء الانتخابات العامة في عام ١٩٠٦ . وكان سبب ذلك عدم ثقة رئيس مجلس الوزراء الجديد بالهيئة التنظيمية للدفاع والتي أصبحت موضع تهكم القادة الرسميين الذي كانوا يقاومونها بفاعلية وقوة . ولكن هالدان (الذي أصبح أمينا عاماً للدولة عن وزارة الحرب) أقنـع كامبل بانيرمان لترك الهيئة حتى تستمر في عملها « قيد الاختبار » وفي السنة التالية هبت عاصفة اخرى عندما أثار فيشر بتمرده (وقد أصبح لورد البحر الأول ، كثيراً من الحماقات مع زميله القديم « ايشر » في الهيئة وهو سيدنهام كلارك ، الذي أصبح أمين السر الأول في هيئة الدفاع الامبراطورية .

جابهت الحكومة مقاطعة الادمير اليتي الفعلية لهيئة الدفاع الامبراطورية ، فاتبعت الطريق السهل للخروج من الأزمة وذلك بنقل سيدنهـام كلارك وتعيينه حاكماً لبومبـاي (في الهند) وقبول مرشح فيشر (النقيب شارل أوتلي) للاضطلاع بأعباء منصب كلارك . وقد تم تعيين ضابط شاب ينتظره مستقبل ناجح وتتوفـر له حمـاية الهيئـة ، وهـو النقيب موريس هانكي من البحرية الملكية ، وذلك للعمل في هيئة الدفاع الامبراطورية اعتبارا من عام ١٩٠٨ (كأمين مساعد بحري) . وبعد أربعـة أعـوام ، تم تعيين أوتلي مديرا لمصنع كبير من مصانع الأسلحة فترك عمله في الهيئة ، وتم انتقاء هانكي خلفا له وذلك بعد ان أمكن التغلب على بعض العوائق التي اقامها التنافس بين البارزين من المرشحين على نحو ما يحدث عادة في مثل هذه المواقف .

كان هانكي يبلغ الرابعة والثلاثين من عمره ، وهـو لا يزال يحمـل رتبـة نقيب ، وأصبح عليه الاستمرار في عمله حتى احالته على التقاعد ، وهو في صراع للتغلب على الصعوبات الناجمة من رئاسته لهيئات فرعية يعمل على رئاستها قادة يحملون رتبـاً رفيعـه (اميرالات في البحرية وجنرالات في الجيش) . وقد برهن هانكي على قدرتـه لتحقيق النجاحات الكبيرة في مركزه ، والاحتفاظ به لمدة تزيد على ربع قرن بفضل ما توفر له من الصفات الفريدة والتي تمتزج فيها الكفاءة بالحزم مع حسن التصرف بلياقة وكذلك الموهبة في اكتساب الانصار الأقوياء .

تعرضت هيئة الدفاع الامبراطورية ـ على كل حال ـ الى سقوط هيبتها بصورة مباغته بعد عام ١٩٠٦ وفقدت تأثيرها . فأصبح عقد اجتماعاتها أقل بكثير مما هو معتاد ، ولـم تتطور بحسب ما كان منظورا اليها في السابق لتصبح عضوا مناسبـا لصياغـة السياسـة

الدفاعية وتوجيهها بصورة شاملة . ولكنها رغم ذلك كله ، استطاعت انجاز الكثير من المخططات ذات الترتيبات التفصيلية ، وشملت ذلك كله بما أطلق عليه اسم (كتاب الحرب) الذي ضمن رفع درجة الاستعداد في القوات (البرية والبحرية والجوية) مع الأقسام الأخرى ، وذلك لمجابهة الطوارىء على نحو أفضل بكثير مما عرفه التاريخ البريطاني من قبل . واكتسب هانكي الثقة المتزايدة لرئيس مجلس الوزراء « آسكيت » والذي جاء خلفاً لكامبل بانيرمان ، واستطاع هانكي الافادة من هذا الدعم لانجاز عدد مذهل من الخطوات والمراحل التمهيدية (بعد ان اقام مع هيئة اركانه في ٢ حدائق وايت هول) . ولكن عندما اندلعت الحرب في عام ١٩١٤ حاول آسكيت ادارتها بالطريقة التقليدية عن طريق اجماع مجلس الوزراء ، في حين تركت هيئة الدفاع عن الامبراطورية بعيدة لتقوم بمعالجة الدفاع عن الوطن وحل المشكلات المتنوعة والصغرى ، وذلك عوضا عن تطويرها حتى تصبح عضواً فعالاً في الرقابة وادارة الحرب . وكان مجلس الوزراء بعدد اعضائه البالغ ٢١ عضواً يشكل جهازاً ضخما يعيق اتخاذ القرارات بسرعة ، علاوة على عدم قدرته في وضع السياسة الاستراتيجية . ومضت أشهر على ذلك بين الفوضى في الاقدام والاحجام ، واجريت مجموعة من التجارب في اطار تكوين أجهزة أصغر (لادارة الحرب) اطلق عليها وعلى التتابع اسماء (الهيئة الاستشارية للحرب) و (هيئة الدردنيل) و (لجنة الحرب) ، ولكن لم تتمكن هذه التنظيمات من الوصول الى نتائج مرضية ، ولم يتحقق أي تطور ناجح حتى تولى لويد جورج رئاسة مجلس الوزراء في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ فشكل (وزارة حرب) صغيرة تتكون منه ومن أربعة أعضاء (واحد منهم فقط كان يضطلع باعباء الوزارة بالاضافة الى هانكي كأمين للسر) . وأصبح اجتماع هذه (الوزارة) يومياً تقريبا .

تم احياء هيئة الدفاع الامبراطورية بعد انتهاء الحرب ، ولكنها لم تتطور الى عضو للرقابة والسيطرة . وفي الوقت ذاته تعاظمت المشكلات وتزايدت تعقيداتها ، نتيجة لتقدم القدرة الجوية وتكوين سلاح ثالث (وهو القوة الجوية الملكية) ، وأدى ذلك الى طرح اقتراحات لتكوين وزارة للدفاع تهيمن على أجنحة القوى الثلاثة (البرية والبحرية والجوية) ولكن ظهرت مقاومة قوية ضد مثل هذه الاقتراحات . وفي عام ١٩٢٣ - أسندت قضية اعادة تنظيم جهاز الدفاع الامبراطوري الى هيئة فرعية تعمل تحت اشراف اللورد ساليسبوزي (المركيز الرابع) . وقد منعت هذه الهيئة من تقديم كل اقتراح يهدف الى اجراء تغيير جذري ، ولكنها أوصت بتكوين هيئة ـ فرعية تضم رؤ ساء هيئات الاركان في الاسلحة الثلاثة مع تحديد واجباتها على النحو التالي :

يضطلع رؤ ساءهيئات الاركان للقوى البحرية والبرية والجوية بواجبات تقديم استشاراتهم باستمرار في المشكلات المتعلقة بسياسة اسلحتهم سواء للهيئات أو اللجان الخاصة بهم ، وبالاضافة الى ذلك فان كل واحد من رؤ ساء هيئات الاركان الثلاثة مسؤول فرديا واجماعيا عن توجيه السياسة الدفاعية الشاملة وعليه تقديم النصح بشأنها ، ويشكل الثلاثة ، كما كان متبعا ، مجلساً قيادياً اعلى لهيئة الاركان . وعليه الاجتماع معا للاضطلاع بهذا الواجب من اجل مناقشة القضايا التي تؤ ثر على مسؤولياتهم المشتركة .

تشكل (مجلس رؤ ساء هيئة الاركان) في عام ١٩٢٤ ، وكان الاعضاء الأساسين فيه هم : (لورد البحر الأول) ايرل بيتي . و (رئيس هيئة الاركان العامة للامبراطورية) ايرل ـ اف ـ كافان ، و (رئيس هيئة اركان القوى الجوية) سير هيغ ترينشارد ، مع السير موريس هانكي كأمين سر للمجلس . وانتجت اجتماعات المجلس على امتداد سنوات عديدة ، مجموعة من الخصومات والمشاحنات التي لا نهاية لها ، وبصورة خاصة بين بيتي وترينشارد في كل مرة يتم فيها طرح قضية تشتمل على اعادة توزيع الواجبات بين الأسلحة ـ مثل تقويم دور المدفعية الساحلية أو الأسراب الجوية للدفاع عن سنغافوره . وقد سمعت الكثير عن تلك الخصومات والمشاحنات ، ورأيت أيضا بعضا من التقارير الكثيرة التي وضعت للتخفيف من أثر تلك الخصومات والتي كانت تصل في النهاية الى العبارة التالية (وهي انه نظراً لعدم الوصول الى اتفاق فقد تم تأجيل الاجتماع) وعندما انهى بيتي وترينشارد المدة المحددة لممارسة عملهما ، أصبحت الاجتماعات أقل حرارة ، ولكن خلفيتيهما لم يحققا سوى القليل من التقدم نحو الوصول الى نتائج في القضايا الاكثر اهمية . وكانت ثمة عقبة اخرى وهي تعيين هانكي في عام ١٩١٩ كأمين لمجلس الوزراء ، وفي عام ١٩٢٣ تم تعيينه ايضاً كأمين سر خاص للهيئة الاستشارية ، علاوة على كونه أمينا للسر في هيئة الدفاع الامبراطورية ، وعلى هذا فقد أصبح من واجبه الاضطلاع بأعمال كثيرة وحل مشكلات عديدة .

أدى هذا المأزق الى تجدد المناقشات في كثير من الاحيان سواء في (البرلمان) أو في خارجه ، وذلك حتى تضطلع وزارة الحرب باشراك او تنسيق التعاون بين الوزارات المستقلة للقوى المقاتلة الثلاثة (البحرية والبرية والجوية) . ولكن مثل هذه المقترحات جميعها اصطدمت بمقاومة هذه الوزارات ، في حين لم يظهر هانكي أي ميل للترحيب بكل ما من شأنه التخفيف عن اعبائه نظرا لأن ذلك قد يقضي على التأثيرات المتنوعة والمضاعفة والتي طالما اضطلع بممارستها .

أظهرت عملية البدء ببرنامج اعادة التسلح (في آذار ـ مارس ـ ١٩٣٥) مدى

الحاجة الملحة لمعالجة قضية تنسيق التعاون . وكنت من أقوى المطالبين بذلك ، من خلال عملي حيث تم تعييني في تلك الفترة (كمراسل عسكري) لصحيفة التايمز مع الاضطلاع بدور اكثر اتساعا (كمستشار لقضايا الدفاع العامة) . وهكذا جاءت الافتتاحية الأولى التي نشرت في ١٥ آذار (مارس) وهي تعالج موضوع (الدفاع الشامل ككل) وأوضحت هذه النقاط :

تعاظمت ردود فعل كل سلاح وتأثيراته على الأسلحة الأخرى حتى وصلت الى درجة لا يمكن قياسها بسبب تقدم القدرة الجوية . ولقد كان من السهل نسبيا رسم خط الفصل بين الواجبات عندما لم يكن هناك سوى سلاحين اساسيين يمارس أولهما عملياته في البحر والثاني في البر . ولم يكن هناك سوى تخوم يجب تجاوزها ، وكان العمل المشترك في قسمه الاكبر هو قضية دقائق تفصيليه ، ورغم ذلك فان تاريخنا يقدم امثولات كثيرة جداً عن الخصومات والاحتكاكات فوق تلك التخوم والحدود . . .

تتضمن هذه التجربة يقيناً ، إن لم تفقد معناها ومضمونها ، مؤشرات نحو المزيد من الصعوبات الآن بعد ان أصبح عدد الاسلحة ثلاثة عوضاً عن اثنين نتيجة إضافة القوى الجوية . . .

يكمن الخطر في ان هذا التعقيد قد يؤدي الى مجرد محاولة للتسوية او التوفيق بين الأسلحة ، وتحقيق مساواة في توزيع الجهد وتخصيص النفقات وذلك عوضا عن اجراء التسوية الضرورية في تحديد الواجبات على ضوء مبدأ توجيهي ثابت . وكلما طال أمد التأجيل للوصول الى هذا المخرج ، كلما تعاظمت الصعوبات ، وان الاسراع في هذا المجال يضمن فائدة مزدوجه اولها ضمان افضل سياسة تلبي الحاجة والثانية هي توفير الغرامة التي يجب علينا دفعها (ثمنا لكل تأخير) . . .

ان روح تنسيق التعاون لم تعد كافية ، ولا بد من توفر العقل للرقابة والادارة ، وذلك اذا ما اريد لكياننا الدفاعي ان يتضمن البرهان على قوة بنيانه . ولقد ظهرت في الأسلحة الثلاثة تطورات واضحة في التفكير بشأن هذا الموضوع خلال السنوات الاخيرة الماضية . وقد تكون وزارة الدفاع هي النهاية الختامية ، ولكن يظهر انها وصلت الى نهاية تفاعلاتها التدريجية . ولقد وصلنا الى مرتبة البنيان التي يجب ان نجمع لها المواد الاولية ـ وهي العقول التي يمكن لها معالجة المشكلة الشاملة للدفاع ـ ككل ـ ودون تأثر بالروابط الفرعية سواء المتعلقة بالمشاعر أو (بالتعصب) للأسلحة . ويجب علينا في الوقت ذاته العمل تدريجيا لتقوية ودعم الاعضاء التي نمتلكها . وان نشر يوميات اللورد ايشر

ورسائله حديثاً تعيد الى الذاكرة الفكرة التي رافقت تكوين هيئة الدفاع الامبراطورية وهي ان هذه الهيئة قد نظمت أساسا لتكون النواة الدائمة للأعضاء من الخبراء . ثم جردت هذه الفكرة بعدئذ من اهميتها العملية لتحول هذا العضو (الى هيئة اركان عامة مشتركة للامبراطورية) وأن ما كان مرغوبا به منذ ربع قرن مضى ، عندما لم يكن هناك سوى سلاحين أساسيين ، قد أصبح مختلفاً بصورة اساسية ، فهنا يقينا حاجة اكبر في الوقت الحاضر للعمل من خلال الاسلحة الثلاثة ، مع الاضطلاع بواجبات لم يعد بالامكان فصلها بعضها عن بعض . .

تناولت طعام الغداء مع موريس هانكي بعد ذلك بعشرة أيام . ووجدت أن رد فعله لم يكن كما كنت أرجوه بالنسبة للمقترحات ، لا سيما في مجال تقويم الجهود التي بذلها في السنوات السابقة لتطوير التخطيط الشامل . وتضمنت مفكرتي اليومية تسجيلا لمناقشاتنا ، هي التالية : ـ

لقد ذكر عند الحديث عن تنسيق التعاون بان رؤساء هيئات الاركان في اللجان الفرعية يعملون حاليا بجهد كبير . فقلت (على السطح) وقدمت امثولات عن الدعايات التي لا زال يوجهها كل طرف (من تحت السطح) . وعلى سبيل المثال ، فقد صدر تعميم على الفور ، من قبل القيادة البحرية (الأدميراليتي) يتضمن (الحقائق) بشأن فشل طائرة غريك في تعطيل أو حتى اصابة الطراد الذي اعلن التمرد حديثا . وكذلك ملاحظات شاتفيلد في حفلة العشاء . وظهر هانكي وكأنه أصيب بصدمة .

لقد ذكر انه أصبح اميناً للسر في هيئة الدفاع الامبراطورية وعمره ٣٤ عاماً وها هو الآن يناهز الثامنة والخمسين من العمر . وهذا يوضح الى حد بعيد ، كيف ان رجلاً له مثل هذا الذهن الوقاد ومثل هذا الوضوح في الفكر ـ على نحو ما اشرت اليه ـ يصبح اكثر قناعة في رضاه عن ذاته وفي تكيفه مع الاشياء كما هي عليه . . .

ناقشنا قضية الأفضلية في اجتماع الهيئة الفرعية للتخطيط المشترك ، وهل يجب لها البقاء في (٢ حدائق وايتهول) او البقاء في اجنحتها الخاصة (ضمن اسلحتها) وكان يفضل الحل الأخير ، (نظراً لاحتمال تغير التكوين في اللجان الفرعية وفقاً للمواضيع التي يتم بحثها ، ووفقاً لمنطقة الاحداث من العالم . وافترضت ان ذلك قد يعيق اعضاء اللجان عن رؤية وجهة النظر في الأسلحة الأخرى ، وربما ادى ذلك الى اتخاذ القرار المناسب لضمان افضل تنسيق للتعاون بين مختلف القوى والاسلحة ـ هذا بالاضافة الى

استمرارهــم في التعلــق باسلحتهــم الخاصــة ، وحرصهــم على مستقبــل مهنتهــم واختصاصهم . . .

وجهني الحديث مع هانكي ، كما وجهني الحديث مع بولوك من قبل ، الى رؤ ية المعارضة الصلبة لوزارة الدفاع ، وكيف ان هذه المعارضة تأتي من الوزراء ذاتهم ، كما تأتي دون ريب من الرؤ ساء المدنيين في وزارة الحرب ووزارة البحرية (الادميراليتـي) ايضاً . فعمل وزير الدفاع مع هيئة الأركان العامة المشتركة من شأنه افساد درجة سلطاتهم الحالية واضعافها ، وتلك هي طبيعة انسانية .

لكنني ـ مقابل ذلك ـ عرفت موقفاً اكثر شجاعة بين الرجال الأصغر عمراً ـ بصورة خاصة في وزارة الحرب . وكنت اتناول طعام الغذاء ما بين فترة واخرى مع رونالد آدم المدير المنتخب للعمليات العسكرية وكذلك برنارد باجيت ضابط هيئـة الاركان رقـم ١ للاستخبارات العسكرية . وفي ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) حدث بيننا لقاء ، من تلك الاجتماعات ، ودار فيه حديث على جانب كبير من الأهمية بشأن تنسيق التعاون الدفاعي :

أظهرت الحاجة لهيئة اركان عامة (مشتركة ومصغرة) تعمل على تقديم استشاراتها لوزير الدفاع . ويجب على الضباط الذين يتم تعيينهم فيها ، ان يكونـوا مستقلـين عن اسلحتهم الخاصة ـ وهنا تكمن النقطة الحاسمة للعامل الانساني في المشكلة بكاملهـا . ونتيجة لذلك ، يجب ان تكون هيئة الاركان العامة على درجة كافية من الاتساع لتأمين احتراف اولئك الذين يتم تعيينهم فيها (وضمان مستقبلهم) .

وافـق آدام وبـاجيت على ذلك ، وتحدثـا في خلل الجهـاز الحـالي . واوضحـا ان الاضطراب في هيئة رؤ ساء الاركان انما يعود الى ان الأعضاء يحضرون الى الاجتماع ومعهم مذكرة وجيزة جداً غالباً ما يتم اعدادها من قبل اركانهم بسرعة كبيرة ، وعندما تصطدم الهيئة بصعوبة ما ، يتم ارجاع القضية الى هيئة التخطيط المشترك (التـي كان آدم يحضر اجتماعاتها) . وعادة ما تكون النتيجة اجراء تسوية تستند الى قاعدة (خذ وأعط) اكثر مما تستند الى حل علمي . وقد يكون من الأفضل بكثير لو يتم دراسة المشكلات في البداية من قبل هيئة التخطيط المشترك وذلك قبل عرضها على اجتماع رؤ ساء هيئات الاركان .

تحدثت عن صعوبات تكوين جهاز جديد بكامله ، وأثرت الشك بحكمـة وزارة الدفاع . وعلى هذا فقد يكون من الأفضل تطوير هيئة الدفاع الامبراطـورية الى جهـاز تنفيذي . وسألني آدم عن رأيي في معالجة مشكلة رؤ ساء هيئة الاركان وعما اذا كان من

الأفضل ابطال هذه الهيئة او الابقاء عليها . وأجبت انه من الأفضل وفقاً للظروف الحالية المحافظة عليها . ولكن يجب دمج رؤساء هيئات الإركان (الثلاثة البحرية والبرية والجوية) في مجلس واحد ، مع اضافة عضو حيادي رابع يكون اقدم رجل في هيئة الاركان المشتركة . ويتخصص عمل هذا المجلس لتقديم الاستشارات الى الوزير مباشرة .

سألوني رأيي فيما يجب عمله بالنسبة لمنظمات الاستخبارات ، فاقترحت دمج فروع الاستخبارات جميعها في تنظيم واحد . ويظهر انهم وافقوا على ذلك ، وبصورة خاصة منهم باجيت الذي اوضح التجاوزات والمداخلات التي تحدث في الوقت الحاضر . واقترحت ان تعمل منظمات الاستخبارات المشتركة على فصل جناح خاص عنها للعمل تحت هيئة الدفاع الامبراطورية بعد تطويرها .

شعرت بالسعادة وبذهول المباغتة في وقت واحد وأنا أجد مدى ادراكهم العميق للكوارث الناتجة عن الاحتكاك والصدام بين الاسلحة في الماضي والحاضر . مع ما كانوا عليه من موقف منطقي بالنسبة للقوى الجوية . وعندما تحدثت عن الضرر الذي تركه (بارثولوميو) في العلاقات ما بين الأسلحة ، وافقوا على ذلك ، ونسبوا القسم الأكبر منها الى الشكوك التي بالغت في تضخيمها كل خطوة من خطوات وزارة الطيران كقسم من مخطط موجه بمكر وخبث وكان موقف البحرية اسوأ ، وكانت النتيجة ان اصبحت القوات الجوية (وبصورة خاصة قادتها) في حالة من الشك والغيظ تجاه وضعهم . . . هذا وقد لاحظت باهتمام ان (رونالد آدم وبرنارد باجيت) يشعران معاً بالأسف لأن الانتخابات الحالية لم ترفع الى (مجلس النواب) معارضة قوية . وكان آدم يعتقد ان افضل فرصة لتطوير مخطط (تنسيق التعاون الدفاعي) هي تلك التي تكمن في اقامة حكومة اشتراكية ، ذلك لأنها ستكون اكثر تحرراً من قيود الاستشارات الراسخة . كما انه اوضح نقطة هامة وهي ان تأميم وسائط النقل قد اصبح ضرورة لنجاح المخطط الدفاعي وتأمين تنفيذه بفاعلية . وانه عن طريق هذه الوسائط فقط يمكننا الهيمنة على اتصالات لندن ، وهو امر اساسي لمجابهة التهديد الجوي ، وكذلك لتطوير الموانيء الأخرى على حساب لندن .

مضت تسعة اشهر على تطبيق برنامج اعادة التسلح ، ولم يحدث خلالها اي تطور في مجال تنسيق التعاون . وعلى هذا تم عقد مؤتمر مع جيوفري داوسون وروبين بارينغتون وورد في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) تقريباً تقرر فيه ان تمسك صحيفة التايمز بالمبادأة لممارسة ضغط من أجل دعم هذه القضية العاجلة . وبدأت الحملة بافتتاحية كتبتها وتم نشرها في ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٥ وجاء فيها :

ان التحليل العلمي للمشكلة هو الخطوة الأولى في طريق الوصول الى حل صحيح (ومرض) . . .

مـا هي أفضـل طريقـة لمعالجـة هذه المشكلـة لتنسيق التعـاون ، مع وجـود تلك الحسابات التي تبطل كل تسوية ممكنة ؟ . . . هنا تتراوح الافكار بشأن امكانات التنظيم بين وزارة عليا تستطيع امتصاص الاجنحة الثلاثة الموجودة بكاملها وبين وزارة صغيرة يتم فرضها على هذه الأجنحة ، بحيث تستطيع توجيه الحكومة لوضـع سياسـة مشتـركة مع تحديد النسب في الموازنة لكل واحد منها . ويحظى العرض الاكبر بقوى جذب اكبر من الناحية النظرية ، ولكن عوائق تطبيقه عملياً تصبح واضحة كلما تمت دراسة القضية عن قرب . . .

. . . هناك ثمة خطر في استنزاف قدرة الرجل الـذي يقف على رأس التنـظيم ، وكذلك الأمر بالنسبة لمساعديه الذين تمتصهـم عمليات الصراع مع التعقيدات الادارية للتنظيم الجديد . ويتم بذلك خنق الهدف الذي اقيم التنظيم من أجله .

إن الحاجة الملحة في القضايا الدفاعية هي ليست في المزيد من الفاعليات الادارية ، ولكنها تكمن في المزيد من التفكير نحو الغاء كل ما من شأنه تبديد القوى واضاعة الأموال مع القضاء على الاساليب البالية . .

هنا يظهر ان اكثر التنظيمات تواضعـاً هي التنـظيمات ذات القيمـة التـي لا يمـكن تقديرها ، ويجب ان يكون على رأسها رجل يتمتـع بقـدر كبـير من حرية المسـؤ وليات الادارية . وسيكون هذا الرئيس في حاجة لهيئة اركان مشتركة يتم انتقاء عناصرهـا من الاسلحة او القوى الثلاث بصورة دائمة للعمل في المشكلات الدفاعية العامة . ولم يعد من الصعب انتقاء مثل هذه العناصر لهيئة الاركان بعد ان مضى عقد من الزمن تقريباً ظهر فيه عدد من كبار القادة في كل قوة من الأسلحة الثلاثة ، وكذلك بالنسبـة للمـدنيين في الخدمة ، لا سيما وان كلية الدفاع الامبراطورية تخرج سنوياً اعداداً كبيرة منهم . ولكن هناك شرطاً اساسياً ـ هو الأخذ بالعامل الانساني والعمل على اساسه ـ إذ ان هؤلاء الذين يتم تعيينهم لهيئة الاركان المشتركة ، يجب لهم الانفصال عن اسلحتهم الخاصـة وضمان ترفيعهم منذ التحاقهم بالهيئة ، فبقاء ارتباط القادة بأسلحتهم وحضورهم الدائم للعمل فيها هو الخطيئة الاساسية للهيئات القائمة حالياً . وقد يكون اكثر مما نتوقعه من الطبيعة البشرية ان يصل الضابط الى نتائج في غير صالح سلاحه الخاص اذا ما كان سيعرضه ذلك الى عقوبات لأخذه بوجهات النظر الشاملة . ولكن نظراً لأن التـدريب الأخير قد لا

يعادل بكامله الاتفاقات المبكرة ، مع الاسلحة الخاصة ، فانه من المرغوب فيه ان يكون رئيس الهيئة . وكبير اعضاء الهيئة في القيادة رجلاً مدنياً . ويجب على هذا الرجل تخصيص وقته بكامله لدراسة المشكلات الدفاعية : وقد يستطيع الرئيس المذكور ان يكون ذا عون عظيم لو انه كان مسبقاً من تلاميذ الحرب بالمعنى الواسع .

تبقى هناك نقطة يجب مناقشتها وهي ان يكون رئيس الهيئة وزيراً . فاذا ما كان وزيراً - فيجب له ان يكون متحرراً من المسؤ وليات الوزارية ، وبذلك تتوافر له القدرة على ايضاح الخطوط العامة المقترحة للسياسة الدفاعية في مناقشات مجلس الوزراء ومجلس النواب . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد يكون من غير السهل عليه تجنب الاصطدام برئيس مجلس الوزراء او بوزراء الاسلحة الثلاثة (البحرية والبرية والجوية) . وتظهر هنا مرة اخرى الحكمة في عدم تجاوز الطبيعة الانسانية . إذ ان هذا الرجل قد يتعرض للعزل نتيجة لتغيير الحكومة . وزيادة على ذلك ، فان مثل هذا الرجل الذي يرغب في ان يكون رئيساً ناجحاً في وضع السياسة الدفاعية ، قد لا يكون قادراً على العمل بصورة ملائمة كعضو في الحكومة او كنائب في البرلمان . ولتحقيق التوازن ، فان الاتجاه يميل لمصلحة تعيين رجل ليس له نشاط سياسي ، او التوقف عن ممارسة هذا النشاط على الأقل طوال عمله في الهيئة وذلك خلال عدد محدد من السنوات . ولكن مهما بقيت هناك ثمة شكوك بشأن هذه المشكلة ، فان القضية التي لم تعد تحتمل اي شك ، سواء على ضوء تجارب الماضي او على ضوء مشكلات الحاضر ، هي الحاجة لمثل هذه الهيئة العليا للدفاع مع تعيين رئيس يخصص كامل وقته من اجلها .

أفدت من فرصة التحدث الى ديك اوكنور قبل اربعة ايام من نشر هذه الافتتاحية ، وذلك بأخذ رأيه في الخطوط العامة للافتتاحية . وكان ديك اوكنور[1] في حينها يحضر الدورة الجارية في كلية الدفاع الامبراطورية ، وكنت في غاية البهجة والسرور وأنا استمع منه الى ان (النتائج التي وصلت اليها هي مشابهة لتلك التي تم الوصول اليها في كلية الدفاع الامبراطورية عند دراسة هذه المشكلة) .

على الرغم من ذلك فقد أثارت الافتتاحية استجابة ملائمة جداً ، وانتشرت الى ابعد بكثير مما كنت اتوقعه . وتدفق سيل من الرسائل الى صحيفة التايمز من قيادات كثيرة ، كما شملت رسائل عدد من كبار القادة الذين دعموا حججي واقتراحاتي على ضوء نموذج التجربة الموجودة خلال العقد الماضي . وكان لورد ساليسبوري هو الذي ترأس في عام ١٩٢٣ البحث الذي قاد الى تكوين هيئة رؤ ساء الاركان ، وقد كتب لي فأوضح لماذا

وكيف انهارت بسرعة تلك الخطوات وفشلت في الوصول الى حل علمي وقرار مجرد . وأشار الى هيئة الدفاع الامبراطورية فأعلن (انها انهارت وهي في القمة) وليس ذلك بسبب عامل التجرد والنزاهة ، وانما بسبب الحاجة لرئيس مناسب لمثل تلك الهيئة حتى يستطيع الامساك بالموضوع المطروح . وكذلك بسبب تكوين الهيئة المتغايرة في خواصها وعناصرها وبسبب تعقيدات القضايا التي كان يجب معالجتها فكان من غير المتوقع ابداً والحالة هذه ان يستطيع رئيس مجلس الوزراء اضافة اعبائها الى اعبائه وممارسة ذلك بنجاح . والحقيقة ـ بحسب ما أشار اليها لورد ساليسبوري ـ هي ان (الهيئة لم تحصل من وقت رئيس مجلس الوزراء الا على قدر ضئيل وكان ذلك على حساب الالتزامات الأخرى في حين ان عمل الهيئة كان يتطلب كل وقت رئيس الوزراء حتى يمسك الهيئة بقبضة يديه) اما لورد ترينشارد الذي كان قد خدم لمدة ست سنوات ونصف كرئيس لمجموعة رؤساء اركان الهيئات الفرعية فانه طرح الحقيقة التالية : (وهي ان عقد الاجتماع برئاسة الوزير كان من المناسبات النادرة جداً : فكان يلقي بهذا الواجب على عاتق واحد من قادة الاسلحة حتى يمارس « رئاسة الهيئة » في حين كان هذا يمثل قضيته الخاصة وسلاحه الخاص ـ واعتقد انه نتيجة لضغط العمل ولأسباب اخرى ، فقد كان يتم الوصول الى اجماع الآراء في كثير من الأحيان بموافقة ضمنية هدفها ابعاد كل خلاف جوهري في وجهات النظر . وعلى هذا ، ولتجنب الوصول الى النتائج التي تؤدي اليها مثل تلك الاختلافات المحتمل ظهورها ، وكذلك حتى يتم تحديد مجال العلاقات في الهيئة بالنسبة للقضايا المطروحة والتي يجب الوصول الى اتفاق بشأنها ، فان الحل هو ذلك (الذي اقترحته) عن طريق (خذ واعط) . وان الاعتراف المتجرد والحيادي هذا يدعمه النداء المميز الذي طرحه لورد هيلشام باسلوبه الساخر في مجلس اللوردات خلال شهر ايار (مايو) السابق ، حيث قال (يضمن الاسلوب الموجود حالياً ميزة حصول الحكومة عند مجابهتها لكل قضية تقريباً على تقرير اجماعي من القادة المحترفين الثلاثة) .

وصلتني رسالة مشتركة من قائدين توفرت لهما معرفة وثيقة باسلوب عمل الهيئات الفرعية وهما اللورد ميلن وسير رونالد شارل . وكان مضمون الرسالة يدعم بقوة قضية التفرغ الكامل لوزير الدفاع . ولكنهما المحا ضمناً الى ان باستطاعة الوزير ادارة الأمور دون حاجة لهيئة اركان مشتركة ، معتمداً فقط على امانة السر (السكرتارية) الموجودة في هيئة الدفاع الامبراطورية . وقد اقترحا ايضاً ان تعمل هيئة الدفاع الامبراطورية على وضع السياسة فقط ، إذ ان وضع الاستراتيجية وفرضها لا يدخل في دائرة اختصاصها ، وانما هو عمل من مسؤولية هيئات الاركان في القوى (الأسلحة) التي تتبع كل واحدة منها

وزيرها . (وان بالامكان الرد فوراً على هذا الاقتراح ، والقول انه من الصعب تكوين استراتيجية مشتركة من قبل اجنحة منفصلة ومستقلة بعضها عن بعض) . وعلى كل حال ، فالأمر الجدير بالملاحظة هو ان الخبرة التي اكتسباها قد حملت هذين القائدين المعروفين الى ادراك الحاجة لتفرغ الوزير المسؤول من أجل القضاء على كل صراع في وجهات النظر بين قادة الاسلحة (القوى) بشأن قضايا السياسة الدفاعية .

تحدثت في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) حديثاً طويلاً مع ترينشارد ، بعد استلام رسالته التي بعث بها الى صحيفة التايمز بتاريخ ١٦ ودعم فيها حججي التي جاءت في الافتتاحية . واعلمني (انه تلقى كثيراً من الدعم) . ولكنه قدم لي بعد ذلك معلومات تحمل مضموناً مزدوجاً فيه ما هو مشرق مضيء وفيه ما هو محزن ومؤسف .

لقد أصيب بذهول صاعق صباح الأمس عندما تلقى رسالة من (شخصية لها نفوذها الكبير جداً) وكان يعتقد باستمرار (انه من اكثر الشخصيات اتزاناً) (وعندما ذكرت له فيما بعد على سبيل التخمين بأنه ـ هانكي ـ كان رده ايجابياً) وان هذا قد بات وهو في اسوأ حال ، متذمراً من ان ترينشارد قد (طعنه في الظهر) . وعلى هذا فقد ذهب ترينشارد لمقابلة هانكي في الليلة الماضية فما كان من هانكي الا ان استقبله بتقريع مطول ، وقال له بانه ما من أحد يوافق او يقبل اقتراحاً يعالج سياسة وزارة الدفاع ؛ واتهم ترينشارد بانه يستمع الى ما يقال في النوادي من الثرثرة (القيل والقال) . الخ . . . الخ . . . وذكرت انه تكون لدي شهود منذ وقت طويل ومن خلال احاديثي مع هانكي انه يعارض تماماً كل تغيير ، ولكن على الرغم من ذلك فانني بوغتّ من ترك هانكي لنفسه حتى ينزلق الى هذا المنحدر ويسير في هذا الطريق . فكان رد ترينشارد بأن الناس يستخدمون الكلمات لتغطية افكارهم ـ واننا جميعاً نميل الى فعل ذلك ـ . ولكن عندما طرح ترينشارد اوراق من يحل محله ، ظهر هانكي للمرة الأولى امام ترينشارد وهو دون قناع . واتخذ بوضوح موقف الخصم معتمداً على وقوف بالدوين ضده .

كان ترينشارد يأمل في ان تستمر التايمز في حملتها لبعث الموضوع من جديد بعد عطلة عيد الميلاد . (وانه وبالأمس فقط بوغت عندما قال له احد مستشاري الجيش بانه لا يريد من ترينشارد الاستمرار فقط بطرح القضية ، وانما يريد ايضاً الاضطلاع بالعمل . وقال لي ترينشارد ايضاً بانه لا يفكر ابداً ان يضطلع بالعمل ، ذلك انه حتى ولو تم الترحيب بمثل هذا الاجراء في البداية ، الا انه يعرف بان صيحات الاحتجاج سترتفع

مباشرة ومن كل مكان لمجرد اتخاذ اول قرار ضد هذا السلاح او ذاك ، مما يتسبب بانهيار كل شيء .

انتقل ترينشارد بالحديث الى الاحتمالات الأخرى ، وعلى الرغم من اعجابه الكبير بتشرشل الا انه لا يريده قطعاً الاضطلاع بالعمل نظراً لقصوره في التقويم واصدار الاحكام . وافترضت بانه ليس هناك من ينافس بالدوين في قدرته على اطلاع تشرشل وتعريفه بالاعتبارات الصحيحة . ولكن ترينشارد طرح ملاحظة وهي ان بالدوين ذاته (يقوم احياناً بأمور غريبة) . وكان على حق عندما اعتقد ان تشرشل سيكون عضواً في الوزارة الجديدة التي ستأتي الى الحكم قبل الانتخابات العامة .

سألت ترينشارد عن رأيه في « آميري » فأجاب بأن الاعتراض ضد تشرشل ذاته ينطبق على آميري بمقدار يزيد قليلاً او ينقص قليلاً بسبب القصور في التقويم واصدار الاحكام . واستطلعت رأيه عن « سوينتون » فقال انه لا يعرف سوى القليل عنه ، ولو ان رأي الناس فيه بأنه جيد ، وكان ذلك صحيحاً تماماً . وعندئذ قال ترينشارد : وماذا بشأن واير ؟ . . . وكان يحمل له تقديراً كبيراً وذلك منذ ايام خصومته مع سايكس وقال ملاحظة ضمنها قسطاً كبيراً من النقد المر حيث قال (لقد كان واير افضل رئيس لهيئة الاركان في حين كان سايكس اسوأ امين عام للدولة) (وكان واير في حينها اميناً عاماً للدولة في حين كان سايكس رئيساً لهيئة اركان القوى الجوية)

لقد كانت هناك ، على كل حال ، حاجة كبرى لرئيس . ولم يكن هناك سبب ، عند الضرورة ، لتعيين وزير دون حقيبة وزارية لمدة سنتين من اجل اتخاذ القرارات الرئيسية . فالناس لا يعرفون كم تغيرت الاستراتيجية ، وقد تعودوا على اعتبار القضية انها قضية نقل فرق (مقاتلة) . ولكنها أصبحت الآن قضية سياسية . ويستطيع المدني ان يفهمها مثله كمثل الجندي سواء إن لم يفهمها بصورة أفضل منه . ولكن يجب ان تتوفر الحماية لمرؤوسيه ، بحيث يمكن له ضمان الترفيعين المتتاليين على لائحة الترفيع المتسارع لكل ضابط يتم تعيينه في هيئة الأركان المشتركة .

هناك حاجة حتمية لاتباع طريقة ما من اجل اتخاذ قرار يعالج القضايا الكبرى . وذلك عوضا عن طمس القضية بهدف تجنب الاختلاف ، على نحو ما يحدث دائما ، مما يؤدي الى اخطر النتائج . ولقد تعود رئيس الهيئة او هانكي على التجهم في كل مرة يظهر مخرج حقيقي ، وهذا ما كان يتسبب في سقوط القضية . وقد اعترف رامسي بهذه الحقيقة حديثا ، كما يعرفها أيضا بالدوين ولكن هيلشام هو وحده الذي ينكرها .

كنت قبل اربعة أيام قد تناولت طعام الغذاء مع دوف كوبر وذلك للمرة الأولى منذ تعيينه في وزارة الحرب ، ونظرا لأن القسم الاكبر من حديثنا قد تركز على قضايا الجيش ، فانه قد رجع إلى افتتاحيتي في صحيفة التايمز ، وناقشني بما تضمنته من نقاط تعالج التوجيه الأعلى للدفاع . وسجلت في يومياتي ما يلي :

. . . . يظهر انه يقوم تقويما صحيحا الحاجة لهيئة اركان مشتركة ، لكنه يشك في فكرة ايجاد وزير . فأين هو الرجل المناسب ؟ . . وانه على الرغم من اعجابه الكبير بمواهب تشرشل وكفاءاته ، إلا انه يجده غيرمناسب. وعلاوة على ذلك فانه يشعر بان اتخاذ القرار يجب ان يبقى دائما من صلاحية مجلس الوزراء ، وهو لا يهتم نتيجة لذلك بتنظيم أجهزة وسيطة . وافترضت ان تعيين احدهم يعمل بأية طريقة للقضاء على الاختلاف في وجهات النظر بين رؤ ساء هيئات الاركان قد أصبح على جانب من الأهمية ـ ان لم يكن عملاً أساسياً ، وذلك حتى يتم اعداد المقترحات المقبولة قبل تقديمها الى مجلس الوزراء .

كان هدفي الرئيسي وانا أبدأ الحملة مركزاً على المبدأ والتنظيم ، وكان يتفق معي في الرأي تماماً داوسون وبارينغتون وورد . ولكننا تناقشنا ـ وهذا امر طبيعي ـ في قضية تعيين الشخص المناسب لرئاسة الهيئة الجديدة للدفاع المشترك . وكنت أتجه في العمل لمصلحة تشرشل وتأييده ، ولكن داوسون وبارينغتون وورد ، رغم عدم معارضتهما لتشرشل ، فقد عبرا عن تلك الشكوك ذاتها في عدم ملاءمته للعمل المطلوب ، وهي وجهة نظر وجدت بعد ذلك من يؤ يدها حتى بين أقرب اصدقائه واكثر المعجبين به أمثال دوف كوبر وترينشارد وكذلك عدد من الأصدقاء الذين أصبحوا فيما بعد اعضاءِ في وزارته التي ترأسها خلال الحرب . وقد يكون من المثير للسخرية عند استعادة وجهات النظر هذه بشأن الشكوك المذكورة بكفاءة تشرشل لمنصب وزير الدفاع ١٩٣٦ ، حيث كانت سلطته محدودة ومقارنتها بما اظهره من كفاءة لا مجال لمناقشتها في ممارسة سلطات غير محدودة كرئيس لمجلس الوزراء وكوزير للحرب أشرف على القوى المشتركة جميعها في عام ١٩٤٠ .

كان داوسون في نقاشه الذي تحدثنا فيه خلال شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ يفضل دعم ليو آمري سواء كوزير أو كرئيس سياسي دائم للتنظيم الجديد وفقاً للطريقة التي حددتها في صفات الرئيس . ونظراً لانه لم يكن هناك ثمة مجال للبحث في دعم ترشيح تشرشل ، فقد ظهر لي ان الأشخاص التبادليين ممن تتوفر لهم كفاءة في الاختيار هما سوينتون وواير ، ولو أنني كنت قد اقترحتهما من قبل ايضاً .

رجع دوف كوبر الى الموضوع مرة اخرى عندما تناولت طعام الغذاء معه في ١٨

كانون الثاني (يناير) واراد ان يعرف ما اذا كان لدي المزيد من الأفكار بشأنها :

قلت بأنني على يقين من ضرورة تكوين هيئة اركان مشتركة يرأسها رجل مدني ، ووجدت ان معظم الناس يقفون لمصلحة وزير الدفاع الحالي ، ولكنني لا أزال أشعر ان هناك ثمة وزناً مضاداً لمصلحة تعيين رجل غير سياسي . سألني عما إذا كان هناك أي انسان يستطيع الاضطلاع باعباء هذا المنصب مهما كان الشكل الذي يأخذه . فقلت انني لم اهتم عن عمد اهتماما كبيرا بقضية فردية خاصة وذلك بهدف فصل القضية الفردية عن المبدأ عند دراسته ، وان الكفاءة الأساسية المطلوبة هي عقل قانوني يستطيع وزن البرهان بتجرد ، ومن الأفضل ان تكون لديه معرفة شاملة للموضوع . وقد اعترف دوف كوبر اعترافاً تاما أن الصعوبات الحالية انما تعود بجذورها الى الانحراف الذي كان قد شاهده عندما عمل لفترة قصيرة في وزارة الحرب . وقد نسب ذلك الى تأثير الوزير . واخيرا فقد كان من عمله كرئيس لهيئة الدفاع عن الامبراطورية ان يعبر عن وجهة نظر مستشاريه .

أوضحت بقوة مدى الحاجة لهيئة تخطيط مشترك .

تابع دوف كوبر حديثه في موضوع رئاسة الهيئة الجديدة - وسألني رأيي عن وينستون ؟ . . . فعبرت عن بعض الشكوك ، فتابع دوف كوبر القول حيث ذكر انه رغم كون تشرشل هو واحد من افضل اصدقائه وأعظمهم ، إلا أنه يشك في ان يكون هو الشخص المناسب ، إذ أنه يريد ان يكون مع البحرية بكل قواه في فترة من الوقت ثم يريد ان يكون مع القوى الجوية تماما في فترة اخرى . وان حماسته هذه هي سبب استبعاده . وزيادة على ذلك ، فانه لا يستطيع جمع الجزئيات بسرعة لتكوين القرار المناسب . واستمر دوف كوبر ليظهر رأيه في وينستون (الذي بلغ هذه المرحلة من العمر ، بعد ان شغل أرفع المناصب ، بحيث انه وصل الى مرحلة التكوين الفلسفي ، وأصبح اكبر رجل دولة من حيث العمر قد ينصرف الى التفرغ لكتابة الادب . وانتقل دوف كوبر الى الاسلوب الادبي الذي تميز به تشرشل ، وابدى ملاحظة وهي انه أفسد هذا الاسلوب عن طريق الاملاء ، فأصبح اسلوبه مرنا ومنمقاً . ووافقت على ذلك ، وذكرت ان هذه الملاحظة تظهر بوضوح عند مقارنة كتبه الأخيرة بكتابة القديم (نهر الحرب) . وكان دوف كوبر يعتقد ان وينستون قد أنجز أفضل أعماله بأفضل اسلوب له في كتابه (حياتي المبكرة) .

لقد أصبحت وجهة نظر دوف كوبر والتي وصل اليها بضرورة تقاعد وينستون تشرشل والانصراف الى (حديقته الادبية) هي نظرة ذات نكهة حلوة وطيبة وذلك على ضوء ما أظهره تشرشل من فاعلية ونشاط في السنوات التالية . تلقيت خلال هذه الاسابيع

كثيرا من البراهين تمثل الدعم المتعاظم لحملتي ، كما تلقيت ايضا برهانا جديدا بالحاجة اليها ولعل افضل تقويم في هذا المجال هو ذلك المقطع الذي تضمنته رسالة تيم بابل ، وكان أثناءها قائداً للواء قناة (السويس) في مصر :

أشعر بالبهجة وأنا أرى ما سببه المقال الافتتاحي فعلا حيث أيقظ الناس وحملهم على التفكير ، وآمل أن تستمر في حمل المطرقة للضرب بها على الموضوع . . .

. . . انك لو كنت معنا خلال الأشهر الاربعة الأخيرة لصعقت لما نحن فيه ، فالمرء يتمنى دائماً ان يرى وزارة الحرب ووزارة البحرية وهما تعملان بنظام ، ولكن عندما يتحدث رئيس مجلس الوزراء او يكتب (فاننا نشعر ان اضطراب ـ القدرية ـ سيصيبنا) فأرجوك ارسال مخطط لمعالجة هذه الحالة . ان على المرء السير الى الوثائق المحفوظة التي تحمل علامة (القدرية) ليسحب منها مخطط التنظيم ، ثم ليعفره بالتراب ، وليرفعه بعد ذلك الى رئيس مجلس الوزراء . ولكن من الطبيعي ألا يحدث مثل ذلك ، وحتى لو حدث فانه سيصطدم بالعقبات . . . . والايطاليون هنا يسببون متاعب لا نهاية لها للقوات المسلحة البريطانية ، وملايين الجنيهات تتدفق هدراً دون طائل بسبب عدم وجود اي مخطط لتنسيق التعاون ومعالجة هذا الموقف . . .

كتبت افتتاحية اخرى نشرت في ٢ كانون الثاني (يناير) وذلك بهدف المحافظة على القوة الدافعة للهجوم (الزخم) . ثم أتبعتها بافتتاحية ثالثة في ٤ شباط (فبراير) وبرهنت هذه الحملة على صحة توقيتها ، ففي تلك الفترة تطوع لمقاومة الاصلاح الأمين العام الدائم لوزارة المالية ورئيس الخدمة المدنية وهو السير وورن فيشر ، وقد علمت ان ترينشارد وهانكي ووورن فيشر قد انضموا جميعا لمعارضة كل تغيير في النظام الحالي . وان هانكي قد ضغط على رؤساء هيئات أركان القوى الثلاث[٣] لتوقيع مذكرة تتضمن (انهم على رضى تام مع النظام الحالي) . ولكن الضغط المتصاعد من اجل الاصلاح وصل الآن في البرلمان والاوساط الجماهيرية الواسعة الى درجة كبيرة من القوة هزت بالدوين من سباته وأقنعته انه من المستحيل الانتظار لفترة أطول دون اجراء تغيير أو تطور ، وأن كل تأخير في ذلك سيدمر ثقة الجماهير بحكومتها .

صدر عن الحكومة في نهاية شهر شباط (فبراير) بيان يعلن انه يجب تعيين وزير لتنسيق التعاون الدفاعي . وسيتم ترشيحه من قبل رئيس مجلس الوزراء كرئيس (أو عميد) لهيئة الدفاع الامبراطورية وللهيمنة على فعالياتها ونشاطاتها كلها . وسيرأس اجتماعات رؤساء هيئات الاركان في اللجان الفرعية في كل مرة يجد هو أو رؤساء هيئات

الاركان ضرورة لذلك . كما يضاف الى مسؤ ولياته ايضا عبء ثقيل وهو (المسؤ ولية العليا لتنظيم الامداد العاجل والتخطيط الصناعي) . والعمل في الوقت ذاته على دعم هيئة التخطيط المشتركة للاسلحة الثلاثة (البحرية والبرية والجوية) وذلك باضافة ثلاثة اعضاء من القادة المؤ هلين في كلية الدفاع الارضية ، وتنظيم امانة سر (سكرتاريه) دائمة . وتلك هي نواة هيئة الاركان المشتركة ـ ولكنها كانت هيئة اركان صغيرة جداً بالمقارنة لمستوى المشكلات التي كانت تنتظرها لارتيادها وايجاد الحلول المناسبة لها .

أعلن في وقت مبكر من شهر آذار (مارس) عن تعيين النائب العام السير (توماس اينسكيب) للمركز الجديد كوزير لتنسيق التعاون الدفاعي . وقد تم اقناع بالدوين لجعل هذا التعيين بمثابة خطوة جانبية وجوهرية لاحباط المقاومة وابطال كل تأثير عملي للتنظيم الجديد . وصدر عن تشرشل في تلك الفترة تعليق ساخر وصف فيه هذا الانتقاء (أنه من أبرز التعيينات على الاطلاق وذلك منذ عين الامبراطور كاليغولا حصانه كمستشار) .[٢]

كما جاء في مذكرات تشرشل عن الحرب تعريض « باينسكيب » ولكن باسلوب مهذب وساخر حيث قال عنه (ان ميزاته هي أنه لا يعرف سوى القليل عن نفسه ، ولا يعرف شيئا عن المواضيع العسكرية) . وقد وجدت عندما تحدثت الى (اينسكيب) للمرة الأولى انه غارق جداً ، وانه مخدوع بقضايا لم يعمل ابداً على دراستها ، في حين انه كان يدرك تماما العقبات التي تعترض سبيله وهي عقبات القيود في هيئة الاركان والقيود التي تحدد مجال الرؤ يا . وكان للقيود المفروضة على مكتبه ابعاد واسعة تتصل بمقاومي الاصلاح للقضاء على كل أثر له .

لقد حدثت تطورات هامة ، على كل حال ، في عدد من المجالات . ويمكن ابرازها من خلال حديثي مع آدم وباجيت في شهر أيار (مايو) ومنها : .

قال آدم ان هيئة التخطيط المشتركة قد أصبحت بعد توسيعها تعمل بصورة جيدة جدا . (وقد بدأ العمل في الارث المتراكم) . وان اكثر الامور اهمية هي البحث في مشكلة حماية التجارة عبر البحار الضيقة .

انه يعتقد ان جهاز تنسيق التعاون الجديد مؤ هل ليعمل بنجاح ، وذلك ان احدى ميزاته الأساسية الآن هي تعيين وزير يستطيع تمثيل وجهة النظر المشتركة أمام مجلس الوزراء ، وتصحيح انحراف وزارة الخارجية الخ . . . وهم يأملون ايضا في وضع مخطط واضح للسياسة الخارجية ، وهو ما يمثل حاجة ملحة وعاجلة لكل تخطيط .

تكونت هيئة التخطيط المشترك من آدم ممثـلاً للجيش ورئيس التخـطيط في وزارة الطيران « هاريس » ممثلا للقوى الجـوية ورئيس التخـطيط في البحـرية « الادميراليتي » فيليب ، ممثلاً للقوى البحرية . وقد تم تعيين ثلاثة من القادة المؤهلـين في كلية الدفـاع الامبراطورية وذلك للعمل كمساعدين لممثلي القوى « فـكان دوينـغ مساعـداً لآدم » ، وكانت الهيئة تعقد اجتماعاتها بمعدل اربع مرات في الاسبوع ، في حين كان المساعدون الثلاثة في نقاش دائم طوال الوقت ، وقد خصص لهـم مكتـب خاص في هيئـة الدفـاع الامبراطورية ، ولهم مكاتبهم ايضا في الوزارات .

اتفقت وجهات نظر باجيت وآدم على ضرورة تنظيم هيئة استخبارات مشتركة تعمل بطريقة مماثلة . ولكن باجيت كان يفكر في ان التنظيم الحالي كافٍ في الوقت الحاضر في حين كان آدم يعتقد ان هنـاك حاجـة لتـوسيع قاعـدة العمـل في اطـار (جنـاح استخبـارات مشترك) .

كنت حريصاً جـداً على متابعة تطور التدابير الجديدة حتى تصل الى الأهداف التي طالبت بها (ولكنها لم تتحقق حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث تم تبنيها بكاملها عند اعادة التنظيم الدفاعي في العام ١٩٤٦) . وقد طالعت بمشاعر مختلفة تقرير المناقشة التي جرت في مجلس العموم بتاريخ ٤ ايار (مايو) ١٩٣٩ حيث قرأت أن مستر ـ سميث قد تحدث عن حزب العمال ، فرجع الي ليقول (انني الخبير العسكري الذي تجـاوز كل ما عداه في التأثير على المجلس ودفعه لتكوين وزارة تنسيق التعاون الدفاعي) .

ان أقل ما يمكن قوله هو ان الحملة قد وصلت الى نتائج اسرع بكثير مما وصلت اليه في أية تجربة بذلت فيها جهداً للأصلاح ـ مما يظهر ان القضية لم تكن قد نضجت خلال تلك الفترة فقط ، وانما يظهر ايضا ان التوقيت في طرح القضية كان صحيحا .

كما يمكن ايضا وصفها بأنها حملة أصيب فيها رجل واحد ، وكنت انا الذي أصيب في الحملة . ففي بداية عام ١٩٣٥ كان هناك بعث لعرض ـ سبق ان أشرت اليه في الفصل التاسع ـ وكان هذا العرض يهدف لتعيين أمين سر منتخب في هيئة الدفاع الامبراطورية ـ لخوض الصراع من اجل التطورات الجديد في ذلك المجال ـ وسمعت انه كان يتردد في الاوساط القيادية ذات الصلة بمجلس الوزراء « انني كنت افضل مرشح لهذا العمل » . ولكن تلك الأقوال لم تترك في ذهني أي تفكير في هذا المنصب ، ذلك انه على الرغم من التقدير الكبير الذي كان كثيرا ما يرد في تعبير هانكي للثناء على فكري العسكري ووصفي (بالاستراتيجي الكبير) الا انني كنت اعرف انه لا يرحب بفكرة وجود عضو منتخب الى

جانبه يساعده على حمل الاعباء الثقيلة للدفاع ولكن عند عودتي من فرنسا بعد زيارتي لها في أيار (مايو) ، اتصل بي عدد من الاصدقاء في وزارة الحرب ، أو بعثوا لي برسائلهم ، لتهنئتي على تعييني في هذا المركز الجديد ، واعلموني ان اخبار التعيين قد انتشرت في كل مكان وكان كل ما باستطاعتي اخبارهم به هو أنني لم أتلق أي اعلام رسمي عن هذا التعيين ، (الذي لم يحدث ابداً) ويبقى ما حدث بعد ذلك سراً من الأسرار الغامضة ، ولكن من المحتمل ان تكون اعتراضات هانكي على تعيين عضو منتخب بأي شكل من الأشكال هي السبب في تأجيل التعيين الى موعد آخر واستطيع التأكيد الآن ، وانا انظر الى الوراء ، ان مقالتي الافتتاحية في صحيفة التايمز في آذار (مارس) ١٩٣٥ ، والتركيز على ضرورة تطوير التنظيم الموجود لتنسيق التعاون ، قد الحقت به الأذى وأصابته بأكثر مما نقله الي عند لقائنا بعد عشرة أيام وزاد الأمر سوءاً في نظره ـ ما تضمنته سلسلة افتتاحياتي في فصل الشتاء من تلك السنة ـ وذلك بحسب ما ظهر عليه عند تفجره غيظاً امام ترينشارد ونتيجة لذلك كله فقد اختفى كل أمل في قبول ترشيحي كمنتخب للعمل معه

لم يلبث مجلس الوزراء ان ارغم هانكي في نيسان (أبريل) ١٩٣٦ على قبول تعيين عضو منتخب ، فاختار مكرهاً العقيد هـ ل ايزمي ، مساعده الأسبق في عام ١٩٢٠ لاشغال المنصب ومضت فترة أربعة أشهر ايضا قبل ان يبدأ « ايزمي » عمله احتل « ايزمي » في أقل من سنتين بعد ذلك مكان هانكي كأمين عام لهيئة الدفاع الامبراطورية وكأمين عام لمجلس الوزراء الذي يرأسه ادوارد بريدج وقد بقي المركزان منفصلان على نحو ما كانا عليه منذ زمن بعيد ، وكان يجب دمجهما ، لكن مقاومة هانكي لوضع حد يقيد من فاعليته ونشاطاته أعاق هذا الدمج وسجل « ايزمي » في مذكراته (انه لم يكن لدى هانكي متسع كبير من الوقت ليتفرغ لامور هيئة الدفاع الامبراطورية)

لقد كان من المحتمل ان استطيع الاسهام في تقديم بعض الافكار الجديدة ، وأن احقق تقدماً أسرع ، لو تم تعييني كعضو منتخب لمساعدة هانكي في مجال الدفاع ، على نحو ما طالبت به في كثير من المرات اعتبارا من عام ١٩٣٢ والى ما بعد ذلك ، ولكن « ايزمي » كان افضل مني بكثير في قدرته على « تزييت » الجهاز الرسمي ، وازالة العقبات استأنفت فوراً الصلة القديمة بعلاقتي السعيدة مع هانكي ، وذلك قبل ان يترك منصبه بوقت طويل واستمرت علاقتنا حتى وفاته في عام ١٩٦٣ وكانت وجهات نظرنا تتطابق في كثير من الاحيان بالنسبة للقضايا الاستراتيجية وقضايا الاستراتيجية العليا كما اننا كثيراً ما كنا ننسق التعاون فيما بيننا للخروج من المشاكل التي كانت تظهر اثناء الحرب وفي سنوات ما بعد الحرب

□ حواشي الفصل الثالث عشر □

١) العقيد ديك اوكونر ـCOLONEL. R. N. O'CONNER هو الذي تولى في عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ قيادة قوة الصحراء الغربية ، وقاد الحملة التي مزقت الجيش الايطالي في شمال افريقيا

٢) كان رؤساء الاركان في هذه الفترة هم قائد الاسطول سير الفريد شاتفيلد والفيلدمارشال سير أرشيبالد ـ مونتغومري - ميسينغبورد وقائد سلاح الجو سير ادوارد الينغتون

٣) (الامبراطور كاليغولا CALIGULA هو امبراطور روماني ، ولد في انتيوم ١٢ ـ ٤١ ب م وحكم في الفترة بين ٣٧ و٤١ م وكان ابن جيرما نيكونس وأغريبين ، أصبح شبه مجنون ، ودفعته القسوة حتى اصبح يتمنى انه لو لم يكن للشعب الروماني سوى رأس واحد حتى يقطعه بضربة واحدة ، ودفعه الجنون ليجعل من حصانه مستشاراً ، ومن اقواله (ليكرهني الشعب ، فلا أهمية لذلك ، ولكن يجب ان يخافني) (المعرب)

الفصل الرابع عشر
القيادة البحرية والجوية

استمرت المناظرة الحادة بشأن فاعلية القدرة الجوية وتأثيرها على امتداد العقدين ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية . لكن تلك المناظرة أصبحت اكثر قوة عندما بدأت عملية اعادة التسلح بعد وصول هتلر الى السلطة في المانيا ، وأصبح لزاماً على الحكومة البريطانية اتخاذ القرارات بشأن الموازنة الدفاعية ، وتوزيع المخصصات المالية على القوى الثلاث « البحرية والبرية والجوية » . وكان من الطبيعي أن تحرص كل قوة من هذه القوى على اكبر حصة ممكنة . وكانت طلبات القوات الجوية تتعارض مع طلبات القوتين الأقدم منها ، وبصورة خاصة مع القوى البحرية . وأصبح المخرج من هذه الازمة على درجة كبيرة من الخطورة لدى طرح قضية « عمل قاذفات القنابل ضد القطع البحرية » وكان لدى المتحدثين المحترفين في مثل هذه المناظرات المتضادة ، القدرة الكاملة على طرح ذرائعهم مستندين في ذلك الى فرضيات غير صحيحة يتم اشتقاقها من تجارب تصمم بطريقة تضمن دعم قضية القوى أو الأسلحة التي يمثلونها والتي ينتسبون اليها .

استفادت القوى البحرية من تعيين أمير البحر (الاميرال) شاتفيلد في عام ١٩٣٣ ، لمنصب لورد البحر الأول ورئيس هيئة الاركان ، وقد استمر في منصبه حتى العام ١٩٣٨ ، وكان تأثيره الشخصي أقوى من تأثير رؤساء هيئة اركان القوى الجوية الثلاثة الذين تعاقبوا خلال تلك الفترة . وقد عملت بوجهة نظر شاتفيلد عن طريق المؤرخ الرسمي لحملة الدردنيل . الجنرال آسبينال ـ اوغلاندر ، الذي اجتمع الى

شاتفيلد فور تعيينه ، خلال حفلة عشاء ، حيث طرح على لـورد البحر الأول سؤ الاً بشأن الخطر الجوي في حرب المستقبل ، فكان رده نفي هذا الخطر والقول (ان ذلك كله مجرد هراء ، وان ما نريده هو القطع البحرية الحربية) . كما كان عادة ما يطرح وجهة نظره بمزيد من التفصيل وبطريقة مقنعة تستند الى فرضية مثيرة ، ولو انها لم تتعرض للبحث المباشر او الدراسة الوثيقة .

وصلتني معلومات كافية في مناسبات مختلفة عما طرحه شاتفيلد من ذرائع على مائدة العشاء في الحفلة التي أقامها ، وكذلك القضايا المختلفة التي استمع اليها بعض اولئك ممن حضروا الحفلة ، بحيث انني رجعت اليها في مناسبات كثيرة خلال السنوات التـالية ، وذلك بهدف ابراز التناقضات الحقيقية في تلك الافتراضات المزعومة التي تحتمل كثيرا من الجدل والنقاش والتي طرحت باسلوب يمتزج فيه الاقناع بهيبة المسؤ ولية .

لم تدعم تلك التجربة ثقتي في اقدام الحكومة على دراسـة موضـوعية لمشـكلات الدفاع المشتركة عندما عمل تشامبرلين على تعيين شاتفيلد وزيرا لتنسيق التعاون الدفاعي في شباط (فبراير) ١٩٣٩ عوضا عن الوزير السابق « اينسكيب » . ولقد كان شاتفيلد يوحي بقدر كبير من الثقة ، إلا فيما يتعلق بوجهات نظره عن الحقائق التي قد تتناقض مع محبته لسلاحه « البحري » . . وأمكن تجاوز هذه الارضيات كلها في بداية نيسان « ابريل » ١٩٤٠ ، عندما طلب الى شاتفيلد بصورة مباغتة تقديم استقالته ، والغي منصبه وتسلم وظائفه واعماله وينستون تشرشل ليضطلع بها علاوة على مسؤ ولياته الأخيرة كلـورد أول للبحرية . وقد تم هذا التغيير في عشية الغزو الألماني للنروج ، وأنقذ شاتفيلد في اللحظة الأخيرة من معاناة اللوم والتقريع نتيجة لاستجابته العمياء ضد التحرك الألماني المعادي . وعلى كل حال فقد تركت الطريقة التي حمل فيها على الاستقالة رائحة كريهة رافقها كثير من الغلظة والقسوة .

عملـت على استرجـاع طريقـة اتخـاذ القـرارات الدفـاعية ، واسلـوب تخصيص الموازنات والمخصصات المالية ، وكذلك العوامـل المؤ ثـرة خلال الفتـرة ما بـين الحربين العالميتين الأولى والثانية ـ وبصورة خاصة عندما بدأت عملية اعادة التسلـح ـ فقادتنـي ملاحظتي للتفاعلات الى ان العامل الاول الذي كان يعتمد عليه هو (القدرة على اقامة الحفلات الخارجية) وليس تقويم النفقات على اساس ظروف حرب المستقبل . وكان هذا العامل « أثقل وزناً » من « بارود المدافع » أو « قدرة القنابل » كما كان من الواضح جداً ، ان قدرة قيادة البحرية « الأدميراليتي » تتفوق تفوقاً حاسماً على قدرة القيادة الجوية او الأرضية في (اقامة الحفلات للدوائر الحاكمة) .

توصلت ايضا الى قناعة اكيدة ، وهي ان نظرة القسم الاكبر من قادة البحرية تجاه القيمة الخاصة للقطع البحرية او الطائرات ، لم تكن في اساسها نظرة الى « القضية التقنية » بقدر ما كانت مركزة بصورة اكثر على « القضية الروحية » أو المعنوية . فقد كان قادة البحرية هؤلاء يمجدون قطع الاسطول بحماسة دينية ، كعنوان لعقيدة رفض كل اختبار علمي أو دراسة علمية . وكانت حماقة البحارة واصرارهم على عدم رؤية الحقائق الواضحة جداً امام بصر كل انسان لا ينظر بعاطفته ، هي من الامور التي لا يمكن تفسيرها الا من خلال فهم المكانة التي تحتلها « القطع البحرية » في قلوبهم . ولقد كانت القطعة البحرية بالنسبة لقبطانها « الأميرال » مثل الكاتدرائية بالنسبة لراعيها وقسيسها .

لقد عالجت برفق كبير هذه الملامح المميزة للبحرية ، من خلال مقالة عن القضايا الدفاعية الشاملة (ككل) . ونشرت هذه المقالة الافتتاحية في صحيفة التايمز بتاريخ ١٤ آذار (مارس) ١٩٣٥ وجاء فيها :

ان استعادة قوتنا البحرية ، بالنسبة للاساطيل الاخرى ، يتطلب تخصيص موازنات مالية ضخمة ، على ان تخصص الزيادة ـ يقينا ـ لتلبية سباق التسلح الذي يتطور بخطوات حثيثة . ولكن حتى لو تم افتراض تحقيق ذلك والوصول الى رصد المخصصات المالية الضرورية ، فاننا قد لا نعود الى المستوى الذي كانت عليه بحريتنا القديمة بسبب تغير الظروف . وقد تتوفر لنا القدرة لحماية طرقنا البحرية ـ بالاعتماد على قوة كافية من الطرادات ـ ولكننا لا نستطيع الاعتماد على حماية الموانىء النهائية عند الوصول ، او حماية طرق الاقتراب البحرية الضيقة حيث تلتقي تلك الطرق البحرية . ولقد كانت قدرتنا البحرية في الحرب الماضية لا تكاد تكفي لأكثر من حراسة خطوط تموييننا ضد تهديد مجموعة صغيرة من الغواصات التي كانت تعمل تحت ظروف صعبة وفي شروط استراتيجية غير ملائمة . أما الآن فقد تضاعف تهديد الغواصات اضعافا بسبب تلك القواعد ـ الساحلية للطيران ، وبسبب السرعة الكبرى للطائرات الخفيفة (وهو الاتجاه الذي اخذت تسير بموجبه اقطار اوروبية كثيرة لتطوير قدراتها وزيادة فاعلية قواتها) . وان هذه العوامل الجديدة حتى لو تم تقدير الحد الأدنى من اهميتها ، فانها قد وصلت الى مرحلة خطيرة من التعقيد بالنسبة لمشكلة انقاذ طرق تمويننا وحمايتها . وزيادة على ذلك ، ومهما كان عليه الشك في احتمال التأثير المباشر للهجمات الجوية على المراكب البحرية ، فانه ما من شك في ان للتهديد الثلاثي الجديد تأثيراً جدياً وغير مباشر على تجميد الاسطول ، وعلى تحرك زوارق نقل الجنود ـ وربما كان من الحكمة عدم نسيان ان تهديد الغواصات وحده ، قد أنقص قدرة الاسطول ـ المقاتل ، ودفعه الى حالة الشلل الاستراتيجي الموضعي في بعض مراحل الحرب الأخيرة .

تلقى داوسون بعد ذلك بايام قليلة مذكرة من لورد البحر الأول مع (رسالة الى رئيس التحرير) يناقش فيها تلك الاستنتاجات المعتدلة ، وطالبا نشر الرد تحت توقيع مجهول (بحار) . وقد ضمن لي ذلك النقاب الذي اسدل على اسم المؤلف لاخفاء هويته ،مزيداً من حرية العمل في نشر الاجابة لايضاح العيوب في رسالة (البحار) وكشف الثغرات في تاريخ البحرية .

تعاظم خطر الحرب مع ايطاليا بشكل مباغت وذلك بعد خمسة اشهر ، بسبب الاستعدادات الواضحة التي اتخذها موسوليني لغزو الحبشة « اثيوبيا » . مما أدى الى ظهور باكورة العرض للنقاط التي ابرزتها في مقالتي . وزيادة على ذلك ، فقد أكدت التحذير الاكثر وضوحا والذي كنت قد أطلقته قبل ذلك بعشرة أعوام في كتاب باريس أو مستقبل الحرب .

كنت قد افترضت في ذلك الكتاب الصغير « الكتيب » الذي صدر عام ١٩٢٥ ، ان الخلاف بشأن القنبلة ضد القطعة البحرية ، أوالنسيفة، « الطوربيد » ضد المدفع ، انما يتجه نحو نهاية النقاش الحماسي في موضوع وسائط القتال . وذكرت انه يجب علينا (توجيه مسيرتنا نحو محيط الاستراتيجية العليا) عوضا عن التورط في نقاش لا نهاية له في موضوع القيم الفنية - التقنية - وأهميتها . ففي الوقت الذي لا زالت فيه قدرة الاسطول وسيطرته هي العليا فوق مياه المحيطات ، يظهر لنا بوضوح ان هناك حاجة لأسلحة جديدة واكثر تطورا للعمل في البحار الضيقة وذلك لتلبية المتطلبات الاستراتيجية . وتبقى (قضية المستقبل الهامة والحيوية هي في كيفية الانتقال بهذه القدرة الى البحار الضيقة للتأثير على الموقف الدولي والعالمي ، لا سيما وأن بريطانيا العظمى معنية بالاهتمام في هذين المجالين من مجالات القدرة البحرية) . وقد عملت على دراسة اعباء البحرية البريطانية وواجباتها في حماية المياه الاقليمية حول الجزر البريطانية ، ثم انتقلت الى البحر الابيض المتوسط حيث يمثل هذا البحر قناة بحرية ضيقة ومستطيلة تخترقها شرايين اتصالاتنا مع الشرق ، وحيث تحتشد فيها الآن قوتنا البحرية الرئيسية . وأوضحت أن على قطعنا البحرية الحربية منها او التجارية المرور عبر هذه القناة الطويلة لمجابهة - بعد ذلك - ما هو أسوأ - وهو المرور خلال ثقب عند طرفي القناة (من مضائق جبل طارق وقناة السويس) هذا بالاضافة الى ذلك « الرسغ المتمعضل » في منتصف البحر ما بين صقلية وتونس حيث لا يزيد عرض جبهة المرور عن تسعين ميلاً ، وأشرت الى ان باستطاعة الغواصات الانطلاق من الموانىء الأوروبية أو الأفريقية لقطع هذا الخط الوحيد والطويل من خطوط المواصلات البحرية البريطانية . وطرحت بعد ذلك المشكلة وهي :

ليس من الواضح تماما احتمال ظهور قدرة بحرية في البحر الابيض المتوسط لتكون في عدد القوى المعادية لبريطانيا وذلك عند اندلاع حرب في المستقبل . وعندها سيجد الاسطول البريطاني نفسه في مواجهة صعوبات كافية لتأمين الحماية الذاتية ضد الغواصات . فهل ستترك قوافل النقل التجاري والوسائل البحرية لنقل الجند وحدها دون حماية ؟ . . . ذلك ان اضافة تهديد قوة الغواصات الى ما تمثله قدرة الطائرات الهجومية من تهديد ضد قوافل النقل في البحار الضيقة ، انما يعني ان الوقت قد حان حتى يستيقظ الشعب البريطاني على حقيقة توقف المرور عبر البحر الأبيض المتوسط في حال ظهور مثل هذه الحرب ، وانه يجب التخلي عن هذا الشريان الحيوي الهام . وتفقد (قناة السويس) بذلك (قسما كبيرا من اهميتها ـ كمصدر قوة استراتيجية ـ في مواجهة البحرية الحديثة والتطور الجوي ـ وعلينا في مثل هذه الحرب اقفال طريق البحر الأبيض المتوسط ، واللجوء الى طرق مواصلاتنا الامبريالية حول رأس الرجاء الصالح .

لم أكن الرجل الوحيد الذي وجه نقداً ، بهدف ايقاظ الانتباه وتوجيهه نحو هذه الاخطار وذلك خلال العقد التالي . هذا مع العلم ان الاسطول البريطاني الرئيسي قد بقي متمركزا في مالطا عندما تطورت الأزمة مع ايطاليا في عام ١٩٣٥ ، ولم يتخذ أي اجزاء عمليا من اجل الاستعداد (لتحويل) الطريق حول رأس الرجاء الصالح لتأمين مواصلاتنا البحرية . ولكن تم تحت ضغوط الطوارىء توجيه قسم من قوة النقل الواردة من الشرق ، والتي كان من المفروض مرورها في الحالات الطبيعية من قناة السويس ، وذلك للالتفاف من حول رأس الرجاء الصالح ، كما اتخذت خطوات عاجلة لارسال احتياطياتنا الى القواعد المنتشرة على امتداد ذلك الطريق ، ولكن ظهر بصورة واضحة جداً ان التخزين والمستودعات والتسهيلات في الموانىء تحتاج كلها الى توسيع كبير فيما اذا تطلبت الحاجة ارسال اساطيل النقل البحري بكاملها عن ذلك الطريق . كما ظهر ان القواعد البحرية في حاجة للتجديد والتطوير والصيانة . .

تلقيت رسالة من القائد الأعلى للهند سير فيليب شيتوود وذلك في شهر آب (اغسطس) ، ويعتبر مضمون تلك الرسالة مثلا يوضح الموقف العقلي المسؤول عن اهمال مثل تلك الاحتياجات الواضحة لتدابير الحيطة ، وجاء فيها (اخشى ان تكون قد حشوت اذهان الحكومة والجماهير في الوطن بالدعاية للقوات الجوية على ما هو واضح . . . وهناك طريقة واحدة يمكن بواسطتها للقوات الجوية ربح الحرب وهي قصف النساء والاطفال بالقنابل ، ولكن ذلك لن يحمل امة عظيمة على الركوع ، وانما يحمل فقط الامة المتخلفة على الجثو على ركبتيها . انك تعرف جيداً ارتفاع اصوات البحرية حاليا وهي

تضحك على القوى الجوية ولقد أصبح لدى البحرية أرصفة محمية كما ان البحرية لا تشعر بأدنى خوف مع ما يتوفر لها من « دروع لحمايتها » ومدافع عديدة ومدفعية مضادة للطائرات متعددة السبطانات)

في اعقاب وصول هذه الرسالة بفترة قصيرة ، غادر الاسطول البريطاني مالطا ، خوفا مما لا خوف منه فقد اعلمت قيادة البحرية « الادميراليتي » مجلس الوزراء بصورة مباغتة أنها لا تستطيع الاحتفاظ بالاسطول هناك وتحمل مسؤ ولية المجازفة وقد كان هذا القرار على جانب كبير من الحساسية ، ذلك ان القاعدة البحرية تقع ضمن مجال عمل القواعد الجوية الايطالية ، وكان في بقاء الاسطول البريطاني هناك ضرب من المغامرة ، نظرا لأنها عرضة هناك للهجمات المباغته العنيفة التي قد تقوم بها قاذفات القنابل او الغواصات الكامنة في ملاجئها ولكن الأمر الذي تجدر ملاحظته هو استيقاظ لوردات البحر بسرعة لرؤ ية الحقيقة ، وكبت وجهات النظر الازدرائية بشأن فاعلية مثل هذه الأسلحة وتأثيرها ، وهي وجهات النظر التي عبروا عنها حديثا في حفلات العشاء التي كانوا يقيمونها في لندن وهكذا انسحب الاسطول الى الاسكندرية حيث النهاية القصوى للبحر الأبيض المتوسط . وكان باستطاعة الاسطول هناك اقفال الطريق أمام وسائط النقل البحري الايطالية الى مسرح عمليات الحبشة « اثيوبيا » وذلك في حال موافقة الحكومة البريطانية والدول الأخرى على مقاومة العدوان الايطالي ، ولكن كانت هناك صعوبة في المحافظة على طريق مرور حر لقوافل النقل البحري الخاصة ببريطانيا اثناء عبورها للبحر الأبيض المتوسط .

كانت رسالة شيتوود مميزة ، لا لأنها نموذج فقط للحوافز التي تعيق التقدم وانتشار المعرفة بسبب أفكار العسكريين السلفية ضد التجديد ؛ ولكن لأنها أيضا تظهر كيف أن اولئك الرجال ذاتهم ، والذين تقع عليهم مسؤ وليات اكبر المشكلات الدفاعية يستطيعون عبر تدريبهم ، تركيز انتباههم على مجرد التفاصيل التعبوية (التكتيكية) ، وعلى هذا كان باستطاعتهم ادراك الحقيقة وهي ان أمن الاسطول يتعلق بأمن قواعده ، لا بمجرد ما يتوفر للاسطول من مدافع ودروع وبقي بعد ذلك كله ما هو اكثر اهمية في الموضوع ، ذلك ان واجب الاسطول ليس مجرد تأمين الوقاية لنفسه وانما ضمان الأمن للطرق البحرية

تعاظم القلق في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بشأن خطر الهجمات الجوية على الاسطول في البحر الأبيض المتوسط ، وأصبحت قيادة البحرية (أدميراليتي) غير مرتاحة بشأن موقفها حتى بالنسبة لقواتها في الاسكندرية فقد هيمنت عليها المخاوف من ارتداد موسوليني الى موقفه الخاص اذا ما ظهر احتمال فشل غزو الحبشة ، واعتماده على خيار

(الذهاب الى اعماق جهنم) والهجوم على اسطولنا ، بحسب ما أشار اليه . وقد كانت هناك تقارير للمخابرات عن تنظيم موسوليني لقوة (النصر او الموت) تتكون من مائتي طائرة قاذفة من اجل الاضطلاع بهذا الواجب ، وكانت هذه القوة تضم الطائرات الجديدة من نموذج س ـ ٨١ والتي كان يتم انتاجها بمعدل ٢٠ وحتى ٣٠ طائرة شهريا . وكان نصف الشعاع العملياتي لهذه الطائرة ـ بحسب معلوماتنا ـ هو في حدود ٤٨٠ ميلاً مع حمولة من القنابل تعادل ألف ليبرة ، وبسرعة للطائرة تتجاوز ٢٢٠ ميلاً في الساعة . وعلى هذا فقد كانت الاسكندرية ضمن مجال عمل هذه الطائرات . نظرا لابتعاد الاسكندرية مسافة ٣٥٠ ميلاً فقط عن القواعد الجوية الايطالية في ليبيا . وقد فكرت القيادة البحرية « الأدميراليتي » في تحريك الاسطول الى قبرص في حالة اندلاع الحرب ، ولكن هذه الجزيرة لم تكن تضمن التسهيلات المطلوب توفرها في القاعدة البحرية ، كما كانت تعتبر بعيدة جدا بحث يصبح من المحال عليها رقابة طريق السويس . وعلى هذا فقد وقع الاختيار بصورة طبيعية على خليج « سودا » في جزيرة كريت والتي تقع على حدود اليونان . ولكن كانت هذه ايضا ضمن مجالات قاذفات القنابل الجديدة س ـ ٨١ .

لم ينظر أصدقائي في وزارة الطيران الى الخطر بمثل الجدية التي نظرت اليها قيادة القوى البحرية ، ذلك لأنهم كانوا يعرفون ان القنابل الايطالية العادية لا تمتلك قدرة اختراق كافية ، وكانوا يشعرون يقيناً بقصور الايطاليين في صنع القنابل (الخارقة) التي يمكن استخدامها بصورة ملائمة ضد القطع البحرية الحربية . ولكنهم ـ طبيعياً ـ قوموا التحول المميز لموقف البحرية المباغت ، والانتقال من التهكم والسخرية بتأثير القدرة الجوية الى الاعتراف بها ، وذهب بعضهم الى مزيد من التفاؤ ل ، عندما افترضوا ان هذا التغيير في الموقف هو تغيير نهائي .

توفر لي برهان بشأن هذه القضية التي ابرزتها الأزمة ، من زاوية الهجوم ، وقد حمل هذا البرهان القائد الأعلى لاسطول البحر الأبيض المتوسط« سير ويليام فيشر » الذي قابلته في (بروكن ـ هورست) من « الغابة الجديدة ـ نيوفورست » في شهر نيسان « ابريل » التالي ، وذلك بعد عودته الى انكلترا مباشرة . ودار بيننا حديث طويل في مواضيع مختلفة كثيرة ، وتضمن الحديث المقطع التالي : لقد قال : تشكل طائرات الاسطول عماد العمل الناجع والفعال في كل (مشكلة) تواجه الاسطول في البحر الابيض المتوسط ، وذلك للرد على اية ضربة قد تستهدف الوطن . ويعود السبب الى ان الزوارق الايطالية أسرع من الزوارق البريطانية ، وعلى هذا فان الطائرات هي التي تستطيع وحدها الوصول الى الزوارق الايطالية والتغلب عليها . اننا نتفوق عددياً بطائرات الاسطول على الايطاليين .

وقال ان لديه ٩٠ طائرة على حاملتين باستثناء ما هو قديم على السفن الحربية والتي لا يمكن الاعتماد عليها او اصلاحها من جديد ، بحيث يمكن استخدامها للعمل فقط (كالوقواق في وكره) . . . اي عندما تتوفر لها فرص الهبوط في اقاليم اخرى . وكان صريحاً جداً عندما قال ان تقديره لأهمية القوة الجوية وقدرتها قد تعاظم كثيراً بسبب التجربة الحديثة . ومن المحتمل ان يكون هذا التأثير قد عزز ودعم نتيجة حوار ويليام فيشر مع صهره « زوج ابنته » مانغو باكستون ، وهو واحد من افضل العقول المفكرة في القوات الجوية الملكية ، ومن الرواد الاوائل في تطوير الطائرات . ولقد حمل تحول ويليام فيشر نحو تقدير اهمية القوى الجوية كل التطلعات المتفائلة نظراً لأنه كان ـ من وجهة نظر اوساط كثيرة ـ افضل المرشحين لمنصب لورد البحر الأول خلفاً لشاتفيلد . ولكن وفاته المبكرة تركت المجال مفتوحاً امام « باكهاوس » و « باوند » وكلاهما كان ادارياً لديه القدرة على الغرق في التفاصيل ، وبذلك كان باستطاعتهما « تضييع الشجرة للحصول على قطعة حطب او خشب » . وهكذا فان النظرة العميقة والواسعة في العلاقات بين القدرة البحرية والقدرة الجوية لم تتطور في الأوساط القيادية العليا للبحرية حتى ما بعد السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية ، عندما أظهرت التجربة ضرورتها وكان ثمن ذلك غالياً .

ما ان تم تجاوز ازمة البحر الابيض المتوسط مباشرة . على اثر اعتراف الحكومة باحتلال ايطاليا للحبشة في ربيع عام ١٩٣٦ ، حتى ارتدت قيادة القوى البحرية « الادميراليتي » الى موقفها السابق ، وظهر جنوح نحو الاستخفاف بقدرة القوى الجوية وتأثيرها . وتلقى هذا « الجنوح » دعماً جديداً عن طريق تطوير المدافع المضادة ـ للطائرات المستخدمة في البحرية ، وكذلك عن طريق زيادة سمك الدروع في القطع البحرية ـ الحربية . وقد ارتفعت الاصوات المطالبة بأن يكون تيار النيران الذي تطلقه المدافع المضادة للطائرات على درجة كافية من الاتساع للرد على هجوم الطائرات حاملة النسائف « الطوربيدات » وان تكون الزيادة في سمك الدروع كافية لتغطية القطع البحرية « حتى قمتها » بحيث لا تستطيع القنابل التي تقذفها الطائرات من الارتفاعات العالية ان تخترق تلك الدروع . وقد دعمت وجهة نظر المتفائلين بتأثير الردع للتسليح المضاد للطائرات في القطع الحربية ، عن طريق التجارب الالكترونية ـ الصناعية والفنية والتي وجهت لمصلحة التدريب على طائرات الهدف « ملكة النحل ـ كوين بي » بواسطة الرقابة بالاجهزة اللاسلكية . وكانت سرعة هذه الطائرات « الهدف » لا تتجاوز ٨٠ ميلاً بالساعة فقط . وكانت المسافة بين الطائرة الهدف وبين القطع البحرية تتناقص بصورة غير مباشرة عن طريق توفير الفرصة للقطع البحرية ـ الحربية من اجل تشغيل المحركات والاستعداد لبدء التحرك في الوقت الذي تظهر فيه الطائرة . وعلاوة على ذلك ، فانه لم يكن يسمح « لملكة

النحل » بتجنب النيران عن طريق « المراوغة » خلال مسيرها على طريق تحركها وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان المعدل الوسطي للاصابة خلال مرحلة التجارب الكثيرة التي تم تنفيذها خلال تلك الفترة ، لم يكن ليتجاوز اصابة واحدة في كل مائتي ساعة من التجارب والممارسات العملية وقد أجريت احدى هذه التجارب بحضور الملك ، وتم التخطيط لها بدقة ، ولكن الطائرة لم تصب ولو باصابة واحدة وعلى هذا فقد وجهت الطائرة نحو اعماق البحر ، لتترك انطباعاً يقنع بان الطائرة قد اصيبت ، وهذا مما زاد في ضياع النفقات والاموال التي كان المواطن هو الذي يحتمل اعباءها

كانت الحكومة قد ورطت نفسها في بناء اسطول مقاتل جديد ، دون اعادة اختبار مناسب او دراسة للقضية ، في الوقت الذي كان انتباهها مشغولاً بأزمة الحبشة حتى اصبح بالامكان وصف ذلك القرار بانه « قرار خاطيء » وانه قد اتخذ لامتصاص النسبة الكبرى من مجموع موازنة الدفاع ـ على ما كان واضحاً ـ وكان ذلك على حساب الاحتياجات الأخرى ؛ على نحو ما اشرت اليه في المقالة الافتتاحية التي نشرتها « التايمز » بتاريخ ١٠ شباط « فبراير » ١٩٣٦ ، وطالبت فيها بمزيد من البحث في القضية التي نتج عنها ما يشير الى ضرورة دفع الثمن مرة اخرى

ان قضية اغراق الطائرات للقطع البحرية ـ الحربية لا تشكل اكثر من جزء صغير من القضية الكبرى وهي توفير القدرة للاسطول المقاتل حتى يستطيع الاضطلاع بواجبه الاستراتيجي فهل سيسهم بناء الاسطول المقاتل من جديد وفقاً للتطورات والظروف الحالية ، في تحقيق التعادل بين ما تم انفاقه عليه وبين تحقيق الأمل في ضمان الأمن لوسائط اتصالاتنا البحرية من اجل استمرار تدفق الامدادات التي تتعلق بها حياة امتنا ؟

ان علينا عند دراسة هذه القضايا ، ان نضع في الاعتبار الحقيقة التي ظهرت منذ عشرين عاماً مضت حيث تسببت هجمات الغواصات على طرقنا البحرية في حدوث كارثة نزلت بنا ، هذا على الرغم من ان اسطولنا المقاتل في حينها كان قوياً ومتفوقاً ، تصعب مهاجمته او الاغارة عليه واذا كان لدينا الاستعداد لنسيان ذلك فان القوى الأخرى لا تنساها وقد يكون من الجنون اغماض اعيننا عن حقيقة ان ـ القوى الأخرى ـ قد اصبحت وهي تعتمد على الطائرات وعلى الزوارق السطحية ذات السرعة العالية لمضاعفة القدرة القديمة للغواصات للقيام بهجوم مباشر على طرقنا البحرية وعلينا ان نتذكر ايضاً انه ستنقضي سنوات قبل ان يكتمل بناء هذا الاسطول المقاتل الجديد الأقل تأثراً بالهجمات الجوية ، وخلال هذه الفترة ستكون وسائط الهجوم قد تطورت بصورة معادلة ونسبية وزيادة على ذلك ، فان فاعلية الاسطول المقاتل تتعلق بالقواعد البحرية وان القواعد

التي قد تعمل على تطويرها اليوم لتكون أمينة وبعيدة عن مدى تدخل العدو ، هذه القواعد قد تصبح بعد ثلاث سنوات من الآن ضمن مدى عمل الطائرات المهاجمة التي تصل الى اهدافها بسهولة .

جرت مناقشات في مجلس النواب (البرلمان) خلال شهر آذار « مارس » على اثر تقديم التقديرات الجديدة لموازنة القوى ثلاث (البحرية والبرية والجوية) ومن أجل تطوير برنامج اعادة التسلح ، وحقق الناطق الرسمي باسم الحكومة نجاحاً في ابراز الحاجة لزيادة المخصصات المالية اكثر من نجاحه في ايضاح الفكرة التي يعتمد عليها البرنامج للوصول الى الهدف بنجاح وفاعلية . وقد تكون انطباع عند معالجة نوعية التقنية التي تركز النقاش عليها ، بأن القرار قد اتخذ اولا لزيادة المخصصات ، ثم بدأ البحث عن الذرائع فيما بعد دون اي اهتمام بالقضايا التي نشأت عن النظرية الموجودة . وعلى هذا ، فعندما وقف المتحدث الرسمي باسم البحرية « الادميراليتي » ـ اللورد ستانلي ـ لمناقشة قضية القطع الحربية ، استند الى تعليق تضمنه تقرير عن معركة جوتلاند وهو (انه طالما كان باستطاعة القطع البحرية الرئيسية للحلفاء احتجاز القطع البحرية الرئيسية للالمان ، فان القوات البحرية الالمانية ستكون عاجزة فعلاً عن الحاق الأذى بقواتنا) وصرح ايضاً بما يلي : (ويظهر ذلك بوضوح تام ايضاً قيمة القطع البحرية ـ الحربية خلال الحرب العظمى) . ولقد كان مثل هذا الرأي قادراً على الاقناع ، لو كان الأمر محدداً بعلاقة القوى في الحرب قبل معركة جوتلاند . ذلك ان المانيا عملت بعد ذلك على تحويل اهتمامها نحو وسائط تبادلية للقتال البحري ، تمكنت بواسطتها من دفع بريطانيا الى حافة الهزيمة . وقد اعترف الأميرال جيليكو ذاته بعد معركة جوتلاند بتسعة اشهر (بانه ليس لدينا اي شيء للاقتراب من السيطرة على البحر) وقال (قد يكون من الصحيح تماماً القول باننا سادة الموقف طالما ان الأمر يتعلق بالقطع البحرية السطحية . . . ولكن ، هذه القطع السطحية ستصبح عديمة الفائدة اذا ما عملت الغواصات المعادية على شلها ، على نحو ما يحدث الآن في شلل خطوط مواصلاتنا) . لقد أثر التهديد الجديد حتى على افق عمليات الاسطول المقاتل مما حمل القيادة البحرية على استخلاص نتيجة وهي (انه يجب على قطع الاسطول المقاتل عدم المغامرة في العمل داخل مياه النصف الجنوبي من بحر الشمال) وهكذا كان الاسم ـ المدرسي لتلك (المدرعات التي لا تخاف شيئاً) مثيراً للسخرية والتهكم عند استعادته ، ولقد مضت فترة ١٩ عاماً حتى الآن على ذلك المتحدث الرسمي الذي تجاهل بغباء دروس التاريخ الرسمي للبحرية ، حيث استطاعت زوارق « ي » الالمانية اعاقة اسرابنا عن العمل ، وهي حقيقة لم يتمكن اكثر البحرية خبرة ، وابعدهم نظراً من توقعها او ادراكها .

اوضحت تلك النقاط التاريخية ، وكذلك الدروس المستخلصة من تجارب الحرب الأخيرة ، في مقال افتتاحي نشرته صحيفة التايمز بتاريخ ٢٣ آذار ـ مارس ـ ووصلت فيه الى القول :

قد يأخذ التهديد بالخطر شكلاً مختلفاً في المرة المقبلة ، فهل ترانا سنشعر بقدر معقول من الثقة في ان يكون للتوقعات او الاحتمالات نصيب اكبر من الثقة ؟ .

ان علينا الالتزام بجانب الحذر عند تقدير التأثير المحتمل للطيران ، وعدم المجازفة في التحليق ضد تيار التاريخ . . . ان القضية الحقيقية ، كما قال اللورد ستانلي ، (ليست في اغراق القطعة البحرية بواسطة القنبلة) وانما في الأخذ بالاساليب الجديدة للحرب والتي تستطيع منع القطع البحرية الحربية من ممارسة واجباتها التقليدية ، والانقاص من فائدتها . ولقد أصبحت حجته الآن مركزة على أضيق المشاهد او الملامح العامة للحرب . بل وحتى على جزء منها فقط . ولقد اوضح « اللورد ستانلي » (انه بالامكان تقسيم القطعة البحرية ـ الحربية ، نظراً لحجمها الكبير ـ الى اقسام واجنحة ، بحيث يصبح بالامكان حصر الدمار عند حدوث انفجار ؛ ولكنه لم يلاحظ انه يجب تعويم الاقسام الأخرى حتى تتم اعادة القطعة البحرية ولو من اجل تغيير دعامة من الدعامات ، كما انه لم يقوم اهمية الخسارة الاستراتيجية الناتجة عن عودتها الى الرصيف الجاف من اجل الإصلاح والصيانة . وهو الى ذلك لم يأخذ بعين الاعتبار نقطة الضعف ألتي اشار اليها بايجاز المدير السابق للصناعة البحرية « سير اوستاس ـ تنيسون ـ داينكورت » وذلك منذ سنوات مضت عندما قال : (تشكل الاقسام الخلفية والمحركات والأعمدة او الدعامات ودفة التوجيه في جميع القطع البحرية نقاط ضعف حقيقية ـ كعقب اخيل ـ . وأظن ان نقاط الضعف هذه ستبقى ابداً . وعلى هذا فان تعطيل القطع البحرية او شلها عن العمل يعادل اغراقها من الناحية الاستراتيجية) .

تراجع بالدوين مرة اخرى امام تجدد الضغط عليه ، وعمل متأخراً على تعيين لجنة فرعية لهيئة الدفاع الامبراطورية ، بهدف بحث قضية الضعف في القطع البحرية الرئيسية امام الهجوم الجوي ، وهذه لم تكن قضية وانما جزء من قضية . وقد تم تشكيل اللجنة الفرعية من اربعة وزراء ومعهم رئيس هيئة اركان القوى البحرية (لورد البحر الأول) ورئيس هيئة أركان القوى الجوية كخبير استشاري . ونشر تقرير هذه اللجنة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ . وكان مضمونه ونتائجه من النوع السلبي الحذر ، على نحو ما كان متوقعاً من بحث موجه تقوم به لجنة فرعية تضم مثل ذلك التكوين . ولكن كان هناك همس خافت من الانتقادات .

حاولت اللجنة التهرب من الاخطار التي تضمنها قرارها الخاطىء . فأصدرت تصريحاً جاء فيه (يجب على بريطانيا عدم قيادة الاتجاه نحو ايقاف صنع القطع البحرية ـ الحربية ـ الا اذا تمت تسوية القضية بما لا يدع اي مجال للشك ـ) وذكرت اللجنة الفرعية بالنسبة لتحديد اثر القنابل على القطع البحرية (أنه قد تكونت قناعة كافية في ان قيادة القوى البحرية قد اتخذت جميع التدابير الخاصة للوصول الى هذا الهدف) ولكنها اصدرت توصيتها لاجراء مزيد من التجارب . وأوضحت انه يجب الا تكون النفقات عقبة في وجه تلك التجارب . وكان تعليق التقرير على تأثير نيران المدفعية المضادة للطائرات ما يلي : (يتم التدريب واجراء الاختبارات حتى الآن تحت ظروف غير واقعية) (كما ان بالمستطاع تحقيق تقارب في وجهات النظر بين قيادة القوى الجوية وبين قيادة القوى البحرية ، عن طريق التوصية بجعل تمارين السلم مشابهة قدر الامكان لظروف الحرب) وقد طالب التقرير بان تعمل هيئتا الاركان (البحرية والجوية) وهما على اتصال وثيق (لما فيه مصلحتهما المشتركة) واختتم التقرير بالخلاصة التالية : (ان بالمستطاع ذكر القضية بأبسط العبارات والقول ان المدافعين عن وجهات النظر المتطرفة للقوة الجوية لا يريدون لهذا الاقليم صناعة القطع البحرية الضخمة ـ الرئيسية ـ في حين لا زالت قوى أخرى ـ في العالم ـ مستمرة في بناء مثل هذه القطع ـ فاذا ما اصبحت نظريات المتطرفين ذات اسس راسخة . فاننا نكون قد خسرنا الأموال ـ اما اذا ظهر فشل تلك النظريات عند وضعها موضع الاختبار ، فاننا نكون قد اضعنا الامبراطورية وفقدناها)

جاء تعليقي على هذا التقرير وما تضمنه من نتيجة في مقال افتتاحي نشرته التايمز بتاريخ ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) . حيث كتبت :

يتميز التقرير بانه سطحي جداً ، وبسيط ، من الناحية الاستراتيجية ، مقابل كل ما يتضمنه من حقائق ، لقد تعرضنا لمحنة خسارة الحرب في عام ١٩١٧ رغم ان اسطولنا ـ المقاتل كان اكبر بكثير مما هو عليه اليوم ، وكان سبب المحنة هو الدمار الذي قامت به مجموعة صغيرة العدد نسبياً من الغواصات التي عملت على طريق مواصلاتنا ، كما كان السبب ايضاً هو ان المدمرات التي كان عليها مجابهة هذا التهديد ، تم الاحتفاظ بها لحماية الاسطول المقاتل . وسيصبح هذا التهديد خطيراً اذا ما عملت المانيا على استثمار الأموال المخصصة لبناء القطع البحرية ـ الحربية ، من اجل العمل في وقت مبكر على بناء الغواصات . وليس ذلك سوى عامل واحد في جملة العوامل الاستراتيجية التي تقفز الى الفكر عند تقويم قضية القطع البحرية الرئيسية ، الضخمة .

لقد اعترفت اللجنة الفرعية بالاخطار التي قد يتعرض لها الاسطول المقاتل عند

العمل في البحار الضيقة . وأوضحت بصورة صحيحة أهمية المحافظة على ممرات حرة لتجارتنا عبر المحيطات ، والتي لا يمكن لقواعدنا الارضية التي تتمركز فوقها قواتنا الجوية تأمين تغطيتها . وقد لاحظت اللجنة (انه من المحتمل للقطع البحرية الضخمة التابعة لعدو افتراضي ، ان تزج بنفسها عبر طرقنا التجارية دون ان تتوقع تدخلاً في حال غياب اسطول بريطاني قوي وله فاعليته ـ وهنا تكمن يقيناً اقوى حجة من اجل الابقاء على القطع البحرية الرئيسية ـ الضخمة) .

هنا قد يكون من الضروري تقدير درجة « الاحتمال » وتذكر صعوبة « وضع » اسطول مقاتل على مسافة بعيدة من قواعده . وزيادة على ذلك ، فقد يكون من المرغوب فيه عند اجراء تقدير عملي للموقف ، تجنب « الافتراضات » الغامضة جداً . وتحديد القوى التي تمتلك القطع البحرية الكبيرة والتي يمكن استخدامها لقطع اي قسم من اقسام طرق مواصلاتنا التجارية .

ان هناك قوتين (اليابان وامريكا) تقفان على مسافة بعيدة جداً مما ينقص كل احتمال لقطع اي قسم من اقسام طرقنا التجارية . اما القوى الأخرى فهي قوى قارية محصورة بمناطق برية بحيث ان تدخلها الطارىء يحمل قدراً كبيراً من المغامرة في مواجهة اسطول قوي وقوات جوية . ولكن اذا كانت هناك ظاهرة مميزة في الحرب البحرية الأخيرة فانها المانعة العامة للصدفة التي لا يمكن للقطع البحرية الكبيرة معارضتها في المياه التي تكمن فيها الغواصات ، بحيث كانت هذه الغواصات تفرض حدوداً استراتيجية واضحة امام استخدام القطع البحرية الضخمة . وقد تضاعفت هذه « الصدف او المجازفات » في هذه الايام نتيجة لتطور الطائرات والزوارق السريعة قاذفات النسائف « الطوربيدات » والتي قد تهاجم الزوارق الدفاعية ، وربما ايضاً الغواصات عبر المحيطات . . .

على كل حال ، فانه قد يكون من الضروري تقويم بناء القطع البحرية والحربية وتصحيح مواصفاتها لمجابهة الخطر الجدي لمثل تلك « الصدف او المجازفات » التي سبق ظهور تجاربها والتي قد تستمر في الظهور ، ولكن وحتى في هذه الحالة فهناك مزيد من الاعتبارات التي يفضل الأخذ بها والانتباه اليها . . .

ان بحرية اليوم تبحث عن وسائل زيادة السرعة في القطع الحربية . ولقد كان لزاماً علينا ان ندرك حتى لو جاء ذلك في وقت متأخر جداً بأن القطع البحرية ـ الحربية للعدو والتي وصلت المحيطات قد سبقتنا في هذا المجال ، فهل ستسبقنا الى الطرق التجارية دون ان تحملنا على القتال ؟ . . . وهل ترانا سنشعر بالندم لاننا لم نستثمر الأموال التي تم

انفاقها على القطع البحرية ـ الحربية من اجل بناء المزيد من حاملات الطائرات او الزوارق السطحية ؟ . . . .

استطاع جيوفري داوسون تبديل الشكوك التي تم التعبير عنها هنا بشأن قيمة القطع البحرية ـ الحربية التي كان يتم صنعها مجدداً ، وأصبح على ايضاح تلك الشكوك في مجالات اخرى ، وبقوة اكبر مما استطيعه عبر افتتاحية صحيفة التايمز ، ولكن قيادة القوى البحرية « الادميراليتي » نجحت لسوء الحظ في اجراء تأثير معاكس عن طريق اكتسابها للدعم المؤثر جداً الذي ضمنه وينستون تشرشل لقضية البحرية . وظهر ذلك الدعم في اطار مجموعة من خطب تشرشل ومقالاته . وقد عمل في آذار (مارس) **١٩٣٧** على دحض فكرة اعادة تجديد « حملة الغواصات » فقال : (ان الاكتشافات التقنية ، والمخترعات الفنية ، التي اعقبت الحرب ، قد وضعت الغواصات في موقع بعيد جداً عن مراكز القوة ، وانقصت الى حد بعيد الخطر حتى اصبح اقل بكثير مما كان عليه حتى عندما استخدمت (زوارق ي) في الحرب حيث كان لظهورها دور حاسم في السيادة البحرية) وفي كانون الثاني ـ يناير ـ **١٩٣٨** عبر تشرشل عن ثقته بالبحرية عندما قال : (لن يكون هناك تأثير حاسم للتهديد الجوي ضد القطع البحرية ـ الحربية مع ما يتوفر لها من تسلح وحماية) . ثم صرح في بداية ايلول (سبتمبر) بما يلي :

تحركنا في البحر الأبيض المتوسط بحذر كبير أثناء فترة التوتر في ازمة الحبشة (اثيوبيا) وذلك نتيجة القصص عن احتمال قيام القوات الجوية لموسوليني بتوجيه ضرباتها بسهولة الى الاسطول البريطاني وهو في عرض البحر . . . ويظهر الآن ان هناك ثمة مبالغة كبيرة في تقويم الخطر الأصلي . ولكن مهما كان عليه الموقف ، فقد اصبحت درجة الخطورة اليوم ـ يقيناً ـ أقل بكثير مما كانت عليه قبل ثلاث سنوات مضت ، بسبب ما تلقته البحرية من حماية رهيبة ودعم كبير . ونتيجة لذلك ، فاني مستمر بدعم الفكرة التي طالما عبرت عنها وهي ان الطائرات لن تشكل خطراً قاتلاً ضد اسطول حربي مجهز تجهيزاً خاصاً وحديثاً ، سواء كان هذا الاسطول في عرض البحر او في موانئه . . . وستبقى السيادة البحرية على ما يظهر الى جانب القوة البحرية البريطانية او الامريكية دون منازع . هذا ويضاف الى ذلك . دون ريب او جدال خطر الغواصات الذي يسير حتماً نحو الزوال كسلاح حربي حاسم ، مما يعطي الشعور بالاطمئنان والثقة بالأمن ، طالما ان امن البحار والمحيطات متعلق بالديمقراطيات الغربية .

ارغب هنا ان ابرز من جديد الموهبة التي تميز بها قادة البحرية في مجال « العلاقات العامة » واكتساب الانصار والمؤيدين ، فتجاوزوا قادة الاسلحة الأخرى بأشواط بعيدة .

وكانت تقام حفلات تكريم جميلة في كل مرة يتم فيها تعيين وزير جديد للبحرية . وهكذا فعندما وصل حزب العمال للسلطة عام ١٩٢٩ عبر لورد تومسون واعضاء آخرون في الحكومة مباشرة عن قلقهم عندما ذكروا امامي السهولة التي تقبل بها لورد البحر الأول الجديد . آ ف . الكسندر نصيحة مستشاره الرسمي بشأن بناء القطع البحرية - الحربية الضخمة ، لكن ذلك لم يباغتني ابداً ، فقد اعلمني بعض اصدقائي في القيادة البحرية « الادميراليتي » باسلوب مرح المخطط الذي أعدوه لتملق لورد البحر الأول واكتساب دعمه . وكان للقيادة البحرية ايضاً طريقة افضل بكثير من طرائق الأسلحة الأخرى في معالجة الانتقادات ، وذلك وفقاً لتجربتي الخاصة .

لقد كان القادة في وزارة الحرب ينفجرون غيظاً وبطريقة غير لائقة في كل مرة اعمل فيها على توجيه انتقاد لا يرغبون به ، في حين كان مستوى الرد يختلف تماماً عند انتقادي لسياسة القيادة البحرية (الادميراليتي) . إذ كانوا يوجهون لي الدعوة لتناول طعام الغداء او العشاء عن طريق « طرف ثالث » ، وأجد هناك ممثلين عن قيادة القوى البحرية يحيطون بي كضيف شرف . وبعد اظهار اهتمام كبير بالافتتاحيات او المقالات التي اكون قد كتبتها حديثاً ، يقولون لي انهم وجدوا فيها افكاراً مثيرة جداً ، يطرحون وجهات نظرهم المختلفة او المضادة لوجهة نظري باسلوب رائع وبأجمل طريقة ممكنة ، مع ترديدعبارة « ولكن . . . ولكن . . . » باسلوب دقيق جذاب . وهكذا يظهرون رقة كبيرة في موضوع القضية التي تتم مناقشتها ، وعلى الرغم من عدم نجاحهم في تجريدي من اسلحتي ، الا انه من الطبيعي ان اجد صعوبة بعد ذلك في توجيه النقد لسياستهم او لوجهات نظرهم باسلوب حاد على نحو ما كنت ا أفعل من قبل .

جاءت بعد ذلك قضية سنغافورة لتدفع الى المقدمة - من جديد - القرار لبناء اسطول جديد ، يتكون بصورة طبيعية من القطع البحرية - الحربية الضخمة - وكذلك الأمر بالنسبة لأفضل طريقة يمكن بها تأمين الدفاع عن تلك القاعدة في الشرق الأقصى ضد هجوم اليابانيين . وقد يكون من الأفضل في هذا المجال ذكر بعض المقاطع من مذكرتي عن الحديث مع ترينشارد في هذا الموضوع ، وهو الحديث الذي تم في نهاية حزيران (يونيو) ١٩٣٥ ، نظراً لما تتضمنه المقاطع من نبوءة صحيحة ، ونظراً ايضاً لأنها تبرهن على ان ترنيشارد كان يعتمد على القيمة المعنوية للبحرية البريطانية اكثر مما يعتمد على خياله الانتقادي وعقله الباحث في شؤون بحريته .

. . . انتقل ترينشارد الى موضوع الدفاع الامبراطوري ، وهو الموضوع الذي اندفع هو نفسه لمعالجته بحماسة ، ولو باسلوب متنافر ومفكك . لقد كانت تهيمن عليه

فكرة ثابتة وهي انه يجب على الامبراطورية البريطانية البقاء والاستمرار ، ـ بحيث انه اذا ما ظهر اضطراب او خطر فيجب بذل كل محاولة للابتعاد عن الخطر وتأجيله إلى أطول مدة ممكنة ، وقال ان لديه ابناء في المدرسة ، وانه يريد اعطاءهم الفراغ للتنفس ـ الخ . . . الخ . . .

وصل بعد ذلك الى ما ظهر انها النقطة الحقيقية التي يريد طرحها وكانت (انه يجب عدم ارسال اسطولنا الحربي الى سنغافورة) . وكان يفكر ان هيبة البحرية البريطانية لا زالت تشكل عاملاً مهيمناً على الرأي العام في العالم . (وافترضت عند سماع هذه الكلمة بانه ليس هناك كلمة اخرى يمكن استخدامها لوصف هذه الحقيقة) وعلى هذا فقد كان باستطاعتي كما كان باستطاعته ادراك القيمة الفنية للاسطول والتي لم تعد قادرة على احتمال مزيد من الأعباء ، فكنا نريد منع الأقاليم الأجنبية الأخرى من اكتشاف هذه الحقيقة لأطول فترة ممكنة . وان نقل الاسطول الحربي او حتى قطع منه الى سنغافورة انما يمثل دعوة لليابانيين من أجل تدميرها ، واسقاط (هيبتها المقدسة) وذلك على نحو مماثل تماماً لما هو عليه موقف الاسطول في بحر الشمال . وقال ترينشارد (دعنا نرسل الى سنغافورة عدداً كبيراً وبقدر ما نستطيع من الغواصات والزوارق الخفيفة التي قد يكون لها تأثير اكبر بكثير في ردع اليابانيين ، دون ان نتعرض لخطر المجازفة ذاته اذا ما تم ارسال الاسطول .

لقد طلب ترينشارد الي النضال ضد نقل الاسطول المقاتل الى سنغافورة . وفي الوقت ذاته فانه كان يعتقد ، ووافقته على ذلك ، بان اليابانيين لم يكونوا تقريباً بمثل تلك الصورة الضخمة التي ارتسمت في اذهان كثيرين من الناس . وان كفاءاتهم العسكرية قد تآكلت واخذت في الاهتراء ، وانهم اصيبوا بهزة داخلية .

لم أعد في حاجة للمزيد من الجدل في موضوع الخطر الذي يتعرض له الاسطول ـ الحربي عند عمله في المياه الضيقة بنتيجة تدخل الطائرات المهاجمة التي تنطلق من القواعد الساحلية ، لا سيما وانني قد اشرت الى هذا الخطر باستمرار على امتداد العشر سنوات الأخيرة . ولكنني اصبحت في هذه الفترة اهتم بالاخطار في البحر الأبيض المتوسط ، بالدرجة الأولى ، وقد نضجت دراسة هذه القضية كنتيجة لسياسة موسوليني التوسعية ، ولكن ظهر لي بوضوح تام ان هذا الخطر قد أخذ في التطور بصورة مماثلة بالنسبة لقاعدة سنغافورة في الشرق الأقصى ، فقد كانت هذه القاعدة ايضاً تقع في مياه ضيقة ، وتشكل عقبة اكيدة وهدفاً من اهداف التوسع الياباني المستمر .

لم يكن الخطر الذي يتهدد سنغافورة خطراً مباشراً على نحو ما كان عليه في البحر

الابيض المتوسط ، ذلك لأن اليابان كانت حتى عام ١٩٣٥ لا تزال بعيدة جداً عن الوصول الى اي هدف ارضي يمكن احتلاله ضمن مجال الضربات الجوية لجزيرة الملايو ، ولكنها كانت في سبيلها لبناء قوة رهيبة تعتمد على حاملات الطائرات . وأخذت اعتباراً من عام ١٩٣٧ في ايضاح التهديد المتعاظم ضد سنغافورة باستمرار . واعتقدت انني قد استطيع عن طريق (هوربليشا) حيث كنت اعمل مستشاراً شخصياً له ، حمل الحكومة على الاعتراف بالحاجة لدعم دفاعنا الارضي وتقويته هناك بالاضافة الى ارسال مزيد من دعم القوات الجوية . وكان الدفاع عن الملايو ضعيفاً في هذين المجالين ، ولكن على الرغم من زيادة الدعم فقد بقي الموقف هناك بعيداً جداً عن الوصول الى التعادل مع التهديد المتعاظم .

الفصل الخامس عشر

لورنس ـ ولويد جورج

أستطيع القول أن ت و لورنس وداوود لويد جورج ، كانا من أعظم الشخصيات الهامة ، واكثر كفاءة وموهبة من جميع اولئك الذي عرفتهم شخصياً وقد يكون ذلك مباغتاً للكثيرين من القراء ، في الوقت الحاضر ، لكنني استطيع ان أضعهم حتى قبل وينستون تشرشل ، وقد وجدت بالنسبة للويد جورج ان هناك من وصل الى نتيجة مشابهة بين عدد ممن كانوا على اتصال وثيق بتشرشل في الحرب العالمية الثانية ، وممن كانت لديهم خبرة سابقة في العمل مع لويد جورج وقد كان لدى ت و لورنس ولويد جورج من صفات الأصالة ما يميزهما بشكل واضح عن الآخرين

ت و لورنس

تعود صداقتي مع لورنس ـ وفقاً لما كان يرغب بسبب من حساسيته العميقة لعدم شرعيته ـ الى الفترة التي تطورت فيها اهتماماتنا المشتركة بالمفاهيم العسكرية الجديدة ، وقد سبقت الاشارة الى الطريقة التي تطورت وفقاً لها تلك الصداقة في الفصل الثالث ، وعلى هذا ، فان بالامكان اعتبار عام ١٩٢٩ هو من افضل الفترات الملائمة لالتقاط طرف الخيط

ذكرت في الفصل السادس بإيجاز كيف ان لورد تومسون عندما كان أمينا عاماً لوزارة الطيران ، قد اصيب بالاستياء والامتعاض للطريقة الفظة التي رفض بها لورنس العرض

المقدم اليه للعمل في كتابة تاريخ القوات الجوية الملكية ، وذكرت ايضا ما قاله لي تومسون عن انتقادات غيم للورنس

كان سير فيليب غيم قائداً للقوات الجوية الملكية البريطانيه في الهند ، خلال الفترة التي عمل فيها لورنس لفترة قصيرة في الخدمة (باسم الجندي روس) وكان السير فيليب غيم قد اصبح رئيسا لقسم الأفراد في وزارة الطيران عندما أعيد لورنس الى صفوف القوات الجوية الملكية عام ١٩٢٥ ـ بعد ان كان قد خدم لمدة سنيتن في قوة الدبابات الملكية كجندي باسم شو ـ وقد اعيد قبول لورنس للخدمة نتيجة تدخل بالدوين لدعم ترينشارد في التغلب على الاعتراضات التي تقدم بها هور ومعه بعض اعضاء هيئة القيادة في القوى الجوية وكان فيليب غيم من المعارضين ، ولكنه لم يحتمل ضغط رئيس مجلس الوزراء للحصول على مثل هذا الاستثناء المزعج لقواعد الخدمة وانظمتها ، فرجع الى القرار السابق من اجل عدم رفض متطوع قد يجتذب اليه نقمة الدعاية

تم تعيين « شو » بعد إعادة قبوله في القوات الجوية الملكية للعمل في الكلية الحربية في « كرانويلل » (في قسم الخدمة العامة لغير الفنيين) ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى نجح « لورنس » في ازالة الشكوك التي اثيرت عند تعيينه هناك والتي زعمت انه يعمل جاسوساً لوزارة الطيران وفي نهاية عام ١٩٢٦ تم ارساله الى الهند بناء على رغبته وبالاستناد الى رغبة وزارة الطيران ايضاً وذلك لتجنب الدعاية المتوقعة عند نشر كتابه ثورة في الصحراء وهو الوجيز عن كتابه اعمدة الحكمة السبعة والذي كان مرغماً على وضعه كوسيلة لمجابهة الطلب الكبير للطبعة الخاصة التي كان ثمنها مرتفعاً جداً وبعد ١٨ شهراً من العمل الرتيب في مستودع كراتش التابع للقوات الجوية الملكية ، اصبح « لورنس » يشعر بالسعادة لانتقاله الى قاعدة ميدانية في قلعة « ميرانشاه » على الحدود ولكن نتيجة هذا التعيين جاءت شؤماً على « لورنس »

تسربت انباء تعيينه هناك الى الصحافة الاميركية ، وأخذت الصحافة الروسية في وضع القصص المثيرة عن « العقيد لورنس » الذي يعمل في افغانستان كجاسوس امبريالي بريطاني وتسببت هذه القصص في احراج الوزير البريطاني في ذلك الاقليم نظراً للحياد الذي كانت تعتمده افغانستان في موقفها بين الهند والاتحاد السوفييتي وعلى هذا تمت اعادة (الجندي شو) الى انكلترا في بداية عام ١٩٢٩ ، مع تعيينه في محطة الزوارق ـ الطائرة في كاتووتر القريبة من بلايموث وقد وجد هناك لحسن حظه قائداً رقيقاً جداً هو سيدني سميث الذي افاد كثيراً من امكاناته ، فعمل على تكليفه رسمياً بعمل حاجب صغير الرتبة

في مكتب القاعدة ، ولكنه كان يعمل فعلياً كمعاون وأمين سر لدى سيدني سميث ذاته .

ذهبت في سيارتي ومعي زوجتي لقضاء اجازة في كورنويلل خلال شهر أيار (مايو) وعند الوصول الى كاتووتر انضم الينا ت . و . لورنس ، وذهبنا الى نيوكيوكيث حصل لورنس على اجازة بمغادرة المحطة لقضاء العطلة معاً . وكانت اجازة ممتعة بسبب الاحاديث المثيرة جداً وبسبب الفواصل الترفيهية والمسلية التي حدثت خلال هذه الاجازة . لقد كان لورنس يرتدي ثيابه العسكرية ـ كجندي في القوات الجوية ـ وعند وصولنا الى « فندق اتلانتيك » سأل العامل في قسم الاستقبال زوجتي عما اذا كانت ترغب بتخصيص غرفة « لسائقنا » نظراً لأنه لم يكن من المعتاد ان ينزل مجرد جندي في هذا الفندق ، وأصبح الموقف مثيراً للضحك عندما أجابته زوجتي (بأنه صديق لنا وليس سائقاً) ، وعند الذهاب لتناول طعام العشاء ، اعدت لنا مائدة منعزلة ، نصف مختبئة ، خلف العمود وذلك بهدف ابعادنا عن انظار الزوار المحترمين في ثيابهم الانيقة . هنا يجب ان اضيف انه عند التوقيع على سجل الفندق كتب اسمه : « ت.و. لورنس » وكان هذا التغيير في اسماء لورنس مثيراً ، اذ انه كان قد تبنى اصلا اسم « جون هوم » عوضا عن اسمه الاصلي وذلك خلال فترة خدمته السابقة في القوات الجوية الملكية .

ذهبنا في يوم الأحد الى فندق هيدلاند لتناول طعام الغداء ، والتقى لورنس هناك بمساعد قائد السرب ، وهو ضابط يسلك على الاغلب سلوك الصلف المتبجح ، فقد تقدم الينا ولديه رغبة ظاهرة في الانضمام الى محادثاتنا ، واجراء اتصال اوثق مع الشهرة التي يحملها على ما كان يعتقد بسبب رتبته . وعند ذلك وقف لورنس بالاستعداد . (حيث ضرب عقبيه معاً والصقهما) واتخذ افضل المواقف الانضباطية وهو يجيب على اسئلة مساعد القائد على التتابع لحسم النقاش بكلمة موجزة (نعم سيدي . . كلا سيدي) واستمر في ذلك حتى انسحب مساعد القائد وقد أصيب بالتجمد لهذه الطريقة المهذبة . وكان سلوك لورنس بمثابة درس موضوعي في فن مقاومة التعليمات غير المرغوب فيها . ولكن هذا السلوك ايضاً يظهر حرص لورنس وبعد نظره (في المحافظة على موقعه) على مستوى (مجند في القوات الجوية) وتجنب اقامة العلاقات المألوفة مع الرؤساء المباشرين وهو الأمر الذي قد يضر بالانضباط العسكري .

كان واضحاً خلال احاديثنا ان اخلاص لورنس للقوات الجوية الملكية ورغبته في خدمة مصالحها ، لم تتناقص بعد خدمته المملة والمضجرة في الهند لمدة سنتين . وذكر خلال النقاش اشياء كثيرة واحداثا صغيرة ومتنوعة تمثل وجهات نظر المستويات الصغرى

في الرتب العسكرية . وكانت مثل هذه الاشياء مثيرة او بالاحرى مخزية ، فكان تأثيرها على اولئك الذين يمارسون خدمتهم الحالية بمثابة عائق يعترض سبيل تجنيد افضل العناصر من الشبيبة الذين كانت القوات الجوية في حاجة اليهم . وظهرت وجهة نظره قاسية وحساسة بحيث انني اقترحت عليه كتابة مذكرة قصيرة عنها . وقد ارسل لي هذه المذكرة في شهر تموز (يوليو) .

وصلتني مذكرة لورنس في يوم كنت اتناول فيه طعام الغداء مع تومسون ، وعلى هذا فقد افدت من الفرصة ، وذكرت بعض النقاط قبل تقديم مذكرات بطريقة خاصة الى جاك سالمون الذي كان قد خلف فيليب غيم كمسؤول عن الافراد في وزارة الطيران ، والذي كانت معرفتي به تعود لسنوات عديدة .

استمر الحديث في موضوع لورنس حتى نهاية مأدبة الغداء ، حيث عبر تومسون عن شكوكه في حكمة بقائه عاملاً في خدمة القوى الجوية . وكانت لدي القدرة لاعلامه عن التقارير التي تلقيتها من مصادر مختلفة وبصورة خاصة عن زيارتي لكرانويلل حيث عرفت الأثر الجيد الذي يتركه بين الرجال بطريقته الهادئة وغير الفضولية ، مما حمل تومسون على التأثر بصورة جيدة لصالح لورنس .

ظهرت لسوء الحظ عاصفة جديدة بعد ذلك بشهرين ، وكان سبب ظهورها مطالبة سيدني سميث (الذي كان يتقد حماسة لمساعدة لورنس) وذلك لتعيينه في مركز اكثر اهمية من مجرد حاجب في مكتب تابع لاحدى القواعد الجوية ، بهدف الافادة من عبقريته وامكاناته . وكان من المقرر اقامة سباق الطائرات البحرية على جائزة شنيدر في شهر ايلول (سبتمبر) على ارض سولانت . (وهو سباق كان ينظم مرة في كل سنتين) . وكان على البريطانيين الذين ربحوا جائزة عام ١٩٢٩ مجابهة تحديات قوية من ايطاليا ، تزيد على تلك التحديات التي ظهرت في السباق الماضي[1] وكان سيدني سميث عضواً في اللجان الثلاث المشرفة على ترتيبات السباق ، فاصطحب لورنس معه لمساعدته ، فكانت النتيجة الطبيعية ان اصبح لورنس فوراً هو الذي يوجههم من خلال تبادل المزاح اثناء انطلاق الطائرات البحرية وعودتها الى قاعدة « كالشوت » . وقد حصل لورنس على تصريح يسمح له باستخدام طائرة خفيفة خاصة لحسابه .

اصيب وزير الطيران الايطالي الجنرال بالبو بالفزع عندما وصل كالشوت ، ووجد مدرج الانزلاق للايطاليين كان مغطى بالغثاء (الطفاوة) الأخضر ، في حين كان طريق الانزلاق المخصص للبريطانيين نظيفاً . ووقعت انظار الجنرال بالبو على لورنس وقد وقفت

معه مجموعة من عمال القوى الجوية ، فاتجه اليه لتبادل الاحاديث معه ، ببساطة ، وللاعتراض في الوقت ذاته على ما كان عليه مدرج الايطاليين من حالة مزرية . فجمع لورنس على الفور فريقاً للعمل من عمال القوات الجوية الملكية لتنظيف المدرج حتى لا يترك للجنرال بالبو فرصة تقديم احتجاج رسمي . ولكن المحادثة والعمل لم يكونا بعيدين عن اعين المراقبين . وبعدئذ . وفي يوم السباق ، اجتمع عدد من المدعوين الرسميين البريطانيين بينهم اوستن تشامبرلان وآخرين من الأعضاء البارزين في الحكومة السابقة ، وتوقف هؤلاء جميعاً للتحدث عن موضوع « فضيحة لورنس » ونتج عن ذلك انفجار غيمة في سماء « وزارة الحرب » .

كنت في هذه الفترة بعيدا لمتابعة مناورات الجيش ، وعندما رجعت الى لندن في ٢٠ ايلول (سبتمبر) نزلت مؤقتا في الفندق قبل قيامي بجولة في المانيا . وبينما كنت اتناول طعام العشاء في امسية اليوم التالي ، باغتني لورنس الذي جاء لزيارتي قبل ان يذهب لتناول طعام العشاء مع « جورج لويد ـ لورد لويد » رفيقه منذ زمن الحرب في البلاد العربية (والذي كان قد عزل عن منصبه كمندوب سام في مصر بسبب رفضه بعناد وحماسة لسياسة حكومة العمال التي تقضي بالغاء الرقابة عن مصر) . واعلمني لورنس انه تلقى اعلاما من ترينشارد يخبره فيه ان لورد تومسون قد طلب ابعاد لورنس وفصله عن القوات الجوية الملكية بسبب ما حدث في كالشوت ، الا ان اتخاذ هذا القرار قد تأجل حتى اجتماع الهيئة الاستشارية لوزارة الطيران في ٢٦ ايلول (سبتمبر) . اما كيف استطاع لورنس اكتشاف مكان اقامتي في الفندق فهو واحد من الاسرار التي غالباً ما كانت تحيط بسلوكه وتصرفاته .

جاء لورنس بعد ذلك بيومين (في يوم ٢٣ ايلول) لتناول طعام العشاء معي واعطاني معلومات تفصيلية عما حدث من اضطراب ، وكيف تطورت الأمور . فقال انه اقترح ـ بطريقة خبيثة وشيطانية ـ وفي حال الموافقة على عزله من القوات الجوية الملكية ، السماح له بالذهاب ومعه جورج لويد لزيارة العراق حيث اصبحت الآن تحت حكم اصدقائهما القدامى من العرب ، وكان من الواضح انهما ناقشا الفكرة اثناء تناولهما الطعام معا كطريقة لاثارة القلق في اوساط الحكومة البريطانية وحملها على الاحتفاظ بلورنس في القوات الجوية الملكية . وقد أعلمني لورنس ايضا انه قد بدأ العمل في ترجمة جديدة ونثرية للملحمة الأوديسة . بناء على تكليف من صديق امريكي له هو « بروس روجر » ولكنه وضع هذا العمل جانباً عندما طلب اليه المساعدة لاعداد في ترتيبات السباق على جائزة شنيدر ، وانه لم يشعر بالأسف ذلك لأنه كان يفضل كما قال (العمل مع هيئة القوى

الجوية الملكية اكثر مما يفضل العمل لحسابه الخاص ولمصلحته الخاصة) .

اتخذت الترتيبات لتناول طعام الغداء في اليوم التالي (يوم ٢٤ ايلول ـ سبتمبر) مع كريستوفر بولوك وذلك قبل الانطلاق بجولتي الى المانيا ، بهدف التحدث اليه والى جيوفري لويد (وهو من عائلة غير عائلة جورج لويد) بعد ان اصبح جيوفري لويد أمين سر خاص لبالدوين ، بعد ان مارس هذا العمل بكفاءة في خدمة هور .

واعلمني كريستوفر بولوك انه دخل في نقاش ـ قبل الغداء ـ مع روبرت فانسيتار في قضية لورنس . وكان روبرت قد أصبح الأمين الأول والخاص لرئيس مجلس الوزراء رامسي ماكدونالد ، وامينا عاما مساعداً لوزارة الخارجية الى جانب كونه احد ابناء عمومه لورنس (عن قرابة بعيدة) . وقلت ان كل ما استطيع عمله ـ طبيعيا ـ لدعم قضية الاحتفاظ بالقوى الجوية ـ هو التعلق الى ابعد مدى بمشاعر الأمل على ضوء ما جمعته من معلومات عن طريق بولوك وكذلك مواقف لورنس الخاصة التي تكفي وحدها لدعمه .

استمرت جولتي في المانيا لمدة شهر ، وبعد عودتي من الجولة مباشرة هبط لورنس لزيارتي وقضاء امسية لاعلامي بشأن « انقاذه مؤقتاً » من قضيته . واعلمني انه استدعي لمقابلة ترنيشارد في ٣٠ ايلول (سبتمبر) من اجل ابلاغه موافقة الامانة العامة للدولة على الاحتفاظ به في القوات الجوية الملكية ، ولكن على اساس قبوله ببعض الشروط . وكانت تلك الشروط التي ابلغه اياها ترينشارد تفرض بأنه (يجب عليه الالتزام بواجباته العادية كرجل فني في الطيران ، ويجب عليه عدم السفر الى خارج الاقليم والذهاب ولو الى ايرلندة ـ ويجب عليه عدم زيارة « العظماء » او التحدث اليهم وعندما سأل عما يعنيه ذلك ذكر له ترينشارد على سبيل المثال اسماء وينستون تشرشل واوستن تشامبرلان ولورد بيركينهيد وسير فيليب ساسون وليدي آستور وكذلك جميع البارزين في الافق السياسي . وعندما سأل لورنس فيما اذا كانت هذه الشروط تنطبق على علاقته مع برنارد ـ شو اجابه ترينشارد « كلا » . وقد اخبرني لورنس بذلك وأضاف وهو يضحك ضحكته الخافتة ان القيادة العامة ستصاب بالغيظ عندما تعلم بأنه لم يلتزم بحدود هذه المجموعة من الممنوعات و « المحرمات » .

وصلني بعد ذلك مزيد من المعلومات بشأن هذا الموضوع ، ومن زوايا مختلفة عن طريق بورغ وهور وبولوك حيث تحدثت اليهم على التتابع عند تناول الطعام معهم خلال الاسبوعين التاليين لجولتي .

وجد لورنس لحسن الطالع بعضاً من الانفراج للتحرر من اعباء الواجبات الرتيبة

المحددة لرجل فني في القوى الجوية يحمل رتبة متواضعة ، وكان ذلك عن طريق انصرافه للعمل في الأوديسة . وقد تلقيت منه رسالة في بداية شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ ذكر فيها انه امضى عطلة عيد الميلاد ورأس السنة في معسكر فارغ تقريبا (الا من فريق الخدمة) . وانه لم يغادر المعسكر طوال فترة شهرين سوى مرة واحدة للبحث عن حلاق يقص له شعره . حتى يدخل السرور الى (قلب رقيبنا الأول المضحك جداً) . ثم وصلتني رسالة اخرى جاء فيها (أفدت من كل ساعة فراغ توفرت لي للعمل في كتاب « هومر » وسأفرغ منه في أشهر قليلة ، ان ذلك ضياع للوقت ، ولكنه عمل مجزٍ بالنسبة للمكافأة المالية[٢] كما ان قراءة اليونانية بعناية كبرى انما هي رياضة عقلية جيدة) . اما ما تبقى من رسالته فقد تركز بصورة رئيسية على ما جاء في كتابي « شيرمان » الذي كان قد صدر حديثا . وكان مما كتبه لورنس عنه (لقد كتبته بوضوح كبير حتى ان معظم القراء سينسونك ويتذكرون شيرمان فقط على نحو ما اظهرته في صفحاتك كإنسان شفاف ورقيق جداً . . انك لم تكتب من قبل ابدا بمثل هذه المهارة وبمثل هذا الاحساس بالاقليم وكذلك في معالجة اكثر الشخصيات حيوية وانني اضع لهذا الكتاب العلامة الكاملة « مائة على مائة علامة » ـ ثم ختم رسالته بالملاحظة التالية (انني لم اعلم باسم فورست[٣] قبل قراءة كتابك او اسمع به ، ويجب ان يكون انساناً لان عباراتك كانت تتحطم فوق رأسه كما تتحطم الصخور في البحر وذلك في كل مرة كنت تأتي على ذكره) .

تعرضت جهود ت . و . لورنس ، في ترجمة الأوديسة لمزيد من التأخير . وذلك نتيجة تحول في تفكير وزارة الطيران بشأن الافادة على نحو افضل من جهودلورنس وقد علمت بذلك عن طريق عدد من الأصدقاء ، ولكنني لم اعلمه منه مباشرة حتى وصلتني رسالته في نيسان (ابريل) ١٩٣١ وفيها مزيد من التعليقات عن كتابي الذي صدر عام ١٩٣٠ تحت عنوان الحرب الحقيقية ثم انتهى الى القول :

وصلت الآن الى نتائج حربي مع وزارة الطيران ، وهي الحرب التي استمرت طوال سنتين بشأن صنع نموذج لمحركات الزوارق يصلح لاستخدامه في الطائرات البحرية ، وقد اخذ المتعاقدون في تقديم نماذج تجريبية لهذه الزوارق . وقد اصبحت خبيراً بحرياً احمل مسؤولية تجربة الوسائط لمصلحتهم واختبارها . واكتسبت بصورة عرضية وبالتدريج معرفة كافية عن الشواطىء الجنوبية الغربية لانكلترا ! ونتج عن ذلك نتيجة مزدوجة صغرى ورئيسية ، فالنتيجة الصغرى هي الغياب الطويل عن البيت ، اما النتيجة الرئيسية (والتي جاءت اعتراضية وبصورة غير مباشرة) فهي الشلل عن متابعتي لترجمة الأوديسة .

فقد توقفت عند الكتاب الحادي عشر ، وبدأت اشعر باليأس من قدرتي على اكماله . ذلك ان اختبار ـ محركات ـ الزوارق هو عمل يتطلب الوقت بكامله . ويستنزف قدرة المرء استنزافاً لايسمح له بالكتابة .

آمل ان تقضي اجازة سعيدة . اما بالنسبة لي ، فانا اجهد فقط للحصول في الوقت الحاضر على قدر ضئيل اعيش فيه حياتي المنزلية . وعليك اتخاذ الترتيبات حتى تشمل بلايموث ببعض يوم تقضيه هنا لممارسة واجبات عملك ، حيث ننطلق معاً في الزوارق السريعة . وسيكون ذلك وقتاً ممتعاً .

لم تتوفر لي فرصة زيارة لورنس حتى شهر تموز (يوليو) ، عندما قمت بزيارة لتطبيقات المدفعية في « اوكهامبتون » القريبة من « دارتمور » وقضيت أمسية معه في بلايموث . وحدثني لورنس بحماسة عن عمله الجديد ، وكيف اقنع وزارة الطيران لتبني فكرة استخدام هذه الزوارق السريعة للانقاذ الجوي ـ البحري . وقد طلبت وزارة الطيران ١٧ زورقاً بسعر ١٨٠٠ جنيه استرليني تقريباً للزورق الواحد . ويتطلب استخدام الزورق زمرة من رجلين ، وهو يسير بسرعة ٣٠ عقدة وله حجرة زجاجية للقيادة . وقد قام لورنس بجولة في هذا الزورق الى بترانس ، وكان البحر في حالة كبيرة من الهياج ، وحقق نجاحاً رائعاً في هذا الاختبار . وسألته ما اذاكان قد عاد للطيران من جديد . فقال لي انه اصبح في حل من وعده بعدم الطيران ، بعد ان مات تومسون ، وبعد ان احيل ترينشارد على التقاعد ، ولكنه يشعر بعد توقفه لفترة ١٥ شهراً انه لم يعد يرتاح للطيران .

تركز ما بقي من حديثنا بصورة رئيسية على موضوع الكتب ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للرسائل التي تلقيتها منه خلال الثمانية عشر شهراً التالية . وضحكت بيني وبين نفسي لمقطع جاء في رسالة له بتاريخ الأول من آب (اغسطس) ١٩٣٢ ، تعليقاً على كتابي الجديد بريطانيا في طريقها للحرب والفصل الأساسي فيه وهو « اعادة صياغة الاستراتيجية » . وكان ذلك بمثابة اعادة صياغة مطولة ومدروسة بدقة للنظرية الاستراتيجية ، وشعرت انه من الضروري توجيه تحذير في المقدمة « بان قراءة الكتاب تتطلب بذل الجهد » وان هذا الكتاب « غير مناسب للمطالعة السهلة قبل النوم » . وكان تعليق ت و . لورنس هو التالي :

شعرت بالبهجة الكاملة وبسرور بالغ لدى قراءة الفصل الأخير من دراستك الفلسفية المعقدة لعلم المصطلحات الفنية العسكرية . لقد كان واضحاً جداً ، وبسيطاً

جداً ومرحاً جداً . وانك أصبحت سيداً مهيمناً على فن التعبير في بحثك عن القدرة لهداية الأرواح والأنفس . انها رائعة ككتابة ، وستكون كتابة رائعة لو انك استطعت فقط وصف طريقة لتكوين الآمال .

كان جوناثان كاب ـ ناشر كتاب لورنس « ثورة في الصحراء » قد فاتحني قبل سنوات ثلاث في موضوع كتابة كتاب يعالج بالتفصيل حرب الشرق الأوسط ووضع اعمال لورنس وما قام به من دور كبير في اطار العمليات الواسعة لتلك الحرب . وعند مناقشة القضية مع ت . و . لورانس وجدت انه اظهر رغبة في فكرة اجراء مثل هذه الدراسة التاريخية الواسعة للحملة على ذلك المسرح البعيد للعمليات ، مع اعطاء نظرة خاصة للعلاقات المتداخلة والمتبادلة بين الثورة العربية والحملة الحربية الكبيرة . ولكن عند اعادة دراسة الفكرة أظهر لورنس قدراً اكبر من التردد عندما قال انه لا يستطيع ان يقدم لي عوناً كبيراً ، وانه يجب علي الاعتماد بصورة رئيسية على المواد الأولية التي يمكن لي الحصول عليها من المصادر المختلفة الأخرى . وكان مما قاله (ليس لدي وقت لهذا العمل ، كما انني لا أميل اليه او ارغب به ، ولا يطاوعني قلبي للعمل ، ولا استطيع اجهاد فكري كثيراً للوصول الى ذكريات تلك الأيام من اجل تلبية طلب اي انسان) . ورغم ذلك ، فقد منحني ت . و . لورنس على نحو مميز قدراً اكبر من الدعم والمساعدة ، وأظهر اهتماماً كبيراً بالكتاب تجاوز ما كنت احلم به او ارغب فيه . وكان على كل حال يرغب حتى تلك الفترة في استمرار الحصول على ردود فعل متواترة . وعلى هذا ، فبعد ان اقترح اضافة بعض الشخصيات ووافق على المسودات الأولى والثانية ، انتابه وخز ضمير مباغت لأنه اعتبر مضمون الكتاب مغرقاً بالناحية الشخصية . فجاء لزيارتي ، وبدأ باقتراح اجراء تعديلات جذرية ، وانطلق في مطالعة الكتاب من جديد وقلمه في يده حتى انتهى الى شطب مقطع واحد لا اهمية له الى جانب تغيير بعض العبارات الصغرى او الجمل القصيرة .

لم ابدأ ابحاثي في الكتاب حتى فصل الربيع من عام ١٩٣٢ ، بعد ان تم لي الحصول على تصريح للعمل في مصادر المعلومات الرسمية والاطلاع عليها ، وخلال ذلك ايضاً جمعت شهادات عدد من الاشخاص ممن كان لهم دور هام في الحملة وحصلت على ما لديهم من براهين . وبعد ذلك ، بدأت في الربيع التالي بطرح مجموعة كبيرة من الاسئلة على ت . و . لورنس بشأن بعض النقاط التفصيلية الدقيقة وهذا ما حملني على زيادة المقابلات والاتصالات باستمرار .

كانت احدى هذه المقابلات ذات اهمية كبرى بصورة خاصة بعد النتائج التي

اعقبت اللقاء الأول بين ت . و . لورنس ولويد جورج منذ ايام مؤتمر السلام . فقد ذهبت ومعي زوجتي الى هيندهيد لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في شهر أيار مايو ، وزيارة ولدنا آدريان الذي بلغ في حينها الحادية عشرة من عمره تقريباً وكان في المدرسة الاعدادية هناك . وتوافق ذلك مع زيارة كان ت . و . لورنس قد أعدها للذهاب الى لندن . وقد اتخذ الترتيبات لقضاء امسية يوم السبت معنا . وكان هذا اليوم هو يوم الرياضة في برنامج المدرسة ، وكنت اتوقع ان ينتظرنا لورنس في الفندق إذا ما وصل قبل عودتنا . ولكن ادريان كان قد التمس منه في السنة الماضية الحضور لممارسة الالعاب الرياضية او مشاهدتها ، وتذكر لورنس ذلك فامتطى دراجته وذهب الى المدرسة . وهناك ترك لورنس الأولاد يزدحمون حول دراجته النارية ويعملون على تفحصها ، وكانت من نموذج « برو » الجديد ووزنها ربع طن وتستطيع السير بسرعة مائة ميل في الساعة تقريباً .

سألت لورنس عندما غادرنا المدرسة ما إذا كانت لديه رغبة لرؤ ية لويد جورج . وقد قفز لاقتناص الفرصة . وعلى هذا اتصلت هاتفياً بلويد جورج الذي أظهر بهجة مماثلة . وحدث اللقاء في جو وصلت فيه الاثارة ذروتها وكان كلاهما في افضل اشكال احاديثهما حتى اصبح من الصعب علي الابتعاد عن لورنس في الوقت الذي كان يجب العودة فيه لمرافقة آدريان الى مدرسته .

أثناء الطريق الى برون ومنها الى منزل لويد جورج في شارت من دائرة « سوري » قال لي لورنس انه على الرغم من الاختلاف الحاد في وجهات النظر بشأن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط فانه يحمل اعجاباً كبيراً لشخص لويد جورج ، وقال عنه (لقد كان برجاً فوق كل ما عداه اثناء مؤتمر السلم ـ بحيث ظهر كليمنصو وڤيدر ويلسون بالمقارنة معه على درجة من التفاهة والافق المحدود) وفوق ذلك كله فان ما كان يذهله في شخص لويد جورج هو (رغبته في عمل ما هو صحيح ـ وليس مجرد العمل لمصلحة الأمة) .

كان هذا التعليق مباغتاً لي ، واعرف انه يختلف يقيناً والى حد بعيد عن الفكرة التي يعرفها الشعب عنه . فسألت لورنس : (هل تعني بذلك فعلاً ان لويد جورج يذهب الى ابعد الحدود في اتباع مثل هذه الفكرة ، حتى لو كان ذلك يعني تعريض سمعته السياسية للخطر ؟) فكان جواب لورنس ان ذلك اكثر بكثير مما هو متوقع من اي انسان يعمل في حقل السياسة . ولكن مستوى غريزة لويد جورج في السياسة تدفعه الى ما هو صحيح ، اذا كان ذلك بالمستطاع ، وبشرط الا يسبب ذلك ضرراً كبيراً على مصالحه السياسية . وهنا

اراد لورنس ايضاح هذه النقطة عن طريق المقارنة بين وينستون تشرشل ولـويد جورج فقال (ان تشرشل لا يهتم بقضية إن لم تكن له فوائد منها) وكان لورنس معجباً ومحباً لتشرشل بقدر محبة هذا له واعجابه به ، ولكن مشاعر المحبة لم تكن لتحجب عنه وضوح الرؤ يا . وكنت بعد ذلك كلما امعنت في مراقبة تشرشـل على ضوء هذه الفـكرة ، كلما زادت قناعتي بصحتها وصوابها .

استمر النقاش في تلك الليلة بين لورنس وبيني حتى الساعة الواحدة صباحـاً ثم تابعنا حديثنا طوال صبيحة اليوم التالي . وعلى الرغم من ان القسم الأكبر منه قد تركز على احداث الماضي ، إلا أنه عبر عن بعض افكاره المميزة بشأن مستقبله .

قال لورنس انه يعتزم الاستقرار بعد انتهاء خدمته في عام ١٩٣٥ ليقيم في منزلـه الريفي « كالناسك » ولو انه لا يريد الاعتكاف تماماً ، نظراً لرغبته في الذهاب الى لندن لحضور الحفلات الموسيقية ومشاهدة المسرح بالمناسبات ، ورؤ ية الناس مع ممارسة اعمال الترجمة لتأمين متطلباته ورفاهيته . وكان مما قاله : (افضل ممارسته الترجمة ، لأن بالامكان الاضطلاع بهـا بانتظـام ـ وبالمراسلـة ـ ووفـق جدول توقيتـات محـكم) لقـد كان يريد الاستمتاع (بالانصراف عن كل عمل) وكان لا يفكر في انه يحتاج لعمـل يقطـع عليه احساسه او عبثه .

كانت لدى لورانس فكرة في متابعة البحث عن الآثار من جديد بعد انتهاء الحرب ، ولكن قضي على هذه الفكرة نظراً لأن اعمال « التنقيب » في اي اقليم من اقاليم الشرق الأوسط ستضعه موضع الشكوك السياسية وتخضعه للمراقبة . وعلاوة على ذلك فقد اتجه تفكيره بداية من عام ١٩١٨ نحو التطوع في القوات الجوية الملكية ، ولكنه اجل تنفيذ هذه الفكرة لمدة ثلاثة اعوام كان يعمل خلالها للمساعدة في تسوية الشؤ ون العربية . وقد اعلم جيوفري سالمون عن رغبته في الالتحاق بالقوات الجوية الملكية ، فكان رد سالمون هو ان اقترح عليه مرافقته للعمل كمساعد له في مصر . فكان رده على هذا الاقتراح « انني اريد التطوع » ذلك انه كان يشعر ان عليه تعلم عمل يبـدأ فيه من القاعـدة ـ الاسفـل ـ . واستمر لورنس في حديثه فقال لي (انني انظـر الى الطـيران كشيء وحيد يحتـل المرتبـة ـ الأولى ، وان على جيلنا الحصول على هذه المعرفة . وعلى كل واحد ان يبذل جهده اما بالانضمام الى الطيران ، او بالمساعدة على تقدمه نحو الامام ، وقد اضطلعت بممارسة هذا الدور عملياً وأكملته الآن .

ناقشت لورنس صراحة بشأن ما حدث له من تغير ، وما يتميز به من توازن هو اليوم

افضل من كل وقت منذ عرفته للمرة الأولى ، وتساءلت عما اذا كان ذلك ايضاً هو سبب تطوعه فأقر لورنس بأنه هو ذلك ، واعترف انه كان « يتعرض لما يشبه الاضطراب » عندما تطوع في القوى الجوية فالتوتر الذي عاناه خلال كتابة اعمدة الحكمة السبعة كان كبيراً جداً ، وانه اهتاج واستثير كثيراً جداً لكنه الآن قد اصبح « اكثر انسانية » بعد ان خرج « الشيطان » منه

اصبحت قادراً علي ان ارسل اليه المسودة الأولى للكتاب والمطبوعة على الآلة الكاتبة قبل نهاية شهر حزيران (يونيو) ، وكنت قد فرغت من كتابة ثمانية عشر فصلاً او ما يعادل ثلاثة ارباع كتابي ، وهو يغطي القسم الأكبر من الحرب فأعادها بصورة فورية تقريبا مع مجموعة من التعليقات والملاحظات الثمينة التي خطها بقلمه في هامش الكتاب ، كما أرسل مع الكتاب رسالة لعلها كانت من اروع ما كتبه في حياته من ايجاز لأفكاره العسكرية واتجاه تفكيره في موضوع القيادة

عزيزي ليدل هارت

٢٦/ ٦/ ١٩٣٣

ذكرت انك ستحضر ، فهل ستفعل ذلك للقضاء على رواسب العمل الشاق والتفكير المتعب ـ ولعلك تتفق معي فيما اشعره ـ ؟

انني لم اكن جندياً بالغريزة ، ولكن لدي الحدس الآتي بالافكار الصحيحة فعندما كنت اتخذ قراراً او اتبناه ، كنت اعمد الى اتخاذ قرار تبادلي بعد دراسة كل ما يتعلق به ويناسبه مع دراسة كل ما هو غير مناسب ايضاً من عوامل مختلفة مثل العامل الجغرافي ، والتكوين القبلي ، والعامل الديني ، والعادات الاجتماعية واللغة والاستعداد والمستويات حتى اصبح على معرفة جيدة بها جميعها وكنت اهتم بمعرفة العدو كاهتمامي بمعرفة القوات الصديقة وقد جازفت بحياتي وانا اعيش بينهم مائة مرة حتى اتعلم

ينطبق ما سبق ذكره على الاساليب التعبوية (التكتيكية) فاذا ما استخدمت السلاح جيداً فذلك لانني استطيع التعامل معه كان استخدام البواريد سهلاً لانني اخضعت نفسي للتدريب من اجل استخدام لويس والفايكرز والرشاش هوتشكيز(.وقد اتقنت التدريب على الفايكرز والبواريد والمسدسات منذ ايام دورتي التدريبية التعبوية) واذا طالعت مقالي عن « البيكاكس » او الأعمال الهندسية ، فانك تستطيع ادراك مدى ما تعلمته في موضوع المتفجرات من اساتذتي في معهد المهندسين الملكي ،

ومعرفة مدى ما طورته في اساليبهم . لقد تعلمت الطيران حتى استخدم الطائرة ، وتعلمت قيادة الآليات حتى استخدم العربات المدرعة وحتى اقاتلها وأصبح جندياً في المدفعية عند الحاجة ، واستطيع ممارسة الطب ، والحكم على الجمل .

ينطبق ذات الشيء على الاستراتيجية ، لقد كتبت صفحات قليلة فقط في موضوع فن الحرب ـ ولكنني اعتبر نفسي في هذا المجال مجنداً استمد معارفي من اسلافي اصحاب اللغات الخمس . وانك واحد من قلة من الرجال الانكليز الاحياء الذين يستطيعون رؤ ية ما هو مقتبس وما هو مذكور ضمناً وبالتلميح ، وكذلك ما هو متشابه من المفاهيم العسكرية ما أقوله فيها وما افعله .

لقد جعلت ذلك واضحاً للقادة . على الأقل بالنسبة لقضيتي ، وحولت الدراسة الصعبة والعمل الفكري المركز الى دراسة سهلة الادراك والفهم ، وتمكنت من الوصول بيسر الى ما لم اتمكن من الاضطلاع به بصورة جيدة .

سيكون جهدك في الكتاب عملاً جيداً اذا ما استطاع اقناع البعض من قادتنا الجدد بالقراءة وبالملاحظة وبتعلم ما هو اكثر من كتب مبادىء التدريب ، وما هو اكثر من البرامج التعبوية (التكتيكية) . وأشعر بقصور اساسي وعدم اهتمام في وسط ضباطنا ، فهناك كثير جداً من الاجساد وقليل جداً من الرؤ وس . وان الضابط او القائد الكامل هو ذلك الذى يعرف كل شيء في السماء والأرض .

على هذا ، ارجوك اذا ما كنت تشاركني وجهة نظري وتتفق معي في الرأي ، ان تستخدمني كنص للتبشير بمزيد من الكتب ومزيد من التاريخ ، لأعظم ما في فن الحرب من الدروس الجدية . ان وراءنا تجارب الفي سنة ولا عذر لنا ان لم نقاتل في الحرب بصورة جيدة .

كان لورنس خلال هذه الفترة يقضي معظم وقته في العمل في حوض شركة الزوارق التجارية الواقع في « هيث » من « ساوثها مبتون ووتر » او في « كويز » وقد ذهبت في آب (أغسطس) لزيارته من جديد حيث عرض علينا النموذج الجديد لتحطيم الرقم القياسي الذي صممه هوبرت ـ سكوت ـ بين من اجل تحدي الأمريكيين في السباق المقبل . وقد اطلق على هذا النموذج اسم « ميس بريطانيا ٣ » وقدرة المحرك ١٤٠٠ حصان بخاري . وعمل لورنس على اصطحاب ابني ادريان في زورق خفيف ـ وسريع خلال الفترة التي كنت اتحدث فيها الى سكوت ـ بين . ثم قدت السيارة بعد ذلك الى « اوتربورن » لقضاء الليل هناك في حين كان لورنس يتقدمنا على دراجته النارية . وقد حاولت البقاء على

اتصال معه ومتابعته خلال التحرك على الطريق ، ولكن الاسلوب الذي كان يتبعه لتجاوز حركة المرور ارغمني على توبيخه مع ذكر الاخطار التي يعرض نفسه لها . ودافع لورنس عن اسلوب ركوبه الدراجة ، زاعماً ان الأمن انما يكمن في قدرته الكبرى على التسارع ، فكان ردي ان هناك بعض الظروف التي لا تستطيع السرعة المتسارعة انقاذه - وعلى سبيل المثال عندما يعترضه احدهم بصورة مباغتة - كما ان اسلوبه لا يترك هامشاً كافياً من الحيطة ضد المتهورين - المجانين - واستمر الجدل حتى توقف لورنس فجأة ليقول بطريقة مثيرة للحزن « سينتهي ذلك بمأساة ذات يوم ! » .

حدثت في الصيف التالي مناقشة اخرى في الموضوع ذاته وفي « اوتربورن » ايضاً ، واعترف لورنس انه جرب تجنب دهس ولو دجاجة ، على الرغم من المجازفة في السير عند المنعطفات بسرعة عالية . وتابع قوله ان راكب الدراجة فقط هو الذي يحمل القسط الأكبر من المجازفة والتعرض للخطر ، وان اي اهمال يعرضه للقتل . اما سائق السيارة فانه يستطيع في اغلب الأحيان الفرار بمرونة اكبر وبسهولة اكثر مما يستحق ، وعلى هذا فان لورنس كان يتمنى تجهيز السيارات بحراب عكسية في مواجهة صدر السائق . بحيث تخترق الحربة صدره اذا ما صدم اي شيء . وعلى الرغم من ان هذا الاقتراح لا يحمل مضموناً جدياً ، إلا ان ذلك يظهر ان لورنس لم يكن يعني ما يقوله بالنسبة لاقتحام المخاطرة بنفسه ، بقدر ما كان يخشى قتل غيره . وقد تذكرت ذلك فور اعلامي بحادث كان خطيراً بالنسبة له وذلك بعد اثني عشر شهراً فقط .

لقد أجابني لورنس على سؤال في احد رسائلي اليه بما يلي :

يتطلب ايضاح الاغراء في عامل السرعة العودة لاستقراء الطبيعة الانسانية . ولكن من الاسهل فهمها عوضا عن ايضاحها . فالرجال جميعاً على اختلاف اعمارهم يراهنون على السرعة ويطلبونها لانفسهم في الخيول السريعة او الجمال او الزوارق او السيارات او الدراجات او الطائرات : ويجهد الرجال جميعا انفسهم في السير او الركض - العدو - او السباحة للوصول الى سرعة اكبر . ان السرعة هي ثاني أقدم الحيوانات التي تتوق اليها طبيعتنا وتنشدها ، ويعتبر جيلنا سعيدا - محظوظاً - لانه يستطيع اطلاق العنان لنفسه بتكاليف أرخص وعلى نطاق أوسع مما كان عليه اسلافنا . ويبحث كل انسان طبيعي عن السرعة التي تناسبه وتستجيب له . أما انا فلدي - بحسب دخلي - دراجة نارية .

عاد لورنس لمعالجة هذه النقطة ذاتها عندما تقابلنا من جديد ، وتحدث عن سعادته في كل مرة يمتطي فيها « سرج » دراجته عندما ينقضي عليه اسبوع يصرفه عن ركوب

الدراجة بسبب واجبات عمله في المركز . وكان يستمتع كثيرا بركوب الدراجة (حتى انه لن يكلف وزارة الطيران ولو بنساً واحداً مما يستحقه كاجور مواصلات لقاء الرحلات التي أصبح لزاما عليه القيام بها للعمل في اختبار الزوارق السريعة وفحصها) . وقد أدى به ذلك الي مزيد من الايضاحات لارضاء ـ نفسُه . فقد قال انه يقتنص عن طريق ركوب الدراجة الاثارة والاهتياج بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وكان شديد التوق دائماً للوصول الى الاثارة والاهتياج وتجربتها من جديد . وهو لم يكن ليكررها لو لم يجد فيها « اللذة » أو « الألم » . ذلك ان اللذة أو الألم بالنسبة له هي قضية مزاج شخصي أو حكم فردي . (انه لم يكن ناسكا ولا زاهداً . وانما كان يجد في المتعة واللذة افضل ما في الحياة) . وتابع قوله بما يلي (ان أفضل الاحاسيس ـ من اثارة وهياج ـ والتي تشعر بها ، هي الاكثر جوهرية فيما يدفعك الى الحرص عليها والبحث عنها) . ولكن ما كان يحدث هو ان احاسيسه كانت تختلف عن أحاسيس معظم الناس ـ وتوضح هذه العلاقة « عزوفه عن الجنس » . وذكر في مناسبة اخرى بأن اللذة والاهتياج انما تحصل له بصورة رئيسية عن طريق المشاهدة ، وليس عن طريق التجربة . وهذا هو السبب في عدم استمتاع لورنس (بالطعام او الخمر) وعندما كان يزور أصدقاء له ممن يفعلون ذلك ، كان شعوره الوحيد هو (كم هي كثيرة تلك المزعجات) ثم يأخذ طريقه للفرار .

سبقت لي الاشارة لزيارتي الثانية لحوض الزوارق البخارية في آب (اغسطس) ١٩٣٣ ، وخلال الحديث بعد تلك الزيارة اعلمني انه تلقى رسالة من الملك تقول (انه يعتقد في ان لورنس هو من اكثر الناس سعادة واكثرهم متعة بين جميع افراد مملكته) . وذكرت له ان هذا الرأي يتوافق تماما مع انطباعي الحديث عنه ، وسألته (هل انت سعيد حقاً ؟) واجاب على الفور (ما من احد يفكر في ان يكون سعيداً حقا في الوقت الحاضر) وتابع حديثه ليقول انه تعلم منذ زمن طويل (ان السعادة تكمن في أعماق أنفسنا وفي داخلنا وليس بما يأتينا من الخارج) ولكنه تعلم ايضا فيما بعد ان السعداء هم اولئك الذين لا يفكرون) والذين كان لورنس يعيش بينهم الآن . كان سعيدا في ذروة نشاطه ، ويجد الرضى في بعض الأعمال ، وبصورة خاصة منها العمل الآلي ـ الميكانيكي ـ الذي يتقن الاضطلاع به . كان يفكر « كالصبي » انه في سبيله لعمل الأشياء العظيمة في المجالين « الفكري والعملي » . وعندما قلت له « انني لم اكن اعرف ان باستطاعتك الاضطلاع بهما معاً) اجاب انه يعتقد (في انه أنجزهما معاً) . وكان يقوم باعماله التي ينفذها جميعها وكأنه يصارع (ضد الأشباح) . فكان يدخل في المنافسة مع ما يعتقد انه المستوى الذي يجب الوصول اليه ، ولم يكن ليدخل المنافسة ضد ما يحققه الآخرون من انجازات .

لاحظت في مرات متتالية ، خلال نصف السنة الأخيرة التي سبقت انتهاء خدمة لورنس في القوات الجوية الملكية . انه كان يتعرض لتدهور في حالته النفسية واحباط ، ولو لم يكن ذلك ثابتا أو مستمراً ، وكان ذلك يظهر سواء في رسائله او من خلال احاديثه . وجاء في رسالة له بتاريخ ٣١ آب (اغسطس) ١٩٣٤ ما يلي (سأصاب برعب كبير عندما يقبل شهر آذار (مارس) وذلك من الاعمال التي ستجابهني في سكني (الكوخ) . وكأن ذلك حتى اتجنب الكوخ وأبتعد عنه . وبعد ذلك من يدري ؟ . . انني تعب جداً من العمل فقط . وارغب كثيراً في اغراق نفسي بهدوء لا نهاية له ابداً)

وصلتني رسالة اخرى بعد اسبوعين ، كتب فيها ما يلي :

. . . بالنسبة لمستقبلي . . . . اعتقدت انك اخطأت التوجه في الحكم علي من خلال ما وصفتني به في كتابك الذي يحمل عنوان « ت . و . لورنس في بلاد العرب وما بعد » . انني طبيعي جداً في الواقع الا أنني مرهق جداً وفي نهاية معرفتي لمحركات الزوارق . انني مصمم على العمل في هذه الأشهر الستة الأخيرة لاحكام كل خلل واصلاح كل عيب من اجل ضمان انطلاق خلفي في عمل الزوارق بصورة صحيحة - دون أي خطأ ، وليس لدي اي مخطط لما يجب عمله بعد هذه الأشهر الستة . وان ما أشعر به بالنسبة للاستقرار والراحة هو انه يجب الاستمرار في الراحة حتى لا أريد المزيد منها ، أو حتى لا أرغب في أي شيء آخر . .

ان اخر ما ارغب به هو توفر الفاعلية للبحث عن الفاعلية . وآمل ان يكون لدي ما يكفي من العقل حتى اجد السعادة تماماً . وعلى هذا فلن افعل شيئاً حتى يصبح ذلك ضروريا : أو هذا هو املي على الأقل . ليس في ذهني اي مخطط ، ولا طموح ولا ارادة ، ولكن هناك شكاً فقط في ان يكون المال الذي وفرته غير كاف حتى اعيش بسلام .

ولكن سواء كان ذلك كافيا او غير كاف فسأحصل على الراحة بأية طريقة . .

جاءتني رسالة اخرى من لورنس في الاسبوع التالي ، وكان في نهايتها :

هل ان كلاودس هيل « تلال الغيوم » وخلفيتها هي أفضل قسم من صورة المستقبل ؟ كم هي اعباء ثقيلة تلك التي سأحملها ! فكر في ذلك . انها تجربة جديدة في الواقع لم اتعرض لحمل اعبائها حتى الآن .

كتبت رسالة الى ت . و . لورنس بمناسبة عيد الميلاد ، اعلمته فيها عن تعييني

كمراسل عسكري لصحيفة التايمزومستشاراً لها في الشؤ ون العامة للدفاع . فاجاب بالرسالة التالية :

ـ فندق اوزن ـ
بريد لينغتون

أحر التهاني لما تضمنته رسالتك التي وجدتها عند عودتي . وكنت أخشى دائما ان تعمل الديلي تليغراف على التصرف بمثل ما تتصرف في امور زملائها الرخيصين وأن تصرف جميع كتابها العاملين في هيئتها . وسيكون مركزك في صحيفة التايمز ثابتاً ودائماً وأميناً ومحترماً وغنياً ايضا . لقد وصلت الآن الى ذروة حرفتك وقمة مهنتك . فلك اعظم الاعجاب .

ان منحك السلطة على زملائك الاختصاصيين في البحرية والطيران هو اكثر من امر مدهش ، انه يجب ان يمنحك الامتياز لقاء ما تتميز به من كفاءة شخصية ، أما بالنسبة لجيش اليوم فدورك هو خدمة سندريللا . واني على يقين انك ستكون قادراً على تنسيق التعاون بين القوى الثلاث (البحرية والبرية والجوية) للهجوم والدفاع لما فيه الفائدة العامة للجميع . على هذا انتهي الى ان تكون ، على مثل ما انا فيه ، من سرور بالغ . اني اناشدك عدم تبديد الاضافة المالية في دخلك لشراء سيارة جديدة (أو لشراء قبعة جديدة . الا اذا كانت السيدة ليدل هارت راغبة في ذلك) ، ولكن من اجل استثمار التوسع الجديد لشراء كتب قيمة ولو انها غير مفيدة من الناحية المادية . وامنحنا بعضاً من التأملات في موضوع العلاقات بين كثافة القوات ونموذج الحرب : والعمل بعيداً عن المؤثرات في كثير منها أو قليل بما نتلقاه من اساليب تعبوية (تكتيكية) في قاعات المحاضرات . وهكذا فانك وانت تفعل ذلك ستقذف بسوينستون الى خارج جامعة أوكسفورد ، وتحتجز لنفسك مكانته . كما ان العلاقة بين التايمز وقرائها علاقة تاريخية وطيدة . وأصلي لك وأنت تقوم بالعملين معاً . أما بالنسبة لي ، فانا على وشك تذوق نكهة الفراغ الحقيقي والكسل ، ولقد مضت ٤٦ سنة وانا اعمل ، وكان عملا شاقاً . وبقي لي (على ما أتوقع) ٢٣ عاماً . وقد تمضي هذه السنوات بمثل ما قاله فليكر في شعره

كم مرت علينا أيام (آحاد) عظيمة .

واذا ما احببت الكسل في هذا الفراغ عندما سيأتي ، فأرجو ان تتمنى لي وان تتذكرني بالدعاء حتى استطيع مجابهة استطالات الفراغ وامتداداته دائما والى الأبد .

وتلك هي أمنياتنا المشتركة والمنفصلة لعام ١٩٣٥ ولكل ما فيها .

تبادلنا الأحاديث مرتين خلال تلك الفترة ، وأظهر لورنس انه يعاني صراعا ضد الاتجاه نحو معاودة نشاطاته فاعلياته . وكان في المرة الثانية اكثر وضوحاً في التعبير عن هذا الصراع عندما جاء لزيارتي في لندن بتاريخ ٢٢ آذار (مارس) ١٩٣٥ (بعد ترك القوات الجوية الملكية البريطانية بفترة قصيرة) . وقال لي انه تلقى عرضاً ليصبح خلفاً لهانكي ، ولكنه اجاب انه يوافق على ذلك بشرط واحد هو ان يتم فصل امانة سر مجلس الوزراء وامانة سر هيئة الدفاع الامبراطورية . وكان واضحا ان فكرة اضطلاعه باعباء المركز الأخير قد لاقت هوى في نفسه اكثر من كل تلك العروض التي قدمت له . وكان احد هذه العروض ان يصبح امينا عاما لمصرف انكلترا ، حيث قام حاكم المصرف مونتاغو نورمان بنقل هذا العرض اليه عن طريق فرانسيس رود (الذي أصبح فيما بعد اللورد رونيلل الثاني) وهو الذي أعلمني بهذا العرض فيما بعد .

أعلمت ت . و . لورنس عن الاقتراحات السابقة منذ عام ١٩٣٢ وما بعدها ، بشأن تعييني معاونا لهانكي - وخلفا له بالتالي في وزارة الدفاع . ولكن لم يحدث شيء من ذلك حتى الآن . ولم يظهر على لورنس انه بوغت ، وانما قال معلقاً : (يتصرف هانكي بحذر لتجنب تعيين أي انسان قد يكون خلفاً له ، انه يعتقد ان باستطاعته الاحتفاظ بمركزه الى الابد ، على الرغم من ان مجلس الوزراء قد أكد على عدم استطاعته الاستمرار في ذلك) وقلت ان هانكي كان باستمرار من اكثر الناس استعدادا للدعم والمساعدة ، وانه اكثرهم مرحاً وتفاؤلاً ، فوافق لورنس على ذلك لكنه أضاف : (لست أنت ولا انا من النوع الذي يرغب به هانكي ليكون مساعدا له . فهو يرغب في خلفاء له مجردين من الكفاءة والقدرة) .

قال لورنس ما سبق ذكره بلهجة كئيبة حزينة ، مما ترك لدي شعوراً انه ربما رحب بفرصة تضمن له العودة للعمل بفاعلية ونشاط في مثل هذا المجال . ولو حدث مثل ذلك . فستكون النتيجة بالغة القيمة والأهمية لمصلحة الدفاع البريطاني ، لاسيما عندما طلب الى وينستون تشرشل تسلم رئاسة مجلس الوزراء في ايار (مايو) ١٩٤٠ . فقد أظهر هذا باستمرار اعجاباً غير محدود بلورنس مع محبة عميقة له . وكان من شأن ذلك ان يكون عاملاً هاماً ، إذ كان تشرشل على نقيض لويد جورج الذي كان يثق ثقة مطلقة بتفوقه وقابلياته لتوجيه فريق من مفكري النخبة المتفوقة . أما تشرشل فكان يظهر عدم ارتياحه لمثل هذه الصحبة (من المفكرين) ولهذا كان يميل الى اختيار مساعديه وزملائه ممن هم أقل

قدرة على منافسته أو مناقشته . وكان من المحتمل ان يشكل لورنس استثناء لهذه القاعدة نظراً لشعور تشرشل القوي تجاه لورنس ، وكان من المحتمل ايضا ان يمارس لورنس مزيدا من التأثير في توجيه السياسة ـ الاستراتيجية لتشرشل بحيث يتجاوز هذا التأثير كل تلك التي اتخذت لتوجيه تشرشل في الحرب العالمية الثانية .

* * *

رجعت الى منزلي في وقت مبكر من مساء يوم الاثنين ١٣ أيار (مايو) ، حيث أعلمتني « السكرتيره » عن اتصال وزارة الحرب للاعلام عن حادث اصطدام تعرض له لورنس أثناء قيادته لدراجته النارية في طريق عودته من معسكر بوفينغتون الى كوخه في كلاود هيلل ، وانه أصيب بجرح بالغ في رأسه مع كسر في الجمجمة فتم نقله الى المستشفى العسكري هناك . وقد طلب المسؤول في وزارة الطيران فيما اذا كنت اعرف عناوين أقاربه . فاتصلت على الفور بوزارة الطيران وأعطيتهم ما اعرفه من مثل تلك المعلومات المطلوبة ، فقد كانت والدة لورنس في الصين مع اكبر اخوة لورنس ، أما بوب أصغر الاخوة الخمسة والذي لا زال على قيد الحياة فكان قد عين في جامعة كامبريدج . وكان يقضي اجازة في جزيرة ميورقه . واتصلت بعد ذلك هاتفياً بالمستشفى فوجدت هناك لورد كارلو اصغر اصدقاء لورنس ، الذي كان قد توجه لزيارة كلاود هيلل حيث استقبلته بمجرد وصوله اخبار الحادثة ، فبقي هناك لمتابعة القضية فوق ارض الحادث . وكان لورنس قد هوى على رأسه بعد اجراء انعطاف حاد لتجنب صدم صبي لحام كان يمتطي دراجة على الطريق بصحبة صبي آخر .

مرت بعد ذلك أيام من القلق ، كان رفاق لورنس خلالها يبذلون قصارى اهتمامهم لتأمين افضل استشارات طبية ممكنة ، وكان لورنس يرقد طوال الوقت فاقداً للوعي . وكان من الواضح ان الجرح في رأسه على درجة كبيرة من الخطورة . وطلبت استدعاءهوغ كيرن افضل جراحي الدماغ في الأقليم ، ودخلت في سبيل ذلك في صراع مع اطباء « بوفينغتون » حتى نجحت في النهاية باتخاذ الاجراءات الاستشارية . وهنا أومض بريق من الأمل ، اذ كانت لديه حيوية مذهلة ، ولكن الاحتقان في الرئة تطور يوم السبت ، ولم يلبث لورنس ان توفي في الساعة الثامنة والربع من صباح يوم الأحد ١٩ أيار (مايو) ١٩٣٥ . وقد أظهر مركز فحص الموتى ان الدماغ كان ممزقاً بدرجة سيئة ، بحيث انه سيبقى ـ فيما اذا نجحت محاولة انقاذه ـ فاقداً للنطق وللذاكرة مع الاصابة بالشلل .

اتخذت الترتيبات لتشييع الجثمان حتى تكون في يوم ٢١ ايار (مايو) وكان على

القسم الأكبر من اولئك الذين حضروا التوجيه مباشرة الى كنيسة « موريتون » في حين تجمع بعضنا مسبقاً في « كوخه » . وانطلقنا في موكب التشييع من لندن في الطريق على امتداد ساليسبوري حتى طريق بلاند فورد ، وهو الطريق الذي كان يفضله لورنس لزيادة السرعة ، وحيث كان المنعطف يثير بصورة خاصة الاحساس الذي وصفه بقوله (حيث تنصهر فيه الهضاب بالأودية) .

كان الممر الى الكنيسة مكتظاً بالمشاهدين الذين اصطفوا هناك ، ولكن اكثرهم جاؤ وا من القرى المجاورة على ما يظهر ، وكان المشهد الوحيد الذي ظهر بصورة بارزة هو الحشد المتلاطم من المصورين الصحفيين والسينمائيين . وكان حملة النعش هم (ستيوارت نيوكمب) و (اريك كينينغتون) و (رونالد ستور) و (بات كنول) و (براد بوري) من زملائه عمال القوى الجوية و (راسل) الجندي السابق في قوة الدبابات . وقد تم انتقاء هؤ لاء لتمثيل المراحل الستة المختلفة في حياة لورنس العسكرية . وشاهدت خلال المأتم وينستون تشرشل وهو يذرف الدمع . وقد حمل النعش في النهاية الى خارج الكنيسة ، هبوطاً درجات المدخل حيث وضع على عربة « ترولي » وعمل المكلفون بحمل النعش على دفعها على امتداد الطريق وسار البقية في اثر النعش طوال ما تبقى من الطريق بين بوابة ساحة الكنيسة وحتى سهل غياض الأشجار حتى المقبرة الجديدة .

* * *

عندما أصبح واضحاً ان حادث لورنس قد ينتهي الى نهاية مؤسفة ، كلفني جيوفري داوسون باعداد نعي لرثائه في صحيفة التايمز . وتم نشر النعي في يوم ٢٠ أيار (مايو) وقد احتل ما يزيد على اربعة اعمدة ثم عكفت في وقت متأخر من ذلك اليوم لكتابة المزيد من التأملات تحت عنوان (علامات الاستفهام الاخيرة في موضوع لورنس) . وقد أعدت قراءة الموضوع بعد انقضاء ثلاثين عاماً تقريباً ، فظهر لي انها صحيحة بدرجة كافية بحيث استطيع هنا اعادة ذكر ما تضمنته من نقاط رئيسية . مع اعادة تصحيح بعض العبارات الصغرى نظراً لان هذه العبارات (المختزلة والشفهية ـ بالرموز ـ قد اخذت شكل مذكرة غير واضحة .

كان « لورنس » يقاوم استجوابي له بكل قوة ، بحيث انني كنت اميل لاعطائه ظلاً كبيراً من الشك عند معالجة النقاط التي لا أستطيع ايضاحها . وقد دعم هذا الاثر بعد ذلك لانني كلما امعنت في سبر الاسباب التي وجهت اعماله في الحرب ، كلما وجدت أنها تتوافق مع فلسفتي العسكرية الخاصة . ويظهر المزيد من الوضوح في مجال التطبيق ،

بحيث كان هذا التطبيق يستند الى حسابات يستخدم فيهاأكمل نموذج لفلسفة الحرب .

انني لم اجد في النتائج الكبرى لمنجزاته العسكرية اي سبب لتعديل الدروس المستفادة التي وضعتها في كتابي عنه ، وذلك عند مقارنته بالقادة العظام في التاريخ . ولقد اكتشفت عند تحليل وجهات نظرهم وعلمياتهم ما كانوا عليه من قدرات محدودة . وكان من الصعب جداً ان اجد ذلك في الافق العسكري غير المحدود للورنس . وحتى نقر بأفضليته النوعية وتفوقه في الكفاءة عليهم . عند تنفيذه لعملياته على اصغر المستويات فان القضية لا تصبح قضية مديح كبير له بقدر ما تصبح مسألة اعتراف بانهم لم يكونوا على مثل تلك الصورة المتفوقة التي اخذت ترتسم لهم في مخيلة الاجيال الأخيرة .

لم تكن الانتقادات التي وجهتها له موجهة نحو المنجزات الكبرى بقدر ما كانت موجهة الى اصغر الاحداث ، فقد كانت اخطاؤه قريبة من السطح . واذا ما اوغلنا عبر هذا الطور التاريخي لتلمس منطلقاته الاساسية الرائعة ـ مع بعض التحفظات لتأثيرات تطلعاته العابثة وغير المجدية ـ فانني اقول بانني ربما كنت قد اخطأت عند الاشارة الى الاخطاء السطحية عوضاً عن مناقشة ما كان يبهر اولئك حتى من كان لا يعرف عنه الا القليل .

لقد كانت لديه القدرة لقول أشياء مختلفة لأشخاص مختلفين ، وقد يتلحم ذلك في اسلوب التقرب غيرالمباشر الذي كان يمارسه في حياته وفي الحرب على حد سواء .

لم يكن انتقاص لورنس لقدر نفسه ، وكذلك نبذه لظواهر التكريم سوى نوع من الاعتزاز والزهو . وزيادة على ذلك ، فقد كان يغير مواقفه في كثير من الاحيان بحيث يصعب ايضاح سبب سلوكه . لقد كان يكره الدعاية فعلاً ، ولو انها كانت تجلب له السرور وتثير اهتمامه . كان ينطلق في حياته على ما يظهر في دوائر متعاظمة ، وقد قادته حكمته الى ادراك عقم الهتافات ، ثم وجد نفسه بعد ذلك يحبها ، ثم كره نفسه لانه احبها . واذكر انني قلت له ، انه برفضه قبوله الدعاية العادية التي يتلقاها كل من يصل الى درجة معينة من الشهرة ، فانه يجلب لنفسه قدراً اكبر من الشهرة . وليس عليه بعد ذلك الا انه يوجه اللوم لنفسه .

لقد تسببت نزعته القوية نحو العزلة في ابتعاد الاصدقاء عنه ، وقد يعود ذلك الى اسلوبه اللاشعوري لاخفاء اخطائه وعدم السماح بأكتشافها .

كانت عدم انانيته هي التي ابرزت انانيته واضاءتها . وهذا صحيح بديهياً بالنسبة

لكل الغيريين (غير الانانيين) . مما يجلب المكافأة بحد ذاته : لقد بلغ درجة نادرة من الحرية في عدم التملك وعدم المنافسة ، والطموح واصبح من الصعب الآن تقويم امتناعه عن الاشتراك في التفكير او الاسهام في اغناء المعرفة التي كانت تتوفر له كفاءة خاصة في مجالاتها ، وقد يكون سبب ذلك شعوره الاساسي بعدم جدواها او فائدتها بالنسبة للآخرين .

فهل استطاع تكوين القسم الاعظم من معارفه بتأثير تجنبه للارضية التي يجهلها ولا يعرفها ؟ . . لقد كان نموذجاً مزيداً « للكشف ـ الذاتي » وهناك اشياء لم يعمل على اظهارها ، ولكن ليس باستطاعة المرء ان يكون على يقين من انه قد فعل ذلك عن عمد او عن غير عمد . ولقد كانت لديه قدرة خارقة للطبيعة في قراءة افكار الآخرين ، فكنت تشعر ان اخفاء الاشياء عنه هو أمر بشع ، ولو انك كنت تشعر ان هناك اشياء يخفيها عنك .

اجتذب لورنس اليه اهتمام الجماهير وهو يعيش فيما وراء الصحارى ، لا سيما عند مقارنته بما يحصل عليه الآخرون من منزلة رفيعة وهم ينافسونه مما حمل اليه قدراً اكبر من الاهتمام ، وهذا مما زاد في تأثيره على مسيرة التاريخ . وان هذه الزيادة في اهتمام الجماهير قد برزت من خلال التوسع الاسطوري لرجل يستحق الشهرة ، وكانت احساساً بالابداع الذاتي الذي حجبته اقنعة من الغموض حاول لورنس تغليف نفسه بها حتى عندما كان يحاول عدم الكشف عن اعماله بنفسه ، مثله في ذلك مثل المرأة الفاتنة التي تخفي نفسها بعباءة رقيقة ، او تكشف عن ساقيها في حين ترتدي ثيابا تغطيها حتى عنقها او ترتدي تنورة من القماش السميك في حين تترك صدرها عاريا . والآن ، واذا كانت الدعاية التي وصل اليها لورنس قد تجاوزت كل الحدود والتقديرات ، فذلك لانها مزيج من الكفاءة الشخصية والموهبة الفكرية والقدرة على التأمل والعمل . وقد تجاوز في ذلك كل انسان قابلته او عرفته .

لويد جورج

اعلمني موريس هانكي وآخرون في مناسبات مختلفة ان لويد جورج يهتم بمقالاتي وكتبي ، ولو انه لم يصلني عن طريقه مباشرة ما يشعرني بمثل ذلك قبل شهر نيسان (ابريل) ١٩٢٩ ، حيث تلقيت منه أول رسالة تضمنت تنويهاً يدعم بعضاً مما كنت قد كتبته .

(. . . اعتبر توثيق عرى الصداقة قدر المستطاع بين الولايات المتحدة الاميركية

وبيننا على جانب كبير من الأهمية الحياتية . ويجب ان يكون « التقارب فيما بيننا » هو المبدأ المهيمن على سياستنا الخارجية) .

لم تكن مثل هذه االنظرة شائعة في الدوائر السياسية البريطانية خلال تلك الفترة . وأجبت على رسالة (لويد جورج) برسالة تصادف ان احتفظت بنسخة عنها . وفيها ما يلي :

تمتد جذور القضية التي اشرتم اليها في رسالتكم ، الى اخطر مشكلة دولية في عالم اليوم . وليس ذلك في امريكا وحدها بل في اوربا كلها بحسب ما وجدته خلال رحلاتي فيها ، وسيكون واجباً ثقيلاً يتطلب وقتاً طويلاً من أجل القضاء على كل ما يسيء الينا من العوامل الموصوفة بقصر النظر ، والتمسك بالقيم البالية والقناعات المهترئة ، واني اشك في الواقع ، فيما اذا كان بالمستطاع التوقف حتى يتم اقناع الامم الاخرى بان الأمر لا يتعلق بمجرد تغيير في الشكل والاطار الخارجي ، بقدر ما يتعلق بتغيير عميق في الأسس ذاتها .

لقد تولى حزب العمال - على ما ارى - قيادة معركة جديدة ضد الحرب ، وأرجو ان تسمحوا لي - كتلميذ من تلاميذ الحرب والتاريخ - ذكر تعليقين . اما الأول ، فهو الخطر من تركيز الانتباه على قضية التمرد ضد قانون الحرب ومعالجة الموقف كظاهرة منفصلة ومستقلة . فالحرب ليست اكثر من مرحلة ثورية لظروف السلم المرضية ، وبتعبير اكثر دقة واكثر صحة ، انها الحمى وليسنت الجرثوم هي ما يجب معالجته ، وان تركيز الجهد لوقاية الجسم السياسي اكثر فاعلية من تناول الحبوب لتخفيض حرارة الحمى ومعالجتها . ولقد توقفنا على امتداد السنوات الماضية عند حدود هذه الظاهرة الأخيرة من الاعداد المضاد - للحرب . والتعليق الثاني ، فهو وبصرف النظر عن الحرب وحماقاتها ، يتمثل بالاعتماد على القوة والوثوق بها ، حتى لو كانت هذه القوة هي الذريعة المعروفة التي يقف ضدها بغباء اولئك الذين احترفوا عادة المعارضة . ولقد إصبح من المعروف ان الحرب هي اداة السياسة ، فاذا كان الامر كذلك ، فانه من الجنون تكوين الاداة عندما لا يكون هناك من يستطيع استخدامها بمهارة وذكاء . وهذه هي النقطة التي تقضي على كل امل او رجاء في الظروف الراهنة . وان تجربتكم مع اولئك الذين يتعلمون في مهنة السلاح قد تحملكم على التعاطف مع هذه الحجة .

طلب الي « لويد جورج » فيما بعد معلومات ووجهات نظر بشأن المشكلات الدفاعية المختلفة . وقد كتبت له بصورة خاصة مذكرة عما يجب عمله لتطوير (الفاعلية الاقتصادية للجيش) . ولكننا لم نتبادل الحديث في موضوع الحرب العالمية الاولى

١٩١٤ ـ ١٩١٨ قبل شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٣٢ حيث كنت اقيم في هذه الفترة مع زوجتي في (بروتميريون) شمال ويلز ، فوجه لويد جورج الدعوة الينا لقضاء يوم في منزله الواقع في « كريكييت » من « برنيا ويلون » وتوفرت لي بذلك الفرصة لحوار هادىء وطويل ، انتهيت منه في تلك الليلة بكتابة مذكرة تفصيلية تضمنت ما يلي :

انه لم يعرف سوى قائد واحد فقط له عقل جيد ، ولكن هذا العقل افسدته عيوب طباعه ـ وهذا القائد هو هنري ويلسون .

أبدى « لويد جورج » فيما بعد رأيه بالجنود (القادة) وكان قاسياً ومجحفاً في احكامه المسبقة ضد السياسيين : بحيث انه لم يترك حتى ويلسون ـ الذي قدم كل ما يستطيعه للسياسيين ـ فألبسه ثوب « السخرية » .

كان رأيه في هيغ « انه غبي جيداً » أما البرت توماس وزير الذخائر الافرنسي فقد قال عنه ببساطة بعد مقابلته له (انه مجرد رأس من الخشب) كما تحدث بعد ذلك عن باسشيندال ، فلدغه عندما قال عنه (ذلك الرجل الذي صنعنا منه أميراً ، ومنحته مبلغ ١٠٠ الف جنيه استرليني)

لقد كانت طريقة روبرتسون (بحسب رأي لويد جورج) وهي طريقة التجهم وزعم القدرة الكلية ، مع قليل من ابداء الملاحظات التافهة باسلوب رائع ، هي التي أثرت على « آسكيت » ـ الذي تنقصه القدرة في الحكم على الرجال ـ وعلى هذا فلم يكن من الغريب ان يطلق عليه لقب (اعظم الاستراتيجيين) . ولكنه لم يكن ببساطة سوى رجل يهتم بالتفاصيل ، باستطاعته ان يكون انسانا رائعاً لو عمل بقالاً ينصرف الى تنظيم الرفوف وتعبئتها ، وكانت تنقصه النظرة الشاملة للحرب ، كما كان يعتمد في سلوكه العسكري وفي دعم حججه على موريس الذي كانت تتوفر له قدرات اكثر بكثير من روبرتسون .

لم يحاول روبرتسون ابداً توجيه الاستراتيجية في الحرب . وكان كل ما يفعله مجرد تقديم الدعم الى « هيغ » مع محاولة دعم مماثل لخلفه ، ولهذا فلم يكن لويد جورج راغباً في التخلص منه ، وكل ما كان يريده هو استبدال هيغ . ولكن اين يجد قائداً أفضل من هيغ ؟ . . . انه لم يتعرف على أي قائد ـ باستثناء اللنبي ـ الذي كان يظهر تفوقاً واضحا على هيغ . وكان بلومر يملك احساسا سليما ولكنه ليس متفوقا في الذكاء . وقد يصلح ليكون قائداً للجيش ولكنه لا يصلح ليكون رئيساً لهيئة الاركان العامة . أما هارينغتون فكان ضابطاً جيداً في هيئة الاركان ولكن (انظر الى رأسه ـ ان مجرد النظرة الى الرأس

تظهر لك انه محدود) ولقد تسبب في حدوث تلك الفوضى الرهيبة التي كانت ستضيع « شاناك » بل وستضيع كل شيء وتبدده لو لم يتم ايقافه .

أرسل لويد جورج في عام ١٩١٧ هانكي (القائد ذا الدفاع الجيد ، الذي قدم لي باستمرار اعظم الدعم ـ على حد قول لويد جورج) وكان معه سماتس بمهمة القيام بجولة لاستشارة القادة في فرنسا بشأن ترشيح خلف لهيغ . وكان الاحتمال الوحيد الذي أمكن لهم طرحه هو تعيين « كلود جاكوب » . ولكنه شعر في النهاية ان يعقوب « جاكوب » لا يملك تفوقاً كافياً لرد هجمات مجلس النواب « البرلمان » الخ . . . مع ما يتبع ذلك . أما بالنسبة لميلن فقد قال لويد جورج عنه : (لقد كان اعظم عبقرية من الآخرين جميعاً ، إلا ان ذكاءه قد اخذ في الانحسار والتراجع نظرا لعدم متابعته) وكان لويد جورج متأثراً بالمذكرات التي قدمها ميلن الى هيئة الدفاع الامبراطورية في حزيران (يونيو) الماضي بشأن موضوع نزع التسلح . ولكنه تساءل عمن يكون قد كتب له تلك المذكرات (وأظن انه بارثو لولو) ذلك انه عندما طلب الى ميلن ايضاح المذكرات امام الهيئة . تلعثم واضطرب وأصبح في موقف يائس تماما . وقال لويد جورج ان العسكريين لا يوضحون انفسهم ، ولا يقدمون سببا معقولا لوجهات نظرهم وافكارهم . وانه حاول عبثاً ودون جدوى الحصول على ثقة روبرتسون ومنحه ثقته ، ولكن روبرتسون استمر دائما في اخفاء الحقائق عنه . وتساءل لويد جورج (كيف استطيع الحصول على هذه الحقائق من الخارج ؟) ان تشجيع الضباط الاعوان على اعطاء وجهات نظرهم وآرائهم . هو أمر خطير جداً ذلك انه يشجع على اثارة النقمة والاستياء .

لم يعلم لويد جورج باعمال التمرد التي وقعت في فرنسا الا بعد شهر من حدوثها . وزيادة على ذلك ، فان احداً لم يخبره أبداً بعدم موافقة بيتان وفوش على هجوم « باسشيندال » . كما انه عندما طرح موضوع هيغ على وزارة الحرب بحضور عسكري وحيد هو « بسمات » عمل هذا على دعم هيغ بقوله : (ان القادة قد اتخذوا قرارهم على ما يعتقد) وبذلك فانه حرم لويد جورج من آخر فرصة لفرض هيمنته على هيغ وعلى روبرتسون . وتساءل لويد جورج : (هل كان باستطاعتي ايقاف باسشيندال ؟ . .) لقد كان يعتقد ان ليس عليه سوى اصدار الأوامر ـ وليس على هيغ سوى ان يطيعها . وانه لم يكن راغباً في اقالته أو فصله عن الخدمة . (ولكنهم يقولون انني أضعت فرصة تحقيق نجاح حاسم وانقاذنا من خطر البحرية) وكان هيغ على يقين من انه يستطيع اللحاق « برولر » وكذلك اللحاق « باوستند » دون عناء وبحرية تامة . ذكر لويد جورج أنه لم يعرف احداً من سياسيي « الطبقة الأولى » يمارس الكذب عن عمد . (انهم يتلونون ،

يبالغون ، ولكنهم يتجنبون الكذب نظراً لأن اكتشاف كذبهم يعرضهم لخطر كبير) . أما القادة في هيئة الاركان العامة فانهم كانوا يخبرون لويد جورج اخبارا كاذبة مكشوفة .

كان لويد جورج قد تأثر منذ النظرة الأولى « بفالليبني » ولو انه كان في تلك الفترة عليلاً جداً . ولكن فوش كان رجلاً عظيماً في الواقع (انك لا تشعر معه انه مجرد انسان عاطفي ـ روحاني ـ ولكنه ذكي ايضاً) ولكنه يكره كليمنصو ـ لانه رجل متزمت ـ كاثوليكي ـ ولقد حدثت كارثة آذار ـ مارس ـ لان هيغ وبيتان عملا على تدمير مخططه . وأصر لويد جورج ان فوش (بعد بوفيه) هو قائد حقيقي . وذكر ما قلته عنه لدى التعرض لسيرته (يترك فوش انطباعاً لديك بانه رجل كبير فعلاً ـ حتى لو كنت تكرهه ولا تحبه) (ولكنني رفضت على هذه الفكرة وقلت انني لا أكرهه ، وكل ما في الأمر هو انني اطرح الحقائق وأظهر بعد ذلك عظمته رغم كل شيء)

ألح لويد جورج على ان دور الاستراتيجية في السياسات كمثل دور الاستراتيجية في الحرب بالنسبة للخطوط العامة ، انها صراع الارادات . وعلى هذا فان القسم الاكبر من السياسيين يتفوقون بمراحل بعيدة جداً على القادة الذين قابلهم وعرفهم ـ وسألني (لماذا لا تعمل على عرض القادة ـ بصورة اكثر قسوة ـ للتعريف بهم) .

اما بالنسبة « لهيغ » و « روبرتسون » فقد كان لويد جورج يعتقد يقيناً انه كان بالمستطاع اختصار مدة الحرب سنة ونصف ، وكانت صورة كل شيء ستختلف تماماً بالنسبة لاستعادة اوربا . وان « روبرتسون » قد ضاع في متاهات السياسة في نهاية عام ١٩١٦ عندما اخذ في مناقشة موضوع السلم والحاجة في مذكرات مطولة على ضرورة اقامة (المانيا القوية) والمتحدة مع النمسا . . .

تناقشنا طويلاً في موضوع نزع السلاح . وقد باغت لويد جورج بالتأكيد على ان غزو فرنسا لألمانيا ستصل الى نهايتها وستتوقف فوراً ، واعتقد انني اقنعته بذلك .

كان لويد جورج ينصرف الى كتابة مذكراته ووجهات نظره في الاحداث الماضية . ولم يكن حتى عام ١٩١٦ قد كتب سوى جزء منها . واظهرت استعدادي لتقديم كل مساعدة في تدقيق الاقسام العسكرية .

انطباعات عن لويد جورج .

لا يزال يحتفظ بذهنه المتوقد ، سريع الادراك بصير بالامور . تتصرف العائلة بسلوك طبيعي بعيد عن التكلف . ولم الاحظ اي تصرف يشير الى الادعاء او التظاهر او

الكبريـاء المصطنعة . ومثل هذا المناخ هو برهان على الحالة العقلية المشرفة . والتي تتناغم تماماً مع الخداع المتعمد للاساليب السياسية التكتيكية . . .

كان يمتلك قدرة عقلية كبيرة جداً . وله دماغ يعتبر نموذجاً للاشراق حتى انه يضيء بسرعة اي موضوع ، كما انه يخترق بسرعة كبرى ليصل الى اعماق بعيدة . (ويعتبر في هذا المجال النموذج المتفوق) وان الطريقة التي تحدث فيها لويد جورج عن ادمغة فوش ونيغيل وويلسون الخ . . . وسواهم من السياسيين ، هذه الطريقة تفترض انه رجل ما ان يمنح ثقته حتى يقف ضد الاعتراف بأي خطأ يرتكبه ذلك الذي وضع فيه ثقته.

عملنا من جديد على زيارة لويد جورج في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ولكن في « بروني دو » . وكانت مذكراتي اليومية عما دار من حديث في هذه الزيارة وجيزة مختصرة . وكانت النقطة البارزة في وصف لويد جورج للعدد الوافر من الطلبات الحديثة في مجال تعاظم الضغط لاشغال المناصب السياسية العليا ، بكلمة « الهراء » وقوله (ان هذه المناصب عظيمة وكافية مثلما كانت عليه قبل الحرب ، وهي مماثلة الآن في عهد رامسي ماكدونالد لما كانت عليه في عهد رئيس مجلس الوزراء اسكيت . وكل ما في الامر ان رامسي ماكدونالد لا تستطيع مقاومة الطلبات للاعمال الاجتماعية في حين ان ماكدونالد ذاته هو الذي عمل على تجميد هذه الاعمال وايقافها . وعند الحديث عن مذكرات لويد جورج قال انه قد سجل حتى الان ١٥٠ الف كلمة . بينما لم يكن قد كتب حتى ايلول « سبتمبر » سوى ٩٠ الف كلمة .

لم اعلم اي شيء بعد ذلك عن مذكرات لويد جورج حتى فصل الربيع عندما اتصل امين سر مجلس الوزراء سير موريس هانكي - في وقت متأخر من مساء يوم ٧ نيسان (ابريل) واعلمني « هاتفياً » ضرورة الإتصال به بشأن الموضوع ، وذلك على اساس اتصال لويد جورج به لتدقيق مذكراته وطلب الاتصال بي واستشارتي ، كما اكد انه يضم رجاءه الشخصي للموافقة على قراءتها ، وتصحيح مسودتها . وكان من الصعب رفض مثل هذا الطلب المزدوج ،لا سيما وانه يضمن لي خبرة هامة علماً انني كنت قد اعلمت مسبقاً عن استعدادي لقبوله .

وقد تابع هانكي حديثه للقول ان لويد جورج قد طلب اليه الاستعلام عن المكافأة التي اجدها مناسبة لقاء الاضطلاع بهذا الواجب وكانت اجابتي (انني أترك تقدير المكافأة للويد جورج) . وقد اضفت في مذكراتي اليومية تعليقاً على هذه النقطة ما يلي : (انه الرجل الأول الذي اظهر قدراً كافياً من الكرم لتقديم مكافأة مقابل استشارتي) في حين

يعتقد الناس ـ معظمهم ـ انه تكفي المتعة الكبرى والسرور من تقديم الاستشارة مقابل الوقت الذي تتم اضاعته لمثل هذا العمل .

اتصل لويد جورج هاتفياً في صباح اليوم التالي ليطلب الي مباشرة التوجه الى شورت في اليوم التالي لاجراء حوار أولي . وبجمع مسودة فصول المجلد الأول (والذي تم تقسيمه فيما بعد الى مجلدين) وقد عملت على ارجاعها فيما بعد مع تعليقاتي ، حيث بدأنا معا في مراجعتها خلال اجتماعات متتالية . وفي احدى تلك المناسبات وجدت وينستون تشرشل وقد حضر الى مكتبه في مجلس العموم لاجراء حديث مشترك . وقد سجلت في مذاكراتي كلمة وجيزة تعليقاً على ما دار من احاديث .(من الممتع مراقبة هذا الزوج في مناقشاتهما . كلاهما في ذروة النشاط والحيوية ، انهما ينتميان الى تلك النماذج البشرية النادرة التي تحصل على ما تنجزه من أشياء ـ على النقيض من ٩٩ بالمائة من (المغتصبين) البارزين ـ الذي يحصلون على ما يريدونه بالاستيلاء على ما في حوزة الآخرين . وجاء « برينارد بريكن » بعد ذلك وهو بدوره شخصية مثيرة ، فانضم الى المناقشة ، وفي هذه المناسبة ذاتها ايضا لاحظت للمرة الأولى غياب تحدث لويد جورج بمرارة عن « بالدوين » الذي عمل من أجل اسقاط لويد جورج كرئيس لمجلس الوزراء . واوضح لويد جورج ان بالدوين كان على « درجة عالية من التهذيب » عندما سمح له استخدام وثائق مجلس الوزراء لاعداد مذكراته دون تردد او معارضة .

كان لدى لويد جورج مجموعة ضخمة من مثل هذه الوثائق قد وضعها في كوخ مستطيل ضمن حديقة منزله الواقع في « شارت » . وقد تم فرز هذه الوثائق وتصنيفها من قبل مساعدي لويد جورج للابحاث والدراسات . كما افاد من مساعدة « هانكي » ايضا الذي وضع تحت تصرفه مكتب مجلس الوزراء ومحفوظاته الوثائقية . وعلى هذا فقد كانت معطيات مذكراته عن الحرب حافلة بالدقة الى حد خارق للطبيعة ـ وكانت من هذه الناحية تتفوق كثيراً على انتقاداته الخاصة ووجهات نظره . وكان اعدادها لتقديمها بالشكل النهائي الذي ظهرت فيه من عمل لويد جورج ذاته ، وقد لاحظت ان هناك كثيراً من الاحداث المتعلقة بسنوات كثيرة قد حشرت في فصول متتالية ، وكأنه يريد ان ينحرف بتقويمه بعيدا عن اتجاه الاستشهاد بالقسم الاكبر من براهين مذكرات رجال الدولة والجنود ، في حين كانت هذه المذكرات تقدم قسماً اكبر بكثير من الاسس الثابتة للبراهين الحقيقية عن القرارات الكبرى .

طرح لويد جورج وجهات نظره باسلوب لاذع لا سيما بالنسبة للقضايا الوطنية التي

اثارت ردود فعل عنيفة سواء خلال الفترة التي كان يضطلع خلالها بأعبائه الوزارية او عندما اخذ مذكراته عن الحرب . وقد انبثقت تلك النزعة لاستخدام الاسلوب اللاذع من خلال روحه العدوانية المحبة للصراع ، بالاشتراك مع موهبته في صياغة الجملة المثيرة ـ الحية . وكان من المحتمل ان يتم استقبال المذكرات عند صدورها بصورة افضل لو عمل لويد جورج على طرح وجهات نظره بلغة اكثر تقييدا و اكثر كبتاً ، وبحيث انه لم يكن باستطاعة خصومه الهروب من الطعنات التي وجهها اليهم تحت ستار « غبار ـ العاصفة » التي اثارها . ولكنه لو عمل على كبح جماح نفسه بقدر اكبر مع كبت عواطفه ، لما كان صادقاً مع نفسه . ولقد كان فوق كل شيء انساناً مقاتلاً ، وكانت مذكراته هي تعبير طبيعي عن سلوك (الرجل الذي ربح الحرب) او كان على الاقل (الرجل الضروري لتحقيق النصر) .

على الرغم من اتفاق وجهات نظري مع الخطوط العامة لوجهات نظر لويد جورج في موضوع الحرب ، الا انني اصبحت اكثر اتفاقاً مع وجهات النظر هذه بعد دراسة الوثائق وفحص البراهين التي ضمنتها المحفوظات . ولكن مقابل ذلك كان هناك اختلاف حاد بالنسبة للطريقة التي عالج فيها قضيته الخاصة او تلك التي طرح فيها انتقاداته الشخصية .

كانت القضية الاولى التي اختلفت بشأنها وجهات النظر فيما بيننا على ما أذكر هي انه كان « يسخر » كثيرا من « ماك كينا » واقترحت عليه تعديل مقطع يوجه فيه اللوم بقسوة الى « ماك كينا » عندما كان هذا اميناً عاماً لوزارة الداخلية . وذلك لانه (كان كثير التساهل مع الاجانب الاعداء) : وقلت له انني اشك في ان يكون (مولعاً بالجواسيس) . وان السلطات في الجاسوسية المضادة « متحمسة حرفيا ـ او مهنياً ـ لعقلية ادغار والاس » فكان رد لويد جورج انه يفضل اعطاء فائدة الشك لمصالح الاقليم (بحيث اننا لا نستطيع مجابهة اي مخاطر) واجبت عن هذه النقطة ان (اهتمام القضاء يشكل يقينا نقطة التحرر الحاسمة في وجهات النظر) . وقد جاءت الاستجابة الاساسية للويد جورج في قوله (انه هو الذي كتب الكتاب) ولكن بعد دقائق قليلة قال انه قبل وجهة نظري . وانه من غير الحكمة « السخرية » كثيرا من « ماك كينا » للاسباب النفسية . وانتهت مذكراتي اليومية في التعليق على هذه الحادثة بالعبارة التالية « سوف نرى ؟ . . » .

اذكر في مناسبة اخرى وكان لويد جورج واقفاً على درجة سلم منزله في برون ـ ي ـ دو عندما صرخ في وجهي (من كتب هذا الكتاب أهو أنت ام أنا ؟) والتقطت لنا صورة من اكثر الصور حيوية مما التقطلنا في شارت (وهي الصورة الموجودة في هذا الكتاب والتي

كتبت تحتها (الصورة الملونة الوحيدة ولو انها غير ملونة) ذلك ان عدسة التصوير امسكت بنا ونحن في نقاش حاد ، وكان وجهه الممتقع بلون احمر بشكل واضح ، (وقد التقطت صورة اخرى في اليوم ذاته . وكان لون وجهه اصفر كعادته) . . .

لقد لاحظت ان مثل تلك المناقشات والمجادلات لم تكن لتترك اي استياء او امتعاض في نفس لويد جورج . وذلك على النقيض من تجاربي المستمرة مع عدد من رجال الدولة ممن كانوا دونه في الاهمية . وفي شهر شباط (فبراير) ١٩٣٤ ارسل الي هانكي ـ من جديد ـ رسالة بتكليف من لويد جورج يطلب الي فيها ما اذا كان باستطاعتي تدقيق بقية مجلدات مذكراته . وقد تسببت هذه المسودات مزيداً من المناقشات المجسمة ، ولكن لويد جورج كان يظهر تقديره حتى في الحالات التي لم يكن يتقبل فيها انتقاداتي او يستسيغها . وعندما ظهر المجلد الثاني من مذكراته في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٤) ، وجدت على النسخة التي اهدانيها الملاحظة التالية (الى النقيب ليدل هارت ـ الذي كان لي امتياز مقابلته والذي اعتبره اقوى من ترك اثراً في الحرب الحديثة) وكان يجب ان يكون هذا التعليق اكثر من مباغت بالنسبة لي ، لو لم يسبقه قبل اشهر قليلة حادث يحمل هذا المضمون ذاته ، وذلك عندما زارني لويد جورج في شقتي لتناول طعام الغداء ومقابلة السفير الأميركي « روبرت بينغهام » حيث قال لبينغهام وهو يتحدث بشأني (لو كنا في حاجة لديكتاتور هنا يعمل في المجال العسكري لكان هو الرجل المناسب لذلك) . اما ما كان بعينه . بدقة اكبر ، فقد ظهر بوضوح من خلال اقواله لعدد من الاشخاص خلال السنوات القليلة التالية ـ وهي اقوال تتلخص في انه (لو عاد الى السلطة كرئيس لمجلس الوزراء ، فانه يرغب في تعييني وزيراً للحرب ، او وزيراً للدفاع)

* * *

ظهرت مجموعة من النقاط الهامة خلال الحديث المتبادل بين لويد جورج وبينغهام ، وقد سجلت في يومياتي المذكرة التالية .

قال بينغهام انه قد اسيء فهم العبارة التي قالها وودرو ـ ويلسون وهي (انه فخور جدا ان يخوض الصراع) وانه كان يعني فعلاً ما يتعلق بالولايات المتحدة الاميركية والمكسيك (؟) . وكان لويد جورج يحمل احتراماً كبيراً [للعقيد] هاوس . واتفقت وجهات نظر بينغهام ولويد جورج على ضيق افق [الرئيس] هوفر وقصور تفكيرة . وقال لويد جورج ايضا قبل مغادرة ويلسون بيوم واحد او يومين وعودته الى الولايات المتحدة الاميركية بعد انتهاء زيارته لأوربا اتفقت وجهات نظره [لويد جورج] مع وجهات نظر

كليمنصو في انهما يشعران بمحبة الرئيس الاميركي ويلسون . رغم عناده . لانه (شخصية لطيفة)

ذكر لويد جورج انه تأثر الى حد بعيد بالدكتور جاك وبحججه التي كانت جديدة عليه بشأن « بروكدورف ـ رانتزو » [الذي ترأس الوفد الالماني الى مؤتمر السلم في فرساي] . وقال لويد جورج ما يلي : (وقف كليمنصو وسلم شروط السلم الى المانيا ، لكن « بروكدورف ـ رانتزو » بقي جالساً واخذ في قراءة نص الوثيقة « بصوت أجش » وكان مظهره مثل « يونكرز حقيقي » . وقد انحنى ويلسون على لويد جورج وقال له : «انها مأساة » انك تستطيع الاعتماد على الالمان دائما اذا ما اردت ان تصبح مجنوناً) . وكان ويلسون باستمرار سريع التأثر بمثل هذا السلوك . وقال لويد جورج بوضوح ان هذا الموقف من « بروكدورف ـ رانتزو » كان نتيجة « بحسب ما صرح به الدكتور جاك » لانهيار اعصاب بركدورف ـ رانتزو مما ادى الى شلل اقدامه . وقد حمل ذلك ويلسون على مزيد من التصلب ضد كل تنازل او تساهل . وضد الاخذ بأي اعتبار للطلبات التي كان يجب مراعاتها . واصبح من الصعب على لويد جورج حمل ويلسون على اتخاذ موقف اكثر ليونة ومرونة في موضوع سيليزيا .

اتفقت وجهات نظر لويد جورج ووينغهام على انه لو امكن اتخاذ خط قوي ضد اليابان من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا وفقا لترتيبات خاصة ، لامكن كبح جماح اليابانيين منذ سنتين . (وسألت ما اذا كانت اساطيلهما قادرة على العمل ضد اليابانيين . وعلى من اعتراف بينغهام ان المقاطعة المالية والاقتصادية قد تكون كافية لردع اليابانيين . ولكنه عاد فقال ان خنث امريكا بوعدها قد دمر الامال في اجراء تطورات لمصلحة السلم في اوروبا . ولكن الامر قد يتبدل تحت ادارة روزفلت) .

* * *

نعود الى قضية مذكرات لويد جورج في موضوع الحرب وكذلك التعرض لطريقة هذه المذكرات التي تكشف الى حد بعيد الجانب المضيء في موقفه ، واعترافه الممتع الذي برز من خلال مناقشاتنا لمسودة الفصل الخاص (بهجوم نيفيلل) في المجلد الثاني من مذكراته . وكان « جو باشان » قد ابرز في مؤلفاته (تاريخ الحرب العظمى) هذا الهجوم ولكن بصورة متسرعة على الأغلب ، وقبل ان يعود لدراسة الوثائق ، فجاءت الصورة بصورة باهتة ، ولم تظهر فيها بوضوح تلك المقابلة التي تمت في كانون الثاني (يناير ١٩١٧ بين القائد الاعلى الجديد للقوات الافرنسية الجنرال نيفيلل وبين لويد جورج في

محطة الشمال « غار دو نور » من باريس ، حيث عمل نيفيلل على كشف مخططه الجديد والمباغت (الدراماتيكي) وانتصر بواسطته على لويد جورج - وهي صورة مشتقة بصورة واضحة عن موقف هيئة الأركان العامة البريطانية ووجهات نظر وزارة الحرب في تلك الفترة . وقد دحض لويد جورج ظروف المخطط الافرنسي باكثر الطرق فاعلية وذلك بالرجوع الى البراهين الوثائقية التي تبرز انه كان على علم بالمخطط قبل اسابيع عديدة وانه عبر عن شكه بشأنه واظهر ميلاً لمناقشته عندما استقبل نيفيلل في محطة القطار وذلك بغياب الجنرال هيغ .

استمر لويد جورج بعد ذلك في انتقاداته الساخرة وحشر انفه وسط غبار القضايا التفصيلية وذات الاهمية الثانوية عوضا عن التوقف عند حدود دحض الافتراءات وابراز الحقائق . وناقشته في ضرورة الاقلاع عن ذلك ، والتوقف عند النقطة التي انتهى فيها الى تدمير الاتهامات الثقيلة التي وجهت ضده ، مثل قضية الهجوم المضاد - المديد ، مما سيترك لدى القراء انطباعاً في التعاطف مع القضية اكثر من انتقادها . وقد وافق على وجهة نظري ميغان لويد جورج التي كانت تحضر النقاش ، واظهر ذلك ان كفة الميزان قد رجحت لصالح نصيحة ميغان التي كان لرأيها دائماً وزنه الثقيل في التأثير عليه ، اذ كانت في مقدمة عائلته جميعها من حيث تشابهها مع ابيها في عبقريتها وذكائها بل وحتى في مزاجها . وعلى هذا فقد وافق على اعادة النظر في هذه المقاطع . ولكنه ، لسوء الحظ ، قرر (المقاطع) بصوته المرتفع ، وكان هو يفعل ذلك يضحك ضحكة خافتة عند كل وخزة او لطمة كتبها ، وفي النهاية هتف قائلاً : (كلا - لا استطيع طرحها او حذفها ، انني وثني في مثل هذا النوع من الاشياء ! انني احب القتال ، واحب القضاء على خصومي . وكان تعليقي (لا تندفع بمثل هذه القسوة ، ذلك ان صداها سيرتد من جديد اليك) . فقال في نهاية الامر انه سيحاول التفكير في موضوعها من جديد ، ولكنه كان واضحاً انه سيقاوم اقتطاع اي لطمة لخصومه . وعلى هذا فقد كنت سعيدا للمباغتة ، وانا اجد عندما تم نشر المجلد الثاني انه قد حذف تلك المقاطع ، ولم يترك سوى القليل القليل فقط من « اللطمات » .

لقد أحسن صنعاً لويد جورج عندما عمل على تصحيح مواقف سابقة . وكانت الظاهرة البارزة تلك المتعلقة بالجنرال « هوبرت غوش » الذي كان قائداً للجيش الخامس ما بين عام ١٩١٦ وعام ١٩١٨ وطلب صرفه من الخدمة على اثر انهيار المواقع الدفاعية تحت وطأة المذبحة التي قام بها الجيش الالماني في هجومه خلال شهر آذار (مارس) ١٩١٨ . وقد القى غوش مسؤ ولية صرفه من الجيش على عاتق لويد جورج . بحسب ما اذكر جيداً

من خلال ملاحظاته المريرة عند زيارة جامعة كامبريدج في وقت متأخر من تلك السنة . وقد استمر لويد جورج مقابل ذلك وعلى امتداد سنوات طويلة في النظر الى غوش كمسؤ ول الى حد بعيد عن ذلك الانهيار . وقد وجدت من خلال ارتيادي للنتائج وبحثي في الوثائق انهما قد ارتكبا خطأ مشتركاً في هذه المواضيع ، وبذلت جهداً لاعداد لقاء بين الاثنين للتسوية واصلاح الأمر . وكان افضل ما في الامر ان امسك لويد جورج ذاته بالمبادأة وتصحيح موقفه من غوش - سواء من خلال مذكراته ، او من خلال تصريحاته واقواله العلنية امام الجماهير .

اثيرت عند الوصول الى هذه النتيجة بعض المناقشات مما تسبب في تسليط اضواء جديدة على الأحداث التي وقعت خلال الحرب والتي كانت موضعاً للكثير من الجدل والمناظرة . وكان لا بد من تسجيلها وحفظها .

اعلمني لويد جورج عندما كنت في شارت بتاريخ ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ انه قابل حديثاً « ويلفريد غرين » المستشار البارز للملك . وقال غرين انه كان في هيئة اركان الجيش الخامس عندما قام لويد جورج بزيارة مقر القيادة العامة في ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ . وانه تلقى رسالة من القيادة العامة (لنقل جميع الجنود الأسرى الالمان ممن لديهم القدرة على الانتقال ، واخراجهم من السجون الحربية قبل وصول رئيس مجلس الوزراء) (ويعود السبب في ذلك هو ان لويد جورج قد طرح سؤ الاً فيما اذا تدهورت الحالة النفسية والكفاءة الجسدية للوحدات الالمانية تدهوراً كبيراً بحسب ما ذكره هيغ واكده) . وقد اقنع لويد جورج عند سماع ما سبق ذكره على لسان غرين ان يسمح له بذكره في مذكراته دون التعرض لذكر غرين كمرجع (ذلك ان غرين كان على وشك التعيين ليصبح لورد القضاء للاستئناف) . وقد تأكدت من صحة هذه القصة فيما بعد عند سؤ ال غرين ذاته ، فأكد صحتها .

لقد تضمنت اضباراتي مذكرة أخرى سجلتها في ٢١ آذار (مارس) ١٩٣٥ (بمناسبة الذكرى السنوية لبداية الهجوم الالماني الذي تم تنفيذه في عام ١٩١٨) . سألت لويد جورج اليوم عن التقرير الذي يتردد ذكره باستمرار في موضوع تجميد الحكومة للوحدات في فرنسا عام ١٩١٨ (قبل الهجوم الالماني) فقال انه لم يحدث شيء من ذلك وان مثل هذه القضية لم تطرح ابداً للمناقشة في وزارة الحرب ، وكان قوله صحيحاً بالرجوع الى وثائق الوزارة وتدقيقها وكان عدد الوحدات المقرر للبقاء في انكلترا قد قرر وحدد بكامله من قبل وزارة الحرب . وسألني لويد جورج عما اذا كانت لدي اي معرفة

بوجود اي تسجيل او وثيقة في وزارة الحرب بشأن النقاش ما بين الوزارة وبين هيئة الاركان العامة يتعلق بهذا الموضوع . وكان يعرف ان هناك احاديث كثيرة قد ترددت في وزارة الحرب وفي هيئة الأركان العامة للاحتفاظ بقوات في بريطانيا العظمى وعالجت ضرورة وجود مثل هذه القوات للحراسة ضد كل احتمال للغزو ، وان وزارة الحرب قد عملت على تسوية الامور كلها . وقلت ان هناك اقتراحاً يقضي بأن يعمل هنري ويلسون على الاحتفاظ بوحدات استناداً الى وعد خاص من لويد جورج . ولكنه صرح انه لم يحدث شيء من هذا النوع . (وتأكد من ذلك بالرجوع الى هانكي) .

سألت لويد جورج ايضاً عن موضوع الدور الذي اضطلع هو به في الجلسة الخاصة (العليا) التي ناقشت قضية غوش . فقال ان مجلس الوزراء قد مارس ضغطاً في نهاية عام ١٩١٧ من اجل نقل غوش وكيجلل وشارتري الخ . . . وقد عمل هيغ طبيعياً على تمهيد الطريق لابعاد آخرين ولكنه الح على ضرورة الاحتفاظ بغوش . ولكن عندما حدث التراجع في آذار (مارس) لم يكن لدى الوزارة ما تستطيع عمله لنقل غوش . لأن هيغ هو ذاته الذي عمل على نقله . وقد يكون قد فعل ذلك بضغط من الافرنسيين . (وتأكد من ذلك بالرجوع الى هانكي) .

عملت على التأكد من هاتين النقطتين بالرجوع الى هانكي الذي أثبت صحتهما . وتم التأكد من النقطة الأولى ايضاً ـ وبجميع دقائقها وتفاصيلها ـ عن طريق العقيد آلانسون خلال نقاشي معه بعد ذلك بسنتين . كان لي حديث طويل مع غوش بعد ذلك باسبوعين ، وتضمنت مذكراتي عن هذا الحديث مجموعة من النقاط البارزة الأخرى :

كان هيغ أغزر فكراً وأخصب خيالاً من معظم القادة العسكريين في الجبهة الغربية . وكان رجل اتخاذ القرارات ايضاً . ولكنه كان لا يجيد انتقاء الرجال وتقديرهم ، فكان يفضل اولئك الذين يقولون له « نعم » . أما باتلر فكان شيئاً تافهاً ، ولو ان هيغ كان يعتبره اعلى منه بكثير ويريده كرئيس لهيئة اركانه ، وعندما جاء الرد سلبياً عمل على تعيين كيجل رئيساً لهيئة اركانه ، وكان كيجل جيداً في معالجة المشكلات على الورق ولكنه كان يفتقر الى المبادأة وتعوزه القدرة لاتخاذ القرارات ، فعمل على خدمة هيغ ومساعدته كحاجب له لا كأداة تنفيذية . وأعاقته تفاهته عن تطوير صفاته وامكاناته . فلم يكن باستطاعته تمثيل وجهات النظر المتضادة لهيغ ولا اتخاذ قرار بين وجهات النظر المتضادة عند تمثيل هيغ ، وعلى سبيل المثال فقد التقى قائدا جيشين بعد ايام قليلة من باسشينديل وحضر كيجل هذا اللقاء . وقد ناقش غوش (قائد الجيش الخامس) موضوع الحاجة لتطوير

الهجوم نحو اليمين من أجل طرد الالمان وابعادهم عن المرتفعات الارضية المهيمنـة على التقدم بكامله ، فقال بلومر الذي كان يقاتل على البروز الناتىء من الجبهة والممتد جداً انه يجب عدم اشتراكه بالهجوم (رغم تفوقه الكبير) . ولم يحاول كيجل التدخل وترك الأمر معلقاً حتى جاء هيغ فاتخذ قراره ، كما ان كيجل لم يذهب ابداً الى اي موقع قريب من خطوط الجبهة .

كان هربرت لورنس الذي جاء خلفاً لكيجل ، أفضل قليلاً من سابقـه . ولكنـه لم يكن يعرف شيئاً عن الموقف . وحافظ على مرحـه وتفاؤلـه طوال اليوم الاول للهجـوم الالماني في آذار (مارس) ١٩١٨ ، ولكنه اهتز على نحو غير ملائم عندما تطورت الأزمة .

أظهر غوش تذمره من المماحكات والاحتـكاكات بـين السياسيين والعسـكريين ، واستغرب عدم توصل لويد جورج لتفاهم مع هيغ وتساءل عن سبب ذلك ، ولكنه أقر ان مثل هذا التفاهم كان محالاً مع روبرتسون ، ذلك ، انه ، بطريقة ما ، لم يتجـاوز في تفكيره مرتبة رقيب ، كما انه لم يكن مستقيماً ايضاً . وعلى سبيل المثال . فانه قرر بعد عزله من منصبه بفترة ، ان يكون صديقاً لهنري ويلسون على امل اعادتـه لمركزه . وأخـذ في التحدث عن هيغ بطريقة (غبية جداً) الخ . . . (وقد توافق ذلك مع ما ذكره هانكي عن روبرتسـون وانفجاره ضد هيغ بعد حفلة العشاء التي اقيمت لقادة الجيش في نادي الاسلحة المشتركة[1])

اعترف غوش عند الحديث عن آذار (مارس) ١٩١٨ انه على الرغم من تصحيح هيغ للموقف عن طريق الاحتفاظ بالاحتياطيات الرئيسية في الشمال . الا ان النسبة لم تكن صحيحة ولا حكيمـة ، وقـد تم تركهـا هنـاك خلافـاً لما يفرضـه الاتحـاد الكامـل للمعلومات . وان الفشل الرئيسي الآخر هو في ميل بينغ نحو بروز « فليسكيير » وفشله في الهيمنة على الانسحاب من هذا البروز مما تسبب في حدوث ثغرة كبيرة . وكان لدى بينغ قوة كافية لمنع حدوث مثل تلك الثغرات .

وجدت عبر المزيد من الاحاديث مع لويد جورج انه كلما تقدم في عمله في المجلد التالي من مذكراته ، كلما اختلفت نظرته بصورة متزايدة عما كانت عليه من حيث مسؤ ولية غوش عن الكارثة وما لحق به من ظلم بسببها هذا مع ظهور رغبة لدى لويد جورج لوضع القضية في اطارها الصحيح ـ وفي الوقت ذاته ايضاً توصل غوش الى معرفة انه لم يكن للويد جورج علاقة بطلب نقله ، وأصبح واضحاً انهما ـ كلاهما ـ يريدان دفـن القضية ولكنهما لم يتقابلا ابداً . وعلى هذا اتخذت الترتيبات للقاء الاثنين ، وطلبت اليهما تناول

العشاء معي في « الاثينوم » بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) وذلك في الليلة التي سبقت ذهاب لويد جورج الى طنجة لقضاء عطلته الشتوية هناك . وكانت « حفلة مصالحة » ناجحة جداً ، وتضمنت مذكراتي اليومية الملاحظة التالية (لقد كانت امسية مثيرة جداً . حاولت فيها الاحتفاظ بغوش حتى لا يندفع بعيداً عن سحر لويد جورج وتدفق حيويته وحماسته ومرحه . وفي الوقت ذاته الابقاء على لويد جورج ضمن الحدود حتى لا يذهب بعيداً في نقده للعسكريين . وبذلك امكن ردع غوش واعاقته عن (نشر) الاحداث الماضية ، واتخاذ ما هو ضروري للاشتراك في حمل عبء التاريخ بعد تقسيم تبعيته بصورة مشتركة ليحملها الاثنان معاً .

اشتمل معظم الحديث على كثير من التفاصيل الدقيقة والتي قد يكون من الافضل ذكرها هنا ، ولكن بالامكان الاقتصار على تعليقين من ابرز التعليقات العامة التي ذكرها غوش . وكان التعليق الأول هو ان غوش لم يشهد ولو شارة واحدة تدل على تدهور الروح المعنوية للالمان في باسشيندل ، وان المرة الوحيدة التي ظهر فيها على الاسرى الالمان مثل هذا الضعف هي في بومونت ـ هاميل ، عند الانتهاء من معركة السوم . اما التعليق الثاني فهو ما ظهر لغوش في آذار (مارس) ١٩١٨ من خلال موقف هيغ ، بحيث خيل اليه ان هيغ يرغب في خسارة جزئية للأرض من اجل نجاح فكرته في « تعليم الحكومة » لأنها لم تستجب لارادته من جهة ، وحتى يلبي رغبة الافرنسيين لتوسيع الجبهة البريطانية من جهة اخرى .

طلب لويد جورج من غوش ومني تناول طعام الغداء معه في نادي الاصلاح وذلك بعد عودته من المغرب ، بهدف متابعة المناقشة . ولكن هذا المناقشة لم تبرز شيئاً جديداً باستثناء اعتراف غوش الصريح انه كان يجب عليه بذل مزيد من الاهتمام لضمان توفير فرصة امام قادته التابعين له (حتى يعبروا عن وجهات نظرهم ويناقشونه بحرية ويوجهون اليه انتقاداتهم او الى هيئة اركانه أو الى تقاريره) بحيث انه لم يتلق خلال الفترة القاسية بكاملها طوال الأيام الثمانية من معركة آذار (مارس) ١٩١٨ اي توجيه من هيئة الاركان العامة . كما لم يقم احد بزيارته من هيئة الأركان العامة سوى زيارة واحدة قام بها هيغ ذاته في يوم ٢٣ ، بالاضافة الى زيارة قصيرة جداً من هربرت لورنس في اليوم التالي . واستمر غوش في اقواله :

تتحدث هيئة الاركان العامة عن قادة الجيش كانهم (بارونات شريرون او سادة خطرين) في حين انها تعمل حالياً على تركهم وحدهم ، ونادراً ما تعمل على

زيارتهم . ويجب عليها معاملة قادة الجيش بمثل ما يعامل قائد الفوج قادة سراياه الاربعة حيث يعقد معهم المؤتمرات للتشاور بصورة منتظمة من اجل دراسة القضايا ومناقشتها . وان الاضطراب مع هيئة الاركان العامة انما يعني فشل هذه الهيئة في ممارسة دورها القيادي .

توفر مزيد من الضوء الأقوى عن طريق الشهادة التي سبق ذكرها خلال حديثي الطويل مع العقيد سيسيل آلنسون في شهر آب (اغسطس) ١٩٣٧ . وكان العقيد سيسيل في عام ١٩١٨ ضابط هيئة الاركان العامة رقم (١) المسؤول عن ادارة الافراد في هيئة الاركان العامة ، وكان المسؤول قبل ذلك عن ادارة العمليات . وقد طلب اليه في بداية نيسان (ابريل) من عام ١٩١٨ مرافقة رئيس مجلس الوزراء خلال زيارته لفرنسا لحضور مؤتمر « بوفيه » الطارىء مع الرؤساء الافرنسيين والامريكيين . وقد يكون من الأفضل هنا ذكر المقاطع الرئيسية من شهادة سيسيل في موضوع الزيارة وكذلك الفترة التي سبقتها :

لم تظهر ولو شارة اضطراب واحدة او تلعثم على لويد جورج بسبب شجاعته وثقته بنفسه على النقيض مما كان عليه الناس ـ اكثرهم . . وعندما قابلوا هيغ كان وجهه أبيض وشخصيته مهتزة . ولكن ظهرت على لويد جورج امارات التوتر أثناء رحلة العودة لانكلترا ، عندما قال وهو يوجه حديثه الى سيسيل في انه (يأمل ان يكون قد استطاع بفضل اسلوبه الواثق بنفسه ان يقنع الآخرين وان يصحح المواقف) وقال ايضاً انه يشعر بادراك ثابت ان مصير انكلترا قد اصبح راسخاً ، وان الخطوة الخاطئة من قبله في لحظة من اللحظات قد لا تصلح .

تأثر سيسيل ايضاً بطريقة لويد جورج في عدم اضاعة اية فرصة زمنية ـ كما كان يعرف تماماً الرجل الصحيح الذي يجب مقابلته والسؤال الصحيح الذي يجب طرحه . ويتجنب اللهو عن طريق الانصراف لحمل الاعباء الثقيلة .

كانت لدى لويد جورج قدرة مميزة على التخيل العاطفي ، فقد كان الرجل الوحيد الذي ظهر عليه ادراك واضح فيما تعنيه الاصابات من انعكاسات مأساوية في آلاف البيوت . وقد وصل به الأمر الى البكاء امام فكرة هذا الثمن المرتفع في الحياة الانسانية . في حين ان الاصابات لا تعني بالنسبة للعسكريين ـ اكثرهم ـ سوى ارقام بيانية (في جداول الاحصاءات) .

كان سيسيل يشعر بان على التاريخ الاعتراف للويد جورج بعظمته السامية ، وان

يعامل نظرته الخاطئة بلطف كبير . . . وقد عبر الالمان لسيسيل عن دهشتهم للطريقة التي يتبعها لويد جورج كرجل يلقون على عاتقه مسؤولية الحاق الهزيمة بالمانيا ، وكانت دهشتهم في ان يطلق عليه رجال من وطنه القاب (الكذاب واللص والوغد الخ . . .) وكانوا يقولون (انهم لا زالوا يحتفظون بولائهم لهيندنبورغ ، ولكن لو كان لديهم رئيس وزراء مثل لويد جورج عوضاً عن « بيثمان ـ هولويج » لكسبنا الحرب . هذا مع العلم ان هندنبورغ ذاته ظهر قزماً امام العملاق لويد جورج) وهنا ذكرت سيسيل ببيت من الشعر هو (عقوق الشعوب لرجالها العظام هو اشارة قوتها) . وقال انه يتمنى لو كان يعرف هذا البيت من الشعر حتى يقوله اجابة على اولئك الالمان .

كان تأثر سيسيل كبيراً بالمذكرة التي ارسل فيها لويد جورج تعليماته الى هيغ في موضوع هجوم باسشينديل . وان اقصى ما يستطيع ان يتذكره في تلك المذكرة هو استعداد مجلس الوزراء لمجابهة احتمال وقوع ٧٥ ألف اصابة بين الرجال خلال الهجوم الاستطلاعي لاختبار امكان اكتساب الموانىء البلجيكية واحتلالها مع الوصول الى الحد الأعلى من المرتفعات . ولكن عندما زادت نسبة الاصابات في هجوم هيغ وتجاوزت كثيراً هذا الرقم ، تدهور موقف لويد جورج وسار نحو النهاية العميقة . وكانت تعليماته بحسب ما ظهرت لسيسيل هي النموذج لما يمكن للحكومة مجابهته دون ان تتدخل في عمل هيئة الاركان العامة طالما انها لم تتجاوز تلك الحدود .

لقد كان من غير العدل ايضاً توجيه اللوم الى لويد جورج بسبب احتجاز القوات الاحتياطية في الخلف عام ١٩١٨ ، ذلك انه بناء على توصية وزارة الحرب تم الاحتفاظ بالاحتياطي العام الذي يضم ١٢٠ الف رجل واحتجازه في انكلترا بدلاً من ارساله الى فرنسا . وقد خضعت تلك التوصية لهيمنة الفكرة التي اكدتها مذكرة هيغ وفيها ان باستطاعته الاحتفاظ بجبهة الخطوط الدفاعية الثلاثة في فرنسا لمدة ١٨ يوماً بالقوات المتوفرة لديه واحباط كل هجوم الماني . وعلى هذا الاساس ارسلت الى هيئة الاركان العامة توصية للاحتفاظ بالاحتياطي العام . مع تقديم ثلاثة اسباب رئيسية لتلك التوصية : (١) لان بقاء القوات في انكلترا من شأنه تحقيق شروط افضل لاخفاء هذه القوات عن استخبارات العدو ـ بحسب ما برهنت عنه التجارب حيث انه لم يكن باستطاعة الالمان الا بصعوبة اكتشاف كل ما يحدث فيانكلترا ، في حين كان باستطاعتهم تحديد حجم الوحدات وامكنة تمركزها بمجرد وصولها الى فرنسا ، هذا بالاضافة الى انه من الممكن جداً نقل قوات الدعم عبر القناة خلال فترة الثمانية عشر يوماً . (٢) انه من الافضل حفاظاً على الروح المعنوية للامة التي كانت تعاني من تأثير باسشينديل الابقاء على هذه القوات في انكلترا ، وعلى

سبيل المثال ، فان عائلات الجنود يشعرون ان ارسال الجنود الى فرنسا هو بمثابة ارسال الى الموت الحتمي ، وعلى هذا فان الاحتفاظ باكبر عدد ممكن في انكلترا يجعل كل شيء مختلفاً لا سيما وان الاقليم كان مقبلاً على فصل الشتاء . (٣) ان هؤلاء الجنود سينفقون اموالهم في الاقليم عوضاً عن انفاقها في الاقاليم الأجنبية مما يساعد على تحسن الموقف الاقتصادي لانكلترا .

ذكر لي سيسيل انه اطلع على هذه المذكرة بعد عودته من جولته مع رئيس مجلس الوزراء الذي اضاف تعليقاً جديداً عندما قال له (وبالامكان اضافة سبب وهو عدم ثقته بهيغ وقيادته للرجال) .

لم يتلق سيسيل عندما كلف بمرافقة لويد جورج الى فرنسا من التعليمات الخاصة شيئاً باستثناء ما قاله له لويد جورج بان (عليه ارشاده الى الاماكن المناسبة) اما عندما رافق وينستون تشرشل قبل ذلك في مثل هذه الجولة ، فقد تلقى منه تعليمات (بمراقبة كل ما يقوله وكتابة تقرير خاص بذلك) .

كان من نتيجة ظهور مذكرات الحرب التي كتبها لويد جورج ، ان طلب اليه اعادة الوثائق العديدة الموجودة لديه الى غرفة وثائق مجلس الوزراء ، وكان لويد جورج ووينستون تشرشل قد أخذا هذه الوثائق واحتفظابها لتسجيلاتهما الخاصة . وعلى الرغم من تصرف هانكي بحذر كبير لمعالجة هذا الموضوع ، إلا أن هناك آخرين في الدوائر الرسمية لم يطلعوا على الموقف بصورة صحيحة ، فأخذوا في التصرف لاثارة القضية . وعندما تلقى لويد جورج الطلب من مكتب مجلس الوزراء وكانت لهجة الطلب حازمة لكن بكلمات مهذبة ، استدعاني للذهاب الى غرفته في مجلس العموم لحضور حديث مشترك كان قد اتخذ اهبته له للحوار مع تشرشل بشأن ما يجب ان تكون عليه اجابتهما . وكان النقاش بينهما مسلياً ومثيراً وانتهى باتفاق مشترك على التصدي بحزم لمقاومة الطلب ـ اعتماداً منهما على ان الحكومة لن تجازف باثارة فضيحة جماهيرية اذا ما اتخذت اجراءاً رسمياً وشرعياً ضد رئيس مجلس الوزراء خلال فترة الحرب وضد واحد من أبرز زملائه .

بقي الموقف معلقاً الى ما بعد وفاة لويد جورج في عام ١٩٤٥ ، حيث عمل سير « ادوارد بريدج »[٥] على تقديم طلب جديد الى أرملته[٦] ونجح في الحصول على موافقتها لتسوية الموضوع واتخاذ الترتيبات لاعادة عدد من اكثر الوثائق اهمية الى محفوظات مجلس الوزراء .

ارغب هنا التعبير عن مدى تأثري بماشاهدته خلال تلك السنوات ، وان اشيد بتلك

المساعدة الكبرى التي قدمتها سكرتيرة لويد جورج - « فـرانسيس ستيفنسـون » والتـي اصبحت زوجته الثانية بعد ان عملـت سكرتـيرة خاصـة له منـذ عام ١٩١٣ . وكذلك للمساعدة التي لقيتها من آ . ج . سيلفستر الذي كان وثيق الصلة في زمالته لهانكي في مكتب مجلس الوزراء خلال فترة الحرب العالمية الأولى وأثناء انعقاد مؤتمر السلم ، ليعمل بعد ذلك واعتباراً من عام ١٩٢٣ في حقل الخدمة المدنية ، وليضطلع بالواجب الصعب كسكرتير أول للويد جورج طوال الفترة التي بقي لويد جورج على قيد الحياة . وكانت علاقاتي سعيدة جداً مع كلهما اعتباراً من عام ١٩٣٢ والى ما بعد ذلك ، وأعجبت كثيراً بهذا المزيج الواضح من القدرة والمهارة اللتان توفرتا لهما . وكانت ايضا مساعدة « آن باري » . سكرتيرة لويد جورج والمسؤولة عن وثائقه ومحفوظاته ذات دور كبير ، كما كانت عضواً ثميناً ورائعاً في فريق العمل . واحيي ايضاً بحرارة ذكرى « دام مارغريت » التي تميزت بدماثتها واحساسها السليم مما كان يثير اكبر قدر من الحماسة للعمل .

اخذت احاديثي مع لويد جورج في التزايد مع اقتـراب العمـل في مذاكراتـه من نهايتها ، كما انعطفت هذه الاحاديث نحو آفاق أوسع . وكان من بين تلك الاحاديث ما وجدت وقتاً لتسجيله في مذكرة بتاريخ ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٣٦ حيث كنت اثناءها في شارت :

كان لويد جورج في حالة جيدة جداً وتحدث بصراحة في القضايا العامة . وقال ان مأساة اليوم تكمن في ان رجال الدولة الثلاثة فقط ممن يمتلكون قوة حقيقية - وهم هتلـر وموسوليني وستالين - هم رجال غير ديمقراطيين . (وتلقي تعليقاته الضـوء على جنوحـه الخاص غير الديمقراطي - ولو انه لا زال يحتفظ حتى الآن - كما كان دائما - برأيه في نفسه كما أوضحه ذاته بانه رجل اليسار)

تحدث عن جوزيف شامبرلان بمزيج من الاعجاب والشفقة ، وذكره كرجل كان راديكالياً حتى النهاية ، وهو الآن يلقي بكل ثقله مع اليمين ويجد نفسه مشدوداً إليه بقيود قوية .

كان لويد جورج يعمم بشكل واسع نظريته وهي ان رجال العائلات القديمة عادة ما يفتقرون إلى الشجاعة . وكان يصفهم بقوله (الارستقراطيين الجبناء) . لانهم يضطربون دائماً في الازمات . وكان « دربي » أسوأهم جميعاً . لانه جبان مرتعد يثير الشفقه بحيث كان لابد من التخلص منه وابعاده عن الوزارة . أما بلفور فكان أفضل الارستقراطيين يقيناً لانه لا تعوزه الشجاعة ولكنه يحتاج لكثير من الفلسفة والتفـكير حتـى يجـد القـوة

اللازمة . وقد كان الرجال الذين أظهروا الشجاعة فعلاً خلال الايام العصيبة هم اولئك الذين جاؤ وا من القاعدة ، ومن وسط الشعب ، امثال بارتز وهندرسون وآسكيت ايضاً . أما رامسي ماكدونالد فيشكل واحداً من النماذج الاستثنائية القليلة (لانه كان جباناً) .

تحدث لويد جورج عن بالدوين فذكر اعجابه الكبير لما يتجلى به من الصفات الحسنة (وكان موقفه هذا صورة عن افتقاره للخبث - ويظهر لك بصورة مميزة عند مقارنة موقف آسكيت غير المتسامح والمرير ضد لويد جورج ، وموقف لويد جورج من بالدوين - الرجل الرئيسي في تدمير حكومته) .

وتحدث لويد جورج عن انحدار مستوى رجال الدولة في هذه الايام . فذكر انه عندما دخل مجلس النواب (البرلمان) للمرة الأولى كان هناك عمالقة من امثال جوزيف تشامبرلان وساليسبوري وحتى هيك - بيتش . ثم جاء جيله الذي ربما لم يكن من العمالقة ، ولكنه أبرز عدداً من الوجوه المذهلة ، في حين ان الجيل الحالي في مجلس النواب يظهر وكأنه لم يبرز شيئاً هاماً . واستمر في حديثه عن وجود تدهور مماثل في وسط الزعماء الرياديين . مع استعادة ذكريات عصره الذهبي . . الخ . . .

ذهب لويد جورج الى المانيا في بداية شهر ايلول (سبتمبر) ، للقيام بزيارة خاصة هدفها دراسة التدابير التي اتخذها هتلر لحل مشكلة البطالة ، والاصلاحات الاجتماعية الأخرى . وقابل هناك هتلر مرتين تحدث اليه فيهما حديثاً شخصياً بواسطة مترجم . وتحدث عند عودته باحاديث بيانية (احصائية) عن التقدم الذي احرزته المانيا في جميع المجالات ، مما كان يتوافق مع غرائزه الطبيعية الراديكالية ومع نفسيته الاصلاحية . ولقد كان تأثره كبيراً بعرض هتلر لسياسته الخارجية ، وتكونت لديه قناعة مرحلية بأنه ليس لدى هتلر تطلعات عدوانية - وقد أخذ يميل ضمن هذا المجال للتغاضي عن قضية دعم هتلر للثورة العسكرية ضد حكومة الجمهوريين في اسبانيا التي بدأت في شهر تموز (يوليو) ، وكذلك الاحتلال العسكري لمنطقة « دينلاند » من جديد قبل أربعة أشهر فقط . واجراء عرض عسكري لتحدي حلف لوكارنو - وأطلعني لويد جورج على مسودة مقالة حماسية كان قد كتبها لتوه عن زيارته لألمانيا ، وذلك من أجل نشرها في صحيفة الديلي اكسبرس ، وكان تعليقي بعد قراءة المقالة (انه اذا ما تم نشرها كما هي فان تأثيرها سيكون مدمراً - وانه سيغرق نفسه سياسياً) . ويظهر ان تعليقي قد سبب له هزة ، وعندما ظهر المقال كان قد خضع لتعديل كبير - وعلى الرغم من ذلك فقد سبب له ضرراً كبيراً .

لقد كانت هذه حالة واضحة من حالات الوقوع تحت تأثير متحدث ساحر يتمتع

بأكبر قدر من القوة في (التنويم المغناطيسي) . ولقد وصلت بعد مراقبتي لتأثير هتلر عليه ، إلى فهم ما قاله كبار القادة الألمان بعد الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت متعاطفاً مع اقوالهم بشأن التأثير المغناطيسي لهتلر عليهم عندما كانوا يذهبون لمقابلته من أجل مناقشة توجيهاته والوقوف ضدها .

كان لويد جورج متأثراً يقيناً في موضوع الحرب الأهلية الاسبانية بوجهة النظر التي كانت مهيمنه على الحكومة وعلى مجلس النواب ، وكانت وجهة النظر هذه تنص على ان الثورة العسكرية ستنجح دون ريب وخلال فترة قريبة جداً . وقد تناولت طعام الغداء مع لويد جورج في شارت يوم ٢٠ آب (أغسطس) وسألني رأيي في هذا الموضوع ، وتضمنت مذكرتي اليومية الوجيزة ما أجبته عليه وهو (انني اميل الى الاعتقاد ان الحكومة الاسبانية تكتسب مع مضي كل يوم مزيداً من الفرص لتحسين الموقف ، بحيث يتم للحكومة الاسبانية ضمان النصر ما لم يتم للثوار الحصول على قوات جديدة او دعم جديد بالوسائط من الخارج) وكان تعليق لويد جورج على هذه الاجابة ان قال (بانني أول خبير قدم له وجهة نظر صحيحة عن الفرص المتوفرة لانقاذ الحكومة وبقائها على قيد الحياة . وزيادة على ذلك ، فقد وصل الى رؤ ية الأخطار الاستراتيجية التي تهدد الطرق البحرية من خلال انتصار دعم هتلر - موسوليني في اسبانيا . وأدرك ذلك فوراً وقبل وقت طويل من ادراك تشرشل لهذه الحقيقة الذي اعماه انسياقه العاطفي لدعم الثوار ، فلم يتمكن من تقويم درجة الخطر الا بعد ان استمرت الثورة طوال سنتين ، وحيث أصبح الوقت متأخراً جداً لمنع التدخل النازي - الفاشي ، وضمان الدعم لتحقيق مثل هذا النصر .

لقد حاولت تمييز أبرز الصفات في شخصية لويد جورج ، وانني أطرحها هنا كما هي - حيوية متدفقة لا حدود لها - كفاءة فريدة في الحصول على المعلومات ، سرعة خارقة للطبيعة في التفكير ، محب متطرف للقتال والمشاكسه ، وقدرة حركيه - ديناميكية - وقابلية جذابة للتأثير على الآخرين واقناعهم سواء عن طريق الحديث والخطابة أو عن طريق الاتصال الشخصي .

ان السر الأساسي في نجاح السياسيين هو في مواهبهم الطبيعية المضاعفة بضعفين او ثلاثة أضعاف عما لدى الرجال الطبيعيين من مواهب حيوية وقدرات فاعله (نشطة) . وقد كان لدى لويد جورج مثل هذه المواهب ، وكذلك كان تشرشل ايضا . ولكن تعلم كلاهما فن الاقتصاد في الفاعلية والنشاط ، وبصورة خاصة عن طريق النوم في فترة بعد الظهر . وكان كلاهما يذهب الى النوم في سريره لمدة ساعة أو ساعتين ، بدلا من ان يقضي

فترة الاستراحة بمجرد التمدد في المقعد . وكان تأثير القيلولة باعادة النشاط على ما يظهر مختلفاً بشكل ما عن تأثيرها بالنسبة لبقية الرجال . فقد كانت هذه الشحنة تساعد تشرشل على البقاء متيقظاً ومعالجة الاعمال والقضايا حتى الساعة الثالثة صباحاً . أما لويد جورج فانه لم يكن ليذهب إلى سريره في وقت متأخر ، ولكنه كان من المبكر جداً في استيقاظهم ، وغالباً ما كان يبدأ الكتابة في الساعة السادسة صباحاً او قبل ذلك . وكانت هذه الطرائق صعبة على زملائهم في العمل وعلى أركانهم ومساعديهم ممن لا ينامون او لا يستطيعون النوم في قيلوله بعد الظهر . وكان كلاهما يجد أنه من الاسهل عليه بكثير الوصول الى هدفه الخاص في الوقت الذي يكون فيه الآخرون غارقين في نومهم ! . وكان من عادة لويد جورج تقديم الطعام في حفلات صباحية ، في حين كانت عادة تشرشل تقديم وجبات السحور في وقت متأخر من الليل .

انني لم أتعرف أبداً على رجل دولة يضاهي لويد جورج في قدرته على جمع المعلومات بنفسه ، والاستماع الى الأشياء التي لا تصله عادة عن طريق المصادر (القنوات) الرسمية . وكان لديه ما يكفي من الدهاء حتى لا يعتمد على الحقائق التي تقدم له بعد اعدادها بصورة وجيزة من قبل المسؤ ولين ، وذلك خلافاً لما كان يفعله الوزراء عادة في اعتمادهم على التقارير الرسمية . وكان يساعده ايضا كثير من الشخصيات الهامة التي كانت تقف الى جانبه من امثال تشرشل أو كريبس (الذي لا مثيل له في قراءة الكتب بالجملة وعدم الاكتفاء بمجرد تمثل الاعمال الرسمية) .

لقد ربح لويد جورج كثيراً عن طريق امتناعه حضور الحفلات والمآدب حيث كان عليه الادلاء باحاديث لا ضرورة لها . وكان غالباً ما يقول لي ان هذه العادة قد استنزفت عدداً كبيراً من الوزراء ، ولم تترك لهم ما يكفي من الوقت للتعلم والتفكير . فكان يفضل الاقتصار في علاقاته الاجتماعية على الاجتماعات الخاصة حول موائد الطعام حيث يستطيع الحصول على المعلومات من اناس لديهم معارف متنوعة من امور مختلفة . وكان ماهراً في استخلاص المعلومات (عصر الليمون) كما انه مستمع جيد بخلاف تشرشل .

لم أقابل ابداً من يضاهي لويد جورج أو ينافسه في سرعة التفكير ، وكان لديه قدرة فريدة في جمع النقاط المختلفة أثناء الحديث . وارغب هنا ذكر بعض تعليقات « العقيد ماكريدي » التي قالها لي بعد أن شرح الموقف العسكري امام جميع اعضاء هيئة الدفاع الامبراطورية بعد تسلم هتلر للسلطة في المانيا فوراً ـ فقال ماكريدي ان بالدوين قد التقط على ما يظهر في حدود ثلاثين بالمائة من القضية المطروحة ، اما رامسي ماكدونالد (رئيس

مجلس الوزراء في تلك الفترة) فقد التقط عشرين بالمائة لكن لويد جورج ـ وكان العقيد ماكريدي يكرهه مثله في ذلك مثل القسم الاكبر من العسكريين فانه قد التقط المعلومات مائة بالمائة . وكان يجب اعطاؤه العلامة الكاملة (لو كان الأمر يتعلق باختبار) . ولقد كانت هذه الشهادة من رجل يحمل العداء أو الخصومة للويد جورج ، انما تعني انه كان يتجاوز كل تقدير في هذا المجال . ولقد كان الأمر اكثر سهولة بالنسبة للويد جورج نتيجة اهتمامه الكبير بالاستراتيجية والتكتيك . وهناك حادثة مسلية جاءت كتعليق من كليمنصو بعد اجتماع (الثلاثة الكبار) حيث كان كليمنصو يحرص على الجلوس بين لويد جورج وبين الرئيس ويلسون ، وقال كليمنصو (انه يحاول الجلوس بين رجل يعتقد في نفسه انه نابليون ورجل آخر يعتقد في نفسه انه السيد المسيح) . ولقد كان تشرشل يظهر قدراً اكبر من الاهتمام بالشؤون العسكرية ، ورغم ذلك ، فانني وجدت (من خلال مناقشتي لكل منهما على انفراد ، أو لكلاهما في بعض المناسبات) ان لويد جورج كان أسرع بكثير في التقاط المواضيع والالمام بها . ولعل الاعتدال الكبير الذي تميز به لويد جورج هو الذي كان يساعده على الاحتفاظ بصفاء ذهنه . ولكن كان من الملاحظ جداً ان تشرشل يستطيع التركيز على الجملة او العبارة ، في حين كان لويد جورج يمسك بنقطة ويستمر حتى الوصول الى النقطة التالية وهكذا . . . وكان تشرشل عندما تجتذب انتباهه مجلة في بعض الاحيان ، يعمل على الافادة منها واستخدامها في احاديثه بعد ذلك . فيكشف بذلك عن قدرته التعبيرية في الحديث . ولقد وجدت أنه من الامور الخطرة استخدام العبارة ـ كما كان يحدث في كثير من الاحيان ـ على حساب اضاعة الانتباه وصرفه على الحجة أو الدليل . وزيادة على ذلك فقد كان تشرشل يستأثر بالقسم الاكبر من الحديث في كل نقاش في حين كان لويد جورج ينصرف قبل كل شيء الى جمع المعلومات .

لعل قدرة لويد جورج على التفكير بسرعة اكبر ، وكفاءته في جمع المعلومات هي السبب الأول الذي كان عادة ما يجعله يهيمن على تشرشل عندما كانا يجتمعان معا . وكان مذهلاً رؤية ذلك ، حيث كان تشرشل هو المهيمن على كل انسان يرافقه ، أما عندما يجد نفسه مع لويد جورج فان موقفه يتشابه على الاغلب مع موقف التلميذ عندما يقف أمام استاذه .

لقد أوضح تشرشل بنفسه هذه العلاقة ولكن بطريقة مختلفة ـ وقد فعل ذلك ذات يوم من عام ١٩٢٦ بشهادة بوب بوثباي (الذي اصبح فيما بعد لورد بوثباي) والذي نقل الي القصة ، ووافق على نشرها واسنادها اليه :

عندما تم قبول وينستون تشرشل لمنصب وزير المالية في حكومة بالدوين عام

١٩٢٤ ، أصبحت العلاقات بينه وبين لويد جورج أقرب الى البرود . وبعد ان أصبحت مستشاره الخاص في البرلمان عام ١٩٢٦ ، أظهر رغبته في استشارة لويد جورج بشأن كتابه الأخير (الأزمة العالمية) ونظراً لمعرفته بالصداقة التي تربطني بلويد جورج منذ دخلت مجلس العموم ، فقد طلب الي تحديد موعد معه . وفعلت ذلك ، وجاء لويد جورج لمقابلة وينستون في مكتبة (في مجلس العموم) ومكث معه زهاء ساعة تقريبا .

عندما غادر لويد جورج المجلس ـ عبر المدخل الرئيسي ـ كنت وحدي في غرفة امناء السر ، وانتظرت فترة خمس دقائق تقريباً دون أن يقرع الجرس ودون ان يحدث أي شيء . وأخيراً ، ذهبت الى غرفة وينستون ، فوجدته جالساً امام الموقد ـ وحده ـ سابحاً في نوع من التأمل العميق .

ـ قلت له : حسنا ! ـ كيف سارت الامور ؟

واجاب تشرشل : ستكون مسروراً وانا اعلمك ان الامور قد سارت بصورة جيدة جداً . فخلال خمس دقائق فقط امكن اعادة العلاقات القديمة فيما بيننا بصورة تامه . انها العلاقة بين السيد والخادم . وصمت تشرشل لفترة قصيرة عاد بعدها الى الحديث وهو ينظر الى الأعلى فأضاف قوله : ومهما تكن النتيجة قاسية فقد كنت انا الخادم

أما بالنسبة لنزعة لويد جورج العدوانية ، فقد كانت ظاهرة مميزة الشخصية ، وهي التي أعطته القوة الجبارة . ولكن وفقاً لملاحظتي فقد كانت هذه النزعة مجردة الا قليلاً من الخبث أو اللؤم ، وكانت اقل بكثير مما وجدته من اللؤم عند معاصريه من القادة . ويظهر ذلك بوضوح من طريقة حديثه عن بالدوين ـ على نحو ما ذكرته فيما سبق ـ . فعلى الرغم من قيام بالدوين للاطاحة بحكومة لويد جورج بدور اكبر من دور لويد جورج للاطاحة بآسكيت إلا أن لويد جورج عالج المؤامرة كجزء من لعبة ـ في السياسات ـ ولم يكن انتقامياً بسببها . لقد كان لويد جورج لاعباً مخادعاً ، ولكن خداعه ايضاً كان جزءاً من اللعب بالنسبة له ، على نحو ما كان يلعبها ويلشيمان بصورة خاصة . لقد كان قاسيا ، أو صلباً متحجر القلب ـ في بعض الاحيان ـ ولكن ذلك كان يظهر نتيجة للتركيز الكبير على الهدف الأساسي ، بصرف النظر عن كل قيمة للافراد ، وبصرف النظر عن مشاعر الشفقة او الرحمة .

كانت لدى لويد جورج قدرة مذهلة لاجتذاب الناس . وتحويلهم رأساً على عقب ، وقد عرفت صمود « توري » الذي كان يكره كل ما يمثله لويد جورج وعرفت ايضاً مقاومته له بقوة وعنف ، ثم رأيته وهو يخضع له تماماً ويصبح طوع بنانه بعد مقابلة شخصية واحدة . وكان غالباً ما ينجح في اداء هذا الدور ذاته مع متحدثيه ، ما لم يفسد

هؤلاء الموقف باستثارة روحه العدوانية وجعلها هي المهيمنة على تصرفاته .

كان لويد جورج يحب الخطابة كفن من الفنون . وكان خبيراً وناقداً للوعاظ ايضاً ، فكانت احدى هواياته الاستماع اليهم بواسطة المذياع . وقد تعود على مقارنة اسلوب المواعظ والخطب الارشادية المطوله على امتداد قرن مضى ـ تماماً كما يفعل الرجال الآخرون عند تقويمهم لاساليب سباق الخيول ـ ولقد كان فن الخطابه ـ لا الموعظة في حد ذاتها ـ هو الذي يستهوي هذا (الوثني الملحد) .

تبقى بعد ذلك قضية الانتصار في الحرب العالمية الأولى ، وهو الانتصار الذي يعود في قسم كبير منه الى تبديل آسكيث كرئيس لمجلس الوزراء واحتلال لويد جورج منصبه . كما انه لولا وجود لويد جورج ايضاً لكان طعم (كعكة السلم) أسوأ مما أصبحت عليه يوم أكلها . وعلى كل حال ، فان تأمل نتائجها على المدى البعيد تترك سبباً للأسف بشأن الظروف التي أحاطت به يوم أصبح رئيساً لمجلس الوزراء . فقد جاء لويد جورج الى السلطة على متن الموجة الشعبية التي استجابت لصرخته (من اجل مزيد من الاقدام في متابعة الحرب دونما توقف او تمهل) . وما ان أصبح في مركز السلطة حتى أصبح عاجزاً عن مقاومة الموجة التي حملته الى هناك . وكان ذلك يعني ان عليه اسقاط اقتراح لورد لانسدون وعرضه للدخول في مباحثات من اجل الوصول الى سلم معقول قبل أن تستنزف الاقطار الأوروبية . (ولقد كان الأمر الأسوأ من وصول لويد جورج الى السلطة ـ بالنسبة للمستقبل ـ هو دخول امريكا الحرب . ذلك انه لولا القيام بهجوم جديد حمل معه الثقة بالنصر لكان هناك احتمال في الوصول الى تسوية يتم بموجبها الاتفاق المتبادل على السلم في عام ١٩١٧) .

ادرك لويد جورج في السنوات الأخيرة النتائج المأساوية التي تبعت توليه السلطة . ولم يعترف هو بذلك صراحة خلال أي حديث من أحاديثنا ، إلا أنني لاحظت بأنه كثيراً ما كان يعالج الدروس المستفادة من مفهوم (الانتصار المطلق والكامل) وكذلك اهمية تجنب التطرف كثيراً في اهداف الحرب عندما كان يوضح الجنون في اغلاق الابواب امام الجهود التي تبذل للدخول في مفاوضات سلمية . وقد كنت اعمل على زيارته احياناً خلال الحرب العالمية الثانية لقضاء ليلة او ليلتين في المناقشات حيث تأكد لي مدى تشاؤمه الناتج عن هذه القناعة العميقة ، بعد ان استخلص من خبرته العقم الكبير للزعم الذي يحمله مفهوم (النصر الحاسم) في الحرب . وقد ناقش تشرشل قبل وقت طويل من طرح شعار (الاستسلام غير المشروط ـ وهو الشعار الذي اشتهر منذ عام ١٩٤٣ . وطلب اليه عدم الزام السياسة البريطانية للسير في هذا الاتجاه الذي قد يرتد الى نحرها .

□ حواشي الفصل الخامس عشر □

١) امكن لبريطانيا سـيم ب السابق وربحت الجائزة من جديد بواسطة طائراتها البحرية س ـ ٦ التي تجاوزت المسافة المحددة بسرعة متوسطة تعادل ٣٢٨ ميلاً بالساعة

٢) كان قد خصص له عند اكمال الترجمة مبلغ ٨٨٠٠ جنيه استرليني تساعده على مجابهة متطلباته وشراء دراجة نارية وتغطية سكنه في كلاودس ـ هيلل (تلال الغيوم)

٣) ناثان ـ بيدفورد ـ فورست NATHAN - BEDFORD - FORREST زعيم بارز من زعماء الخيالة الاتحاديين في مسرح العمليات الغربي اثناء الحرب الاهلية

٤) أقام لورد ميلز حفلة العشاء هذه عندما تم تعيينه وزيراً للحرب بعد توقيع اتفاقية الهدنة مباشرة وعلمني هانكي كيف نسب هيغ الى هنري ويلسون بطريقة مباغتة تماماً العمل كرئيس لهيئة الاركان حتى يحل محل روبرتسون ، ولم يشر الى روبرتسون ولو باشارة واحدة في حين كان هذا يدعمه بصورة عمياء وبحماسه وعندما غادر روبرتسون النادي بعد العشاء قال بمرارة (لن اعود ابداً للتعاون مع هيغ)

٥) سير ادوارد بريدج SIR-EDWARD-BRIDGES أصبح فيما بعد لورد بريدج وخلف موريس هانكي كأمين عام لمجلس الوزراء عام ١٩١٨ وبقي محتفظاً بمنصبة حتى عام ١٩٤٦

٦) فرانسيس FRANCES ـ كونتيسة لويد جورج ـ اوف ـ دوايفور تزوجها لويد جورج في عام ١٩٤٣ بعد وفاة زوجته الأولى دام مارغريت

النهاية والبداية

الوقت الضائع

أصبح من الواضح تماماً قبل نهاية عام ١٩٣٦ ، ان القيادات العسكرية في الجيش لم تكن راغبة في وضع اي سياسة - استراتيجية واضحة ، او العمل على وضع جدول زمني ، يتم من خلاله بذل جهد مناسب لانتاج قوة تتوافق مع اهدافها . وكان تعليقي على هذا الموقف ، هو ذلك الذي ضمنته في رسالة مطولة بتاريخ ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ ، ووجهتها الى جيوفري داوسون وجاء فيها :

تهيمن على الفكر العسكري فكرة وهي ان وزارة الحرب غارقة من جديد في سبات عميق عوضاً عن حث الخطى بصورة متسارعة ، وقد تأثرت لذلك منذ عودتي الى لندن وشعرت بالاحباط . كما انني ذهلت ايضاً للتناقض بين القناعة والشعور بالرضى (الى حد ارضاء الذات) مما لمسته عبر اقوال القسم الاكبر من القادة في الوزارة هناك ، وبين النقمة المتعاظمة (الى حد اليأس) مما لمسته في اقوال الضباط الاكثر شباباً ، من رتب مقدم ورائد وممن يعملون في اجنحة الوزارة ذاتها . وتتلخص وجهة نظرهم في ان دوفريلل[1] يرغب في العمل لتطوير الجيش ، على الرغم من بعض البطء في طبيعته لتكوين تصميمه ورغباته ، ولكنه عندما يحاول تنفيذ هذه الرغبات ، يصطدم بعقبة عدم خبرته في شؤ ون وزارة الحرب ، وتشترك هذه العقبة مع حقيقة التزامه بالعمل مع فريق من المدراء المتميزين رغم كفاءتهم العالية بتفكير بياني متجمد بصورة اساسية . ونظراً لكون زملائه العسكريين

الثلاثة في هيئة الجيش الاستشارية هم من هذا النوع ذاتـه . فقد تزايدت العقبات في طريقه لاعطاء قوة دفع لجهاز الجيش .

تابعت الرسالة باعطاء امثلة عن (بقاء كثير من الاشياء طوال فترة غير قصيرة من الوقـت ـ قيد الـدرس ـ ودون اتخـاذ قرار) . وكان أسـوأ ما في الأمـر موضـوع انتـاج الدبابات . فاذا ما تم استثناء المدرعات الخفيفة جداً ، فان تصميم دباباتنا اليوم هو على نحو ما كان عليه منذ عام ١٩٣٢ ، كما ان نماذج الدبابات المتوسطة الجـديدة لا زالـت متخلفة كثيراً عن مستوى الدبابات التي يتم انتاجها في الخارج ، لا سيما بالنسبة للدبابات التي شاهدتها بعثتنا العسكرية بكميات كبـيرة خلال المنـاورات الـروسية . ويظهـر ان هانكي قد بوغت وشعر بهزة عنيفة بسبب التخلف الكبير في تطوير دباباتنا وذلك عندما تناولت معه طعام الغداء منذ عهد قريب ، وقد علمت من مصادر متنوعة اخرى ان اعضاء الوزارة الآخرين قد شعروا ايضا بهذه المباغتة ذاتها . وقد تم طلب اعداد تقرير للاطلاع على الموقف .

وضعت مواصفات جديدة لتعديل اسلحـة المشـاة وتجهيزاتهـا المصممـة منـذ عام ١٩٣٢ ، وصنعت نماذج للتجربة ، وذلك على اثر تقرير وضعته الهيئات لدراسة المشكلة (وانقضت سنوات ولـم يحدث اي شيء جديد) .

هناك مثال آخر يتعلق بسيل الترفيعات . فقد حدث في هذا المجال اختناق يشابه ذلك الذي اوضحته هيئة ستانهوب في عام ١٩٣٣ والتي تم تعيينها لدراسة هذه المشكلة وبحثها . وعلى كل حال فقد كان افق توصياتها محدداً ومقتصراً على مجرد « توصيات » ، وعلى الرغم من ذلك فقد طويت صفحتها . ونتج عن ذلك ان اصبح متوسط العمر الآن في الرتب العليا ، اعلى مما وصل اليه في اي وقت مضى ـ بل انه اعلى مما كانت عليه في عام ١٩١٤ عندما سقط عدد من كبار القادة في القوة البريطانية ، واصيبوا بالانهيار تحت وطأة الضغط والتوتر ، هذا مع العلم ان ظروف الحرب الحديثة وطبيعتها تتطلب جيلاً من القادة الشباب اصغر مما كانوا عليه في عام ١٩١٤ .

كتب جيوفري داوسون الرد على رسالتي في اليوم التالي لوصول رسالتي اليه ، وهو الرد الذي جاء فيه : (شكراً جزيلاً لما جاء في رسالتك بشـأن الحالـة الراهنـة في وزارة الحرب . واعتقد انه ما من سبيل لوضع الامور في نصابها الا عن طريق امانة عامة جديدة وحازمة . واني على يقين من ان الـوزارة ستصـل الى هذه النتيجـة . وان رئيس مجلس الوزراء (ستانلي بالدوين) قد وصـل حالياً الى نهـاية رحلتـه بعدمـا تعرضـت وزارتـه

للاضطراب ، وعلى هذا فسيتم تأجيل كل تغيير الى ما بعد تتويج الملك[٢] .

اصبحت علاقتي مع دوف كوبر خلال هذه الفترة اكثر وثوقاً ، وتبددت الغشاوة من خلال احاديثنا عن اساليب العمل في وزارة الحرب ، فأصبحت رؤيته للامور تزداد وضوحاً . وتكون شعور بان الاعضاء العسكريين الموجودين حاليا في الهيئة الاستشارية قد وصلوا الى مرحلة « العجز » اما بسبب تقدمهم في العمر واما بسبب تعاظم القصور الذاتي لديهم ، بحيث اصبح من المحال عليهم بذل جهد ناجع لاعادة التسلح بما يتوافق والاتجاهات الحديثة من أجل مجابهة الاخطار المتعاظمة في الخارج . ولكنه كان في حيرة بشأن الطريقة التي يمكن اتباعها للتخلص منهم ـ ثم جاء من يحل محله قبل ان يتمكن من معالجة المشكلة . ولقد كان لديه صفات رائعة ولكنه لم يكن رجلاً حازماً .

اصبح الفشل في معالجة نواقص الجيش في التجهيزات والتسلح اكثر سوءاً نتيجة الغياب المستمر لكل جهد او تفكير جديد في مشكلة السياسة الاستراتيجية لبريطانيا ، وتحديد طريقة استخدام قوة الارساليات (الحملات) . وبقيت افكار القيادة العسكرية العليا في فصل الخريف من عام **١٩٣٦** ضبابية غامضة على نحو ما كانت عليه في السنة السابقة[١] وقد يكون من الافضل في هذا المجال الاشارة الى تلك الرسالة التي بعثت بها الى بارينغتون وورد في ١٨ ايلول (سبتمبر) وجاء فيها :

كان جوك ستيوارت قد اعارني المذكرة المرفقة والتي قد يهمكم الاطلاع عليها . ذلك ان هذه المذكرة قد وضعت بعد لعبة الحرب الهامة التي نفذت في السنة الماضية والتي كنت قد ذكرتها لكم حيث قام بتنفيذها القادة الرئيسيون الثلاثة في الجيش . وفي هذه (اللعبة) قرر الجانب (الألماني) بعد التقدير الاساسي للموقف انه من المحال اختراق الحدود البلجيكية بسبب صعوبات الوقت وطول المسافة والصعوبات الجغرافية التي تعاظمت كثيراً في الوقت الحاضر . وعلى هذا فقد قرر تجربة اجراء خرق سريع لفصل الجبهة الافرنسية .

لقد ضللت هذه النتيجة هيئة اركان ادارة المشروع (آرشي مونتغومري و ديلل) نظراً لانها تلغي الاستخدام الناجع لقوة الحملة البريطانية . ولهاذا فقد قررا اعادة فحص المشكلة ودراستها على اساس حتمية تقدم الالمان عبر بلجيكا .

لقد وصل الطرف الممثل (للجانب الالماني) على كل حال الى نتيجة محددة وهي انه من الافضل اجراء الاختراق عبر بلجيكا ـ اللوكسمبرغ[٤] وتجنب الطريق الغربي لنهر الموز وهو الطريق الذي اتبعه فون كلوخ ١٩١٤ . وقد ظهر عمل قوة الحملة البريطانية في

مواجهة هذا التحرك الجديد . هو عمل محال بصورة واضحة تحت تأثير ظروف حشد القوات ونقلها .

حاولت بذل جهد لاثارة الانتباه نحو هذا الموضوع ، والتحريض على التفكير فيه ، فكتبت مقالتين لصحيفة التايمز في نهاية شهر تشرين الأول (اكتوبر) تحت عنوان (الجيش قيد التغيير) استعرضت في الأولى المشكلة الاستراتيجية بصورتها الشاملة ، واوضحت الاهمية القصوى لتقرير افضل توزيع لموارد الأمة بين الاسلحة الثلاثة (البرية والبحرية والجوية) على ضوء الظروف المتغيرة التي نتجت عن تطور القدرة الجوية . ثم ناقشت بعد ذلك وبصورة تفصيلية (كفاءة الجيش لمجابهتها) وللعمل وفقاً لواجب الجيش في عام ١٩١٤ ، ودوره لمساعدة حلفائنا الأوروبيين في المعركة الارضية على مسرح عمليات القارة الأوروبية ، ان العامل الواضح والأوحد هو انه يجب علينا استخدام قواتنا الميدانية مرة واحدة وذلك عندما نحتاج للقدرة الهجومية من اجل الاضطلاع بالواجب وفقاً للظروف المتوقعة . ولن تكون المشاة المحمولة وقوة نقل الفرسان كافية لمثل هذا الواجب . وان العقبة الاساسية هي (في ان مستوى قوتنا من الدبابات في حالة من التخلف اذا ما تمت المقارنة مع اهمية دور هذه القوة . . بالنسبة لمركبات القتال المدرعة في حرب المستقبل) كما ان تجهيزات هذه القوة قد اصبحت متخلفة بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وانتهى المقال بالجملة التالية (ان الحالة غير الملائمة والتي وصلتها قدرة قوتنا المخصصة للحملات ما هي الا نتيجة لسياسة الماضي التي ضحت بالتجهيزات والتسلح من أجل المحافظة على مجرد اعداد وارقام في التسلح ، وهي ارقام لا تمثل ـ حتى في حالة المحافظة عليها ـ سوى قطرة عندما تسقط في سطل (دلو) القارة الاوروبية .

بدأ مقالي الثاني في تكرار رأيي بأنه يجب لكل قوة ميدانية يتم ارسالها للقارة ، امتلاك قدرة كافية للهجوم . وتابعت بعد ذلك الصعوبات للتغلب على المدافع الرشاشة المتمركزة دفاعياً على نحو ما كانت عليه في الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . حتى لو كانت هناك كتل من المدفعية . وأشرت الى انه قد اصبح الان وفقاً للمستوى المتوفر لمدفعية الدعم ، تحقيق تفوق يعادل ثلاثة اضعاف بالنسبة لما كان متوفراً لدعم الهجوم في الحرب الاخيرة) وعلى هذا فان الامل الاكبر يكمن في استخدام القوات المدرعة ، لا سيما اذا ما كانت هذه القوات مدربة « للعمل في الظلام » ، واذا ما امكن ضمان الاضاءة الكاملة بميدان المعركة ، من اجل دعم الهجوم واستثمار النصر .

لقد تطورت الاسلحة المضادة للمدرعات واصبحت تشكل تهديداً متزايداً ضد

الدبابات ، لا سيما عند تنظيمها لتشكل سداً بحسب التقنية الجديدة ، واصبح من المتعذر قياس درجة هذا التهديد . ولكن على الرغم من ذلك كله ، فاننا نستطيع على الاقل ان نتبين بوضوح في ان فرص نجاح الدبابات تتعاظم مع زيادة اعدادها ، وان هذه الفرص للنجاح تتناقص بنسبة عكسية كلما كان عدد الدبابات قليلاً . ويظهر اننا لا نمتلك في الوقت الحاضر اكثر من لواء الدبابات الموجود والذي اعيد تجهيزه بوسائط حديثة (وهو اللواء الذي كان من المفروض ان يشكل جزءاً من فرقة متحركة تستطيع في حال اكمالها امتلاك قدرة هجومية محدودة) هذا بالاضافة الى اربعة افواج من المشاة الآلية (الميكانيكية) المدرعة والتي لا زالت قيد التنظيم . وكانت فرص نجاح الهجوم لا تتجاوز الصفر مع هذا العدد القليل من الدبابات . ذلك ان الامل في النجاح ضد مضاعفة اعداد الاسلحة المضادة في هذه الايام ، انما يكمن فقط في الاندفاع باعداد كبيرة من الدبابات تستطيع اغراق الدفاع وتمزيقه .

اما بالنسبة لبقية الجيش ، من فرق المشاة العادية ، فهناك مجرد احتمال في ان تستطيع تطورات التقنية الحديثة بالاشتراك مع التجهيزات والاسلحة الجديدة ، ضمان الفرص امام هذه الفرق لتحقيق بعض النجاح في الهجوم . وتتعلق هذه الفرص في التقدم ضمن مجال فن الحرب بأكثر مما تتعلق بالجانب المادي . وهنا ، يجب علينا لسوء الحظ مجابهة الحقيقة وهي ان نقص التجهيزات الحديثة في الجيش الحالي هو ليس كل عيوبه النوعية . ان قواتنا في حاجة بسبب حجمها الصغير الى زيادة كفاءتها التعبوية (التكتيكية) وكفاءتها الفنية (التقنية) . وهي لم تفعل حتى الآن شيئاً . . . .

(الأمن قبل كل شيء) وهذا قول معروف جاء في هذه الايام ليحل محل قول دانتون الذي عمل به نابليون ايضا وهو الجرأة والجرأة ايضاً والجرأة دائماً . ولكن الذي حدث هو اكتساب عادة الحذر والتحرك البطيء المعاكس والمضاد لاتجاه (الجرأة) في اغتنام الفرص والمناسبات ، ولم يكن ذلك سوى نتيجة للتوافق مع مضمون برامج التدريب ، ومع التضليل الناتج عن التغيير المستمر في التفاصيل والايضاحات المتتابعة للاوامر الكتابية شديدة التدقيق بالتفاصيل وتوافه الامور . وهكذا عوضاً عن اقامة فن تعبوي (تكتيكي) على اساس التمارين ـ الميدانية التي تساعد على التنفيذ السريع ، اصبح لدينا اتجاه لنقل التمارين التعبوية (التكتيكية) الى مجرد تمارين يتم تنفيذها بايقاع بطيء . ويظهر اثر ذلك في الموقف الذي يمكن وصفه فقط (بالحذر الأحمق) وهو مضاد تماماً (للامن الحقيقي) ذلك لانه يدمر كل احتمال لانجاز المباغتة .

ولقد اصبحنا الآن عبيداً « للوضوح » عوضاً عن ان نكون سادة « للمباغتة » واننا لن نستطيع يقيناً بهذه النظرة الضبابية النيل من سيادة الدفاع ولن نتمكن من ذلك الا اذا امكن اجراء تطوير كبير في تمارين المعركة وتدريب الميدان .

لخصت الموقف بعد ذلك بالعبارة التالية (ربما كان هناك ثمة اعتبار لا زال موضع الاهتمام وهو ضرورة تقويم القوة ووضعها في الاعتبار من خلال الارضيات السياسة . وقد يكون ذلك مجرد رأي . وعلينا مقابل ذلك ان نكون على يقين من ان اولئك الذين يتخذون القرارات السياسية ، انما يفعلون ذلك وهم ينظرون من خلال الحدود العسكرية الاساسية) . كما انه لا بد من ان يوضع بالاعتبار طريقة اعادة النظرحديثافي السياسة البلجيكية واتخاذ موقف الحياد الذي قد يزيد من الصعوبات .

تبع ذلك كتابة افتتاحية بتاريخ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر اوضحت فيها نقطة اخرى - ظهرت خطورتها فيما بعد عام ١٩٤٠ - وكان يجب وضعها موضع الاعتبار عند تكليف الجيش للعمل بالقارة الأوروبية :

لقد كانت الاخطار التي تعرضنا لها في عام ١٩١٤ هي اقل بكثير مما يجب علينا توقعه في هذه الايام - حيث يحتمل ان تكون هناك مسافات اكبر يجب تغطيتها وتجاوزها ، وحيث تكون الطرق والخطوط الحديدية تحت تهديد الهجمات الجوية . وسيكون انهيار خطوط المواصلات على درجة كافية من الخطورة بالنسبة للجيش حتى عندما يعمل في بلاده وفوق ارضه . او حيث يمكن فرض السيطرة الكاملة . وليس باستطاعتنا تجاهل الاخطار التي تتعرض لها قواتنا في مجابهتها للهجمات الجوية وذلك عندما تصاب قواتنا بالعزلة خلال توغلها في عمق في فرنسا . . . وطالما اننا لم نطور اي جيش للتكيف مع الظروف الجديدة للحرب ، فقد يكون من الحكمة (الاقلاع عن فكرة التدخل او زج القوات الارضية في القارة الاوربية ، وتركيز الجهد لتكوين جيش ملائم في انكلترا للعمل كاحتياط لحاميات ما وراء البحار) وافهام الفرنسيين بوضوح انهم قد يستطيعون الحصول على قيمة اكبر بزيادة الدعم الجوي لهم .

اتصل بي رئيس هيئة الاركان العامة (سير - سيريل دوفريلل) على اثر نشر هذه المقالات وطلب الي الذهاب لتناول طعام الغداء في شقته الواقعة في بيركلي - كورت لمناقشة القضية معه ، وهناك وجدت ايضا اللواء . ر .هـ . هينينغ مدير العمليات العسكرية ومدير الاستخبارات .

جلسنا نحن الثلاثة بعد تناول الطعام لتبادل حديث طويل . وسألني دوفريلل بقوله

(متى ستأتي الى وزارة الحرب لمناقشتك في افكارك ؟) (وكان يشير بذلك الى لائحة المقترحات التنظيمية والتدريبية والتعبوية - التكتيكة - والتي قدمتها اليه بناء على طلبه) . واجبت انني كنت انتظر طلبه من اجل ذلك . فقال بأنه قد تمت دراستها ، وانه سيعلمني فور استعداد (الناس) لمناقشتها .

انتقل بعد ذلك الى القضايا التي اثرتها من خلال مقالاتي الاخيرة - وظهر بوضوح السبب الذي حمله على دعوة هينينغ الى هنا . . .

وتابع حديثه ليقول (بانني قد بذلت الكثير من اجل تطوير الجيش وتحويله الى جيش آلي ميكانيكي - واننا الآن وقعنا في المأزق الخطر تماماً في الوقت الذي وصلت فيه افكاري لمرحلة التنفيذ) .

لقد كان من الواضح - لسوء الحظ - انه عندما تحدث عن (الجيش الآلي - الميكانيكي) فانه لا زال يضع في مخيلته تأمين وسائط النقل الآلية لفرق المشاة لا اكثر ، على اعتبار ان هذه الفرق تكون الكتلة الاساسية للجيش .

دخل هينينغ بعد ذلك في المناقشة فقال بان علينا الاستعداد جميعاً . وتخصيص موارد الامة بكاملها من اجل حرب اخرى . وانه ليس باستطاعة الجيش الاضطلاع بدور محدود ، تاركاً المجهود الرئيسي للاسلحة الاخرى (البحرية والجوية) . . . ولقد وجدوا نتيجة البحث والدراسة ان هناك فائضا من الرجال يعادل خمسة ملايين رجل ، وذلك بعد تلبية متطلبات المصانع وجميع احتياجات المصالح والاسلحة الاخرى بصورة كاملة . وانه من غير المعقول عدم استخدام هذه القدرة في الجيش - ودعم دوفريلل هذه الفكرة

اعترضت هنا فذكرت ان هناك فائدة قليلة من استخدام ما لم تتوفر الظروف لتحقيق تأثير مناسب - واذا ما وضعت جانباً حقيقة انه يجب علينا عدم التفكير بمجرد كسب الحرب ، فانه يجب التفكير في وضع الدولة وبناء الامة لما بعد الحرب . ويظهر لي من خلال حرب الحبشة ان سلاح الجو لا يستطيع وحده كسب الحرب . وعلى هذا فان ارسال مجرد اعداد من القوات الارضية سيكون عقبة اكثر منه دعماً ناجعاً له قيمته . وقد اصبح حجم الكتل الكبيرة من القوات يمثل حاليا عقبة بالنسبة للايطاليين ، وسيستمر ذلك ما لم يتم لهم التعلم من تجربتهم لتشكيل ارتال صغيرة متحركة (آلية) تستطيع متابعة هجمات القوات الجوية وزيادة على ذلك فان التطور الآلي (الميكانيكي) بمفهومه الواسع قد دمر كل اهمية لعدد القوات وحجمها . وهناك امثلة كثيرة عبر التاريخ لقوات صغيرة استطاعت القضاء على قوات اكبر منها بكثير ، بفضل ما توفر للقوات الصغيرة من استخدام للوسائط

المتفوقة . وليس على المرء الا ان يفكر بالقادة العظام امثال الاسكندر وهانيبال وجنكيزخان ، كما يمثل غزو « سترونغبو » ومعه مئات قليلة من الفرسان لاقليم ارلندة نموذجاً صارخاً ومذهلاً على ذلك . وكذلك الامر بالنسبة لغزو كورت « للمكسيك » وغزو بيزارو « للبيرو » باعداد قليلة ولكنهم يتميزون بتفوقهم الحاسم في التسلح والتجهيز . وان الاتجاه الطبيعي للتطور العلمي ، والسير لحرب آلية (الميكانيكة) سينقض يقينا من اهمية جميع الاعمال الحسابية التي تستند الى الارقام . . .

يظهر بوضوح ان هيئة الاركان العامة كانت تريد قوة ميدانية يمكن ارسالها عبر القناة ، كخطوة تمهيدية لتكوين جيش وطني كبير . ولكن لم يكن باستطاعة المرء ان يكتشف ما اذا كانت لدى هيئة الاركان فكرة واضحة عما تستطيع مثل هذه القوة انجازه ، وكيف لها العمل عندما تصل الى القارة الاوروبية .

لقد قالوا بانهم لا يريدون تحديد القوة مسبقاً ، اذ انهم يشعرون انهم اذا ما وضعوا القوة على اهبة الاستعداد فانها ستتورط على نحو ما حدث في عام ١٩١٤ ، حيث تم اتخاذ قرار بسرعة ، على هذا لم يكن هناك مخطط يحدد البنية التنظيمية للقوة ذاتها ، وكل ما كان هناك مجرد فكرة عامة وغامضة لجعل الفرق الخمسة فرقاً حديثة يجب علينا امتلاكها . ولم تكن هناك ولو اشارة واحدة الى انهم حاولوا التفكير في مشكلة تكوينها او استخدامها او فاعليتها . بكل ما تحمله هذه المعطيات من مضامين .

وصلتني في الاسبوع التالي انباء محبطة للآمال حملتها رسالة هوبرت بتاريخ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) وجاء فيها : (لقد تم وضع مشروع تشكيل الفرقة المتحركة على الرف بصورة نهائية . وانتصر بذلك « باسشيندال » انتصاراً حقيقياً . ورجعنا بصورة محددة الى الحرب الجامدة والهجمات الجبهية) . وكان قد اعلمني (ان الخيالة تضغط حالياً لاستبعاد لواء الدبابات من تنظيم الفرقة المتحركة) . وفي ٦ كانون الأول (ديسمبر) كتب لي من جديد رسالة جاء فيها (انه وجد خلال زيارته لكلية الأركان انهم تلقوا هناك اعلاماً رسمياً . . . يشير الى انه قد تقرر في وزارة الحرب بان تتكون الفرقة المتحركة من لواءي فرسان آليين ـ ميكانيكيين مع وحدات مساعدة ، والا يشكل لواء الدبابات قسماً من هذه الفرقة) .

كان دوفريلل ذاته قد اكد انباء هذه الانتكاسة خلال حديث طويل معه في يوم ٦ تشرين ـ اي قبل استلامي لرسالة هوبرت . ففي هذا الحديث كنا وحدنا ، وأظهر

دوفريلل شكوكه في موضوع انحراف سياسة هيئة الأركان بأكثر مما فعله عندما كان هينينغ حاضراً معنا ، وترك لدي انطباعاً قوياً ان نسبة الخيالة في الفرقة المتحركة ستكون مرتفعة ، ودون اشراك لواء الدبابات في هذه الفرقة ، وذكر انه يتعرض للضغط عن طريق رئيس مساعديه في هيئة الاركان . كما كان يعمل الى جانب بوب هينينغ وفقاً لهذا الاتجاه كل من (ارنست سكوير) مدير فرع الافراد والخدمة . و (آلان بروك) مدير التدريب العسكري . وقد تلقيت في ذلك الاسبوع رسالة اخرى من هوبرت اوضح فيها مزيداً من ذلك الاثر المشؤوم من خلال المقارنة مع التطورات الالمانية حيث قال :

لقد عمل الالمان (كما تعرف) على تكوين عدد من الفرق المتحركة (وهي تعادل فيالق في الحقيقة) حيث تضم كل واحدة الوية من الدبابات تعادل قوة اللواء منها ثلاثة وحتى اربعة اضعاف قوة اللواء عندنا . لقد نقلوا عنا كل ما يمكن نقله ثم ها هم الآن وقد اندفعوا قبلنا وسبقونا . ولقد تلقى لواء دباباتنا كثيراً من الوعود خلال السنوات الثلاث الماضية ، لكن شيئاً لم يحدث سوى الوعود . ولم تظهر بارقة مشجعة سواء في شكل التوسع او في الترفيعات او في زيادة قوة العتاد .

ظهرت خلال هذه الفترة القاسية ايضاً وعلى مستوى القيادات العليا للجيش الافرنسي ، مناقشات فكرية وتردد ، أوضحها لي « رولاند ـ دو ـ مارجرى » المستشار في السفارة الافرنسية وذلك من خلال حديث معه خلال ذلك الاسبوع ذاته .

لقد تحدث عن صعوبة اصلاح السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية بسبب التناقضات الكبرى في التقديرات التي تضعها هيئة الاركان العامة . كان غاملان هو القائد الافرنسي البارز في تلك الفترة ، وكان جورج يؤثر على كل انسان كقائد عسكري عبقري بارز . وها هو الآن يقدم للحكومة تقديرين متناقضين تماماً للموقف خلال فترة اسبوعين فقط ، في موضوع قدرة المانيا على اعادة احتلال المنطقة المجردة ونتائج هذا الاحتلال . ففي التقرير الأول يظهر الخطر الهائل على فرنسا مما يحبط ارادة الحكومة احباطاً تاماً ويمنعها من تقديم اي مساعدة الى تشيكوسلوفاكيا . اما التقرير الثاني فقد تضمن انه ما من شيء يثير المخاوف بالنسبة للغرب ، وانه بالامكان ضمان القيام بهجوم ناجح .

عملت هيئة الاركان العامة الافرنسية ايضاً على اعداد تقديرين متناقضين تماماً للموقف خلال سنة واحدة ـ بالنسبة لايطاليا ـ وقد جاء في التقرير الأول انه لا يمكن للجيش الايطالي ان يثير شيئاً من المخاوف . في حين يجعل التقرير الثاني من هذا الجيش قدرة هائلة . . .

هناك حالة اخرى تصور التناقض في وجهات النظر الافرنسية ، فقد تم ارسال بعثتين عسكريتين على التتابع لحضور المناورات الروسية . . وقد ذهبت البعثة الأولى قبل سنة مضت ووضعت تقريراً يمجد القوات الروسية مما كان له اثر كبير على الحكومة لترقيع اتفاقية الحلف الروسي ـ الافرنسي . اما تقرير هذه السنة فقد تضمن الكثير جداً من الانتقادات . وأطلعني « مارجري » على نسخة من رسالة تلخص تقرير هذه البعثة ، وتغير وجهات نظر هيئة الاركان العامة نتيجة لذلك . وكانت التعليقات ـ كما لاحظتها ـ مشابهة جداً لتلك الانطباعات التي تكونت لدي بعثتنا العسكرية وهي ان الرجال جيدون ، كما ان التجهيزات والوسائط جيدة ، لكن القصور هو في مستوى القيادة العليا ، بحيث تم التخطيط للمناورة باسلوب دقيق جداً من اجل تكوين نتيجة مقررة سبقاً . ونتيجة لذلك قرر الحكام في البعثة ان الجيش الروسي لا يستطيع ممارسة دور ناجح مؤثر في الغرب .

على كل حال ، لقد أخذت هيئة الاركان الافرنسية الآن في تعليق آمالها على بولونيا ، واخذوا يطالبون ـ وفقاً لما جاء في الرسالة ـ في معرفة ما اذا كان المخطط الالماني يتضمن توجيه ضربة الى منطقة الأودر ـ مورافا في اتجاه براتيسلافا ، والاعتماد على الفترة الزمنية لمدة اسبوعين من اجل تمزيق اقليم التشيك (المنتج لثلاثة ارباع الموارد العسكرية) وفصله عن سلوفاكيا . وعلى ذلك . وبقدر ما تبقى فيه بولونيا على الحياد ـ او بتعبير اكثر وضوحاً ـ في البقاء على تحييد العدوان الالماني . فان القيادة الافرنسية تعتبر ان المانيا لن تجد الجرأة للقيام بالهجوم على هذا الاقليم نظراً لتعرض مؤخراتها في هذه الحالة للتهديد .

يبقى بعد ذلك الحل التبادلي الالماني ، وهو الهجوم مباشرة على بوهيميا ، مما يتطلب انجازه فترة زمنية لمدة شهر . وتعتمد يوغوسلافيا ورومانيا على هذه المدة الزمنية لعبور هنغاريا وتقديم دعم للتشيكيين الذين يقع عليهم في الوقت ذاته ممارسة اعمال القتال التأخيري .

* * *

قدمت الحكومة تقريراً جديداً عن الدفاع في شباط (فبراير) ١٩٣٧ وأبرز هذا البيان مخطط السنوات الخمس لاعادة التسلح على نطاق اكبر بكثير مما كان عليه من قبل . واذا ما تمت مقارنته بالتقرير السابق فانه يبرز التوسع الكبير في افكار الحكومة نحو ما كان ضرورياً ، فقد اقترح انفاق مبلغ ١٥٠٠ مليون جنيه استرليني خلال السنوات الخمس المقبلة . وقد تضاعف معدل الانفاق بنسبة ثلاثة اضعاف وذلك بالمقارنة مع ما كانت تنفقه

انكلترا على قواتها المسلحة يوم وصل هتلر الى السلطة ، وبزيادة قدرها خمسون بالمائة عما كان مخصصاً في موازنة عام ١٩٣٦ . وحمل ذلك على توقع اجراء تدابير واسعة لاعادة التسلح . ولو ان الخط البارز لهذا الاتجاه لا زال ضبابياً غير واضح المعالم . ولكن ظهرت على السطح بعض النقاط المثيرة للقلق ، وبصورة خاصة في المجال الذي عالج فيه التقرير موضوع تحويل الجيش الى جيش حديث ، اذ تضمن التقرير مجرد تكوين فوجين جديدين من الدبابات . وقد كان من غير الملائم ابداً ان تبقى قوة الدبابات في الجيش البريطاني بمثل هذا الهزل الشديد بالمقارنة مع الالمان ، والا تتم الزيادة بأكثر من ستة الى ثمانية افواج .

كان « نيغيلل تشامبرلان » مستشاراً لوزارة المالية « وزيراً للمالية » وبذلك فانه كان المسؤول الأول عن الانفاق لتنفيذ برنامج اعادة التسلح . وقد رغب قبل اجراء الانتخابات العامة لعام ١٩٣٥ ان يتم استفتاء الناخبين على بيان لاعادة بناء القوات المسلحة ، ولكن رئيس مجلس الوزراء « ستانلي - بالدوين » تردد في ذلك خوفاً من تأثير ذلك على النتائج في انتخاب حزب المحافظين - وانقضت السنة التالية في التغلب على مقاومة بالدوين المستمرة وحمله على التفكير في اتخاذ القرارات لاعادة التسلح ، وكذلك الأمر بالنسبة لأجنحة الخدمات والمصالح البطيئة في التفكير واتخاذ القرار بشأن ما يريدونه بصورة محددة لتنفيذ برنامجهم .

كان تشامبرلان اكثر وضوحاً من معظم زملائه في مجلس الوزراء من حيث ادراكه لخطورة تفاقم النواقص والتقصير ، وقلة المصانع الحربية الضرورية لاعداد المتطلبات ، وتقويم كل ما ينتج عن الاهمال الطويل . وقد اعترف ايضاً ان محاولة الوصول الى القوة في جميع المجالات انما تعني الا تكون قوياً بدرجة كافية في كل مجال ، وعلى هذا فانه يجب ان تكون هناك ثمة افضليات في تركيز الجهد على المجالات والمتطلبات الاكثر اهمية وحيوية - وهذه نقطة اساسية كنت قد اكدت عليها بصورة ثابتة وباستمرار في مقالاتي على صفحات التايمز . كما انه وصل الى نتيجة مشابهة لتلك التي وصلتها وهي (انه بالامكان الافادة من مواردنا على نحو افضل اذا ما استخدمت لتطوير القوات الجوية والبحرية عوضاً عن بناء الجيوش البرية الضخمة) . وقد حدد بانه يجب علينا تكوين قوة جوية لديها قدرة كافية لدعم قوة جيش صغير ولكنه على درجة عالية من التدريب ومسلح بأحدث الاسلحة والتجهيزات (من قمة الرأس وحتى اخمص القدم) حتى يكون مستعداً للذهاب (الى كل مكان وفي كل وقت) سواء من اجل التدخل بسرعة في القارة الأوروبية ، او من اجل ضمان امن الامبراطورية . وسيكون ذلك اكثر فاعلية واكبر تأثيراً من التخطيط لجيوش اكبر ذات مميزات اقل بحيث انها إما ان تصل الى (مسرح العمليات) في وقت متأخر ، او

انها تكون محرومة من الدعم الجوي . وزيادة على ذلك فانه أكد ـ (بان وزارة الحرب قد رفضت كل فكرة لاعداد جيش يعمل في اوربا على مستوى ما كان عليه الجيش في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨) .

لقد جاءت ملاحظات تشامبرلان السابقة بصورة حرفية في رسالته التي حفظها له كاتب سيرته الشخصية (سيركيث فيلينغ) في شهر شباط (فبراير) ١٩٣٧ . وكان تشامبرلان اكثر وضوحاً وفقاً لما تضمنت رسالته التي بعثها لي في الشهر التالي تعليقاً على كتابي الجديد (اوربا تحت السلاح) وهي الرسالة التي جاء فيها : (انني على يقين تام ، باننا لن نرسل ابداً الى القارة الأوربية جيشاً على مستوى ذلك الذي دفعنا به الى الميدان في الحرب العظمى) . وبالاضافة الى ذلك ، فقد عبر بوضوح عن موافقته لما ذكرته من حجج في التايمز لاعطاء الافضلية للقوات الجوية ، وذلك عندما قابلته في وقت مبكر خلال حفلة غداء مع بعض الأصدقاء . ولكن على الرغم من قدرة تشامبرلان على تحديد الخطوط العريضة للسياسة ، الا انه لم يتمكن من فرضها على اجنحة وزارته وفروعها ، ولا كيف يمكن الاضطلاع بنصيبها او تصميم العلاقة وتحديد النسب . ولسؤ الحظ ، فقد كان مفهوم هيئة الاركان هو مجرد اعادة النظر في علاقات القوى بالنسبة لجيش عام ١٩١٤ مع تجهيزه بوسائط جديدة . وقد كان ذلك بمثابة اعادة نقية للاتجاه الذي انعكس على تقديرات الجيش الجديد التي تم تقديمها في الخامس من آذار (مارس) ١٩٣٧ . فخصصت كتلة الأموال المتوفرة من جديد لاعادة تجهيز فرق المشاة وتسليحها . وكان المبلغ المخصص بكامله للتجهيزات الحربية الجديدة قد فقز من ١٢ مليون جنيه استرليني في عام ١٩٣٦ (بعد ان كان اقل من ستة ملايين جنيه استرليني في عام ١٩٣٥) ليتجاوز مبلغ ٣٠ مليون ـ وقد خصص من اصل هذا المجموع الكامل ما يعادل الثلث من اجل جميع المركبات التي تعمل على السلاسل (المجنزرات) ، بما فيها الدبابات ، هذا على الرغم من القرار الذي اتخذ الآن لتكون جميع الوية الخيالة (الفرسان) الآلية ، عاملة بكاملها على الدبابات الخفيفة فبقيت التطلعات ضبابية وغير واضحة في موضوع اعادة تجهيز قوات المدرعات الملكية بوسائط اكثر قوة وفاعلية .

قمت بالتعليق على هذه التقديرات في افتتاحية التايمز ، وافترضت ان الوقت قد حان لاجراء تحديد واضح لدور الجيش وواجباته ، مع بيان الاهداف المختلفة التي يمكن له الاضطلاع بها . فهناك حاجة لنوعين من قوات الحملات (الارساليات) قوة تكون على استعداد لدعم الحاميات فيما وراء البحار عند حدوث اضطراب ، والقوة الأخرى لمجابهة طوارىء حرب كبرى ، ويجب ابقاء هذه الاهداف بصورتها المميزة والواضحة ـ لا سيما

وانه من المحتمل ان يظهر الخطر الثاني عندما نكون منصرفين لمجابهة الخطر الأول . وعلينا الاعتماد على تلبية المتطلبات في تكوين فرقتين او حتى ثلاث فرق للمشاة من اجل (اخماد نيران الحريق - في الامبراطورية) ولمواجهة (اعباء الحرب لحماية حدودنا فيما وراء البحار وقواعدنا البحرية واعمالنا البرمائية ضد القواعد البحرية المضادة) وتابعت القول : (يجب ان يبقى الدور الرئيسي لقوة الارساليات « الحملات » موضع الاعتبار لا سيما في مجال احتمال التدخل في حرب القارة الاوربية . . . ولن يكون باستطاعتنا القيام بالعمليات الناجعة والمؤثرة بواسطة فرق المشاة ، ذلك أن لدينا القليل من هذه الفرق في حين يكون لدى الحلفاء فرق كافية منها ، وعلى هذا فلن يكون اشتراكنا هو الأكثر فاعلية وفق قدراتنا . انهم يريدون منا مساعدة اكثر اهمية وابعد اثراً وذلك بارسال فرق آلية - ميكانيكية - على درجة عالية من الكفاءة . ولعل فرقتين من مثل هذه الفرق - ولنقل فرقة خيالة آلية « ميكانيكية » ووحدات من الدبابات الثقيلة - ستكون اثقل وزناً من كفة الميزان ، ذلك ان مثل هذه الفرق لا زالت قليلة في اي جيش من الجيوش الاوربية واذا ما تم وضع الحالة الطارئة للتدخل في القارة الأوربية جانباً ، فان من شأن (القوة المتحركة المدرعة) ان تكون (ذات قيمة مهيمنة) (للعمليات الهجومية ضد اقاليم العدو فيما وراء البحار) من اجل مجابهة او احباط خطر الهجمات الارضية او الجوية عندما يظهر مثل ذلك الخطر ضد حدودنا هناك) وقد تم ذكر هذه النقطة الأخيرة عن عمد وذلك لايضاح افضل طريقة لمعالجة مثل تلك المحاولة الايطالية لغزو مصر .

كانت هذه الحجة استمراراً ولكن بطريقة اوضح واكثر تركيزاً لما كنت قد قلته قبل سنة عندما قدمت الموازنة في بيان الحكومة لعام ١٩٣٦ وقد لقيت هذه الحجة قبولا متزايداً في الاوساط الحكومية خلال تلك الفترة . بحيث انني عندما دخلت في نقاش مع اينسكيب ودوف كوبر في شهر شباط (فبراير) - وقبل تقديم مشروع موازنة عام ١٩٣٧ - وجدت انهما قد تجاوزا مرحلة بعيدة في اتجاه الاعتراف بميزات القوات الآلية (الميكانيكية) لا كمجرد فرق من المشاة لقوة الحملات (الارساليات) - والتي كان يطلق عليها آنذاك اسم القوة الميدانية - وكانا يشعران بعدم الارتياح من استمرار هيمنة افكار النظام القديم على تفكير مستشاريهم من العسكريين المحترفين . وبذلك أظهر اينسكيب بعد سنة من العمل كوزير لتنسيق التعاون الدفاعي قدراً كبيراً من الوضوح في ادراك المشكلات والمتطلبات . وكان هذا القدر يزيد عما كان لديه يوم تسلم الوزارة ، دون ان تكون لديه فكرة مسبقة او تجربة في هذا المجال . ولو انه استمر في الشعور بانه بعيد عن العمق في مناقشة القضايا الاستراتيجية ، وكان هذا يدفع نحو الاتجاه للابتعاد عن كل محاولة لاعادة صياغة تلك

القضايا الاستراتيجية وتشكيلها من جديد ، ومقابل ذلك اصبحت لديه معرفة عميقة جداً بالشؤون الادارية وامور الامداد والتجهيزات ، وقد اصيب بصدمة وهو يجد مدى التخلف الذي تم الوصول اليه وبصورة خاصة في الجيش البري .

لقد حاول اينسكب معالجة الموقف . وشعر من خلال ذلك بأن القسم الأكبر من الاضطراب انما يعود الى غياب الوضوح في رؤية وزارة الحرب للاهداف والاحتياجات . وقد ذكر لي ما يلي : (يبالغ القادة كثيراً في تقديراتهم للمبالغ التي يحتاجونها ، وذلك اكثر ما يثير الضجر والضيق ، كما ان ليس كل ما يطلبونه هو ضروري ولا يمكن اجتنابه . وهم يقتصرون في رغبتهم على اجراء التغييرات الصغرى ، سواء كان ذلك في تصميم المدرعات او غير ذلك ، وهذا هو السبب الرئيسي للتأخير في انتاج متطلبات الجيش واحتياجاته) اما القوات الجوية والقوات البحرية فهما افضل من الجيش في هذا المجال . وقد ذكر انه اصيب بالفزع عندما اكتشف مدى القصور في هيئة التصميم ، ومدى الاضطراب في توزيع المسؤولية من اجل التصميم او التطور . لقد كان هناك عدد قليل جداً من الضباط الذين يمكن اعتبارهم (خبراء حقيقيين في التطور الآلي ـ الميكانيكي) ولكنهم كانوا متناثرين فوق كل بقعة من الامبراطورية لممارسة اعمال مختلفة وواجبات متنوعة) وتابع (اينسكيب) حديثه ليقول (وقد اضافت هيئة الاركان العامة مزيداً من الفوضى والاضطراب بسبب الغموض في مفاهيمها وحساباتها) . وقد تزايد هذا الغموض نتيجة الجهود الأساسية التي بذلها عن نية حسنة رئيس هيئة الاركان الجديدة « دوفريلل » فقد اراد دفع التقدم بسرعة دون ان تكون لديه دراسة مسبقة ، او معرفة شخصية بمشكلات القوات الآلية (الميكانيكية) . وكان « هوبارت » قد رحب قبل اشهر قليلة باتجاه « دوفريلل » التقدمي على امل تغيير الموقف الذي كان قد اتخذه رئيس هيئة الاركان العامة السابق « مونتغومري ميسينغبورد » ولكن ها هو « هوبارت » يقول لي بحزن ظاهر (يحاول دوفريلل الانطلاق بقفزات الأرنب ـ وهنا يكمن الخطر ـ فقد تسبب ذلك في ايقاف الامداد بالتجهيزات التي كان يتم فحصها واختبارها) .

أصبح « دوف كوبر » في الوقت ذاته أكثر تشاؤماً واكثر نقمة حتى من « اينسكيب » بالنسبة لحالة الجيش وبالنسبة للمعدل البطيء في اعادة تسليحه وتجهيزه . وكان قد قال لي قبل سنة (وبعد تعيينه وزيرا للحرب بفترة قصيرة) انه يعتبر رئيس هيئة الامداد والتسلح « هيغ أليس » من أفضل الرجال في الهيئة الاستشارية للجيش ، وانه يرغب في دعمه للوصول إلى منصب رئيس هيئة الأركان . ولكن ها هو دوف كوبر الآن وقد زال الضباب

من أمام عينيه ، فأخذ في إلقاء اللوم على اليس بسبب التأخير في اعـادة تسـليح الجيش وتجهيزه

كانت قوات الدبابات الملكية قد أقامت حفلة عشائها السنوية قبل ذلك بأشهر قليلة وذلك بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٦ وكان ضيوف الشرف في هذه الحفلة ثلاثة هم وينستون تشرشل ولورد نوفيلد وأنا ، وكان لورد نوفيلد قد دعي تقديراً لمساعدته الكبرى - كرئيس لمجموعة محركات موريس العظمى - في تطوير دبابـة متوسطـة جديدة وسريعة للجيش وكنت جالساً بجانب « هيغ - اليس » الذي عبر عن فزعه وهو يجد أن أفكاره بشأن قدرات القوات المدرعة المتحركة لم تشهد شيئاً من التقدم وفقاً لما كان قد عبر عنه وطلبه قبل سنة ، في حين أظهر رضاه التام عن نفسه في معدل التقدم لاعادة التسلح والتجهيز وتم تبادل الأحاديث مع الآخرين عند نهاية مأدبة طعام العشاء ، وقد أجفلت ذعراً لانتقاداتهـم العنيفـة ضده سواء في ذلك المجـال او في مجـال تخليه عن الوحـدات المدرعة وكان ذلك تغييرا محزناً في نظراتهم المتحمسة بالمقارنة مع تلك النظرة التي كانت له خلال السنوات الأولى لما بعد الحرب

قد يكون من العدل على كل حال ايضاح ان « أليس » قد ورث عمن سبقه فريقاً هزيلاً من المساعدين الفنيين في إدارة الفرع الميكانيكي وذلك عندما اضطلع باعباء جناح الامداد بالتسلح والتجهيزات ، وأصبحت هذه العقبة اكثر سوءاً نتيجـة لضآلـة معرفتـه بالعوامل الفنية (التقنية)

لقد كان هناك في عام ١٩٣٢ فريق ديناميكي يتكون من « بيك » و « بايل » كانـا يعملان مديراً ومساعداً للمدير ، ثم خلفهما في مركزيهما « بروغ » و « ستاد » ولـم يحدث خلال السنوات الأربع التالية من الانجازات سوى بعض من التقدم في تصميم المدرعات وتطويرها و إنتاجها وقد أسهمت الى حد بعيد في خلق هذه الحالة من الاختنـاق تلك العطالة وضيق الأفق في برنامج القسم الآلي (الميكانيكي) من مصنع « وولويتش » فقد وضعت تصاميم لنماذج تجـريبية متنوعـة وتـم اختبارهـا وفحصهـا بطريقـة غـير مبرمجـة ومتقطعة ، فلم تحصل هذه النماذج على الرضى والقبول ويضيع بذلك مزيد من الوقت في محاولة تصحيح الأخطاء الآلية (الميكانيكية) وتصبح النماذج متخلفة عن الزمن وغـير مناسبة من الناحية التعبوية (التكتيكية) خلال تلك الفترة التي كان يتم فيها تصحيح أسوأ تلك الإضطرابات ومعالجتها لم تبذل بعد ذلك أية محاولة جادة لتحسين الموقف حتى منتصف صيف عام ١٩٣٦ ، حيث جثم كابوس على صدر كل من كان قادراً على رؤ ية الخطر المتعاظم للحرب ، ونظـر بحـذر لتطـور الدبابـات الألمانية وعندهـا تم إبعـاد

« بروغ » عن منصبه الذي استمر في الاحتفاظ به لمدة أربعة أعوام ، وتم تعيين اللواء . آ ـ و ـ دافيدسون مديراً للفرع الآلي (الميكانيكي) ، وكان هذا مهندساً ميكانيكياً على درجة عالية من الكفاءة والتأهيل ، كما كانت لديه ميزة المعرفة الواسعة برؤساء الصناعات . وكان أفضل من ذلك أيضاً نقل مارتل الى وزارة الحرب كمساعد للمدير ، وكلف بالعمل مباشرة لتطوير الدبابات ـ بعد ان أمضى الثمانية عشر عاماً منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى في اشغال مراكز مختلفة لا علاقة لها بأفق الدبابات ، وكان بارزاً متفوقاً سواء اثناء الحرب او خلال سنوات ما بعد الحرب . وقد كان التأخير الكبير في إعطائه مركزاً مؤثراً يتوافق مع مجال اختصاصه وهو واحد من الأساليب المميزة في وزارة الحرب . وقد كان انتقاء مارتل وزميله بمثابة رصيد يجب إضافته لمصلحة « هيغ اليس » ولكن كان عليه مقابل ذلك وعلى الجيش ايضا ان يدفعا معاً الثمن المرتفع للتأخير في تغيير الفريق للعمل طوال سنتين ـ وقد كانت فترة قاسية بالنسبة لتطلعات بريطانيا وآمالها للحاق بألمانيا .

كلف مارتل بمرافقة ويڤل ـ الذي أصبح الآن قائداً للفرقة الثانية في آلدرشوت وذلك لزيارة روسيا في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٦ . وحضور مناورات الجيش الأحمر .

أظهر « ويڤل ومارتل » تأثرهما الكبير وذهولهما للانجاز العظيم الذي أخبراني عنه بالتفصيل بعد عودتهما من روسيا . وقد كتب مارتل تقريراً بعثه فوراً الى « دافيدسون » وجاء فيه : (لقد رأينا ١٢٠٠ دبابة من انواع مختلفة وهي تتجاوز مسافات واسعة خلال الأيام الأربعة للمناورة دون ان تحدث عملياً اعطال تذكر . . . وفي اليوم الخامس أجري عرض أمامنا حيث مرت ألف دبابة تقريباً ، وكان أسوأ ما في الأمر اندلاع النيران في بعض المحركات) . وكان قد تأثر عملياً بالدبابة المتوسطة ب . ت والتي تم تطويرها في عام ١٩٤١ بالدبابة الشهيرة « ت ـ ٣٤ » وفقاً للمواصفات والميزات ذاتها . وقال ان ميزاتها وكفاءتها تعادل ضعفي ميزات أفضل نماذجنا التجريبية على الأقل . وقد قدر أن سرعتها تتجاوز ٣٠ ميلاً بالساعة دون جهد أو عناء وتستطيع المرور فوق ثغرة او فجوة عرضها ٣٠ قدماً « دون ضرر لا للدبابة ولا للزمرة التي تعمل في الدبابة . وكانت هذه الدبابة « ب . ت » مطورة عن الدبابة كريستي التي احضرها الروس من امريكا . .

وصلتني هذه الانباء متأخرة وكانت بمثابة تقويم مضحك للجهود التي كنت قد قمت بها فور قراءتي للتقارير الأمريكية عن تجارب الدبابة الجديدة كريستي في العام ١٩٢٨ ، وذلك بهدف جذب انتباه وزارة الحرب اليها . وصدمت لميزاتها الاساسية التي طالبت باقتباسها منها والقيام بالعمل الذي قام به الروس الآن بعد ان حصلوا على نموذجين منها في عام ١٩٣١ .

اقترح مارتل بعد عودته من روسيا (ان تعمل وزارة الحرب على شراء دبابة روسية من نموذج كريستي) لاختبارها وتجربتها ولكن هذه الفكرة أرعبت رؤ ساءه - لانها تبرهن - على الأقل - على تخلفنا وقصورنا . وزيادة على ذلك فقد وجد مارتل - مثلما تأكدت من قبل - أن « أليس » يشكك بفكرة استخدام القوة المدرعة كقوة مستقلة ، وكان اكثر ميلاً نحو الاعتقاد بانه في حالة حدوث حرب اخرى ، هذا اذا حدثت مثل تلك الحرب ، فانها ستبدأ من النقطة التي انتهت اليها الحرب السابقة ، بحيث تعمل الدبابات على قيادة هجمات المشاة ودعمها على نحو ما حدث في تلك الحرب الماضية ، ونتيجة لتمسك « أليس » بهذه الفكرة فقد توجه اهتمامه الرئيسي لانتاج دبابة مناسبة للعمل باتصال وثيق مع هجوم المشاة . وتنفيذاً لهذا الهدف فانه اراد انتاج دبابة ذات دروع سميكة وبطيئة نسبياً . وعلى هذا ، فليست القضية - من وجهة نظره - هي قضية تطوير ميزات تتجاوز الواجب المحدود لدعم المشاة .

وعلى هذا لم تكن هناك في عام ١٩٤٠ دبابات سريعة - الحركة للعمليات المتحركة ، رغم إصرار مارتل وإلحاحه على ذلك بعد زيارته لروسيا في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٦ . ذلك انه بعد أن قدَّم اقتراحه لشراء الدبابة الروسية من « نموذج - كريستي » وبعد أن فشل هذا الإقتراح ، استدار « مارتل » واتخذ اجراءاته للحصول على إجازة من أجل الحصول على دبابة من النموذج الأصلي الذي وصفه المخترع الأميركي (ج . وولتر - كريستي) وذلك بهدف تطويرها وفقاً للطريقة التي طورها بها مخترعها للتفوق بها على الدبابة الروسية . وعلى هذا فقد طلب الى مصنع محركات موريس الاتصال مع السيد كريستي ، وأمكن الاتصال به فوراً بواسطة الهاتف عبر الأطلسي . وتبين ان نموذج الدبابة التي اخترعها « كريستي » قد أبطل بناء على طلب جناح التسلح في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب عدم صلاحيته . بحيث لم يبق من هذا النموذج سوى دبابة واحدة . وتم شراء هذه الدبابة - بعقدها في - لقاء ٨ آلاف جنيه استرليني . وتم اقناع الفرع المالي في وزارة الحرب بعدئذ لتحويل الثمن . وأرسلت الدبابة الى نيويورك لشحنها ، ولكن عندئذ ظهرت عقبة ، ذلك ان المخترع كان قد رهن الدبابة في وقت مسبق ، وأصبح على وزارة الحرب إعادة دفع الرهن قبل ان يصبح بالامكان شحنها . وعندما علمت السلطات المسؤولة الأمريكية في واشنطن بهذه الصفقة ، استندت الى الحظر المفروض على تصدير أعتدة الحرب فرفضت إعطاء شهادة تصدير ، وكان لا بد من أجل الإلتفاف حول هذه العقبة ، من شحن هذه الدبابة على اعتبار انها جرار « تراكتور » كما أرسلت القطع الأخرى بصورة منفصلة وهي تحمل بطاقة باسم (عصير فواكه) .

وصلت الدبابة المطلوبة في يوم ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) إلى إنكلترا رغم ذلك التأخير ورغم الفضول المزعج لمصلحة الجمارك البريطانية . وقد صرح « لورد نوفيلد » يوم ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) في وزارة الحرب (في ذات اليوم الذي أقيمت فيه حفلة عشاء كامبري) انه يوافق نهائياً على شراء حقوق براءة صنع الدبابة « كريستي » والاضطلاع بتطويرها . وكان لابد من تعديل الهيكل تعديلاً كبيراً ، وتصميم جسم قتالي افضل ، ولكن تبقى القيمة الاساسية للدبابة « كريستي » كامنة في جهاز مفصلها ومخامدها (النوابض) . ولقد تم الاحتفاظ بهذا الجهاز مع إجراء بعض التعديلات . وأمكن حتى شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧ وضع التصميم العام وبدأت شركة (نوفيلد الميكانيكية) في صنع نموذجين تجريبيين ، وظهر النموذج الأول بعد ذلك بعشرة أشهر - وهو زمن قياسي في زمن السلم - .

حمل النموذج اسم آ - ١٣ واطلق عليه اسم الدبابة (الطراد) تمييزاً لها عن أفضل النماذج وأقوى انواع دبابات (القتال) التي لا زالت مواصفاتها كمدرعات لحرب الحركة قيد التطوير . وكان وزن آ -١٣ يعادل ١٤ طناً وتسير بسرعة اكثر من ٣٠ ميلاً بالساعة ، يحمل برجها مدفعاً من عيار ٢ رطل ، في حين كان سمك الدرع (التصفيح) في حدود ثلاثة - أخماس الانش ، ثم ضوعف سمك التصفيح فيما بعد . ورغم ان هذاالتصفيح لم يكن سميكاً بدرجة كافية ، إلا انه كان أسمك من تصفيح الدبابات المتوسطة الألمانية خلال تلك الفترة .

ما ان صدر الأمر لصنع النماذج الرائدة لهذه الدبابة الخفيفة - المتوسطة ، حتى أخذ مارتل ، دون ان يضيع أي وقت ، في ممارسة الضغط من أجل إظهار الحاجة لنموذج دبابة اكثر قوة وأكثر فاعلية ، وأخذ في الاعداد لصنع (نموذج بالحجم الطبيعي) على أساس المواصفات التي كان هوبارت قد تقدم بها في فصل الخريف وأطلق عليها (الدبابة المتوسطة - لنموذج عام ١٩٤٠) .

كانت السرعة المطلوبة لهذا النموذج هي ٣٠ ميلاً في الساعة عند التحرك على الطرق ، وكان الأكثر اهمية في الموضوع هو ان تكون السرعة ٢٥ ميلاً في الساعة عند التحرك عبر الاقاليم . وأن يكون للدبابة القدرة على عبور خندق أو ثغرة بعرض ١٠ أقدام ، وأن تتسلق المرتفعات المائلة بمعدل ١ الى ١,٥ ، وان تكون دائرة العمل في حدود ٢٠٠ ميل لكل عملية إملاء الخزانات بالوقود . ويجب ان يكون سمك التصفيح في البرج والجبهة الأمامية في حدود ١,٢ انش . أما بالنسبة للتسليح فقد اعتبر هوبارت ان المدفع الجديد من عيار ٢ رطل ، سيكون كافيا ، ولكنه كان يأمل في تطوير السرعة الأولية

للمقذوف وزيادتها . نظراً لأن السرعة الأولية هي العامل الأساسي لاختراق تصفيح الدبابات المعادية . ولم يكن هوبارت يرغب في الحصول على مدافع ذات عيار أكبر لأن ذلك يعني (انقاص عدد الوحدة النارية التي تستطيع الدبابة حملها) وكان الرأي السائد في لواء الدبابات هو انه يجب على الدبابة المقاتلة ان تحمل معها مائتي قذيفة مدفع بهدف ضمان الدبابة على تنفيذ الواجب المحدد دون توقف لاعادة التموين بالذخائر . وكان باستطاعة السرعة العالية لمدفع ٢ رطل ، « عيار ٤٠ مم » اختراق التصفيح في الدبابات المتوسطة الجديدة التي اخذ الالمان في استخدامها وكانت قوة الاختراق افضل بكثير من المدافع عيار ٣٧ مم التي كان يستخدمها الألمان في دباباتهم(٦).

تم تأجيل اتخاذ أي قرار يتعلق بموضوع الدبابة المتوسطة الجديدة . ولكن أعيد هوبارت الى وزارة الحرب في آذار (مارس) ١٩٣٧ . وتم تعيينه لاشغال المنصب الذي تكون حديثاً (وهو منصب نائب المدير لهيئة الخدمات) (فرع المركبات المقاتلة المدرعة) التابع لهيئة الاركان العامة . وطالب فور استلامه لواجباته بتشكيل هيئة للبحوث برئاسة رئيس هيئة الاركان العامة وذلك لمناقشة المواصفات المطلوبة وتقريرها . وقد نال اقتراحه موافقه القيادة ، وعقد اجتماع الهيئة في منتصف شهر نيسان (ابريل) لمشاهدة نموذج خشبي للدبابة المتوسطة المقترحة ، وتقرير ما اذا كان بالامكان تبنيها واعتمادها . وقد تمت الموافقة على المواصفات ، ولكن « أليس » أحبط المشروع عندما قال (بانه لا يمكن صنع مثل هذا النموذج بسرعة ، وانه ستنقضي فترة سنتين او ثلاث سنوات قبل ان نصل الى مرحلة انتاجها) وكان على استعداد لقبول النموذج الجديد للدبابة المتوسطة على أساس العمل (للمدى البعيد) . ثم عاد للتساؤ ل من جديد (عما إذا كان من الأفضل وضع عدد كبير من البيض في سلة واحدة غالية الثمن) .

عقد اجتماع جديد في منتصف شهر حزيران (يونيو) قررت فيه اللجنة البدء بمراحل التجربة اعتباراً من منتصف شهر تموز (يوليو) للمفاضلة بين ثلاثة نماذج لا زالت باقية منذ عهد بروغ . وقد تم بعد التجارب انتقاء واحدة (هي الدبابة أ/ ٩ » وطلب صناعة خمسين دبابة منها . ثم ناقشت الهيئة موضوع الدبابة المتوسطة للمستقبل ، وتمت الموافقة على البدء بصنع نماذج تجريبية . ولكن فترة الإجازات الصيفية تدخلت فأعاقت العمل ، وهكذا لم يأخذ التصميم النهائي شكله حتى شهر تشرين الأول (اكتوبر) - وضاعت سنة من عمر الزمن اعتباراً من وقت وضع المواصفات . وقد كان ذلك التقدم البطيء محبطاً للآمال .

* * *

كان ذلك هو الموقف في أيار (مايو) من عام ١٩٣٧ ، أي قبل ثلاثة أعوام من الشهر الذي انهار فيه دفاع الغرب أمام اختراق حرب الصاعقة لقوات هتلر . وقد كان التحرك البطيء في تطوير الدبابات البريطانية وانتاجها هو احد الظواهر البارزة جداً والتي اعاقت عمل السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية واعادة التسلح على امتداد السنوات الأربع التي انقضت منذ تسلم هتلر السلطة في المانيا مع بداية عام ١٩٣٣ . .

لقد تم تتويج التأخير في بذل الجهد من أجل استرداد التخلف الدفاعي ومن اجل ايضاح السياسة الدفاعية كأساس للتخطيط وذلك في نهاية ايار (مايو) ١٩٣٧ عندما تم التخلي عن ستانلي بالدوين في اللحظة الأخيرة ليحل محله نيغيلل تشامبرلان كرئيس لمجلس الوزراء . وكان من أبرز التغييرات التي جاء بها تشامبرلان عند تشكيل حكومته ، تعيين وزير جديد للحرب ـ وكان ذلك متوقعاً بحسب ما جاء في رسالة جيوفري داوسون التي بعثها لي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام الماضي . وقد اختار تشامبرلان لهذا المركز « ليسلي ـ هو ـ بيليشا » الذي كان قد أظهر عقلية اصلاحية وقدرة خلال توليه لوزارة النقل .

لم أكن قد قابلت ـ بيليشا ـ في الماضي ابداً ، لكن دوف كوبر أمسك فوراً بالمبادأة عندما جمعنا معاً . وسرعان ما نمت تلك العلاقات الاستشارية التي عهدها دوف كوبر وتحولت الى أوثق اتصال مع خلفه ـ فكان اللقاء يتم في كل يوم تقريباً للمناقشة والتشاور ومتابعة الجهد العاجل لاعادة تنظيم بنية الجيش وجعله قادراً على مجابهة الاخطار المتعاظمة للحرب .

كانت المشكلة اكثر تعقيدا مما كانت عليه في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى . إذ كان على بريطانيا الآن أن تقدر موقفها وأن تحسب حسابها على أساس الأخطار في ثلاث جبهات ، جبهة أوروبا في مواجهة المانيا ، وجبهة الشرق الأوسط في مواجهة ايطاليا ، وجبهة الشرق الأقصى في مواجهة اليابان . وزيادة على ذلك فقد أثر تطور القوات الجوية تأثيراً عميقاً على القدرة العملياتية سواء بالنسبة لسيادتها البحرية المطلقة ، أو بالنسبة لاستخدام جيشها .

كانت هناك ظلمة . وكان التهديد بالخطر متوقعاً ومائلاً أمام كل من له عينان يبصر بهما . وكان هناك الكثير مما يجب عمله . ولكن لم يكن هناك سوى قليل من الوقت .

□ حواشي البداية والنهاية □

١) الفيلد مارشال سير سيريل دوفريلل CYRIL-DEVERELL ، خلف مونتغومري مسينغبورد في قيادة هيئة الاركان العليا

٢) توفي الملك جورج الخامس في شهر كانون الثاني (يناير) وخلفه اكبر ابنائه الذي اصبح الملك ادوارد الثامن ولقد تقرر اقامة حفلات التتويج في شهر ايار (مايو) ١٩٣٧ ، ولكن الملك الجديد تنازل عن العرش في شهر كانون الثاني (ديسمبر) ١٩٣٦ على اثر اصطدامه بالوزارة نتيجة لرغبته بالزواج من السيدة واليس وورفيد سيمبسون

٣) انظر الفصل الثاني عشر

٤) عن طريق الاردين

٥) اعاد رئيس التحرير نشر الفصل الاول (السياسة الخارجية) وطرح فيه حجتي بشأن موضوع الامن الاجماعي

٦) لعل مما تجدر ملاحظته هو ان المدفع من عيار ٢ رطل « ٤٠ مم » كان مميزاً بقدرة اختراق تعادل قدرة المدفع ٥٠ مم والذي اعاد الألمان تسليح دباباتهم المقاتلة به في عام ١٩٤١ وكنت قد اقترحت منذ عام ١٩٢٠ ان تسلح الدبابات المقاتلة في المستقبل بمدافع اكبر ولتكن من عيار يعادل ١٨ رطلاً او ٧٥ مم من مدفعية الميدان وكنت في طليعة المقدرين لميزات مدفع ٢ رطل والذي أصبح موضع السخرية في السنوات الأخيرة ، ذلك ان عددا كبيراً من القادة الذين وصفوا بتهكم وهزء ذلك المدفع باسم (مدفع ـ بو) قد أظهروا فشلهم في إدراك أن قوة اختراق المدفع وقدرته لا تتزايد نسبياً بزيادة عياره ، وان السرعة العالية للمقذوف هي العامل الاكثر اهمية

فهرست

مذكرات ليدل هارت

ليدل هارت ، أعظم الكتاب العسكريين في القرن العشرين على الاطلاق . وأعزرهم إنتاجاً وأعمقهم فكراً . كان له دوره الكبير في تطوير حرب الحركة . وقد رافق تطور الأسلحة الحديثة ، وشهد نتائج استخدامها ووقف محللاً لأحداثها ، متوقعاً تطوراتها ، لا في المجال التكتيكي والعملياتي فقط وإنما تجاوزها إلى أفق الاستراتيجية الرحب .

ان من يطالع مذكرات « ليدل هارت » يشعر يقيناً بأنه يتابع تطورات الحروب ـ لا في القرن العشرين فقط ، وإنما يشعر وكأنه يطالع (فن الحرب عبر العصور) فهو ينظر إلى الأمور من خلال المنظار (الموسوعي) الشامل ولكن هذا الشمول لا يتجاوز الدقائق وإنما يقف فوقها باحثاً ، ومنقباً ، ومستنبطاً ولعل ذلك هو أكثر ما يميز هذه المذكرات .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت



الثمن ٢٠ ل . ل